علم نفس الإلحاد

~~الإيمان~~ الإلحاد مشكلة نفسية

د. عمرو شريف

راجعه وقدم له د. أحمد عكاشة

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

الإلحاد مشكلة نفسية

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ ٢٠١٦م



٦ عمـارات الدفاع الوطنى عمارات القبة ـ القاهرة

Tel : 01092673274

Email: <Nasserahman@hotmail.com>

<Newbooknb@gmail.com>

الإلحاد مشكلة نفسية

علم نفس الإلحاد

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة



نيو بوك للنشر و التوزيع

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

شريف، عمرو.

الإلحاد مشكلة نفسية: علم نفس الإلحاد/ عمرو شريف. ط١. ـ القاهرة: نيوبوك للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م.

٤٤٨ ص؛ ١٧×٢٤سم.

تدمك 978-977-6519039-1-2

١ - الإلحاد والملحدون

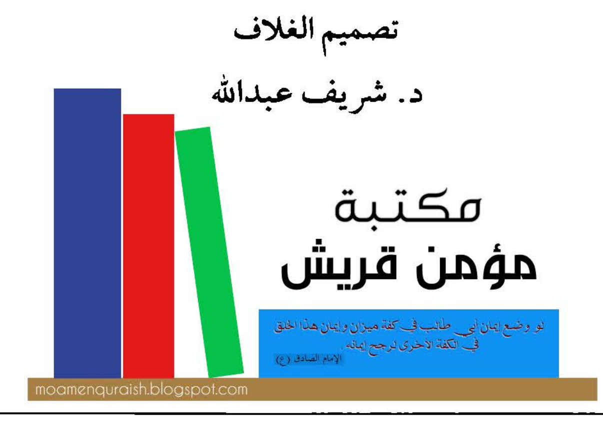
أ- العنوان ٢٤٩

رقم الإيداع ١٦٦٣٣ / ٢٠١٥م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-6519039-1-2-

تصميم الغلاف

د. شريف عبدالله



إهـــــداء

«إلى رجال حملوا على عاتقهم عبء

التصـدى لوهـم الإلحــاد»

د. عمرو شريف



الموضوع | **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع: حرية الإرادة الإنسانية

تقديم د. أحمد عكاشة

بعد مناقشات متقطعة عميقة حول موضوع الإلحاد مع الصديق العزيز وتلميذى النابغة د. عمرو شريف، الذى صار رئيسًا لأقسام الجراحة بالجامعة، زادت غبطتى عندما طلب منى مراجعة وكتابة مقدمة لهذا الكتاب القيم، وقد ناقش فى كتابه ما دار بيننا من حوارات حول مشكلة الإلحاد، وكنت أظنها عابرة، ولكنى وجدت أنه تذكر كل ما دار بيننا بالتفصيل.

وظاهرة الإلحاد من الظواهر المعقدة التى **تتداخل فيها العوامل الفكرية والنفسية والاجتماعية**. وفيما يتعلق بالجانب النفسى لهذه الظاهرة نجدنا أمام سؤال يطرح نفسه بقوة الآن؛ هل الإلحاد يُعَد اضطرابًا نفسيًّا؟ الإجابة المختصرة أن الإلحاد لم يُدرَج ضمن قائمة الاضطرابات النفسية المرضية. فعلى الرغم من أن علم النفس كان يناقش الأديان لكنه **لم يتعرض يومًا لدراسة نفسيّة الملحد**؛ لأن الكثيرين من علماء النفس كانوا ملحدين. ومن أهم من تَعَرَّض لعلم نفس الأديان كانا وليم جيمز وفرويد، لقد كان وليم جيمز فى صف الأديان أما فرويد فكان ملحدًا، وكان يعتبر الدين إشباعًا لرغبة فى الشعور بالأمن ضد قوى الطبيعة، وأحيانًا أخرى إشباعًا لرغبة قديمة قِدَم التاريخ فى أب رحيم، ومن ثم يعتبر فرويد الدين مُفرَزًا حضاريًّا ذا بعد نفسى.

وبالرغم من ذلك، هناك العديد من الدراسات والإحصائيات التى أكدت وجود **خلفية نفسية تربوية للإلحاد**، ويأتى على رأس هذا التيار عالم النفس الشهير **البروفيسور بول ڤيتز**، الذى نشر ورقة بحثية بعنوان «علم نفس الشواذ» قال فيها؛ إن كثيرًا من علماء النفس يتبنون موقفًا معارضًا للدين، ولذلك كانوا يعارضون أية محاولة لتسليط الضوء حول سيكولوجية الإلحاد. وقد سلط كتاب د. عمرو الضوء على هذا الموضوع ووضعه فى بؤرة الاهتمام.

أنواع الإلحاد

هناك أنواع كثيرة من الإلحاد، ولكل نوع شكله الخاص وعوامله المختلفة. فمثلًا، هناك «**الإلحاد المطلق**» وهو إنكار الألوهية وما يتفرع عنها من رسل ورسالات، وهناك ما هو أقل مثل «**الإلحاد الجزئى**» من خلال الاعتراف بوجود إله خالق مع إنكار تصرفه وسيطرته على شئون البشر، وهناك أنواع أخرى مثل «**اللاقدرية**»، و«**العدمية**» وهى اليأس من عدالة الأرض والسماء والشعور باللاجدوى، وكذلك «**الإلحاد العابر**» فى مرحلة من مراحل العمر وخاصة المراهقة والشباب، و«**الإلحاد الباحث عن اليقين**»، وهناك «**الإلحاد الانتقامى**» الموجه ضد رمز أو رموز أو ممارسات دينية مكروهة أو مرفوضة، وأخيرًا «**الإلحاد التمردى**» من خلال التمرد على السلطة أيًّا كان نوعها.

لهذا، نجد أن الكثير من حالات الإلحاد لدى الشباب **لا تُجدى معها الحوارات الدينية ولا تقديم الأدلة والحجج والبراهين**؛ لأن الأصل فى المشكلة ليس دينيًّا أو عقليًّا، وهو ما يجعل الملحد يكثر من الجدال؛ لأنه **يبحث عن تحقيق انتصار** على الرموز الدينية التى يكرهها وعلى المجتمع الذى يرفضه وعلى السلطة التى يتمرد عليها. وقد يرفض الملحد أية أدلة على الألوهية؛ لأن إلحاده يحقق له ذيوع الصيت بين أقرانه.

أسباب الإلحاد وعوامل انتشاره

لعل من أهم العوامل والدوافع النفسية وراء الإلحاد **الأب** القاسى والضعيف وعدم وجود الأب. وأيضًا **التشدد الدينى**؛ حيث يكون الفرد شديد الخوف من الله، فى الوقت الذى يكون فيه **متعطشًا لارتكاب المحرمات**، ولكى يعصى الله دون تأنيب ضمير، يقنع نفسه بأن ليس هناك إله وأن هذه خرافات. ومن دوافع الإلحاد النفسية **أيضًا الإحساس بالنقص**، حيث يكره الإنسان نفسه بسبب عيب ما فى خلقته، فيكون إلحاده بمثابة اعتراض على خالقه.ومثل ذلك **الاضطهاد الذى تعانيه المرأة** باسم الدين، فهو شرارة البداية التى جعلت كثيرات من النساء يتركن الدين، ويتساءلن عن مدى صحته أو ملاءمته ويَشُكُّون فى عدل الإله. وهناك أيضًا **الغرور المعرفى والثقافى**، الذى قد يقود الإنسان إلى الانحراف الفكرى والإلحاد. وكذلك **سطوة الشهوات**، حين لا تكون سببًا مستقلًا وحدها، ولكنها بمنزلة المحفز للجوء لخيار الإلحاد، كى يهرب الإنسان من وخز الضمير.

وأحيانا تجد الإلحاد وقد أصبح لدى البعض **مجرد موضة ومراهقة فكرية أو وسيلة للفت أنظار الآخرين واستعراض العضلات!!** وغالبًا ما تجد هذا التوجه عند الأشخاص محبى الظهور والبروز ولفت النظر.

وهناك عوامل أخرى تساعد على **انتشار الظاهرة**، منها ارتفاع نسبة الجهل، والتخلف الاقتصادى والسياسى والتنموى، وأيضًا اقتران القوة المادية بالإلحاد، كذلك يرى البعض فى الإلحاد سببًا للقوة والعلم، ويعتبر أن الدين يعنى التخلف والجهل.

وقد كَشَفَت مواقع التواصل الاجتماعى المتعددة الكثير من هذه العلل النفسية، بعد أن وفرت لهؤلاء الشباب المغرر بهم مساحات كبيرة من الحرية أكثر أمانًا للتعبير عن آرائهم ووجهة نظرهم فى رفض الدين، بعيدًا عن التابوهات التى تخلقها الأعراف الدينية والاجتماعية. وقد رصدت هذه المواقع تصريحات لعدد من الشباب الذين أكدوا أنهم لا يعارضون الدين ولكنهم يرفضون استخدامه كنظام سياسى، داعين إلى فصل الدين عن الدولة، فى حين رفض فريق آخر منهم الدين أو رفض الإله ككل.

ومن أهم أسباب انتشار ظاهرة الإلحاد **الخطاب الدينى المتشدد**، الذى تصدره التيارات الإسلامية المتزمتة التى تؤصل لأهم مشكلات التدين فى العصر الحديث، وهى **إشكالية الصراع بين الجوهر الروحى والخُلُقى** ـ الذى يمثل حقيقة الدين ـ **وبين القشرة الشكلية الخارجية** التى تصلح أمارة وعلامة (فقط) على أن هذا الإنسان ينتمى إلى ذلك الدين ويمارس تلك الشعائر، فهذه التيارات لا تعرف سوى التشبث بالأمور الشكلية التى قد تبعد الناس عن الدين.

وقد ظهر من الدراسات والإحصاءات أن الإلحاد ـ فى السنوات الأربع الماضية ـ قد شهد نشاطا كبيرًا، فقد ظهرت عشرات المواقع الإلكترونية على الإنترنت تدعو للإلحاد وتدافع عن الملحدين.. وهذا لا يتماشى مع الأرقام الضئيلة لأعداد الملحدين، التى أشار إليها مستشار مفتى الديار المصرية نقلًا عن مركز «ريدسى» التابع لمعهد «جلوبال»، والذى يبدو أنه راعى حرص الدول العربية على عدم الإعلان عن أعداد الملاحدة الحقيقية.

ويتهم علماء الاجتماع والنفس **«السياسة»** بأنها مسئولة مسئولية مباشرة عن انتشار ظاهرة الإلحاد خاصة فى مصر والوطن العربى فى الفترة الأخيرة. حيث أصبح من الملاحظ أن البلدان التى شهدت ما عُرف بثورات الربيع العربى هى أكثر الأماكن التى أصيبت بظاهرة الإلحاد، خاصة فى ظل تعثر تلك الثورات التى أُجهِضَت وتم اختطافها بواسطة قوى يمينية أو يسارية

أو نظم قديمة فاسدة تظهر فى شكل جديد، وهو ما جعل **الشباب يكفرون بقيم الحرية والكرامة الإنسانية وإمكانية تغيير مجتمعاتهم إلى الأفضل**، فقد قاموا بالثورات وقدموا شهداءها ثم ضاعت جهودهم، ومن هنا كفروا بكل شىء وتمردوا على كل شىء.

ويشير البعض إلى أن سبب انتشار تلك الظاهرة يرجع بشكل مباشر إلى الحالة العامة التى تعيشها مصر من **انفلات أخلاقى وانتشار التطرف** فى المجتمع، والذى تسبب فى ظهور الكثير من الظواهر الجديدة على المصريين؛ مثل النقيضين: التطرف التكفيرى والإلحاد، وكذلك حوادث التحرش والاغتصاب.

الإلحاد العُصابى

ولا ينبغى أن يغيب عنا كسبب مهم وراء الإلحاد نوع من **الخلل النفسى (العصاب Neurosis)** الذى يؤدى إلى تبنى الإلحاد على المستوى الفردى. فبعد دراسات تحليلية مستفيضة أجراها أستاذ الطب النفسى الكبير بجامعة نيويورك، بول ڤيتز Paul Vitz، على شخصيات عديدة من كبار ملحدى العصر الحديث، توصل إلى أن تبنى الإلحاد قد يرجع إلى خلل نفسى عُصابى Athiesm is a Neurosis تقف وراءه رغبة دفينة فى اللاشعور للتخلص من سيطرة الأب والحلول محله (كما يقول سيجموند فرويد)، بينما يقف وراء الإيمان بإله ما يحققه من الشعور بالأمان. لذلك طرح بول ڤيتز مفهومًا أسماه (منظور التقصير الأبوى Defective father Hypothesis) يربط فيه بين رفض سيطرة الأب البشرى، ورفض الأب الذى فى السماء.

كذلك هناك بعض حالات الإلحاد تكون **مدفوعة باضطرابات نفسية** نذكر منها :

أولًا : اضطرابات الشخصية، مثل **«الشخصية الحَدِّية»** ، وهى شخصية متقلبة فى مشاعرها وعلاقاتها وإنجازاتها ومعتقداتها، وتتميز بالاندفاعية وإيذاء الذات والملل المستمر، ولهذا نجد صاحب هذه الشخصية يتقلب فى معتقداته الدينية؛ فأحيانا تجده متطرفا دينيًّا وأحيانا تجده علمانيًّا أو ملحدًا. ومثل **«الشخصية البارانوية»**، ويتميز صاحبها بالاستعلاء وسوء الظن والشك فى الآخرين واحتقارهم واحتقار معتقداتهم، وهو يستعلى على العامة ويرغب فى أن يأخذ طريقًا خاصًا يتفرد به، كما يستعلى على الإيمان ويمكن أن يستعلى حتى على فكرة الإله الرب. وأيضًا **«الشخصية النرجسية»**، وهى شخصية استعراضية تميل إلى المخالفة لجذب الاهتمام ونيل الشهرة والتمركز حول الذات، لذلك فأصحاب هذه الشخصية يرغبون فى

إعلان الإلحاد والتباهى بذلك ووضع صورهم على صفحات الإنترنت ويرغبون فى الدخول فى مناقشات وجدال يضعهم تحت الأضواء.

ثانيًا: الأمراض النفسية: مثل **الفصام والاضطراب الوجدانى والاضطراب الضلالى واضطرابات التوافق**، وهذه الاضطرابات تؤثر فى تفكير الشخص ومشاعره وعلاقاته بالآخر وبالحياة، وقد تجعله يتوجه إلى اعتناق أفكار مخالفة لعموم الناس. وعلى الجانب الآخر قد تدفع هذه الحالات المرضية صاحبها للتطرف فى التدين كنوع من الدفاع النفسى ضد التفكك أو القلق أو الخوف.

لذلك كله، من المهم أن نفرق بين أنماط ومستويات الإلحاد المختلفة، وأن **ندرس كل حالة على حدة** ونراعى الدوافع الكامنة وراء إلحاد كل شخص، ولا يغرينا وجود عوامل مشتركة بأن نعمم الأحكام على الجميع.

وإذا كان لكل حالة **سيناريو خاص** للتعامل معها، فإن هناك **قواعد عامة فى التعامل مع هؤلاء الشباب**؛ منها التفهم والصبر وطول البال واستبقاء علاقة جيدة رغم الاختلاف، وإعطاء الفرصة للتفكير والتيقن وعدم فرض أفكار سابقة التجهيز؛ لأن المهم هو الاقتناع وليس الإذعان أو التظاهر بإيمان زائف. ولا شك أن العلاقة الطيبة مع الشخص ومساعدته على تجاوز أزماته النفسية والسياسية والاجتماعية تكون أهم من محاولات إقناعه بأدلة دينية وبحجج وبراهين عقلية أو نقلية.

الإلحاد قصور عقلى

إذا كان الإلحاد يدور عموما حول نفى أو إنكار «وُجود الله»، («الله» الذى هو الربّ الخالِق للكون، والمُنْعِم المعبود)، **فهل يَستطيع «العقل» و«العلم» أن يقطعا برأى فى قضية «وُجود الله ﷻ»**؟.

يَميل المَلاحدة إلى أن العقل والعلم ينفيان وجود الإله، ليس لكونهم مُتهوِّرين فكريًّا، بل لأنّهم يَتجاوزون بـ«العقل» و«العلم» نطاقَهما. فـ«العقل» و«العلم» كلاهُما له حُدُوده المعلومة التى زادها البحث المُعاصر تأكيدًا وتوضيحًا، حتى أصبحتْ كل من «**العقلانيّة**» (فى قولها بالأسبقيّة المُطلَقة لـ«العقل») و«**العِلْمانيّة**» (بمُبالَغتها فى تقدير أهميّة «العِلْم») **غير مُمْكِنتَيْنِ إلّا بالنِّسبة لمن لم يُنقِّحوا بعد نسختَهم مِمّا حَصَّلُوه من عُدَّة معرفيّة ومنهجيّة!** فقد غاب عن هؤلاء أن **الإله لا يُستشهد عليه بالحس والإدراك المباشر**، باعتباره غير مادى، ومن ثم **يُستدل عليه بآثاره**؛ تمامًا كالجاذبية والكهرباء، بل وأيضًا كعقل الملحد ذاته!!

لذلك فإننا ننظر إلى الإلحاد باعتباره لعبة عقلية تتم فى القشرة الخارجية للمخ cortex، وهى أشبه ما تكون بتلك اللعبة العقلية التى تطالبنا بأن نثبت أن ١+١=٢، فهذه المعادلة رغم اتفاق عقلاء الأرض على صحتها إلا أن حتى الرياضى والفيزيائى والفيلسوف باسكال العظيم لا يستطيع إثباتها أو نفيها. إنها معادلة تحدٍّ أوردها الفلاسفة فى كتبهم ولم يجدوا لها حلًّا. إن هذا النوع من القضايا لا تجد له حلًّا إلا فى كتب المنطق، فالقضية بديهية ومنتهية كقضية وجود الله ﷻ. إنها ألعاب تافهة مثل لعبة الإلحاد تماما، إذ إن **الوجود الإلهى بديهية عقلية ومفهوم فطرى. ومن ثم فالقضية نفسية فى المقام الأول والأخير، وبحاجة إلى حلول نفسية وإعادة تأهيل، قبل كونها بحاجة إلى حشد حجج أو أدلة أو سياقات معرفية عقلية.**

هل الإلحاد مرض؟

بدأ الحوار مع د. عمرو حول ما إذا كانت الشخصيات الملحدة «**شخصيات مَرَضِيَّة**»، يعانى أصحابها اعتقادًا خاطئًا غير قابل للنقاش ويرفضون سماع الرأى الآخر، وباللغة الطبية كان السؤال: هل الملاحدة يعانون «**ضلال Delusion**»؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغى **تعريف الضلال أولًا**؛ إنه «اعتقاد خاطئ بعيد عن الحقيقة، لا يمكن مناقشته بطريقة موضوعية، وتدور كل حياة المصاب حول هذه المنظومة الضلالية وتصبح محور معاناته»، والضلال يُحتمل أن يكون ضلالًا اضطهاديًّا، أو ضلالًا بالإشارة والتلميح، أو ضلالات الغيرة والخيانة الزوجية، أو ضلالات التوهم الجسدى، أو ضلالات العظمة.......إلخ. ويقع تحت تشخيص **اضطراب الضلالات**؛ الاضطراب البارانويدى (أو الفصام البارانويدى)، وأحيانًا تحدث تلك الضلالات مع الاكتئاب أو الهوس الذهانى والضلالى. ولكن التعريف السابق للضلال لا يشمل التوجهات السياسية أو الدينية، وإلا لاعتبرنا الشيوعية، أو النازية ، أو الفاشية....... وحتى الديمقراطية! ضلالات.........

وعادة ما تتكون الشخصية Personality من سمات traits ومزاج Temperament وأخلاق Character. ومن «**السمات» ما توصف بأبعاد:** الانطوائية ـ الانبساطية، والتوازن العاطفى، وعدم النضوج العاطفى، وكذلك العصابية Neuroticism التى تتميز بالحساسية المفرطة والتعرض للقلق والهلع، وأيضًا الذهانية Psychotocism التى هى الإغراق فى سلوك مضاد للمجتمع سواء الكذب أو القسوة أو السرقة أو الإدمان، وأخيرًا أبعاد التطرف والراديكالية والمحافظة والليبرالية.

معنى ما سبق، أن **الإنسان قد يولد وعنده استعداد للتطرف** يساعد على اعتناقه **لأفكار تطرفية**، ولذا تجد أن الكثير من الملحدين لهم نفس الأفكار، ومثلهم أصحاب التطرف الدينى بأنواعه المختلفة، وكذلك ذوو بُعد الذهانية بما يشتركون فيه من القسوة والقمع والقهر والقتل..... إلخ.

وعادة ما يعانى بعض الملحدين سماتٍ فى الشخصية تجعلهم يميلون **إلى الجنوح للأفكار التى تختلف عن تقاليد غالبية المجتمع**. ولا ننسى أن **كلمة جنون** جاءت فى القرآن الكريم خمس مرات وصف بها الكفار الأنبياء عندما أتوا بأفكار بعيدة عن تقاليد مجتمعاتهم. ومن ثم يعنى الجنون وجود ستار على العقل، وكذلك الجن لوجد ستار على إدراكه.

ويذكر د.عمرو شريف فى كتابه القيم آراء بعض المتخصصين عن **«اضطراب الشخصية الإلحادى Atheism Personality Disorder»**. وأجدنى أفضل تصنيف هذه الشخصيات الإلحادية ضمن **أحد اضطرابات الشخصية** المعروفة والتى تتواجد فى حوالى ٤ - ٥٪ من مجموع أى شعب، وهى **«الشخصية الحَدِّية» Borderline Personality Disorder**، وتتميز بالاندفاعية، وصعوبة التواصل فى العلاقات الحميمة وكذلك الشعور الدائم بالملل والتقلبات المزاجية، والميل إلى إيذاء الذات أو الآخرين، والميل إلى الإدمان والإصابة بنوبات ذهانية (عقلية) أو اكتئابية. وتزيد على ذلك فى النساء اضطرابات صورة الجسم من نحافة أو سمنة.....

ومحصلة الأمر، أن **الطب النفسى لا يعالج الضلالات**، إلا إذا أدت إلى تدهور فى الشخصية والعلاقات الاجتماعية والعمل. ويمكن فى كثير من الحالات تشخيص وجود المرض، ولكن إذا لم يؤثر على مجرى حياة الفرد فلا يصح إطلاقا تعريضه للعلاج النفسانى.

الكتاب الحُجة

كم أعجبنى **تصميم العنوان على غلاف الكتاب؛ «الإلحاد مشكلة نفسية»**، وتحتها شطبٌ لكلمة الإيمان، ذلك أن بعض المتخصصين يعتبرون أن الإيمان هو المشكلة النفسية! ويغضون النظر تمامًا عن الإلحاد، يتمحكون فى مبرراتهم التى سبق ذكرها فى هذه المقدمة.

ويبدأ المؤلف كتابة القيم بجولة مع **«الإلحاد المعاصر»**، الذى بدأ منذ خمسمائة عام بالصراع بين الكنيسة الكاثوليكية والدولة. ثم يُبحر بعمق مع **«العلم والإيمان»**، وقد سبق أن تبنى د. عمرو شريف أن العلم والإيمان يتفقان فى نظرية التطور البيولوجى حيث يؤصل لمفهوم التطور الموجه، وهو توجيه الله ﷻ لتطور جسد الإنسان ثم تميزه بالملكات العقلية واستعمال اللغة.

بعد ذلك يأخذنا المؤلف إلى الباب الذى يُعتبر جوهر الكتاب، ويثبت من خلاله الرأى بأن **«الإلحاد مشكلة نفسية»**، ويتبنى أن يجب تأسيس ما يُسمى بـ **«علم نفس الإلحاد»**، قياسًا على الحديث السائد الآن فى أوساط علم النفس عن علم نفس الإرهاب.

ويتطرق الدكتور عمرو شريف فى الباب الأخير من الكتاب إلى الحديث عن **«حرية الإرادة الإنسانية»**، وهل الإنسان مخير أم مجبر، وهل هو منزوع الحرية وأن القدر حتمى، ومن ثم ينتهى الأمر بموت الإنسان كما يعتقد الماديون، أم لدى الإنسان الإرادة فى إدارة شئون حياته ويحاسب بعدها فى الآخرة. وأرى أن هذا الباب شديد الأهمية كجزء مكمل للكتاب، حتى يُفَوِّت على الملاحدة فرصة الاحتجاج بالحتمية والجبر لإسقاط المسئولية عن أنفسهم فى تبنيهم للإلحاد.

لقد نجح د. عمرو شريف فى أن يجعل كتابه **«موسوعة علمية وفلسفية شاملة»** بمراجع موثقة، عن **الخلفيات النفسية والشخصية والاجتماعية لمشكلة الإلحاد**، وعن أهمية وضع هذه الخلفيات فى الاعتبار عند التصدى **لعلاج المشكلة بالمناقشة العقلانية**، حتى مع هؤلاء الذين يَدَّعون أن العقل والعلم يقفان وراء إلحادهم.

إننى أرى فى هذا الكتاب **إضافة علمية قيمة** لمشكلة الكثيرين، سواء مع الإيمان أو الإلحاد. وأنصح بدراسته كلَّ مَن يريد الاستفادة من **مجادلة التأرجح بين الشك واليقين** وأيضًا بين الإيمان والإلحاد، فعلينا تحمل قدرًا من هذا التأرجح من أجل الوصول للإيمان الصحيح، وأيضًا من أجل تحقيق الصحة النفسية.

أ.د. أحمد عكاشة

أستاذ الطب النفسى بكلية الطب - جامعة عين شمس

رئيس مركز بحوث الصحة النفسية لمنظمة الصحة العالمية

رئيس الجمعية المصرية للطب النفسى

رئيس اتحاد الأطباء النفسيين العرب

الرئيس الأسبق للجمعية العالمية للطب النفسى

ميلاد كتاب

لماذا هذا الكتاب

(١)

كنت أعتقد أننى بإصدار كتابى «**خرافة الإلحاد**»، الذى كان بمثابة الخاتمة لسلسلة من عشرة كتب، قد قمت بدورى تجاه هذه القضية. فقد عرضت فى الكتاب خلفيات نشأة الإلحاد وأسبابه فى العالم وفى بلادنا، كما عرضت سمات الفكر الإلحادى وكيف نتعامل معه.

بعد ذلك تفرغت لكتابى التالى «**الوجود رسالة توحيد**»، بقصد أن أُعَمِّق به المفاهيم الإيمانية، وأُقَـرِّب القارئ من ربى ﷻ، وأنقل إليه كيف يقرأ الوجود تمامًا مثلما يقرأ القرآن الكريم.

وفى نفس الوقت، دُعيت إلى العديد من اللقاءات والندوات وإلقاء المحاضرات وكتابة المقالات حول موضوع الإلحاد، ومع تكرار الطرح **تنبهت إلى غزارة الدوافع النفسية للإلحاد.** عندها رجعت بعقلى إلى حواراتى مع الشباب الملحد فى بلادنا العربية، وانتبهت إلى أن معظمهم لم يكن قد قرأ شيئًا فى الرد على ما يثيره من مبررات عقلية لإلحاده! كما تنبهت إلى أن من طرحوا شبهات حول القرآن العظيم وحول رسولنا الكريم ﷺ لم يكونوا قد طالعوا شيئًا مما كُتب لرد تلك الشبهات!.

أدركت بوضوح أن بعض شبابنا قد اتخذ قرارًا بالرفض فى أخطر قضية فى حياة الإنسان، وهى قضية الوجود الإلهى، **دون أن يبذل الجهد الذى يبذله فى قراءة كتالوج الهاتف المحمول الذى سيشتريه!!**

لم تكن هذه النقطة غائبة عنى أثناء تأليف كتابى «خرافة الإلحاد»، بل إننى بسببها أطلقت على إلحاد الشباب فى بلادنا اسم **«الإلحاد السفسطائى»**. لكن هذا الاسترجاع جعلنى انتبه إلى أننى لم أوف الجانب الأساسى (وهو الجانب النفسى) وراء الإلحاد حقه.

وبدأت أفكر كيف أستوفى عرض هذا الجانب...

(٢)

بينما كنت أعيش أيامى متفكرًا كيف أُوَفِّى الجانب النفسى فى تبنى الإلحاد حقه من الدراسة والطرح، حدث أن كنت أراجع مع الصديق الأستاذ ناصر حسين (صاحب دار نشر نيوبوك الذى نشر كتابى الأخير) بروفات غلاف هذا الكتاب، وفى نفس الوقت كنا نناقش موضوعات بعض الكتب التى تصلح للترجمة والنشر.

سألنى الأستاذ ناصر؛ ما رأيك لو ترجمتَ ونشرنا كتاب عالم النفس بول ڤيتز، الذى يدور حول مفهوم التقصير الأبوى، كسبب نفسى للإلحاد، والذى أشرت إليه فى كتابك رحلة عقل؟. أجبت صديقى بأننى سأبحث الأمر، وربما أضيف إليه كتابين آخرين لعلماء متخصصين حول الخلفية النفسية للإلحاد، على أن **نصدر ملخصًا متكاملًا للكتب الثلاثة فى كتاب واحد باللغة العربية**. عندها ارتاح عقلى للفكرة التى يمكن أن تغطى ما استشعرته من تقصير فى معالجة الجانب النفسى للإلحاد.

(٣)

لم أنم ليلة حوارى مع الأستاذ ناصر، عكفت طوال الليل على محرك بحث جوجل، وموقع أمازون، أراجع الكتب والمقالات والأبحاث التى اهتمت بالجانب النفسى للإلحاد.

فوجئت بأن الموضوع قد استحوذ على قدر كبير للغاية من الاهتمام فى أوساط علم النفس والطب النفسى وعلم الاجتماع. غرقت بين عشرات الكتب ومئات الأبحاث والمقالات،

أطالع ملخصاتها والتعليقات عليها. اخترت عشرة عناوين لكتب إنجليزية وأمريكية لكبار المتخصصين فى هذا المجال، كما قمت كذلك بتنزيل العديد من المقالات والأبحاث.

(٤)

فى صباح اليوم التالى، جمعنى لقاء فى اجتماع مجلس الكلية بالدكتور أحمد عكاشة، انتهزت الفرصة وسألت أستاذى (حجة الطب النفسانى وعلم النفس) إذا كان موضوع الخلفية النفسية للإلحاد يصلح موضوعًا لكتاب باللغة العربية.

أعجبت الفكرة أستاذى كثيرًا وأثنى عليها، ولفت نظرى إلى بعض النقاط المحورية فى الموضوع، ورحب بطلبى أن يراجع الكتاب وأن يقدم له.

فى مساء ذلك اليوم، أرسلت إلى ابنى الأكبر محمد (استشارى الطب النفسانى فى الولايات المتحدة) أطلب منه شراء الكتب العشرة التى اخترتها، خاصة وأنه كان سيعود إلى مصر فى إجازة فى غضون شهر.

عاد محمدٌ إلى مصر محملًا بهديته الثمينة، وكنت أول من أعطانى هديتى، ثم اختلى بى بعد ساعات من وصوله، وفاجأنى بسؤالى عن جدوى إصدار هذا الكتاب، ولماذا فى هذا الوقت؟

دار بيننا حوار طويل، وجدت من المناسب أن أُصَدِّر به هذا الكتاب:

(٥)

تبنى محمدٌ فى حواره معى موقف المعارض لإصدار كتاب عن الخلفية النفسية لتبنى الإلحاد، وبنى اعتراضه على أنه لا ينبغى أن نَصِم فئة من المجتمع بالخلل النفسى، وأن ذلك ـ إن كان صحيحًا ـ سيزيد من صعوبة علاجهم، وأنه كطبيب نفسانى يغار على مرضاه ويجتهد فى أن يدفع عنهم كل ما يمكن أن يؤذيهم.

أجبتُ محمدًا بأننى لم أستقر بعد على رأى نهائى، ولم أَطَّلع على رأى العلم بالقدر الكافى، فأنا لم أدرس الموضوع بعد (فالكتب التى أحضرها كانت لا تزال فى أغلفتها)، وقد يستقر بى الأمر على قلة شأن الجانب النفسى فى تبنى الإلحاد. وبالتالى، قبل أن نتحدث عما يمكن أن يصيب الملاحدة من ضرر إذا كتبنا عن خلفياتهم النفسية، علينا أن نتأكد إن كان لمثل هذه

الخلفيات دور حقيقى أم لا. وإذا كان لهذه الخلفيات دور، فهل يقع ذلك التأثير فى إطار السمات الشخصية الطبيعية، أم أنه يصل إلى مستوى مَرَضِّى، ومن ثم لا أدرى إن كنت سأكتب عن **«علم نفس الإلحاد»** أم **«طب نفس الإلحاد»**، أم **لن أكتب على الإطلاق حول الموضوع**.

أجابنى محمدٌ بأنه لاشك من وجود هذه الخلفيات، **فالخلفيات النفسية تشارك فى تشكيل أي توجه أيديولوجى**، ومن ثم علينا الاهتمام بدراسة ومعالجة العوامل الاجتماعية والأسرية التى أدت إلى تبنى الإلحاد، بدلًا من أن ننسب لأبنائنا هؤلاء ما يمكن أن يسىء إليهم.

وافقتُ محمدًا على **أهمية التنبه للعوامل الاجتماعية والأسرية وراء تبنى الإلحاد**، لكنى خالفته فى رغبته فى إخفاء الدوافع النفسية الإلحادية، انطلاقًا من الرغبة فى حماية شريحة من المجتمع من الفهم المجتمعى الخاطىء للدوافع النفسية للظواهر المختلفة، ومنها الإلحاد. وعللت موقفى هذا بقولى: إن الملاحدة فى الغرب وفى بلادى **صاروا يباهون بإلحادهم**، ويحرصون على إعلان ذلك فى الفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعى، ويؤكدون أن دوافعهم وراء ذلك دوافع عقلية راقية، ويَدَّعون أنهم **هم صفوة المجتمع وأن المتدينين متخلفون فكريًّا**. ولا شك أن ذلك يؤثر فى أفكار شبابنا ويشعرهم بالدونية، وينال من اعتزازهم بتدينهم ويفتح الباب على مصراعيه أمامهم للإلحاد. ولاشك أن واجبنا **أن نحمى أبناءنا من هذا الداء** بدلًا من أن ندافع عن مصدره.

وضربت لمحمد مثالًا **بداء التيفود**؛ إذا علمنا أن بعض الأشخاص حاملون لميكروب المرض، هل نعاملهم كالأصحاء حتى لا نجرح مشاعرهم، أم ينبغى أن **نتخذ حيالهم إجراءات تمنع تفشى المرض**، كألا نسمح لهم بالعمل فى مهن إعداد وبيع الطعام؟

وأضفت؛ أليس من واجبنا تجاه أبنائنا أن **نُفَنِّد لهم دعاوى الملاحدة بالتميز والتفوق، وأن نضعهم فى حجمهم الحقيقى**، حتى لا ينبهروا بأطروحاتهم؟ كذلك، أليس من واجبنا أن ننبه **الآباء والأمهات لدور أسلوب تربيتهم الخطير على المنظومة الإيمانية لأبنائهم وبناتهم؟**

أجابنى محمد: لا شك أنك تدرك **ما تعرض له الشباب من ضغوط نفسية** فى بلادنا فى الفترة الأخيرة، وأن هذه الضغوط كانت من أسباب ظهور هذه الموجة الإلحادية، ولا شك أيضًا أنك تلمس مدى **قصور الخطاب الدينى فى هذه المرحلة**، وكيف كان ذلك سببًا آخر للمشكلة، وبالرغم من ذلك **أراك تعتب على هؤلاء الشباب**.

قلت لمحمد: أنا من الرافضين للقول بالتأثير الجبرى للمقدمات والأسباب، **وأؤمن دائمًا بمسئولية الشخص عما يتبنى من أفكار**، ومن ثم فما ذكرت الآن من أسباب وراء الإلحاد لا يعفى الملاحدة من مسئوليتهم عن موقفهم. بل إن ما تقول يُرَجِّح وجود عوامل نفسية وراء تبنى الإلحاد، وهى عوامل ينبغى التنبه لها وعلاجها.

وفسرت ذلك لمحمد قائلًا: بالرغم من وجود الضغوط النفسية ومن قصور الخطاب الدينى نجد **ردود فعل متباينة بين الشباب**؛ فمنهم من ازداد تدينًا، ومنهم من ظل على حياده، ومنهم من تبنى الإلحاد. فما السبب فى هذا التباين؟ وما الأسباب التى دفعت الشريحة الأخيرة إلى الإلحاد؟ وأضفت قائلًا لمحمد؛ إن دوركم كعلماء وأطباء للنفس أن تتوصلوا إلى الأسباب النفسية التى دفعت البعض لتبنى الإلحاد، وبالفعل قام العديد من علماء النفس وأطبائها عبر العالم ببحث هذه الأسباب باستفاضة. ومن ثم فدورى لن يكون أصيلًا فى هذا الكتاب (إن كُتب له الصدور)، لكنه سيكون **دور الناقل والشارح لكلمة العلم، والذى يحملها للقارئ العربى.**

قال محمد؛ إن الإلحاد موجود فى بلادنا منذ بضعة عقود، **فلماذا نطرح هذا الموضوع فى هذه الأيام؟**

أجبته قائلًا: **لقد فَجَرَ الملاحدة فى العالم وفى بلادنا خلال الموجة الأخيرة!** لم نعد نجد الملاحدة المحترمين! أمثال برتراند رسل وأنتونى فلو ود. إسماعيل أدهم، هؤلاء الذين كانوا يقارعونك الحجة بالحجة، ولا يحجرون على رأيك، ويؤمنون بأن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية. بل لقد أخذ الملاحدة المعاصرون يسبون الإله والدين والمؤمنين، ويسخرون من كل فكر دينى باسم العلم، كما اعتبر هؤلاء الأصوليون أنفسهم حكامًا على عقائد الآخرين، وكهنة ينبغى على البشرية الامتثال لأوامرهم ونواهيهم. لقد أصبحنا نجد الآلاف من أبنائنا ينجرفون وراء هؤلاء الدجالين، فهل نترك أبناءنا للطوفان، أم نحذرهم منهم ونبين لهم عورات نفوسهم؟

إجابنى محمد: أنا لا أوافق على أن نُرجع كل ما يخالف آراءنا إلى خلل عضوى أو نفسى. هل توافقنى أن **نُرجع الإلحاد إلى ما يسميه المتدينون بأمراض القلوب؟**

رفضت العرض الذى عرضه محمد، فأمراض القلوب مفهوم دينى، وأنا عندما **أتحدث** عن الخلفية النفسية للإلحاد لا أطرح مفهومًا دينيًّا، بل أطرح **مفهومًا علميًّا يتبناه كبار علماء**

النفس. **فهل نرفض مفهومًا علميًّا ونُلبسه ثوبًا دينيًّا حتى لا نضايق من فَجَروا فى خصومتهم مع الدين؟!**

وأضفت قائلًا لمحمد: لم يكن المتدينون هم الذين هرولوا للحديث عن الخلفيات النفسية للإلحاد، بل إن البادئين بذلك هم الملاحدة. **ألم يصف هؤلاء الإيمان بأنه توهم**، منطلقين من تفسير فرويد للإيمان بالإله فى ضوء عقدة أوديب؟ وألم يصف ريتشارد دوكنز الإله فى كتابه الأشهر God Delusion أيضًا بأنه توهم؟ إن **سلاحهم هذا ذو حدين**؛ فعندما فتحوا الباب للنظر للخلفيات النفسية للإيمان، فقد أعطوا بذلك لمخالفيهم الحق فى النظر لتبنى الإلحاد من خلال الخلفيات النفسية أيضًا. ومن ثم ليس هناك مبرر لغضب الماديين من طرح قضية الإلحاد على مائدة علم النفس والطب النفسانى.

لقد خرجت من حوارى الطويل مع ابنى محمد (استشارى الطب النفسى) وقد ازددت يقينًا بحاجتنا إلى هذا الكتاب، الذى بَيَّنَت لى دراساتى اللاحقة أنه ينبغى أن يكون حول «**علم نفس الإلحاد**»، فقد تأكد لى بما لا يدع مجالًا للشك أن «**الإلحاد مشكلة نفسية**».

وها هو الكتاب بين يديك قارئى الكريم.....

بنية الكتاب ومسار الرحلة

تشتمل رحلتنا مع هذا الكتاب على ثلاثة عشر فصلًا فى أربعة أبواب.

يشتمل الباب الأول «**الإلحاد المعاصر**» على فصل واحد؛ «**جولة مع الإلحاد**»، نعرض فيه تعريفًا بالإلحاد وسماته، وبظروف نشأته فى العصر الحديث.

ثم يأتى الباب الثانى بعنوان «**علم نفس الإيمان**»، ونعرض فى الفصل الثانى «**الماديون والإيمان**» التفسيرات المادية التى يقدمها الماديون لنشأة مفهوم الألوهية وظهور الأديان. ثم نعرض فى الفصل الثالث «**العلم والإيمان**» دحضًا للمفاهيم المادية التى طرحناها فى الفصل الثانى، كما نعرض فيه الآليات البيولوجية لمنظومة الإيمان كما بينها العلم.

ويتكون الباب الثالث «**علم نفس الإلحاد**» من سبعة فصول. فنعرض فى الفصل الرابع من الكتاب تحت عنوان «**الإلحاد مشكلة نفسية**» الأسباب النفسية وراء تبنى الإلحاد، ونُفرد لعرض دور علاقة الصغار بآبائهم الفصل الخامس تحت عنوان «**نظرية التقصير الأبوى**». ثم نعرض

دور العوامل الشخصية فى الفصل السادس تحت عنوان «**الإلحاد مشكلة شخصية**». ونعرض فى الفصل السابع «**علم نفس مجتمع الإلحاد**» دور المفاهيم المجتمعية فى نشأة الإلحاد المعاصر.

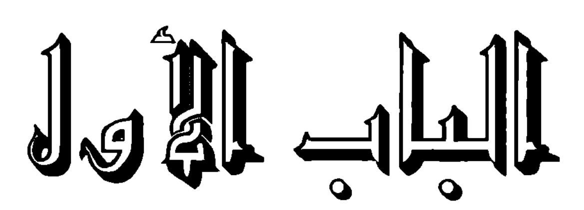
وبعد دراسة الأسباب النفسية المختلفة وراء تبنى الإلحاد فى الفصول الأربعة السابقة، نحدد فى الفصل الثامن ملامح «**النموذج المعرفى للإلحاد**»، ونتبعه بفصل «**ماذا يقول الملاحدة - دراسات ميدانية**» الذى نوثق فيه دور العوامل النفسية التى ناقشناها آنفًا من خلال استطلاع آراء الشباب عن طريق دراسات ميدانية مُحكَّمة. ونختم الباب الثالث بالفصل العاشر بعنوان «**الإلحاد فى بلادنا**»، نقوم فيه بجولة تاريخية مع نشأة الإلحاد فى العالم الإسلامى، ثم نعرض سمات إلحاد الشباب فى بلادنا، وهو الإلحاد الذى سادت فيه العوامل النفسية الذاتية وغابت عنه العوامل الموضوعية، فاستحق أن يُوصَف بالإلحاد السفسطائى.

ولما كان تأكيد دور العوامل النفسية، خاصة التربوية، يمكن أن يفتح الباب لنفى المسئولية العقلية والأخلاقية عمن يتبنى الإلحاد بدعوى الجبر وحتمية الأسباب النفسية، كان لزامًا أن يأتي الباب الرابع والأخير من الكتاب لنفى شبهة الجبر والحتمية وتأكيد دور «**حرية الإرادة الإنسانية**». وقد قمنا بذلك من خلال الفصل الحادى عشر بعنوان «**مجادلة الحرية والحتمية**» الذى عرضنا فيه الأبعاد الفلسفية للمجادلة. ثم أثبتنا مفهوم الحرية الإنسانية من خلال نظرة علوم النفس والأعصاب والبيولوجيا، وذلك فى الفصل الثانى عشر تحت عنوان «**العلم بين الحرية والحتمية**». ونستكمل طرح مفهوم حرية الإرادة الإنسانية من خلال معالجة القرآن الكريم لقضية الجبر والاختيار، وقد قمنا بذلك من خلال الفصل الثالث عشر والأخير من الكتاب تحت عنوان من كلمتين يلخص محتوى الباب كله، وهو «**عبدٌ مُخَيَّر**».

أتمنى أن نكون قد استوفينا بهذا الكتاب الجانب النفسى من قضية الإلحاد، ونكون بذلك قد استكملنا جانبى القضية؛ الجانب النفسى والجانب المعرفى، الذى سبق أن تناولناه فى كتابنا «**خرافة الإلحاد**».

وأتمنى لك قارئى الكريم قراءة مثمرة ممتعة.





الإلحاد المعاصر

الفصل الأول

جولة مع الإلحاد

- **ـ ميلاد الإلحاد المعاصر**
  - ـ تبدأ القصة منذ عدة قرون
  - ـ العلم يخرج من القمقم
  - ـ نيوتين ولابلاس وآلية العالم
  - ـ الإلحاد يطل برأسه
  - ـ الإلحاد مشكلة نفسية
- **ـ الفكر الإلحادى المعاصر**
  - ـ يتبنى الفكر الإلحادى المعاصر عدة مفاهيم
  - ـ ينقسم الملحدون إلى أربع مجموعات
  - ـ يتمايز الفكر الإلحادى إلى مستويين
  - ـ مصطلحات تتردد فى مجال الإلحاد
  - ـ هل شاع الإلحاد؟
- **ـ الفلسفة الإلحادية المعاصرة**
  - ـ الفلسفة الوضعية المنطقية
  - ـ عودة الوعى والتدين العقلانى
  - ـ الإلحاد الجديد
  - ـ أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد
- **ـ منهج الملاحدة الجدد**
  - ـ وسائل الإزعاج
  - ـ رسم الخطط : البديل عن الإله
  - ـ هل من جديد عند الملاحدة الجدد؟
  - ـ ما كل هذا الحقد ضد الإله والدين، وضد الإسلام!
- **ـ متتالية الفكر المادى، الحضارة المادية، ثم الإلحاد**
  - ـ الحضارة المادية
  - ـ العقل المادى
  - ـ الفكر المادى
- **ـ القارئ الكريم**

«تؤكد النظرة المتأملة لميلاد الإلحاد المعاصر
أنه كان إفرازًا لعوامل نفسية عديدة، لم تدع
للأسباب العلمية والمنطقية إلا هامشًا صغيرًا».

تعلمنا فى صغرنا أن كفار مكة الذين بُعِثَ فيهم رسول الله ﷺ برسالة الإسلام كانوا ينكرون وجود الله ﷻ. ولَمَّا شَبَبتُ عن الطوق واقتربتُ من فهـم القرآن الكريم علمتُ أن معظم الكفار كانوا يُقرون أن الله ﷻ هو خالق الكون والحياة والإنسان[1]، لكنهم كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى، وإنهم بعبادتهم لأصنامهم كانوا يتقربون إليه سبحانه وتعالى[2]. أما إنكار الوجـود الإلهى ـ كما يفعل الملاحدة المعاصرون ـ فقد كان نادرًا قبل العصر الحديث، حتى يمكننا القـول إن الإلحـاد المعاصر صناعة أوروبيـة حديثة.

دارت هذه الأفكار فى خاطرى وأنا أبحث فى نشأة الإلحاد المعاصر وجذوره، فما الذى أدى إلى التردى من كفر إلى كفر أكبر؟

فلنتابع الرحلة من بدايتها:

---

(١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (٢٥)﴾ [لقمان]. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾[الزخرف].

(٢) ﴿...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... (٣)﴾ [الزمر].

ميلاد الإلحاد المعاصر

تبدأ القصة منذ عدة قرون[1]

حتى خمسمائة عام مضت، كان المصدر الأساسى للمعرفة فى أوروبا هو الكتاب المقدس بعهديه (العهد القديم، والعهد الجديد)[2]، كما تبنى رجال الدين فى الكنيسة الكاثوليكية آراء **أرسطو وبطليموس العلمية** حول الكون وكوكب الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعى...، وألحقوها بمفاهيمهم المقدسة.

بناءً على هذه المصادر، **كَوَّن إنسان العصور الوسطى فى أوروبا صورة عن العالم**، هى:

١- **تقف الأرض ثابتة فى مركز الكون**، وتدور الشمس والقمر وبقية الكواكب حولها فى دوائر.

٢- **خَلَقَ الإله العالَمَ عام ٤٠٠٤ ق.م**. واستنتج الكهنة هذا التاريخ من جَمْع أعمار الأجيال المتتابعة من أبناء آدم كما جاءت فى التوراة فى سفر التكوين.

٣- سوف تكون نهاية العالم (أى يوم القيامة) فى تاريخ ليس ببعيد، **عام ٤٠٠٤ ميلادية**. وذلك لكى تتوسط حياة المسيح تاريخ العالم.

٤- خلق الإله العالم فى لحظة ما فى الماضى، تمامًا كما يبنى البشر المنازل ويصنعون الآلات والأثاث. والفارق الوحيد هو أن الناس تصنع ما تصنع من مواد موجودة سَلفًا.

٥- يسير العالم طبقًا لخطة إلهية مُحكمة؛ **فكل شىء فى الكون له هدف وغاية (الغائية)**. فقد خُلقت **الشمس** كى توفر النور للإنسان خلال النهار، بينما **يُزَوِّده القمر** بالضياء ليلًا، كذلك **يظهر قوس قزح لِيُذَكِّر** الإنسان بوعد الله للنبى نوح بألا يُدَمِّر الجنس البشرى مرة أخرى عن طريق الطوفان. وإذا كانت هناك **أشياء مقززة**، كالحشرات والثعابين والقاذورات، **فهى عقاب للإنسان على خطيئته الأصلية**، حين عصى آدم ربَّه وأكل من الشجرة.

وفى النهاية، لا يمكن لعقل الإنسان الكشف عن جميع أسرار الخطة الإلهية. ولكن عليه أن يثق كل الثقة بأن لكل شىء غرضًا.

---

(١) عن مقدمة كتاب «الدين والعقل الحديث» للفيلسوف الأمريكى والتر ستيس، المنشور بالعربية عام ١٩٩٨، ترجمة أستاذ الفلسفة الدكتور/ إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولى.

(٢) **العهد القديم** هو كتاب اليهود المقدس، ويشتمل على ٣٩ سفرًا. واعتُبر أيضًا الجزء الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين. وتُشكل توراة موسى أول خمسة أسفار من العهد القديم، وأولها سفر التكوين الذى يحكى قصة الخلق من بدايته حتى وفاة نبى الله يوسف عليه السلام. **ويشتمل العهد الجديد عند المسيحيين** (٢٧ سفرًا) على الإنجيل (الأناجيل الأربعة لحوارى المسيح عليه السلام) ثم أعمال الرسل، ثم رسائل الرسل وأهمها رسائل بولس، ويُختَم برؤيا يوحنا اللاهوتى.

٦- **يمثل العالم نظامًا أخلاقيًا**، وهذه فكرة بالغة الأهمية فى التاريخ العقلى والروحى للجنس البشرى. وهى تعنى أن القيم الأخلاقية (كتحديد الخير والشر) مطلقة يحددها الإله، وليست نسبية تعتمد على رغبات البشر ومصالحهم ومشاعرهم.

٧- يقف وراء ذلك كله **إله خالق**، له أفكار وتصورات، وربما انفعالات وعواطف أيضًا.

٨- **رجال الكنيسة هم الواسطة بين الإله وبين الناس فى قبول التوبة والحصول على الغفران ودخول الجنة.**

لقد أعطت الهيمنة على الدين والعلم رجالَ الكنيسة القوة، متمثلة فى **السلطة والثروة**. ولقرون طويلة مارست الكنيسة الكاثوليكية فى روما سلطتها على شعوب أوروبا وحكامها، حتى إن باباواتها كانوا يُنَصِّبون الملوك ويعزلونهم. ولما كان الشعور الدينى شعورًا فطريًا، **تَقَبَّل الناس هذه الهيمنة**، وضحوا بحريتهم وأموالهم لصالح رجال الدين[1].

العلم يخرج من القمقم

يؤرخ المؤرخون لنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث بصدور كتاب «حول دوران الأفلاك» لكوبرنيكوس. لقد وقعت الطامة الكبرى (من وجهة نظر الكنيسة) عندما أعلن **كوبرنيكوس**[2] (بحساباته الرياضية) ثم أثبت **جاليليو**[3] (بتليسكوبه) أن **الأرض ليست مركز الكون**، بل هى مجرد كوكب تابع يدور حول الشمس. لقد دفعا ثمنًا غاليًا لعلمهما وشجاعتهما؛ إذ تبنت الكنيسة حملة شعواء لاضطهاد وتعذيب وقتل العلماء باعتبارهم من السحرة والمشعوذين.

كذلك كان اكتشاف **الميكروسكوب** (عام ١٥٩٥) صدمة كبيرة؛ إذ مَكَّن العلماء لأول مرة من رؤية الجراثيم، التى ثبت فيما بعد أنها المسئولة عن كثير من الأمراض. كيف ذلك؟! أليس الله (أو الشيطان) هو الذى يُنزل الطاعون والأوبئة بالبشر؟ كيف تستطيع إذًا صلوات رجال الدين (مدفوعة الأجر) أن تشفى الأمراض؟!

(١) يتكرر هذا النمط من سيطرة رجال الدين على العامة والحكام عبر التاريخ. فقد كان المصريون القدماء ينظرون إلى ملوكهم الفراعنة باعتبارهم آلهة، وينظرون إلى الكهنة باعتبارهم حلقة الوصل بين الناس وبين الآلهة فى الأرض وفى السماء، وبمجرد أن حاول أخناتون تحدى سلطة رجال الدين قتلوه ونَصَّبوا توت عنخ آمون كفرعون وإله بدلًا منه!

(٢) Copernicus: (١٤٧٣ – ١٥٤٣)، فلكى بولندى، نشر نظريته عن مركزية الشمس فى كتابه De revolutionbus Orbium Coelestium الذى صدر يوم وفاته.

(٣) Galileo Galilei: (١٥٦٤-١٦٤٢)، عالم الفلك الإيطالى الشهير.

نيوتن ولابلاس[1]... وآلية العالم

بلغت الجهود العلمية ذروتها بفضل عبقرية إسحق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) التى أتمت إرساء أسس العلم الحديث. لقد **كان نيوتن مسيحيًّا ورِعًا**، ولا شك أنه كان سيصاب بالهلع لو علم أن إنجازاته العلمية سوف تُقوِّض أركان الإيمان الدينى فى الغرب.

لقد توصل نيوتن إلى **قوانين الحركة الثلاثة الشهيرة، وكذلك قانون الجاذبية**. كما وصف بِدقة - فى ضوء هذه القوانين - بنية المجموعة الشمسية (الشمس والكواكب الدَّوَّارة حولها). وهى نفس القوانين التى تصف سقوط التفاحة من الشجرة، كما تصف ما يحدث إذا تصادم قطاران.

لذلك شَبَّه الفيزيائيون النظام الشمسى (كما وصفه نيوتن) **بالساعة الزنبركية**، التى تُملأ ثم تُترك لتعمل تلقائيًّا. إن قوة الجاذبية وقوة الطرد المركزية وقوانين الحركة كفيلة بالمحافظة على عمل النظام الشمسى **دون التدخل من قوى خارجية**.

انتشرت فكرة **آلية العالم** انتشار النار فى الهشيم، فقام العلماء والفلاسفة فى أوروبا بتفسير كل شىء من خلال منظور الآلية. حتى إن توماس هوبز[2] (فيلسوف الإلحاد البريطانى الشهير) شَبَّه **أجهزة جسم الإنسان** بمجموعة من الآلات التى **تحكمها القوانين الفيزيائية**.

وقد لاحظ نيوتن **اختلافًا طفيفًا** بين ما ينبغى أن تكون عليه مدارات الكواكب كما تحددها حساباته، وبين المدارات الفعلية التى يرصدها التليسكوب[3]. وإذا **تراكمت** هذه الفوارق مع مرور الزمن، فسينقلب النظام الكونى رأسًا على عقب؛ فقد تغوص الكواكب فى الشمس، أو تفلت من قبضتها وتندفع فى الفضاء الكونى السحيق.

تجاوز نيوتن هذا الإشكال بأن اعتبر أن **الإله يتدخل من وقت لآخر ليُعدِّل مسارات الكواكب!** لقد كانت هذه آخر مرة يطرح فيها عالِم عظيم فكرة تدخل قوى غيبية كتفسير لظاهرة طبيعية.

ثم أثبت الفلكى الفرنسى **ماركيز لابلاس** (١٧٤٩ - ١٨٢٧) أن الانحرافات التى عجز نيوتن عن تفسيرها بالقوانين الطبيعية **ليست تراكمية**، بل إنها تلغى بعضها بعضًا بعد فترة من

(١) التعريف بهما آخر الفصل.
(٢) التعريف به آخر الفصل.
(٣) يظهر هذا الاختلاف بشكل واضح فى مدار كوكب عطارد.

الزمان، وبالتالى **لا تحتاج إلى تدخل إلهى لتصحيحها**. لذلك أجاب «**لابلاس**» نابليون عندما سأله عن دور الإله فى النظام الكونى بأنه لا يرى حاجة للقول بهذا الافتراض!!. ولذلك أيضًا صرنا نتحدث عن «**حتمية لابلاس**» التى تعنى أن الكون يخضع بشكل تام لقوانين الطبيعة.

الإلحاد يطل برأسه

لكن، كيف تسببت هذه الاكتشافات العلمية (وغيرها كثير) فى الصراع الذى نشب بين العلم والدين فى أوروبا؟.

لم يكن الصراع بين العلم والدين **بسبب اكتشافات «مُعَيَّنة» للعلم تعارض معتقدات «مُعَيَّنة» للدين**. كذلك فإن المفاهيم التى كان على الكنيسة أن تتخلى عنها، أمام طوفان العلم، لم يكن منها ما هو ضرورى للدين. فأساسيات الدين تتلخص فى ثلاث نقاط، نطلق عليها «**النظرة الدينية للعالم**»:

١- هناك **إله** خلق الكون.

٢- هناك **خطة** كونية **وغرض** كونى للخالق من الخلق (**الغائية**).

٣- يمثل العالَم **نظامًا أخلاقيًّا** يحدده الإله.

ومن المؤكد أنه منذ بداية الثورة العلمية فى القرن السابع عشر ـ وحتى الآن ـ **لم يظهر اكتشاف علمى واحد ولا فكرة منطقية تتعارض مع هذه الأساسيات، التى لولاها لانهدم الدين.**

ومع ذلك، فإن الثورة العلمية كان لها بالفعل أثر مدمر للمسيحية فى أوروبا؛ إذ أعقبتها مباشرة **نزعة شَكِّيَّة إلحادية كبرى**، جعلت من القرن الثامن عشر أكبر عصر للشك فى التاريخ الحديث، حتى إن ملك إنجلترا كان يشكو أن نصف أساقفة كنيسته ملاحدة!

كيف أدت الثورة العلمية إلى زلزلة النظرة الدينية للعالم، بالرغم من أنه سواء كانت الأرض هى مركز الكون أو كانت مجرد تابع صغير يدور فى فلك الشمس، فإن ذلك **لا يمنع وجود إله خلق كل شىء** ؟ كذلك لن نكون أكثر صدقًا وأمانة وأشد إخلاصًا وعدالة (**النظام الأخلاقى**) لو تمسكنا بقانون الحركة عند أرسطو، ولم نستبدله بقوانين الحركة عند نيوتن؟!

الإلحاد مشكلة نفسية

نؤكد عن يقين أن نشأة هذه النزعة الشَّكية الإلحادية الكبرى وإنكار أساسيات النظرة الدينية لم تكن مشكلة علمية على الإطلاق، بل كانت مشكلة نفسية فلسفية[1]! ترجع إلى عدد من العوامل النفسية أهمها:

أولًا: لا شك أن ما تَعَرَّضَ له العلماء من اضطهاد وتنكيل على يد الكنيسة، قد أدى إلى تبنى العلماء والمفكرين موقفًا عدائيًا من الدين، انعكس على موقف العامة.

ثانيًا: إذا كان نيوتن قد رجع بعلاقة الإله بالكون إلى وقت خلق النظام الشمسى، وترك له دورًا يتمثل فى تعديل مدارات الكواكب من حين لآخر، فقد ألغى لابلاس قيام الإله بأى دور كونى. وبذلك تلاشت نظرة الكنيسة بأن الإله خلق الكون منذ ستة آلاف سنة، وأنه خلق جدنا آدم بيديه، تلك النظرة التى كانت تعنى أن العلاقة قريبة وأن الإله يهتم بنا كثيرًا.

كذلك كان الشعور بقرب الإله يغذيه الإيمان بالتدخل الإلهى المباشر فى حياة البشر، فالصواعق تبيد أعداء الدين، والزلازل تعاقب العصاة. لكن التفسيرات العلمية لمثل هذه الظواهر لم تدع مجالًا لهذا الشعور.

ثالثًا : نجح العلم فى تفسير الظواهر الطبيعية بآليات لا تحتاج للبحث عن غاية أو هدف. كما نجح فى التنبؤ بالظواهر الطبيعية، كالخسوف والكسوف والعواصف. وقد قدم ذلك خدمات مباشرة للإنسان، فأصبح مثلًا يتحاشى الإبحار فى يوم محدد تفاديًا لهيجان متوقَّع للبحر؛ لذلك اقتنع الإنسان بسذاجة تفسيرات رجال الدين ونبوءاتهم.

رابعًا : اعتقد رجل عصر العلم أن نجاح التفسير المادى للظواهر الطبيعية واختفاء الغائية عن أحداث الكون، يعنى اختفاء الغائية من خلق الكون ككل.

خامسًا : عندما لم يعد للإله غاية من خلق البشر كما تلاشى دوره فى حياتهم، لم يعد هناك مبرر لأن يضع لهم منظومتهم الأخلاقية (ما يجب عليهم فعله وتركه). وهكذا هدمت

---

(١) يكمن مفتاح فهم هذه المشكلة فى أن عقول البشر لا تعمل بالطريقة التى يقول بها المناطقة.
فإذا كان اقتناع رجل بفكرة معينة (أ)، يستتبعه منطقيًا اقتناعه بالفكرة (ب)، فإن الواقع يخبرنا بأن هذا الانتقال المنطقى هو الاستثناء وليس القاعدة! فالأعم الأغلب أن الانتقال بين الأفكار يتم عن طريق التداعى النفسى والإيحاء، إذًا فهى انتقالات نفسية وليست منطقية.

الثورة العلمية الإيمان بأن العالَم يمثل نظامًا أخلاقيًّا، وارتبطت القيم الأخلاقية بمصالح البشر المادية العاجلة.

سادسًا : قدم العلم الحديث للإنسان متوسط **عمر أطول** كثيرًا من ذى قبل، كما قدم له إنجازات علمية وحضارية تحقق له **رفاهية وثراءً** لم يكن يتصورهما فى يوم من الأيام، فتبدلت عقيدته من الإيمان بالإله، إلى الإيمان بالعلم وقدراته وإنجازاته.

سابعًا : يرى من أراد (إمساك العصا من الوسط) أن الله قد خلق العالم، ووضع فيه قوانين الطبيعة التى تُسَيِّره ثم تَرَكَه. إن ذلك يعنى أن الإله الخالق لم يعد يفعل شيئًا لنا، وليس له أدنى تأثير فى أحداث العالم. إنه ببساطة **إله لا أهمية له ولا احتياج إليه!**

ثامنًا: لذلك كله، أخذ المفكرون يتساءلون : إذا كان العلم قد قطع شوطًا كبيرًا فى فهم آليات أمور كانت تُفَسَّر بشكل ميتافيزيقى، كالأمراض والرعد والبرق والزلازل...، **فما المانع فى أن يتوصل العلم لتفسير كل ما نعتبره ميتافيزيقيًّا؟** وبذلك تلاشت تمامًا الحاجة إلى الدين وإلى الإله.

لقد ألقت هذه **الأسباب النفسية** بالمفكرين والعلماء والعامة من الناس فى القرن الثامن عشر فى **مستنقع الشك**، حتى صار القرن التاسع عشر يُعرف ـ بالمقارنة بما قبله ـ بعصر العودة إلى الإيمان بسبب النزعة الرومانسية التى ظهرت فيه. حتى يمكننا القول **إن العقل العلمانى الحديث** هو نتاج الثورة العلمية فى **القرن السابع عشر**، وليس القرن التاسع عشر أو القرن العشرين.

وبدخول القرن العشرين، ظهرت مقولة **«الدين أفيون الشعوب»** التى أطلقها كارل ماركس. ويقصد بها أن الأغنياء والأرستقراطيين يستغلون مفهوم الدين لتخدير الفقراء، وحملهم على قبول ما هم فيه من بؤس كأمر واقع، طمعًا فى الفردوس فى حياة بعد الموت.

نتيجة لذلك كله، شاعت مقولة فريدريك نيتشه F.W.Nietzsche [1] التى ألقاها فى أواخر القرن التاسع عشر: **هل مات الإله ؟** Is God Dead ?. وبدلًا من أن تظل قولًا لفيلسوف يمثل رأيًا يتبناه، أصبحت **المقولة عنوانًا يتكرر فى الصحف اليومية.**

(١) Friedrich W.Nietzsche : (١٨٤٤ – ١٩٠٠)، فيلسوف الإلحاد الألمانى الأشهر.

الفكر الإلحادى المعاصر

يتبنى الفكر الإلحادى المعاصر عدة مفاهيم:

١- نشأ **الكون** تلقائيًّا، نتيجة لأحداث عشوائية، دون الحاجة إلى صانع.

٢- ظهرت **الحياة** ذاتيًّا من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة.

٣- الفرق بين **الحياة والموت** هو فرق فيزيائى بحت، سيتوصل إليه العلم يومًا ما.

٤- ليس الإنسان إلا **جسدًا ماديًّا**، يفنى تمامًا بالموت.

٥- ليس هناك وجودٌ لمفهوم **الروح**.

٦- ليس هناك **حياةٌ أخرى** بعد الموت.

٧- من كل ما سبق، **ليس هناك حاجة إلى القول بوجود إله.**

وينقسم الملحدون إلى أربع مجموعات:

١- **علماء وفلاسفة**، تبنوا الإلحاد، ثم وجدوا فى نظرية التطور الداروينى (تطور الكائنات الحية نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة) حجتهم العلمية الكبرى.

٢- **الشيوعيون**، الذين يريدون تحويل المجتمعات البشرية إلى مستعمرات من النمل والنحل، ولن يمكن تحقيق ذلك فى وجود المعتقدات الدينية، فينبغى القضاء عليها ولو بالقوة.

٣- أفرادٌ **غير متخصصين غير مأدلجين**، وجدوا فى القول بالإلحاد هروبًا من قيود الدين أو إثباتًا لذواتهم أو تحقيقًا لمصالح أخرى.

٤- عددٌ لا بأس به من **الصامتين!** من كل الديانات والمجتمعات والأجناس، ممن لديهم شك، لكنهم لا يطرحونه للنقاش. ويمكن إرجاع شك هذه الفئة إلى عاملين:

- **المظهر العلمى والفلسفى** الذى يطرح به أصحاب الفكر الإلحادى القوى أفكارهم.

- **الأسلوب المنغلق الذى تعلموا به دياناتهم**، حيث يرفض معلموهم أى منطق أو علم يخالف ما يفهمون، وهو ما يُسمى بأسلوب «**هُوَّا كده Just-so**». كما يَدَّعى هؤلاء المعلمون الانفراد بالفهم عن الإله، وأن على الآخرين أن يُسَلِّموا لهم بذلك.

ويتمايز الفكر الإلحادى إلى مستويين:

(أ) الفكر الإلحادى القوى Strong (Positive) Atheism

ويمثله هؤلاء الذين ينكرون وجود الإله، ويسوقون على ذلك الأدلة، ويبنون النظريات، ويروجون لفكرهم. ويقوم معظم هؤلاء فى العصر الحديث بالهجوم على الإله والدين والمتدينين، ويستهزءون منهم ويكيلون لهم الأسباب، ويُعرف هؤلاء **بالملاحدة الأصوليين**.

(ب) الفكر الإلحادى الضعيف Weak (Negative) Atheism

ويمثله الذين لم يجدوا أدلة كافية تقنعهم بوجود الإله، لكنهم لا يقومون بدور إيجابى فى نشر أفكارهم. ويمثله كذلك أولئك الذين لم يعيروا الأمر اهتمامًا كافيًا!

مصطلحات تتردد فى مجال الإلحاد:

الملحد Atheist: هو المنكِر للدين ولوجود الإله.

اللادينى: يفضل الملاحدة أن يُطلق عليهم اللادينيين، بينما لفظ اللادينى يعنى من لا يؤمن بدين وليس بالضرورة أن يكون منكرًا للألوهية.

ضد الدين Antitheist: هو الملحد الذى يتخذ موقفًا عدائيًا من الإله والدين والمتدينين.

الربوبى Diest: هو الذى يؤمن بأن الإله قد خلق الكون، ولكنه ينكر أن يكون قد تواصل مع البشر عن طريق الديانات.

اللاأدرى Agnostic: هو الذى يؤمن بأن قضايا الألوهية والغيب لا يمكن إثباتها وإقامة الحجة عليها (كما لا يمكن نفيها)، باعتبارها فوق قدرة العقل على الإدراك.

المتشكك Skeptic: هو الذى يرى أن براهين الألوهية لا تكفى لإقناعه، وفى نفس الوقت لا يمكنه تجاهلها.

العلمانى Secularist: العلمانية دعوة إلى إقامة الحياة على العلم المادى والعقل ومراعاة المصلحة بعيدًا عن الدين. ومن ثم فهو **اصطلاح سياسى لا علاقة له بعقيدة الفرد الدينية**. ولا شك أن كثيرًا من العلمانيين ملاحدة أو لادينيين، خصوصًا فى بلاد الغرب.

هل شاع الإلحاد؟

بعد مناقشة أسباب نشأة الإلحاد فى الغرب، والتى بدأت منذ الثورة العلمية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، نتساءل: إلى أى حد وصل الأمر الآن؟

فى استطلاع رأى أجراه مذيع الإذاعة البريطانية BBC الشهير جون همفرى فى مدخل القرن الحادى والعشرين، وشارك فيه ٢٢٠٠ بريطانىّ، حول موقفهم من الإله، كانت النتيجة كالآتى:

٢٨٪ يؤمنون بالإله، ٢٦٪ يؤمنون بشىء لكن غير متأكدين من كنهه، ١٦٪ اعتبروا أنفسهم ملاحدة، ٩٪ لا أدريين (منهم همفرى نفسه). والباقون إما لم يفكروا فى الأمر أو لا يعرفون أو لم يجيبوا.

وفى دراسة أجرتها أيضًا الـ BBC عام ٢٠٠٤ فى عشر **دول أوروبية**، كانت نسبة الملاحدة ٨٪. وفى **الولايات المتحدة**، أجرى معهد جالوب عام ٢٠٠٥ دراسة أظهرت أن نسبة الملاحدة تبلغ ٥٪. وهناك دراسات عديدة أخرى أظهرت نتائج قريبة مما سبق.

أما فى **بلاد الشرق**، فليست هناك إحصائيات دقيقة، لكن الانطباع العام أن المشكلة أقل من الغرب بكثير، وإن كان هناك مدٌّ إلحادىٌّ ازداد بعد ما عُرف بثورات الربيع العربى وما أتاحته من جو الحريات، وسنناقش هذا الأمر بتفصيل فى الفصل العاشر.

الفلسفة الإلحادية المعاصرة

لا شك أن العامل المهم فى ضعف الدين فى الغرب فى العصر الحديث هو شيوع الفلسفات التى ترفض الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) وتحصر العلم فى المنهج التجريبى، حتى فى العلوم الإنسانية!. وحتى نستطيع أن نتتبع مسيرة الإلحاد المعاصر، نعرض ما كانت عليه **الفلسفة الإلحادية فى القرن العشرين ومدخل القرن الحادى والعشرين**، وذلك من خلال طرح مفاهيم الفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism والإلحاد الجديد New Atheism

الفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism

يُعتبر الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت [1] Auguste Comte هو مؤسس **الفلسفة الوضعية** Positivism التى تتعامل مع الظواهر والوقائع المادية وحسب، وتتبنى شعار «**ما لا يمكن رصده، لا وجود له**»، رافضة كل تفكير فى الغيبيات وعلى رأسها الإله.

(١) Auguste Comte: (١٧٩٨ – ١٨٧٥)، الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسى الشهير.

ثم طرح الفيلسوف الإنجليزى سير ألفريد آير[1] A. J. Ayer عام ١٩٣٦ **الفلسفة الوضعية المنطقية**[2] Logical Positivism، كفرع من الفلسفة الوضعية. وتقوم هذه الفلسفة على «**مبدأ التَثَبُّت** The Verification Principle» الذى يرى أن قبول أى افتراض أو مسألة يتوقف على إثباتها عمليًا بالتجربة، أو رياضيًا، أو منطقيًا من خلال المدلول المباشر للألفاظ التى تشرح هذا المفهوم. ومن ثَمَّ، فلا معنى لأى افتراض أو مسألة تقع خارج نطاق العلم التجريبى أو الرياضيات أو المنطق المباشر.

ومن ثم، ترى الفلسفة الوضعية المنطقية **أن مفاهيم مثل الإله والروح والتدين والإلحاد لا تعنى شيئًا؛ إذ لا يمكن إثبات خطئها أو صحتها تجريبيًا أو رياضيًا أو منطقيًا**. لذلك، فإن مقولة مثل «الله موجود» لا معنى لها، ومن ثَمَّ يتساوى أمام العقل أن يكون الإنسان مؤمنًا أو ملحدًا.

وينتهى عصر الفلسفة الوضعية المنطقية عندما يعلن مُنَظِّرها الأكبر (سير الفريد آير) فى خمسينيات القرن العشرين أن هذه الفلسفة ملأى بالتناقض، بالرغم من أنه قضى السنوات الطوال فى معالجة أخطائها. لقد تنبه آير إلى أنه لا يمكننا تطبيق قواعد البحث فى العلوم التجريبية التى تعتمد على الحواس (كالكيمياء والفيزياء) على العلوم الإنسانية (كالفلسفة والمنطق والأخلاق). كذلك **لا يمكن دراسة المفاهيم الدينية بمقاييس المفاهيم العلمية؛ فلا ينبغى ـ مثلًا ـ محاولة فهم مقولة**: «إن الله موجود فى كل مكان» بمفاهيم المكان فى فيزياء نيوتن أو فيزياء أينشتين. وبذلك قام آير **بإعلان موت الفلسفة الوضعية المنطقية ودفنها**[3].

---

(١) A. J. Ayer: (١٩١٠ - ١٩٨٩)، فيلسوف إنجليزى، ورئيس نادى سقراط الفلسفى بجامعة أكسفورد.

(٢) طرحها آير فى كتابه «اللغة والحقيقة والمنطق Language, Truth and Logic». وكان أول ظهور لهذه الفلسفة فى عشرينيات القرن العشرين، عند مجموعة من الفلاسفة الأوروبيين تُعرف بمجموعة فيينا Vienna Circle.

(٣) بنى ألفريد آير الفلسفة الوضعية المنطقية على كتابات الفيلسوف النمساوى الإنجليزى **لودفيج ويتجنشتين** Ludwing Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١)، وكذلك بنى رفضه لهذه الفلسفة على كتابات الفيلسوف العظيم نفسه، الذى سبقه أيضًا إلى رفضها، عندما وضع **نظرية اللغة والألعاب** Theory of language and games، التى ترى أن لكل لغة قواعدها ولكل لعبة قوانينها.

عودة الوعى والتدين العقلانى Rational Theism

نفض الفلاسفة أياديهم من الفلسفة الوضعية المنطقية بعد أن فتح لهم سير أنتونى فلو[١] الباب لمناقشة مفاهيم المتدينين، فظهرت فى الساحة التساؤلات حول معنى **الوجود الإلهى**، وإذا كان هناك **إيمان فطرى بالألوهية** داخل نفوسنا، و...

وقد أفرزت هذه المناقشات عودة محمودة إلى الدين فى الغرب. وظهر هذا التوجه إلى التدين جَليًّا فى غلاف مجلة تايم Time عدد أبريل ١٩٨٠، فجاء فى مقال الغلاف: «يقود بعض كبار الفلاسفة **ثورة فكرية بيضاء**، لم يكن يتوقعها أحد منذ عقدين من الزمان، وتهدف هذه الثورة إلى إعادة الإله إلى عرشه».

الإلحاد الجديد The New Atheism

الرِدَّة نحو الفلسفة الوضعية المنطقية

مرة أخرى يتفاقم الإلحاد ليطل برأسه تحت اسم **الإلحاد الجديد** The New Atheism، وقد أُستخدم هذا الاصطلاح لأول مرة فى مجلة شبكة المعلومات [٢] Wired Magazineعدد نوفمبر ٢٠٠٦.

وقد لاقت الكتب التى تناولت هذا المفهوم **رواجًا كبيرًا**؛ إذ وجد فيها الإعلام مادة ثرية ساخنة مثيرة، بالرغم من تواضع ما طرحته من حجج[٣]. **وتهاجم هذه الكتابات جميع الديانات** (السماوية وغير السماوية) باختلاف أماكنها وأزمانها. وبالرغم من ذلك فهى **تتحدث بلهجة وَعْظية أصولية**، يرتدى فيها المؤلفون **ثياب الوعَّاظ** الذين يَصِمون القراء بالجهل والسطحية، ويوجهون إليهم **السُباب اللعين** إذا لم يتوبوا عن إيمانهم الساذج بالربوبية والألوهية!

وعلى القارئ لهؤلاء المؤلفين (نتعرض لأشهرهم خلال الكتاب) أن يتبنى موقفًا محددًا: **فمَن ليس معهم فهو ضدهم**، إما أبيض وإما أسود، ولا مجال للمخادعة أو الغموض فى المواقف!

(١) نُعَرِّف به ونناقش دوره فى قضية الإلحاد بعد قليل.
(٢) مجلة شبكة المعلومات Wired Magazine: مجلة أمريكية شهيرة، بدأ إصدارها عن طريق شبكة المعلومات Net فى سان فرانسيسكو فى مارس ١٩٩٣. وتهتم بطرح تأثيرات التكنولوجيا على الثقافة والسياسة والاقتصاد.
(٣) من أهم هذه الكتب:
The Blind watch maker, The God Delusion, Breaking the spell, Six Impossible things Befor Breakfast.

حتى الفلاسفة الكبار الذين يُظهرون بعض التفهم لحجج المؤمنين، فقد تم ضمهم إلى قافلة الخونة سطحيِّي الفكر.

أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد

يمكننا القول، دون أن نجترئ على الدقة العلمية، إن سير أنتونى فلو[(١)] Sir Antony flew **أستاذ الفلسفة البريطانى الشهير قد تَزَعَّم حركة الإلحاد فى العالم لما يزيد على نصف القرن.** فقد أَلَّف أكثر من ثلاثين كتابًا وبحثًا فلسفيًّا كانت بمثابة جدول أعمال الفكر الإلحادى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

لذلك، نزل خبر إقرار أنتونى فلو بأن «هناك إله» على الفلاسفة والمفكرين الملحدين كالصاعقة، فانبروا للدفاع عن إيمانهم المقدس بالإلحاد! وعبروا عن سخطهم وازدرائهم لهذا التحول، وكالوا للرجل كل ما لا يليق من التهم والنقائص.

وفى إطار الحديث عن الفلسفة الإلحادية المعاصرة نتساءل: ما هى إضافة أنتونى فلو إلى منهج معالجة فلسفة الإلحاد؟

يمكن القول ـ دون أدنى مبالغة ـ إنه خلال المائة عام الماضية لم يعرض أى فيلسوف من ذوى الوزن الفكر الإلحادى بالأسلوب العميق المنظم كما فعل أنتونى فلو. فقد طرح الرجل حججًا جديدة ضد الإيمان بالله، كما رسم بأفكاره الأصيلة **خارطة الطريق للفلاسفة الذين عارضوا الإيمان** والتدين طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

فإذا أخذنا كتابات فيلسوف عظيم مثل **برتراند رَسِل** Bertrand Russell [(٢)]، كمثال لما كُتب عن الإلحاد فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، **وجدناها لا تخرج عن مقالات أدبية**

(١) Sir Antony flew: ولد فى لندن فى ١١/ ٢/ ١٩٢٣ لأب من كبار رجال الدين المسيحى، تبنى الإلحاد منذ صباه وصار من كبار فلاسفته. وعندما تجاوز من العمر ثمانين عامًا (ديسمبر ٢٠٠٤) أعلن أنه بدافع من الأدلة والشواهد العلمية قد صار يؤمن بأن هناك إلهًا. وفى عام ٢٠٠٧ أصدر كتابًا يشرح فيه أسباب إيمانه، والكتاب بعنوان: هناك إله: كيف عدل أشرس ملحد عن الإلحاد.
There is a god: How the world's most notorious atheist changed his mind.
وقد توفى فى لندن فى ٨/ ٤/ ٢٠١٠.

(٢) Bertrand Russell: وُلد فى ويلز بالمملكة المتحدة (١٨٧٢ - ١٩٧٠). وهو فيلسوف ورجل منطق عظيم، من علماء الرياضيات، ومن المهتمين بالتاريخ الإنجليزى، ومن المناهضين للحروب والتوسع الاستعمارى. حصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٥٠ لكتاباته عن المُثل الإنسانية العليا ووقوفه بجانب حرية الفكر.

سطحية، لا تطرح فكرًا عميقًا، وفى أفضل حالاتها تلفت النظر إلى المشكلات النفسية للإنسان (مثل معاناة البشرية للشر والألم) دون معالجة جديدة[١].

يبدو أن الفلاسفة الكبار كانوا يترفعون عن أن «يلوثوا أياديهم الرقيقة وعقولهم الحكيمة بالخوض فى هذه القضية الشعبية السوقية المبتذلة!»، قضية التدين والإلحاد!

وأخيرًا نقول: إنه من الموافقات العجيبة، أن سير أنتونى فلو الذى **وقف فى وجه الفلسفة الوضعية المنطقية الإلحادية** منذ خمسين عامًا، ورفض ما تمارسه من تعالٍ متغطرس وازدراء تجاه المفاهيم الدينية، هو الذى **تصدى للإلحاد الجديد**. لقد كان هو الرجل القادر على أن يدحض حجج الملاحدة الأقدمين والمعاصرين، ويحلل ما يقدمه العلم الحديث فى هذا المضمار.

منهج الملاحدة الجدد

«إذا كانت القطط لم تمثل قطيعًا Herd بعد، فإن أعدادًا معقولة منها تستطيع أن تُصدر ضوضاءً مزعجة لا يمكن تجاهلها».

هكذا يحدد كبير الملاحدة الجدد **ريتشارد دوكنز** Richard Dawkins [٢] لطلائع قطيعه (كما وصفهم هو) فى كتابه «وهم الإله» منهج العمل فى الفترة القادمة؛ **المزيد والمزيد من الصراخ والضوضاء فى مواجهة الديانات**. لكن لماذا؟ ما الذى دفعهم لذلك؟ وما هدفهم؟

(١) نشير هنا إلى ثلاث دراسات تُعتبر علامات بارزة وضعها أنتونى فلو فى مسيرة الفلسفة الإلحادية:

١- **نقد علم اللاهوت** Theology and falsification: بحث قدمه أنتونى فلو عام ١٩٥٠، حاول فيه نسف قضية الإيمان من أساسها، بأن أكد خواء المقولات الدينية من أى مفاهيم وأفكار ذات معنى، ودعى فى الوقت نفسه إلى **فتح باب الحوار بين الملاحدة والمتدينين**. وقد صار هذا البحث من أكثر الدراسات الفلسفية انتشارًا فى القرن العشرين.

٢- كتاب **«الإله والفلسفة** God and Philosophy» (١٩٦٦): يؤكد فيه فلو أنه لا ينبغى إصدار الحكم فى قضية «هل هناك إله ؟» قبل أن يطرح المتدينون **تصورًا واضحًا لصفات هذا الإله**، ويعتبر أنه لا معنى لوصف المتدينين للخالق بأنه (الروح، كلى الوجود، كلى العلم).

٣- كتاب **«فرضية الإلحاد** The Presumption of Atheism» (١٩٧٦). وفيه يدير فلو الدفة تمامًا ليجعل الكُرَة فى ملعب المتدينين، **فيضع على عاتقهم مهمة إثبات وجود الإله**، بعد أن كان التناول الفلسفى السابق يطالب الملاحدة بإثبات عدم وجود الإله.

(٢) Richard Dawkins: بريطانى وُلد فى نيروبى بكينيا عام ١٩٤١، يعيش الآن فى أكسفورد. وهو بيولوجى، كان يشغل منصب أستاذ تبسيط العلوم فى جامعة أكسفورد. وصل إلى الشهرة من خلال كتابه «الجين الأنانى The Selfish Gene» الذى صدر عام ١٩٧٦، وعرض فيه مفهومه للتطور من خلال دور الجينات. وهو من المعارضين لمفهوم الخلق الخاص ومفهوم التصميم الذكى كما ظهر فى كتابه «صانع الساعات الأعمى The Blind Watch Maker». وفى عام ٢٠٠٦ أصدر كتاب «وهم الإله The God Delusion» الذى ينكر فيه وجود أى قوى غيبية، وينظر إلى الإيمان باعتباره من الضلالات والأوهام، ويُعتبر هذا الكتاب أشهر كتبه الآن.

ويأتى وراء ريتشارد دوكنز (زعيم طلائع قطيع الملاحدة) ثلاثة من جنود الإلحاد الأقل منه سُمعة. أولهم البريطانى المولد الأمريكى الإقامة **كريستوفر هتشنز** Christopher Hitchens الكاتب والإعلامى وأستاذ الدراسات الحرة فى نيويورك، وقد اشتهر بكتابه «الإله ليس عظيمًا God is not Great». ويأتى بعده الفيلسوف **دانيل دينيت** Daniel Dennett الذى يصف نفسه بأنه فيلسوف لا إله له، وهو صاحب كتاب «الخروج عن النص: الدين كظاهرة طبيعية Breaking The Spell:Religion as a Natural Phenomenon ». وأخيرًا يأتى أصغرهم، **سام هاريس** Sam Harris المتخصص فى علوم المخ والأعصاب، وصاحب كتاب «نهاية الإيمان: خطاب إلى أمة مسيحية The End OF Faith, Letter To A Christian Nation».

وبالإضافة لهذا الفريق من الملاحدة الأربعة، لمع فى السنوات الأخيرة نجم رئيس قسم الفيزياء النظرية الأسبق بكمبردج، **ستيفن هوكنج**[1] Stephen Hawking. فبعد أن ترك الباب مواربًا لسنوات طويلة، أعلن فى آخر كتبه «التصميم العظيم The Grand Desing» أنه لم يعد هناك مجال للقول بوجود الإله[2].

وسائل الإزعاج

ومن أجل أن يُصدر طلائع قطيع القطط وقائدهم دوكنز ما يكفى من الصراخ والضوضاء فى مواجهة الأديان، فإنهم لم يكتفوا **بالأساليب المعتادة**؛ كتأليف الكتب والمقالات، وإلقاء المحاضرات، وعقد المناظرات، والظهور فى البرامج التليفزيونية والفضائيات، والحديث عبر شبكة المعلومات (نت)، وهى الطرق المعتادة لطرح الأفكار، بل إنهم ابتدعوا **طرقًا جديدة**.

(١) Stephen Hawking: عالم الفيزياء النظرية والرياضيات التطبيقية البريطانى، يشغل كرسى أستاذ الرياضيات الذى كان يشغله إسحق نيوتن بجامعة كمبريدج. وُلد عام ١٩٤٢. وهو مشهور بأبحاثه فى الكون وخاصة الثقوب السوداء. اهتم بتبسيط العلوم للعامة، وقد صار كتابه «تاريخ موجز للزمن» أكثر الكتب العلمية مبيعًا فى التاريخ، فقد بيع منه نسخة لكل ٥٠٠ إنسان على سطح الأرض. وقد أصيب فى بداية شبابه بمرض Amyotrophic lateral Sclerosis الذى أدى إلى شلل تام شمل عضلات العنق والرأس، وهو يتعامل مع المحيطين من خلال أجهزة يوجهها بحركات عينيه وشفتيه!! إذ أفقده المرض القدرة على الحركة والكلام.

(٢) من غير المتحدثين بالإنجليزية، يقابلنا **الفيلسوف الفرنسى مايكل أونفراى** Michel Onfray صاحب كتاب «دفاع عن الإلحاد In Defence of Atheism» وقد اعتاد أن يحشد الجموع الهائجة ليخطب فيهم وهو يرتدى السواد من أم رأسه حتى أخمص قدميه. وفى **إيطاليا**، يقابلنا الرياضى **بيرجيورجيو أوديفريدى** Piergiorgio Odifreddi صاحب كتاب «لماذا لا نستطيع أن نكون مسيحيين Why we Can't be Christians»، الذى يسخر فيه من الكنيسة.

أما فى **العالم العربى**، فبالرغم من ظهور موجة إلحادية فى السنوات الأخيرة، زاد ارتفاعها وحدتها مع ما يُعرف بثورات الربيع العربى، فما زال صوت الملاحدة منخفضًا، وما زال معظمهم مختبئين. وفى الفصل العاشر من الكتاب سنتحدث عن بعض النماذج منهم وعن سمات إلحادهم.

ففى أثناء سيرك فى شوارع **لندن (عام ٢٠٠٩)**، كانت عيناك تقع ولا شك على أحد أتوبيسات النقل العام الحمراء ذات الطابقين وقد عُلِّق عليها إعلان لمحاضرة أو مناظرة لدوكنز. وكثيرًا ما تقع عيناك على إعلان كُتب عليه: **«فى الأغلب ليس هناك إله، لا تقلق، واستمتع بحياتك»**[١]. هذا بالإضافة إلى ظهور مثل هذه المقولات على مختلف السلع؛ كالبيرة مثلًا. ويتحمل دوكنز جزءًا كبيرًا من تكاليف هذه الحملات.

ومن بين إعلانات الأتوبيسات يوجد إعلان اشترك دوكنز فى دفع أجره مع الاتحاد البريطانى لحقوق الإنسان، ويُظهر الإعلان طفلين سعيدين يخاطب كل منهما والديه قائلًا: **«من فضلكما لا تصنفانى (كمتدين)، دعونى أكبر لأختار لنفسى بإرادة حرة»**[٢]. إن هذا الإعلان يدعو إلى الإلحاد بدعوى حرية الإرادة، إن الملاحدة يطالبوننا بألا نُعَرِّض أطفالنا لتأثيرات تربوية تدعوهم إلى الإيمان، بينما يتمادون هم فى التأثير عليهم وتوجيههم إلى الإلحاد. كذلك يمثل إعلان «غالبًا ليس هناك إله، لا تقلق واستمتع بحياتك» **سقطة تربوية خطيرة**.

وفى **ألمانيا**، عجز الملاحدة عن الحصول على موافقة النقل العام على هذه الإعلانات، فاستأجروا أتوبيسات خاصة، وعَلَّقوا عليها أقوالًا مثل: «ليس هناك إله»[٣]، «إن الحياة الممتعة لا تحتاج لإيمان». وفى مواجهة هذه الحملات، يُسَيِّر المسيحيون أتوبيسات عَلَّقوا عليها: «وماذا لو ثبت أن الإله موجود». وقد استغل الإعلام هذه المناظرات الأتوبيسية، وصار يصورها ويجعلها موضوعًا لبرامجه.

رسم الخطط: البديل عن الإله

من الطبيعى أن يلتقى الملاحدة لتوحيد كلماتهم ورسم الخطط لطلائع القطيع من أجل إصدار المزيد من الصراخ والضوضاء. ومن أهم لقاءاتهم كان هذا المؤتمر الذى عُقد عام ٢٠٠٦ فى مؤسسة سالك Salk فى كاليفورنيا. وكان عنوان المؤتمر: **ماذا بعد الإيمان: العلم ـ الدين ـ العقل ـ الحياة**[٤]. وكان من المتحدثين من كبار الملاحدة ريتشارد دوكنز وستيفن وينبرج.

يبين عنوان المؤتمر أن الإلحاد الجديد لا يركز فقط على العلمنة الشاملة عن طريق محو

(١) There's probably no God, now stop worrying and enjoy your life

(٢) Please don'd label me, let me grow up and choose for myself

(٣) لقد تمسك البريطانيون بكلمة «غالبًا Probably» ليس هناك إله، خشية المساءلة القضائية من قِبَل المتدينين إذ لن يستطيع الملاحدة إثبات أن الإله غير موجود.

(٤) Beyond Belief: Science, Religion, Reason And Survival

الإله من الوجود، بل ويهتم أيضًا بوضع بديل عنه. ويؤكد العنوان أن الذى يقوم بذلك ليس المجتمع ولا الفلسفة، لكن العلم هو الوحيد القادر على طرح البديل، إن **العلم هو الملك**.

وكان المؤتمر يطرح ثلاثة أسئلة:

١ ـ هل يستطيع العلم إزاحة الدين من الحياة؟

٢ ـ ما الذى يطرحه العلم كبديل عن الدين؟

٣ ـ هل يمكن أن نكون فضلاء (Good) بدون الدين؟

يُظهر السؤالان الأولان أن الإلحاد جزء من هدف أكبر، هو **تتويج العلم على عرش الكون والإنسان**. ولما كان المؤتمِرون يدركون أن القيم المسيحية هى مصدر المفاهيم الأخلاقية فى الغرب فقد وضعوا السؤال الثالث، بغية أن يزيحوا الدين عن ساحة الحياة تمامًا، وبذلك يثبتون أن الدين ليس خطأً من الناحية العقلية والعلمية فقط، لكن أيضًا من الناحية القيمية والأخلاقية.

وقد انتهى المؤتمر إلى صياغة المفاهيم الأساسية التى ينبغى أن ينطلق منها **جدول أعمال الإلحاد المعاصر**، وهذه المفاهيم هى:

١ ـ الدين وهم خطير، يؤدى إلى العنف والحروب.

٢ ـ ينبغى التخلص من الدين، وسيقوم العلم بهذه المهمة.

٣ ـ لا نحتاج لإله لنكون على خُلُق، فالإلحاد يمكن أن يكون منطلقًا قويًا للأخلاق.

وقد اعتبرت مجلة The New Scientist هذا المؤتمر ذا أهمية كبيرة، حتى إنها فى عددها الخاص بمناسبة مرور خمسين عامًا على إصدارها نشرت مقالًا عن المؤتمر بعنوان «**البديل عن الإله** In Place Of God»

هل من جديد عند الملاحدة الجدد؟

يطلق الملاحدة الجدد على أنفسهم اسم **The Brights** (اللامعون ـ الساطعون ـ المشرقون ـ الوضَّائون ـ المتألقون ـ الأذكياء ـ ....)، وهو ما يشير إلى أن الآخرين (المتدينين) هم الخافتون ـ المعتمون ـ البليدون ـ الداكنون ـ المظلمون ـ وربما الأغبياء. ويُعَرِّف الملاحدة الجدد أنفسهم بأنهم الذين **يتبنون المفاهيم العلمية ويرفضون المفاهيم الغيبية**. كما يعتبرون أنفسهم **سلالة مرحلة الاستنارة** Enlightenment التى ظهرت فى أوروبا فى بدايات العصر الحديث فى مواجهة ظلام وظلمات المفاهيم الدينية التى سادت فى العصور الوسطى.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: **هل أثرى كُتَّاب هذه الموجة المناقشات الفلسفية والعلمية التى اسَتَعَرت طوال العقود السابقة حول قضية التدين؟**

والإجابة بالنفى، وذلك لثلاثة أسباب:

أولا: لم يُدْلِ العلماء المتفلسفون الملاحدة الجدد برأى ذى قيمة فى القضايا الفلسفية المتعلقة بمفهوم الربوبية، بل نجد منهم **تهربًا عجيبًا** من هذه القضايا. فهذا كبيرهم ريتشارد دوكنز يصف نشأة الحياة والعقل بأن ذلك كان «**حادثًا عارضًا نتيجة لضربة حظ!**». وهذا لويس ولبرت Lewis Wolbert [1] يقول: «لقد تعمدت تحاشى الخوض فى نشأة العقل؛ إذ إننا ما زلنا **لا نفهم عنه شيئًا!**». بينما يحل الفيلسوف والبيولوجى الأمريكى دانييل دينيت Daniel Dennett [2] معضلة نشأة العقل بسذاجة شديدة؛ إذ يقول: «**ثم حدثت المعجزة !!**».

ثانيًا: لم يدرك الملاحدة الجدد **نقاط الضعف الجذرية** فى بنية «الفلسفة الوضعية المنطقية» البائدة التى يسعون لإحيائها، وأهم هذه النقاط **تطبيق المنهج العلمى التجريبى على العلوم الإنسانية**. ولا شك أن مَن يتجاهل الأخطاء المنهجية فى القضية التى يتعامل معها سوف يقع فيها لا محالة، وقد حدث.

ثالثًا: لم يَطَّلع الملاحدة الجدد على الكم الهائل من **الدراسات الفلسفية الجديدة**، ولا على **البراهين القوية التى قدمها العلم** وصارت تخدم قضية الإيمان.

لذلك، فإن من يسمون أنفسهم بالملاحدة الجدد The New Atheists **لم يقدموا مفاهيم أو حججًا جديدة بالمرة**. الجديد فقط هو هذه **النغمة العدائية العدوانية** التى صاروا يستعملونها، فلم يعودوا يكتفون بأنهم «**ملاحدة**» Atheists ينكرون الوجود الإلهى، لكنهم يصفون أنفسهم بأنهم **ضد الدين** Antitheist. انظر إلى قول كريستوفر هتشنز: أنا لست لادينى بقدر ما أنا ضد الدين، فأنا لا أعتقد فقط أن كل الديانات كاذبة، بل اعتقد أن تأثير الكنيسة ضار. ثم لخص هتشنز فكره فى مقولته التى اشتهر بها «**الدين يسمم كل شىء Religion Poisons Every thing**». ويؤيد سام هاريس هذا المعنى فيقول: هدفنا أن نحطم كل مظاهر الاحترام للقيم والمفاهيم التى اشتهرت بها المسيحية.

---

(١) Lewis Wolbert: وُلد فى إنجلترا عام ١٩٢٩. يشغل منصب أستاذ البيولوجيا التطورية بقسم التشريح بجامعة لندن. وهو إعلامى ومؤلف شهير، وأشهر كتبه Six impossible things befor breakfast، صدر عام ٢٠٠٦.

(٢) Daniel Dennett: وُلد فى بوسطن عام ١٩٤٢. وهو فيلسوف ملحد مهتم بفلسفة العقل وفلسفة العلم، وبالبيولوجيا التطورية.

ومن ثم فالجديد عند الملاحدة الجدد هو **مهاجمة الإله والأديان بصفاقة ووقاحة**، كجزء من فقدان احترامهم للمسيحية.

لذلك نقول، بمنتهى الموضوعية، **إن الإلحاد الجديد ما هو إلا رِدة وقحة إلى الفلسفة الوضعية المنطقية التى تم رفضها ودفنها من قِبَل أشد المتحمسين لها.**

ما كل هذا الحقد ضد الإله والدين، وضد الإسلام!

يُسَوِّد الملاحدة المعاصرون الصفحات تلو الصفحات بتفاصيل الشر والرعب الذى تسببه الديانات؛ ابتداء من الأصوليين المسلمين بعملياتهم الانتحارية واختطافهم الأبرياء، إلى ما يقوم به بعض القسس من اغتصاب للأطفال فيجردوهم من براءتهم ويسببون لهم مشكلات نفسية، إلى غسيل المخ الذى يمارسه رجال الدين الذين يسرقون أموال الناس، إلى التطهير العرقى فى البلقان، إلى المجازر بين البروتستانت والكاثوليك فى أيرلندا الشمالية، إلى الطبقية الدينية فى المجتمع الهندى...

ويعلن دوكنز أنه يحلم - كما يقول جون لينون (مطرب البيتلز) فى إحدى أغنياته - **بعالَمٍ بغير دين**. عالَمٍ خالٍ من الحرب بين الإسرائيليين والفلسطينيين وخالٍ من هؤلاء الذين يجلدون النساء لأنهن أظهرن بوصة واحدة من أجسامهن.

وفى حوار مع دوكنز أجرته مجلة دير شبيجل الألمانية، أعلن أن أحداث ١١ سبتمبر[١] قد حولته إلى ملحد متطرف (راديكالى) Radicalised Him. ويقول فى موضع آخر: لقد تلاشت بقايا ما فى نفسى من احترام للديانات مع الدخان والتراب الخانق لانفجارات ١١ سبتمبر. وعلقت المجلة بأن **هذا الحادث المروع هو الذى أدى إلى ميلاد الإلحاد الحديث**. وكان عنوان المقال: الإله مسئول عن كل شىء.

وفى أحد اللقاءات الإعلامية، طفح كل ما بداخل دوكنز من **كراهية للإسلام**، فأعلن: **«إن المسيحية قد تكون الحصن الأخير ضد شر أسوأ منها»**. إذن القضية لم تعد عداءً للدين على إطلاقه، بل عداء وكراهية للإسلام بشكل خاص. أخيرًا سقط القناع وظهرت الحقيقة.

ويروج الملاحدة **أن العالم المتحضر لم يعد يطيق صبرًا على الدين** - وعلى الإسلام بصفة

(١) إشارة إلى تفجير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك عام ٢٠٠١.

خاصة ـ الذى صار متطرفًا وخطيرًا إلى حد بعيد، لذلك ينبغى القضاء عليه. ويقول ستيفن وينبرج الحائز على جائزة نوبل: ينبغى أن يفيق العالم من كابوس الديانات الذى طال، **ينبغى علينا كعلماء أن نفعل أى شىء من أجل أن نخفف من قبضة الدين**، ولا شك أن هذا سيكون **عطاءنا الأكبر للحضارة** ! لاحظ كلمة أى شىء هذه، وإذا كان عطاء العلماء الأكبر للحضارة هو محاربة الأديان فمن يهتم بالعلم!

ويلخص دوكنز سبيل ذلك قائلًا: ينبغى رفع وعى الآخرين بإظهار جاذبية الإلحاد المعاصر، وبذلك نُثَبِّت أقدام الإلحاد فى عالم التطرف.

يا الله ... **ما كل هذا الحقد ضد الإله، وضد الدين، وضد الإسلام؟!**

لا شك أن مثل هذه المقولات تجد صداها فى عالم يضج بالإرهاب الذى يمارسه المتطرفون، فمن منا لا يحلم بعالم خالٍ من هذا الرعب، ولا أحد ينكر أن هناك مشكلات يسببها المتطرفون الدينيون.

لكن **هل التطرف قاصر على الدين فقط**؟ ألم يُقتل المئات من البشر فى صراعات بين مشجعى كرة القدم!

أإلى هذا الحد يبلغ تزوير التاريخ؟ هل كان أكثر قتلى الحروب ضحايا صراعات دينية؟ هل كانت **الحربان العالميتان الأولى والثانية** ـ أشد المجازر فى تاريخ البشرية ـ حربين دينيتين؟

وهل كان **الاتحاد السوفيتى الشيوعى** الخالى من الديانات مدينة فاضلة؟ وكم كلف إقامة هذه الدولة الملحدة البشرية من خسائر؟

هل حياة الإنسان بدون دين حياة مطمئنة؟ انظر إلى قول جان بول سارتر: «**إن الإلحاد أمر أليم وقاس** Atheism is a Long, hard and cruel Business، **فثبوت غياب الإله أشد وطأة على النفس من ثبوت وجوده**». أما الملاحدة الذين توقفوا عن القلق فهم هؤلاء الذين توقفوا عن التفكير.

إن كل ما يذكره الملاحدة من صراعات إنما يرجع إلى **نقائص نفوسٍ بشرية تتخذ** من الدين ـ ومن غيره ـ ستارًا لأحقادها، ولو اختفى الدين فستمارس هذه النفوس الصراع تحت اسم آخر.

متتالية

الفكر المادى، الحضارة المادية، ثم الإلحاد[1]

ارتبطت نشأة الإلحاد المعاصر بظهور الفكر المادى ارتباطًا وثيقًا، حتى يمكن القول إن **الإلحاد هو الابن الشرعى لهذا الفكر**. ويُعتبر **الدكتور عبد الوهاب المسيرى**[2] من أفضل مَنْ عرضوا هذه العلاقة فى وضوح وتناسق وتراكب يصعب نقضه. لذلك، لا يتكامل الحديث عن نشأة الإلحاد المعاصر وسماته وأبعاده النفسية دون طرح مفاهيم د. المسيرى حول الفكر المادى والحضارة المادية.

الحضارة المادية

يقول د. المسيرى: الحضارة الحديثة ـ فى تصورى ـ **حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية فحسب)، فإنجازاتها الضخمة** (التكنولوجيا ـ العلم ـ السيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتها المادية، التى تطلبت استبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط).

أما **إخفاقات الحضارة المادية الحديثة** فلا تقل ضخامة عن إنجازاتها، ومن أهم تلك الإخفاقات: الأزمة البيئية ـ الحروب العالمية ـ فقدان الاتجاه (أى أن لا يعرف الإنسان أين هو ذاهب) ـ ظهور العَبَثية (أى أن يتصور الإنسان أن العالم لا معنى له وأن

(١) عن كتاب: رحلة الدكتور عبد الوهاب المسيرى الفكرية، دراسة فى فكره وسيرته. تأليف د. عمرو شريف. الناشر نيوبوك، الطبعة الخامسة ٢٠١٥.

(٢) **الدكتور عبد الوهاب المسيرى**: ولد بدمنهور بمصر عام ١٩٣٨ (توفى بالقاهرة عام ٢٠٠٨). تخرج فى كلية الآداب ـ قسم اللغة الإنجليزية ـ جامعة الإسكندرية عام ١٩٥٥، ثم حصل على الماجستير من جامعة كولومبيا عام ١٩٦٤ والدكتوراه من جامعة رتجرز عام ١٩٦٩، حيث عمل بالتدريس عدة سنوات. ثم عمل مستشارًا ثقافيًّا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك قبل عودته عام ١٩٧٩ للعمل كأستاذ للغة الإنجليزية بجامعة عين شمس وجامعات السعودية والكويت.

أشهر مؤلفاته «**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج معرفى جديد**» صدرت فى ثمانية مجلدات عام ١٩٩٩، وهى من أعمق المراجع العالمية فى مجالها. وله العديد من الكتب حول سلبيات الحضارة المادية، مثل «نهاية التاريخ» و«إشكالية التحيز» و«العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» و«الحداثة وما بعد الحداثة». بالإضافة إلى عدة كتب فى النقد الأدبى وأدب الأطفال، وديوان من الشعر.

الصدفة العمياء تتحكم فيه) ـ تَحَوُّل الوسائل إلى غايات...، وهـذه الإخفاقـات ـ مثل الإنجازات ـ من **نتاج الرؤية المادية** للحضارة الحديثة.

وتمثل الحضارة الحديثة **«بناءً ماديًّا» ذا مستويين:**

مستوى فلسفي (الأفكار المادية، التي هي نتاج العقل المادي).

ومستوى تطبيقي عملي، وهو المتمثل في مظاهر الحضارة الحديثة، بإيجابياتها وسلبياتها.

العقل المادي

وفي وصفه للعقل المادي يقول د. المسيري: والعقل المادي (الذي أنشأ هذه الحضارة) **عقل محايد، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية** (الخاصة بنشأة الإنسان ومآله، والغرض من وجوده في الكون) أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. ويتعامل العقل المادي مع ما يصله من معلومات ومعطيات ولا يمكنه تجاوزها. لذا، فهو يفرز ما يمكن تسميته **«منطق الأمر الواقع»** أو **«أخلاق الصيرورة»**، أي أنه لا يعترف بوجود قيم أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة، ويرى أن كل شيء ـ بما في ذلك تلك القيم ـ في حالة تغير وتحول دائمين، ولذا يفرض هذا المنطق على الإنسان أن يستمد قيمه من واقعه المتغير.

والعقل المادي **لا يهتم بالسمات الخاصة للظواهر أو بخصوصيات كل إنسان فرد، فهـو يركز عـلى الجـوانب العامـة.** ويمكن تشبيهه بأشعة إكس، التي تعطينا صورة للهيكل العظمي للإنسـان ولكن لا يمكنها أن تنقل لنا صورة الوجـه الإنساني في أحـزانه وأفراحـه. وفي الوقت نفسه **يهتم هذا العقل بالتفاصيل بشكل مبالغ فيه!** لذلك يمكن تشبيهه أيضًا بالميكروسكوب الذي يُظهِر أدق تفاصيل الخلية دون أن ينقل لنا الصورة الكلية لهـذه الخلية.

ولما كان **التاريخ** بنية غير مادية، تتسم بالتركيب والإبهام، فلا يمكن للعقل المادي أن يتعامل معه بكفاءة، خاصة وأن التاريخ من صنع الإنسان ذي الجانبين (المادي والروحاني). لذلك، فالعقل المادي **يقدس الأمر الواقع على حساب الحق التاريخي** (يشير الدكتور المسيري بذلك إلى الصراع العربي الإسرائيلي).

نخلص من هـذا إلى أن مهمة العقـل المادي هي اختزال كـل شيء ـ بما في ذلك الإنسان ـ في جانبه المادي فقط، بهدف الاستفادة منه، لذلك **فهو يقوم بهدم الإنسان وتفكيكه إلى عناصر مادية**

أولية. ويعتبر الفكر المادى أن العقل يفكر كما تهضم المعدة الطعام وكما تفرز الكبد الصفراء. وهذه الرؤية العقلانية المادية للإنسان ترده إلى طينته وتنزع عنه القداسة وتفقده مركزيته فى الكون.

الفكر المادى

كان طبيعيًّا أن يفرز العقل المادى فكرًا ماديًّا، يعرض د. المسيرى أهم ملامحه فيقول: لعل **«هوبز»**[1] هو أول مفكر ساير المفاهيم المظلمة للعقلانية المادية، حين أعلن أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وأن التعامل الاجتماعى بين البشر لا يتم بسبب فطرة خَيِّرَةَ فيهم، وإنما من فرط خوفهم، ويتم بدافع غريزة حب البقاء. وقد اتفق معه **«ماكيافللى»**[2] حين أعلن أن الوسائل كلها مبرَرَة من أجل تحقيق السلطان السياسى.

أما **«إسبينوزا»**[3] و**«نيوتن»**[4] فقد قدما عَالمًا آليًّا تمامًا، لا تُستثنى الذات الإنسانية من قوانينه المادية. وأكد هذا المعنى الفلكى **«لابلاس»**[5] حين قال لنابليون: إن تصوره لبنية الكون لا يحتاج لافتراض وجود إله.

وأَكَّدَ **«جون لوك»**[6] أن العقل صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وأن ليس هناك دور لفطرة خَيِّرَة توجهه. وبَيَّنَ الماركيز **«دى صاد»**[7] و**«فرويد»**[8] أن الإنسان يحوى الذئب داخله (دوافع) وخارجه (سلوك)، وأن ذاته المتحضرة ما هى إلا قشرة واهية تخبئ ظلمة تعوى داخل الإنسان ومِنْ حوله. ويرى **«دارون»**[9] ضرورة الصراع من أجل البقاء، وأن البقاء للأصلح. وقد أعلن **«نيتشه»**[10] أن ما تفرضه الذات الإنسانية من مُثُل وهمية هى إحدى الحيل التى يحاول بها الضعفاء أن يخنقوا حقوق الأقوياء. ويرى **«ماركس»**[11] أن الذات الإنسانية المستقلة وهْم ما بعده وهم، فوراء المُثل والقيم يوجد الصراع الطبقى ووسائل الإنتاج.

---

(١) Thomas Hobbes: (١٥٨٨ – ١٦٧٩)، من كبار الفلاسفة السياسيين البريطانيين.
(٢) Niccolo Machiavelli: (١٤٦٩ - ١٥٢٧)، فيلسوف إيطالى، اشتهر عنه قوله بأن الغاية تبرر الوسيلة.
(٣) Baruch Spinoza: (١٦٣٢ – ١٦٧٧)، الفيلسوف الألمانى اليهودى، من الدعاة لمفهوم وحدة الوجود.
(٤) Isaac Newton: (١٦٤٢ – ١٧٢٧)، عالم الفيزياء البريطانى الأشهر، صاحب قوانين الحركة والجاذبية.
(٥) Marquis de leplace: (١٧٤٩ - ١٨٢٧)، عالم فلك ورياضيات فرنسى.
(٦) John locke: (١٦٣٢ - ١٧٠٤)، فيلسوف السياسة الإنجليزى.
(٧) Marquis de sade: (١٧٤٠ – ١٨١٤)، النبيل والفيلسوف والكاتب الفرنسى.
(٨) Sigmund Freud: (١٨٥٦ – ١٩٣٩)، طبيب الأمراض العصبية النمساوى، مؤسس علم التحليل النفسى.
(٩) Charles Darwin: (١٨٠٩ – ١٨٨٢)، عالم البيولوجيا البريطانى الأشهر، صاحب نظرية التطور.
(١٠) Friedrich Nietzsche: (١٨٤٤ – ١٩٠٠)، فيلسوف الإلحاد الألمانى الأشهر، الذى بَشَّرَ بالإنسان الأعلى (السوبر مان).
(١١) Karl Marx: (١٨١٨ - ١٨٨٣)، الفيلسوف الاجتماعى الألمانى الشهير، أشهر آثاره كتاب «رأس المال».

ويصل هذا الاتجاه إلى قمته فى **فكر ما بعد الحداثة، الذى يُعتبر دريدا**[1] **أشهر فلاسفته**، فلا وجود فيه لذات إنسانية تميز الإنسان بما تحمله من قيم ومُثل عما حوله من الماديات، كما لا توجد غاية عُليا للوجود الإنسانى.

وقد انعكست هذه النظرة الفلسفية على بنية المجتمعات المادية، أى على **المستوى التطبيقى العملى**. ويمكن اعتبار أن القرن التاسع عشر قد شهد **انتقالًا تدريجيًّا من الرؤية الآلية للإنسان إلى الرؤية العضوية**. فإذا كان «**نيوتن**» قد جعل من الكون ساعة والإله هو صانع الساعات الماهر (الرؤية الآلية)، فإن عالَم «**دارون**» العضوى يختفى منه «الإله» تمامًا؛ فأصول الإنسان تعود لأسلاف القردة العليا ومن قبلها الزواحف. ثم يؤكد «**فرويد**» أن غابة القِرَدة تقع داخل الإنسان فى شكل «لا وعى» مظلم وغرائز متفجرة. وقد أجرى العالم الروسى «**بافلوف**»[2] تجاربه على الكلاب ثم طبق نتائجها على الإنسان، فقد كان يفترض أنه لا توجد فروق جوهرية بين كليهما. وأخيرًا يأتى «**فوكوياما**»[3] (فيلسوف ما بعد الحداثة) ليزيد الطينة بِله، إذ يقارن الإنسانية ببعض الأشكال التى خُطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواجّ! أى أننا **أصبحنا لا شىء**. انتهى كلام د. المسيرى.

هكذا اختفى الإله، كما اختفى الإنسان المتسامى من عالم الفكر المادى، فصار الإلحاد إفرازًا مباشرًا لهذا الفكر.

القارئ الكريم

«**الإلحاد المعاصر صناعة أوروبية**»، رأينا فى هذا الفصل كم هى صواب هذه المقولة. وإذا كانت أوروبا قد شهدت أعتى موجة إلحادية فى أعقاب **الثورة العلمية**، فلا يعنى ذلك أن العلم أب روحى للإلحاد، إذ لا يتعارض أى من الاكتشافات العلمية العديدة مع الوجود الإلهى، لكن ترجع نشأة الإلحاد المعاصر إلى «**عوامل نفسية**» صاحبت تلك الثورة.

(١) Jacques Derrida: (١٩٣٠ - ٢٠٠٤)، الفيلسوف الفرنسى اليهودى، وُلد فى الجزائر. اشتهر بمذهبه فى الفلسفة التحليلية الذى يُعرف باسم الفلسفة التفكيكية Deconstruction، التى لا تعترف إلا بالأصول المادية للأشياء والظواهر، وتتنكر لكل ما هو غيبى. له أكثر من أربعين كتابًا.

(٢) Ivan Pavlov: (١٨٤٩ - ١٩٣٦)، عالم الفسيولوجيا الروسى الأشهر، مُنح جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب عام ١٩٠٤.

(٣) Y.F.Fukuyama: أستاذ العلوم السياسية والاقتصاد السياسى، أمريكى الجنسية، ولد عام ١٩٥٢ - أشهر كتبه كتاب «نهاية التاريخ» الذى صدر عام ١٩٩٢.

أما **الأب الحقيقى للإلحاد فهو الفكر المادى،** الذى أعاد إحياء **الفلسفة الوضعية المنطقية** بعد موتها! تلك الفلسفة التى تطلب لكل افتراض أو مسألة برهانًا تجريبيًّا أو رياضيًّا أو منطقيًّا مباشرًا، فكان طبيعيًّا أن ترفض تلك الفلسفة جميع العلوم الإنسانية والدينية التى لا تقوم على هذه البراهين!، وقد أفرزت هذه النظرة ـ بداهة ـ الفكر الإلحادى.

وفى الجـانب الآخـر، **أفرز الفكر المادى الحضارة الماديـة المعاصرة،** التى اختزلت الإنسان فى **ثالوث الإنتاج والاستهـلاك والاستمتاع،** فكان بديهيًّا أيضًا أن يتـوارى الفكر الدينى والإيمان بالإله.

وقد انطلق الإلحاد الجديد فى الغرب فى معارضته للدين من **رفض الكثير من المفاهيم المسيحية** التى تتعارض مع المنطق والعلم الحديث، ثم عمم نظرته على الديانات بصفة عامة. وقد اتخذت المعارضة للدين فى البداية شكـل **«الإنكار»،** فأطلق الملاحـدة على أنفسهـم اصطلاح «اللادينيين Atheists»، ثم تطورت المعارضة إلى **«العداء»،** واتخـذوا موقفًا «ضد الدين Antitheists». وأخيرًا فاجأنا الملاحدة فى الغرب والشرق بتخفيف العداء للديانات بصفة عامة وللمسيحية بصفة خاصة، وتحويل **عدائهم وكراهيتهم كلها إلى الإسلام!.**

والمُخزى أن يدعى الملاحدة الجدد أنهم يتبنون **«إلحادًا علميًّا»،** فى الوقت الذى ثبت فيه أن **«على رأس أعظم اكتشافات العلم الحديث يأتى اكتشاف أن هناك إلهًا»!** كما علقت مجلة تايم الأمريكية على تحول سير أنتونى **فلو** زعيم ملاحدة القرن العشرين إلى الإيمان بالإله بدافع من البراهين العلمية.



الباب الثاني

علم نفس الإيمان

لا شك أن الدين يتغلغل فى جميع جوانب حياتنا، حتى إن ريتشارد دوكنز (كبير الملاحدة الجدد) يُشبه هذه العلاقة بالصَّبغة التى تتخلل النسيج، فتصبغه بلونها ولا تنفصل عنه. ويُرجع دوكنز ذلك إلى أن **نظرة الإنسان للوجود تختلف تمامًا إذا كان هناك إله عن نظرته إذا لم يكن.**

والنفس الإنسانية **مجبولة بفطرتها** على رفض العدم بعد الموت، **وتواقة للخلود** فى حياة خالية من المعاناة والشر والألم. والمتأمل لمنظومة الأديان يجد أنها تُطَمئن الإنسان (وترسم له الطريق) أن من خَلَقَه على هذه الهيئة ما كان يدعه ليكابد هذه المخاوف. ومن ثم فالمنظور الدينى يؤكد أن **منظومة الألوهية والدين** (من جانب) **ومنظومة النفس الإنسانية** (من جانب آخر) **متكاملتان**، وعن هذا التكامل يدور هذا الباب حول «**علم نفس الإيمان**»، لنمهد به للموضوع الرئيس «**علم نفس الإلحاد**».

الفصل الثانى

الماديون والإيمان

- **ظهور الديانات**
  - (أ) نظريات التوحيد أولاً
  - (ب) نظريات تطور الأديان
  - بين مد وجزر
- **الفرضيات المادية لوجود الأديان**
  - فرويد ونظرية الإسقاط
    - فرضية فرويد فى الميزان
  - فرضية لودڤيج فيورباخ
  - فرضية كارل ماركس
  - فرضية نيتشه
  - فرضية برتراند رسل
  - مفهوم الإسقاط
- **تفنيد التفسير المادى للألوهية والأديان**
  - أولًا: صار «التوحيد أولًا» حقيقة
  - ثانيًا: تنكروا للإله كمصدر للديانات دون دليل
  - ثالثًا: الإمكانية لا تعنى أن الأمر قد حدث بالفعل
  - رابعًا: هل ينبغى ألا يكون للإله والدين فائدة؟!
  - خامسًا: الديانات لا تحقق رغبات الإنسان!!
  - سادسًا: ما مصدر شوق الإنسان للفضائل والكمالات؟!
- **القارئ الكريم**

«لا تحقق الديانات من رغبات الإنسان إلا «وعدًا» بالخلود، فى مقابل **التضحية بالرغبات والمتع الحالية «المضمونة»**. كما إن هذا الخلود ليس مضمونًا أن يكون فى النعيم، **فربما يكون فى الجحيم**، وفى الطريق إلى هذا الخلود يمر الإنسان بعذاب القبر. مع كل هذه الأعباء لا يمكن أن تكون الديانات ابتداعًا إنسانيًّا».

ظهور الديانات[1]

يقابل الدارسون لعلوم **تاريخ وتطور ومقارنة الأديان** نظرتين متقابلتين؛ تتبنى الأولى أن البشرية فى أول عهدها بالدين **قد عرفت التوحيد**، ثم اتجهت إلى تعدد الآلهة ثم عادت إلى التوحيد مرة أخرى. وترى النظرة المقابلة أن البشرية **قد بدأت بالتعدد** الذى تطور إلى التوحيد. وفيما يلى نطرح وجهتى النظر هاتين (شكل ـ ١):

أ) نظريات التوحيد أولًا

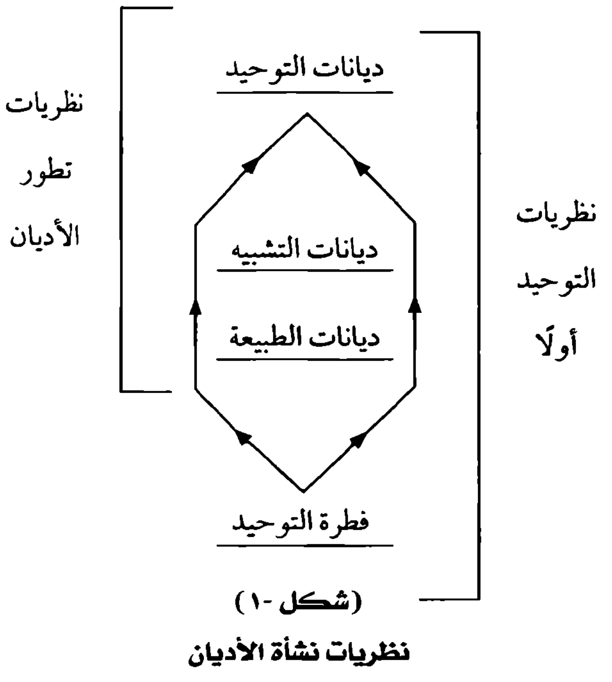
تتبنى هذه النظريات أن البشرية بدأت بالتوحيد، الذى تَكَشَّفَ لها **إما بالتأمل العقلى أو بوحى إلهى**، ثم حاد الإنسان عن التوحيد وسقط فى الشرك والتعدد والوثنية. وتتفق «نظريات التوحيد أولًا» مع مفاهيم الكتب المقدسة عن عقيدة البشرية الأولى، وتستند فى ذلك إلى **المنهج العلمى والتحليل الفلسفى**.

وتُرجع «نظريات التوحيد أولًا» **ميلاد عقيدة الألوهية** إلى تَجَذُّر **«فكرة السببية»** فى التفكير الإنسانى، فهى تدفع الإنسان إلى **الاعتقاد** بأن لكل موجود صانعًا، ومن ثم لابد لهذا الكون من صانع ذى قدرات تتجاوز القدرات الإنسانية.

كذلك ترى هذه النظريات **أن العقل المنطقى** يطرح مفاهيم صحيحة يسبق بها عمل **الخيال** الذى يتصور عادة أفكارًا غير صحيحة، ومن ثم بدأت الديانة **بمعتقدات توحيدية نقية ثم تلتها تصورات أسطورية** أفرزها الخيال، بعد أن فشل بعض ما قدمه الإنسان من قرابين

(١) المرجع الرئيس فى هذا المبحث هو كتاب: تطور الأديان، قصة البحث عن الإله. تأليف الدكتور عثمان الخشت، أستاذ فلسفة الدين بكلية الآداب ـ جامعة عين القاهرة، الناشر مكتبة الشروق الدولية ـ ٢٠١٠.

وأضاحى للإله الواحد فى تحقيق دعائه، فلجأ إلى الأرواح التى اعتقد أنها سوف تعينه على تحقيق ما يريد، ومن هنا آمن بتلك الوسائط بجوار إيمانه بالإله الخالق. بذلك دخلت البشرية فى مراحل تعددية وثنية شركية مختلفة، أصبح فيها لكل ظاهرة إله، حتى ظهرت الديانات الإبراهيمية التى أعادت للدين عقيدة التوحيد نقية ومكتملة.



(شكل -١)

نظريات نشأة الأديان

وتُرَجِّح «نظريات التوحيد أولًا» أن **تصورات البدائيين الأوائل للإله الواحد كانت مختلفة**. فمنهم من اعتقد أن الإله غير مُدرَك بالحواس لكننا نشعر به، ومنهم من تصوره ذا وجود لا شكل ولا صورة له مثل السماء ومثل الضوء، ورأى بعضهم أنه مثل الإنسان لكنه أرقى وربما يكون جالسًا فى السماء. ومهما اختلفت التصورات فقد كان لهذا الإله الأسمى **قدرات غير محدودة**، وكان هو حاكم الكون والمهيمن عليه دون شريك. هذا وقد اكتشف علماء الأنثروبولوجيا **عددًا من القبائل البدائية المعاصرة التى لا تزال حتى الآن على فطرة التوحيد الأولى**.

ب) نظريات تطور الأديان

أما الرأى المقابل فى نشأة الديانات، فتمثله **«النظريات التطورية»** (شكل –١)التى تذهب إلى أن شأن الإنسان مع الدين كشأنه مع مظاهر الحضارة الأخرى من فن وعلم وفلسفة.

فإذا كانت حركة الحضارة الإنسانية فى تطور وارتقاء، فإن **الدين بوصفه نشاطًا إنسانيًّا قد مر بمختلف مراحل التطور والارتقاء من أدنى إلى أعلى**، بِدءًا **بالنظرة التعددية إلى الآلهة**، مرورًا **بالنظرة الهرمية**، حتى وصلت بالإنسانية إلى التوحيد.

وإذا قارَنَّا هذه النظرة التطورية للديانات بالعلم، نجد أن **العقل العلمى** كان يلجأ فى البداية إلى العديد من المبادئ لتفسير الطبيعة، ثم أخذت هذه المبادئ تقل تدريجيًّا حتى وصلت إلى قوانين أعم[1]. ولا يزال العلم يبحث عن **نظرية واحدة** تضم كل القوانين الجزئية فى نظام واحد يوجه أفكارنا ويضبط استدلالاتنا[2]. وكما يسعى العقل العلمى نحو مبدأ واحد لتفسير الظواهر الطبيعية، فقد سعى **العقل الدينى** إلى الوصول إلى مبدأ واحد ترتد إليه كل الظواهر، فبدأ بالتخلص من الخرافات، والتزم الابتعاد البطىء والمستمر عن تعدد الآلهة، واتجه نحو الفصل بين الألوهية والطبيعة. **وقد وصل الدين إلى نقطة ارتقائه العقلية القصوى حين رأى أن القول بالإله الواحد هو الذى يحقق للعقل أكبر قدر من فهم الوجود.**

وعلى هذا الأساس، بدأ **منطق تطور الدين من ديانات الكثرة بـ«ديانات الطبيعة»**، وداخلها حدث تطور من عبادة الطواطم والحيوانات وأرواح الأسلاف إلى عبادة مظاهر الطبيعة. واشتملت هذه الأشكال على **امتزاج واضح بين الطبيعى والإلهى**. فعندما واجه الإنسان الحوادث الكونية المفاجئة مثل الزلازل والبراكين والفيضانات والصواعق والعواصف، نشأ داخله خوف من المجهول، وهو ما استثار خياله، فأخذ يفسر الظواهر الطبيعية باعتبارها قوى عاقلة فاعلة بذاتها، ثم قام بتأليه ظواهر الطبيعة، أو بإعطاء الألوهية صفات الطبيعة.

وتعتبر **«ديانات الطبيعة»** ديانات شركية تعددية، وفى مرحلة متقدمة منها تظهر ديانات **التسلسل الهرمى** للآلهة؛ والتى تؤمن بتعدد الآلهة مع إخضاعها لإله أكبر كالشمس. وتظل هذه الآلهة ممتزجة بالطبيعة قبل أن تتحول فى مرحلة تالية وتصبح على شاكلة البشر.

ثم يرتقى الوعى الدينى إلى **«ديانات التشبيه»**، وفيها عبد الإنسان **آلهة ذات صفات إنسانية**، لكنها أعلى قدرة وأكثر قوة، آلهة ذات إرادة تشبه الإرادة الإنسانية لكنها أكبر من إرادته، ويمكن استرضاؤها بوسائل استرضاء الإنسان رغبة فى اجتذاب خيرها واتقاء غضبها. وتتراتب هذه الآلهة **تراتبًا هرميًّا**، يقف فى أعلاه إله أكبر مثل زيوس عند اليونانيين. وتماثل بنية مجمع الآلهة

(١) صارت هناك قوانين للحركة والجاذبية، وأخرى للحرارة، وثالثة للكهرباء، ورابعة للمغناطيسية....، ثم توحدت قوانين الكهرومغناطيسية.

(٢) أطلقوا عليها اسم النظرية إم (M)theory، أو **نظرية كل شيء** Theory of Every thing (Toe). وقد مات أينشتين وهو يحلم بالتوصل إلى هذه النظرية.

بنية الأسرة أو بنية الدولة؛ كما فى الديانة الإغريقية القديمة وبعض الديانات المصرية القديمة، ويظهر الإله الأكبر فى بعض الديانات ككبير للعائلة، وأحيانًا يتجلى ويتجسد فى آلهة أخرى لكل منها وظيفة واختصاص.

بذلك يتبنى الطرح التطورى أن العقل الدينى بدأ رحلته بـ«**تصور طبيعى**» للألوهية، ثم دخل فى «**تصور إنسانى**» لها، ثم انتهى إلى **التعالى** عن الطبيعى والإنسانى. وقد صاحب هذا الانتقال التدريجى للألوهية من الكثرة إلى الوحدة انتقال من نوع آخر؛ هو **الانتقال من المحسوس إلى المعقول**، ومن **المتناهى إلى اللامتناهى**، ومن **الجزئى إلى الكلى**، ومن **العينى إلى المجرد**.

ويستمر الوعى الدينى فى ارتقائه حتى يصل إلى «**أديان التوحيد المتعالى**»، وفيها يرتقى الدين من **التوحيد غير الخالص إلى التوحيد الخالص**، ومن **الإله القومى** (نسبة إلى القوم كالهندوسية واليهودية) إلى **الإله العالمى** (رب العالمين فى الإســلام)، ومن **التوحيد المعقد المُلغِز** (ثالوث المسيحية المعاصرة) إلى **التوحيد الواضح الصرف** (الإله كما يطرحه الإسلام).

ويوازى ذلك التحول تحولًا فى «**منطق الاستدلال**»؛ من **منطق الأسطورة** إلى **منطق الواقع**، ومن **منطق الحس إلى منطق البرهان العقلى**، ومن **الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى الاستدلال بنظام الطبيعة**، ومن **منطق الحواة إلى منطق عدم التناقض**، ومن **المعجزات الحسية الوقتية إلى المعجزة البيانية الباقية**، ومن **الكتاب الذى يلتمس دليلًا من خارجه إلى الكتاب الذى يلتمس دليلًا من داخله**، ومن **توحيد غامض يعتمد على التسليم إلى توحيد مطلق مستند إلى الاستدلال البرهانى**، ومن منطق **«آمِن ثم تَعَقَّل» إلى منطق «تَعَقَّل ثم آمن»** (جدو ل ـ ١).

بين مدٍّ وجَزْر

وإذا كان تصور الإنسان للألوهية يتطور رُقيًّا مع الوعى، فإنه يتعرض فى أحيان كثيرة **لنكوص إلى الوراء**، ثم يعاود التقدم، ثم يرتكس مرة أخرى، وهكذا. لكن المحصلة النهائية هى التقدم نحو التوحيد.

وفى الوقت نفسه ينطوى العقل الدينى أحيانًا على نوع من **الازدواجية**، بين الارتقاء فى جانب والارتكاس فى جانب آخر، فنجده يجمع أحيانًا بين التوحيد وبين الخرافات أو الوسائط أو المعاونين. لذلك يمتنع القول أن الأديان ككل قد انتقلت تاريخيًّا من مرحلة إلى مرحلة جديدة، وهذا شأن الفلسفة أيضًا، **ومن ثم لا يوجد قانون ثابت يحكم تطور الأديان أو الفلسفة**.

أديان التعدد وأديان التوحيد

المسيحية والإسلام

(جدول -١)

أديان التعدد	أديان التوحيد
الطبيعية ـ التشبيهية	**المتعــالى**
صفات الإله	
موجودات الطبيعة	ليس كمثله شيء
صفات إنسانية	
ترتيب هرمى	توحيد مطلق
آلهة قومية	إله عالمى
ألهة محسوسة	إله معقول
عينى	مجرد
جزئى	كلى
متناهٍ	لا متناه
منطق الاستدلال	
منطق الأسطورة	منطق الواقع
منطق الحس	منطق البرهان العقلى
الاستدلال بخوارق الطبيعة	الاستدلال بنظام الطبيعة
منطق الحواة	منطق عدم التناقض
المعجزات الحسية الوقتية	المعجزة البيانية الباقية
كتب تلتمس دليلًا من خارجها	كتاب يلتمس دليلًا من داخله

المسيحية والإسلام

توحيد معقد ملغز غامض	توحيد واضح صرف
يعتمد على التسليم	يعتمد على البرهان
آمِن ثم تَعَقَّل	تَعَقَّل ثم آمن

وهذا المد والجذر يختلف عن مسار العلم، **فالعلم تراكمى**، ينشأ ويتطور فى التاريخ وفق **قانون التقدم**. ويرجع ذلك إلى أن **موضوعات العلوم** تتفرع من الظواهر المادية المحسوسة

الأقرب منالًا للبحث الإنسانى، أما **موضوعات الأديان** (الظواهر الروحية والغيبية) فهى أبعد منالًا، بحكم طبيعتها التى تتجاوز قدرات العقل الإنسانى المقيدة بعالم المحسوس. ذلك علاوة على أن الظواهر الدينية لاتحكمها الضرورة الطبيعية الحتمية التى تحكم العلم، بل تلعب فيها الحرية دورًا كبيرًا.

ومن ثم، **فالظاهرة الدينية أكبر وأعقد من الظاهرة العلمية.**

وإذا كانت البشرية قد توحدت حول العلم الطبيعى الواحد والعلم الرياضى الواحد، بعد أن وصل العلم إلى مرحلة القوانين المتفَق عليها، فإن **البشرية لا يمكن أن تلتقى على الدين الواحد ذى التصور الواحد**. وسيظل هذا الحلم لبعض الفلاسفة ورجال الدين مجرد وهم؛ **فالخلاف بين الناس سوف يبقى ما دام هناك بشر على وجه الأرض**، بسبب تنوع الطبائع البشرية واختلاف طرق التفكير وصراع المصالح وتباين الأهواء.

وفى أحيان كثيرة، **يتحول دين الوحى إلى دين وضعى**، وذلك عندما **يدخله التحريف بسبب الظروف التاريخية**، وتنقلب فيه الأولويات ويغيب مقصده الكلى، ويفقد مضمونه النقى، ويتحول إلى سلطة ومؤسسة وكهنوت تركز على الطقوس والشعائر أكثر مما تركز على نقاء الضمير والفضيلة واتساق الظاهر والباطن. **وقد تركز الدين على الجانب الشكلى والسلطوى والقهرى** أكثر مما يركز على الجوهرى والعقلى والذاتية الحرة، وذلك **نتيجة خيانة أتباعه** وتغليبهم للمصلحة الذاتية تحت ضغط الصراع على السلطة الاجتماعية والسياسية. وبذلك يتحول الدين من دين وحى إلى دين وضعى، فيبدأ فى الدخول فى **مرحلة الانحدار**، لكى يفسح المجال لدين جديد،... وهكذا.

وبعدما يبلغ الوعى الدينى كامل نضجه، بأن يتحول التوحيد إلى عقيدة واضحة بلا أسرار، **قد يدخل فى مرحلة الاضمحلال**، فتطرأ على تصورات أتباعه **عناصر شركية وضعية**. **عندها لا يكون** الإنسان بحاجة إلى دين جديد؛ بل يكون **بحاجة إلى فهم جديد للدين يخلصه من العناصر الوضعية فيه**، أى بحاجة إلى من يجدد له أمر دينه[1].

(١) قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد (يصلح) لها (أمر) دينها**».

هذا الحديث من الأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابى الجليل «أبو هريرة». و(يصلح) و (أمر) فى بعض الروايات. رواه أبو داود، وصححه السخاوى والحاكم والبيهقى وابن حجر والألبانى.

الفرضيات المادية

لوجود الأديان

إذا تأملنا تفسير الماديين والملاحدة لظهور الأديان، نجد أنهم قد انطلقوا فى تفسيراتهم من نفس الفطرة التى ينطق منها المؤمنون (**كراهية العدم والرغبة فى الخلود المُنَعَّم**)، لكنهم افترضوا **أن الإنسان قد «ابتدع» منظومة الألوهية والدين من أجل أن يخفف من مخاوفه الفطرية**. أى أن «**الإنسان قد خلق الإله**»، حيث إن «**الحاجة أم الاختراع**».

وقد انطلق هؤلاء ليضعوا فرضيات يجيبون بها عن سؤال محدد:

بما أن ليس هناك إله، فلماذا هناك أديان؟

والمتأمل لهذا السؤال، يجد أن من وضعوا هذه الفرضيات قد انطلقوا من موقف دوجماطيقى[١]، فقد **افترضوا أن ليس هناك إله** دون أن يُفَنِّدوا أدلة المتدينين على الوجود الإلهى، ثم انطلقوا فى وضع الفرضيات التى يفسرون بها وجود الأديان بالرغم من عدم وجود إله!!

وسنعرض الآن أهم الفرضيات التى طرحها الماديون للإجابة عن سؤالهم هذا، وطبيعى أن نبدأ **بفرويد** صاحب الطرح الأشهر فى هذا المجال.

فرويد[٢] ونظرية الإسقاط Projection Theory:

بدلًا من أن يرجع فرويد إلى الكتب المقدسة، ليدرسها ويتأكد من صدقها أو كذبها، أو أن ينظر فى أدلة المؤمنين على الوجود الإلهى، فقد نظر إلى **الطبيعة المعقدة للنفس الإنسانية**، وانطلق منها لتفسير وجود الديانات.

اعتبر فرويد أن **المخاطر التى تواجه الإنسان فى حياته** هى المحرك الأول لنشأة الديانات. فالإنسان من أجل مواجهة تحديات وأخطار قوى الطبيعة لجأ إلى العيش فى مجتمعات وبناء الحضارات. وبالرغم من ذلك لم يستطع أن يُحَجِّم مخاطر الطبيعة (الزلازل - البراكين - العواصف - الفيضانات - الأمراض - ... وأخيرًا الموت)؛ أو أن يقضى على مخاوفه منها، **فأين المفر؟**

---

(١) الدوجماطيقية Dogmatism: التعصب لرأى دون دليل عليه.

(٢) سيجموند فرويد Sigmund Freud: (١٨٥٦ - ١٩٣٩) عالم النفس النمساوى، مؤسس مدرسة التحليل النفسى. وهذا العرض عن كتابه: The Future of an Illusion, 1927

تبنى فرويد أن الإنسان وجد المخرج فى **الاستناد إلى قوى غيبية أقوى من الطبيعة**، فكان القول بالإله. ومن ثم فالإله والدين **تحقيق لرغباتنا الطفولية Wish Fulfillment** فى الحماية والأمان. ولما كانت هذه الرغبات غير واعية، فإن الاعتراض على القول بها لعدم إدراكها مرفوض!!

ويشير فرويد إلى مصدر هذه الرغبة قائلًا: «إن الدين مجرد توهمات، إشباع لأقدم وأقوى رغبات الإنسان وأكثرها إلحاحًا، ويقف وراء هذه الرغبة **الإحساس المزعج بالعجز فى طفولتنا، ذلك الإحساس الذى يثير فينا الحاجة للحماية التى خبرناها فى حب وحماية آبائنا لنا فى طفولتنا**».

إن فرويد بذلك «**يُسقط Project**» احتياجنا لحماية آبائنا فى طفولتنا على الإله الذى افترضنا وجوده فى السماء. لذلك، سُميت النظرية بـ «**نظرية الإسقاط**[1] **projection Theory**»، كما أسماها أيضًا «**نظرية التوهم Illusion Theory**»، وطرحها فى كتابه «مستقبل توهم Future of an Illusion».

وينتقل فرويد فى كتابه الطوطم والتابو[2] Totem and Taboo إلى ظاهرة «**الشعور بالذنب Guilt**» الناجمة عن الصراع بين الأب وابنه، والذى ينتهى بقتل الابن لأبيه، وما ينتج عن ذلك من تأنيب الضمير، وهو ما عُرف باسم «**عقدة أوديب**».

ويفسر فرويد «**عقدة أوديب**» بأن أول أشكال المجتمعات البدائية كان قَبَلِيًّا، وكان **الأب (رئيس القبيلة)** عنيفًا شرسًا وغيورًا، لذلك كان يستحوذ على نساء القبيلة ويمنعهن أبناءه الذكور عندما يكبرون، كما كان يستأثر بكل السلطات، لذلك **تحالف أبناؤه على قتله ثم التهموه**. وبالتهام الأب تَمَثَّل به الأبناء، وأخذ كل منهم قدرًا من قوته. لذلك، وضع الإنسان فى الديانات التى ابتكرها طقس **تقديم الأضحيات** والأكل منها، وجعلوا من الأب **طوطمًا يتوجهون إليه بالتقديس**.

لقد أشبع الأبناء البدائيون **كرههم لأبيهم** بقتله، واحتلال مكانته والتمثل به بالتهامه. أما **الإحساس بالندم** فقد عالجوه بأن ربطوا بين أبيهم وبين القوة السماوية الغيبية (الإله) التى افترضوا وجودها لتدعمهم ضد الطبيعة.

(١) سنرى بعد قليل أن فرويد نقل نظريته عن الفيلسوف الألمانى فيورباخ.
(٢) الطوطم: تمثال (وثن) يمثل حيوانًا أو نباتًا يرمز إلى الأسرة أو العشيرة.
التابو: شيء أو مفهوم محرم أو محظور، باعتباره مقدسًا أو نجسًا أو ملعونًا.

هكذا استطاع الأبناء مجتمعين أن يفعلوا ما كانوا عاجزين عنه فرادى، وأدركوا أهمية الاجتماع حول شىء معين، ومن هنا كان **اجتماعهم حول الدين**.

ويتتبع فرويد **نشأة الديانات**، ويتبنى أنها كانت **بدائية تعددية، ثم** تدرجت وتعقدت حتى وصلت إلى **الديانات التوحيدية**، التى يتصف فيها الإله بصفات أبوية. ولا شك أن التعامل مع الإله الواحد يكفل تحقيق الحميمية والقرب المُتمثِلَين فى العلاقة بين الابن وأبيه.

هكذا تقوم نشأة الأديان عند فرويد على أساسين نفسيين رئيسين، **الخوف من الطبيعة** (كعنصر خارجى) **والشعور بالذنب** (كعنصر داخلى).

قد لا ينتبه الكثيرون إلى أن فرضية فرويد على غرابتها وشذوذها **تحمل جانبين إيجابيين** مهمين فى صف المتدينين. لقد أقر فرويد بأن **هناك رغبة نفسية ومصلحة فى تبنى الدين**، كما أثبت أن **للإنسان ضميرًا يشعر بالتأنيب**، وهو ما يعجز التطور الداروينى عن تفسيره.

فرضية فرويد فى الميزان

إذا كنا بعد عرض باقى الفرضيات المادية لنشأة الأديان سنناقش عناصر ضعفها، فإن فرضية فرويد تزيد عليها **بعناصر ضعف خاصة بها**، نعرضها فيما يلى:

١ - لاقى التفسير الفرويدى لنشأة الديانات رفضًا كاملًا من **علماء الأنثروبولوجيا**، وذلك لسبب بسيط، **إذ لا دليل عليه**. كذلك، أثبت الأنثروبولوجيون أن الحياة الإنسانية **بدأت بنظام الأسر الصغيرة**، وليس بنظام القبيلة الواحدة التى يستحوذ على نسائها رئيس القبيلة (كالشمبانزى)[١]، وهى الفكرة التى اعتمدت عليها فرضية فرويد.

وقد أكمل عالم الأنثروبولوجيا الكبير ولهلم شميدت wilhelm Schmidt[٢] القضاء على نظرية الطوطم الأوديبى لفرويد (اتخاذ القبيلة من أبيها طوطمًا تقدسه) عندما بيَّن أن بعض القبائل البدائية الحالية وبعض الحضارات المتقدمة الآن **لم تمر بمرحلة الطوطمية لكى تعرف الديانات**[٣].

إن نظرية فرويد لتفسير نشأة الديانات فى ضوء عقدة أوديب ليست إلا «**هو كذه Just-So Story**».

---

(١) B. Malinowski, the Father in Primitive psychlogy, 1927

(٢) يأتى التعريف به بعد قليل.

(٣) Schmidt, origin and Growth of religion pp 159 - 15

٢- يتبنى فرويد فى كتابه مستقبل التوهم[1] (يقصد الدين) الذى طرح فيه فرضيته، أن الأفكار الدينية نشأت مثل كل إنجازات الحضارة، إنها دفاع الإنسان النفسى ضد قوى الطبيعة المدمرة. إن هذا الطرح سقيم للغاية؛ فاعتبار فرويد أن ما يسرى على الدين يسرى على كل إنجازات الحضارة يفند الدين **ويفند أيضًا كل إنجازات الحضارة، ومنها التحليل النفسى** الذى أسسه فرويد. ذلك أن **الإنجازات الحضارية** (الفيزياء - الكيمياء - البيولوجيا - الفنون - الفلسفة...)، مثلها مثل الدين، **يقف وراءها دافع نفسانى للإنسان لأن يحمى ذاته وتقدمه، فهل معنى ذلك أنها أوهام؟!**

٣- إن نمط «**الإله الأب Father God**» الذى يفسر به فرويد نشأة الديانات هو الطرح المسيحى واليهودى التاريخى[2]، لكنه **لا يفسر الديانات التى لا تتبنى هذا المفهوم** (كالإسلام والهندوسية وديانات بين النهرين)، ومن ثم فهذه الفرضية قاصرة على الديانتين المسيحية واليهودية وحدهما.

٤- يدرك الأطباء النفسانيين أنه لا يمكن سَوْق أدلة التحليل النفسى على **نظرية الإسقاط** كما يطرحها فرويد، **فهى ليست جزءًا أصيلًا من التحليل النفسى!** ويؤكد بول ڤيتنر أن موقف فرويد من الدين «**موقف شخصى**» متجذر فيه، ويقدم على ذلك دليلين:

أ- لقد تم طرح نظرية الإسقاط **قبل فرويد بسنوات عديدة، فقد طرحها لودڤيج فيورباخ** فى كتابه The Essence of Christianity، وشاعت بشكل واسع فى الدوائر الفكرية فى أوروبا، وقد قرأها فرويد فى صباه. وعندما طرح فرويد النظرية، استخدم العديد من اصطلاحات فيورباخ مثل تحقيق الرغبات Wish Fulfillment، كما استخدم أيضًا اصطلاحات حماسية لفيورباخ لا علاقة لها بالتحليل النفسى؛ مثل «قوى الطبيعة العليا الساحقة الماحقة» و«الانطباع المرعب للأطفال عديمى الحيلة». وما فعله فرويد هو أنه **أعاد طرح النظرية بشكل أكثر بلاغة، وذكرها ضمن منظومته فى التحليل النفسى**، فى وقت كانت **الأوساط الفكرية والعامة أكثر تقبلًا لأفكارها.**

ب- أكد فرويد بنفسه فى خطاب كتبه عام ١٩٢٧ لصديقه أوسكار فستر[3]

(١) The Future of an Illusion.

(٢) المقصود بالمسيحية واليهودية التاريخية هى المسيحية واليهودية كما هى الآن، وليس كطرح القرآن الكريم عنهما.

(٣) Oskar Fister : (١٨٧٣ - ١٩٥٦) وزير سويسرى، كان مهتمًّا بالتحليل النفسى والفلسفة والديانات.

oskar Fister أن نظرية الإسقاط ليست أصيلة فى التحليل النفسى، فقال: «لنكن واضحين، إن وجهات النظر التى طرحتها فى كتابى The Future of an illusion **ليست جزءًا من نظرية التحليل النفسى، لكنها آرائى الشخصية».**

وبالرغم من ذلك، فإن الماديين الذين يستخدمون فرضية فرويد لتفنيد مفهوم الألوهية والديانات، يستندون إلى الفرضية إلى حد كبير **ويعطونها حجية فوق ما تستحق**، بدعوى أنها طرح لعلم التحليل النفسى.

٥- إن أهم نقض يُوَجَّه لفرويد فى تصديه لتفسير نشأة الدين هو تفنيد ما ادعاه فى كتابه «مستقبل التوهم» من أنه على وعى كامل بالخلفيات النفسية للإيمان بالإله. والحقيقة غير ذلك!!

فخبرة فرويد فى التحليل النفسى «لمرضى الإيمان»!! ضئيلة للغاية.

ففرويد لم ينشر تحليلًا نفسيًّا لحالة واحدة مؤمنة[1]، أى لم يقدم أى دليل نفسى تحليلى لنظريته فى الإسقاط، بل لقد دفعته خلفيته النفسية الرافضة للألوهية لسبك الحجج الأنثروبولوجية والتاريخية والفلسفية، كما دفعته لنقل النظرية برمتها عن فيورباخ دون أية أدلة طبية من التحليل النفسى.

كذلك، لا توجد دراسات علمية جادة لاحقة تؤيد فرضية الإسقاط. كما أن اعتبار الإيمان بالإله عُصاب Neurosis (اضطراب عصبى وظيفى) قد تم رفضه. وبالعكس فهناك العديد من الدراسات التى تثبت أن الإيمان الدينى الجاد يصحبه صحة بدنية وعقلية ونفسية أفضل.

٦ - انشق على فرويد عددٌ من تلاميذه الذين رفضوا التفسير الجنسى والعدوانى للسلوك ولنشأة الأديان، من هؤلاء **«ألفريد أدلر»** (١٨٧٠ - ١٩٣٧) الذى أنشأ مدرسة علم النفس الفردى مستبدلًا الدوافع الغريزية عند فرويد بعدد من **«الدوافع الاجتماعية»**، مع التأكيد على **الإرادة والوعى**. كذلك انشق **«كارل جوستاف يونج»** (١٨٧٥ - ١٩٦١) على مفاهيم فرويد لعدم نضجها وتجاهلها للاعتبارات الدينية، وأشار إلى قوة دافعة

(١) يذكر p.swales (فى مجلة National psychological Association of Psychoanalysis May, 16, 1997) أن «Herr E» أحد مرضى فرويد كان كاثوليكيًّا مؤمنًا، وقد كان هذا المريض مهمًّا لدى فرويد، فقد استقى منه مفهومه عن عقدة أوديب. هناك مشكلتان بخصوص هذا المريض:
١- لم ينشر فرويد التاريخ المرضى للمريض.
٢- حالة واحدة لا تجعل من فرويد خبيرًا فى الخلفيات النفسية للإيمان بالإله كما ادعى.

أكبر من الطاقة الجنسية وهى «**طاقة الحياة**»، وكان يعلق على باب منزله عبارة «**الله موجود**». كما يركز «**إيريك فروم**» (١٩٠٠ - ١٩٨٠) على «**العوامل الاجتماعية**» لتفسير نشأة الديانات والمنظومات الأخلاقية.

هكذا تنهار ـ تحت معادل العلم ـ إحدى أسخف أطروحات الماديين لتفسير ما صار بمثابة البديهية فى الفكر الإنسانى، وهى الأصل السماوى للديانات.

فرضية لودفيج فيورباخ[١].

إذا كان فرويد ينحى فى تفسير ظهور الديانات منحى نفسيًّا، فإن فيورباخ (كعالم أنثروبولوجيا) ينظر إلى الدين باعتباره مفهومًا نفسيًّا أنثروبولوجيًّا[٢].

فعلى **المستوى النفسى**، يُعتبر الإله عند فيورباخ **إفرازًا لتخيل الإنسان Imagination**، فهو **إسقاط Projection** لما يريده لنفسه، ثم **تجسيد Objectification** هذا المراد فى الإله. ولما كان الإنسان هو الكائن الوحيد الواعى بنفسه والقادر على التفكير بشكل مجرد والقادر على إسقاط هذه المجردات على الخارج، فمن هنا نشأ الدين. ويعتبر فيورباخ أن هذا **الوعى والتجريد والخيال هو الفرق بين الإنسان والحيوان**، لذلك فالبهائم لا دين لها.

وطموحات الإنسان التى يسقطها فيورباخ على الإله هى **رغبته فى الخلود**، ومن ثم فإن ابتداع الإله والدين هو «**تحقيق لهذه الرغبة**» Wish Fullfillment. ولما كان الموت هو المحرك لهذه الرغبة، يصبح **الموت هو وقود الدين**، فلو لم يكن هناك موت ما كان هناك دين.

وبذلك فالإنسان لا يتصور الإله **انطلاقًا من واقعه، ولكن انطلاقًا مما يجب أن يكونه.** فالمؤمن يجب أن يتصف بالكمال والطهر والتسامى والبركة والتخلص من سطوة الغرائز، وأن يتمتع بالخلود، ولما كان الإنسان يعجز عن ذلك فى الواقع، فإنه يفترض وجود الإله ويُسقِط عليه هذه الكمالات ويربط نفسه به **ويسعى للتخلق بأخلاقه**. ومن ثم فالديانات عند فيورباخ **هى تعبير عن رغبة الإنسان فى تأليه ذاته Deification.**

ويعتبر فيورباخ أن **قيامة المسيح** The Resurrection تحقق بشكل حاسم فى هذه الدنيا رغبة الإنسان فى البقاء والخلود.

---

(١) لودفيج فيورباخ Ludwig Feurbach (١٨٠٤ - ١٨٧٢)، الفيلسوف الألمانى وعالم الأنثروبولوجيا الشهير.

(٢) جاء هذا الطرح فى كتابه Religion is The Dream of the Human Mind

ومن الجانب **الأنثروبولوجى**، يُرجع فيورباخ تعدد صور الإله إلى أن الإنسان يشكل الإله تبعًا لتصوره عن نفسه، ذلك **التصور الذى يختلف من حضارة لأخرى**:

فالألمانى القديم يعتبر الإله هو المحارب الأعلى،

وكانت آلهة هوميروس تحت قيادة زيوس، الذى كان أقواهم، فى وقت كانت القوة الجسدية هى المعيار.

وآلهة القوقازيين كانت بيضاء البشرة،

وآلهة الزنوج (حتى المسيح) سوداء البشرة،

وآلهة الهنود يشبهون الهنود ويتصرفون مثلهم،

وآلهة الكاوبوى (رعاة البقر) كالكاوبوى.

إن آلهة **الإنسان تمثل ذاته** His Egoism.

ويُقَرِّب فيورباخ تصوره بقوله: لو كانت للنباتات أعين وأنوف وقدرة على الحكم لاعتبر كل نبات أن **زهرته هى أجمل الزهور**.

ويرى فيورباخ أن الإنسان فى افتراضه وجود الإله ذى الكمالات، وسعيه للتشبه به، فإنه **يتنكر لطبيعته** ويصبح غريبًا عنها، أى يخدع نفسه. وللخروج من هذه الحيرة (عند فيورباخ) على الإنسان أن يعلن أن ليس هناك إله، فذلك بمثابة إقرار وتثبيت لحقيقته البشرية.

هكذا فإن فيورباخ ينظر إلى الدين **كظاهرة أنثروبولوجية**، وفى نفس الوقت فإنه (مثل فرويد) قد أعطى للظاهرة **أبعادًا نفسية**. وفى ذلك **تشابه فى المواقف**؛ الفيلسوف والأنثروبولوجى فيورباخ يصبغ طرحه ببعد نفسى، وعالم النفس فرويد يقتنص طرحًا أنثروبولوجيًا ويلبسه ثوبًا نفسيًّا.

وإذا كان تصور الإله على الصورة البشرية المثلى يتناسب مع عرض المسيحية التاريخية للمسيح الإله، فإنه يتعارض تمامًا مع طرح الإسلام الذى ينظر إلى الله ﷻ باعتباره: ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ...﴾[1]، كما يتعارض مع طرح الهندوسية.

(١) سورة الشورى آية ١١.

فرضية كارل ماركس[1]

لا يهتم ماركس بالألوهية والدين باعتبارهما مفاهيم غيبية أو نفسية أو أنثروبولوجية، ولكن لمنزلتهما من نظرته للتاريخ التى هى محور فلسفته.

انطلق ماركس مما وصل إليه فيورباخ، من أن جذور الدين ترجع إلى **شعور الإنسان بذاته وإلى إعماله خياله، وإلى بحثه عن «الكائن الأعلى The Supreme Being» فى نفسه.** ثم يضيف ماركس إلى هذا الطرح لفيورباخ أن الخيال، الذى خلق الإله وابتدع الدين، يجعل الأغنياء يستغلون الدين لاتقاء شر الفقراء، وبذلك **صار الدين (عند ماركس) أفيونًا للشعوب.**

فماركس يُرجع الدين (فى الإطار العام لفلسفته) إلى **«صراع الطبقات»**. فالعقائد الدينية مُنتَج إنسانى، شكلته الطبقة الحاكمة لتحقيق المنافع الاقتصادية. فأصحاب الثروة (البورجوازيين) يؤكدون للفقراء (طبقة البروليتاريا = الطبقة العاملة) أن الفقر «قَدَر»، وأن الإله سيعوضهم فى حياة تالية، خاصة إذا كانوا عبيدًا مطيعين ومتجين. وبذلك يزداد الغنى غنى فى هذه الحياة، ويقنع الفقير ولا يفكر فى التمرد والثورة على وضعه المتدنى، وهذا هو حال البورجوازيين والبروليتاريا فى جميع أنحاء العالم.

بذلك يصبح الدين عند ماركس هو **تحايل الأغنياء** ليحموا مصالحهم وأنفسهم من ثورة الفقراء.

وإذا كان الدين يُستخدم بالفعل كأفيون للشعوب لتخديرهم عن مفاسد المجتمع، كما يُستخدم لتحقيق فوائد، فإن ذلك **لا يعنى أن الإنسان هو الذى اخترعه** لتحقيق فوائد اجتماعية واقتصادية، فماركس لم يقدم دليلًا على ذلك.

ويرى ماركس أن الدين القائم على الألوهية هو **«تأوهات الإنسان المكبوت»**، وهو بمثابة العاطفة لعالم بلا قلب، وهو روح الوجود المادى. ولما كانت الديانات الإلهية (عند ماركس) **تُصَبِّر الإنسان على الظلم وعدم المساواة فى الحياة، فإنه يحلم بأنه إذا تلاشت هذه الصعاب** وأصبح الإنسان يحيا فى مجتمع المدينة الفاضلة ستتلاشى الحاجة إلى الإله تلقائيًا. **بذلك يقضى مجتمع المدينة الفاضلة على الحاجة للإله**، ويحرر الإنسان من الجرى وراء السعادة الوهمية، فيصبح أكثر حرية وأكثر قدرة على التحكم فى مصيره، وأكثر إدراكًا لمعنى وجوده، **أى يعود حلم الماركسية بالإنسان إلى حقيقته.**

---

(١) كارل ماركس karl Marx:(١٨١٨ - ١٨٨٣)، الفيلسوف والاقتصادى وعالم الاجتماع الألمانى، واضع النظرية الماركسية.
هذا الطرح عن كتابه: The Communist manifesto

وعندما تعود العلاقات بين الناس إلى طبيعتها الفاضلة، وعندما يعود الإنسان إلى حقيقته وحريته، عندها لن يصبح الإنسان محتاجًا لهذا الأفيون.

لقد كان نقد ماركس للدين مفيدًا إلى حد كبير، ليس فقط للملاحدة بل وأيضا للمتدينين!! فقد لفت ماركس نظرنا إلى استغلال الحكام والأغنياء للدين لتخدير الفقراء. كما لفت نظرنا إلى مفاهيم اقتصادية مهمة، فمنذ ماركس لم يعد أحد ينكر دور العمل فى التاريخ الإنسانى.

ولا شك أننا نقبل الوصف بأن «الدين أفيون الشعب» فى حالة إثبات أن ليس هناك إله، أما إذا كان هناك إله يصبح «**الإلحاد أفيون الشعوب**»، فإنكار الإله بالإلحاد يخدر الناس ويعميهم عما ينتظرهم من عواقب وخيمة فى الحياة الآخرة إذا عاشوا حياة لا أخلاقية.

فرضية نيتشه[١] ...

يُرجع نيتشه الدين إلى **خوف الإنسان من نتائج الصراع بين أطراف يغريها بريق القوة بالتقاتل**. لذلك، ابتدع الإنسان الدين لينسب إليه القيم الأخلاقية التى **تحد من جموح السوبرمان القابع داخلنا**.

ويفرق نيتشه بين أخلاق العبيد (القطعان) وأخلاق السادة[٢] **فأخلاق السادة يمثلها السوبرمان** Supermen الحاكم للأرض، الذى لا ينقاد وراء أوهام الحياة الأخرى بعد الموت. **أما العبيد فيتبنون الأخلاق التى تُعلى من ضعفهم**، كالتعاطف والتواضع والشرف والعفة والصداقة، وفى الوقت نفسه تمكنهم من انتزاع حقوق الأقوياء!، ومن ثم تعينهم هذه الأخلاق على البقاء فى عالم الصراع.

ويعتبر نيتشه **أن المسيحية تجسد أخلاق العبيد**، كما يعتبر مسيحية القرن التاسع عشر تخالف (بل وتحطم) كل قيم ومفاهيم **وأخلاقيات الطبيعة القوية**. لقد ابتدع الضعفاء المسيحية لأنهم عجزوا عن مواجهة الوجود الذى لا أخلاق له، وليست فيه مفاهيم مطلقة ولا معنى ولا غائية. إذًا فالمسيحية (عند نيتشه) تجسيدٌ لانتصار السكينة والانكسار (الذين يمثلهما الإله اليونانى أبولو) على القوة والطاقة (يمثلهما ديونيسيوس إله الخمر)، إنها تمثل موت الوعى الإنسانى البطولى.

---

(١) فريدريخ نيتشه Friedrich Nietzsche:(١٨٤٤ - ١٩٠٠)، الفيلسوف الألمانى، أشهر الملاحدة فى التاريخ الحديث.

(٢) فى كتابه Beyond Good and Evil

ويتبنى نيتشه أن الديانات قد نشأت واستمرت **لأن الضعفاء يحتاجون إليها**، وأن المسيحية ما زالت موجودة فى أوروبا لأن ما زال فيها ضعفاء، وهم يصدقون ادعاءاتها وأكاذيبها مرة تلو المرة، آلاف المرات، دون دليل؛ **لأنهم يريدون أن يصدقوها**.

ويرى نيتشه أن الإنسانية قد جمعت كل ما هو ضار وسام ومفترى فى وحدة رهيبة مخيفة مشينة هى «**الإله**». كذلك تم اختراع أكذوبة «**الغيب**» من أجل أن تنزع من العالم المادى (الوجود الوحيد الحقيقى) قيمته وانفراده وأهدافه الحقيقية. وبالمثل تم اختراع أكذوبة «**الروح**» لتحقر الجسد الذى هو الوجود الإنسانى الحقيقى الوحيد.

لذلك، يعتبر نيتشه أن «الحقيقة المطلقة (الإله) وكذلك كل الغيبيات» ليست **إلا أكذوبة ضارة كبيرة**، ويعتبر أن **الإيمان بالإله يعنى إنكار الحياة!** A yes to god is the Same as a no to life. لذلك، فإن «**موت الإله**» حتمى لاستقرار الحياة، ولبزوغ فجر «السوبرمان» الذى هو المنتَج الكامل المطلق للتطور البيولوجى.

لقد كان نيتشه يحمل **عداءً شديدًا للمسيحية** وتطاولًا على معتقداتها. قد **نؤيد** معارضة نيتشه للمؤسسات المسيحية، وقد نوافقه على تدنى المنظومة الأخلاقية فى أوروبا المسيحية والكنيسة الكاثوليكية فى وقته، ونوافقه على أن سماحة الدين تخدم الفقراء والضعفاء، لكن نيتشه **لم يقدم دليلًا** على أن الدين كان ابتداعًا إنسانيًّا ليحقق هذه المصالح.

يالها من **مفارقة كوميدية سوداء**. فى الوقت الذى يتبنى فيه **نيتشه أن الديانات** من ابتداع الضعفاء ليبتزوا بها حقوق الأقوياء، باسم الأخلاق والفضيلة والتسامح، فى الوقت ذاته يتبنى **ماركس** أن الديانات ابتداع الأغنياء ليخدروا بها الفقراء ويأمنوا بها شَرَّهم**!!**. كذلك اعتبر نيتشه أن **الإله** يجسد أسوأ ما فى الإنسان بينما اعتبره ماركس يجسد أفضل ما يحلم به الإنسان**!!**

فرضية برتراند رَسِل[1]...

فى مقال بعنوان «لماذا أنا لست مسيحيًا؟ Why I am not a Christian?» تبنى برتراند رَسِل أن «**الخوف**» **يقف وراء نشأة الدين**، ومن ثم فإن «**تحقيق الرغبة فى الأمان** Wish Fulfillment» هو دافع الإنسان لوضع الديانات.

وجاء فى المقال: «يقوم الدين على الخوف؛ فالخوف من المجهول، ورغبتك فى استشعار

(١) برتراند رَسِل Bertrand Russel : (١٨٧٢ - ١٩٧٠) الفيلسوف ورجل المنطق وعالم الرياضيات والمؤرخ البريطانى الشهير، والحائز على جائزة نوبل للسلام.

وجود أخ أكبر يأخذ بيدك فى مواجهة كل مخاوفك وشكوكك، هو مصدر الدين. كذلك الإرهاب Cruelty مصدره الخوف. ومن ثم **فالدين والإرهاب يرجعان لمصدر واحد**، لذلك ليس غريبًا أن **يقف الدين وراء الإرهاب!!**».

ويعتبر رسل أن علاج مخاوفنا (كبديل عن الدين) هو «**العلم**»:

فالعلم يستطيع أن يعلمنا، كذلك قلوبنا تستطيع أن تعلمنا. العلم وقلوبنا يعلمانا أن نتوقف عن خداع أنفسنا، وأن نتوقف عن ادعاء وجود غرباء أقوياء فى السماء. إن العلم وقلوبنا يعلمانا كيف نجعل العالم مكانًا أفضل نحيا فيه، **بدلًا من انتظار المكان الأفضل فى السماء فيما بعد**. قد نفهم **كيف يعلمنا العلم**، ولكن كيف تعلمنا القلوب ومن أين أتت بعلمها؟ فذلك أمر لم يخبرنا به رَسِل.

طرحنا فيما سبق أهم **الفرضيات المادية لتفسير ظهور الأديان**، والتى لها علاقة بموضوعنا (الإلحاد مشكلة نفسية). ونجمل الأمر فى أن هناك **عددًا من المدارس** التى قدمت مجموعة من التفسيرات التى صارت مشهورة عند المهتمين بظهور وتطور الديانات، وأهمها تفسيرات التحليل النفسى والتفسير الطبيعى والتفسير الحيوى والتفسير ما قبل الحيوى والتفسير الاجتماعى والتفسير المثالى المطلق[1].

---

(١) **نظريات ظهور وتطور الأديان**

أ) **تفسيرات التحليل النفسى**:

ناقشناها عند حديثنا عن فرويد ونظرية الإسقاط.

ب) **التفسير الطبيعى**: وتتبناه مدرستان رئيستان

ـ **الفيلسوف ديفيد هيوم** (١٧١١ - ١٧٧٦): يُرجع نشأة الشعور الدينى إلى «**مشاعر القلق والخوف**» **من أحداث المستقبل** ومن الأفكار التى يضمرها الإنسان عن **القوى غير المرئية وغير المعروفة**، والتى كانت تسيطر على الإنسان البدائى.

ويظن هيوم أن الإنسان البدائى لم ينشغل بالتفكير فى مصدر الطبيعة، وبالتالى لم تكن نظرته للآلهة بصفتها خالقة للعالم بل بصفتها متحكمة فيه.

ويعتبر هيوم أن أصل الديانات هو **تعدد الآلهة**، وعندما سيطرت القبيلة الأقوى على القبائل المحيطة ساد الإله الأكبر للقبيلة المنتصرة، هكذا وُلد التوحيد من التعدد.

ـ **ماكس مولر** (١٨٢٣ - ١٩٠٠): يُرجع نشأة الديانات إلى **خوف الإنسان من الطبيعة** التى ترمز عنده إلى قوة لامتناهية، فحولها إلى قوى متشخصة تُعبَد، ثم تحول التعدد إلى توحيد.

جـ) **التفسير الحيوى**:

قدم هذا التفسير «**إدوين تايلور**» (١٨٣٢ - ١٩١٧)، ويتبنى أن الإنسان البدائى يعتبر ما يراه فى أحلامه أرواحًا حقيقية متحررة من الجسد والمادة، وقد تكون «**أرواح آبائه وأجداده**»، ومن هنا نشأت عبادة أرواح الأجداد. ثم نشأت **عبادة مظاهر الطبيعة، بعد أن اعتقد الإنسان أن لهذه المظاهر أرواحًا حية**، خيرة أو شريرة، يمكن التأثير فيها من خلال أقوال وحركات دينية معينة. =

مفهوم الإسقاط Projection

إذا تأملنا مفاهيم رباعى الإلحاد الكبار (فيورباخ - ماركس - نيتشه - فرويد)، نجد أنهم يتبنون «**نظرية الإسقاط**»، التى كان فيورباخ أول من طرحها، ثم تولى كل منهم تعديلها برؤيته، كما كان لفرويد الفضل فى ذيوعها.

إن الإسقاط فى حقيقته آلية إنسانية نفسية، تسعى لتهدءة وإشباع حاجات الإنسان ورغباته الفطرية، سواء فعلنا ذلك على المستوى الواعى أو - بشكل أكبر - على المستوى اللاواعى.

وبالرغم من ذلك، فإن إسقاط أحلام الإنسان على آخر **لا يثبت ولا ينفى وجود هذا الآخر**. وإذا كان الملاحدة يلجأون للقول بالإسقاط للتنكر للوجود الإلهى، فإن المتدينين يستخدمونه لتحقيق النقاء والتسامى الروحى.

= **د) التفسير ما قبل الحيوى:**

يتبنى هذا التفسير عبادة «**روح كلية سارية فى الوجود**» (المانا) هى مصدر جميع الأرواح. وكهنة المانا هم القادرون على التواصل معها بطقوس خاصة، وهو ما أدى إلى ظهور السحر كأسلوب فى هذه الديانات. ويعتبر الإيمان بالمانا شكلًا بدائيًا من أشكال وحدة الوجود. ومن أهم القائلين بهذا الرأى «**ماريت**» (المتوفى عام ١٩٠٠).

هـ) التفسير الاجتماعى:

يَرُد هذا التفسير الدين إلى عوامل اجتماعية، وأشهر القائلين بذلك هما:

- **أوجست كونت** (١٧٩٨ - ١٨٧٥): يرى كونت أن التفكير الإنسانى (ومعه الدين) قد مر بثلاث مراحل. تمثل المرحلة الأولى «**طفولة البشرية**»، وفيها خضع الإنسان لإرادات الأرواح أو الآلهة التى تسكن الأشياء الطبيعية. وأعقبتها «**المرحلة الميتافيزيقية**» التى يرد فيها الإنسانُ الطبيعةَ إلى القوى الميتافيزيقية المجردة. ثم أخيرًا «**المرحلة العلمية الوضعية**» التى تعتمد على الاستقراء ومعرفة القوانين الطبيعية دون محاولة تفسيرها أو ردها إلى علل دينية أو ميتافيزيقية، وهذا يعنى رفض البحث فى العلل الأولى ورفض ما بعد الطبيعة، وبهذه المرحلة **ينتهى دور الدين** عند كونت.

لذلك، دعى كونت إلى «**دين وضعى**» **يضع عبادة الإنسانية محل عبادة الله**، ويركز على عنصرى «**الواقع والمنفعة**» اللذين يتحققان بالعلم، ومن ثم يصبح على الإنسان أن يعيش من أجل نفسه والآخرين، لا من أجل إله متشخص.

- **إميل دوركايم** (١٨٥٨ - ١٩١٧): صاحب «**المدرسة الوظيفية**» التى ترى أن للدين وظيفة اجتماعية. اعتبر دوركايم أن الدين منظومة متماسكة من المعتقدات والممارسات المقدسة التى توحد بين المؤمنين بها فى مجتمع دينى اجتماعى له قيم أخلاقية مشتركة. لذلك، يعتبر دوركايم أن الدين الأول هو «**دين الطوطم**» الذى هو اسم القبيلة وشعارها ورمزها الذى يوحد أفرادها ويحقق تميزها واستمرارها فى الوجود. وأعقب ذلك مرحلة كانت الألوهية فيها مبثوثة فى الإنسان نفسه وما حوله من كائنات وأشياء ورموز، وبذلك أصبحت الجماعة فى الحقيقة «**تعبد نفسها**».

و) التفسير المثالى المطلق:

يرى «**هيجل**» (١٧٧٠ - ١٨٣١) أن الإنسان فى البداية اعتبر أن للطبيعة روحًا، وهو ما انعكس فى ظهور أديان السحر. ثم حرر الإنسانُ الروحَ من الطبيعة شيئًا فشيئًا، حتى وصل إلى الدين المطلق الذى تتحرر فيه الروح تحررًا كاملًا.

وقد اُعتبر هذا التفسير «**مثاليًّا**» لاعتباره أن الروح أو العقل الكلى هو أساس التطور الدينى، وليست المادة أو الظروف التاريخية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

إن الطرح المادى للألوهية والدين يؤكد أن **الإنسان كائن فُطر على الإيمان**، سواء الإيمان بالإله أو الإيمان بالعلم أو الإيمان بالذات. وما نؤمن به يحدد رؤيتنا للوجود ومسارنا فى الحياة. وقد اختار الملاحدة أن **يصير الإنسان هو الإله**، ولخص نيتشه هذا الاختيار بقوله: «كل الآلهة ماتت، والآن يبزغ فجر السوبرمان».

تفنيد التفسير المادى للألوهية والأديان

عرضنا ما طرحه الماديون لتفسير نشأة الديانات ومصدرها، وقد تبنى هؤلاء أن الديانات ابتداعٌ إنسانى، وقد تراوحت دوافع الإنسان لذلك بين الخوف من العدم، والخوف من الطبيعة، وتحقيق الرغبات، والإسقاط، وتأنيب الضمير، والثورة الاقتصادية،... وتدور هذه التفسيرات حول أن **الحاجة أم الاختراع**، ومن ثم **فالإنسان هو الذى خلق الإله** وليس الإله هو الذى خلق الإنسان!!

ولنا على هذه التفسيرات مآخذ تكفى لإجهاض كل تفسير مادى[١]، وأهم هذه المآخذ:

أولًا: صار «التوحيد أولًا» حقيقة

تبنى بول ڤيتز Paul Vitz[٢] أستاذ علم النفس الشهير بالجامعات الأمريكية الإلحاد فى مراهقته وظل ملحدًا حتى قارب الأربعين من عمره. ويحدثنا بول ڤيتز عن مبرراته الإلحادية، وكيف أنها انهارت بعد أن **أثبت الأنثروبولوجيون أن التوحيد (ومن ثم الوحى) هو نمط التدين الذى تبنته البشرية منذ أول عهدها**. ويصف ڤيتز تجربته قائلًا:

كمعظم الأمريكيين (خاصة المفكرين والأكاديميين والفنانين) كنت **مقتنعًا بضع أفكار** أقمت عليها إلحادى ـ ولا شك أن الإعلام شارك فى بث هذه المفاهيم. ولا شك أننى لو تفكرت فى هذه المفاهيم ودرستها منذ سنوات لتخلصت من عبء ثقيل أجهدنى لفترات طويلة. وتدور هذه الأفكار حول مفهومين:

---

(١) ناقشنا منذ قليل المآخذ الخاصة بفرضية فرويد، ونعرض هنا المآخذ العامة على الطرح المادى.

(٢) سيكون لنا وقفات مفصلة مع بول ڤيتز فى الفصول القادمة.

١ - أن القول بالإله هو إسقاط لحاجات نفسية طفولية.

٢ - **أن التطور الداروينى** حقيقة تسرى على المفاهيم الفكرية كلها. معنى ذلك **أن الإنسان البدائى بدأ بعبادة آلهة متعددة**: ذكور - إناث - أرواح - قوى الطبيعة - موجودات الطبيعة... وكلما **تقدم الإنسان حضاريًّا** قل عدد الآلهة، ثم يتبنى التسلسل الهرمى الذى يعلوه إله واحد، ثم يتبنى التوحيد، ثم **يتبنى اللا إله فى ظل الإنسان الذى نضج فكره!**

وبمزيد من التأمل فى القرائن، أدركت أن **نموذج «التطور» و «التقدم» فى الديانات لا يستقيم مع الشواهد**، لقد أدركت أن **الإنسان البدائى كان موحدًا**، وهذه أهم الأدلة على ذلك:

١ - ويلهلم شميدت Wilhelm Schmidt

من أهم الأبحاث فى هذا المجال تلك التى أجراها **الأب ويلهلم شميدت** - Wilhelm Schimdt عالم الأنثروبولوجيا والأجناس الألمانى (١٨٦٨ - ١٩٥٦) على **الأقزام**، باعتبارهم أدنى الأجناس البشرية تطورًا. فقد ثبت أنهم يعتقدون فى **إله واحد خالق مهيمن**، الأمر الذى يُبطل مزاعم القائلين بأن البدائى الخالص لا يستطيع أن يُرجع ما يحدث فى الكون إلى سبب واحد. وقد نشر شميدت نتائج أبحاثه فى كتابه «مكانة الأقزام فى تاريخ تطور الإنسان Position of Pygmy People in The History of Human Development»، وأيضًا فى كتابه «مجموعة لغات أستراليا The Grouping of The Languages of Australia».

كما لاحظ شميدت أن القبائل البدائية المعاصرة تطلق على الإلة عادة اسم «الأب Father» وقليلًا ما يقولون «الخالق Crearor»، وأحيانًا إله السماء Sky God و Sky lord. وتستمد هذه القبائل مفاهيمها الأخلاقية مما ينبغى أن يكون عليه الإله، ويبنون عليها منظومتهم من الثواب والعقاب[1].

٢ - أندرو لانج Andrew Lang:

قبل أن يطرح فرويد تصوراته حول نشأة الديانات بسنوات، أشار أندرو لانج عالم الأنثروبولوجيا الأسكتلندى (١٨٤٤ - ١٩١٢) إلى أن الإنسان البدائى **كان يؤمن بإله أعلى**

(١) W. Schmidt, Th origin and Growth of Religion, trans. H.J. Rose, 2 nd ed. (london: methueu, 1935), p. 267

أو قوة مطلقة (إله السماء)، وليس أشباحًا أو أرواحًا أو آلهة دنيا ارتقت فى المنزلة فيما بعد[1]، واستند فى ذلك إلى الدراسات الأنثروبولوجية حول قبائل وسط إفريقيا، مثل الزولو والبوشمان والهوتنتوت وبعض قبائل الأمريكتين وأستراليا الجنوبية الشرقية.

٣- إدوين أوليفر جيمس E.O. James

وافق إدوين جيمس (١٨٨٨ - ١٩٧٢) أستاذ الأنثروبولوجيا والديانات المقارنة البريطانى الفذ لانج وشميدت فى طرحهما، وتبنى أن **الإله الواحد الأعلى هو الأصل عند الإنسان البدائى** الذى لم تلوث فكره مفاهيم أخرى. وما زال ذلك هو الحال مع القبائل البدائية الحالية التى ما زالت تعيش على الصيد وجمع الثمار (قبائل Aporeginal فى أستراليا - و Fuegians فى أمريكا الجنوبية - وقبائل كاليفورنيا - والأقزام Negritos فى أفريقيا)، وهذه كلها قبائل ما زالت محتفظة ببدائيتها ولم تمر بأية مراحل تطورية[2].

٤- **يذهب الفيلسوف الألمانى الكبير فريدريخ شلنج** F.W.Schelling (١٧٧٥ - ١٨٥٤) فى كتابه «فلسفة الميثولوجيا Philosophy of Mythology» إلى أن التوحيد كان هو المعتقد الدينى عند البشرية قبل أن تدخل مرحلة تعدد الآلهة.

ومن هؤلاء أيضًا **الألمانى إينرايخ** Enreich فى مقاله «الآلهة والمنقذون Gods and Saviors» (١٩٠٦) وهو بحث عن قبائل الهنود الحمر.

إنه نموذج **التوحيد أولًا**، وليس التعدد الذى تطور إلى توحيد، وقد لاحظ الكثيرون من الباحثين المهتمين بهذا المفهوم أن توحيد القبائل البدائية **يشبه توحيد الديانات الإبراهيمية**.

وتُظهر الدراسات **أن التعدد نشأ عندما التقت القبائل والحضارات وامتزجت**، خاصة عندما تهزم جماعةٌ جماعةً أخرى، وعندما نشأت الإمبراطوريات زاد تعدد الآلهة. ونطلق على هذا الأثر **«تأثير التعدد Pantheon effect»**: من أجل أن يستقر السلام مع جيرانك أو مع من هزمتهم عليك أن تضم آلهتهم إلى قائمة «آلهتك».

وتُعتبر **الولايات المتحدة الأمريكية** أحد أمثلة التغير (التطور الدينى) لأسباب اجتماعية

---

(١) A.Lang, The Making of Religion (London: Longmans, Green, 1898)

(٢) E. O. James, prehistoric Religion: Astudy in prehistoric Archeology (New york: Barnesand Noble, 1962), p. z 06.

وسياسية. فقد انتقلت من دولة بروتستانتينية إلى أمة مسيحية (بروتستانت + كاثوليك)، إلى أمة مؤلهة (اليهودية والمسيحية)، والآن إلى العديد من الأديان حتى البوذية ـ التى هى دين بلا إله ـ ومنها أيضًا الإلحاد.

بهذا المفهوم تصبح النظرة إلى الدين **نظرة انتكاسية Devolution أو تراجعية Regression أو تخفيفية** Dilution. فالحضارة انتكست من إله واحد إلى بضعة آلهة، إلى عدة آلهة، ثم إلى ما لا حصر له من الآلهة التى **تعدل لا إله!**

ويتأمل بول ڤيتز حال **الديانات الإبراهيمية**؛ فيتبنى أن **اليهودية** (كأول الديانات الإبراهيمية) جاءت لتعود بالتوحيد إلى أصله بعد أن غلب التعدد (بعل - عشتار - مردوخ...) لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية. وبعد أن جاءت **المسيحية** لتدعم اليهودية، ظهر فى المسيحية «تأثير التعدد» عندما طمع بولس ومن عاصره من الحكام فى بسط المسيحية على الدول المحيطة.

ثم جاء **الإسلام** ليصحح ما أصاب الديانتين السابقتين من انحراف. وبالرغم من ثبات الإسلام على الحق كخاتم الديانات السماوية، ولكن تأثير التعدد (الذى اتخذ شكل الوسائط) فعل فعله فى بعض طوائف الشيعة والسنة.

ثانيًا: تنكروا للإله كمصدر للديانات دون دليل

لقد قَدَّمَ الماديون تفسيراتهم لوجود الديانات للإجابة عن سؤال:

بما أن الإله غير موجود، فما تفسير وجود الديانات؟

نعم، لقد افترضت هذه التفسيرات **عدم وجود الإله «كمُسَلَّمَة»** انطلقوا منها، حتى إن كل أصحاب الفرضيات التى ذكرناها لم يطرحوا أدلة المتدينين على الوجود الإلهى للنقاش. ومن ثم فمنهجهم منهج دوجماطيقى ينطلق من مقدمة لا دليل عليها.

إن هذه الفرضيات **لا تحمل دليلًا «مع» أو «ضد» الوجود الإلهى**. أما إذا أثبت الماديون بالفعل أن ليس هناك إله، فإن هذه الأطروحات تفيد فى فهم مصدر الأديان وطبيعتها، وأيضًا فهم طبيعة الإنسان.

كذلك لا يدحض تقديم فرضيات لتفسير وجودِ الديانات وجودَ الإله، **فالديانات السائدة لا تنطلق لإثبات وجود الإله من وجود الدين**. لكن إذا استطاع الملاحدة إثبات أن الدليل الوحيد على وجود الإله هو وجود الدين كان ذلك ضربة قوية للمؤمنين.

وإذا كانت هذه التفسيرات افتراضات دوجماطيقية (تنطلق دون دليل على عدم وجود الإله)، فالسقطة الإضافية لملاحدة اليوم (مدعى الاستنارة) أنهم يستشهدون بها باعتبار أنها تنفى الوجود الإلهى!!

ثالثًا: الإمكانية لا تعنى أن الأمر قد حدث بالفعل

لا يمكن للفلسفة أو علم النفس أو الأنثروبولوجيا أن يفسروا ظهور الديانات، إنه سؤال يوجه إلى **التاريخ**، وإلى من يتصدون لإثبات أو نفى **حجية الكتب المقدسة**.

فعلم النفس مثلًا يبين أن النفس البشرية «يمكن» أن تتبنى هذا الاتجاه أو ذاك ويدفعها ذلك لاختراع الأديان، لكن أن نبين أن الإنسان قادر على فعل شىء يختلف تمامًا عن إثبات أنه قد قام بذلك فعلًا. فتأكيد قدرة إنسان على القتل لا تعنى أنه قتل بالفعل، **فالقدرة شىء والدليل على الفعل شىء آخر**.

إن إثبات أن الإنسان «يمكن» أن يفبرك دينًا لا يعنى أنه قد فبرك «بالفعل». إن أقصى ما يستطيع علماء النفس وأطباؤها والفلاسفة والأنثروبولوجيون أن يثبتوه هو أن الإنسان «يمكن» أن يفبرك، أما إثبات أنه قد «قام بذلك» بالفعل فخارج نطاق عملهم، ويكون التعامل مع القضية من خلال دحض الأدلة التى يقدمها المتدينون على الوجود الإلهى.

رابعًا: هل ينبغى ألا يكون للإله والدين فائدة؟!

إن إثبات أن الإنسان يحتاج لإله، وأن مصلحته وجود الإله، لا يثبت ولا ينفى وجود هذا الإله. **هل وجود «الدافع» للقتل يثبت قيام الشخص بالجريمة**؟! إن وجود الدافع شىء، والدليل على ارتكاب الجريمة شىء آخر.

إن إثباتنا أن الإنسان يستفيد نفسيًّا من وجود دين، وأن له مصلحة فى ذلك، لا يثبت أنه قد قام بفبركة هذا الدين.

إن ما يدعيه الماديون **يعنى أن وجود المصلحة والرغبة فى شىء ينفى وجوده!!** إن للأبناء مصلحة فى وجود والديهم، فهل ينفى ذلك وجود الوالدين؟!

هل ينبغى ألا تكون للإله والدين فوائد حتى نقتنع أن لهما وجودًا حقيقيًّا؟!

ونقول للربوبيين[1]: هل ينبغى أن يقدم الإله للبشرية دينًا لا فائدة له حتى نقتنع أنه هو الذى أرسله؟!

خامسًا: الديانات لا تحقق رغبات الإنسان!!

ينطلق التفسير المادى لنشأة الديانات من أنها **تحقق رغبات الإنسان** Wish Fulfillment، فهل تحقق الديانات رغبات الإنسان بالفعل؟

إن الديانات لا تحقق من رغبات الإنسان إلا **«وعدًا» بالخلود**، فى مقابل **التضحية بالرغبات والمتع الحالية «المضمونة»**. كما إن هذا الخلود ليس مضمونًا أن يكون فى النعيم، **فربما يكون فى الجحيم**، وفى الطريق إلى هذا الخلود يمر الإنسان بعذاب القبر.

ولتحقيق هذا الخلود الموعود هناك **تشريعات مقيِّدَةَ للإنسان تحرمه من كل المتع الحياتية** (النساء، الخمر، ...)، وتفرض عليه **التضحية** فى العبادات بالوقت والجهد والمال، وتطالبه بالامتناع عن كثير من **السلوكيات التى جُبِلَ عليها**، فلا يكذب ولا يغتاب ولا يخفى الحقيقة... كل ذلك فى وجود **إله غضوب لا تُؤمَن تصرفاته**.

كذلك **فالطرح الدينى المسيحى**[2] كفيل بأن **يخلق عداوة بين الإله والإنسان!**. فقد خلق الإلهُ الإنسانَ فى الجنة ثم حرمه منها، ويحاسبه على خطيئة لم يقترفها، ويكتب عليه أقدارًا تنضح بالظلم، كما يطلع على خفايا نفسه ويسجلها عليه ويفضحه بها بين الخلائق يوم الحساب. ما هذا الإله الذى يفطرنا على كل هذه النقائص والغرائز التى تدفعنا للخطايا ثم يحاسبنا؟! **هذه عوامل كراهية من جانب الإنسان. أما كره الإله للإنسان** فوراءه تضحية الإله بابنه (الذى لم يخطئ) ليُقتَل، ليفدى هذا الإنسان النكرة، ووراءه أيضًا استخفاف هذا الإنسان الحقير بخالقه العظيم!

وحول هذا المعنى، يقول جون ملتون فى ملحمته الفردوس المفقود، على لسان الشيطان مخاطبًا الإنسان: «أن تكون حاكمًا فى الجحيم خير من أن تكون خادمًا فى الجنة». إن الشيطان بذلك **يُهَوِّن** من شأن الجحيم، ويشجع الإنسان **أن يحيا فى خطيئة المتع الحالية المضمونة** عن انتظار وهم النعيم المؤجل.

(١) الربوبى Deist: هو الذى يؤمن بوجود الإله، لكنه ينكر أن الإله قد تواصل مع البشر عن طريق الأنبياء.

(٢) هذا الطرح مأخوذ من موعظة ألقاها رجل الدين المسيحى الشهير Jomathan Edwards عام ١٧٣٦ بعنوان: Men Are Naturally God's Enemies

ولعل أقوى دليل على أن **الديانات لا تحقق رغبات الإنسان** هو أن معظم الشباب الذين يتبنون الإلحاد فى بلادنا قد فعلوا ذلك هروبًا من تكاليف الدين وتقييداته، وهو ما أسميته **إلحاد الشهوات**، ويسميه شيخنا د. عبد الحليم محمود رحمه الله «**إلحاد البطن والفرج**».

إن رغبات الإنسان المادى الداروينى الحقيقية تتمنى عدم وجود الإله، وإذا كان هناك إله **فتتمنى عدم وجود الدين الملىء بالتكاليف**. لذلك، يبدو أن الذين افترضوا أن الإنسان خلق الإله والدين ليحقق رغباته Wish Fulfillment، يبدو أنهم لم يطلعوا على محتوى الديانات قبل أن يضعوا فرضياتهم هذه، وهم أيضًا على غير دراية برغبات الإنسان الحقيقية. بل من العجيب أن تصدر دعوى أن الدين تحقيق لرغبات الإنسان من شخص مثل فرويد! يدرك شدة وطأة غرائز الإنسان ورغباته الحيوانية، ثم يدعى أن الإنسان وضع الدين الذى يحرمه من هذه المتع أو يقيدها تحقيقًا لرغباته!!

وعندما تبنى ماركس أن الأغنياء قد طرحوا منظومة الدين كأفيونٍ للفقراء، أما كان من الواجب أن يجعلوا الدين **منظومة تُمتِّع الفقراء فى الدنيا**، حتى لا يجتمع عليهم الفقر والحرمان فيثورون على الأغنياء.

وإذا كان لا بد أن يخترع الإنسان دينًا يحقق له رغبته فى الخلود، ألم يكن الأولى به أن يفبرك دينًا **يحقق الخلود وأيضًا يكفل له متع الدنيا!** كأن يعده الدين بأن كل ما يحققه من متع فى الدنيا سينتقل معه إلى الحياة الأخرى، دون اعتبار لحلال أو حرام. بذلك يستمتع الإنسان بنساء وخمر وثراء الدنيا ويحقق وهمه بالخلود مُنَعَّمًا فى الآخرة.

كيف يخلق الإنسان إلهًا ويفبرك دينًا يقف حجر عثرة أمام تحقيق رغباته وطموحاته ومتعه الراهنة المضمونة؟!!

سادسًا: ما مصدر شوق الإنسان للفضائل والكمالات؟!

يؤكد ريتشارد دوكنز كبير الملاحدة الجُدد أن **التطور الداروينى للإنسان لا يفرز إلا أخلاق هولاكو وستالين وهتلر**، فتلك الأخلاق هى المناسبة للصراع من أجل البقاء.

لقد جعلنا التطور الداروينى قتلة وسفاحين وزناة ومدنسين وكذوبين و... و... فما مصدر معرفتنا بأخلاق الحق والصفاء والطهارة والنقاء والعدل والرحمة والإيثار حتى نسبغها على الإله الذى خلقناه؟ **وما مصدر شوقنا لهذه الفضائل والكمالات؟**

وكيف نطلب «الرحمة» من الإله الذى فَطَرَنا على المعاصى والشهوات؟

كيف ولماذا يبتكر إنسان يحركه الصراع من أجل البقاء فضائل وكمالات تنتقص من قدراته على الصراع؟!

لا شك أن هذه الأخلاق لها مصدر إلهى حقيقى، يهتم بالإنسان كإنسان أكثر من اهتمامه به كحيوان متطور.

لقد تجاوز هؤلاء الماديون كل معقول ومنطقى حين وضعوا هذه التفسيرات المادية لنشأة الديانات، **إن تجاوزاتهم فيها من التضاد الداخلى ما يكفى لإسقاط كل هذه التفسيرات.**

إن الفائدة الأكبر من فرضيات الماديين أنها تؤكد أن **الديانات تثبت حرص الإنسان على الخلود ورغبته فى الكمال**، أى **تثبت الخلفية النفسية للدين**. من ثم لا ينبغى أن يتزمر هؤلاء أو يعترضوا عندما نتحدث عن **الخلفية النفسية للإلحاد**، فقد كانوا هم السابقين فى طرح التفسيرات النفسية لمفاهيم العقيدة.

القارئ الكريم

نفتتح بهذا الفصل «الماديون والإيمان» بابًا بعنوان «علم نفس الإيمان» تمهيدًا لمناقشة «علم نفس الإلحاد»، وسنقوم فى الفصل القادم من الباب «العلم والإيمان» بالاحتكام إلى العلم فى قضية فطرية المفاهيم والمشاعر الإيمانية، وهو ما ينكره الملاحدة.

استهللنا الفصل بوقفة مع علماء تاريخ نشأة الأديان، ورأينا أن النظرة الدينية للبشرية بدأت بالتوحيد، الذى تَكَشَّفَ لها **إما بالتأمل العقلى أو بوحى إلهى**، ثم حاد الإنسان عن التوحيد وسقط فى الشرك والتعدد والوثنية. وتتفق «نظريات التوحيد أولًا» مع مفاهيم الكتب المقدسة عن عقيدة البشرية الأولى، وتستند فى ذلك إلى **المنهج العلمى والتحليل الفلسفى**.

إذا تأملنا تفسير الماديين والملاحدة لظهور الأديان، نجد أنهم قد انطلقوا فى تفسيراتهم من سؤال: **بما أن ليس هناك إله، فلماذا هناك أديان؟** لقد انطلقوا من موقف دوجماطيقى، فقد **افترضوا أن ليس هناك إله** دون أن يُفَنِّدوا أدلة المتدينين على الوجود الإلهى.

ولعل **أشهر** هذه الأطروحات المادية هى «نظرية الإسقاط» التى استقاها عالم النفس فرويد عن الأنثروبولوجى الألمانى فيورباخ. وتقوم هذه النظرية على نقاط:

١- تبنى فرويد أن الإنسان وجد المخرج فى **الاستناد إلى قوى غيبية أقوى من الطبيعة**، فكان القول بالإله. ومن ثم فالإله والدين **تحقيق لرغباتنا الطفولية Wish Fulfillment** فى الحماية والأمان.

٢- إن فرويد بذلك **«يُسقط Project»** احتياجنا لحماية آبائنا فى طفولتنا على الإله الذى افترضنا وجوده فى السماء.

٣- ينتقل فرويد فى كتابه الطوطم والتابو Totem and Taboo إلى ظاهرة **«الشعور بالذنب Guilt»** الناجمة عن الصراع بين الأب وابنه، والذى ينتهى بقتل الابن لأبيه، وما ينتج عن ذلك من تأنيب الضمير، وهو ما عُرف باسم **«عقدة أوديب»**.

هكذا تقوم نشأة الأديان عند فرويد على أساسين نفسيين رئيسين، **الخوف من الطبيعة** (كعنصر خارجى) **والشعور بالذنب** (كعنصر داخلى).

وقد أثبت المتخصصون خطأ فرضية فرويد، وذلك لعدة أسباب أهمها أنه **لا دليل عليها**، كما لم يقدم عليها فرويد أدلة من **التحليل النفسى!**

كذلك ثبت لعلماء الأنثروبولوجيا عدم صحة المفاهيم التى فسر بها فرويد نشأة الديانات من خلال عقدة أوديب، فقد ثبت أن **القبائل البدائية لم تقم على نظام القبيلة** التى يستحوذ رئيسها على كل نسائها، وأيضًا قلة وجود المرحلة الطوطمية فى ديانات القبائل البدائية، وكذلك عدم وجود نمط الإله الأب إلا فى الديانتين المسيحية واليهودية.

وبالإضافة لانهيار الطرح الفرويدى بشكل خاص، فقد ثبت **تداعى كل التفسيرات المادية الأخرى** للإيمان بالألوهية والأديان، وأدلة ذلك:

١- أثبت الأنثروبولوجيون أن التوحيد (ومن ثم الوحى) هو نمط التدين الذى تبنته البشرية منذ أول عهدها.

٢- قَدَّمَ الماديون تفسيراتهم لوجود الديانات للإجابة عن سؤال: بما أن الإله غير موجود، فما تفسير وجود الديانات؟ لقد اعتبروا عدم وجود الإله «مُسَلَّمَة» انطلقوا منها، دون أن يطرحوا أدلة المتدينين على الوجود الإلهى للنقاش.

٣- إن إثبات أن الإنسان «يمكن» أن يفبرك دينًا لا يعنى أنه قد فبرك «بالفعل». إن أقصى

مـا يسـتطيع علماء النفـس وأطباؤهـا والفلاسـفة والأنثروبولوجيون أن يثبتـوه هو أن الإنسان «يمكن» أن يفبرك، أما إثبات أنه قد «قام بذلك» بالفعل فخارج نطاق عملهم، ويكون التعامل مع القضية من خلال دحض الأدلة التى يقدمها المتدينون على الوجود الإلهى.

٤- إن إثبات أن الإنسـان يحتاج لإله، وأن مصلحته وجود الإله، لا يثبت ولا ينفى وجود هذا الإله. **فوجود «الدافع» للقتل لا يثبت قيام هذا الشخص بالجريمة.**

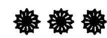
٥-إن الديانـات **لا تحقـق مـن رغبـات الإنسـان إلا «وعـدًا» بالخلود**، فى مقابـل **التضحية بالرغبـات والمتـع الحاليـة «المضمونة»**. كـما إن هذا الخلـود ليس مضمونـًا أن يكون فى النعيم، **فربما يكون فى الجحيم**، وفى الطريق إلى هذا الخلود يمر الإنسان بعذاب القبر.

كيف يخلق الإنسان إلهًا ويفبرك دينًا يقف حجر عثرة أمام تحقيق رغباته وطموحاته ومتعه الراهنة المضمونة؟!!

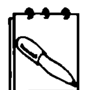
٦-لقـد جعلنا التطور الداروينى قتلة وسـفاحين وزناه ومدنسـين وكذوبـين و... و... فما مصدر معرفتنا بأخلاق الحق والصفاء والطهارة والنقاء والعدل والرحمة والإيثار حتى نسبغها على الإله الذى خلقناه؟ **وما مصدر شوقنا لهذه الفضائل والكمالات؟**

ليس لهذين السؤالين من إجابة؛ إلا **الإقرار بحقيقة الوجود الإلهى**.

لقد تجاوز هؤلاء الماديون كل معقول ومنطقى حين وضعوا هذه التفسيرات المادية لنشأة الديانات، **إن تجاوزاتهم فيها من التضاد الداخلى ما يكفى لإسقاط كل هذه التفسيرات**.



الفصل الثالث



العلم والإيمان

- **ـ الألوهيه ـ الدين ـ الأخلاق، فى المنظور الإسلامى**
- **ـ العلم ينطق بالحق**
  - ـ كائن عاطفى خلوق متدين
  - ـ كلمة البيولوجيا: جين الألوهية
  - ـ مع علم النفس
  - ـ مراكز التدين فى المخ
- **ـ المسألة الأخلاقية**
  - ـ الأنانية، الإيثار، الضمير
  - ـ نشأة الدوافع الأخلاقية عند الدراونة
  - ـ إنسان فاضل رغم أنف الدراونة
- **ـ المحور الروحى فى الذات الإنسانية**
  - ـ علماء على أبواب المشاعر الروحية
  - ـ المخ/ العقل والدين فى تكامل
  - ـ التطور الروحى والتسامى
    المعراج الروحى
  - ـ التجربة الصوفية وعلوم المخ والأعصاب
  - ـ الوجود الغيبى وجود حقيقى
  - ـ المخ/ العقل المتسامى
  - ـ هل الملحد إنسان سوى؟!
- **ـ القارئ الكريم**

«إن التجارب الروحية هى استشعار لوجود
غيبى حقيقى يستحضره العقل السوى،
وليست هلاوس أو توهمات لعقل مختل»

أندرونيوبرج

تقوم منظومة الإيمان فى المنظور الإسلامى على متتالية الألوهية والدين والأخلاق، وتبدأ بالإيمان بالله ﷻ الذى أنزل الدين، وجعل من أساسياته استكمال المنظومة الأخلاقية للإنسان. ولتأصيل هذه المتتالية فى النفس الإنسانية استخدم الإسلام منهجًا من **ثلاث آليات تعمل بشكل متسلسل**:

الفطرة ـ الرسالة ـ العقل

أما الفكر المادى، فيرفض هذه الآليات الثلاث، ويرى أن الإنسان قد اكتسب **الحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى** بنفس الطريقة التى اكتسب بها سماته الأخرى، وهى **التطور لتحقيق المصلحة**، أى أن **«الحاجة أم الاختراع»**. ويقصدون بذلك أن الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام بحث عن قوة كبرى يستشعر فى وجودها الدعم والأمان، فاخترع على المستوى العقلى والنفسى **مفهوم الألوهية ومفهوم الدين**. وهذا ما يقصده نيتشه بقوله: **«إن الإنسان هو الذى خلق الإله !»**[1].

ويرى الماديون كذلك أن الإنسان قد ابتكر **المنظومة الأخلاقية** عندما وجد أن الالتزام الأخلاقى يحقق له حسن السيرة وخلود الذكر فى الحياة، ويشعره بالرضا عند مقاومته للشر!

(١) فصلنا هذا المعنى فى الفصل السابق.

ويضيف البعض أن الإنسان يفعل الخير لذات الخير! وأخيرًا وقبل كل شيء أدرك الإنسان أنه إن لم يستمسك بالأخلاق فسنغرق جميعًا!

الألوهية - الدين - الأخلاق في المنظور الإسلامي

يعتمد الإسلام في بناء المنظومة الإيمانية على آليات ثلاث، هي «**الفطرة والرسالة والعقل**». وبالرغم من أننا لا ننطلق من الدين في تفنيدنا لحجج الماديين، فقد فضلنا أن نبدأ طرحنا بعرض هذه الآليات وإظهار منزلتها في القرآن الكريم، ثم نسترشد عليها بالأدلة العلمية والفلسفية، حتى نتيح للقارئ الفرصة في أثناء إبحاره في هذا الفصل ليوائم بين كلمة العلم ومنهج الإسلام.

يخبرنا القرآن الكريم بأن الله ﷻ قد وضع «**فطرة**» **الدين والإيمان به** في النفس البشرية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم]، وقد كان ذلك بغير واسطة من مَلَك مُقرَّب أو نبي مُرسَل، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ .... ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]. وهذه الفطرة تقف وراء شوق الإنسان وشغفه للبحث عن الإله الحق والدين الحق.

ويشير القرآن الكريم إلى أن الفطرة تكاد تصل بالإنسان إلى الهداية وإن لم تصله الديانات السماوية ﴿ ... يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ... ﴿٣٥﴾ ﴾[النور] أي أن **نور الوحي يُضاف إلى نور الفطرة** لتكتمل إنارة طريق الهداية للإنسان.

وبالنسبة «**للرسالات السماوية**»، يخبرنا القرآن الكريم بأن الله ﷻ لم يترك أمة دون أن يرسل لها من يُعرِّفها دينها ﴿ ...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]. وقد جاءت الرسالات السماوية لتُعرِّف الإنسانَ بربه وبدينه، وتُذكِّره بالميثاق الذي وضعه الله ﷻ في فطرته، لذلك يكرر القرآن الكريم كثيرًا في آياته قول الحق ﷻ : ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وبعد الفطرة والرسالة يأتي دور «**العقل**»، فنجد القرآن الكريم يكرر الدعوة إلى التعقل قُرابة الخمسين مرة، ويؤكد فاعلية العقل بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ

﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]. ويبين القرآن أن من يعطل مَلَكَة العقل ويحرم نفسه من عطائها يصير كالأنعام أو أضل.

والآن إلى كلمة العقل والعلم لتكون الحَكَم فى أصل منظومة الإيمان.

العلم ينطق بالحق

تصف كارين أرمسترونج[1] الإنسان فى كتابها «تاريخ الإله A History of God» بأنه كائن روحى، وتقترح للجنس البشرى اسمًا آخر، وهو **Homo-religious (الإنسان الدَّين) بالإضافة إلى Homo-sapiens (الإنسان العاقل)**. وتؤكد د. أرمسترونج بذلك أن **المفاهيم الدينية فطرية عند الإنسان**، ومن ثم من المستحيل استئصال شأفة الدين من النفس الإنسانية كما يطمع الماديون، أى أن الأمر ليس «وهم الإله The God Delusion» كما يَدَّعى ريتشارد دوكنز.

فما هى صفات الإنسان ومستجدات العلم التى تقف وراء رؤية كارين أرمسترونج؟:

كائن عاطفى، خَلوق، متدين

يخبرنا إدوارد ويلسون[2] (أستاذ البيولوجيا الاجتماعية فى جامعة هارفارد) أن **الإنسان عاطفى بطبعه، وأن هذا الحس مُسَجَّل فى جيناتنا.**

كما يخبرنا جيمس واطسون[3] فى كتابه DNA، بأن **الشفرة الأخلاقية Moral Codes مدموغة فى جينات الإنسان** منذ نشأته، وقبل وجود الديانات.

(١) Karen Armstrong: مفكرة إنجليزية مهتمة بالأديان، تدور كتاباتها حول اتفاق الأديان الرئيسية فى نفس المفاهيم، وتعتبر أن الحل الجذرى لجميع مشكلات الإنسانية هو «أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك». ودعت فى فبراير ٢٠٠٨ إلى تشكيل مجلس عالمى للتوفيق بين المسلمين والمسيحيين واليهود. وهى شديدة الاهتمام والاحترام للإسلام، وقد أصدرت عنه عدة مؤلفات عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ولدت عام ١٩٤٤.

(٢) Edward O.wilson: من المهتمين بالفلسفة والأديان وحقوق الإنسان. حصل على جائزة بوليتزر العالمية مرتين. يُعتبر كتابه وحدة العلوم Consilience من أحسن ما كُتب عن العلاقة بين البيولوجيا والطبيعة الإنسانية. ولد بالولايات المتحدة عام ١٩٢٩.

(٣) James watson: ولد بالولايات المتحدة عام ١٩٢٨، والتحق بجامعة شيكاغو وعمره ١٥ عامًا. حصل على الدكتوراه فى علم الوراثة عام ١٩٥٠. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢ (مشاركة مع فرانسيس كريك وموريس ويلكنز) لتوصله إلى اكتشاف تركيب جزىء الدنا DNA، وما زال يعمل فى مختلف مجالات الأبحاث البيولوجية.

كذلك يخبرنا روبرت وينستون[1] رئيس الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم فى كتابه «الفطرة البشرية» بأن **الحس الدينى جزء من بنيتنا النفسية، وأنه مسجل فى جيناتنا**، وأنه يتراوح قوةً وضعفًا من إنسان لآخر.

ويؤكد مايكل شيرمر[2] (رئيس تحرير مجلة الشَّكَّاك) أن **الشعور بثنائية الجسد والروح أمر فطرى مزروع فينا منذ ولادتنا**. ويؤيد نفس المعنى بول بلوم[3] (أستاذ علم النفس بجامعة ييل بالولايات المتحدة) قائلًا: «إننا كائنات ثنائية (جسد وروح)، دُمِغَ فى جيناتنا (HardWired) **الإيمان بحياة أخرى** تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفانى. إن هذا الإيمان هو أصل الفطرة الدينية»[4].

ولا شك أن هناك علاقة فطرية قوية بين عناصر هذا الثالوث: كَوْن الإنسان مخلوقًا عاطفيًّا، وتبنيه للمفاهيم الأخلاقية، واستجابته للمشاعر الدينية.

كلمة البيولوجيا: جين الألوهية

توصل دين هامر[5] (رئيس وحدة أبحاث الجينات بالمعهد القومى للسرطان بالولايات المتحدة) إلى أن الإنسان يرث مجموعة من الجينات التى تجعله مستعدًّا لتقبل مفاهيم **الألوهية والدين God Gene Hypothesis**.

وقد خرج هامر بهذا المفهوم بناء على الأبحاث التى أجراها على الجينات، وعلى دراسات بيولوجيا الأعصاب وعلم النفس، ونشر نتائج هذه الأبحاث فى كتابه «**جين الألوهية** The God Gene: How faith is Hardwired in our genes»، عام ٢٠٠٤ [6].

---

(١) Robert Winston: إنجليزى، يعمل كأستاذ وعميد معهد أمراض وجراحة النساء والتوليد بلندن، وله أبحاث مشهورة فى مجال أطفال الأنابيب والحيوانات المنوية والخلايا الجذعية. وهو كاتب وإعلامى شهير. ولد عام ١٩٤٠.

(٢) Michael Shermer: أمريكى، أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريمونت، مهتم بالفلسفة والعلوم. يرأس تحرير مجلة Skeptic التى تصدرها جمعية Skeptics التى تضم ٥٥,٠٠٠ عضو، وتهتم بتنقية العلم مما يحيط به من ضلالات. ولد عام ١٩٥٤.

(٣) **Paul Bloom**: يعمل كأستاذ لعلم النفس بجامعة ييل، مهتم بكيف نتعرف على العالم المحيط. ولد عام ١٩٦٣ بكندا.

(٤) جاء هذا الطرح فى كتابه: Descartes baby: How the Science of child development explains what makes us Human الذى نُشر عام ٢٠٠٤.

(٥) Dean Hamer: ولد عام ١٩٥١ بالولايات المتحدة.

(٦) من أهم الجينات المسئولة عن هذا الاستعداد هو الجين المعروف بـ VMAT2. هذا الجين مسئول عن تكوين حامل كيميائى بالمخ يُعرف باسم Vesicular monamine transporter، ومسئول عن تحديد مستوى عدد من الناقلات الكيميائية التى تنظم عمل المخ (السيروتونين ـ الدوبامين ـ النورأدرينالين). كما أن له دورًا فى توجيه نشأة مراكز المخ المسئولة عن المشاعر الروحية والمفاهيم الغيبية.

وكما تتوقع، واجه كتاب دين هامر «جين الألوهية» **معارضات من بعض الأوساط العلمية.** وربما يرجع ذلك إلى اسم الكتاب الذى استفز الماديين، بالرغم من أن ما يطرحه من مفاهيم علمية ليس بجديد!، فقد طرحها من قبل علم النفس وعلوم المخ والأعصاب[(١)].

وإذا كان الماديون يؤمنون بأن **كل سلوكيات ومشاعر الإنسان تحكمها الجينات (الحتمية الجينية)**، فلماذا يستبعدون ذلك مع السلوكيات والمشاعر الدينية؟! إن ما فعله دين هامر (وهو ليس متدينًا) أنه توصل إلى الجينات المسئولة عن التوجهات الدينية، وهو ما يتماشى مع منظومة الماديين، فما وجه اعتراضهم؟!

مع علم النفس

قبل كتاب دين هامر بعشرين سنة، طرح د. كلود كلوننجر[(٢)] Claud Robert Cloninger (أستاذ علم النفس والطب النفسى وعلوم الوراثة بجامعة واشنطن) «**نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية** Temperament And Character Inventory» والتى صارت من المفاهيم الثابتة فى الأوساط العلمية. فى هذه النظرية، طرح كلوننجر **ثلاث مجموعات من الأخلاق الوراثية**، تمهد جيناتنا للتخلق بها، تحدد ميول البشر الإنسانية والأخلاقية والروحية. وهذه الأخلاق هى:

١ - **مصداقية الذات** Self-Directedness: وتشمل وضوح الأهداف Purposefulness، وكَوْن الإنسان أهلًا للثقة Reliable (وهى صفات خاصة بذات الإنسان).

٢ - **التعاون** Cooperativeness: ويشمل استعداد الإنسان لمساعدة الآخرين Helpful وتَحَمُّلهم Tolerant والعزوف عن الانتقام Non-Revengeful (وهى صفات تحكم تعامل الإنسان مع الآخرين).

---

(١) كرد فعل للكتاب، طرحت مجلة تايم Time فى عدد ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٤ موضوعًا مهمًّا بعنوان «جين الألوهية»، تؤكد فيه أن **الشعور بالإله، والرغبة فى التوجه إليه بالعبادة، وكذلك الشعور بوجود النعيم والعذاب فى حياة أخرى بعد الموت**، أمور فطرية عند البشر، فى كل الحضارات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك، اهتمام **الفراعنة** الشديد بالموت والتحنيط وما بعد الموت. ويظهر ذلك فى المعابد الضخمة وفى رسوم المقابر الفرعونية، وكذلك البرديات مثل كتاب الموتى. وقد أظهرت الدراسات اهتمامًا مشابهًا عند القدماء فى الهند والصين وأمريكا الجنوبية وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا والسويد.

(٢) Claud Robert Cloninger: وُلد فى الولايات المتحدة عام ١٩٤٤. وهو رائد فى أبحاث الجينات وبيولوجيا الأعصاب والطب النفسى والأمراض النفسية، وقد شغل منصب الأستاذية فى هذه التخصصات، وشغل أيضًا منصب مدير مركز الصحة النفسية فى جامعة واشنطن. وهو الناشر الرئيس لعدد من المجلات العلمية المحترمة فى الطب النفسى والوراثة، واشترك فى تأليف أربعة كتب وأكثر من ٤٠٠ بحث علمى.

وقد كُرِّم كلوننجر بالعديد من الجوائز ، منها العضوية مدى الحياة فى الأكاديمية الأمريكية للعلوم، وحصل عام ٢٠٠٩ على جائزة اتحاد الأمراض النفسية الأمريكى لجهوده لفهم الإنسان بشكل متكامل (جسم - عقل - نفس - روح).

٣- **تجاوز الذات (السمو النفسى)** Self-Transcendence: ويشمل الميول الروحية Spiritualness والإبداع Creativity **وإنكار الذات** Self - forgetfulness **والبعد عن المادية** Non-Materialism (وهى صفات خاصة بالمفاهيم العلوية).

وإذا تأملنا هذه المجموعات الثلاث من الأخلاق، وجدنا أنها تمثل **«الأساس النفسى» لفطرة التدين وفطرة المنظومة الأخلاقية فى الإنسان**، ثم تقوم **«التربية»** بتنمية هذه التوجهات.

وتقوم **جينات معينة** (فى الجنين وفى مرحلة الطفولة) بتكوين الدوائر العصبية المسئولة عن هذه الصفات فى المراكز الخاصة بالتعلم وبالمفاهيم المُسْبَقَة **فى القشرة المخية الحديثة Neocortex، التى يتميز بها الإنسان عن باقى الثدييات.**

الذكاء الروحى (الوجودى)

تَطَرَّق اهتمام علماء النفس فى السنوات الأخيرة إلى أنواع من الذكاء غير تلك المسئولة عن القدرات العقلية للتحصيل الدراسى، فظهرت عدة نظريات فى هذا المجال، **أهمها نظرية الذكاء المتعدد Multiple Intelligence Theory** [١] **لهاورد جاردنر. وقد أثبتت نظرية جاردنر وجود عدة أنواع وليس نوعًا واحدًا من الذكاء الإنسانى، يشكل كلٌّ منها نَسَقًا مستقلًّا خاصًّا به، ويشغل كلٌّ منها مركزًا مستقلًّا فى المخ تم تحديده بالفحوصات الإشعاعية الحديثة.**

طرح جاردنر فى نظريته ثمانية أنواع من الذكاء[٢]، ثم أَتْبَعها بما أطلق عليه اسم **«الذكاء الروحى** Spiritual Intelligence»، وقد وجد هذا الاصطلاح معارضة كبيرة ممن يعتبرون أن كل ما يُنسب إلى الروح ليس بعلم، فاستبدله جاردنر باصطلاح **«الذكاء الوجودى** Existential Intelligence» ووصف فيه كل ما نسبه إلى الذكاء الروحى، وهو يهتم بالقضايا فوق الحسية وبالقضايا الأساسية للوجود الإنسانى[٣].

(١) قدّم هذه النظرية هوارد جاردنر **Howard Gardner** الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٨٣ فى كتاب بعنوان «أُطر العقل»، واستمر فى تطويرها لما يزيد على عشرين عامًا.

(٢) **أنواع الذكاء الثمانية هى**: الذكاء اللغوى ، الذكاء المنطقى ـ الرياضى، الذكاء المكانى، الذكاء الموسيقىّ، الذكاء الجسمى ـ الحركى، ذكاء العلاقة مع الآخرين، ذكاء فهم الذات، الذكاء التصنيفى.

(٣) **مكونات الذكاء الروحى**:

١- **الوعى بالذات**: معرفة معتقداتى، وموقعى من الوجود، ودوافعى العميقة.

٢- إدراك أن العالم المادى جزء من حقيقة أكبر، تربطنا بها علاقات.

٣- القدرة على طرح **الأسئلة المعرفية النهائية**، والقدرة على فهم الإجابة عنها.

٤- القدرة على **التسامى على المفاهيم المادية**، إلى مستوى أرقى وأسمى وأعمق. =

مراكز التدين فى المخ

فى كتاب «**أشباح فى المخ** Phantoms in the Brain» يبين د.راماشاندران[1] (أستاذ ورئيس مركز أبحاث بيولوجيا المخ والأعصاب بجامعة كاليفورنيا) **أن الإيمان بأمور ما وراء الطبيعة منتشر فى جميع الحضارات القديمة والحديثة، مما يحتم علينا أن نبحث عن أصوله البيولوجية فى المخ**، فلا شىء يميز الإنسان عن باقى الكائنات مثل هذا الأمر. ولدراسة ذلك تم تأسيس علم جديد باسم **Neuro - Theology**[2]، ويختص بدراسة الأسس البيولوجية العصبية للروحانيات.

ومن المهتمين بهذا العلم د. آندرو نيوبيرج و د. يوجين داكويلى[3]. وقد أجرى العالِمان أبحاثهما على الرهبان البوذيين والراهبات الفرانسيسكان فى أثناء تأملاتهم وصلواتهم، وتوصلا **إلى أن المشاعر الروحية تصحبها تغيرات حقيقية (أمكن ملاحظتها وتسجيلها وتصويرها) فى نشاط الجهاز الحوفى** Limbic System **المسئول عن الانفعالات، وكذلك فى القشرة المخية فى المنطقة المسئولة عن الاستيعاب والإدراك** Oriention Association area[4]. وفى المقابل فإن تنشيط هذه المراكز من الخارج يؤدى إلى الإحساس بمشاعر روحية فياضة. معنى ذلك أن

= ٥- الحياة تبعًا للمبادئ والعقائد والمُثُل.

٦- أخذ المفاهيم الروحية فى الاعتبار فى تعاملاتنا اليومية.

٧- امتلاك قناعة شخصية تجاه الأمور، وإن اختلفت مع الأغلبية.

٨- التواضع، وإدراك حجمنا الحقيقى فى العالم، والشعور بأننا أفراد من فريق.

٩- قبول الآخر المختلف عنا.

١٠- الاستجابة لنداء الفطرة لمساعدة الآخرين.

١١- الاستقامة الأخلاقية، والتمسك بالعفة والطهر.

١٢- الشعور بأن سعادتى تنبع من داخلى، وليس من الإنجاز العملى أو المادى.

١٣- نفاذ البصيرة وقوة الحدس.

(١) V. Ramachandran: ولد فى الهند عام ١٩٥١. يوصف راما شاندران بأنه ماركوبولو علوم المخ والأعصاب (الرحالة والمستكشف الشهير فى العصور الوسطى) وبأنه بول بروكا العصر الحديث (مؤسس علوم المخ والأعصاب).

(٢) كذلك تم تأسيس علم Geno-Theology لدراسة الأسس الجينية للروحانيات. ويجمع العلمين علم Bio-Theology الذى يدرس الأسس البيولوجية للروحانيات.

(٣) Andrew Newberg: أستاذ الأشعة التشخيصية ومدير مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة. و Eugene D'Aquili أستاذ الأمراض النفسية بنفس الجامعة. وسُجلت نتائج الأبحاث فى كتابَىْ «لماذا يأبى الإله أن يختفى؟» Why God Won't go away? 2001، و«كيف يُغَيِّر الإيمان بالله المخ؟» How God Changes your Brain? 2009

(٤) تقع عند التقاء فصوص المخ: الجدارى والصدغى والخلفى.

المشاعر الروحية ليست مجرد أوهام أو تخيلات، بل إن لها مراكزها العصبية فى المخ. لذلك يؤكد الباحثان، أن المخ البشرى قد تم تشكيله بحيث يستجيب للمشاعر الدينية[1].

بذلك أصبح الاستنتاج الذى لا مفر منه، هو أن المخ البشرى وكذلك جيناتنا قد تم إعدادهما للتعامل مع المنظومة الإلهية والدينية.

المسألة الأخلاقية

الأنانية ، الإيثار، الضمير[2]

عندما يجلب أمر ما لأنفسنا اللذة والسرور فإننا نشعر تجاهه برغبة تحملنا على البحث عنه والقيام به، وعندما يسبب لنا المعاناة أو الألم فإننا نشعر نحوه ببغض يدفعنا إلى الفرار منه وتحاشيه. وتُسمى هذه الدوافع «**بالميول الأنانية**»، وشعارها «**كل شىء لى، ولو كان ذلك على حساب الآخرين**».

ومن الناس من يتصفون برقة العاطفة فيتألمون لآلام الآخرين ويُسَّرون لسرورهم، ويسعون للتخفيف من آلامهم وجلب السرور لهم، ويُسمى ذلك بـ «**المشاركة الوجدانية**». وإذا وصل الأمر إلى التضحية كان ذلك إنكارًا للذات، وأُطلق عليه «**الإيثار**». وهؤلاء يكون شعارهم: «**كل شىء للآخرين، ولو كان ذلك على حسابى**».

وعندما نبلغ سن الرشد، يتشكل لنا «ضمير»[3] يُشعرنا بأن عملاً ما واجب التنفيذ، وآخر واجب الترك، وثالثًا مباح. فإذا فعلنا (أو تركنا) ما هو واجب شعرنا بلذة الرضا الأخلاقى، وإذا قصرنا فى ذلك شعرنا بألم تبكيت الضمير. ومن ثم يصبح «**وحى الضمير**» هو المصدر الثالث للسعادة والشقاء. وهؤلاء يكون شعارهم: «**إرضاء الضمير أولًا وقبل كل شىء**».

---

(١) إن هذا التوافق بين بنية الدين وبنية المخ البشرى يمتد إلى **بيولوجيا الجسم الإنسانى**، وينعكس بشكل إيجابى على صحته الجسدية والعقلية والنفسية. وحول هذا المعنى يقول أندرو سيمز Andrew Sims، عالِم الفيزياء بمركز «الطب الخلوى Cellular Medicine» بنيو كاسل بإنجلترا: إن «الآثار الإيجابية» للإيمان الدينى والروحانيات على الصحة الجسدية والعقلية والنفسية من أهم أسرار علم النفس والطب بصفة عامة. وإذا كانت الأبحاث العديدة والمكثفة التى أجريت فى هذا المجال قد أشارت إلى نتائج سلبية على الصحة لوجَدْتَ الأخبار تملأ الصفحات الأولى فى جميع صحف العـالم».

(٢) عن كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، تأليف أندريه كريسون، وترجمة الشيخ د. عبد الحليم محمود. دار المعارف.

(٣) قناعتنا أن اصطلاح «الضمير» مرادف للاصطلاح الدينى «الفطرة». وقد تم صكه كبديل للمفاهيم الدينية.

والإنسان المتزن تحكمه الدوافع النفسية الثلاثة: الأنانية، والإيثار، والضمير. وتمثل هذه الدوافع أساس ما يُعرف عند الفلاسفة بـ «**المسألة الأخلاقية**»، التى تتلخص فيما يلى: تنبعث فينا طموحات مختلفة، فكيف نسلك تجاهها؟ أنتبع الميول الأنانية، أم نستجيب لعاطفة الرحمة والإيثار أم نسعى إلى طمأنينة الضمير؟

وتأتى **الديانات** لتنظم العلاقة بين هذه الدوافع التى وضعها الإله فى فطرة البشر؛ تحثنا على الفاضل منها، وتنهانا عما هو دنىء. والديانات فى حكمها على الشىء بين فضل ودناءة تخضع **لمقاييس «مطلقة»** يحددها الإله.

وفى المقابل، ترى **النظرة المادية** أن هذه الدوافع قد شَكَّلَها **التطور البيولوجى** وليس الخَلق الإلهى، ويهدف التطور فى ذلك لتحقيق الفائدة التى تخدم تكاثر الكائن وبقاءه، ومن ثم تصبح «**الأخلاق نسبية**»، تتشكل فى إطار أن الغاية تبرر الوسيلة. وإذا كان يسهل تفسير نشأة دافع «**الأنانية**» بآلية الغاية تبرر الوسيلة، فمن الصعب تفسير نشأة دافع «**الضمير**»، أما دافع «**الإيثار**» فسيظل الصخرة الكؤود فى مواجهة التطور الداروينى، إذ يعجز تمامًا عن تفسيره.

نشأة الدوافع الأخلاقية عند الدراونة

يرى دارون أن الحيوانات التى تتمتع «بحس اجتماعى» (ومنها الإنسان)، ما أن تصل إلى درجة معقولة من الذكاء حتى «تكتسب» «دوافع أخلاقية» تعينها على الحياة فى الظروف الاجتماعية السائدة. أى أن **الظروف الاجتماعية هى التى تشكل الأخلاق**، عكس المنظور الدينى الذى يعتبر أن الأخلاق توجه حياتنا ومن ثم تشكل ظروفنا الاجتماعية. ويشرح دارون وجهة نظره بمثال: إذا نُشِّئَ إنسان تحت الظروف الاجتماعية **لجماعة النحل** (هذه الجماعة التى تعتبر فيها شغالات النحل أن قتل إخوتها الذكور واجب مقدس لخدمة الخلية، كما تقتل الأمهات صغيراتها القادرات على وضع البيض دون أى شعور بالذنب) فإن هذا الإنسان سيتبنى نفس المفاهيم الأخلاقية ونفس السلوك.

ويعرض علينا دارون أمثلة واقعية من عالم الإنسان، يعتقد أنها تخدم فكرته، فيقول: من **أسوأ حقائق الداروينية الاجتماعية** أن الهنود الحمر يتركون رفاقهم الضعفاء فى العراء ليموتوا، وكذلك قبائل الفيجيانز Feegeans الذين يدفنون والديهم المسنين ومرضاهم أحياء من أجل الحفاظ على موارد الطبيعة القليلة للأفراد الأصحاء الأقوياء المفيدين للمجتمع، وهو ما يتماشى مع مفهوم الانتخاب الطبيعى.

ثم يتنبه دارون لمفارقة لا يجد لها تفسيرًا، كانت كفيلة بأن تبدل مفاهيمه. يقول دارون: ومع تقدم الحضارة، أصبح **«التعاطف Sympathy»** أنبل ما فى طبيعتنا البشرية، فصارت الأغلبية العظمى من البشر يبذلون أقصى الجهد فى رعاية والديهم المسنين ومرضاهم وضعفائهم، وإن كلفهم ذلك ثرواتهم المتواضعة وربما حياتهم. بل صار الناس يُشَيِّدون المصحات ويسنون القوانين لحماية حياة من يعرفون ومن لا يعرفون. وامتد هذا التعاطف لاستئناس الحيوانات المنزلية بكل ما يمثل ذلك من مخاطر صحية للجنس الإنسانى[١].

ويجتهد دارون فى تفسير **ظهور خُلُق التعاطف** (شعورًا ثم فعلًا)، فيفترض أن ذلك كان من أجل التخفيف من شعورنا بالضيق والألم عندما نرى معاناة الآخرين، وكلما تقدم الإنسان حضاريًّا مَدَّ حسه التعاطفى إلى من لا يعرفهم من أفراد مجتمعه. ويمنع حاجز الأنانية الإنسان من أن يمد تعاطفه إلى المجتمعات الأخرى، وقد يتجاوز الإنسان هذا الحاجز ليشمل بتعاطفه الإنسانية جمعاء، ثم ليشمل الحيوان وكل الكائنات. ونحن نسأل دارون؛ لماذا يشعر الإنسان بالضيق والألم تجاه معاناة الآخرين؟ وما الدافع التطورى لأن يمد الإنسان تعاطفه إلى من لا يعرفهم وإلى الحيوانات؟ ألا يتعارض ذلك مع الانتخاب الطبيعى؟!

ويعترف دارون أن رعاية الإنسان لمرضاه وضعفائه، وأيضًا للأغراب والحيوانات، **تهدد دون شك الجنس البشرى**، إذ تعوق الانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح. ويبحث دارون عن تبرير للارتباط القوى بين ذيوع التعاطف (عمقًا وانتشارًا) وبين تقدم الحضارات، فيقول: حين يتنافس مجتمعان، فإن الأكثر تعاطفًا يكون قادرًا على تشكيل جيش أكثر تماسكًا، فيستطيع أن يقهر المجتمع الآخر، بذلك ساد خلق التعاطف وانتشر فى العالم[٢]!

يتعارض هذا الطرح مع طرح آخر قدمه دارون، إذ يرى أن المتوحشين سيسودون ويفتكون بالإنسان المتعاطف المتحضر خلال قرون قليلة، فهم الأكثر شراسة، والأقدر على الفتك بالمتحضرين المُرَفَّهين[٣]. وإذا كان التعاطف بهذا الضرر، فلِمَ ظهر، ولِمَ تبناه الإنسان؟! إن المتابع لموقف دارون فى هذا الموضوع يجده **يتأرجح بين المادية المطلقة للتطور وبين الرغبة فى المحافظة على ما وصفه بأنه أنبل ما فى طبيعتنا الإنسانية!** ولا ندرى لِمَ اعتبر

(١) Descent of Man, Princeton university press, 1981, P. 168

(٢) Descent of Man, Princeton university press, 1981 P. 162 - 163

(٣) Descent of Man, Princeton university press, 1981 P. 201

دارون أن التعاطف هو أنبل صفاتنا؟ أليس التعاطف مثل لون عيوننا واسترسال شعورنا كما يردد التطوريون؟!

الدراونة والإيثار

إذا كان الدراونة قد عجزوا عن تفسير نشأة التعاطف بين البشر، فلا شك أن تفسير نشأة خُلق «الإيثار **Altruism**» سيكون أصعب، فهو **يعمل ضد هدف التطور الرئيس، وهو المحافظة على النوع.**

فعلى **المستوى الفردى**، ما الذى يدفعنى للتضحية بذاتى من أجل المجتمع والجنس البشرى؟ ما الذى يدفع جيناتى الأنانية[1] للتضحية بذاتها؟ وما الذى يدفع جينات كرات الدم البيضاء للتضحية بذاتها فى صراعها ضد الميكروبات لدفع المرض عن الجسد؟!. وعلى **المستوى الأكبر**، ما الذى يدفع **المجتمع** للتضحية بموارده وجهد أفراده من أجل العناية بالضعفاء والمرضى والمعَوَّقين والمسنين؟. أليس ذلك ضد البقاء للأصلح؟ ألا يزيد ذلك من فرصة بقاء الأقل صلاحية؟

يفترض الدراونة إننا نفعل ذلك **من أجل أن يفعله معنا الآخرون** عندما نمرض أو نهرم، بالرغم من أن هذا التفسير مرفوض داروينيًّا!! **فالتطور ليس له بصيرة مستقبلية**، ومن ثم لا يفرض علينا التزامًا أخلاقيًّا تجاه ضعفائنا حتى يساعدنا الآخرون فيما بعد. إن التطور لا يعرف مَثَلَنا الشعبى «مَن قَدَّم السبت يلقى الحد (يوم الأحد) قُدَّامُه».

وفى مقالة لهربرت سيمون[2] لاقت قبولًا واسعًا بين الدراونة، يقول: يخبرنا علم النفس التطورى بأن الإنسان يسلك بطريقة تزيد من لياقته (صلاحيته) فى مختلف المجالات، وأهمها المحافظة على جيناته ونقلها للأجيال التالية. وإذا كان **سلوك الإيثار** يتعارض مع مصلحة الإنسان، فإن نشأة هذا السلوك ترجع إلى آليتين تعملان سويًّا؛ اللين والدماثة Docility، والمحدودية العقلية Bounded Rationality. فالشخص اللين الدمث يتجاوب مع ما يريده منه الآخرون، ولا يفرق بين ما يزيد من صلاحيته وما ينتقص منها! ولو كان هؤلاء أذكياء بالقدر الكافى لَمَا أقدموا على هذا السلوك!

إن سيمون هنا يُرجع خُلُق الإيثار إلى سلوك الأفراد على عكس ما يفرضه التطور الداروينى، فيتصارعون من أجل الفناء وليس البقاء! وتفسيره لذلك أنهم أغبياء وضعفاء الشخصية!.

(١) هذا الوصف إشارة إلى كتاب (الجين الأنانى) تأليف كبير الملاحدة ريتشارد دوكنز.

(٢) Herbert Simon: (١٩١٦- ٢٠٠١) حاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد، أصبح فيما بعد أستاذًا للكمبيوتر وعلم النفس بجامعة بطرسبرج. والمقال بعنوان: A Mechanism for Social Selection of Altruistic Behaviour

لا شك أن هذا الطرح السيمونى يتعارض تمامًا مع الحقيقة، فالذين يُؤْثرون الآخرين عادة ما يكونون شخصيات قوية ذكية حاسمة حازمة. ما أسوأه من طرح، يتغافل عما نرصده بأعيننا، **ويقلب فضائل الأخلاق والإعمال إلى نقائص غبية**، من أجل إثبات فكرة مسبقة.

ويفسر دوكنز هذا التصور السيمونى الشاذ لنشأة خلق الإيثار ـ فى ضوء مفهومه عن الجين الأنانى ـ تفسيرًا لا يدرك عواقبه على موقفه الإلحادى! يقول دوكنز: «بالرغم من أن الإنسان ليس إلا جيناته، فإنه **يستطيع بطريقة ما التمرد عليها والقيام بغير ما تمليه عليه**. فبرغم من أننا آلات جينية فلدينا القدرة على التمرد على خالقينا، **الإنسان فقط هو القادر على التمرد على طغيان جيناته**»[١].

لكن كيف نتمرد على جيناتنا؟! أين هى الحتمية الجينية؟

من أين لنا حرية الإرادة والقدرة على التمرد؟

دوكنز لا يجيب، وإلا اضطر لمشاركة المؤمنين قولَهم بحرية الإرادة الإنسانية.

وفى موقف آخر يفسر دوكنز نشأة خلق التعاطف والإيثار بأنه «**خطأ تطورى**»!! أى علم هذا؟!

إنسان فاضل رغم أنف الدراونة

إذا تركنا دراسات دارون، وقطعنا قرنًا ونصف من الزمان، وجدنا من الدراسات الحديثة ما يقلب المائدة على الدراونة. فقد ثبت أن الإنسان لا يلتزم بـ «الصراع من أجل البقاء» بل **يسلك فى المقام الأول بناءً على دوافعه الأخلاقية حتى فى أحلك الظروف**. ولعل من أقوى الدراسات تلك التى قام بها «صامويل مارشال Samuel Marshall» المؤرخ الرسمى للجيش الأمريكى[٢]، والتى أظهرت أن ثلاثة من كل أربعة جنود أمريكيين (٧٥٪) لم يطلقوا نيران أسلحتهم بشكل مباشر لقتل أحد الأعداء حتى وهم معرضون للخطر، بل كان رادعهم الأخلاقى الرافض للقتل يجعلهم يترددون، وقد عُرفت هذه النسبة بـ«**معدل مارشال لإطلاق النار فى الحروب**».

وقد مثل هذا **الرادع الأخلاقى** مشكلة كبيرة للجيش الأمريكى، فَبدَّلَ المسئولون من

(١) The Selfish Gene, oxford press,1976, P.215

(٢) Samuel Lyman Atwood Marshall: (١٩٠٠ – ١٩٧٧)، المؤرخ الرسمى للجيش الأمريكى فى أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها من حروب. ألف أكثر من ٣٠ كتابًا عن سلوك الجنود فى أثناء الحرب، وأشهرها Men Against fire

أسلوب التدريب على إطلاق النار فى أثناء الحروب بحيث يصبح أمرًا تلقائيًّا وعشوائيًّا عند مجرد التعرض للخطر، كما احتاج الأمر إعداد الجنود نفسيًّا من أجل تشجيعهم على القتل. بذلك انخفضت هذه النسبة عن الحرب الكورية وحرب ڤيتنام حتى وصلت إلى ١٠٪ فى حرب العراق. سبحان الله؛ **الأصل فى الإنسان هو الالتزام الأخلاقى وليس الصراع الداروينى من أجل البقاء، حتى وهو فى أشد لحظات المواجهة.**

المحور الروحى فى الذات الإنسانية

يدهشنى كثيرًا **ادعاء الماديين أن الديانات ابتداع إنسانى!** لجأ إليه الإنسان لتحقيق فوائد مادية ومعرفية ونفسية، أهمها الشعور بالأمان لوجود قوة غيبية تدعمنا عند الضرورة. ومن ثم يعتبر الماديون أن ما نستشعره من طمأنينة نفسية ومشاعر روحية وشعور بالتسامى **أوهامًا نفسية أو هلاوس مسئول عنها نشاط غير سَوِى لبعض مراكزنا المخية.**

وإذا كان الماديون **يعتبرون الدين ابتداعًا إنسانيًّا وظاهرة تبريرية،** فيحق لنا أن نتساءل؛ ما **«التحدى التطورى» الذى واجه الإنسان حتى يكسبه آليات بيولوجية عصبية تشعره بتضاؤل الشعور بالذات بل وبفنائها وبتوهم وجود عالم علوى غيبى غير حقيقى والتواصل معه!**[1] مما يتعارض تمامًا مع هدف التطور الأساسى، وهو **المحافظة على الذات؟** إن ذلك يعنى انعدام **«الفائدة التطورية»، بل يعنى انتكاسة تطورية.** ونذهب أبعد من ذلك فنقول: إذا كان الدين أكبر الكوارث التى مُنِىَ بها الإنسان (كما يدعى الماديون أمثال ريتشارد دوكنز)، فلِمَ لم تَقم **آليات الانتخاب الطبيعى بالتخلص منه مبكرًا؟!**

علماء على أبواب المشاعر الروحية

تأمل كيف ينظر أينشتين إلى الحياة[2]، انظر إليه وهو يقول:

«لا شك أن أروع المشاعر التى يمكن أن نحسها هو ما كان **غامضًا مُلغِزًا.** وتلك المشاعر هى القوة التى تحرك الفن والعلم الحقيقيين. أما المحرومون من هذا الشعور والعاجزون عن الاندهاش والاستغراق فى الورع والخشية، فهؤلاء هم الميتون».

(١) إشارة إلى مفاهيم الفناء وحدة الوجود ووحدة الشهود التى نطرحها بعد قليل.

(٢) Einstein: The world as I see, 1931

ويقول أينشتين أيضًا

«لا أجد اصطلاحًا أفضل من «دينى Religious» لما يعتمل داخلى من «ثقة» فى انتظام الطبيعة ومنطقيتها وقابليتها للتنبؤ، وقدرة العقل البشرى على فهمها. وإذا تلاشت هذه الثقة فإن العلم سيتداعى إلى شذرات لا رابط بينها».

ويقول صامويل مورس[1] **Samuel Morse** مبتكر شفرة **التلغراف**

«كلما احترت فى أمر ما فى حياتى العلمية والعملية سجدت وصليت للإله أن ينير لى طريق الفهم. وعندما انهال علىّ التكريم من أمريكا وأوروبا، لم أشعر لحظة أنى استحقه، كل ما فعلته أننى استخدمت الكهرباء بشكل عملى ما، لم يكن ذلك لتميزى، ولكن لأن الإله الذى زود الإنسان الكهرباء، كان لا بد أن يكشف بعضًا من استخداماتها للإنسان، وكنت من المحظوظين أن اختارنى لذلك».

إنها رؤية مختلفة للوجود.

المخ/العقل والدين فى تكامل

إن أهم ما يتميز به المخ/ العقل الإنسانى وجود **العديد من الآليات التى تخدم المنظومة الدينية**. أولها، **أن للعقل الإنسانى رغبة فطرية فى تجسيد الأفكار والمشاعر**، رغبة تقف وراءها مراكز ودوائر عصبية. فنحن نرى الموسيقيين، مثلًا، يحركون أصابعهم باللحن الذى يتخيلونه، كما نتمايل نحن عند الاستماع إلى قطعة موسيقية تُطربنا. من هنا جاءت **رغبة المخ/ العقل فى تجسيد المعتقدات الدينية على هيئة طقوس**، خاصة المفاهيم المهمة للإنسان؛ كالموت والبعث والتواصل مع عوالم الغيب.

وعادة ما تكون **الطقوس الدينية مصحوبة بشحنات انفعالية**، نتيجة **لتأثير الإيقاع الحركى والصوتى للطقوس على الجهاز الحوفى والجهاز العصبى اللاإرادى والقشرة المخية**[2]. ويشارك فى هذا التنشيط ـ مع الإيقاع ـ **طقوس أخرى**، كالركوع والسجود وحركات اليدين فى الصلاة، وكهيبة المكان والصوم، والتنفس المنتظم فى أثناء الذِّكر، ورائحة البخور، وغيرها، وكلها عوامل تُشعر الإنسان **بالرهبة التى يمازجها السكون والشعور بالورع والنشوة الدينية**.

(١) Samuel Morse :(١٧٩١ - ١٨٧٢). رسام أمريكى ومخترع، يرجع إليه الفضل فى تطوير التلغراف، كما ابتكر شفرة مورس المستخدمة فيه.

(٢) **الجهاز الحوفى** limbic system هو المسئول عن نشاطاتنا الانفعالية، **والجهاز العصبى اللاإرادى** ANS هو المسئول عن وظائفنا اللاإرادية، **والقشرة المخية** Cerebral Cortex مسئولة عن نشاطاتنا العقلية وأفكارنا ومعتقداتنا.

أمـا دور **القشـرة المخية** فى هـذا السيناريو فحيـوى للغاية؛ إذ يمتزج مـا فيهـا مـن أفكار ومعتقدات **مع الانفعالات السابقة**. بذلك تصبح **الطقوس أداة لتحويل المعتقدات النظرية إلى تجربة شعورية ذاتية**.

مما سبق نجد **أن بنية المخ البشرى مجهزة تمامًا للتعامل مع بنية الدين**، ويظهر ذلك فى عدة مستويات، تبدأ بالقدرة على **الفهم العقلى للوحى** السماوى، ثم وجود **الشوق الفطرى إلى مفاهيم الألوهية والدين، والرغبة الفطرية** فى تجسيد المفاهيم العقلية، **وتحويل المفاهيم النظرية العقلية للعقيدة إلى تجارب شعورية ذاتية، ثم القدرة على إغلاق دوائر الشعور بالذات وبالوجود المادى مع استحضار مشاعر التسامى والتواصل مع العوالم الغيبية**.

والسؤال المحورى هنا هو؛ **كيف تم إعداد المخ بهذه الهيئة ليكون ملائمًا تمامًا لبنية الديانات، أو كيف تم صياغة الديانات لتكون ملائمة تمامًا لبنية المخ البشرى؟**

ليس لدى الدراونة الماديين إجابة شافية عن هذا التساؤل.

وقد أظهرت أبحاث أندرو نيوبرج[1]، **أن العبادات** (بما فيها من **صلاة وذكر وتأمل وصيام وقراءة للكتب المقدسة**) تشتمل على الكثير من الآليات التى وصفها العلماء المتخصصون **لتحسين صحتنا الجسدية والعقلية والنفسية، ولتحقيق السكينة والسمو** الروحى. كذلك فإن **التوجه إلى الله ﷻ بصفته الرحمن الرحيم يؤدى إلى المزيد من السكينة والسمو**. أما العبادة التى تُـرَكِّز على الخوف من الله ﷻ ذى البطش الشديد، وكذلك التطرف الدينى، فيؤديان **إلى تلف الكثير من الدوائر العصبية المخية**، ومن ثم إلى الشقاء النفسى والأمراض العضوية والشيخوخة المبكرة.

المخ/العقل والعبادات

أُنهى حديثى عن المشاعر الروحية والتسامى بسؤال سألنى إياه ابنى الأصغر عام التحق بالجامعة، قال:

لماذا تشتمل الديانات السماوية على عبادات؟ ألا يكفى أن تكون هناك **عقيدة فى الإله** نؤمن بها، **ثم نلتزم بمكارم الأخلاق** وحسن **معاملة الآخرين**، وكفى، مثل كثير من ديانات الشرق الأقصى؟

وقتها، أجبت ابنى بما كان فى جعبتى، وقلت له: **إن أهمية العبادات بالنسبة للديانات ترجع إلى أنها:**

أولًا: دليل على طاعة المؤمن لأوامر الله ﷻ، حتى وإن لم نعرف لها تفسيرًا. مثل عدد الركعات فى كل صلاة، وأن يكون بعضها سرًّا وبعضها جهرًا. ومن ثَمَّ فهى دليل على صدق العبودية لله ﷻ.

---

(١) نتعرض لها بعد قليل.

ثانيًا: للعبادات فوائد شخصية واجتماعية مهمة. فالصلاة ـ مثلًا ـ تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم ترقية للنفس وإشعار بمعاناة الفقراء، والزكاة تكافل اجتماعى....

هاتان الفائدتان من أهم مقاصد الشريعة، وكنت أعرفهما منذ صباى. ولكنى بعد أن اطلعت على نتائج أبحاث أندرونيوبرج وغيرها استشعرت أن ما قلته لابنى كان قاصرًا، فنقلت إليه الإضافات التالية:

ثالثًا: العبادات تجسيد لمعتقداتنا ومشاعرنا، وهذه فطرة لها آلياتها فى المخ/ العقل، وتُعتبر خطوة مهمة لتعميق معتقداتنا.

رابعًا: العبادات ـ بما تحويه من طقوس ـ **تُحَول العقيدة من مفاهيم عقلية نظرية إلى تجارب ذاتية ومشاعر وأحاسيس.**

خامسًا: عندما تؤدى ممارسة العبادة إلى إغلاق مناطق الشعور بالذات وبالمحيط، **يستشعر الإنسان قدرًا كبيرًا من التسامى، قد يصل إلى التواصل الحقيقى مع الوجود الغيبى المتوحد المطلق.**

لقد جَعَلَتنى تلك الحقائق فخورًا بأننى من المتدينين الحريصين على ممارسة طقوس دينهم.

التطور الروحى والتسامى

تتفق النفوس البشرية فى احتياجاتها الأساسية؛ **فالكل يرغب** فى الصفاء والمسامحة والأمان، والغرض والمعنى من الحياة، والانسجام مع المجتمع والنجاة من الهموم والأهوال. **ويسعى كل إنسان** فى أن يجعل حياته أكثر إمتاعًا وأقل شقاء، وأخيرًا نصبو جميعًا إلى الخلود.

ولأن الإله واحد، ولاتفاق هذه الغايات الإنسانية، وكذلك اتفاق ما يواجه الإنسان من تحديات، نجد أن **الديانات تتفق فى العديد من معتقداتها وشرائعها.**

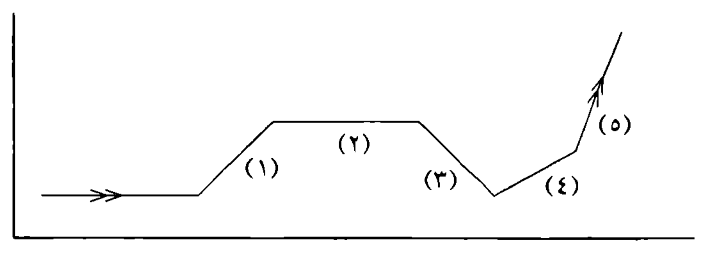
ولما كان **جوهر الروحانيات بالنسبة للمتدينين** هو أن يحيوا فى انسجام مع الحقيقة المطلقة، فإننا نجد **ملامح مشتركة فى التجارب الروحية** للعباد والزهاد من مختلف الديانات الباحثين عن الحقيقة، كما يمر هؤلاء بنفس مراحل التسامى التى نطلق عليها **المعراج الروحى.**

المعراج الروحى(١)

إنها رحلة ـ غير مكانية غير زمانية ـ يتسامى فيها المرء، فينزع نفسه من طينتها ليمر عبر مستويات من الصفاء، حتى لا يرى فى الوجود إلا الله ﷻ.

(١) عن كتابَىّ: Atheist Persona, John Pasquini, Chapter 5,2014, Universty press of America
الصوفية والعقل: والترستيس.
كذلك تصف الأدبيات الصوفية الإسلامية المعراج الروحى بهيئة تتفق كثيرًا مع المراحل الخمس التى نعرضها هنا منطلقين من دراسات علم النفس وعلوم المخ والأعصاب.

وهذه الرحلة جزء من نشاطات الإنسان الروحية/ العقلية الطبيعية، وإذا كنا كبشر لا نمر بها جميعًا، فذلك لا يلغى أنها **نشاط وظيفى سَوِّى** للإنسان، وقد ثبت ـ كما ذكرنا ـ أن عدة مراكز مخية تشارك فى هذه الرحلة كإحدى وظائفها السوية. لذلك ليس غريبًا أن **يمر العُبَّاد بنفس مراحل الرحلة فى جميع الديانات**، وهذه المراحل كما حصرها المهتمون هى:



(شكل ـ ١)
المعراج الروحى

١ – الانتباه Awakening

تبدأ الرحلة الروحية بما يمكن أن نطلق عليه «**الانتباه**»، ويعنى ذلك أن يتنبه الإنسان إلى **أن الإيمان بالإله يعطى لوجوده معنى ولحياته هدف.** ولا يحدث ذلك إلا بعد **أن يتمرد الإنسان على اعتباره مجرد كائن مادى معقد**، وُلد ليحيا ويصارع ويموت، فيصير إلى العدم.

فى الخطوة الأولى من الرحلة يستشعر المرتحل **أن الحياة ليست مجرد البقاء أو الوجود**، بل يصبح لها غاية ومعنى يتجاوزا حدود الزمان والمكان، وبدون ذلك تتحلل الحياة وتتفسخ.

وكلما بذل الإنسان الجهد فى طريق التسامى كلما وجد الراحة والطمأنينة، ويقوده هذا الشعور **إلى مزيد من التأمل** فى الوجود الإلهى، فيجتاحه **شوق عارم** إلى الإله.

وتتبدل نظرة الإنسان إلى الأشياء، فيرى الإله وراء كل ما يرصده من خير حوله. كما يقفز إدراك الجمال إلى المقدمة، **فيرى الإنسان الجمال فى المخلوقات كبصمات للإله.**

٢– التوازن الصحى The Healthy Balance

يصل الإنسان إلى حاله من **التوازن الصحى** بين **التسامى الروحى** وبين **التفكير والإحساس، فتتبدل نظرته**، فيرى المعاناة والمصاعب الحياتية كابتلاءات للتنقية والترقى، ويعيد تقييم سلوكه ومعتقداته وتوجهاته ورغباته وأولوياته، بذلك يتعرف الإنسان على خطاياه وانحرافاته

(الغضب ـ الحقد ـ الاكتئاب ـ تدمير النفس ـ معاداة المجتمع...)، ويَجِدُّ فى قهرها والتخلص منها، ساعيًّا **إلى التكامل الأخلاقى.**

تُعتبر هذه المرحلة من التسامى **انتقال من إيمان طفولى يتمركز حول الذات إلى إيمان يتمركز حول الآخر.** وبذلك تبزغ ذات إنسانية أفضل. **وتتضح هذه الذات من خلال سماتها الجديدة:** التواضع، الحب، الصمت، الشوق للحقيقة، حب الوجود كله...

٣- ليل حالك Dark Night

تكتنف رحلة التسامى الروحى ليالى ظلماء، **يجد فيها الإنسان نفسه فى مفترق طريق؛** إما أن يستمر فى التقدم أو أن ينكص على عقبيه.

وفى هذا الليل الحالك يستشعر الإنسان الضعف والفشل، ويستشعر أن حياته الروحية وعباداته جافة وخالية من دفء الشعور بالقرب من الإله.

٤ - الاستنارة Illumination

إذا اختار الإنسان (العابد السالك للطريق) التقدم ودَفعَ ثمنه، **حقق قدرًا كبيرًا من السمو الروحى والعقلى.** عندها يبدأ الليل فى الانجلاء، ويستشعر المرء بروحه **القرب من الإله** (كان من قبل يرى الموجودات كبصمات للإله) وترتقى عباداته من مجرد مراسم ومهام يؤديها إلى تدبر وتفكر.

من يصمد فى الليل الحالك ويجاهد لتجاوزه يجد نفسه فى **مرحلة الاستنارة،** حيث تزهر وتثمر بذور المعاناة. **وتصارع المشاعر السلبية للبقاء** (الكبر ـ حب الظهور ـ الغضب ـ اليأس ـ التعلق بالشهوات...) لكنها تنهزم وتتلاشى تدريجيًّا.

عندها تأخذ العبادات (خاصة الصلاة) **هيئة التدبر والقرب من الإله،** ويحل على النفس الأمان والسكينة والإخلاص والهدوء والصفاء، والحكمة والاعتدال وضبط النفس، ويستشعر المرء الحب الإلهى والشوق للتخلق بالخلق الإلهى. ويشعر الإنسان فى العبادات بأنه خارج نطاق الزمان والمكان.

٥ - تطهير الروح Purification of the soul

يدخل القليلون ممن قطعوا هذا الشوط من رحلة التسامى مرحلة تطهير الروح. فيطمس الوجود الإلهى كل حواس الإنسان عما حوله وأيضًا عن ذاته (فناء)، فلا يرى فى الوجود إلا الله **(وحدة شهود)**. وهذه المرحلة من الرحلة ينعدم فيها العقل والإدراك ويعجز الإنسان عن

وصفها، لذلك لا نجد عنها إلا أقل القليل فى الأدبيات الصوفية، كما تكون إشاراتهم عنها مبهمة مُلِغزة.

التجربة الصوفية وعلوم المخ والأعصاب

أجرى عالم المخ الكندى ماريو بياريجارد[1] Mario Beauregard مجموعة من الأبحاث على الراهبات، للتوصل إلى الدوائر العصبية للإلوهية فى المخ، ولمعرفة ما إذا كانت التجارب الصوفية تتطابق مع الخبرات الطبيعية السوية أم أنها توهمات. وقد توصل ماريو إلى ثلاث نتائج شديدة الأهمية:

١- تستعمل التجارب الصوفية (وبشكل سوى) العديد من المراكز المخية، وليس مركزًا واحدًا.

٢- تختلف التجربة الصوفية عن التجارب الانفعالية المعتادة وعن التوهمات، ويقول ماريو عن ذلك: «تتميز التجارب الصوفية باستخدامها المعقد للعديد من المراكز والدوائر المخية التى يتم استعمالها فى الإدراك والمعرفة والوعى والشعور بالذات».

٣- إن التجارب الصوفية **تجارب متميزة**، إنها رحلة ليس لها مثيل، ينتقل فيها الإنسان:

من	إلى	من	إلى
التوتر	الأمن	الصراع	الانسجام
اللاغاية	الغائية	التضاد	التناغم
الغضب	الحب	التفتت	التوحد
اليأس	الأمل	الحزن	الرضا والشوق إلى السماء
الظلمة	النور		

أكرر مرة أخرى، بالرغم من ندرة المشاركين فى الرحلة فإنها **نشاط روحى/ عقلى سَوِى للإنسان.**

---

(١) Mario Beauregard: عالم المخ والأعصاب بجامعة مونتريال.
نشر نتائج أبحاثه فى كتابه The Spiritual Brain, 2007

الوجود الغيبى وجود حقيقى

أجرى **الدكتور آندرو نيوبرج**[1] العديد من الدراسات على مجموعات من العُبَّاد من مختلف الديانات، استخدم فيها أحدث تقنيات التصوير الإشعاعى للمخ[2]. وقد أثبتت هذه الأبحاث أن **ما يستشعره الإنسان من طمأنينة، ومن مشاعر روحية، ومن وجود غيبى علوى يستوى على عرشه إله حق، إنما هو إدراك لوظائف مخية سوية، وليست مجرد هلاوس وتوهمات.** كذلك أثبتت تلك الدراسات **أن تقسيم ما ترصده عقولنا إلى «وجود مادى حقيقى» و«وجود غيبى غير مادى غير حقيقى» تقسيم غير علمى**، فالوجود الغيبى الذى يدركه بعضُنا ترصده أدمغتنا بآليات الإدراك فى المخ، شأنه فى ذلك شأن الوجود المادى تمامًا[3].

ويضيف أندرونيوبرج إلى ذلك قائلًا: «بعد سنوات من البحث فى مراكز المخ ودوائره العصبية، تأكد لنا أن المخ يحتوى على آليات عصبية سوية للتسامى. فالعقل يستحضر التجارب الروحية بنفس الوضوح والتحقق الذين يستشعر بهما تجاربه الواقعية السابقة، وهو الأمر الذى لا ينطبق على الأحلام والتوهمات» [4].

المخ/ العقل المتسامى

ومن أجل تحقيق هذا التسامى الروحى، تم إمداد المخ البشرى بآليات تعين العقل على ذلك. فمن أهم مراكز قشرة مخ الإنسان تلك المنطقة المعروفة بـ «**منطقة تربيط الإدراك OAA**»[5] المسئولة عن إدراكنا لذواتنا وللوجود من حولنا[6]. وعندما تقوم الطقوس الدينية بتسكين

(١) Andrew Newberg: أستاذ الأشعة التشخيصية ورئيس مركز الأبحاث الروحية بجامعة بنسلفانيا، وأحد مؤسسى علم **البيولوجيا العصبية للتدين** Neuro-Theology، والمتخصص فى دراسة الأسس العصبية البيولوجية للمشاعر الروحية.

(٢) FMRI - PET - SPECT Camera

(٣) للمزيد عن هذه المفاهيم راجع كتابنا «ثم صار المخ عقلًا»، الفصل العاشر ـ مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٢.

(٤) Andrew Newberg: Why God won't Go Away

(٥) Orientation Association Area

(٦) **تُعتبر منطقة تربيط الإدراك** OAA الواقعة فى الجزء الخلفى من الفص الجدارى للمخ أهم المناطق التى لها دور فى المشاعر الروحية. وتوجد هذه المنطقة فى كلٍّ من نصفى المخ، **وهما مختلفتان فى الوظيفة لكنهما متكاملتان؛ فالمنطقة اليسرى** مسئولة عن تحديد وإدراك صورة ثلاثية الأبعاد **لجسدنا المادى، واليمنى** مسئولة عن تحديد موضع جسمنا وعلاقته **بالوجود المحيط**. وبالتالى فالمنطقتان **تُحَوِّلان المعلومات الحسية الخام إلى صورة حية لأجسامنا (الذات) وللوجود من حولنا (المحيط). وإذا كان إدراكنا لـ«الذات» و«الوجود» إنجازًا مخيًّا، تقوم به منطقة تربيط الإدراك، فإن ذلك لا يعنى أن ليس للذات والوجود من حولها وجود حقيقى، بل يعنى ذلك أن هذه المنطقة تستقبل صورة الواقع وتجعلنا نستشعره، وأنها لا تُشَكِّل الذات والوجود من عدم.**

العقل الواعى وتَسْكين الحـواس، تقل المُدْخَلات المُنَشِّطة لمنطقة تربيط الإدراك OAA مما يؤدى إلى خمود نشاطهـا، ويُعـرف ذلك بـ «**الإغلاق Deafferentiation**»، **ويؤدى ذلك إلى فقدان التمييز بين «أنا» و «الوجود»**. ومع استمرار الطقوس تنشط آليات الإغلاق بشكل أكبر، حتى **يتلاشى الإحساس بالذات وبالوجود من حولنا**(١)، فيصل المرء إلى ما يسميه العُبَّاد بـ«**الفناء**»، وعادة ما يصحب ذلك **مكاشفات لعوالم غيبية، وشعور بالتوحد مع تلك العوالم**، وأحيانًا التوحد مع الإله المستوِى على عرشها، وهو ما يُعرف بـ«**وحدة الشهود/ الوجود**»(٢).

هل الملحد إنسان سَوِىّ؟! Fully Humen

أثبتت دراسـات علوم المخ والأعصاب أن العبادات (الصلاة ـ التأمل ـ الذكر ـ الصـوم ـ ...) تقدح زناد الروحانيات. ومن ثم فإن الإنسان يعيش فى مستويين؛ **المستوى المادى فى حياته المعتادة، والمستوى الروحى فى أثناء ممارسته للعبادات.**

ولا شك أن **الملحد** محروم من المستوى الروحى المصاحب للعبادات. ولا شك أنه محروم بداهة من المستويات الروحية الأعلى، كالاستنارة والتطهير ووحدة الشهود.

(١) يمكن أن نحصل على نفس التأثيرات من **أى إيقاع رتيب يصاحب التركيز على شىء نقوم به**، كسماع الموسيقى وقراءة الشعر، وهدهدة الطفل، والصلاة. كذلك فإن **الإيقاعات المنتظمة السريعة**؛ كالجرى لمسافات طويلة وممارسة الجنس والهتاف مع آلاف الأشخاص فى مباراة لكرة القدم مثلًا، يمكن أن تؤدى إلى تنشيط عملية الإغلاق والشعور بالتوحد مع الآخرين.

(٢) يختلف المتدينون فى قبول تلك المعانى الصوفية البليغة، والتى تدور حول أن العابد قد تمر عليه أحوال يتلاشى فيها شعوره بذاته (**الفناء**)، وقد يشعر كأن كل ما فى الوجود قد تلاشى، وأنه لم يعد ثَمَّ إلا الله ﷻ. عند ذلك يستشعر الصوفى «**كأن» الوجود هو الله، والله هو الوجود (وحدة شهود)**. وقد يشعر بأن الله ﷻ قد حل فى هذا الوجود، أى تلبس به (**حلول**)، أو أنه قد اتحد به (**اتحاد**).
أُصْدِقك القول، قارئى الكريم، كانت هذه المفاهيم (فى مرحلة من حياتى) تنشينى، فقبلتها، باعتبار أنها مشاهدات لقوم من الخواص المتميزين غاب عنهم إدراكُهم للوجود، **فى لحظات سُكر وفناء**، فلم يعودوا يشاهدون إلا الله. **أما حقيقة الأمر فنأخذها من العقيدة والشريعة** التى تؤكد على مفهوم الإثنينية: «رب» و«عبد» ـ «خالق» و«مخلوق».
ويوضح **الإمام عبد الحليم محمود** (شيخ الجامع الأزهر الأسبق، والقطب الصوفى الكبير) أن الخطأ الذى جعل للكثيرين مآخذ على الصوفية، هو أن **بعض الفلاسفة المتصوفين** قد اعتبروا أن ما يشاهده الصوفية (وهم فى حال سكرهم) من غياب لذواتهم وللوجود المادى، هو حقيقة الوجود (**أى لا موجود «بحق» إلا الله، فالله هو الوجود والوجود هو الله**)، **فقالوا «بوحدة الوجود»** التى يقول بها **الهندوس**، وصاغوا فى ذلك النظريات الفلسفية التى هى خروج عن العقيدة والشريعة الإسلامية، **فالوجود ليس ذات ﷻ، لكنه خلق من خلقه.**
ومن ثم ينبغى التفرقة بين مفهوم «وحدة الشهود» وهو مفهوم إسلامى سام، وبين «وحدة الوجود» الذى يتعارض مع العقيدة الإسلامية.

وهذا يطرح سؤالًا محوريًا: هل الملاحدة عاجزون Handicaped عن قدح زناد استعداداتهم الروحية؟ وما السبب وراء عجز الملحد عن بلوغ مستويات السمو الروحى؟ هل يرجع ذلك إلى:

- لم ينشأ مخه نشأة سوية Underdevoloped
- لم يستخدم مخه بشكل طبيعى Undersocialised – underused
- يعانى مخه خللًا محددًا تجاه الروحانيات

وهل هذا الاضطراب هو المسئول عن سلوك الملحد، بما يميزه من كبر وغرور وحب ظهور وغضب ويأس وإحباط وتدنى خلقى و... وذلك مقابل ما يتميز به المتدينون من تواضع ـ كرم ـ عطاء ـ حنان...؟[1]

هل يحيا الملحد حياة إنسانية متكاملة، أم حياة إنسانية غير متكاملة؟

القارئ الكريم

تقوم منظومة الإيمان فى المنظور الإسلامى على متتالية الألوهية والدين والأخلاق، وتبدأ بالإيمان بالله ﷻ الذى أنزل الدين، وجعل من أساسياته استكمال المنظومة الأخلاقية للإنسان. ولتأصيل هذه المتتالية فى النفس الإنسانية استخدم الإسلام منهجًا من **ثلاث آليات تعمل بشكل متسلسل: الفطرة ـ الرسالة ـ العقل**

أما **الفكر المادى،** فيرفض هذه الآليات الثلاث، ويرى أن الإنسان قد اكتسب **الحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى** بنفس الطريقة التى اكتسب بها سماته الأخرى، وهى **التطور لتحقيق المصلحة،** أى أن «**الحاجة أم الاختراع**».

تصف كارين أرمسترونج الإنسان فى كتابها «تاريخ الإله A History of God» بأنه كائن روحى، وتقترح للجنس البشرى اسمًا آخر، وهو **Homo-religious (الإنسان الدَّين) بالإضافة إلى Homo-sapiens (الإنسان العاقل).**

وقد أثبت العلم الحديث أن الإيمان بالإله وبالدين منظومة فطرية تشارك فيها آليات بيولوجية. فقد ثبت أن الإنسان يرث مجموعة من الجينات التى تجعله مستعدًّا لتقبل مفاهيم الألوهية والدين God Gene Hypothesis. كما تبنى علماء الطب النفسى وجود **مجموعات من الأخلاق الوراثية،**

(١) سنناقش ذلك فى الفصل السابع بعنوان «علم نفس مجتمع الإلحاد».

تمهد جيناتنا للتخلق بها، وتحدد ميول البشر الإنسانية والأخلاقية والروحية. وثبت أيضًا وجود نوع من الذكاء يهتم بالقضايا فوق الحسية وبالقضايا الأساسية للوجود الإنساني، أُطلق عليه اسم الذكاء الروحي (الوجودي).

لذلك تم تأسيس علم جديد باسم **Neuro - Biology**، يختص بدراسة الأسس البيولوجية للروحانيات. وقد أثبت هذا العلم أن **المشاعر الروحية ليست مجرد أوهام أو تخيلات، بل إن لها مراكزها العصبية في المخ**. بذلك **أصبح الاستنتاج الذي لا مفر منه، هو أن المخ البشري وكذلك جيناتنا قد تم إعدادهما للتعامل مع المنظومة الإلهية والدينية.**

وإذا كان الداراونة قد عجزوا عن تفسير نشأة التعاطف بين البشر، فلا شك أن تفسير نشأة خُلق «**الإيثار Altruism**» سيكون أصعب، **فهو يعمل ضد هدف التطور الرئيس، وهو المحافظة على النوع**. هذا، وقد أثبت «**معدل مارشال لإطلاق النار في الحروب**» **أن الأصل في الإنسان هو الالتزام الأخلاقي وليس الصراع الدارويني من أجل البقاء، حتى وهو في أشد لحظات المواجهة.**

ولما كان **جوهر الروحانيات بالنسبة للمتدينين** هو أن يحيوا في انسجام مع الحقيقة المطلقة، فإننا نجد **ملامح مشتركة في التجارب الروحية** للعباد والزهاد من مختلف الديانات الباحثين عن الحقيقة، كما يمر هؤلاء بنفس مراحل التسامي التي نطلق عليها **المعراج الروحي**.

وقد أثبتت الأبحاث أن **ما يستشعره الإنسان من طمأنينة، ومن مشاعر روحية، ومن وجود غيبي علوي يستوي على عرشه إله حق، إنما هو إدراك لوظائف مخية سوية، وليست مجرد هلاوس وتوهمات**. كذلك أثبتت تلك الدراسات أن **تقسيم ما ترصده عقولنا إلى «وجود مادي حقيقي» و«وجود غيبي غير مادي غير حقيقي» تقسيم غير علمي**، فالوجود الغيبي الذي يدركه بعضُنا ترصده أدمغتنا بآليات الإدراك في المخ، شأنه في ذلك شأن الوجود المادي تمامًا.

مما سبق يتضح **أن بنية المخ البشري مجهزة تمامًا للتعامل مع بنية الدين**، ويظهر ذلك في عدة مستويات، تبدأ بالقدرة على **الفهم العقلي للوحي السماوي**، ثم وجود **الشوق الفطري إلى مفاهيم الألوهية والدين**، والرغبة الفطرية في **تجسيد المفاهيم العقلية**، وتحويل **المفاهيم النظرية العقلية للعقيدة إلى تجارب شعورية ذاتية**، ثم **القدرة على إغلاق دوائر الشعور بالذات وبالوجود المادي مع استحضار مشاعر التسامي والتواصل مع العوالم الغيبية.**



الباب الثالث

علم نفس الإلحاد

عندمـا أصدر بول ڤيتز أستاذ علم النفس الأمريكى الشهير كتابه «**علم نفس الإلحاد** The Psychology of Atheism»[١]، أثار ذلك عددًا كبيرًا من علماء النفس، واعتبروا الكتاب غير مقبول بل ومزعج!. فمنذ تأسس علم النفس منذ حوالى قرن من الزمان وهو يركز على الاتجاه المعاكس، وهو «**علم نفس الإيمان**»، فآباء هذا العلم كانوا يعتبرون أن الإيمان بالإله هو الذى يحتاج إلى تفسير.

فعلى سبيل المثال، كان **الفيلسوف الأمريكى الكبير ويليام جيمس** [٢] William James شكاكًا، وإن كان متعاطفًا مع الديانات، وكانت كتاباته تحاول إرجاع الإيمان لعوامل نفسية[٣].

أما **فرويد** Freud، فقد كان معاديًا للديانات خاصة المسيحية، وكان دائمًا يبحث عن تفسيرات نفسية تبرر الإيمان بها[٤].

نتيجة لهذه النشأة لعلم النفس ونظرة مؤسسيه للدين، كان طبيعيًّا أن يدق رجال علم النفس المعاصرين جرس الإنذار فى مواجهة أية دراسة حول علم نفس الإلحاد.

وفى مواجهة ذلك، **يدعو عالم النفس الكبير بول ڤيتز** علماء النفس ليبدأوا فى تأمل خبراتهم الشخصية حول القضية، وأن يضعوها تحت ميكروسكوب البحث، ليراجعوا أنفسهم ويخرجوا من دراساتهم بنظريات علمية جديدة.

(١) اسم الكتاب كاملًا: Fath of the fatherless, The Psychology of Atheism, Ignatius press – San Francisco, 2009
وهذا الكتاب فى طبعته الثانية – ٢٠١٣، هو مرجعنا الرئيس فى هذا الباب.

(٢) William James : (١٨٤٢ – ١٩١٠) أستاذ الفلسفة فى هارفارد، والمدافع الشرس عن حرية الإرادة الإنسانية. وقد ظل كتابه «أنماط التجربة الدينية» (١٩٠٢) المرجع الرئيس للمعالجة النفسية للتدين طوال قرن لاحق.

(٣) ركز ويليام جيمس على ذلك فى كتابيه: أنماط التجربة الدينية Varieties of Religious Experience، وإرادة الإيمان The Will to Believe

(٤) عرضنا تفسيرات فرويد النفسية للإيمان فى الفصل الثانى.

ولا شك أن **المفاهيم النفسية** التى أُستخدمت فى النظر إلى الديانات **سلاح ذو حدين**، إذ يمكن استخدامها كذلك فى النظر إلى الإلحاد. وما أشبهها بالكهرباء! التى تُستخدم لتشغيل أجهزة التدفئة وأجهزة التبريد فى نفس الوقت.

وأحب قبل الخوض فى مناقشة الخطوط العريضة لعلم نفس الإلحاد، أن أطرح **القناعة النهائية** التى أسلمتنا إليها هذه الدراسة، حتى يستطيع القارئ متابعة فصول هذا الباب بفهم وبصيرة. وتتركز هذه القناعة فى مفهومين أساسيين:

أولًا: أن العوائق الرئيسة أمام الإيمان بالإله ليست **موضوعية (علمية أو منطقية)** فى معظم الأحيان، لكنها **ذاتية (نفسية - شخصية - اجتماعية)** فى المقام الأول، ومهما قدم المعارضون للإيمان من أسباب علمية ومنطقية لإلحادهم، فهى ليست **إلا قناعًا Persona** تختفى وراءه دوافعهم الذاتية الواعية وغير الواعية.

ويؤكد بول ڤيتز هذا المعنى بقوله: يقينى العلمى أن وراء كل **ملحد أصولى**(١) وما يقدمه من أسباب علمية أو منطقية لإلحاده العديد من العوامل النفسية والشخصية والاجتماعية.

ولا شك أن **الناس يتباينون** فى مدى فاعلية هذه العوامل الذاتية. فقد يكون بعضنا محظوظين إذ نشأوا فى أسرة ومجتمع جعلا إيمانهم بالإله أمرًا يسيرًا، وفى المقابل، هناك آخرون عانوا ظروفًا فقيرة روحيًّا ونفسيًّا، صَعَّبت عليهم طريق الإيمان. وهذه الملاحظة تُظهر أهمية المفهوم الثانى.

ثانيًا: بالرغم من العوامل الذاتية (النفسية ـ الشخصية ـ الاجتماعية) لقبول أو رفض الإيمان، فإن الإنسان يتمتع **«بالإرادة الحرة»** و**«القدرة على الاختيار»** فى أن يصير مؤمنًا أو ملحدًا، لذلك نجد أن بعض الأشخاص تبنوا توجهًا دينيًّا يخالف ظروف نشأتهم. وبالتالى فإن الإنسان يملك القدرة على أن يخطو خطوته نحو الإله فى أى وقت(٢).

(١) **الفكر الأصولى**: نمط من التوجهات المتشددة فى المدارس المختلفة (الدينية - السياسية - الاقتصادية...) ويتسم بسمات أساسية ثلاث:

١) إطلاق النسبى: اعتبار رأيه النسبى هو الرأى الوحيد الصحيح فى أية قضية.

٢) إرادة الهيمنة: السعى الحثيث لفرض آرائه، والهيمنة على الآخرين.

٣) الغاية تبرر الوسيلة: اتباع كل الوسائل (حتى القتل) من أجل تحقيق الهيمنة.

(٢) لأهمية الموضوع، سنفرد بابًا مستقلًا عن «حرية الإرادة» فى آخر الكتاب.

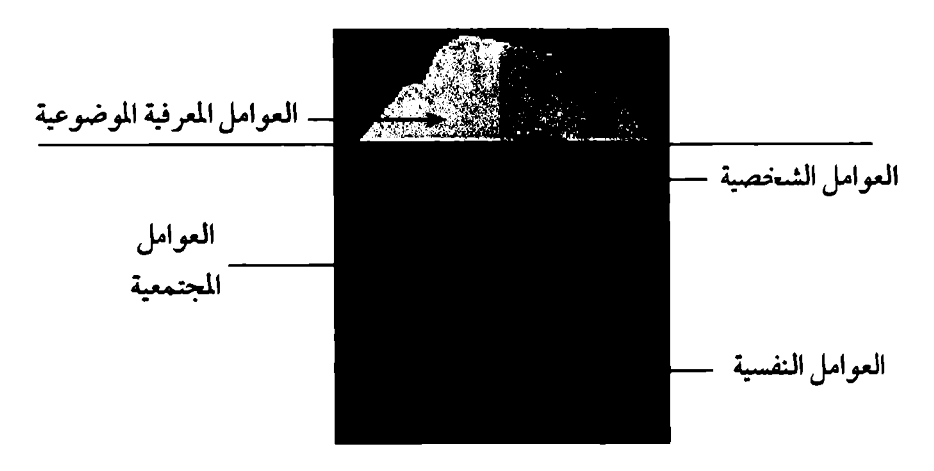
وإذا كنا نقرأ كثيرًا فى المراجع المتخصصة اصطلاح «**الدوافع النفسية والشخصية والاجتماعية**» لتبنى الإلحاد، فإن من الأمور الشائكة على المستويين العقلى والعلمى **التفرقة** بدقة بين هذه الدوافع الثلاثة عند دراسة أية ظاهرة.

فالمتخصصون يحدثوننا عن ظروف النشأة المبكرة للطفل كأهم العوامل النفسية لتبنى الإلحاد، ثم يحدثوننا عن الشبق الجنسى ـ مثلًا ـ كعامل شخصى، وقد تأتى بعد ذلك طبيعة المفاهيم السائدة فى المجتمع كأحد العوامل الاجتماعية (المجتمعية) لهذه الظاهرة. وفى الحقيقة فإن ظروف النشأة المبكرة ـ كعامل نفسى ـ تؤثر فى العوامل الشخصية وتحكمها العوامل الاجتماعية. وبالمثل تتأثر العوامل الاجتماعية بالعوامل النفسية والشخصية. إذًا، **فالعوامل النفسية والشخصية والاجتماعية متداخلة إلى حد بعيد.**

وإذا أردنا (لتيسير البحث والعرض) رسم خط فاصل بين **العوامل النفسية والعوامل الشخصية** للإلحاد (أو لأية ظاهرة) وجدنا أنه **خط مزدوج يجمع بين السن والوعى.**

فما يؤثر فى توجهاتنا فى السنوات الأولى من التنشئة يقع فى إطار **العوامل النفسية**، وما يؤثر بعد ذلك يمكن ضمه إلى **العوامل الشخصية**. ويترتب على هذا الخط السِّنى مدى وعينا بالعامل المؤثر، فما يقع فى السنوات الأولى من أعمارنا يختفى عادة من الوعى ويسقط فى هوة اللاوعى، بعد أن يترك أثره الذى لا ينمحى فى بنيتنا النفسية، وما يؤثر فينا بعد ذلك يمكن طرحه مع الشخص للتحليل والمناقشة، حيث يكون موجودًا فى دائرة وعيه، ومن ثم يعتبر من العوامل الشخصية.

ما أشبه العلاقة بين العوامل النفسية والشخصية **بدراستنا للغة العربية**. فقد تعلمنا حروف الهجاء والكلمات فى فصول الحضانة والمرحلة الابتدائية، وبالرغم من أننا أصبحنا قادرين على القراءة والكتابة فإننا قد نسينا المواقف التى كانت مدرساتنا تعلمنا فيها، أى أننا قد «**نسينا الحصة واستوعبنا الدرس**». ثم تتتابع بعد ذلك دروس علوم اللغة العربية المختلفة فى مراحل وحصص ما زلنا نذكرها، ولا شك أن هذه الدروس تعتمد تمامًا على ما استوعبناه فى المراحل المبكرة من حياتنا من حروف الهجاء والكلمات.

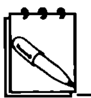


(شكل ـ ١)
العوامل المختلفة وراء الإلحاد
تشبه جبل الثلج فى المحيط

ومن ثم يمكننا النظر إلى أسباب الإلحاد **كمنظومة رباعية تشبه جبل الثلج المستقر فى المحيط** (شكل-١). فقاعدة الجبل العميقة هى «**العوامل النفسية**»، التى هى نتاج تنشئتنا المبكرة، وتترتب عليها «**العوامل الشخصية**» التى تقترب من سطح الماء، ثم تظهر «**العوامل المعرفية الموضوعية**» التى يعلن بها الجبل عن نفسه للعيان. وهذه العوامل الخاصة بالملحد تتأثر بالبيئة الاجتماعية التى يحيا فيها، وهى تقابل ماء المحيط الذى يتواجد فيه جبل الثلج، والذى يقابل «**العوامل المجتمعية**».

وإذا كانت معظم الدراسات عن الإلحاد (ومنها كتبى ومقالاتى) تركز على العوامل المعرفية الموضوعية التى يذكرها الملاحدة لإلحادهم والتى نناظرهم فيها، فإننا فى الفصول الثلاثة الأولى فى هذا الباب سنركز على العوامل النفسية ثم الشخصية وراء الإلحاد، ثم نناقش فى الفصل السابع العوامل الاجتماعية لهذه الظاهرة.

الفصل الرابع



الإلحاد مشكلة نفسية

- **ـ فرويد والإلحاد**
  - ـ عقدة أوديب
  - ـ الإلحاد وعقدة أوديب
  - ـ ڤولتير: مثال فرويد الأثير
- **ـ الدوافع النفسية للإلحاد**
  - أولًا: منظور التقصير الأبوى
  - ثانيًا: نظرية الارتباط (التعلق)
    - أ) اختلال/ غياب نموذج الأم
    - ب) الاختلال الأسرى
    - ج) الأب/ الأم البطل الملحد
    - د) اختلال نموذج رجل الدين
  - ثالثًا: إجهاض الإله
  - ـ لماذا ظهر الإلحاد الآن؟!
- **ـ الملاحدة الأصوليون واضطراب الشخصية**
  - ـ اضطرابات الشخصية والسلوك فى البالغين
  - ـ اضطراب الشخصية الإلحادى؟
  - ـ متلازمة الملحد
  - ـ آليات الدفاع النفسية
  - ـ الداء والدواء
- **ـ أهوال الإلحاد والحياة العدمية**
- **ـ حوار مع الأستاذ...**
- **ـ القارئ الكريم**

«إن ما يقدمه المعارضون للإيمان من أسباب علمية ومنطقية لإلحادهم، ليست إلا قناعًا **Persona** تختفى وراءه دوافعهم الذاتية الواعية وغير الواعية».

فرويد والإلحاد

رأينا فى الفصل الثالث كيف **نظر فرويد إلى الإيمان بالإله باعتباره «توهم»، يسعى لتحقيق رغبات طفولية لاواعية** تبحث عن الأمان. وهذا الطرح لفرويد يفتح الباب على مصراعيه لمناقشة الاستعداد النفسى والعصبى لتبنى **الإلحاد**، لقد أُستدرِج فرويد إلى ذلك دون أن يقصد وربما دون أن يدرى.

لذلك، لا يمكننا أن ننطلق فى دراسة النظريات الجديدة فى علم النفس، والتى تتناول الأسباب النفسية للإلحاد، دون أن نبين فى البداية كيف أن نفس الأسس التى انطلق منها فرويد لتفسير الإيمان تقودنا إلى ما يمكن أن نسميه «**نظرية فرويد لتفسير الإلحاد**»، والتى تدور ـ مثل الإيمان تمامًا ـ حول أن «**الإلحاد تحقيق للرغبات الأوديبية Atheism as Oedipal wish fulfillment**».

كذلك إذا كان فرويد قد طرح «**نظرية الإسقاط لتفسير الإيمان بالإله**»، فإنه مهد لطرح «**نظرية الإسقاط لتفسير الإلحاد**». ومن ثم لا مبرر لغضب الملاحدة عندما نتبنى القول بالأصول النفسية والعصبية للإلحاد، ففرويد هو أول من فعلها، لكن فى الاتجاه المعاكس.

عقدة أوديب The Oedipus Complex

كان القول بعقدة أوديب هو المساهمة الجوهرية الثانية لفرويد (بعد مفهوم اللاوعى Subconciousness) فى علم النفس، بغض النظر عن صوابها أو خطئها.

ويتبنى فرويد أن عقدة أوديب تتكون فى أثناء **مراحل تشكل شخصية الطفل الذكر** على النحو التالى:

تقريبًا فى سن الثالثة، تنشأ لدى الطفل رغبة جنسية شديدة تجاه أمه، **تصاحبها كراهية وخوف شديدان من أبيه**، ورغبة فى الحلول محله تطلعًا إلى السلطة. وترجع هذه المشاعر إلى أن **الأب** ـ بقوته ومنزلته ـ **يقف فى طريق تحقيق رغبة الطفل فى أمه**، ويزداد خوف الطفل من أبيه بسبب توهمه أن أباه قد يخصيه ليتخلص من منافسته.

إن **حل العقدة Resolution** ـ كما يرى فرويد ـ هو تسليم الطفل بمحدودية قدراته وعجزه عن التخلص من أبيه، عندها **يتقمص الطفل Identify** شخصية أبيه الباغى، **ويكبت Repress** عنصر الرعب الأصيل فى العقدة.

ويتم حل العقدة ـ بشكل جزئى ـ تقريبًا عند سن الخامسة.

وتبعًا لفرويد، فإن عقدة أوديب لا يمكن أن تُحَل تمامًا، لذلك تنشط فى فترات لاحقة، أهمها ـ دون شك ـ فترة البلوغ، ومن ثم يظل الكُره القاتل والرغبات الجنسية فى المحارم مخيمين على الأسرة، لكنهما يُكبتان. ويبين فرويد العواقب العصبية لهذا الكبت، قائلًا: «**إن عقدة أوديب هى جوهر العُصاب Neurosis** (اضطراب عصبى وظيفى)، فما يتبقى منها فى اللاوعى هو البذرة التى تُنبت العصاب عندما نكبر».

وإذا كانت عقدة أوديب لا تظهر بشكل مَرَضى فى معظم الأحيان، فإنها تعبر عن نفسها فى سلوكنا برفض السلطة الأعلى، وكذلك تجد لها متنفسًا فى الأحلام وسقطات اللسان وبعض سلوكياتنا العابرة غير المنطقية غير المبررة،...

الإلحاد وعقدة أوديب

تقـدم عقـدة أوديب، أرضية مثالية لرفض الإله كأحـد مظاهر **تحقيـق الرغبات** Wish Fulfillment. فإذا كانت هذه العقدة اللاشعورية تنشأ فى الصغار كتعبير عن كراهية الأب والرغبة فى أن يختفى، بل والرغبة فى قتله، فإن فرويد ينتقل منها إلى الإله، الذى يعتبره المعادل النفسى للأب، ومن هنا **تنشأ الرغبة القوية فى ألا يوجد إله**.

ومن ثم فالإلحاد – انطلاقًا من مفاهيم فرويد ـ **تَوَهُّم، سببه الرغبة الأوديبية لقتل الأب والحلول محله**. ويعتبر فرويد أن ما نراه فى أحلامنا من صورة الأب التى تتلاشى هى تعبير عن رغبتنا فى قتله، ويعادلها قول نيتشه «**الإله قد مات** God is dead». إنه مثال تطبيقى صارخ **لتحقيق الرغبات Wish Fulfillment**.

وكما تفسر عقدة أوديب الإلحاد والشك، فإنها تفسر **السلوك الجنسى للملاحدة والشكاكين،** فبعضهم يستبيح كل أشكال الجنس كتعويض عن الجنس المحرم مع الأم، ويكون ذلك عادة **مصحوبًا بنرجسية صارخة** تعوض شبقه للسلطة التى حرمه منها الأب.

كذلك يظهر باقى مكونات عقدة أوديب فى الإلحاد المعاصر من خلال **استبدال الإنسان بالإله**، فيصبح **الإله هو السوبرمان (نيتشه)**، ويصبح هو مصدر المفاهيم الأخلاقية وصاحب القوة المطلقة الذى لا يُعجزه شىء. لذلك تمجد **الفلسفات المعروفة بـ «الإنسانية** Humanistic Philosophy» الإنسان وقدراته، تمامًا مثلما يفعل المتدينون مع الإله.

لقد انحدرنا من الإله الواحد فى فجر البشرية إلى تعدد الآلهة، ثم ارتقينا إلى التوحيد المطلق مع الديانات الإبراهيمية، ثم ارتكسنا إلى **الإله فى كل واحد**. إن الملحد يحاول بذلك ـ من خلال شبقه لتحقيق رغباته ومن خلال نرجسيته - أن يحقق ما فشل فيه إبليس؛ أن يجلس على عرش الإله.

ڤولتير: مثال فرويد الأثير

يُعتبر فيلسوف الاستنارة الفرنسى ڤولتير مثالًا جيدًا ـ عند فرويد ـ لدوافع أوديب. فقد كان **شكاكًا رافضًا لكل ما يتعلق بالدين**؛ خاصة الإله كأب كما تقدمه المسيحية، كما كان ناقمًا على السلطة السياسية والاجتماعية للكنيسة الكاثوليكية. لذلك كان ڤولتير ملحدًا، وإن كان البعض يعتبره ربوبيًّا يقبل الإله غير المتشخص.

وإذا راجعنا سيرة ڤولتير نجد من أهم ملامحها **رفضه لأبيه**، إذ رفض اسمه الحقيقى وتسمى باسم **Voltaire**، الذى لا نعرف مصدره، وقد يكون مركبًا من حروف اسم عائلة أمه. وقد يرجع موقف ڤولتير هذا لسببين: رغبته فى الانتساب لطبقة اجتماعية أعلى، فكان يروج أنه ليس ابن أبيه بل ابن نبيل من النبلاء، والسبب الثانى، خلافه الدائم مع أبيه لضيق الأب من انشغال ابنه بعالم الخطابات (الكتابة) عن عالم المحاماة، لذلك لم يذكره ڤولتير بشىء طيب على الإطلاق.

وفى عام ١٧١٨ نشر ڤولتير مسرحيته **«أوديب»** التى كانت أول مسرحياته التى تُقَدَّم للجماهير. وتمزج المسرحية قصة أوديب الحقيقة برفض الديانات واعتبارها توهمات، كما كانت المسرحية أيضًا مليئة بالتمرد السياسى.

بذلك تجتمع فى سيرة ڤولتير عدة عناصر[١] تعكس عقدة أوديب: رفضه لأبيه، ورفضه للملك، ورفضه للإله. وبناء على تحليل فرويد، فإن موقف ڤولتير الإلحادى لم يكن نتاج عملية عقلية منطقية، لكنه تحقيق لرغبة أوديبية.

الدوافع النفسية للإلحاد

فى دراسة بعنوان «**النمط النفسى للملحد**[٢] **Atheist: A Psychological Profile**»، والتى أجراها عالم النفس بنيامين هَلاهمى[٣] Benjamin Hallahmi على أعضاء «**الاتحاد الأمريكى لتقدم الإلحاد**»[٤]، ظهر أن نصف من تبنوا الإلحاد قبل سن العشرين (وهم الأغلبية) فقدوا أحد والديهم قبل هذه السن، وأن عددًا كبيرًا منهم عانى كثيرًا فى طفولته وصباه. واستنتج من ذلك أن أية دراسة للملحدين ينبغى أن تنطلق من دراسة ظروف النشأة والتربية.

وبالفعل اهتم علماء النفس حديثًا **بالأسباب النفسية والشخصية والاجتماعية** وراء تبنى الإلحاد، وخرجت هذه الدراسات بقناعة علمية بأن هذه العوامل تقف فى مقدمة أسباب هذه الظاهرة، ومن ثم فإن ما يطرحه الملاحدة كأسباب معرفية موضوعية (علمية ومنطقية) لإلحادهم ما هى (فى معظم الأحيان) إلا قناع تختفى وراءه العوامل النفسية والشخصية والاجتماعية، وسنعرض فيما يلى **أهم العوامل النفسية وراء هذه الظاهرة:**

أولًا: منظور التقصير الأبوى[٥] Defective Father Hypothesis

بالرغم من أن عالِم النفس الأمريكى «بول ڤيتز» **Paul Vitz** هو الذى قدم هذا المفهوم بشكل متكامل فى نهاية تسعينيات القرن العشرين[٦]، فإن معظم العلوم الإنسانية (علم النفس-

(١) بالإضافة لما ذكرناه عن سيرته، نضيف كاستكمال للدراسة، أن أم ڤولتير ماتت وهو فى سن السابعة، وأن أخته كانت الوحيدة التى أحبها من العائلة، وأنه التحق بمدرسة الجوزويت الدينية، وفيها أسس علاقات طبيعية مع مدرسيه وزملائه.

(٢) نُشرت الدراسة فى The Cambridge Companion to Atheism. وشملت ٣٢٠ شخصًا من الذكور.

(٣) Benjamin Hallahmi: (١٩٤٣-) أستاذ علم النفس بجامعة حيفا بالأرض المحتلة.

(٤) American Association for the Advancement of Atheism (AAAA)

(٥) ربما كان هذا المنظور هو أهم العوامل النفسية وراء تبنى الإلحاد، لذلك سنفرد الفصل التالى لبسطه، بعد أن نشير إليه هنا بشكل مختصر.

(٦) فى كتابه Faith of the Fatherless – The Psychology of Atheism, 1st edition, Ignatius press – San Francisco, 1999

التحليل النفسى - الفلسفة - علم الاجتماع - الأنثروبولوجيا) قد أشارت من قبل إلى أهمية دور التقصير الأبوى فى تبنى الأبناء للإلحاد.

كما يخبرنا فرويد بـ«أن التحليل النفسى يؤكد كل يوم أن **الفتيان يفقدون إيمانهم الدينى بمجرد أن تنفصم عُرى السلطة الأبوية**»[1]. بل إن فرويد نفسه كان أحد نماذج هذا العامل النفسى.

ويتبنى هذا المفهوم أن الإنسان **يعتبر الإله النموذج المطلق للقوة والسلطة**، كما يرى فى أبيه التجسيد البشرى لهذا النموذج. ومن ثم فمن يفقدون الأب (وفاة - هجر للأسرة) وهؤلاء الذين لديهم آباء ضعفاء (جبناء) أو أساءوا معاملتهم (بدنيًّا - نفسيًّا - جنسيًّا) يعانون صعوبات فى تبنى الإيمان بالإله. ولا شك أن من يجد بديلًا مناسبًا عن الأب (أستاذ - جد - صديق أكبر...) يكون أحسن حالًا.

ويذكر بول ڤيتز[2] أن **سير أنتونى فلو** (الذى ظل زعيمًا للإلحاد فى الغرب طوال النصف الثانى من القرن العشرين، ثم أعلن إيمانه بالإله بعد أن تجاوز الثمانين من عمره) قد شوهد، بعد أن أفرط فى شرب الخمر، راقدًا على الأرض ويصرخ مرارًا «إنى أكره أبى... إنى أكره أبى».

ثانيًا: نظرية الارتباط (التعلق) Attachment Theory

فى أثناء عمل بول ڤيتز فى نظريته عن التقصير الأبوى فى ختام القرن العشرين، كان هناك فريق آخر يصيغ «نظرية/ فرضية الارتباط (التعلق)»، وخرج بنظرية نفسية مهمة، تتبنى أن **طبيعة الرابطة بين الطفل وأمه (الرمز الأمومى Mother Figure)** تمثل النموذج الذى ستكون عليه العلاقة بين هذا الشخص فى المستقبل وبين الآخرين، ويمتد هذا النموذج حتى يؤثر فى العلاقة بالإله.

وقد طرح هذه النظرية **عالم وطبيب النفس الإنجليزى جون بوالبى** John Bowalby[3]، ثم قامت بتعميمها وتقديم المزيد من الأدلة عليها تلميذته **عالمة النفس الأمريكية مارى أنسويرث** Mary Ainsworth[4] المهتمة بعلم نفس التربية.

(١) Sigmund freud, Leonardo da Vinci, New York: Random House, 1947

(٢) فى كتابه الذى أشرنا إليه.

(٣) John Bowalby: (١٩٠٧- ١٩٩٠).

(٤) Mary Ainsworth: (١٩١٣- ١٩٩٩).

وبعد دور الرابطة مع الأم تأتى فى الأهمية الرابطة بباقى أفراد الأسرة ورجال الدين.

وقد أظهرت الدراسات أن الارتباط بالأب (منظور التقصير الأبوى) يكون أكثر تأثيرًا فى العلاقة بالإله عن باقى أنواع الارتباط، حتى مع الأم[١].

أ) اختلال/ غياب نموذج الأم The Dysfunctional / Absent Mother Figure

ترمز الأم بالنسبة لطفلها إلى **نقاء الإله ورحمته وعنايته**. وقد أظهرت الدراسات النفسية لسِيَر كبار الملاحدة أن علاقة الكثيرين منهم بأمهاتهم كانت مضطربة فى أثناء فترة الطفولة. ويبلغ تأثير هذا الاضطراب أقصى مداه فى الفترة العمرية ١-٣ سنوات، وقد يمتد لسنوات قليلة بعد ذلك. لذلك، غالبًا لا يذكر الشخص طبيعة علاقته بأمه لكنها تترك فى نفسه آثارها العميقة التى لا تنمحى.

وقد ابتكرت د. مارى أنسويرث اختبارًا[٢] يقيس نوع الارتباط بين الطفل وأمه[٣]، وقد قسمت هذا الارتباط إلى أربعة أنواع:

١) الارتباط الآمن: Secure Attachment

تكون الرابطة بين الابن وأمه قوية مستقرة، ويسودها الدفء والحنان. وهذا الارتباط هو الأكثر شيوعًا (حوالى ٦٥٪).

٢) الارتباط غير الآمن (ارتباط التحاشى): Insecure Avoidant (dismissive) Attachment

حيث تكون علاقة الطفل بأمه غير وثيقة. وهؤلاء الأطفال يكونون انطوائيين، ولا يرغبون فى تكوين علاقات مع الآخرين خوفًا من انفصامها، كما يعتبرون التجارب العاطفية غير مهمة ويتهربون منها. ويمثل هؤلاء حوالى ٢٠٪ من الأشخاص.

٣) الارتباط المتناقض (المتأرجح) Insecure Ambivalent

تتأرجح العلاقة بين الطفل وأمه فى هذا النوع من الارتباط، وهؤلاء يكونون متوترين عند إقامة العلاقات لكن لا يتهربون منها، وأحيانًا يبحثون عنها بعصبية. ويحب هؤلاء أن يكونوا محور الاهتمام. ويمثل هؤلاء قرابة ١٥٪ من علاقات الأمهات بأبنائهن.

(١) A. Limke and P.B Mayfield, "Attachment to god: Differentiating the Contributions of Fathers and Mothers", Journal of Psychology and Theology 39 (2011): 122-29.

(٢) Social Psychological and personality science, university of Illinois – cf. Jessica Ravitz, CNN, 2013

(٣) وضعت مارى مين Mary Main (أستاذة علم النفس بجامعة كاليفورنيا) اختبارات للكبار لمعرفة نوع ارتباطهم بأمهاتهم فى أثناء طفولتهم.

٤) الارتباط المضطرب: Disorganised Attachment

حيث تفسد العلاقة وتضطرب بين الأم وطفلها. وهؤلاء يكونون انطوائيين مرتبكين، ولا يطمئنون (انفعاليًا وسلوكيًّا) فى علاقاتهم مع الآخرين. وتشكل نسبة هؤلاء حوالى ٥٪.

ولا شك أن المعدلات السابقة هى متوسطات تختلف من مجتمع لآخر.

وبناء على هذا التقسيم، نعرض تأثير الارتباط بالأم من خلال جانبين متقابلين: العلاقة بين الارتباط والتدين، والعلاقة بين الارتباط والإلحاد:

الارتباط والتدين[1]

يعتمد قبول الشخص للعلاقة مع الإله على نمط الارتباط بينه وبين أمه، والذى استقر فى نفسه فى طفولته، ويتبع ذلك إحدى فرضيتين:

١- الفرضية التوافقية Correspondence Hypothesis

تتبنى هذه الفرضية أن هناك **«توافقًا» بين نمط الارتباط مع الأم وبين الارتباط بالإله.**

فأصحاب الارتباط الآمن يُكَوِّنون عادة علاقات وثيقة مع الإله، بينما يجد أصحاب الارتباط غير الآمن صعوبات فى إقامة علاقة مع الإله.

٢- الفرضية التعويضية Compensation Hypothesis

فى هذه الفرضية، يكون الأشخاص من ذوى الارتباط غير الآمن **أكثر ميلًا للارتباط بالإله، كنوع من «التعويض»**، للحصول على الأمان الذى افتقدوه فى علاقاتهم بأمهاتهم فى صغرهم. وتفسر هذه الفرضية التحول المفاجئ فى موقف بعض الملاحدة إلى الإيمان.

أى هاتين الفرضيتين المتناقضتين صحيحة؟

يبدو أن **كلتيهما صحيحتان**. فقد أظهرت العديد من الدراسات على المتدينين أن منهم من يصل إلى الإيمان بالآلية التوافقية، ومنهم من يصل بالآلية التعويضية. ويعتمد ذلك على **درجة تدين الأسرة.**

---

(١) Kirkpatrick and shaver, "Attachment Theoretical Approach", Passim.
Through Fath of the Fatherless, 2013

فإذا كان **تدين الأسرة** مرتفعًا، أعطى ذلك فرصة لأصحاب الارتباط الآمن ليدعموا علاقتهم بالإله. أما إذا كان التدين منخفضًا، مال أصحاب الارتباط الآمن إلى عدم الإيمان (توافق)، ومال أصحاب الارتباط غير الآمن إلى الإيمان (تعويض).

وأظهرت الدراسات[١] أيضًا أن **أصحاب الارتباط الآمن** ينظرون للإله باعتباره محبًا قريبًا متسامحًا، ويستشعرون دائمًا أن الإله يرعاهم، كما يكون إيمانهم أعمق وأكثر استقرارًا وإشباعًا لاحتياجات الإنسان النفسية. لذلك يكون هؤلاء أقل عرضة للتوتر والاكتئاب والأمراض النفسية والجسدية، ويكونون أكثر رضاءً وانسجامًا مع الحياة[٢]. وكما يكون هؤلاء على علاقة طيبة ومستقرة بالأم وبالإله، فإنهم يكونون **أكثر تقبلًا للآخر** من الديانات المختلفة، ويكونون أكثر جرأة فى الإقبال على دراسة الديانات المقارنة، كما يكونون **أقل قلقًا** على تدينهم ومستقبلهم[٣].

وفى المقابل، يكون تدين أصحاب **الارتباط غير الآمن** غير مستقر وقابل للارتداد، كما يكون أقوى انفعاليًّا (إيجابًا وسلبًا) لذلك يخرج من هؤلاء المتطرفون والتكفيريون والإرهابيون[٤].

الارتباط والإلحاد

تسعى نظرية الارتباط (مثل نظرية التقصير الأبوى) لتَوَقّع أى الأشخاص يمكن أن يتبنى الإيمان وأيهم يمكن أن يتبنى الإلحاد. وفى إطار هذه النظرية نلاحظ ما يلى بخصوص الملاحدة:

١) **يكون الملاحدة عادة من ذوى الارتباط غير الآمن بأمهاتهم**، وإذا تحول بعض هؤلاء إلى الإيمان يكون تحولهم مفاجئًا وغير مستقر (ربما يرتدون إلى الإلحاد مرة أخرى)، كما يكون تدينهم متشددًا[٥].

٢) قد نستنتج - فى ضوء النظرية - أن **الملاحدة من ذوى الارتباط الآمن** المستقرين نفسيًّا

(١) P. Granqvist and B. Hagekull, "Attachment: Profiling socialized correspondence and Emotional Compensation", Journal for the scientific study of Religion 38, no. 2 (1999): 254 - 73

(٢) Kirk Patrick and Shaver, "Attachment Theoretical Approach", Passim

(٣) Becl, God as a secure Base

(٤) W.C. Rowatt and L.A. kirk Patrick, "Dimensions of Attachment to god and their relation to Affect, Religiosity and personality constructs", Journal for the scientific study of religion 41 (2002): 637-50

(٥) Paul Vitz: Faith of the Fatherless. Ignatius press, San Francisco, 2nd ed, 2013

ينبغى أن يظلوا ملاحدة، ولكن مع تأمل أعمق للنظرية نجد أن هؤلاء يكونون مرتبطين بوالديـن محبين (خاصـة الأب الذى يرمز للإله)، وهذا الحب إن لم يدفعهم للإيمان فإنه يدفعهم لتقبل الآخر من المتدينين[١].

٣) إذا نظرنـا إلى الديانات المختلفة، واعتبرنـا الإلحاد إحداها، نجد أن من تربوا كملاحدة يكونون أكثر استعدادًا لمفارقة دينهم من أصحاب الديانات الأخرى. ويُعَبَّر عن ذلك بـأن الإلحاد يتميز **بأدنى معدل للاحتفاظ بأتباعـه** (٣٠٪) **Lowest Retention Rate**، بينـما تبلـغ النسـبة فى الهنـدوس ٨٤٪، وفى المسـلمين ٧٦٪، والكاثوليـك ٦٨٪، وفى البوذيين ٤٩٪.

ولا شك أن هذه النسب **تختلف من مجتمع لآخر**، كما تتوقف على عدة عوامل، مثل طبيعة المجتمع والتماسك الاجتماعى والتماسك بين أفراد الديانة. ونضيف هنا نوع الارتباط فى الأسرة (ارتباط آمن أو غير آمن)، وفى العادة تكون الأسرة الملحدة غير مستقرة[٢].

وإذا كان اختلال نموذج الأم من الأسباب القوية وراء تبنى الإلحاد، فإن الإنسان إذا وجد **تعويضًا مناسبًا عن أمه** قل تأثير هذا السبب. ومثال ذلك ك. س. لويس **C.S.Lewis** الذى صار عالم اللاهوت الأشهر فى القرن العشرين. لقد فقد أمه بمرض السرطان فى طفولته، لكن عوضه الله عنها بأم بديلة (جان مور Jane Moore) ظل يدعوها أمى لمدة ثلاثين عامًا حتى ماتت. لذلك لم يكن صعبًا على لويس أن يترك إلحاده المبكر ويتبنى المسيحية الإنجيلية بحماس، حتى اعتبره البعض قديسًا.

والمحصلة، أنه مع اختلاف العوامل التى تضعف العلاقة بالوالدين (كليهما أو أحدهما)، فإن هؤلاء الصغار يكونون أكثر استعدادًا للإلحاد عندما يكبرون.

والآن، جاء دور **الاستشهاد بكبار الملاحدة** ممن تأثروا بمفهوم اختلال/ غياب نموذج الأم[٣]:

---

(١) Paul Vitz: Faith of the Fatherless. Ignatius press, San Francisco, 2nd ed, 2013

(٢) The Center for Applied Research in the Apostolate, in "The Reverts: Catholics who left and came Back" June 19,2012

(٣) سنذكر هنا أهم هؤلاء الملاحدة، لكن القوائم فى المراجع تحوى العشرات من المشهورين. وسنقدم تعريفًا بالمفكرين المشهورين من هؤلاء، مع صور لهم، فى الفصل القادم.

آرثر شوبنهور Arthur Schopenhauer:

هجرته أمه وأهملته، إذ كان حملًا غير مرغوب فيه، وكان دائمًا يلوم أمه أنها كانت السبب فى انتحار والده عندما كان فى السابعة عشرة من عمره.

جل جونستون [(١)] Jill Johnston

كانت أمها ـ التى هجرها أبوها ـ تحتقرها، واكتشفت أن والديها لم يتزوجا. وكانت أمها تصفها بـ «ابنة الزنا Bastard»، وكانت هى تصف أمها بـ «البغى الفاجرة Whore».

برتراند رسل Bertrand Russell

فقد أمه فى سن حرجة (سنتين) حتى كان لا يكاد يذكرها.

جان بول سارتر Jean Paul Sartre

تزوجت أم سارتر بعد وفاة أبيه من رجل لفظه، كذلك أهملته أمه وتركته لجديه اللذين أهملاه أيضًا.

ڤولتير Voltaire

كانت أمه كثيرة الغياب، وأهملته تمامًا، وكان ڤولتير يُعِدُّها عاهرة.

فريدريخ نيتشه Nietzsche

كان يعتبر أمه والنساء جميعًا كائنات متدنية، فالرجال للحرب والصراع والنساء للترفيه والإمتاع. وكان يعتبر النساء كالقطط أو الطيور، وفى أحسن الأحوال كالبقر.

وأيضًا السفاحون

لا يقف تأثير اختلال نموذج الأم ـ وما يسببه من كراهية للنساء والإله ـ عند الإلحاد فحسب، بل يمتد إلى مجالات أخرى، أهمها **القتل**.

فهناك السفاحون الذين يرتكبون جرائم القتل المتعددة دون أن تهتز مشاعرهم، وقد أصبح العشرات منهم واسعى الشهرة فى الغرب، وإن لم يكونوا معروفين لدينا.

(١) Jill Johnston: (١٩٢٩ – ٢٠١٠) من الداعيات لسيادة الأنثى والمثلية الجنسية الأنثوية.

من هؤلاء السفاحين مَن حبسته أمه فى البدروم منذ بلغ سن العاشرة، وكانت تعتبر أنه يمثل تهديدًا جنسيًّا لأخته[١].

ومنهم من كانت أمه داعرة، تحضر زبائنها للمنزل، وعندها تجبر ابنها أن يرتدى ملابس البنات[٢].

ومنهم من كانت أمه الداعرة تعامله بقسوة، وكانت تجبره على الاستحمام معها، وهددته بحجزه فى مستشفى الأمراض العقلية[٣].

ومنهم من وُلد فى بيت الأمهات غير المتزوجات، وقد استعاده جده ورباه كابنه، حتى ظن أنه أخ لأمه[٤].

ومنهم من كانت أمه بغيًّا وعرضته للتبنى، وكانت أمه الجديدة موسوسة للغاية، حتى سعت لحمايته بشكل غير طبيعى، فكانت توبخه وتعاقبه بشدة[٥].

ومن هؤلاء، **الأطباء! الذين يحترفون إجهاض الحوامل**، وكان الكثيرون منهم مشهورين بكراهيتهم الشديدة للنساء.

ولا شك أن معظم هؤلاء يجمعون بين الإجرام وبين الإلحاد فى صورته العملية.

ب) الاختلال الأسرى The Defective / Dysfunctional Family

لاحظ عالم النفس بنيامين هَلاهمى[٦] أن الكثير من الحالات الملحدة **يجتمع فيها التقصير الأبوى مع اختلال رمز الأم**، وجمع ملاحظاته حول هذا **الخلل الأسرى المزدوج** فى عدد من النقاط:

١) كلما تضاءل اهتمام الوالدين بالدين كلما ازداد تمرد أبنائهما عليه.

---

(١) هو: إد كمبر Ed Kemper
بدأ حياته الإجرامية فى سن الخامسة عشرة بقتل جديه.
(٢) هو: هنرى لوكاس Henry Lee Lucas: سفاح أمريكى أُتهم بمئات من جرائم القتل!!
ومثله كان جوزيف فشر Joseph Fischer: سفاح أمريكى ثبت عليه قتل العشرات.
(٣) هو: جارى ريدجواى Gary Ridgeway: سفاح أمريكى اعترف بقتل قرابة مائة ضحية.
(٤) هو: تيد باندى Ted Bundy: سفاح أمريكى قتل العشرات، واغتصب العديد من النساء والفتيات، وكان يمارس الجنس مع الجثث.
(٥) هو: كينيث بيانكى Kenneth Bianchi: سفاح أمريكى اشترك مع ابن عمه فى قتل ١٥ ضحية.
(٦) Benjamin Hallahmi, "Atheist : A psychological profile"

٢) إذا كان الوالـدان مختلفـين فى الدين، وترتب على ذلـك خلافات فى الأسرة، زاد احتمال ارتداد الأبناء عن الدين.

٣) من ارتَدّوا عن الدين بالرغم من نشأتهم فى أسر متدينة، عادة ما تكون علاقتهم بالأسرة غير طيبة.

ومن المهم أن نلاحظ أن علاقة الوالدين بالطفل تمارِس تأثيرها فى **مراحل سِنِّية مختلفة**. فتأثير الارتباط السيئ بالأم يكون فى الفترة من ١ - ٣ سنوات، وهى سن تعلق الطفل الشديد بأمه، أما المقتنعون بعقدة أوديب فيرون أنها تتشكل فى الفترة من ٣ - ٥ سنوات، ويظهر **تأثير التقصير الأبوى** بعد سن الخمس سنوات ويمتد حتى نهاية فترة المراهقة.

ويُظهِر استقراء سِيرَ كبار الملحدين العديد من الأمثلة لتأثير الاختلال الأسرى:

هـ.ج. ويلز H.G. Wells: لم يكن والداه على وفاق، وكانا ينامان فى غرفتين منفصلتين، وتبنيا الإلحاد بعد وفاة أخته.

ألبرت إليس[١] Albert Ellis: كانت أمه تهجره معظم الوقت. ونادرًا ما كانت أسرته تزوره عندما تم حجزه فى المستشفى فى سن الخامسة. وهجر والده العائلة وهو فى سن المراهقة.

برتراند رسل Bertrand Russell: ماتت أمه وهو فى الثانية، ومات أبوه وهو فى الرابعة، ثم جده الذى تولى تربيته وهو فى السادسة، وكان مصدر الحنان له بعد ذلك مربيات توفيت أحبهن إليه وهو فى سن الحادية عشرة.

ڤولتير Voltaire: ماتت أمه وهو فى سن السابعة، وهجره أبوه، وكان يعلن (وأحيانًا يباهى) بأنه الابن غير الشرعى للشاعر الشهير روشبرن **Rochebrune**.

جين دا لمبيرت [٢] Jean d'Alembert: كان ابنًا غير شرعى، وتُرِك بعد ولادته فى سلة أمام كنيسة القرية.

بارون دو هولباخ [٣] Baron d'Holbach: هجره والداه، ورباه عمه الذى لم يكن يشعر تجاهه بالحب.

---

(١) Albert Ellis. (١٩١٣ - ٢٠٠٧) عالم النفس الأمريكى المهتم بالعلاج السلوكى.

(٢) Jean d'Alembert: (١٧١٧ - ١٧٨٣) الرياضى والفيزيائى والفيلسوف الفرنسى.

(٣) Baron d'Holbach: (١٧٢٣ - ١٧٨٩) المفكر والفيلسوف الفرنسى، من رجال الاستنارة.

وكما ذكرنا فى اختلال نموذج الأم ، فإن للاختلال الأسرى تأثير أكبر على **الانحراف وتبنى الإجرام**، وعادة ما يكون ذلك مصحوبًا بالإلحاد المعلَن أو الإلحاد العملى.

فمن هؤلاء المجرمين والسفاحين من ماتت أمها وهى فى الرابعة، أما أباها فقد أرسلها لتعيش مع جديها وعرض شقيقتها الأكبر للتبنى، ولما تزوج استعاد ابنته لكنه وزوجته كانا يُسيئان معاملتها للغاية، وكانا يضربانها ويحرقانها بالسجائر[1].

ومن هؤلاء من فارقته أمه وأبوه، وعند خروجه من الخدمة العسكرية تركاه ليحيا فى مخزن للخردة[2].

ومنهم من كان يصحب أمه فى مغامراتها الجنسية، وكان أبوه ضعيفًا للغاية وغائبًا باستمرار[3].

ومنهم من ماتت أمها فى سن الثالثة، وكانت زوجة أبيها تكرهها. وكان أبوها صارمًا يقطع رقاب الحمام الذى تحبه من أجل أن يؤدبها[4].

والعديد من هؤلاء السفاحين هجره أبواه وكانوا يعيشون طفولة بائسة[5].

وقد أثبتت الدراسات[6] أن **الحضارات التى تُولى مؤسسة الأسرة دورًا مهما** وتحافظ عليها تنتج أفرادًا على علاقة طيبة بالإله، وإذا تفتت مؤسسة الأسرة هدد ذلك بشدة منظومتى الإيمان والأخلاق فى نفوس الأبناء.

ويشرح د. **عبد الوهاب المسيرى** (رحمه الله) دور مؤسسة الأسرة فى حياة الإنسان قائلًا:

«كانت معظم المجتمعات الإنسانية فى الماضى تسعى لـ«**إدخال الطمأنينة**» على قلب الإنسان، بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة، ولعل الأسرة هى أهم المؤسسات التى طورها الإنسان ليُدخل الطمأنينة على قلبه. أما المجتمعات الحديثة (خصوصًا المجتمع الأمريكى) فقد **جعلت الإنتاجية والحركية هدفها**، ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف

(١) هى: جودى بينوانوا Judi Buenoano ملحدة اشتهرت بقتلها للأزواج.

(٢) هو: جيروم هنرى برودوس Jerome Henry Brudos: سفاح أمريكى مارس الجنس مع جثث ضحاياه.

(٣) هو: إدوارد كول Edward Cole: سفاح أمريكى، تم إعدامه لقتل ١٦ ضحية.

(٤) هى: ليزى بوردن Lizzie Borden: قتلت أباها وزوجته فى جريمة هزت الولايات المتحدة.

(٥) منهم: دين كورل Dean Corll: خدم فى الجيش الأمريكى، وثبت عليه قتل ٢٨ صبيًا.

كينيث إيرسكن Kenneth Erskine: سفاح بريطانى، قتل ما بين ٧ - ١١ مُسنًا.

هوارد فش Howard Fish: سفاح أمريكى، قتل قرابة مائة ضحية، واغتصب عددًا من الصبية فى كل ولاية أمريكية.

(٦) "Country Differences in the effects of Devorce on well – being:"European Sociological review, 2011

النقيض من الفرد المنتج الحركى (فالقلق، يولد نزعة إمبريالية فى الإنسان تجعله يود غزو العالم والهيمنة عليه ليثبت لنفسه تفوقه فيحقق شيئًا من الاتزان والطمأنينة).

إن المجتمع الأمريكى هو **مجتمع القلق**، يتبنى الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله فى سوق العمالة فى مرحلة مبكرة للغاية. وفى سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. لقد جعل التآكل الكامل للأسرة الفرد يعيش منعزلًا ولا يشعر بأى اطمئنان، بل يُترَك وحيدًا أمام آلاف الاختيارات والإعلانات، حتى يلتهمه الإعلام الكفء التهامًا، لا يجد أية مرجعية تكون موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفى معنى على وجوده وتساعده على اتخاذ القرار. لقد «**فقد الإنسان المرفأ فى عالم بلا قلب**» كما يقول عالم الاجتماع الأمريكى كريستوفر لاش فى وصفه لتآكل نظام الأسرة».

جـ) الأب/ الأم البطل الملحد Atheist Father / Mother Hero

درسنا فى النمطين السابقين تأثير العلاقة السيئة بالأب والأم على أبنائهما. وفى هذا النمط المقابل نلتقى بتأثير **العلاقة شديدة الارتباط والتعلق** على تبنى الأبناء لإلحاد أحد الوالدين.

ولعل من أشهر الأمثلة على تبنى الأطفال المحبين والمعجبين بوالديهم لمنظوماتهما الإلحادية المفكر الإنجليزى الكبير جون ستيوارت مِل، والفرنسية سيمون دى بوڤوار. وترجع أهمية هذين المثلين إلى أنهما قد صَرَّحَا بأنهما قد تأثرا بشدة فى إلحادهما بوالديهما.

كان جيمس والد **جون ستيوارت مِل** [(١)] John Stuart Mill فيلسوفًا ورجلَ اقتصاد كبيرًا، وكان شديد الاهتمام بجون الذى كان شديد التعلق بوالده، الذى تولى تعليمه بنفسه فى المنزل، وكانت النتيجة أن تبنى جون إلحاد والده. وفى مرحلة متقدمة من حياته كان مل يشكو أن تعلقه بوالده الملحد لم يجعل الإيمان اختيارًا مطروحًا بالنسبة له [(٢)].

كذلك كانت **سيمون دى بوڤوار** [(٣)] Simon de Beauvoir شديدة التعلق بوالدها غير المؤمن، وكانت تقول: «إن شك أبى مهد الطريق لى، وأراحنى من الخوض بمفردى فى مغامرة خطيرة (تقصد الإلحاد). وفى مرحلة لاحقة وجدت سيمون فى جان بول سارتر بطلًا آخر،

(١) John Stuart Mill: التعريف به فى الفصل الخامس.

(٢) Paul Vitz, faith of the fatherless, 2013

(٣) Simon de Beauvoir: التعريف بها فى الفصل الخامس.

وكانت تصفه قائلة: «كانت ثقتى به كاملة، وكنت أجد فيه الأمان المطلق الذى كنت أجده فى والدى وفى الإله»[١].

كذلك يحدثنا علماء النفس عن «**فرضية ترتيب الميلاد**[٢] Birth Order Hypothesis، التى تتبنى أن ترتيب الابن فى أسرته له دور كبير فى تحديد ما يتبناه من أفكار. فالأخ الأكبر يكون أكثر انقيادًا للمفاهيم والعرف والتقاليد السائدة فى العائلة. وفى المقابل يكون الأخوة الأصغر عادة منفتحين على الأفكار الجذرية الجديدة التى تطمس المفاهيم السائدة، سواء كانت هذه الأفكار الجديدة أصيلة ومهمة أو كانت سخيفة وسطحية.

د) اختلال نموذج رجال الدين The Dysfunctional cleric – Master

يشير بول ڤيتز إلى أن رجال الدين يحتلون فى المسيحية (خصوصًا لدى المتدينين فى الغرب) **منزلة الآباء**، وبالتالى يمكن أن نشملهم فى نظرية الارتباط.

لذلك، فإن أى **انحراف يشين رجال** الدين (فضيحة، كسل وتراخٍ، ...) يُعتبر عاملًا قويًّا ممهدًا للإلحاد، حتى إن ما شاع من التحرشات الجنسية لرجال الكنيسة الكاثوليكية كان عاملًا مهمًّا فى الموجة الإلحادية فى نهاية العصور الوسطى.

ولا يقف تأثير هذا العامل عند مفهوم الارتباط النفسى فقط، بل إن رجال الدين **يرمزون للدين نفسه**، ومن ثم فإن انحرافاتهم تؤخذ على الدين، وتكون **عاملًا منطقيًّا** فى إلحاد أتباعهم.

وعامل ثالث وراء تبنى الإلحاد يُحسب على رجال الدين فى الغرب، هو حرصهم على كسب الناس وعدم إغضابهم حتى يضمنوا ترددهم على كنائسهم. وقد دفعهم ذلك إلى **عدم مراجعة العصاة فى معاصيهم**، فتكون النتيجة اجتراء هؤلاء على المعاصى، وأقصاها الإلحاد.

وقد بلغت كراهية البعض لرجال الدين، بسبب إساءاتهم الشديدة لهم، حدًّا دفع القس جين ميسليه[٣] Jean Meslier لأن يكتب سرًا قائلًا: أتمنى أن يُشنق كل حكام العالم وكل

---

(١) S.L. Archer, "Gender Differences in Identity Development" Journal of Adolescence 12 (1989):25

(٢) F. Solloway, Born to Rebel: Birth Order: Family Dynamics and creative Lives (New York: Pantheon, 1996).

وقد قدم سولواى فى كتابه شواهد قوية عديدة على هذا المفهوم.

(٣) Jean Meslier: (١٦٦٤- ١٧٢٩) قسيس فرنسى، وجدوا بعد موته كتابًا من تأليفه يدعو للإلحاد ويسب كل الديانات.

المفاهيم الكنسية بأمعاء القسيسين». لقد كانت كراهيته للكنيسة ورجالها حاجزًا منيعًا ضد الإيمان الحقيقى، حتى أصبح بحق أبًا **روحيًا لكل الملاحدة الجدد!!**

وبالرغم من إيمان **عظيم الهند غاندى** Gandhi بالإله، فقد رفض اعتناق المسيحية لأنه لم يقابل إنسانًا واحدًا على أخلاق المسيح. وفى المقابل فإن الملحد المتحمس مالكولم موجيردج[1] Malcolm Mogeridge تبنى المسيحية؛ لأنه رأى فى الأم تريزا Teresa مثالًا مجسدًا للمسيح.

هكذا نرى كيف يصبح سلوك رجال الدين عامل جذب أو نفور من الدين، لما يمثله هؤلاء بالنسبة لمريديهم.

ويطرح عالم النفس الأمريكى بول ڤيتز **تجربة شخصية** مؤلمة لصديق له مع أحد رجال الدين. لقد أخطأ صديقه فى أحد طقوس الكنيسة، فكان أن عنفه القس واحتقره وأذله، مما ترك فى نفسه جُرحًا لم يندمل، دفع صديقه ثمنه إلحادًا بالإله.

سقوط الإمبراطورية الرومانية

وينقلنا بول ڤيتز إلى تأمل أفكار المؤرخ البريطانى الكبير **إدوارد جيبون**[2] Edward Gibbon صاحب السفر الشهير «**سقوط الإمبراطورية الرومانية**»، فنجد أنه يُرجع سقوط الإمبراطورية إلى سلوك الكنيسة. والسؤال هنا؛ هل كان هذا التفسير موضوعيًا خالصًا، أم كانت وراءه خلفية جيبون النفسية؟

لقد تناولت السِّيَر التى كُتبت عن جيبون **تحليلًا نفسيًا لشخصيته**، جاء فى إحداها[3] أن المؤرخ الكبير كان فى صغره صاحب توجه دينى، وما أن وصل إلى أكسفورد حتى تبنى المذهب الكاثوليكى الرومانى. أصاب ذلك والده بالإحباط، حيث كان العرف والتقاليد فى المجتمع الإنجليزى البروتستانتى يزدريان هذا المذهب. وفى محاولة لإنقاذ جيبون من الازدراء المجتمعى أرسله والده ليحيا مع أسرة وزير بروتستانتى تعيش فى سويسرا لعدة سنوات. وبعد عام من وصوله إلى سويسرا، وتحت تأثير ضغوط والده ومضيفه الوزير عاد جيبون إلى المذهب البروتستانتى، وقد ترك هذا التحول فى نفسه صراعًا عميقًا لم يهدأ. بسبب ذلك الموقف تشكك

(١) Malcolm Mogeridge : (١٩٠٣- ١٩٩٠) الصحفى والإعلامى والمفكر البريطانى.

(٢) Edward Gibbon: (١٧٣٧-١٧٩٤) المؤرخ البريطانى الشهير، صاحب سفر «سقوط الإمبراطورية الرومانية» الذى صدر فى ٦ أجزاء (١٧٧٦- ١٧٨٨).

(٣) J.W. Swain, Edward Gibbon the Historian (London: Macmillan, 1996).

جيبون فى قيم ومفاهيم مفكرى القرن الثامن عشر (كوالده وصديقه)، كما **أصبح ناقدًا للكنيسة وللمسيحية.**

هل كان هجوم جيبون على الكنيسة وتحميلها مسئولية سقوط الإمبراطورية الرومانية نوعًا من الثأر لما أصابه من معاناة نفسية؟

أم كان على العكس، كان خوفًا من أن يعود إلى موقفه المؤيد للكنيسة بعد ذهابه لأكسفورد، وقد صار الآن ناقدًا لها؟

أم كان رد فعل ضد حماس عائلته (وحماسه السابق) للدين؟

التحرش الجنسى بريتشارد دوكنز

إذا انتقلنا إلى **الملاحدة الجدد،** قابلنا تصريحًا لكبيرهم **ريتشارد دوكنز،** بأنه فى سن الحادية عشرة تعرض لتحرش جنسى من أحد مدرسيه فى مدرسته الدينية، وقد صرح دوكنز بنفسه بذلك (ووصف التفاصيل) فى حوار مع مجلة التايمز فى ٧ سبتمبر ٢٠١٣. والعجيب أن دوكنز رفض أن يدين هذا التصرف (كما تقول المجلة)، فهل كان لهذا الموقف الذى لم ينمح من ذاكرته بعد عشرات السنين تأثير فى تبنيه الإلحاد[١]؟

ومهما اختلفت التفسيرات فإن الرسالة واحدة؛ وهى دور «الارتباط» بالمؤسسة الدينية فى تبنى الإلحاد، إذا أصابت هذه المؤسسة ورجالها الشخصَ بجروح نفسية.

ثالثًا: إجهاض الإله[٢] Aborting God

بعد استعراض دور علاقة الابن بأبيه وأمه فى تبنى الإلحاد، والتى يتشكل تأثيرها فى الصغر، نطرح **مثالًا للعوامل النفسية التى يتشكل تأثيرها فى مرحلة لاحقة من العمر.**

يسبب الإجهاض لكثير من النساء على المستوى النفسى ما يُعرف **بصدمة ما بعد الإجهاض** Post – Abortive Trauma. ولا يقف تأثير هذه الصدمة على المرأة وحدها، بل قد يمتد إلى زوجها وأبنائها ووالديها، حتى يمكن القول إن الإجهاض **قد يدمر العائلة نفسيًّا،** وقد يمتد هذا التأثير **ليدمر العلاقة بالإله.**

---

(١) http://www.thetimes.co.uk/tto/magazine/article3858646.ece

(٢) C.F. Theresa Burke, Forbidden Grief (Springfield: acorn Books, 2002)
وقد اخترنا هذا المفهوم وعرضناه بعد نظرية الارتباط لأن تأثيره يشمل أفراد الأسرة.

وترجع هذه الآثار إلى شعور أفراد الأسرة **بالعجز عن تدعيم العلاقة بينهم بمزيد من الذرية**، ويعقب ذلك **اهتزاز النظرة للإله** (على المستوى الواعى أو غير الواعى)، خاصة عند أتباع الديانات التى تعتبر أن البشر (الذين أُجهض أحدهم) قد خُلِقوا على صورة الإله! لذلك إذا لم يتم علاج أفراد الأسرة الحساسين لهذا التأثير علاجًا نفسيًا فإن **إجهاض الحمل يتبعه إجهاض الإله.**

المرأة/ الأم

تشعر المرأة المجهَضَة بالذنب وبالعزلة والحزن الشديد، وبالغضب والاكتئاب والخزى، وكثيرًا ما تنتابها وساوس قهرية مختلفة. وقد تدمن المرأة سلوكيات متطرفة مثل الإفراط الشديد (أو الامتناع) فى الطعام، وإدمان الكحوليات والمخدرات. وربما يصل الأمر إلى ضعف القدرة على الارتباط النفسى بأطفال المستقبل وإلى فساد علاقاتهن بأزواجهن.

وفى جانب آخر، تشعر المرأة بالغربة عن المجتمع المتدين، ثم عن الإله، ويصل الأمر إلى غضب من الإله لا تستطيع الأم التسامح فيه. وكمهرب من هذه المعاناة قد تنكر المرأة الوجود الإلهى (الإلحاد).

الرجل/ الأب

كثيرًا ما يُصاب آباء الحمل المُجهَض بالشعور بالذنب والندم والحزن والعجز، وكثيرًا ما يعانون كوابيس تدور حول مَن فقدوهم.

وقد يُنَفِّث الرجل عن الشعور بالعجز وفقدان الثقة بالنفس بسلوك عدوانى تجاه النساء، وقد يهجرون زوجاتهم كآلية للهروب. وكثيرًا ما يعاقبون أنفسهم بالإساءة إليها بإدمان المخدرات والخمور، وبإيلام الجسد بثقب الجلد دون مبرر أو بحجة عمل وشم مثلًا.

وكمهرب من كل هذه المعاناة قد يتبنى الرجل الإلحاد.

الأبناء

بالإضافة إلى ما يعانيه أُخوة الحمل المُجهَض من سوء معاملة الأم بسبب ماتعانيه من مشكلات نفسية ذكرناها آنفًا، فإنهم قد يعانون **الإحباط واليأس والخوف من العالم.**

ويمتزج ذلك الشعور بالغضب وبالذنب، نتيجة لتساؤل لاواعٍ محوره: لماذا أنا عشت بينما أخى قد مات؟ وربما يعتبرون أنهم يعيشون على حساب أخيهم المُجهض باعتبار أن والديهم عاجزون عن رعاية طفل آخر معه (إما أنا أو هو). وأحيانًا يصحب ذلك خوف باطنى كاسح من الأم (ربما أكون أنا من تضحى به المرة القادمة). ولا شك أن ذلك يؤدى إلى الغضب من الإله. وتُعرف هذه الأعراض بـ«**متلازمة البقاء Survivor Syndrome**».

وقد يكون الإلحاد هو المخرج من هذه المعاناة.

الجد والجدة

كثيرًا ما يعانى الجِدَّين أعراضَ ما بعد الإجهاض. وأهم ما يشكون منه هو الشعور بالاكتئاب والغضب والمرارة والامتعاض تجاه ما حدث. وكثيرًا ما يعجزان عن مسامحة ابنتهما أو زوجة ابنهما، وينعكس ذلك على معاملتهما لهما.

مما سبق، نرى أن **الإجهاض يمثل مأساة أسرية**، تصبح مأساة اجتماعية إذا سمحنا بالمزيد من «**الإجهاض حسب الطلب**». فإذا تم انفصام عُرى العلاقة بين أفراد الأسرة يتم تفكك المجتمع، وبذلك يكون الإلحاد هو الابن الشرعى لهذا الدمار.

لذلك نقول إن **الإجهاض يُجهض الإله**.

لماذا ظهر الإلحاد الآن؟!

عند تأمل دور الدوافع النفسية وراء الإلحاد، يقفز فى الخاطر سؤال بديهى مهم:

ولماذا ظهر الإلحاد الآن؟!

إن هذه الدوافع النفسية (التقصير الأبوى ـ الارتباط ـ الإجهاض) والعوامل الشخصية وأيضًا العوامل البيولوجية (كالتوحد Autism)[1] موجودة منذ نشأة الإنسان (فى الأغلب)، **فلماذا لم يظهر الإلحاد إلا فى القرن الثامن عشر فى أوروبا؟!**

للإجابة عن هذا التساؤل نقول؛ إن هذه الدوافع النفسية ليست التفسير الكامل للإلحاد، وهى غير كافية لإنكار الوجود الإلهى، بل هى **عوامل تمهد وتعد النفس البشرية لهذا الإنكار**؛ وعلى هذه الخلفية الذاتية (الدوافع النفسية والشخصية) تمارس الدوافع الاجتماعية والمعرفية الموضوعية دورها.

(١) سندرس دور العوامل الشخصية ودور التوحد فى منظومة الإلحاد فى الفصل السادس.

وقد وجدت هذه الدوافع الذاتية لها عبر التاريخ متنفَّسًا آخر غير الإلحاد. فمثلًا تم التعبير عن آثار التقصير الأبـوى على النفس مـن خـلال العدوان أو السخرية أو نقـد وهجـاء الآباء وأصحاب السلطة؛ كالملك والأمراء وكبار رجال الكنيسة، وكذلك من خلال التمرد والمشاركة فى الثورات.

وفى الولايات المتحدة، كما عَبَّر الشعور بالتقصير الأبوى عن نفسه حديثًا بالإلحاد، فقد عبر عن نفسه مؤخرًا برد فعل معاكس، وهو «**التوق للأبوة Father Hunger**»[1]، الذى ظهر بطرق مختلفة، مثل العودة للديانات التقليدية، أو الانضمام لطوائف ذات صبغة دينية، أو التعصب للرموز السياسية وكبار رجال المجتمع.

القارئ الكريم

عرضنا فى الجزء السابق من الفصل **أهم العوامل النفسية وأهم النظريات العلمية** التى وضعها علماء النفس وأطباؤها لتفسير كيف تؤثر العوامـل التربوية المبكرة على تبنى الإلحاد.

وفى الجزء التالى من الفصل، نتناول **أهم الاضطرابات النفسية المصاحبة للإلحاد**، وذلك حتى تكتمل نظرتنا للإلحاد كمشكلة نفسية.

الملاحدة الأصوليون واضطراب الشخصية

يحدثنا أستاذا الطب النفسانى الكبيرين د. أحمد عكاشة ود. طارق عكاشة فى سِفرهما الكبير «**الطب النفسى المعاصر**» عن تعريف «الشخصية» فيقولا:

الشخصية كلمة نرددها ببساطة كثيرًا، دون أن نعرف ـ فى غالب الأحيان ـ معناها المحدد. وكلمة الشخصية كلمة كبيرة... تحمل **عدة معان**...

ولما كانت شخصية الفرد تنعكس على معاملاته مع الناس؛ يمكننا **تعريف** الشخصية بأنها **الصورة المنظِمة المتكاملة لسلوك الفرد**، التى تميزه عن غيره؛ أى إنها عاداته وأفكاره واتجاهاته واهتماماته وأسلوبه فى الحياة.

وعندما نحاول **وصف أية شخصية**... فإننا نفسرها على أساس السمات التى تتجلى على صاحبها، مثل: البشاشة، والتجهم، والسخاء، والصدق، وحب السيطرة، والرياء. ولكننا لا

(١) D. Blankenhorn, fatherless America (New York: Basic Books) 1995

نستطيع أن نلصق بشخص ما سمة من هذه السمات، إلا إذا كانت هذه السمة تميز سلوكه **معظم الوقت.**

وليست الشخصية مجرد مجموعة من هذه السمات.. بل إنها فى الحقيقة «**حصيلة تفاعل**» **هذه السمات** بعضها مع بعض، فهناك، على سبيل المثال، الشخص الذكى، النشيط، طيب القلب، ولكنه مستسلم.. إن مثل هذا الشخص يصلح لأن يكون تابعًا مخلصًا.

وكذلك نجد أن اختلاف سمة واحدة من السمات التى تميز شخصية ما قد يؤدى إلى تغيير فى الصورة النهائية للشخصية.

ويضيف العالمان الكبيران: يمكننا القول إن هناك **ثلاثة أبعاد للشخصية**، هى:

أ) **الصورة الذاتية**: وهى ما **يعتقده الفرد عن نفسه**، خاصة عندما يخلو لذاته وينقب فى دخائله.

ب) **الصورة الاجتماعية**: وهى تصف **إدراك المجتمع والناس** لهذه الشخصية، وكيف ينظرون إليه ويُقَيِّمون صفاته، ويحتمل أن تكون مختلفة تمامًا عن الصورة الذاتية.

ج) **الصورة المثالية**: وهى ما **يصبوا الفرد للتخلق به** من أخلاق وصفات، وما يسعى لتحقيقه من تطلعات وآمال، وهى الصورة التى نكافح للوصول إليها.

والتوفيق بين هذه الصور الثلاث هو أحد دلائل التمتع بالصحة النفسية، وفى مقابل ذلك هناك العديد من **أنماط اضطراب الشخصية.**

اضطرابات الشخصية والسلوك فى البالغين

Disorders of Adult personality and Behaviour

تُعتبر اضطرابات الشخصية من أكثر الأمراض النفسية شيوعًا فى البالغين، وتتضمن خليطًا من أنماط انحراف الشخصية والسلوك عما نعتبره طبيعيًّا، بشرط أن تتسم بالاستمرارية، حتى تصبح سمة مميِّزة لحياة الفرد وأسلوب تعامله مع نفسه ومع الآخرين.

وإذا كان بناء الشخصية يتوقف على عدة **عوامل وراثية وتربوية واجتماعية**، فإن خللًا فى هذه العوامل يمكن أن يؤدى إلى أحد اضطرابات الشخصية والسلوك، التى تعبر عن نفسها فى مراحل عمرية مختلفة.

وقد تم تصنيف هذه الاضطرابات إلى **عدة مجموعات**، تبعًا للشكل الغالب من مظاهرها السلوكية، وحدود هذه المجموعات ليست واضحة تمامًا بحيث يستبعد أحدها الآخر، بل أحيانًا ما يتطابق مع الآخر فى بعض سماته، لذلك فتقسيم هذه المجموعات ما زال بين **مد وجزر** فى الأوساط الطب نفسانية[١].

اضطراب الشخصية الإلحادى؟ Atheism Personality Disorder

حتى الآن، لا يصنف الطب النفسانى الأفكار والسلوك الإلحادى كأحد أنواع اضطرابات الشخصية[٢].

ولكن العديد من أطباء النفس يميلون لتصنيف **التوجه الإلحادى الأصولى الشرس** كأحد أنواع اضطرابات الشخصية، ويلحقونه بمجموعة من اضطرابات الشخصية **تُعرف** بـ«**تغيرات دائمة فى الشخصية، لا ترجع إلى أى أذى جسيم أو مرض بالمخ**» ـ Enduring Personality Changes, Not Attributable to Gross Brain Damage or Disease. **وينطلق هؤلاء الأطباء فى** موقفهم هذا من تطابق السمات التشخيصية لهذه المجموعة مع **سمات العديد من الشخصيات** الملحدة الأصولية. وهذه **السمات التشخيصية** (كما يبينها سفر «الطب النفسى المعاصر» لعالمى الطب النفسانى الكبيرين) تتلخص فى أن يتسم الشخص بـ:

١) موقف عدائى أو شكى نحو العالم.

٢) انسحاب اجتماعى.

٣) إحساس بالخواء أو اليأس.

٤) إحساس مزمن بأنه على شفا شىء ما، كما لو كان الشخص واقعًا تحت تهديد دائم.

٥) الشعور بالاغتراب.

ولكى يكتمل التشخيص، يجب أن يستمر هذا التغير فى الشخصية **لمدة عامين على الأقل،** **وعادة ما يحدث ذلك عقب توتر نفسى شديد.**

(١) من هذه الاضطرابات: اضطراب الشخصية الشبفصامية ـ اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع (السيكوباثية) ـ اضطراب الشخصية البارانويدية ـ اضطراب الشخصية الهيستيرية ـ اضطراب الشخصية القهرية ـ . . .

(٢) لذلك لا نجد الإلحاد كأحد أنواع اضطرابات الشخصية فى تصنيفات منظمة الصحة العالمية WHO، والهيئة الأمريكية للطب النفسى APA.

أما السمات النفسية والشخصية للملاحدة العتاة، التى ظهرت بوضوح فى سيرهم الذاتية وما كُتب عنهم، والتى جمعها القائلون بالعلاقة بين الإلحاد الشرس وبين اضطرابات الشخصية، فيمكن تلخيصها فيما يلى:

١) الشعور بالتوتر والغضب والمرارة.

٢) سهولة الإحباط.

٣) تبدل سريع فى الانفعالات، مع نوبات من الاكتئاب - التجهم - التشاؤم.

٤) الشعور بالخواء والفراغ وانعدام المعنى.

٥) الرفض وحب الجدال والمنافسة والعند والعجز عن التكيف.

٦) الضيق من العزلة والهدوء.

٧) عدم الشعور بالأمن (ينعكس فى الحساسية المفرطة للنقد والتقييمات السلبية).

٨) عدم الثقة بالنفس، وإخفاء ذلك بسلوكيات التكبر والعجرفة وإظهار العظمة.

٩) التفكير المضطرب، واستخدام عبارات رنانة فى غير موضعها.

١٠) الانشغال الفائق بالجنس والسعى لتحقيق اللذة.

١١) ازدراء المرجعيات والشخصيات التى يحترمها المجتمع.

١٢) الرغبة فى الهيمنة وحب السيادة.

١٣) الإفراط فى الكحوليات والعقاقير المخدرة وكل ما يحقق الهروب ويُغَيِّب عن الواقع.

١٤) عدم القدرة على التعامل مع فكرة الموت وتحاشى التفكير فيه.

١٥) احتقار من يتجنبه أو يثيره.

١٦) إثارة غضب وتوتر الآخرين.

١٧) تميز علاقاته بالآخرين بالتحدى والإثارة والسلوك اللافت للنظر.

١٨) صعوبة تكوين علاقات جديدة أو المحافظة على العلاقات السابقة حتى مع أخواتهم.

١٩) إمكانية التعاطف مع الآخرين مع صعوبة المشاركة الفعلية فى التخفيف عنهم.

لا شك أن كل ما ذكرنا من **سمات نفسية وشخصية** للملاحدة العتاة يقع تحت **السمات التشخيصية** (التى ذكرها د. أحمد عكاشة ود. طارق عكاشة) لاضطرابات الشخصية التى تُعرف بـ «**تغيرات دائمة فى الشخصية، لا ترجع إلى أى أذى جسيم أو مرض بالمخ**».

ويصف أستاذ الرياضيات الأمريكى «**جيفرى لانج** Jeffery lang» [1] الحالة النفسية للملحد (كما عاناها عندما كان ملحدًا)، ومعبرًا عن طبيعة علاقاته وانفعالاته وتوجهاته الفكرية والعقائدية والاجتماعية، ومحللًا سيكولوجية الملحد الانعزالية الهشة، فيقول:

«**سرعان ما تعلمت أن لا أحد يعرف الوحدة كالملحد**. فعندما يشعر المؤمن بالوحشة فإنه يناجى، من أعماق روحه، الواحد الأحد الذى يعرفه، ويكون بمقدوره أن يشعر بالاستجابة. ولكن الملحد محروم من هذه النعمة؛ لأن عليه أن يسحق هذا الدافع، ويُذَكِّر نفسه دائمًا بسخفه. **فالملحد هو إله عالمه الخاص**، وهو عالَم صغير جدًّا، يحدده مجال إدراكاته، وهذه الحدود دومًا فى تناقص مستمر. والملحد لا يُشبع حاجَاته شىء؛ لأن عقيدته تخبره **بأن ليس للحياة هدف، وبأن ليس هناك شىء كامل أو شىء مطلق**. ولذا، عندما اتَّبعتُ النماذج الاجتماعية السائدة[2]، لم يكن ذلك لأنى أُقَدِّرها، بل لأنها تُسَيِّر سفينة الحياة.

ولا شك أنه توجد دومًا فى أعماق الإنسان **حاجة فطرية إلى تجاوز أبعاده المادية والانجذاب إلى قوة كبرى وراء الطبيعة**، وهى التى تلهمه وتقويه وترشده إلى الصواب وتشعره بالاطمئنان والأمان. وإذا كان المتدين يؤمن بأشياء تفوق إحساسه وإدراكه، فإن الملحد لا يستطيع الثقة بتلك الأشياء، وليس عنده شىء حقيقى، ولا حتى الحقيقة ذاتها.

وعادة ترى الملحد **منشغلًا بنفسه**، يحاول الحفاظ على وحدتها واتزانها، لتصبح ذات معنى. وفى الوقت ذاته عليه أن يقبل **تطفل القوى الخارجية**، خاصة العلاقات الإنسانية، على عالمه، دون أن يستطيع كبح جماحها. **فالملحد الذى يحتاج إلى البساطة والعزلة والانفراد يحتاج أيضًا لأن يتواصل مع الآخرين**».

وتبلغ مأساة الملحد ذروتها **عند التفكر فى الموت**، فى ذلك يقول جيفرى: «**إننا جميعًا نصبو للخلود**. وبمقدور المؤمن أن يتخيل السبيل لتحقيق ذلك، أما الملحد فعليه أن يفكر فى حلول

(١) Jeffrey Lang: أستاذ الرياضيات بجامعة كانساس بالولايات المتحدة. ولد لعائلة كاثوليكية بمدينة بردجبورت عام ١٩٥٤.

(٢) يقصد بذلك التماشى مع أعراف المجتمع ومقاييسه ومفاهيمه.

بديلة آنية، ربما عن طريق الزواج وإنشاء أسرة، أو تأليف كتاب أو إنجاز اختراع ما، أو القيام بمأثرة أو عمل بطولى أو رومانسى، بحيث يعيش فى أذهان الآخرين. **إن هدف الملحد الأسمى ليس الذهاب للجنة، بل أن يذكره الناس**».

متلازمة الملحد The Atheist Syndrome

بناء على قائمة السمات الشخصية للملاحدة العتاة، وانطلاقًا من اعتبار عدد من أطباء الأمراض النفسية أنها تمثل دلالات تشخيصية لما يمكن أن يُطلَق عليه **اضطراب الشخصية الإلحادى** Atheism Personality Disorder، نظر بعض أطباء النفس إلى الإلحاد الشرس باعتباره **متلازمة مرضية** Syndrome متكاملة الأركان.

وقد قام المفكر والكاتب الأمريكى جون كوستر[1] John P. Koster عام ١٩٨٩ بنشر كتابه الماتع الذى أَصَّل فيه لهذه المتلازمة، وأسماها «**متلازمة الملحد**[2] **The Atheist Syndrome**». وانطلق كوستر فى تأصيله للمتلازمة من الدراسات النفسية لعدد من أعمـدة الإلحاد فى التاريخ المعاصر، وأهمهـم الأربعة: تشارلس داروين Charles Darwin وتوماس هكسلى Thomas Huxley وفريدريخ نيتشه Frienrich nietzche وسيجموند فرويد[3] Sigmand Freud، بالإضافة إلى بعض الشخصيات الأخرى مثل هتلر وماركس وستالين.

يرى كوستر أن «**الابن الضحية** The Son Victim» (نتيجة لتقصير الوالدين أو أحدهما) الذى يعانى متلازمة الإلحاد The Atheist Syndrome يمر بثلاث مراحل تبعًا لنضجه العمرى:

١) مرحلة **الطفولة**: عادة ما يعانى هذا الطفل الضعف والخضوع، وعدم وضوح الرغبات والأهداف، كما يكون متأخرًا دراسيًّا. ويعانى معظم هؤلاء من قلة الثقة بالنفس، لإهمال والديهم لهم وعدم الاستجابة لمطالبهم مع السباب والإيذاء الجسدى والنفسى. ويتعامل هؤلاء الأطفال مع من حولهم بلامبالاة وارتباك.

(١) John Koster: (١٩٥١ -).

(٢) Wolgemuthx Hyatt, Publishers, Inc. Brentwood, Tennessee, 1989

(٣) نعرض سِيَر داروين ونيتشه وفرويد فى الفصل التالى.

توماس هكسلى Thomas Huxly: (١٨٢٥ - ١٨٩٥) عالم البيولوجيا البريطانى الشهير، لُقب بكلب داروين البولدوج، لدفاعه المستميت عنه وعن نظرية التطور.

٢) **مرحلة المراهقة وما بعدها:** تنقلب الصورة تمامًا بشكل فجائى:

فما أن تتاح الفرصة، يحاول المراهق التهرب من عائلته التى يكرهها ويسعى للاحتفاظ بمسافة بينه وبينها. وما أن يصل المراهق إلى درجة من التعليم تجعله يؤمن بخطأ والديه تمامًا!! حتى يلجأ إلى النزوح من بلدته.

وفى هذه المرحلة تتبدل الأمور تمامًا. فالابن الذى كان **ضعيفًا كسولًا مرتبكًا**، يتخلص من كبته وخوفه من سلطة أبيه، **ويشعر بنفسه أقوى وأذكى وأكثر دهاء مما كان يحلم.**

وعادة ما يبدأ المراهق فى هذه المرحلة فى **تكوين أفكاره** التى يحصل بها فيما بعد على الأهمية والشهرة.

٣) **مرحلة رفض الذات:** تكتمل المأساة فى سن ٣٥ - ٤٠ سنة.

فالشاب ينظر ذات مرة إلى المرآة فيجد أنه نسخة من والده بقدر ما يتذكره! ما أسوأها من مفاجأة. عندها يتحول كُره الأب الذى قاده إلى الفتور واللامبالاة فى طفولته وصباه، وإلى الرفض والتمرد فى مراهقته، يتحول إلى كُرهٍ لنفسه، بعد أن **أصبح نسخة ممن يكره.** ويؤدى ذلك إلى المزيد من الكراهية للأب، حتى يكرهه أكثر من أى شىء فى الدنيا.

عندها يُصدر العقل أوامره للجسم بأن **«يدمر نفسه»**، فهذا أفضل من أن أكون الشخص الذى أكره. عندها تبدأ **أعراض مرضية نفس جسمية** Psycho – Somatic (دون سبب عضوى) فى الظهور، وتتفاقم الأعراض حتى تكاد تُعجزه. وأهم هذه الأعراض: الصداع المزمن ـ عسر الهضم ـ الضعف والكسل الشديدين ـ الرهاب ـ العجز عن التركيز العقلى إلا فى بعض الوساوس أو بعض الفنون التى يمارسها الأشخاص الأذكياء.

إنه **اكتئاب مزمن**، أجسامهم صارت عدوة لعقولهم، وأصبحت عقولهم تعادى نفسها.

وإذا تأملنا السير الشخصية لرجال الإلحاد الكبار الذين درسهم كوستر (دارون ـ هكسلى ـ نيتشه ـ فرويد) نجد فى حياتهم **ملامح الاكتئاب المزمن:**

١ - عاش الأربعة لسنوات طويلة بعد **انهيار صحتهم البدنية**، حتى أن ثلاثة منهم عانوا الأعراض المرضية نصف حياتهم (يرجع ذلك أن هذه الأعراض كانت نفس جسمية، ولم يكن وراءها سبب عضوى).

٢- كان هكسلى وفرويد يتعافون من نوبات اكتئابها الحادة بأن يسبا الدين والإله! . فقد ذكر هكسلى أنه كان يرتاح كثيرًا كما يختفى عسر الهضم بعد أن يمسك قلمه ويكتب شيئًا ضد الكتاب المقدس. أما فرويد (الذى عاش أكثر من الآخرين) فكان يشعر بأن لحمه يتعفن، حتى إن كلبه كان يعافه، وكان فرويد يتخلص من هذا الشعور بسباب المسيحية واليهودية.

ولا شك أن البشرية ما زالت تعانى توابع **«العصر الفيكتورى»**[(١)] الذى أفرز العديد من الأبناء الضحايا، الذين كان آباؤهم «يَسْتَعَرُّون» منهم باعتبارهم محصلة علاقة آثمة قذرة. لقد أصبح هؤلاء المشوهون نفسيًّا هم الملهِمين للحركات الفكرية والسياسية فى القرن العشرين!!

آليات الدفاع النفسية Defense Mechanisms

للخروج من توتراته ومعاناته النفسية، التى وقفت وراء تبنى الإلحاد، وتلك التى تنتج عنه، يلجأ الملحد المضطرب إلى **آليات الدفاع النفسية Defense Mechanisms**، وأهمها:

١) إنكار Denial ـ كبح Repression ـ قمع وإخماد Suppression ـ رفض استحضار (أو التعامل مع) Refusal تجاربه السابقة المؤلمة وكذلك أفكاره المؤلمة.

٢) إزاحة Displacement وإسقاط Projection غضبه وضيقه على المفاهيم والشخصيات والجهات الدينية، وإرجاع إلحاده إلى سوء المنظومة الدينية والخطاب الدينى.

٣) رفض المعاونة Help Rejection: كثرة الشكوى مع رفض وازدراء أية نصيحة أو عرض بالمساعدة.

٤) تبرير Rationalisation: بتقديم تفسيرات غير صحيحة لعدم رضائه عن الحياة.

٥) الشق (القسمة) Splitting: السلوك فى الحياة بأسلوبين مختلفين؛ الأول شخصى حقيقى، والآخر ظاهرى مثالى أمام الناس.

٦) الهروب Escape: بالإفراط فى استخدام الخمور والعقاقير والانشغال المفرط بالجنس.

بهذه الآليات يعيش الملحد المضطرب فى **ظل قناعة كاذبة** بأنه من رواد حرية الفكر، وفى نفس الوقت من ضحايا التعصب الدينى!!

---

(١) سنعرض سمات هذا العصر وخلفياته وتوابعه فى الفصل السابع.

إذا كان الإلحاد يمكن أن يحدث بسبب اضطرابات الشخصية، فإنه فى حالاته الأصولية المتشددة «**قد يمثل**» فى حد ذاته **نوعًا من أنواع هذه الاضطرابات**. وقد يسهم فى حدوث هذا الاضطراب الإلحادى ما شاب ظروف نشأة هؤلاء من تقصير أبوى أو اختلال نموذج الأم. كما قد يسهم فى ذلك ما يعصف بنفوس الكثيرين منهم من غضب جامح وكره شديد لإله يعتبرونه غير موجود!!، وأيضًا موقف معادٍ وساخط وساخر من المتدينين.

ويرى القائلون بنسبة الإلحاد الشرس إلى اضطرابات الشخصية أن علاجه يحتاج إلى **اكتشاف الأسباب الواعية وغير الواعية** التى جعلت الشخص عرضة للإلحاد، كما يحتاج الأمر إلى **العمل كفريق** (طبى ـ نفسى ـ معرفى).

ويتبنى هؤلاء أن منع هذا النوع من اضطراب الشخصية **والوقاية منه أسهل كثيرًا من علاجه.**

ويرى هؤلاء المتخصصون أننا ما زلنا بحاجة للمزيد من الأبحاث للتعرف على أية **اضطرابات كيميائية وعصبية** تكون مسئولة عن الإلحاد، عندها قد يتوصل الطب إلى **عقاقير** يمكن أن تساعد على الشفاء!!

أهوال الإلحاد والحياة العدمية

لما كان هذا الفصل يدور حول «الإلحاد مشكلة نفسية»، فمن المناسب أن نختمه **بالأهوال النفسية** التى تسببها نظرة الملاحدة إلى الحياة باعتبارها خالية من الحكمة، وأن ليس وراءها إلا العدم.

يؤكد **برتراند رسل فكرة اللاغائية والعدمية** فى قوله: «الحياة خالية من المعنى ولا حكمة وراءها». ويؤكد الفكرة من المعاصرين **ريتشارد دوكنز** بقوله: «الحياة خالية من التصميم والغائية، لا خير ولا شر، ليس هناك إلا لامبالاة مؤلمة».

وفى المقابل...

فى لحظات من **الشك فى الإلحاد**، صرح الفيلسوف الكبير **جان بول سارتر**: «لا أتحمل أن أرى نفسى كومة من التراب الذى ظهر بالصدفة فى الكون، إنى أرى نفسى كائنًا محسوب حسابه، سبق تقديره، أُستدعى لغاية، كائن لا يوجد إلا كخلق لإله حكيم.. إن هذا القول

يتعارض مع الكثير من آرائى، لكنها فكرة تطفو إلى السطح كل حين وآخر... إن هذه الفكرة تدفعنى لأن أعيد النظر فى منظومتى الفكرية»[١].

وبالفعل أعاد سارتر بناءه الفكرى وهو على فراش الموت[٢].

ونفس التردد مر به **تشارلس دارون**. ففى حوار لدارون مع دوق أرجل The Duke of Argyll عام ١٨٨٥، قال له الدوق: لا شك أن الزهرة الجميلة من عمل إله حكيم. أجابه دارون: هذه الفكرة كثيرًا ما تعصف بعقلى، لكنها للأسف (وهز رأسه) تتلاشى بعد فترة»[٣].

وقرب موته عام ١٩٨٨، دخل الفيلسوف الكبير **سير ألفريد آير** Sir A.T. Ayer (واضع الفلسفة الإلحادية الرئيسية: الوضعية المنطقية) فى لحظة من لحظات الصفاء، وقال لطبيبه: «إنى أرى إله السماء»[٤]. قد يقول البعض، هذه هلاوس شخص مقبل على الموت خاصة وأنه كان زعيمًا للإلحاد. قبل قبول هذا التفسير، من المفيد أن نعرف أن سير آير عاش سنوات حياته الأخيرة فى سلام عميق واطمئنان، وكان صديقه الأقرب هو أشهر مناظريه من المؤمنين وهو الفيلسوف ورجل الدين البريطانى فريدريك كوبلستون Frederick Copleston [٥].

ولا شك أن أفضل المعبرين عن **مأساة اللاغائية والعدمية** هم الملاحدة أنفسهم، عند الاقتراب من الموت:

كان **ڤولتير** يصرخ: ما أسوأه من مصير، أن أتلاشى فى العدم.

وكان **الإمبراطور الرومانى سيبتيميس سيفيرس** Septimius Severus [٦] يهمس بحسرة قائلًا: لقد كنت كل شىء.

وقال الفيلسوف والسياسى الأمريكى توماس بين Thomas Paine [٧]: إنى مستعد أن أضحى بالوجود كله، لو كنت أملكه، إننى أواجه الجحيم وحدى.

(١) Thomas Molnar, "Jean – Paul Sartre: A late Return, "National Review 34 (June 11, 1982): 677

(٢) بينا ذلك عند الحديث عن سارتر فى الفصل الخامس.

(٣) Ratzsch, Del, "Teleological Arguments for God's Existence", The stanford Encyclopedia of philosophy (summer 2013 Edition)

(٤) Atheist Persona, J.J. pasquini, 2014 1st ed. University Press of America, P.20

(٥) Frederick Copleston: (١٩٠٧ - ١٩٩٤) اشتهر بمؤلفه «تاريخ الفلسفة» فى عدة مجلدات.

(٦) Septimius Severus: (١٤٥ - ٢١١).

(٧) Thomas Paine: (١٧٣٧ - ١٨٠٩) فيلسوف الاستنارة الأمريكى.

وقال الفيلسوف توماس كارليل Thomas Carlile [(١)]: لستُ إلا إنسانًا عجوزًا عاجزًا يقترب من المصير المجهول.

وقال سير فرانسيس نيوبورت Sir Francis Newport [(٢)]: لقد انتهى كل شيء.

وقال توماس هوبس Thomas Hobbes [(٣)]: أوشكت أن أقفز قفزتى الأخيرة إلى الظلام.

كان الكونت ميرابو Mirabeau [(٤)] يصرخ عند وفاته: أعطونى مورفين، لا أستطيع أن أفكر فى العدم.

وقد وصف عالم اللاهوت القديس أغسطين Augestin [(٥)] وأيضًا عالم الفيزياء والدين الفرنسى باسكال Pascal [(٦)] **العلاج** فى قولهما: «**فقط مع الإله نحن فى راحة**».

إن العدمية وانعدام الغائية ـ بما يحملانه من يأس مطلق ـ هما الجحيم بعينه، و«**الأمل فيما بعد**» هو استغاثة طلب النجدة من جحيم «الآن وهنا».

الأمل هو استغاثة طلب صحبة الإله، **الآن** وفيما بعد. **إن مات الأمل وُلِد الجنون.**

إن قناع الإلحاد ليس إلا التعبير الأكبر عن انعدام الأمل، **لا حياة بلا أمل.**

حوار مع الأستاذ

سألت أستاذى د. أحمد عكاشة:

هل توجد اختبارات نفسية تصنف الملاحدة إلى مجموعتين؛ هؤلاء الذين ينبغى تدبير لقاءات لهم مع د. عمرو شريف ليناظرهم ويبين لهم خطأ ما يذهبون إليه وخطأ ما يسوقونه من حجج علمية ومنطقية على عدم وجود إله، وهؤلاء الذين يجب تحويلهم إلى أستاذى د. أحمد عكاشة لعلاجهم نفسيًّا؟

---

(١) Thomas Carlile: (١٧٩٥ - ١٨٨١) الفيلسوف والمؤرخ الأسكتلندى الشهير.

(٢) Sir Francis Newport: (١٦٢٠ - ١٧٠٨) العسكرى والسياسى البريطانى.

(٣) Thomas Hobbes: (١٥٨٨ - ١٦٧٩) السياسى وفيلسوف الإلحاد البريطانى.

(٤) Mirabeau: (١٧٤٩ - ١٧٩١) كاتب وصحفى ودبلوماسى وسياسى وماسونى وخطيب الثورة الفرنسية، أصبح رئيس الجمعية الوطنية التأسيسية.

(٥) Augestin: (٣٥٤ - ٤٣٠) جزائرى الأصل، يعتبره الكاثوليك أهم شخصية بعد القديس بطرس.

(٦) Pascal: (١٦٢٣ - ١٦٦٢).

أجابنى أستاذى من فوره؛ **لا توجد مثل هذه الاختبارات**، فالملاحدة ليسوا مرضى بمقاييس الطب النفسانى، ومن ثم فهم جميعًا زبائنك أنت.

وأضاف د. عكاشة: من القواعد الأساسية فى الطب النفسانى؛ إنه **لا ينبغى أن نعالج أصحاب التوجهات السياسية والدينية**، وإلا لصار ذلك بمثابة غسيل مخ كالذى كان يفعله راسبوتين[1]! **الاستثناءان الوحيدان** لعلاج أصحاب المفاهيم الدينية نفسانيًّا هما: أن يتبنى الشخص **مفاهيم مغرقة فى الغرابة**، كهؤلاء الذين يُحضرهم أهلوهم إلى عياداتنا؛ لأنهم يصرون على أنهم آلهه أو أنبياء. والاستثناء الثانى، أن **تؤثر مفاهيم الشخص على حياته العملية والاجتماعية**، كهؤلاء الذين ينعزلون عن الحياة. فهذه السلوكيات تدل على أنواع مختلفة من اضطرابات الشخصية التى تتطلب العلاج، وينبغى أن يتوافر فى الشخصيتين شرط مهم؛ وهو **رغبتهم فى العلاج**.

قلت لأستاذى؛ ولكن ألم يثبت الطب النفسانى أن هناك **خلفيات نفسية عديدة** تجعل الإنسان أكثر عرضة لتبنى المفاهيم الإلحادية؟

أجابنى: نعم. لكن الخلفية النفسية لا تعنى مرضًا نفسيًّا، **فكل سلوكياتنا فى الحياة ومفاهيمنا التى نتبناها تقف وراءها خلفيات نفسية**؛ أن نتبنى الرأسمالية أم الشيوعية، أهلاوى أم زملكاوى، نوع الأطعمة التى تفضلها ... كلها وراءها خلفية نفسية. وأضاف، إن الدعوة لعلاج الملاحدة كالدعوة لعلاج الشيوعى أو الزملكاوى!!

سألت أستاذى: إذا نظرنا إلى تأثير التقصير الأبوى فى تبنى الإلحاد، ووجدنا أنه يؤدى إلى كراهية السلطة المتمثلة فى الأب، وتتصاعد الكراهية لتشمل كل سلطة حتى تصل إلى الإله، ألا يحتاج ذلك لما تطلقون عليه «**العلاج النفسانى المعرفى Cognitive Psychotherapy**» حتى تساعدان الشخص على تغيير نظرته إلى الإله؟

أجابنى الأستاذ الكبير؛ هذا دوركم يا من تتصدون بالعلم والمنطق للإلحاد. فما تقومون به فى المناظرات هو نوع من العلاج النفسانى المعرفى. أما الأطباء النفسانيون فليس لهم أن يتصدوا لهؤلاء الأشخاص بالعلاج، فهم ليسوا مرضى.

---

(١) جريجورى راسبوتين Grigori Rasputin (١٨٦٩ - ١٩١٦): راهب روسى، ولد فى قرية قرب سيبريا، وبالرغم من أميته أصبح مقدسًا بين الفلاحين. انتقل إلى مدينة سان بطرس برج، وعمل على التقرب من القصر الملكى، واقتنع القيصر نيقولا الثانى وزوجته بأنه قديس، وكان صاحب نفوذ كبير فى القصر وشديد التأثير على الناس، وكان دائم السُّكْر يتصف بالسلوكيات الشاذة. كان معارضًا لدخول روسيا الحرب العالمية الأولى، وتخلص منه أعداؤه فى القصر بقتله.

قلت: إذا لم يكن الملاحدة العتاة مرضى، فكيف تصنفون الإلحاد الشرس؟

أجابني: إنه «**انحراف في سمات الشخصية Deviated Personality Trait**» إنه كالشخص المغرق في البخل، أو المغرق في التهور والتطاول على الآخرين.

قلت لأستاذي مؤيدًا كلامه: نعم، علينا أن نتعامل مع البخل والتهور بالعقل والمنطق والدين. فالله ﷻ يخاطب **البخيل**: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]، كما يوجه الرسول الكريم ﷺ **المتهورين المتطاولين** قائلًا: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»[1].

وأضفت: وعلى الحكماء أن يبينوا للبخلاء والمتهورين المتطاولين عواقب سلوكهم هذا.

فقاطعني أستاذي قائلًا: والملحد كده بالضبط.

سألت أستاذي: ألا يفيدنا أن نعرف أن الأسباب العقلية والمنطقية التي يطرحها الملحد ما هي إلا قناع لخلفيات نفسانية عميقة؟

أجابني: لا شك أن ذلك يفيدنا. فلا نندهش مثلًا عندما يتمسك الملاحدة بمبررات عقلية ومنطقية واهية لإلحادهم، كما يوجهك ذلك لأن تجتهد في حوارك معهم لمعرفة هذه الخلفيات النفسانية في حياتهم، وتبين لهم أن الله بريء مما ينسبونه إليه من عدم أو قصور، وأن المشكلة ترجع إلى علاقاتهم السيئة بآبائهم وأمهاتهم.

انتهى حواري مع أستاذي د. أحمد عكاشة، وأصبحت أتحين كل فرصة للمناقشة الممتعة معه حول موضوع الإلحاد.

القارئ الكريم

عندما طرح فرويد «**نظرية الإسقاط لتفسير الإيمان بالإله**»، فإنه مهد لطرح «**نظرية الإسقاط لتفسير الإلحاد**». ومن ثم لا مبرر لغضب الملاحدة عندما نتبنى القول بالأصول النفسية والعصبية للإلحاد، ففرويد هو أول من فعلها، لكن في الاتجاه المعاكس. كذلك يقدم فرويد من خلال عقدة أوديب، أرضية مثالية لرفض الإله كأحد مظاهر **تحقيق الرغبات Wish Fulfillment**.

---

(١) حديث متفق عليه.

وقد اهتم علماء النفس حديثًا **بالأسباب النفسية والشخصية والاجتماعية** وراء تبنى الإلحاد، وخرجت هذه الدراسات بقناعة علمية بأن هذه العوامل تقف فى مقدمة أسباب هذه الظاهرة، ومن ثم فإن ما يطرحه الملاحدة كأسباب معرفية موضوعية (علمية ومنطقية) لإلحادهم ما هى (فى معظم الأحيان) إلا قناع تختفى وراءه العوامل النفسية والشخصية والاجتماعية.

ومن أهم العوامل النفسية وراء تبنى الإلحاد «منظور التقصير الأبوى، الذى يتبنى أن الإنسان **يعتبر الإله النموذج المطلق للقوة والسلطة**، كما يرى فى أبيه التجسيد البشرى لهذا النموذج. ومن ثم فمن يفقدون الأب (وفاة ـ هجر للأسرة) وهؤلاء الذين لديهم آباء ضعفاء (جبناء) أو أساءوا معاملتهم (بدنيًّا ـ نفسيًّا ـ جنسيًّا) يعانون صعوبات فى تبنى الإيمان بالإله.

وفى نفس الوقت، «طُرحت نظرية الارتباط»، التى تتبنى أن **طبيعة الرابطة بين الطفل وأمه (الرمز الأمومى Mother Figure)** تمثل النموذج الذى ستكون عليه العلاقة بين هذا الشخص فى المستقبل وبين الآخرين، ويمتد هذا النموذج حتى يؤثر فى العلاقة بالإله. وبديهى أن الكثير من الحالات الملحدة **يجتمع فيها التقصير الأبوى مع اختلال رمز الأم**.

وللارتباط دور معاكس أيضًا، فأحيانًا نلتقى بتأثير **العلاقة شديدة الارتباط والتعلق** على تبنى الأبناء لإلحاد أحد الوالدين.

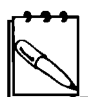
ويسبب **الإجهاض** لكثير من النساء على المستوى النفسى ما يُعرف **بصدمة ما بعد الإجهاض** Post – Abortive Trauma. ولا يقف تأثير هذه الصدمة على المرأة وحدها، بل قد يمتد إلى زوجها وأبنائها ووالديها، حتى يمكن القول إن الإجهاض **قد يدمر العائلة نفسيًّا**، وقد يمتد هذا التأثير **ليدمر العلاقة بالإله**.

و إذا كان الطب النفسانى ـ حتى الآن ـ لا يصنف الأفكار والسلوك الإلحادى كأحد أنواع اضطرابات الشخصية. فإن العديد من أطباء النفس يميلون لتصنيف **التوجه الإلحادى الأصولى الشرس** كأحد أنواع اضطرابات الشخصية، ويلحقونه بمجموعة من اضطرابات الشخصية تُعرف بـ«**تغيرات دائمة فى الشخصية، لا ترجع إلى أى أذى جسيم أو مرض بالمخ**». كذلك نظر بعض أطباء النفس إلى الإلحاد الشرس باعتباره **متلازمة مرضية** Syndrome متكاملة الأركان.

ولا يعنى وجود خلفية نفسية وراء تبنى الإلحاد أنه ينبغى علاج الملاحدة علاجًا طبيًّا. وربما كان **الاستثناءان الوحيدان** لعلاج أصحاب المفاهيم الدينية نفسانيًّا هما: أن يتبنى الشخص **مفاهيم مغرقة فى الغرابة**، كهؤلاء الذين يأخذهم أهلوهم إلى أطباء النفس لأنهم يصرون على أنهم آلهه أو أنبياء. والاستثناء الثانى، أن **تؤثر مفاهيم الشخص على حياته العملية والاجتماعية**، كهؤلاء الذين ينعزلون عن الحياة. فهذه السلوكيات تدل على أنواع مختلفة من اضطرابات الشخصية التى تتطلب العلاج، وينبغى أن يتوافر فى الشخصيتين شرط مهم؛ وهو **رغبتهم فى العلاج**.

* * *

الفصل الخامس



نظرية التقصير الأبوى

- **ملامح النظرية**
- **منهج البحث**
- **شخصيات إلحادية مات آباؤهم أو هجروهم مبكرًا**
  - نيتشه
  - برتراند رَسِل
  - شوبنهور
  - سارتر
  - ديفيد هيوم
- **ملاحدة كان آباؤهم قساة أو ضعفاء**
  - فرويد
  - كارل ماركس
  - ڤولتير
  - هـ. جـ. ويلز
  - فيورباخ
- **كبار السياسيين الملاحدة**
  - ستالين
  - هتلر
  - ماو تسى تونج
- **الملاحدة الجدد**
  - ريتشارد دوكنز
  - كريستوفر هتشنز
  - دانييل دينيت
  - سام هاريس
- **الأب الملحد**
  - جون ستيوارت مل
- **الإلحاد بين الرجال والنساء**
  - سيمون دى بوڤوار
- **المتدينون وآباؤهم**
  - باسكال
  - ويليام بيلى
- **القارئ الكريم**

«يفقـد الصبية إيمانهم بالإله
فـور أن ينكـسر داخلهـم
الشعور بسلطة الأب».

فرويد

يقول عالم النفس الأمريكى الشهير بول ڤيتز Paul Vitz [١] :

«لا شك أن طرح فرويد لتفسير نشأة الإلحاد من خلال عقدة أوديب[٢]، بل عقدة أوديب نفسها، ليس مقبولًا لدى الكثير من علماء النفس، حتى الملحدين منهم. فإذا كان دور الأب محوريًّا فى حياة الطفل، فإن تفسير الدوافع اللاواعية فى حياتنا من خلال رغبة الطفل الجنسية فى أمه والصراع الأزلى مع الأب أبعد ما يكون طرحًا جيدًا، ليس لمنافاته لفطرتنا وقيمنا الأخلاقية، فذلك لا اعتبار له فى العلم، لكن ببساطة لأنه ليس هناك دليل واحد معتبَر على هذا الطرح!!

ويضيف بول ڤيتز:

«ولما كنت كعالم نفسانى لا أجد فى الساحة ـ كتفسير نفسانى للإلحاد ـ إلا طرح فرويد، كنت أشعر دائمًا بالحاجة لطرح أصوب. وقد دفعنى ذلك إلى البحث عن طرح جديد والاستدلال عليه ثم عرضه على الساحة العلمية.

ولأكون أمينًا، فإن ما طرحته لم يكن جديدًا كل الجدة، ولا طرحًا أصيلًا كما نقول بلغة

(١) يُعتبر هذا الفصل تلخيصًا لكتاب إيمان من لا أب له، علم نفس الإلحاد Faih of The Fatherless, The Psychology of Atheism: Paul Vitz, Ignatius Press-San Franciso,2nd ed.2013
وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٩٩.
ومؤلف هذا الكتاب، د.بول ڤيتز (١٩٣٥-) أستاذ علم النفس بجامعة نيويورك، والأستاذ بمؤسسة علوم النفس فى أرلنجتون بولاية فرجينيا Arlington,VA. حصل على بكالريوس الطب من جامعة ميتشجان وعلى الدكتوراة من جامعة ستانفورد. وقد ظل ملحدًا حتى قارب الأربعين من عمره، ثم تبنى الديانة المسيحية.
(٢) بسطنا هذا التفسير فى بداية الفصل السابق.

العلم. فقد كان طرحى استكمالًا واستدلالًا على طرح ألمح إليه فرويد بشكل عابر، أى أننى لم أبتكر النظرية. ففى مقالته عن ليوناردو دافنشى[1] يقول فرويد:

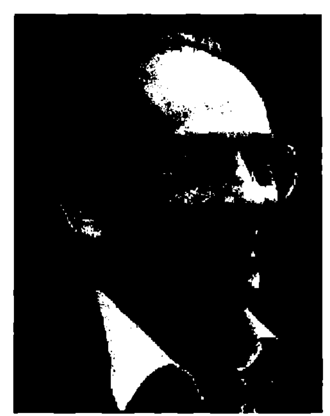
«إذا كان التحليل النفسى يبين العلاقة الوثيقة بين منظومة الأبوة وبين الإيمان بالإله، فإن التحليل النفسى يرينا أيضًا أن الإله المتجسد ليس إلا تمجيدًا للأبوة. ويؤكد ذلك المعنى ما نرصده يوميًّا من أن **الصبية يفقدون إيمانهم بالإله فور أن ينكسر داخلهم الشعور بسلطة الأب**».

ويعلق بول ڤيتز على هذه الأشارة قائلًا: «إن هذا التلميح لفرويد خال من تُرَّهات الرغبة الجنسية اللاشعورية فى الأم، وخال من الطبيعة الصراعية التنافسية فى العلاقة بين الابن والأب. إنه طرح سهل بسيط مفهوم، يتلخص فى **أن الطفل، أو الصبى والفتاة،، إذا صُدم فى أبيه وأصيب بخيبة أمل، فإنه يفقد احترامه لهذا الأب، وبالتالى يستحيل الإيمان بالمقابل الذى فى السماء**».

ملامح النظرية

ونمهد لعرض أدلة بول ڤيتز (شكل -١) على نظريته التى صارت تعرف بـ«**نظرية التقصير الأبوى** The Theory of Defective Father» بالإجابة عن بعض التساؤلات وطرح بعض الملاحظات:

أ) لماذا كانت العلاقة بين الابن والأب بهذه الأهمية فى المنظومة الإيمانية؟



(شكل ـ ١)
بول ڤيتز

يمكن تفسير ذلك من خلال ثلاث أطروحات؛ الطرح الأول هو ما يعرضه بول ڤيتز من خلال نظريته فى **التقصير الأبوى**. ويتداخل مع هذا الطرح **المفهوم الدينى** الذى يدور حول «الطبيعة الإنسانية»، فالإله قد خلق الإنسان على صورته، بل إن العلاقة بين الإله والإنسان تشبه العلاقة بين الأب وابنه؛ حيث إننا فى تربيتنا لأبنائنا نُشَبِّه الإله بالأب بشكل مباشر، كما نطلق على الأب مصطلح رب البيت.

وفى إطار هذين الطرحين يصبح الأب المثالى رمزًا طيبًا للأبناء جديرًا بالحب، وبالمثل، يمثل الأب المقصر رمزًا سيئًا

---

(١) Leonardo da Vinci: (١٤٥٢ - ١٥١٥) المبدع الإيطالى متعدد المواهب. رسام (أشهر لوحاته الموناليزا) ومعمارى وفلكى ومهندس، وجيولوجى، وعالم نبات، ومؤرخ وكاتب. ويعتبره البعض أمهر رسام عبر العصور.

جديرًا بالبغض، مما يجعل الأبناء يُسقطون Projection أو ينقلون Transfer أو يزيحون Displace [1] هذه المشاعر إلى الإله، مما يشكل خطرًا على المنظومة الإيمانية.

وبالطبع، فالطرح الثالث هو طرح فرويد الذى ينطلق من عقدة أوديب، والذى تآكل مؤيدوه.

ب) ما أسباب فقدان الصغير لاحترامه لأبيه؟

هناك ثلاثة أسباب رئيسة لفقدان الطفل لاحترامه وتعلقه بأبيه:

١) **أن يسىء الأب معاملة ابنه/ ابنته**، سواء بدنيًّا أو جنسيًّا أو نفسيًّا.

٢) أن يكون الأب **ضعيفًا جبانًا**، أو **سيئ السلوك لا** يستحق الاحترام، حتى وإن كان ظريفًا ومحبوبًا.

٣) أن يكـون الأب **غائبًـا عن العائلة**، إما بالموت، أو بالهجر بحثًا عن ملذاته أو هروبًا من مسئولياته.

ويرجع تأثير **موت الأب** إلى أنه لا يربى أبناءه ولا يرعاهم، فيتعلم الأطفال الاعتماد على أنفسهم وعدم الحاجة للآخر. كما يعتبر الصغير موت الأب خيانة، إذ تخلى عنه. وبعد أن يدرك الصغير مفهوم الألوهية، قد يصبح موت الأب دافعًا لأن يبغض الصغير الإله الذى حرمه من أبيه.

ويجسد **مفهوم لوم الإله** موقف كتبه الصحفى الأمريكى الشهير والكاتب الساخر فى جريدة نيويورك تايمز رَسِل بيكر Russel Baker فى سيرته الذاتية. فبعد أن مات والد بيكر وهو فى سن الخامسة، بكى الطفل حزنًا وقال لخادمتهم بيسى Bessie: **إذا كان الإله يفعل ذلك معنا، فإنه ملىء بالكراهية ولم تعد بى حاجة إليه.**

قالت بيسى: إن الإله يحبنا كأبنائه.

سأل بيكر: إذا كان الإله يحبنى فلم أمات والدى؟

قالت بيسى: يومًا ما ستفهم.

ويعلق بيكر قائلًا: لكنى لم أقتنع بما قالت، كما لم أجد ما أقول لها.

(١) الإسقاط والنقل والإزاحة، بعض آليات الدفاع النفسى التى وصفها فرويد.

ويضيف؛ يومها قررت أن الإله لا يبالى بنا عكس ما يقول كل من حولى، وقررت ألا أثق بالإله بعد ذلك اليوم، وفى سن الخامسة! أصبحت متشككًا Skeptic. بعدها لم أبك قط مخاطبًا الإله، ولم أتوقع منه أى اهتمام، ولم أعد أحبه.

وأشد الفترات تأثيرًا فى الابن إذا مات أبوه هى **الفترة العمرية من ٣-٥ سنوات**. فهى السن التى تتعمق فيه العلاقة بالأب، إذ قبلها تكون العلاقة مع الأم غالبة، وبعدها تكون العلاقة مع الأصدقاء. وهى كذلك السن التى يبلغ فيها الخوف والقلق من فراق مَن نحب أقصاه. Separation Anxiety وأخيرًا هى السن التى تتكون فيها شخصية الطفل فيبدأ صراعه ضد الأب (عند المؤمنين بعقدة أوديب).

جـ) يؤكد بول ڤيتز أن دور التقصير الأبوى فى تبنى الإلحاد **ليس دورًا حتميًّا** يلزم الابن أن يتبنى الإلحاد. فهناك دائمًا **مجال لحرية الإرادة والاختيار** بين الإيمان والإلحاد، إن ذلك يعنى أن التقصير الأبوى «ييسر» طريق الإلحاد.

ولإثبات دور حرية الإرادة والاختيار قام بول ڤيتز بدراسة تحليلية نفسية لمفكرين وفلاسفة عانوا التقصير الأبـوى لكنهم تبنـوا الإيمان. ومـن هؤلاء **سير أنتونى فلو** الذى أثبتت السِيرُ أنه كان يكره أباه وتبنى الإلحاد فى سن الخامسة عشرة، وظل ملحدًا ـ بل زعيمًا للإلحاد ـ حتى تجاوز الثمانين من عمره. لقد راجع أنتونى فلو فى سنواته الأخيرة أدلته العلمية والفلسفية وانتقل إلى الإيمان بالإله. ومثله أيضًا **ك.س.لويس** الذى ظل ملحدًا حتى سن الأربعين، ثم آمن بالمسيحية وصار أكبر رجال اللاهوت المسيحى فى القرن العشرين، بل يعتبره الكثيرون قديسًا.

معنى ذلك أن **العوامل المساعدة لا تلغى المسئولية الفردية**، سواء فى الإلحاد أو فى الإيمان، أى أن «وجود التفسير ليس عذرًا».

د) بالرغم من بساطة ووضوح نظرية التقصير الأبوى، فلا ينبغى أن نتجاوز **الصعوبات والآلام والتعقيد الذى يقف وراء كل حالة على حدة**.

علينا أن نتفهم حجم المأساة التى يكون فيها الطفل الذى يُحبَط فى أبيه أو يكرهه، فالطبيعى أن الطفل يريد أن يحب أباه. ويتزايد حجم المأساة حين ندرك مدى معاناة الملحد النفسية، والتى يعبر عنها دعاء أستاذ الرياضيات الأمريكى جيفرى لانج بعد أن عرف الإيمان: «إلهى إن كنت أعود إلى الإلحاد، فدعنى أموت قبل ذلك».

لا شك أن الأسس النفسية للإلحاد معقدة للغاية، ولا شك أن التقصير الأبوى من أهمها، ذلك المفهوم الذى وضع أسسه فرويد!! وفصله د. بول ڤيتز.

منهج البحث

إن الإلحاد الذى يقصده ڤيتز فى الدراسة هو **رفض الإيمان بالإله بالمعنى الذى تتبناه الديانات الإبراهيمية**، وهو الإله الذى يُقيم معه الإنسان علاقة مباشرة. وهذا المفهوم يختلف عن الإله بالمعنى الذى يقصده بعض الربوبيين، باعتباره القوة المطلقة أو الذكاء المطلق.

ومثل كل الدراسات النفسية، اعتمد بول ڤيتز فى دراسته على **تأمل وتحليل سِيَـر مشاهير الملحدين**، سواء كانت سيرهم الذاتية التى كتبوها بأنفسهم أو تلك التى كتبها عنهم آخرون.

وتتكون **مادة البحث** (اختيار العينة Selection Criteria) من مشاهير الملاحدة من كبار المفكرين خاصة الفلاسفة، ممن مَثَّـلَ الإلحاد محورًا أساسيًّا فى فكرهم ومكانتهم الاجتماعية، ويُعتبر معظمهم من مؤسسى وأعمدة الفكر الإلحادى المعاصر.

وقد استبعد بول ڤيتز من مادة البحث (**سمات المستبعَدين** Exclusion Criteria) العلماء والفنانين. فالعلماء يلتزمون بالمنهج العلمى المادى فى البحث، والفنانون مشغولون بإبداعاتهم، ومن ثم لا يمثل الدين لكلا المجموعتين قضية محورية[1].

وكأية دراسة علمية دقيقة محترمة، استكمل بول ڤيتز مادته البحثية بمجموعة من المتدينين للمقارنة (**المجموعة الحاكمة** Control Group). وقد اختار ڤيتز هذه المجموعة من المتدينين الذين نشأوا فى نفس المجتمعات وفى نفس الفترة التاريخية للملاحدة، وذلك من أجل استبعاد تأثير الظروف الاجتماعية على إلحاد الملاحدة، ومن ثم يصبح العامل المؤثر الأساسى هو تربية الوالدين لصغارهم.

والآن جاء دور استعراض أهم الشخصيات (المادة البحثية) التى بنى عليها بول ڤيتز نظريته. وسنركزهنا على **سبع مجموعات**:

١ - ملاحدة مات آباؤهم أو هجروهم مبكرًا.

٢- ملاحدة كان آباؤهم قساة أو ضعفاء.

٣- كبار السياسيين الملاحدة.

---

(١) هذا رأى بول ڤيتز، ونحن نختلف معه، إذ نرى الكثير من العلماء والفنانين يعتبرون الدين شاغلهم المحورى، سواء فى بلادنا أو فى الغرب.

٤- الملاحدة الجدد.

٥-الأب الملحد.

٦- الإلحاد بين الرجال والنساء.

٧- المتدينون وآباؤهم.

وبالمجموعة الأولى نبدأ:

شخصيات إلحادية
مات آباؤهم أو هجروهم مبكرًا

١) فريدريخ نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠)



(شكل ـ ٢)
فريدريخ نيتشه

بدأ بول ڤيتز شخصياته الإلحادية بنيتشه، باعتبـاره أشهر الملاحدة على الإطلاق (شكل -٢).

أجمع كل من كتب فى سيرة الفيلسوف الألمانى نيتشه أن آراءه الصادمة كانت انعكاسًا لشخصيته المعقدة، بل إن نيتشه نفسه أَكَّدَ ذلك حين قال: «**تتوقف فلسفة الفيلسوف على بنيته الشخصة**، وفى حالة الإلحاد بصفة خاصة تعتمد هذه الأفكار على الغريزة»[١].

كان نيتشه **شديد التعلق بوالده**، ووصف وفاته (فى سن السادسة والثلاثين، بعد أن ظل يعانى فى العام الأخير من حياته من مرضًا عقليًّا) بأنها كانت **الخسارة الكبرى التى لا يمكن نسيانها**، وكان عُمْر نيتشه وقتها خمس سنوات. ويصف نيتشه فيها بعد مشاعر العائلة يومها؛ لقد بكت أمه بشدة وشَكَت للإله أن زوجها قد مات، ويقول نيتشه: كنت أعلم أن الموت يعنى الفراق التام، فبكيت وحزنت بشدة، وأدركتُ أننى أصبحت يتيمًا وأن أمى أصبحت أرملة.

---

(١) F. Nietzsche, Ecce Homo, trans. (London: Penguin 1979),p.51

ويصف نيتشه **مراسم دفن والده بالتفصيل** وبالتوقيت الدقيق بعد سنوات طويلة، ويقول: لم يذهب صوت قرع أجراس الكنيسة يومها من أذناى، كما أن الموسيقى الحزينة لم تذهب من خاطرى. وبالرغم من ذلك ظل نيتشه فى طفولته يثق برحمة الله.

وفى سن الرابعة والعشرين، كتب نيتشه يعبر عن **احتياجه الشديد لوالده**، ولنصائحه وإرشاداته. وبالرغم من حبه لأبيه فى هذه السن، إلا أنه كان يعتبره ضعيفًا ومريضًا **ولا يتمتع بقوة الحياة Life Force**. وقبل الانهيار العصبى الذى أصاب نيتشه (ولم يُشف منه) كتب يقول: إنى مجهد وعصبى للغاية، ولا شك أنى ورثت هذه العلة عن أبى الذى مات نتيجة لافتقاده قوة الحياة. ويُرجِع نيتشه فقدان قوة الحياة عند والده إلى المسيحية، فهكذا كان المسيح!.

ويقف رفضُ نيتشه لضعف المسيحية وضعف والده وراء مفهوم «**السوبرمان Superman**» الذى يسيطر على فلسفته. فهو تعبير عن **تبنى القوة** Will to Power، **وتبنى الصلابة** Becoming Hard. وقد استخدم نيتشه **الوحش الأشقر** Blond Beast للإشارة إلى الرجل الألمانى القوى، وقد انعكس ذلك المفهوم فى إعجاب نيتشه **بالإله اليونانى الوثنى ديونيسيوس** Dionysius الذى يرمز لقوة الحياة.

وينعكس مفهوم السوبرمان أيضًا فى **احتقار نيتشه للمرأة**، وسعيه لتشويه صورتها. وظهر ذلك فى قوله لأحدهم: أذاهب للقاء امرأة؟ لا تنس أن تأخذ معك سوطك (الكرباج)!. كما يظهر ذلك أيضًا حين يقول: تتجلى سعادة الرجل فى قوله «أنا سأفعل»، أما سعادة المرأة فتتجلى فى قولها «هو سيفعل».

ومن دوافع نيتشه **للبحث عن القوة فى الذكورة**، قيام أمه وعائلتها برعاية الأسرة والإنفاق عليها، فأصبح ـ حتى ذهب إلى المدرسة الداخلية فى سن الرابعة عشرة ـ **يعيش فى بيت مسيحى تشيع فيه المفاهيم المسيحية والأنثوية** (أمه ـ أخته الصغرى ـ جدته ـ عماته). وقد صور له هذا البيت أن مفاهيم المسيحية ـ بما فيها من ضعف وخنوع ـ خاصة بالنساء[1].

وفى **مدرسة البلدة**، وجد نيتشه صعوبة فى التعامل مع الأولاد الآخرين، وكانوا يسخرون منه ويصفونه **بالقس الصغير** Little Pastor لجديته وقدرته على التحكم فى نفسه وسلوكه التقى، وزاد من هذا الانطباع عدم مشاركته للأولاد فى ألعابهم، بسبب ميوله الانعزالية ومعاناته الصحية المتكررة وإصابته بقصر النظر.

(١) Nietzsche, Ecce Homo, P.41

وللتغلب على ما واجه من مصاعب اجتماعية فى سنه الصغيرة، كان نيتشه يحرص على تنمية إرادته والاشتهار بذلك. فعندما أراد أن يُظهر شجاعته للأولاد الآخرين، أخذ مجموعة من عيدان الكبريت وأشعلها ووضعها فى كفه، حتى أسقطها أحدهم من يده بعد إصابتها بحروق سيئة.

والمُطالع لسيرة نيتشه الذاتية، يلاحظ **تعارضًا قويًّا بين فلسفته المفرطة فى الذكورية القاسية** - حتى إنه يقول: «إننى بطبيعتى أحب الحرب، فالهجوم إحدى غرائزى» - **وبين حقيقته** كشخص محافظ مفكر، كثير المرض والشكوى من الصداع وآلام المعدة وأعراض مرضية أخرى ترجع إلى إصابته بمرض الزهرى الجنسى. وكثيرًا ما كانت هذه الأعراض تقعده فى الفراش وتقوم أمه وأخته الصغرى برعايته. لذلك، فإن هذه الفلسفة الذكورية القاسية ليست إلا قناعًا تختفى وراءه **حقيقة نيتشه المحافظة وأيضًا الضعيفة.**

ويمكن فهم فلسفة نيتشه باعتبارها **صراعًا رهيبًا للتغلب على ضعف والده المسيحى المشوب بالخوف.** ذلك الخوف الذى عبر عن نفسه فى **رؤيا رآها بعد موت والده** بستة أشهر، فقد رأى أجراس الكنيسة تدق - والده يخرج من القبر - يدخل الكنيسة ويعود منها حاملًا طفلًا صغيرًا إلى القبر، بعدها بأيام قليلة مات أخوه الأصغر جوزيف[1].

تبين سيرة نيتشه أن حياته وفلسفته الإلحادية كانتا **رد فعل فكريًّا عنيفًا ضد موت أب مسيحى متدين، كان الابن يحبه، وفى نفس الوقت يعتبره ضعيفًا مريضًا.** لقد كان أبوه يمثل **قوة الموت** Death Force، وهو نقيض مثال السوبرمان الذى تبناه نيتشه والذى يمثل **قوة الحياة** Life Force. لذلك، يمكننا اعتبار فلسفة نيتشه عن السوبرمان **بحثًا عن الأب المثالى الذى افتقده.**

٢) آرثر شوبنهور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨ - ١٨٦٠)

تقوم فلسفـــة شوبنهـور على **النظرة التشاؤمية للحياة**، حتى إنه لُقب بـ«**المتشائم الكبير** The Great Pessimist» (شكل - ٣).

كان والد الفيلسوف الشهير شوبنهور تاجرًا ثريًّا مشهورًا، وكان مهتمًّا بعالم الفكر خاصة كتابات ڤولتير. وبالرغم من كثرة سفر الأب فى تجارته وانشغال الابن بالمدرسة، فقد كانت

(١) سبحان الله، لقد ظل نيتشه يتذكر هذه الرؤيا طوال عمره، أما استطاع أن يدرك منها قدرة الإنسان على الاطلاع على المستقبل فى عالم الرؤى؟ من أين جاءتنا هذه القدرة التى يعجز الفكر المادى عن تفسيرها؟.
ألا يعنى ذلك وجود عالم الغيب، فيدفعه ذلك إلى الإيمان بالإله؟!!



(شكل ـ ٣)
آرثر شوبنهور

علاقتهما قوية. وربما كان الخلاف الوحيد بينهما هو رغبة الأب فى أن يصبح ابنه تاجرًا مثله، وقد اضطر أن يطيعه. وربما كان لموت الأب ميزة واحدة، وهو أنه سمح لشوبنهور بدخول عالم الفلسفة!

وفى عام ١٨٠٥، حينما كان شوبنهور فى السابعة عشرة من عمره، **مات الأب.** وأُشيع **أنه انتحر**، بأن قفز من شباك الطابق الثالث فى بناية إلى مياه قناة ملاصقة. وقد وصف شوبنهور يوم وفاة أبيه بأنه **أحلك يوم فى حياته.**

وأما **علاقة شوبنهور بأمه** فكانت سلبية للغاية، حتى قال أحد المؤرخين لسيرته إنه لم يحصل على الحب الأول Primary، حب الأم. لم تكن أمه راغبة فى إنجابه، وكانت تعتبر أنه قد حَدَّ من حريتها، لذلك كان يبغضها بشدة. وبالرغم من أن أم شوبنهور أعلنت أن أباه قد انتحر، إلا أنه حَمَّلَها مسئولية دفعه للانتحار. لقد **كره شوبنهور النساء** فلم يتزوج وقطع علاقته بأخته ولم يُقم معهن أية صداقات.

يصف شوبنهور **طفولته** بأنها كانت باردة يملؤها الخوف والوحدة، وكانت المربيات والخادمات يتولين تربيته. وتمثل الفترة العُمرية من ثمانى سنوات (بداية اهتمام والده به) إلى الثامنة عشرة (انتحار والده) الفترة الوحيدة السعيدة فى حياته.

ويصف شوبنهور **دخوله عالم الإلحاد،** فيُرجع ذلك إلى أنه كان دائمًا شديد الاكتئاب والتشاؤم. وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره تساءل: أهذا هو العالم الذى صنعه الإله؟! لا، إنه لا يكون إلا **صناعة شيطان.**

كان شوبنهور **شديد الشعور بالوحدة** لما عاناه فى طفولته من إهمال أمه ثم فقدان أبيه. كان يرى أن كل شىء فى الحياة تافه، وأنها فراغ، ولا معنى لها، وليست إلا حِزَمًا من المعاناة. وربما كانت هذه المشاعر وراء **اهتمامه بالفكر البوذى،** الذى يقوم على العدم Emptiness ورفض كل الرغبات، خاصة تعلق الإنسان بالدنيا والأشياء والآخرين وحبه لهم.

لقد عاش شوبنهور حياته دون أن يتعلق بأحد، ومن ثم لا عجب أن أنكر الإله، وأنكر عالم الغيب كله.



٣) ديفيد هيوم[١] David Hume (١٧١١ - ١٧٧٦)



(شكل ـ ٤)
ديفيد هيوم

كان ديفيد هيوم (شكل - ٤) ملحدًا فى وقت كان **للإلحاد مخاطره الاجتماعية والسياسية.**

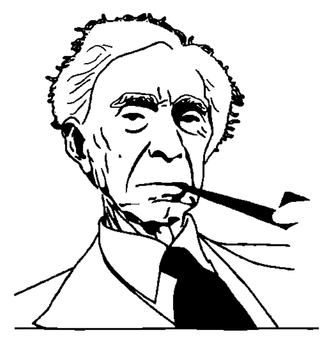
ويعرف المؤرخون القليل عن طفولة هيوم وصباه. ومما نعرفه أنه نشأ فى عائلة على قدر من الشهرة والثراء، وكان الكثير من رجالها محامين. وكانت علاقة ديفيد جيده بأمه وأخيه الأكبر وأخته الصغرى.

تربى هيوم كمسيحى، **وترك الدين فى شبابه المبكر**، بعد أن قرأ لجون لوك John Locke [٢] وصامويل كلارك Samuel Clarke [٣]. والمتابع لفلسفة هيوم يجد أنه كَتَبَ فى دحض الديانات أكثر مما كتب فى الموضوعات الأخرى.

والغريب أن من كان يرفض أفكار هيوم وفلسفته لا يملك إلا أن يحبه إذا تعامل معه، فقد كان **لطيفًا مهذبًا.**

الذى يعنينا أن **والد ديفيد مات** ولم يبلغ الثانية من عمره، ولم يأت فى سيرته أن أحد رجال عائلته قد تابع تربيته.

٤) برتراند رسل Bertrand Russel (١٨٧٢ - ١٩٧٠)



(شكل ـ ٥)
برتراند رسل

هو بلا شك أشهر الملاحدة الإنجليز، وقد انتقد المسيحية بشدة بسبب ما لاقاه من تشدد وتعنت رجال الدين.

كان والدا رَسِل (شكل - ٥) من **الطبقة الأرستقراطية**، وكانا على اهتمام بالسياسة خاصة اتجاهها الراديكالى[٤]. وقد تربى والده لورد رَسِل تربية دينية، ثم تبنى الفكر الحر فى شبابه **وألقى المسيحية من الشباك.**

---

(١) David Hume: فيلسوف الإلحاد الأسكتلندى الكبير، المهتم بالتاريخ والاقتصاد.

(٢) John Locke :(١٦٣٢ - ١٧٠٤) الفيلسوف والطبيب الإنجليزى، من كبار فلاسفة الاستنارة.

(٣) Samuel Clarke : (١٦٧٥ - ١٧٢٩) فيلسوف الاستنارة الإنجليزى الكبير.

(٤) السياسة الراديكالية Political Radicalism: اتجاه يتبنى تغيير البنية الاجتماعية بشكل جذرى وبوسائل ثورية.

مات **والد** فيلسوفنا وعمره أربع سنوات. والذى جعل الأمر أكثر سوءًا أن **والدته** كانت قد ماتت وهو فى الثانية من عمره، ثم تربى فى بيت **جده** الذى مات وهو فى السادسة، وقامت بالإشراف على تربيته بعد أمه وأبيه **جدته**، التى كانت مسيحية متشددة. وقد تتابعت على تربيته مجموعة من **المربيات**، ماتت أقربهن إليه وهو فى سن الحادية عشرة.

وبالرغم من نشأة رَسِل فى وسط متدين، فقد تبنى الإلحاد فى سن مبكرة، كرد فعل **لكرهه للمسيحية التى قدمتها له جدته**. وفى نفس الوقت، تروى ابنته فى مذكراتها أنها تعتقد أن مكانًا ظل شاغرًا فى قلب والدها لم يستطع شىء أن يملأه، وأنه ظل طوال حياته دائم البحث عن الإله بعد أن رفض إله المسيحية المتجسد.

وكرد فعل لموت كل من أشرفوا على تربيته وأحبهم، كان رَسِل يعلن أنه **يشعر بالضياع، وأنه يبحث عن الأمان واليقين** بنفس الدرجة التى يشتهى بها الآخرون الإيمان الدينى.

وكرد فعل لهذا الضياع، كان رَسِل **انطوائيًّا انعزاليًّا كثير التأمل والحب للطبيعة**؛ فأحب القمر والنجوم والسماء والبحر أكثر من أقرب الناس إليه. ولم يكن يجد سلواه إلا فى القراءة. ولا شك أن إنسانًا **يرفض العلاقات والعواطف الإنسانية يكون رافضًا للعلاقة بالإله.**

ويوصَف رَسِل **بأنه رجل المتناقضات**، وظهر ذلك فى تساؤله: هل لنا حرية إرادة؟ الفلسفة تقول لا، أما واقعنا الحياتى فيقول نعم.

٥) جان بول سارتر Jean-Paul Sartre: (١٩٠٥ - ١٩٨٠)

يُعتبر الفيلسوف الفرنسى الشهير أحد أشهر الملاحدة فى القرن العشرين (شكل - ٦). وتقوم «**الفلسفة الوجودية** Existential Philosophy» التى أسسها سارتر على الإلحاد، ويمكن تلخيص أفكارها فى:



(شكل - ٦)
جان بول سارتر

«إذا أنكر الإنسانُ الإله، فلا بد من الإيمان بمصدر آخر يحدد لنا قِيَمَنَا.

وإذا قلنا إننا نحن الذين نحدد القيم، فذلك يعنى شيئًا واحدًا، هو ألا معنى ولا وجود يسبق وجودنا،

أى أن قبل وجودك كانت الحياة لا شىء.

ومثلما أنك أنت الذى تحدد القيم التى تريدها،

فلك أن تعطى الحياة المعنى الذى تريده[1]».

وإذا تأملنا **حياة سارتر**، وجدنا أن **والده** مات وقد بلغ من العمر خمسة عشر شهرًا، وبعد موته عاش سارتر الطفل وأمه مع والديها، وكان جده يتابع تعليمه لكنه كان ذا شخصية ضعيفة ولم تكن العلاقة بينهما قوية.

وفى المقابل، **توثقت العلاقة بين الطفل وأمه** إلى أبعد حد، فكانت ترعاه فى كل شيء، مما نَمَّا العلاقة الأوديبية!. لم يدم هذا الحلم الأوديبى كثيرًا، فقد انتهى بزواج أمه الأرملة وهو فى سن الثانية عشرة، واستقلت فى بيت منفصل مع زوجها. وبالرغم من جهود **زوج الأم** للتقرب من الطفل سارتر؛ فقد رفضه بشدة. لقد ترك هذا الزواج فى نفسه جرحًا عميقًا لم يندمل طوال حياته.

لقد نشأ فى **رعاية امرأة**. **أما الرجال** فى حياته فقد كانوا **مثالًا للتقصير**: فأبوه مات وهو طفل صغير، وجده الذى حل محل أبيه كان ضعيفًا، وزوج أمه استولى على أمه المحبوبة...

لذلك، لم يمض على زواج الأم سوى عام واحد، حتى أعلن الصبى سارتر إلحاده.

وفى سيرته الذاتية، يعلن سارتر أن **موت أبيه كان حدثًا طيبًا!!** كما ورد فى **رواياته** أن الآباء عبء، يطحنون أبناءهم ولا يتركون لهم فرصة ليصنعوا أنفسهم، لذلك تكررت فى هذه الروايات عبارات مثل (أريد أن أقتل الأب داخلى - لا يوجد أب طيب - لا تعتب على شخص بل اعتب على رابطة الأبوة العفنة...).

وهل جَرَّبَ سارتر الأبوة ليعرف عنها هذه السوءات؟! **لا** تفسير لهجوم سارتر الشرس على الأبوة طوال حياته الفكرية إلا **اعتراضه الشديد على يتمه**.

باختصار، **كان موت والد سارتر مؤلمًا للغاية**، حتى إنه أنفق حياته كلها يحاول إنكار تأثره بهذا الحدث. وقد كان تأسيس «الفلسفة الوجودية» هو آلية دفاعه النفسى، **فهى تقوم على أن غياب الإله (الأب) هو البداية لتشكيل حياة جيدة طيبة فاضلة**.

ولا ينسدل الستار على حياة سارتر (مثل مسرحياته) إلا **على مفاجأة!**

فبينما هو على فراش الموت، طلب سارتر من رفيقته سيمون دى بوڤوار أن تأتى له بكاهن ليعترف له، **ليموت على المسيحية**، وقد كان...

(١) J.P. Sartre ,Existentialism, Trans.(New york: Philosophical Library, 1947),P.58

ترجع أهمية هذا الموقف فى سياق كتابنا إلى أنه يثبت «**حرية الإرادة الإنسانية**»، بالرغم من الخلفيات النفسية الدافعة لِتَبَنى الإلحاد. فبالرغم من أن تنشئة سارتر قد وجهته طوال أكثر من سبعين عامًا إلى طريق الإلحاد، فإنه راجع موقفه فى الساعات الأخيرة من حياته، واختار بكامل إرادته الحرة طريقًا آخر.

قد يرفض البعض اعتبار موقف سارتر تعبيرًا عن الإرادة الحرة، ويرجعونه إلى **الخوف من مواجهة الموت**، وهو ما عبر عنه المثل الإنجليزى القائل: «**لا يوجد ملاحدة فى خنادق الحرب**»[١].

وهو الموقف الذى عبر عنه القرآن الكريم فى الكثير من آياته الشريفة[٢].

وإذا كنا نوافق على أن مواجهة الموت قد تدفع الإنسان للإيمان بالإله، فذلك لا يمنع أن **هذا الاختيار يتطلب حرية إرادة**. بدليل أن العديد من الملاحدة ماتوا على إلحادهم ولم يذكر عنهم التاريخ أنهم قد غيروا مواقفهم.

وقد نُقل عن سارتر أنه كان يعيد النظر فى موقفه فى السنوات الأخيرة من حياته، وليس فقط وهو على فراش الموت. ففى لحظات من الشك فى الإلحاد، صَرَّحَ الفيلسوف الكبير قائلًا: «لا أتحمل أن أرى نفسى كومة من التراب الذى ظهر بالصدفة فى الكون، إنى أرى نفسى كائنًا محسوبًا حسابه، سبق تقديره، أُستدعى لغاية، كائن لا يوجد إلا كخَلق لإله حكيم... إن هذا يتعارض مع الكثير من آرائى، لكنها فكرة تطفو على السطح كل حين وآخر... إن هذه الفكرة تدفعنى لأن أعيد النظر فى منظومتى الفكرية»[٣].

وبالفعل أعاد سارتر بناءه الفكرى وهو على فراش الموت.

(١) There are No Atheists in Foxholes

(٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) ﴾ [يونس].

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا (٦٧) ﴾ [الإسراء].

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) ﴾ [العنكبوت].

(٣) Thomas Molnar, "Jean-Paul Sartre: A late Return," National Review 34 (June 11,1982): 677

ملاحدة كان آباؤهم قساة أو ضعفاء

١) سيجموند فرويد Sigmund Freud:(١٨٥٦-١٩٣٩)



(شكل ـ ٧)
سيجموند فرويد

اخترنا أن نبدأ هذه الشخصيات بالتحليل النفسى الذى طرحه بول ڤيتز لشخصية فرويد (شكل - ٧)، باعتباره الأب المؤسس للتحليل النفسى بالإضافة لكونه من أشهر الملاحدة فى العصر الحديث.

كان سيجموند فرويد **شخصية غامضة شديدة التعقيد.** ويُجمع كل من كتب عنه على أنه كان **مقاتلًا شجاعًا**، حتى إنه تصدى جسديًّا فى شبابه (باعتباره يهوديًّا) لمُعادين للسامية، وكان يُعجَب بالمقاتلين. كما كان مقاتلًا شرسًا كأحد كبار المفكرين الملاحدة، فما علاقة ذلك بعلاقته بوالده؟

لم يكن جاكوب Jacob **والد فرويد مثيرًا لإحباط** ابنه فحسب، بل كان أسوأ من ذلك. لقد كان **ضعيفًا عاجزًا** عن إعالة أسرته، فتولت عائلة زوجته وآخرون الإنفاق على الأسرة.

كما كان جاكوب **سلبيًّا تجاه عداء المجتمع لبنى دينه اليهود** (معاداة السامية!)، وقد روى الأب لابنه موقفًا يشينه! حين وصفه أحدهم باليهودى القذر وألقى قبعته على الأرض، ويحكى فرويد كيف أنه **يشعر بالخزى** إذ لم يصدر عن أبيه رد الفعل المناسب دفاعًا عن شرفه.

ويظهر تقصير جاكوب كأب بشكل أعمق فى علاقته المباشرة بأبنائه. فقد ذكر فرويد فى خطابين له أن والده كان **منحرفًا جنسيًّا** وأن أبناءه قد عانوا من ذلك.

كذلك أثَّـرَت علاقة جاكوب **بالإله وبالدين** فى ابنه. فيروى فرويد أنه فى صباه كان يقضى الساعات مع والده فى قراءة الإنجيل (كتاب المسيحيين) وبعد ذلك اهتم جاكوب بالتلمود وبالكتب اليهودية.

باختصار: لقد كان هذا الأب الضعيف الجبان المنحرف جنسيًّا مثلًا سيئًّا لابنه. ونتيجة لذلك **جعل فرويد كرهه لأبيه محور نظرياته فى الطب النفسى**، وعبر عن ذلك بقوله فى سيرته الذاتية: «يرينا التحليل النفسى يوميًّا، كيف أن الصغار يفقدون إيمانهم بالإله بمجرد أن تنهار سلطة الأب واحترامهم له»(١).

٢) ڤولتير Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨)

طرحنا فى الفصل السابق عند حديثنا عن عقدة أوديب مختصرًا **لعلاقة ڤولتير السيئة بأبيه**، والتى وصلت إلى حد رفض حمل اسمه، وادعاء أنه ليس أباه، وانتسابه إلى أحد الشعراء النبلاء.

كما رأينا أثر هذه العلاقة السيئة فيما تبناه ڤولتير من أفكار وفلسفة، وما طرحه من أعمال مسرحية وفكرية.

٣) لود ڤيج فيورباخ Ludwig Feuerbach (١٨٠٤ - ١٨٧٢)



(شكل ـ ٨)
لودڤيج فيورباخ

كان الفيلسوف الألمانى الكبير فيورباخ (شكل - ٨) أول من صاغ **نظرية الإسقاط**، التى تلقفها فرويد وألبسها ثوب التحليل النفسى وروج لها. وقد كان ملحدًا متعصبًا حتى لُقب بـ«**ضد المسيح** Anti-christ».

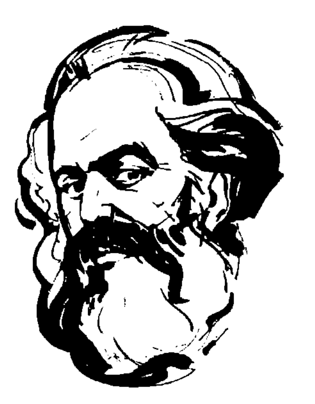
وُلد فيورباخ لعائلة ألمانية عريقة، وكان **والده آنسلم** Anselm قانونيًّا ضليعًا مشهورًا، ومازال يُذكر بين القانونيين الكبار حتى اليوم. وكان آنسلم بروتستانتينيًّا متحررًا، لكنه كان عصبيًّا مدمنًا للخمر موسوسًا وصعب المعاملة، حتى لُقب بلقب «ڤيزوف Vesuvius»، نسبة إلى البركان الشهير متكرر الفوران فى إيطاليا.

ولا شك أن الحادث الأكثر تأثيرًا فى حياة فيورباخ هو ما وقع عام ١٨١٣ حين كان فى التاسعة من عمره. لقد **كان والده عاشقًا لزوجة أحد أصدقائه**، ورحل معها إلى مدينة أخرى، وأنجب طفلًا أسماه باسمه، وعاش معها حتى ماتت عام ١٨٢٢. بعدها عاد الأب إلى الأسرة.

(١) S. Freud, Leonardo da Vinci (New York: Vintage/Random House, 1947)

إن هذا الموقف ـ خاصة فى المجتمع الأرستقراطى فى ألمانيا فى ذلك الوقت ـ يمثل فضيحة كبيرة، تركت فى نفس فيورباخ جرحًا لم يندمل. وقد حدث ذلك فى الفترة العمرية من ٩ - ١٩ سنة، وهى الفترة التى نتعلم فيها أن **نحترم أو لا نحترم** آباءنا.

٤) كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ -١٨٨٣)



(شكل ـ ٩)
كارل ماركس

تبنى ماركس (شكل - ٩) النظرية التى أطلقها فيورباخ عن الإله؛ إنه «**إسقاط**» لرغبة الإنسان الخفية فى تقديس ذاته. واعتبر أن الدين **عملية مكتسبة** متطورة مثل كل النشاطات الاجتماعية.

كان **والد كارل** ينتمى إلى عائلة يهودية، لكنه تبنى المسيحية بعد أن أدرك أنها توفر حياة أفضل فى ظل ظروف المجتمع. وبالرغم من عدم وجود صراع بين كارل ووالده، فإن موقفه هذا قلل من احترامه له وللطبقة البورجوازية التى ينتمى إليها، وقلل أيضًا من احترامه للديانات بصفة عامة، بالرغم من أنه ظل يعتمد على دعم والده المادى.

لقد فَرَّغَ ماركس موقفه هذا من أبيه بكل ما يمثله (رمز السلطة الإلهية ـ رمز بورجوازى ـ تدنى منزلة الدين) فى **النظرية الماركسية** التى طرحها والتى تتخذ من الإلحاد محورًا لها[١].

٥) هـ. جـ. ويلز H.G. Wells (١٨٦٦ - ١٩٤٦)



(شكل ـ ١٠)
هـ.جـ. ويلز

هو الكاتب والفيلسوف الاجتماعى الإنجليزى الكبير (شكل - ١٠)، كان عظيم التأثير فى الثقافة العامة فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، حتى إن كتبه أدت إلى أن يتبنى البعض الإلحاد، وأن يكتب آخرون مفندين له.

وُلد هـ.جـ. ويلز **لأبوين من الطبقة العاملة**، وكان أبوه بُستانيًّا. وبعد زواجه بستة أشهر فقد **أبوه** عمله واقترض أموالًا أنشأ بها محلًا تجاريًّا. ثم أهمل الوالد المحل وانشغل بلعب الكريكت والمراهنة عليه، ولم يترك لأسرته إلا أقل الوقت، بل

(١) اعتبر بول ڤيتز أن حالة كارل ماركس تمثل دعمًا ضعيفًا لنظريته، يقل عن الحالات الأخرى. وذلك لعدم وجود شواهد على صراع بينه وبين أبيه.

إنه فكر فى بيع المحل لينتقل وحده إلى مكان جديد يبدأ فيه حياته، وأصبحت زوجته هى التى تهتم بالبيت وبالمحل.

وقبل مولد ويلز بعامين، ماتت أخته فى سن التاسعة فجأة بسبب انفجار الزائدة الدودية. **انهارت الأم انهيارًا تامًّا** واعتبرت نفسها مسئولة عن موتها، ثم لامت زوجها الذى لم تجد منه الدعم فى مواجهة هذه الكارثة. عاشت الأم تعتصرها المرارة والنكد وانهار إيمانها بالإله.

وبسبب **ما مر بالأسرة من مصائب** (موت أخته - انهيار إيمان أمه - سلبية أبيه وعدم دعمه لأمه) ثارت فى نفس ويلز **كراهية شديدة للإله**. وقد صرح ويلز بذلك حين وصف حالة أمه وهى تستنجد بالإله فى دعائها، وأيضًا وهى تستنجد بزوجها فى خطاباتها، فيعلق قائلًا: إنها لم تجد الإجابة من كليهما، فهما غير موجودين.

وبعد موت الأب، لم تعكس كتابات ويلز أى حزن ولا ضيق لفراقه.

كبار السياسيين الملاحدة

١) جوزيف ستالين Joseph Stalin (١٨٧٨ - ١٩٥٣)

يلخص أحد أصدقاء ستالين المقربين - والذى عرفه منذ الطفولة - علاقته بأبيه قائلًا:

لقد جعلت **العقوبات الشديدة غير المبررة** التى كان يمارسها الوالد على ابنه من ستالين (شكل - ١١) إنسانًا قاسيًّا لا قلب له، وجعلته يعتقد أن كل أصحاب السلطة يكونون هكذا، مما جعله يكره رؤساءه.

بالإضافة إلى ذلك، كان والد ستالين **كثير الغياب** فى المدن المحيطة فى بعض أعماله، وفى أثناء تواجده كان يشرب الخمر بشراهة **ويضرب أمه** التى كان ستالين ملتصقًا بها ويحبها كثيرًا. وقد أراد هذا الأب الشرس أن يصبح ابنه عاملًا فى مصنع أو إسكافيًّا.

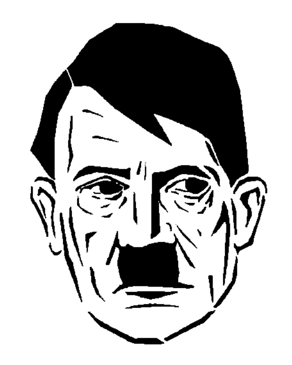
(شكل - ١١)
جوزيف ستالين

كذلك عانى ستالين **مشكلات أخرى** يعانيها بعض الأطفال، كالجدرى الذى ترك بصماته على وجهه، وإصابته فى حادث ترك عاهة مستديمة فى ذراعه الأيسر.

لقد غمرت **والدة ستالين** ابنها الوحيد الباقى على قيد الحياة بالحنان، وحمته من أن يحطم والدُه نفسيتَه، كما **دفعت** ابنها للالتحاق بالكنيسة الأورثوذوكسية، وفى الوقت نفسه **دفعته دراسته فى المدرسة للإلحاد**. وقد تخلى ستالين عن اسم عائلته الأصلى وتَسَمَّى باسم Stalin (الكمة الروسية المقابلة لـ Steel = الصُلب).

وكزعيم سياسى بطش ستالين بالكنيسة الأورثوذوكسية بشدة، وقتل عشرات الآلاف من رجال الدين بطرق قاسية للغاية، حتى صار المثل الأعلى لكل من انتهج أسلوبه من الشيوعيين.

٢) أدولف هتلر Adolf Hitler (١٨٨٩ - ١٩٤٥)



(شكل ـ ١٢)
هتلر

مثل ستالين، كان هتلر (شكل - ١٢) يتلقى **عقوبات شديدة غير مبررة من أبيه**، الذى كان يوصَف بأنه **متسلط أنانى**، لا يهتم بزوجته الأصغر منه كثيرًا ولا يتفهم أبناءه وكان **قاسيًا** مع الجميع، غير متعاطف ضيق الخُلُق.

وكان لهتلر أخ غير شقيق من أبيه أكبر منه، وكان أبوه يضربه بلا رحمة، ففر من البلدة ولم يعد إلا بعد موت الأب. وامتد إيذاء الأب إلى زوجته وإلى كلبه. وبعد فرار الأخ تحمل هتلر كل قسوة الأب.

مات الأب وهتلر فى عامه الرابع عشر، واستكملت الأم تربيته دون وجود لشخصية أبوية أخرى، وكان لهتلر ثلاثة أخوة من أمه ماتوا فى طفولتهم.

مثل ستالين، **دفعت** أم هتلر ابنها **إلى الكنيسة**، التى أصبح **رافضًا لها فى سن النضج**، ومن حينها لم يقل هتلر كلمة طيبة عن المسيحيين. أما **موقفه الكاره الحاقد على اليهودية** فمشهور وغنى عن الوصف، ومع ذلك فقد احتفظ بقدر من الإيمان بالإله.

وقد تأثر هتلر بفيلسوفى العلمانية والإلحاد الكبيرين **شوبنهور ونيتشه**، كما كان محبًّا لهما ناقلًا عنهما عاشقًا لدفاعهما عن الحرية الإنسانية المطلقة.

وإذا كان البعض يُرجع كراهية هتلر للمسيحية إلى جذورها اليهودية وقيودها على الحرية الإنسانية، فإن بول ڤيتز يضيف سببًا آخر لهذا الكره، وهو **رفضه للإله الذى تقدمه المسيحية باعتباره «الأب» الذى يكرهه هتلر من أعماقه.**

٣) ماو تسى تونج Mao Zedong (١٨٩٣ - ١٩٧٦)


(شكل ـ ١٣)
ماو تسى تونج

لم يحمل ماو (شكل - ١٣) أية مشاعر سلبية تجاه المسيحيين أو تجاه الإله باعتباره أبًا، فهذه المفاهيم كانت بعيدة عن بيئته الصينية. لكن طبيعة ماو الثورية وفلسفته الإلحادية كانت ترجع بشدة إلى **علاقته بأبيه وكراهيته الشديدة له.** فقد كان والد ماو يوصف بطاغية العائلة Tyrant، وكان ماو وأمه وأخوته دائمى التمرد على أبيهم. لذا، نقول إن كراهية ماو للسلطة وتمرده عليها يرجع إلى ظروفه العائلية.

ونختم وقفتنا مع إلحاد الطغاة بأن نؤكد أنه غير موجه فى المقام الأول إلى رفض الإله عقليًّا ونفسيًّا، بل إلى **رغبة هؤلاء فى الاستحواذ على السلطة.** وقد رأينا كيف أن هذه الرغبة فى الاستحواذ يقف وراءها منظور التقصير الأبوى.

الملاحدة الجدد

كان **الملاحدة الأولين** فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من المفكرين والصفوة، وكانت الأفكار الإلحادية غير مطروحة إلا فى الجامعات وبين المهنيين.

أما اليوم، فالإلحاد يشمل **دوائر أوسع كثيرًا من العامة،** ويرجع ذلك إلى الإعلام ووسائل التواصل الحديثة، وإلى أن الأفكار الإلحادية وجدت تربة صالحة بين طبقات كثيرة من المجتمع كالشيوعيين وكالباحثين عن اللذة.

وفى عام ٢٠١٠ كتب الإعلامى الكبير توم فلين[١] مقالًا وضع الإلحاد الجديد فى حجمه الحقيقى، جاء فيه: ينبغى أن ندرك خطأ ما يُثار حول حركة الإلحاد الجديد، **فهى ليست جديدة، ولا هى حركة!** الجديد هو إثارة عاصفة عن طريق تركيز **ناشرين كبار** على طباعة وتسويق عدد كبير من الكتب الإلحادية، حتى قرأها الملايين واحتلت قوائم أعلى المبيعات.

وبالرغم من ذلك، فقد لاقى الإلحاد الجديد **شيوعًا وقبولًا فى الغرب،** لعدة أسباب أهمها:

---

(١) Tom Flynn: الكاتب والإعلامى الأمريكى، رئيس مجلس حقوق الإنسان بالولايات المتحدة. ولد عام ١٩٥٥.

١) انهيار مؤسسة الأسرة، وما صاحب ذلك من شيوع **نموذج التقصير الأبوى واختلال نموذج الأم.**

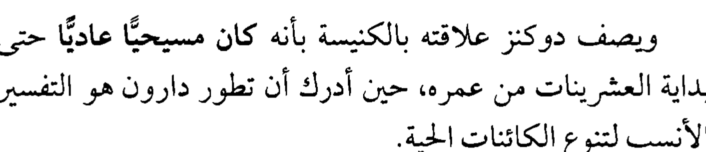
٢) شيوع **الفلسفة المادية المعاصرة** والنسبية الأخلاقية.

٣) نشاط **الناشرين والإعلاميين** المستفيدين من الترويج لهذا الفكر.

وقد اشتهر على رأس الإلحاد الجديد ملاحدة أربعة، نعرض فيما يلى تحليل بول ڤيتز لظروف نشأتهم، لنرى مدى تأثيرها على تبنيهم للإلحاد.

١) ريتشارد دوكنز Richard Dawkins (١٩٤١ -)

ولد دوكنز (شكل - ١٤) فى كينيا لأب يعمل بالجيش الإنجيلزى، وهو ابنه الوحيد. وعندما عادت الأسرة إلى إنجلترا أُلحق دوكنز بمدرسة Oundle، وهى **مدرسة داخلية شهيرة ملحقة بالكنيسة الإنجيلية الإنجليزية.** وكان مستواه الدراسى جيدًا وعُرف فى المدرسة بحبه للبيولوجيا.



ويصف دوكنز علاقته بالكنيسة بأنه **كان مسيحيًّا عاديًّا** حتى بداية العشرينات من عمره، حين أدرك أن تطور داروين هو التفسير الأنسب لتنوع الكائنات الحية.

(شكل ـ ١٤)
ريتشارد دوكنز



لقد أثرت هذه النشأة على دوكنز من خلال **عدة عوامل:**

١) كان التحاقه بالمدرسة الداخلية يعنى انفصاله عن والديه فى العمر الذى تكتمل فيه نظرته لأبيه وأمه وعلاقته بالآخرين (**نظرية الارتباط**).

٢) فى أثناء وجوده فى المدرسة، كان **يُجبَر** على حضور صلوات الكنيسة ضد رغبته.

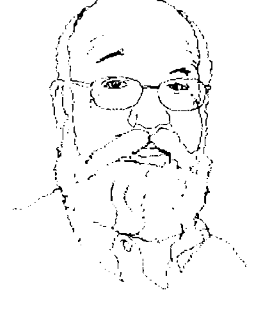
٣) فى الحادية عشرة من عمره، بينما كان تلميذًا فى المدرسة الكَنَسِيَّة، تعرض لتحرش جنسى Sexual Abuse من أحد مدرسيه[1]. وقد صرح دوكنز بنفسه بذلك فى حوار مع مجلة التايمز فى ٧ سبتمبر ٢٠١٣. والعجيب أنه رفض أن يدين هذا التصرف (كما تقول المجلة)[2]. والأغلب أن هذه التجربة قد تركت فى نفسه أثرًا سيئًا للغاية وموقفًا شديد العداء للدين.

(١) R. Dawkins, "Religion's Real Child Abuse", Free Inquiry 22, no.4, (fall 2002:9

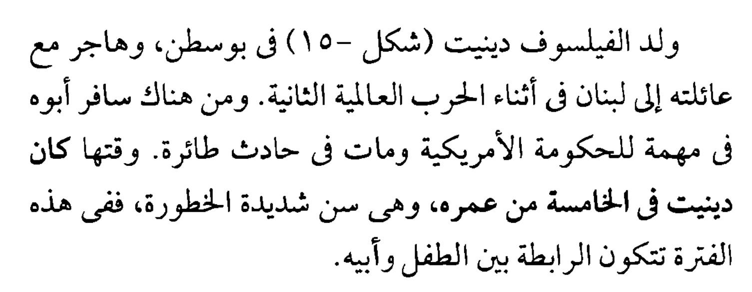
(٢) htt p://www.thetimes.co.uk/tto/magazine/article3858646.ece

من ذلك يمكن القول إنه قبل أن يدرك دوكنز الحجج العلمية والمنطقية وراء الإلحاد، كان لديه بالفعل **موقف نفسى ضد الدين**، مما مهد لتحوله إلى الإلحاد.

٢) دانييل دينيت Daniel Dennett (١٩٦٢ -   )



(شكل ـ ١٥)
دانييل دينيت



ولد الفيلسوف دينيت (شكل -١٥) فى بوسطن، وهاجر مع عائلته إلى لبنان فى أثناء الحرب العالمية الثانية. ومن هناك سافر أبوه فى مهمة للحكومة الأمريكية ومات فى حادث طائرة. وقتها **كان دينيت فى الخامسة من عمره**، وهى سن شديدة الخطورة، ففى هذه الفترة تتكون الرابطة بين الطفل وأبيه.

عاد دينيت مع أمه إلى أمريكا، ويقول عن حياته الجديدة: فى صباى كان عدد من أصدقائى أبناء لأساتذة بارزين فى جامعتى هارڤارد وإم آى تى MIT، وقد أفسدتهم هذه المميزات لِمَا كانوا يلقونه من معاملة خاصة، ولا شك أن **مثل هذه المعاملة كانت ستفسدنى لو كان أبى حيًّا**.

لا شك أن هذا التفسير هو نوع من **التبرير** Rationalisation **والإنكار** Denial لما يعانيه بسبب فقد أبيه.

٣) كريستوفر هتشنز Christopher Hitchens (١٩٤٩ - ٢٠١١)



(شكل ـ ١٦)
كريستوفر هتشنز

الصحفى والإعلامى الأمريكى، إنجليزى المولد، اشتهر بمعاداته للأديان وبهجومه على الأم تريزا[١]، ومات مصابًا بسرطان المرىء.

ينطلق إلحاد هتشنز (شكل - ١٦) من أن **الإيمان بالإله يحطم حرية الإنسان**، لذلك تبنى فى كتاباته (بالإضافة للإلحاد) مهاجمة كل أشكال السلطة. وكان مهتمًا بالعمل الاجتماعى، ثم تركه بعد أن أصبحت الجماعات الاجتماعية مركزًا للسلطة، واتجه للدفاع عن حقوق الإنسان.

أما حياة هتشنز الخاصة فكانت عاصفة. كان **والده** ضابطًا فى البحرية البريطانية، وكانت

(١) الأم تريزا: (١٩١٠ - ١٩٩٧) الراهبة ألمانية الأصل، انفقت معظم عمرها فى رعاية فقراء الهند، حصلت على جائزة نوبل للسلام.

العائلة دائمة التنقل بين القواعد البحرية، وبعد انتهاء خدمته التحق بعدد من الوظائف المحاسبية فى شركات صغيرة.

ويصف هتشنز والده بـ«**الكوماندا** Commader»، وبأنه قليل الكلام، وربما يفسر ذلك كراهية هتشنز للسلطة. وكانت علاقته بوالده ضعيفة لوجوده فى مدرسة داخلية من سن ٨ - ١٨ سنة. ولما كان والده من المعجبين بالرياضة والرياضيين، فقد سبب عزوف هتشنز عن الرياضة جفاءً بينهما. إلا أن هتشنز ظل يحترم أباه بسبب إنجازات الأسطول البريطانى ضد ألمانيا النازية.

وكانت العلاقة بين هتشنز **ووالدته اليهودية** قوية، وكانت هذه السيدة تضج من حياة زوجها العسكرية، وكانت تبحث عن حياة أكثر إثارة. وعندما بلغ هتشنز العشرين من عمره، تركت والدته والده، وتزوجت من رجل دين إنجيلى، يصفه هتشنز بأنه شاعر ورجل حالم.

وعندما بلغ هتشنز الرابعة والعشرين من عمره، **عُثر على والدته وزوج أمه ميتين** فى فندق بأثينا بعد أن تناولا معًا حبوبًا سامة، ومع ذلك اعتبر هتشنز أن زوجها مسئول عن موتها. وقتها كتب هتشنز يقول: «**لم يعد لى عائلة**»، بالرغم من أن أباه كان حيًّا.

وقد انعكس انتحار الأم على كتابات هتشنز، فظهر الانتحار فى كتاباته الغزيرة، وأسماه «**ذبح النفس** Self-Slaughter»، وهو اصطلاح استخدمه شكسبير على لسان هاملت فى مسرحيته الشهيرة.

لقد كان والد هتشنز وزوج أمه الرجلين الممثلين للأبوة فى حياته، ولم يحصل أى منهما عنده على الاحترام الكافى، الذى يمكن أن يبنى عليه احترامه للإله.

٤) سام هاريس Sam Harris (١٩٦٧ -)



(شكل ـ ١٧)
سام هاريس

كان طبيب المخ والأعصاب سام هاريس (شكل - ١٧) متعاطفًا مع البوذية كديانة لا إلهية، وذلك لاهتماماتها الروحية. وكان ناقدًا لاذعًا للمسيحية واليهودية والإسلام، وقد نشأ فى عائلة علمانية لا تهتم بالأديان.

وهاريس حريص على ألا يُعرف عن نشأته شىء، ومن ثم فالمتاح من المعلومات غير كاف للحكم عليه.

هؤلاء هم زعماء الإلحاد الجديد. نفس علة الملاحدة السابقين؛ **أب ميت أو غائب أو ضعيف**، ولم نجد فى هؤلاء الزعماء أبًا ذا علاقة طيبة بابنه.

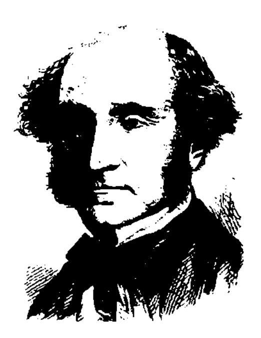
الأب الملحد

فى المجموعات الأربع السابقة عرضنا لشخصيات كان **للتقصير الأبوى فيها دور رئيس «غير مباشر» فى تبنى الابن للإلحاد**. والآن نطرح دور التأثير الأبوى المباشر، بمعنى أن يكون الأب ملحدًا وفى نفس الوقت محل حب وإعجاب الابن، فيدفع ذلك الابن/ البنت مباشرة للإلحاد.

جون ستيوارت مِل John Stuart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣)

لا شك أن من أفضل الأمثلة لتأثير حب وإعجاب الابن بأبيه الملحد هو شخصية الفيلسوف والاقتصادى البريطانى الكبير جون ستيورات ميل (شكل - ١٨).

كان **جيمس مِل James Mill** (١٧٣٣ - ١٨٣٦) والد جون فيلسوفًا ومؤرخًا ورجل اقتصاد كبيرًا ومشهورًا. وفى بداية شبابه درس جيمس الفلسفة والإلهيات، وحصل على ترخيص بالوعظ، ومع ذلك تبنى الإلحاد بسبب مجادلة الشر والألم[1].



(شكل ـ ١٨)
جون ستيوارت مِل

تلقى **جون ستيورات مِل** تعليمه بشكل كامل على يدى أبيه، فتعلم اليونانية فى الثالثة من عمره، واللاتينية فى الثامنة. وفى سن الرابعة عشرة كان قد قرأ كل كلاسيكيات هاتين اللغتين، وقرأ أيضًا التاريخ ودَرَس الرياضيات والمنطق. وقد أُعجب جون **بالفلسفات الراديكالية** التى يتبناها والده وأصدقاؤه المفكرون.

ويكشف لنا جون أن تعليمه كان موجهًا **للعلوم المنطقية والعقلية** على حساب العلوم التى تهتم بالمشاعر والانفعالات كالشعر والأدب. لقد ظل جون طوال حياته مروجًا للمدرسة الفلسفية والأفكار الاجتماعية التى تبناها والده.

---

(١) عدم القدرة على تصور أن يصدر كل ما فى العالم من شرور ومعاناة من إله تصفه المسيحية بأن (الله محبة).

والمدهش أن كتابات الأب جيمس التى نُشرت بعد وفاته كانت أقل رفضًا للإله من تلك التى نشرها فى حياته، بل إنه كان فى بعض الكتابات يقبل بعض الأدلة والشواهد على المفاهيم الغيبية للديانات[1].

ولعل أهم ملمح فى سيرة جون ستيورات مِل ما ذكره فيما بعد من «**أن تعليم أبيه الملحد له وتعلقه به، لم يدعا الإيمان اختيارًا مطروحًا**».

لذلك، عندما استشعر مِل الحاجة إلى المفاهيم الغيبية لم يطرق باب الدين، بل طرق أبواب غيبيات أخرى، كاليوجا وقراءة الفنجان وغيرها، وهو ما يسميه أستاذنا الدكتور عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) «**ميتافيزيقا بغير تكاليف**».

تمثل سيرة هذين الشهيرين، جون ستيورات وأبيه جيمس، نموذجًا مهمًا **لكيف يتلبس الابن شخصية أبيه الملحد**، Identification تمامًا مثلما يتلبس شخصية أبيه المؤمن. وهذا التأثير المباشر يختلف عن التأثير غير المباشر للتقصير الأبوى.

وربما تكون **فيلسوفة الوجودية الفرنسية سيمون دى بوڤوار** مثالًا جيدًا آخر لدور الأب الملحد، وسنتناول هذه الشخصية بعد قليل.

الإلحاد بين الرجال والنساء

لعلك لاحظت قارئى الكريم أن كل الشخصيات التى عرضها بول ڤيتز (حتى الآن) للاستدلال على نظريته فى التقصير الأبوى **كانت من الرجال**. ربما يرجع ذلك إلى **أن المرأة تتقبل بشكل أكبر من الرجال مفاهيم «الخلق والعناية» الإلهية**، بسبب ما يمر بها من خبرات الحمل والولادة والأمومة.

وإذا **كان «مصدر Origin» الخلفية النفسية لتبنى الإلحاد واحدًا** فى كل من الرجال والنساء، وهو منظور التقصير الأبوى واختلال رمز الأمومة، فإن **«استجابة Response» كل من الجنسين تختلف عن الآخر**.

فالرجال ينظرون إلى الإله باعتباره «**مبدأ ـ رمز ـ مصدر**» للقوة والنظام والعدل فى العالم، ثم يأتى بعد ذلك دور التواصل وإقامة العلاقة مع الإله. لذلك يمثل **العقل والمنطق** محور المنظومة الإيمانية عند الرجال.

(١) ظهر ذلك فى أعماله «ثلاث مقالات حول الدين Three Essays on Religion».

أما مع **النساء**، فتأتى **العلاقة النفسية والانفعالية** مع الإله فى المقام الأول، يتلوها النظر للإله كرمز (مصدر) للقوة والنظام والعدل.

لذلك، نجد الرجال يبحثون فى تبنيهم للإلحاد عن (مبدأ ـ رمز) بديل عن الإله يقوم به العالم. فها هى كاترين تيت Catharine Tait ابنة برتراند رَسِل[1] تخبرنا بأن الفيلسوف الكبير كان يجد فى «**الرياضيات**» الحس الدينى الذى يعوضه عن الإله. كما وجد مُنَظِّروا الثورة الفرنسية (كانوا ملاحدة أو شكاكين) فى «**العقل**» البديل المأمول. ويتبنى الملاحدة الجدد «**العلم**»، فيشكلون فى ضوئه رؤيتهم للعالم وفلسفاتهم الشخصية، ولا يكتفون بالنظر إليه كمنهج للحصول على المعرفة.

وتقابلنا غير ذلك بدائل أخرى للإله (الرمز ـ المبدأ) يتبناها الملاحدة، مثل **التقدم، الإنسانية، الاشتراكية، الوجودية،...**

أما الفراغ الذى يسببه الإلحاد فى نفس النساء بسبب فقد «**العلاقة النفسية**» مع الإله فلا بد من ملئه بعلاقة نفسية أخرى، وهذا ما تعبر عنه بشكل مثالى حالة سيمون دى بوڤوار.

لذلك، تعتبر معظم النساء المتبنيات لفكر «**التمركز حول الأنثى** = الأنثوية Feminism» أن **الإله يمثل نوعًا من التسلط والسيطرة عليهن**، وهو جوهر ما يرفضنه فى علاقتهن النفسية بالرجال، فيدفعهن ذلك لتبنى الإلحاد. لذلك، تجد هؤلاء النسوة **البديل النفسى فى الأنثوية**، ويصفنها بأنها «الإلهة الأم God the Mother». وفى صميم بحث هؤلاء الأنثويات عن الاستقلال عن الذكور/ الإله تتعمق علاقتهن بالعالم من خلال المرأة، حتى فى علاقتهن الجنسية (المثلية الأنثوية Lesbianism).

وانطلاقًا من الفرق نفسه بين الذكور والإناث فى النظر للإله (مبدأ ورمز، أم علاقة نفسية وانفعالية وتواصل) نجد أن مفاهيم مثل **الإله القوة المطلقة والذكاء المطلق، ومفهوم الربوبية** الذى ينكر تواصل الإله مع البشر من خلال الديانات، وأيضًا **مفهوم وحدة الوجود** الذى يرى أن الوجود هو الله، مثل هذه المفاهيم لها **أرضية فى الفكر الدينى عند الرجال**، لكنها **شديدة الندرة عند النساء**، إذ تخلو كلها من العلاقة النفسية والتواصل مع الإله.

ولا شك أن نظرة الرجال للإله باعتباره «رمز»، ونظرة النساء له باعتباره علاقة نفسية، يقف وراءها **الاختلاف بين طبيعة المخ/ العقل الذكورى، والمخ/ العقل الأنثوى.**

(١) فى كتابها «أبى برتراند رَسِل».

ففى هذا المجال نجد عالِم النفس البريطانى **سيمون بارون كوهين**[1] Simon Baron Cohen الأستاذ بجامعة كامبريدج يصف المخ/ العقل الذكورى بأنه مخ / عقل «**تنظيمى Systematizing**» يغلب عليه الاهتمام بالقوة والصراع وبالإنجاز، وبالفكر المجرد، والملكات التنظيمية، كما يتفوق فى الرياضيات والعلوم التجريبية، وتمثل له اللغة وسيلة لنقل المعلومات. أما **المخ/ العقل الأنثوى** فهو مخ/ عقل «**تعاطفى Empathizing**» يغلب عليه الاهتمام بالعلاقة مع الآخرين، وبالمفاهيم الإنسانية، ويتفوق فى العلوم الإنسانية والاجتماعية وفى الأعمال التى تتطلب هذه الملكات، وتمثل اللغة بالنسبة لهذا المخ/ العقل وسيلة للتواصل وإقامة العلاقة مع الآخرين.

ولا شك أن كل من المخين/ العقلين يشتمل على النوعين من المهارات التنظيمية والتعاطفية، ولكن مع اختلاف الدرجة والأولوية.

سيمون دى بوفوار Simone de Beauvoir (١٩٠٨ - ١٩٨٦)



(شكل - ١٩)
سيمون دى بوفوار

كانت سيمون دى بوفوار (شكل - ١٩) إحدى أشهر المفكرات فى القرن العشرين، وكانت رفيقة **جان بول سارتر** الشهيرة التى دافعت بشدة عن **فلسفته الوجودية**. ويُعتبر كتابها «الجنس الثانى The Second Sex» من أهم الكتب الملهِمة فى حركة «التمركز حول الأنثى» وفى الثورة الجنسية فى نهاية ستينيات القرن العشرين.

لقد كانت سيمون ملحدة، ولا شك أن **الإلحاد** هو أهم المفاهيم فى **الفلسفة الوجودية**، وأيضًا فى **الماركسية** التى تبناها كل من سارتر وسيمون مثل الكثير من المفكرين الفرنسيين فى ذلك الوقت.

ولدت سيمون لعائلة من الطبقة البرجوازية، وجاهد الوالدان ليحافظا على دخل يكفى أفراد الأسرة. كان أبوها محاميًا وكان شكاكًا. وقد تأثرت سيمون بأمها إلى حد بعيد، وقد رَبَّت **الأم** ابنتيها تربية كنسية ملتزمة ، حتى إن سيمون كانت فى صغرها سعيدة ومطمئنة بعلاقتها بالكنيسة، وكانت تحلم بأن تصبح راهبة.

وبينما **كانت الأم لصيقة بابنتها**، وكانت تحضر معها دروس المدرسة حتى سن العاشرة

(١) فى كتابه The Essential Differences, 2003

وتقرأ خطاباتها حتى سن الثامنة عشرة، فعلى العكس، كانت علاقة سيمون بأبيها ضعيفة، **وإن كان شك الأب فى الدين معروفًا لسيمون** وكان شديد التأثير عليها.

وقبل العشرين من عمرها، بدأت سيمون تستنكر استئثار الرجال بالمعرفة وبالحقيقة، نتيجة لما تراه من سيطرة الرجال على الكنيسة. وفى تلك المرحلة تركت سيمون الدين، وكانت تقول: «**لقد مهد شك أبى لى الطريق**، فما كنت أجرؤ أن انطلق وحدى فى هذا الطريق الشائك، لقد شعرت براحة كبيرة عندما تحررت من قيود الأنوثة ومن قيود طفولتى».

كانت سيمون فى العشرين من عمرها حين التقت بسارتر الذى كان يكبرها بثلاث سنوات. لقد انطلقت تجاهه بشدة كالسهم وذابت فيه تمامًا. وكتبت سيمون فى مذكراتها قائلة: «كانت ثقتى فى سارتر مطلقة، لقد أمدنى بالطمأنينة الكاملة التى لم أعد أجدها فى عائلتى ولا فى الإله». وقد ظل **ولاء سيمون لسارتر** طوال عمرها، كولاء زوجة مسيحية مطيعة لزوجها، بالرغم من العلاقات العاطفية التى كان يقيمها كل منهما مع آخرين من حين لآخر.

كيف نفسر ولاء وإخلاص سيمون (اللذين لم يهتزا) لسارتر؟!

وتتساءل تورى مورى Tori Mori، إحدى الأنثويات اللاتى كتبن عن سيمون: لماذا لم تكن سيمون تدع فرصة **إلا وتؤكد أنها أدنى فكريًا من سارتر؟!**

الإجابة عن السؤالين باختصار، **أن سارتر «قد صار إلهها Her God»**.

وإذا كان شك والد سيمون فى الإله قد مهد لها طريق الإلحاد (مثلها مثل الرجال)، فإن بول ڤيتز يركز فى عرضه لحالة سيمون دى بوڤوار على إظهار اختلاف موقف كل من الرجال والنساء الملاحدة بعد أن يرفضون الإله. إن سيمون «استبدلت Substituted» بعلاقتها النفسية بالإله علاقتها بسارتر، وقد حافظت طوال حياتها بإخلاص على هذا الارتباط، الذى تشكل فى بداية حياتها الفكرية. وبالمقارنة، وضع سارتر إلحاده (علاقته بالإله كمبدأ وكرمز) فى قلب فلسفته الإلحادية. وبينما كان شعار سارتر «**الجحيم هو الآخرون** Hell is Other People»، رفعت سيمون شعار «**الجنة هى الآخر** Heaven is the Other Person» تقصد سارتر.

المتدينون وآباؤهم

لا يكفى الطرح السابق لملاحدة تربوا فى ظل التقصير الأبوى لإثبات نظرية بول ڤيتز، فربما كانت **الظروف المجتمعية السائدة** فى حياة هؤلاء الملاحدة هى دافعهم للإلحاد. ولتحييد دور هذا العامل قام بول ڤيتز بدراسة ما يُعرف فى البحث العلمى بـ«**المجموعة الحاكمة** Control Group»، وفيها قام بدراسة علاقة مجموعة من **المتدينين الذين دافعوا بإخلاص عن الدين** بآبائهم فى السنوات الأولى من حياتهم، على أن يكون هؤلاء قد تعرضوا لنفس الظروف الاجتماعية لمجموعة الملاحدة (نفس الفترة الزمنية: خلال ثلاثة قرون مضت، ونفس طبيعة المجتمعات).

وبعد **تحييد العوامل المجتمعية**، لم يبق إلا تأثير علاقة أفراد المجموعتين (الملاحدة والمتدينين) بوالديهم. وقد أثبتت دراسة حالات هذه المجموعة أن **تدين الأب قد أدى إلى تدين الابن**، ما يعزز فكرة أن تقصير الأب أو إلحاده يؤدى إلى إلحاد الابن.

وتتكون هذه المجموعة من ٢١ حالة، لن نعرض أمثلة كثيرة منها، فالتدين ليس موضوع كتابنا، لذلك سنكتفى بعرض تحليل بول ڤيتز لحالتين، إحداهما لعالم رياضى والأخرى لفيلسوف، كان أبواهما متدينين، فشبا مدافعين بقوة عن الدين.

بليز باسكال Blaise Paskal (١٦٢٣ - ١٦٦٢)

كان الرياضى والفيزيائى الفرنسى الشهير باسكال (شكل - ٢٠) مفكرًا دينيًّا شهيرًا، ومدافعًا عن المسيحية فى وقت سادت فيه الأفكار الشكية بلدته باريس.



(شكل - ٢٠)
بليز باسكال

لقد كان إتْيَّن Etienne **والد باسكال** قاضيًا ثريًّا، كما كان رياضيًّا وفيزيائيًّا، وكان يكتب الشعر باللاتينية واليونانية، وقد لُقِّبَ **بالرجل الفاضل والكاثوليكى الطيب**.

ماتت **والدة باسكال** وهو فى الثالثة من عمره، فتولى الأب تعليم أبنائه. وكانت النتيجة أن نبغ باسكال فى العلوم والرياضيات.

وعندما بلغ باسكال الثامنة والعشرين من عمره، مات أبوه فى حضوره، فكتب قصيدة رثاء يرثيه فيها بعنوان «**موت مسيحى** The death of a Christian»، وأرسل القصيدة إلى أخته وزوجها يخبرهما بوفاة والدها.

كانت حياة باسكال حياة صبى **أحبه أبوه فبادله الحب، وأحب توجهاته الدينية، ودافع عنها**.

ويليام بيلى William Paley (١٧٤٣ - ١٨٠٥)



(شكل - ٢١)
ويليام بيلى

هو رجل اللاهوت والفيلسوف الأخلاقى البريطانى الكبير (شكل - ٢١)، صاحب الكتاب الشهير: «اللاهوت الطبيعى Natural Theology».

كان والد بيلى رجل دين فى الكنيسة الإنجليزية وكان يمتلك مدرسة. وعندما تجاوز بيلى الخمسين من عمره مات والده فى الثامنة والثمانين، فقام بيلى بعمل أبيه فى الكنيسة. وبعدها بثلاث سنوات ماتت أمه.

كان بيلى التلميذ الأول فى مدرسة أبيه، ثم فى مدرسة أبردين Aberden ثم فى جامعة كمبردج. وكان والده يتنبأ له بمستقبل عظيم؛ لأنه «**له عقل جبار لم أر مثله**». تزوج بيلى وأنجب تسعة أبناء، وكما كان رجل دين مثاليًّا فقد كان زوجًا وأبًا مثاليًّا.

إن الحالات التى درسها بول ڤيتز فى هذه المجموعة (٢١ حالة) لفلاسفة ومفكرين وعلماء فى الفترة من القرن ١٧ - ٢٠ **تعكس دور العلاقة الإيجابية الطيبة بين الأب وابنه، أو مع بديل لأبيه. ولا توجد فى المجموعة كلها حالة واحدة توفى أبوها مبكرًا أو هجر ابنه أو كان ضعيفًا أو أساء معاملته.**

وقد وجد ڤيتز فى حالة غياب الأب أن قيام شخص آخر بدوره بكفاءة يقلل القابلية للإلحاد بشكل كبير. وقد أثبت ڤيتز وجهة نظره هذه من خلال ثلاث حالات فى هذه المجموعة.

كما تعكس حالات هذه المجموعة أن هؤلاء المؤمنين كانوا على **علاقات طيبة داعمة مع الآخرين طوال حياتهم**. وهذا يتماشى مع النظرية؛ فمن عانوا التقصير الأبوى كان من الصعب عليهم إقامة علاقات اجتماعية قوية، مثلما عجزوا عن إقامة علاقات مع الإله.

وفى ختام عرضنا لنظرية التقصير الأبوى لعَالِم النفس بول ڤيتز، نؤكد أن **ما قدمه من أمثلة للاستدلال على نظريته كافٍ تمامًا لإثبات ما ذهب إليه مِن طرح** خال من تُرَّهات الرغبة الجنسية اللاشعورية فى الأم، وخال من الطبيعة الصراعية التنافسية فى العلاقة بين الابن والأب. إنه طرح سهل بسيط مفهوم، يتلخص فى **أن الطفل، أو الصبى والفتاة،، إذا صُدم فى أبيه وأصيب بخيبة أمل، فإنه يفقد احترامه لهذا الأب، وبالتالى يستحيل الإيمان بالمقابل الذى فى السماء».**

القارئ الكريم

عرضنا فى هذا الفصل «**نظرية التقصير الأبوى**» التى قدمها عالم النفس بول ڤيتز لتفسير أحد أهم الأسباب النفسية التى تمهد لتبنى الإلحاد. وقد انطلق ڤيتز فى نظريته من إشارة ألمح إليها فرويد من أن الصبية يفقدون إيمانهم بالإله فور أن ينكسر داخلهم الشعور بسلطة الأب.

وللاستدلال على صحة نظريته، ساق بول ڤيتز الأدلة من خلال التحليل النفسى لشخصيات من مشاهير الملاحدة الذين تركوا بصماتهم فى بنية الحضارة المادية المعاصرة فصبغوها بطابعها الإلحادى.

وقد ظهر التقصير الأبوى بوضوح فى سِيَر هؤلاء المشاهير، وأخذ التقصير فى هذه الحالات أحد ثلاثة أشكال. أولها **أن الطفل، الصبى والفتاة، إذا صُدم فى أبيه وأصيب بخيبة أمل، فإنه يفقد احترامه لهذا الأب، وبالتالى يستحيل الإيمان بالمقابل الذى فى السماء**، وإما أن الأب كان **ضعيفًا جبانًا**، أو **سيئ السلوك** لا يستحق الاحترام، حتى وإن كان ظريفًا ومحبوبًا، وإما كان **الأب غائبًا عن العائلة**، إما بالموت، أو بالهجر بحثًا عن ملذاته أو هروبًا من مسئولياته.

ويؤكد بول ڤيتز أن دور التقصير الأبوى فى تبنى الإلحاد **ليس حتميًّا**، يُلزم أن يتبنى الابن الإلحاد. فهناك دائمًا **مجال لحرية الإرادة والاختيار** بين الإيمان والإلحاد، إن ذلك يعنى أن التقصير الأبوى «**ييسر**» طريق الإلحاد.

معنى ذلك أن **العوامل المساعدة لا تلغى المسئولية الفردية**، سواء فى الإلحاد أو فى الإيمان، أى أن «**وجود التفسير ليس عذرًا**».

وإذا كان التقصير الأبوى يؤدى إلى رد فعل للابن «**رافض**» للسلطة الأبوية والإلهية، فإن العلاقة الطيبة العميقة بالأب يمكن أن تؤدى إلى رد فعل منسجم متناغم. ويسوق بول ڤيتز الأمثلة التى تبين توجه هؤلاء الأبناء إلى الإلحاد إن كان آباؤهم ملاحدة، وتوجههم إلى الإيمان إن كان آباؤهم مؤمنين.

ومن أمتع جوانب الدراسة ما بَيَّـنَه بول ڤيتز من اختلاف نظرة كل من الرجال والنساء للألوهية، ومن ثم اختلاف توجهاتهم إذا تبنوا الإلحاد.

فالرجال ينظرون إلى الإله باعتباره «**مبدأ ـ رمز ـ مصدر**» للقوة والنظام والعدل فى العالم، ثم يأتى بعد ذلك دور التواصل وإقامة العلاقة مع الإله. لذلك، يمثل **العقل والمنطق** محور المنظومة الإيمانية عند الرجال.

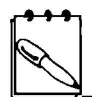
أما مع **النساء**، فتأتى **العلاقة النفسية والانفعالية** مع الإله فى المقام الأول، ويتلوها النظر للإله كرمز (مصدر) للقوة والنظام والعدل.

لذلك، نجد الرجال يبحثون فى تبنيهم للإلحاد عن (مبدأ ـ رمز) بديل عن الإله يقوم به العالم. أما الفراغ الذى يسببه الإلحاد فى نفس النساء بسبب فقد «**العلاقة النفسية**» مع الإله فلا بد من ملئه بعلاقة نفسية أخرى، وهذا ما تعبر عنه بشكل مثالى حالة سيمون دى بوڤوار.

ولا شك أن **ما قدمه بول ڤيتز من أمثلة للاستدلال على نظريته كافٍ تمامًا لإثبات ما ذهب إليه مِن طرح** خال من تُرَّهات الرغبة الجنسية اللاشعورية فى الأم، وخال من الطبيعة الصراعية التنافسية فى العلاقة بين الابن والأب. إنه طرح سهل بسيط مفهوم، يتلخص فى **أن الطفل، أو الصبى والفتاة،، إذا صُدم فى أبيه وأصيب بخيبة أمل، فإنه يفقد احترامه لهذا الأب، وبالتالى يستحيل الإيمان بالمقابل الذى فى السماء**».

* * *

الفصل السادس



الإلحاد والدوافع الشخصية

- تجربة بول ڤيتز الشخصية
- **التحلل الأخلاقي**
  - الحياة بوجهين
    - شخصيات ذات وجهين
    - إرادة القبح
  - الحداثة، محاولة لتبرير الانحرافات الجنسية
    - فليحيا الزنا!! بالعافية!!
    - تقرير كنزي المضلل
    - تقنين الشذوذ الجنسي
    - الشذوذ الجنسي والحداثة
- **التمركز حول الذات**
  - الشعور بالنقص، والشبق إلى الشهرة
    - شخصيات متمركزة حول ذواتها
  - كراهية الكمالات والفضائل
  - الحياة الطويلة الرغدة
- **الأسباب العقلية (البيولوجية) للإلحاد**
  - التوحد Autism
    - التوحد والتدين
  - هل الملاحدة هم الأذكياء؟!
    - الملاحدة واختبارات الذكاء
- **حرية الإرادة والاختيار**
- **القارئ الكريم**

«هناك نوعان من المفكرين، هؤلاء الذين **يشكلون رغباتهم تبعًا للحقيقة**، وهؤلاء الذين **يشكلون الحقيقة تبعًا لرغباتهم**. وبين هؤلاء وهؤلاء يوجد طيف واسع من الأنماط الفكرية»

تثير دهشة المهتمين بقضايا الإلحاد إلى حد بعيد ضحالة وسطحية ما يقدمه الملاحدة من حجج موضوعية (علمية وعقلية) لإلحادهم. ويزيد من الدهشة أن معظم هؤلاء قد اتخذوا **قرارًا حاسمًا بالرفض فى أخطر قضايا الوجود الإنسانى**، وهى قضية الألوهية، دون أن يبذلوا أدنى جهد فى البحث لتحرى صحة ما يُثيرونه من حجج!

والمتابع للدراسات حول الإلحاد يجد أن علوم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والطب النفسى تركز فى مراجعها فى السنوات الأخيرة على **الدوافع النفسية والشخصية والاجتماعية** للإلحاد، باعتبارها العامل الأول للانحراف عن فطرة الإيمان بالإله. ويتبنى المتخصصون فى هذه العلوم أن الحجج المعرفية التى يطرحها الملاحدة تأتى **كقناع Persona** تختفى وراءه الدوافع النفسية والشخصية لإلحادهم.

وقد ناقشنا فى الفصلين الرابع والخامس دور **العوامل النفسية** فى **المنظومة الإلحادية**، وكيف أنها تشارك إلى حد بعيد فى تشكيل البنية النفسية للإنسان منذ طفولته، تلك البنية التى هى بمثابة التربة التى تنمو فيها بذور الإيمان وبذور الإلحاد.

وفى هذا الفصل، ننتقل لمناقشة **دوافع الإلحاد الشخصية**، التى هى بمثابة منشطات النمو (كالماء والسماد) لما يُلقى فى التربة من بذور. وتتركز هذا المنشطات حول **إمتاع الذات حسيًّا ونفسيًّا**.

تجربة بول ڤيتز الشخصية[1]

من المفاهيم السائدة فى الأوساط الفكرية الغربية، أن **الإيمان بالإله** ينطلق من قصور فكرى ورغبات وأحلام غير ناضجة، بينما ينطلق **الإلحاد والشك** من نضج فكرى ودوافع موضوعية. يناقش بول ڤيتز[2] هذا المفهوم ويثبت خطأه، كما يناقش بعض الدوافع الشخصية/ الاجتماعية وراء الإلحاد من خلال تجربته الشخصية. يقول بول ڤيتز:

(١) عن كتاب بول ڤيتز Fath of the fatherless, Ignatius Press, San Francisco, 2nd ed, 2013

(٢) Paul Vitz: (١٩٣٥ -) تعرفنا إليه فى الفصول السابقة كأحد أكبر علماء النفس الذين اهتموا بالدوافع النفسية والشخصية للإلحاد، وهو واضع نظرية التقصير الأبوى.

نشأتُ **نشأة دينية مسيحية سطحية**، وفى خمسينيات القرن العشرين حينما كنت طالبًا فى الجامعة **أصبحت ملحدًا**، وبقيت هكذا طوال سنوات الدراسة والسنوات الأولى من تدريبى فى مجال علم النفس التجريبى فى جامعة نيويورك. وفى أواخر الثلاثينات من عمرى **عدت إلى دائرة الإيمان المسيحى**، فى وسط يعصف بالعلمانية فى قسم علم النفس وفى مدينة نيويورك.

وعندما أتأمل الفترة الشَكِّية الإلحادية فى حياتى (١٨-٣٨ سنة)، أجد أن **دوافعى كانت سطحية وغير منطقية**، غير متماسكة عقليًا ولا أخلاقيًا. وهذه الدوافع هى نفس ما أرصده فيمن حولى من غير المؤمنين من المهتمين بعلم النفس وعلم الاجتماع.

إن **الأسباب الرئيسة وراء إلحادى**، والتى لم أكن واعيًا بها حينها، هى:

١) عوامل شخصية/ اجتماعية عامة General Socialisation

كانت حياتى الاجتماعية فى صباى **غير سهلة**. فقد **كنت محبَطًا** أن كنت من أواسط الغرب الأمريكى Middle West الذى اشتهر بكسل أهله وبلادتهم وقرويتهم. كذلك لم يكن شيئًا مثيرًا ولا رومانسيًّا أن تكون من مدينة Cincinnati بولاية أوهايو، ومن عائلة أصولها خليط غامض من الألمانية والإنجليزية والسويسرية. باختصار كنت أنتمى إلى **طبقة متوسطة بائسة محبطة**.

وعندما انتقلت إلى ميتشجان، حاولت أن **أتأقلم مع المجتمع الجديد العلمانى البراق المثير**. لاشك أن مثل هذه الخلفية وهذه النقلة قد عاشها **العديد من الشباب** الذين كانوا يحلمون بالترقى طوال القرنين السابقين. ومن هؤلاء المفكر الفرنسى **ڤولتير**، الذى انتقل إلى باريس الأرستقراطية المتألقة المتكلفة، وقد ظل يشعر بالإحباط بسبب أصوله الريفية غير الأرستقراطية. ومن هؤلاء أيضًا أولئك الذين هجروا **جيتو اليهودية** الذى نشأوا فيه وتربوا على مفاهيمه الأصولية المحبِطة.

لقد دفعت هذه الضغوط الاجتماعية الكثيرين بعيدًا عن الإله، وعن كل ما يمثله الدين من قيم. وما زلت أذكر الحلقة النقاشية Seminar التى شاركت فيها عند تخرجى فى المدرسة، وفى الحلقة عبر كل فرد عن **ضيقه وارتباكه فى مواجهة الظروف الاجتماعية الجديدة** عندما انتقل من منشئة، وكيف تعامل مع هذه النشأة، وكنت أنا أحد المتحدثين.

٢) عوامل شخصية/ اجتماعية خاصة Special Socialisation

عامل مهم آخر فى توجهى للإلحاد، كان رغبتى فى أن **ألقى قبولًا فى أوساط علماء النفس الكبار المؤثرين**، خاصة أساتذتى فى الدراسات العليا الذين تأثرت بفكرهم خلال فترة دراستى الأكاديمية لعلم النفس.

أما أساتذتى فى ستانفورد، الذين كانوا كثيرى الاختلاف حول النظريات العلمية، فقد كانوا متفقين فى جانبين اثنين: طموحهم العملى المشتعل، ورفضهم الدين. وكما تعلمت أن «أرتدى» الثياب الملائمة لطالب الدكتوراه، فقد تعلمت كيف «أفكر» كنفسانى يحسن عرض الأفكار الإلحادية ويحسن السلوك تبعًا لها.

٣) الاستقلال الذاتى Personal Independence

لا شك أن السمة الشخصية السائدة فى المجتمع الغربى الآن هى «**أن تصنع نفسك**»، هذا الشعور الذى تأسس فى ظل حرب الاستقلال الأمريكية والثورة الفرنسية[1].

لقد أصبح المواطن الغربى المعاصر يسلك وكأنه مبرمج:

No – one – Tells – me – what – to – do

لا – أحد – يخبرنى – ماذا – أفعل

ولا شك أن هذا الختم (الأكليشيه) يناسب تمامًا نفسية شاب يافع يعمل فى علم النفس. **إنها الرغبة فى التحرر التى تدعم رفض الإله**[2].

٤) الملاءمة الشخصية Personal Convinience

كعامل أخير للدوافع السطحية ظاهريًا العميقة تأثيرًا، يأتى دور الملاءمة والارتياح الشخصيين.

ليس من السهل بتاتًا أن تصبح متدينًا فى مجتمع علمانى وثنى. فللاحتفاظ بتدينك فى هذا العالم سيكون عليك **أن تتنازل عن الكثير من اللهو والوقت الممتع**. وبدون الدخول فى التفاصيل، سيكون

(١) ظهرت بعض هذه الملامح فى الشباب العربى عقب ما عُرف بثورات الربيع العربى.

(٢) هذا ما أسميه «إلحاد التمرد»، وهو سمة غالبة فى الملاحدة من المراهقين العرب.

عليك التضحية بالاستمتاع بالجنس، بالإضافة إلى **التضحية** ببعض الوقت والمال للمشاركة فى خدمة الكنيسة ولقاءاتها، وللصلاة وقراءة الكتاب المقدس وشروحه، ومساعدة الآخرين.

لقد كنت مشغولًا للغاية، ومن ثم لم يكن التدين ملائمًا لى شخصيًّا!!

قد تعتبر أن الأسباب السابقة قاصرة على شاب فى العشرينات قليل الخبرة مثلى، لكن هذه الأسباب فى الحقيقة أكثر عمومية من الاقتصار على هؤلاء.

انظر إلى الفيلسوف والمفكر والكاتب الأمريكى الشهير مورتيمر أدلر[1] Mortimer Adler الذى أنفق معظم حياته يفكر فى الإله وفى الموضوعات الدينية. فمن أشهر كتب أدلر (١٩٨٠) «كيف تفكر فى الإله؟ دليل لوثنىّ القرن العشرين»[2]، فى هذا الكتاب يقدم أدلر أدلة قوية للغاية على الوجود الإلهى، حتى يصبح قريبًا جدًّا من الإيمان بالإله، لكنه يتراجع!، ويفضل أن يبقى ضمن (الأغلبية العظمى من غير المتدينين). وتدرك بوضوح من خلال الكتاب أن دوافع أدلر الإلحادية كانت «**رغبة واختيار Will**»، أكثر منها «**اقتناع عقلى Rational**»، ويصرح بذلك فى سيرته الذاتية. ويخبرنا آدلر صراحة: أن تصبح متدينًا يتطلب تغييرًا جذريًّا فى طريقة حياتك، **إنه نمط حياة جديد، لم أكن «أريد» أن أحياه.**

ويلخص بول ڤيتز دوافعه الشخصية/ الاجتماعية للإلحاد قائلًا:

لقد أصبحت ملحدًا بسبب عوامل سطحية فعالة!:

- احتياجاتى الاجتماعية لأن أتأقلم مع المجتمع.
- واحتياجاتى المهنية لأن أصبح عضوًا فى المجتمع النفسى الأكاديمى.
- وأن أحيا حياتى تبعًا لنمط معيشى يُمتعنى.

وبذلك يمكن القول إن تبنى الإلحاد كان «**قرار شاب مراهق**»، وظل هكذا بالرغم من تجاوزى سن المراهقة.

ما أروع تحليل بول ڤيتز، الذى أقنعنى فيه بشدة أن دوافعه الإلحادية كانت نفسية شخصية اجتماعية أكثر منها عقلية منطقية.

---

(١) Mortimer Adler: (١٩٠٢ - ٢٠٠١).

(٢) How to think about God? , A guide for 20th century Pagan

التحلل الأخلاقى[1]

الحيـاة بوجهين

فى عام ١٩٨٨، نشر الكاتب ومـؤرخ القـرن العشرين الإنجليزى الكبير بول جونسون Paul Johnson[2] كتابه القيم «المفكرون Intellectuals»[3]، الذى يصفه بأنه «دراسة للمفاهيم الأخلاقية والفكرية لعدد من كبار علماء وفلاسفة ومفكرى الإنسانية، بهدف الخروج للبشرية بدروس عن كيف تدير شئونها».

والكتاب (عبر ٣٤٢ صفحة) هو عملية كشف لسلوكيات بشرية كريهة وغير أخلاقية، تتأذى النفس من مطالعتها. والمشكلة ليست فى التفاصيل الدنيئة والخسيسة لهؤلاء الأفراد، لكن تكمن المشكلة فى أن الإنسانية تعتبر هؤلاء من أبطالها ورموزها الفكرية وبناة حضارتها، بل قام هؤلاء برسم خارطة الطريق للبشرية.

ستفاجأ ـ قارئى الكريم ـ بل ستُصدم، حين تكتشف أن العديد من الرموز الفكرية للبشرية كانوا إباحيين، وكانوا أنانيين مغرورين، وأن اهتمامهم المزعوم بالإنسانية كان كذبًا ونفاقًا يختفى وراءه قدر كبير من القسوة واللامبالاة بأقرب الناس إليهم، خاصة أفراد عائلاتهم. هكذا يصفهم بول جونسون.

لذلك، لم يكن غريبًا أن يتبنى هؤلاء الإلحاد.

شخصيات ذات وجهين

من أهم الشخصيات التى تناولها بول جونسون للاستشهاد على دعواه:

جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau[4]

كان الفيلسوف والمفكر روسو شديد الزهو والاختيال، لا يتحمل المسئولية؛ فقد أنجب خمسة أطفال غير شرعيين تركهم فى ملاجئ الأيتام، وهو ما كان يعنى فى أيامه الموت المبكر.

(١) المرجع الرئيس لهذا الموضوع هو كتاب: صناعة الملحد The Making of an Atheist, Moody Publishers .Chicago, 2010 تأليف جيمس سبيجل James Spiegel أستاذ الفلسفة والأديان الأمريكى بجامعة أبلاند، بولاية إنديانا.

(٢) Paul Johnson: ولد عام ١٩٢٨.

(٣) Intellectuals, Paul Johnson (New York: Harper and Row, 1988)

(٤) Jean Jacques Rousseau: (١٧١٢ - ١٧٧٨) فيلسوف الاستنارة والثورة الفرنسية.

بيرسى بيسش شيلى Percy Bysshe Shelley [1]

كان الشاعر شيلى محتالًا مدمنًا الخمر، عصبى المزاج. وكان مدمنًا الزنا؛ أنجب من ثلاث نساء سبعة أطفال أهمل تربيتهم، ومات أحدهم ولم يتجاوز من العمر ثمانية عشر شهرًا فى ملجأ للأيتام.

كارل ماركس Karl Marx [2]

كان ماركس معاد متطرف للسامية، أنانى كسول، مستغل لأصدقائه، فاسق داعر، كثير الخيانة لزوجته، ترك طفلًا غير شرعى ورفض الاعتراف به.

ليو تولستوى Leo Tolstoy [3]

كان الأديب الروسى الكبير مصابًا بداء العظمة، وكان مقامرًا مزمنًا، وزانيًا مغتصبًا للنساء، وكان يحتقرهن ويحتقر ويزدرى زوجته.

هنريك إبسن Henrik Ibsen [4]

كان إبسن مزهوًا مختالًا، وكان حقودًا لا قلب له، زير نساء، لا يبالى إلا بالمال، يحتقر الفقراء والمحتاجين حتى لو كانوا من عائلته.

إرنست هيمنجواى Ernest Hemingway [5]

كان سلوك الأديب الإنجليزى الكبير يخالف اسمه (مخلص = Ernest)، فقد كان كذوبًا، يحتقر النساء، فاسقًا داعرًا، مدمنًا الخمر، فدمر نفسه.

برتراند رَسِل Bertrand Russell [6]

كان رَسِل يحتقر النساء، وكان زانيًا مزمنًا ومغتصبًا، خاصة تلميذاته الصغيرات، حتى فى سنه الكبيرة.. وبالرغم من ذلك استاء عندما مارست إحدى زوجاته الزنا.

(١) Percy Bysshe Shelley: (١٧٩٢ - ١٨٢٢) شاعر الرومانسية الإنجليزى.
(٢) Karl Marx: (١٨١٨ - ١٨٨٣) الفيلسوف والاقتصادى الألمانى - واضع مذهب الماركسية.
(٣) Leo Tolstoy: (١٨٦٢ - ١٩١٠) الأديب الروسى الشهير.
(٤) Henrik Ibsen: (١٨٢٨- ١٩٠٦) الكاتب المسرحى النرويجى الأشهر.
(٥) Ernest Hemingway: (١٨٩٩ - ١٩٦١) القصصى والصحفى الأمريكى، الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب، مات منتحرًا.
(٦) Bertrand Russell: (١٩٥٢ - ١٩٧٠) الفيلسوف ورجل المنطق والرياضى البريطانى، الحاصل على جائزة نوبل للسلام.

جان بول سارتر Jean Paul Sartre [1] وسيمون دى بوڤوار Semone de Beauvoir [2]

كان فيلسوف الوجودية سارتر فاسقًا ومغامر جنس حتى مع تلميذاته، لذلك كان سهل المنال لعشيقته سيمون دى بوڤوار، التى اشتهرت بعلاقاتها الجنسية المتعددة بالرجال، حتى إنها مُنعت من التدريس لعلاقاتها الإباحية بتلاميذها.

آرثر شوبنهور Arthur Schopenhauer [3]

أصيب شوبنهور بمرض الزهرى الجنسى نتيجة لإباحيته الجنسية. وكان من الداعين لزواج أكثر من رجل من امرأة واحدة Tetragamy، مثله فى ذلك مثل كثير من الملاحدة الذين يؤيدون العلاقات الجنسية المتعددة لكلا الجنسين Polyamory.

فريدريخ نيتشه Friedrich Nietzsche [4]

يذكر فرويد وكارل يانج أن نيتشه قد أصيب بالزهرى نتيجة لعلاقة جنسية مثلية فى جنوه بإيطاليا. وكان من المؤيدين للعلاقات الجنسية مع المراهقين.

المركيز دى صاد The Marquis de Sade [5]

اشتهر المركيز دى صاد بشذوذه وعدوانيته الجنسية حتى عُرف أحد أنواع الانحراف الجنسى والنفسى باسمه (السادية)، وكان من الداعين للإجهاض. وقد رفض الألوهية؛ لأنها تضع قيودًا على رغباته الجنسية.

مارجريت سانجر Margaret Sanger [6]

مارجريت سانجر من الأسماء الشهيرة فى الدعوة للإباحية والتعددية الجنسية، مع الدعوة إلى إلغاء مؤسسة الزواج. وقد اشتهرت بدعوتها للتحكم فى النسل والإجهاض وتفوق الجنس الأبيض.

---

(١) Jean Paul Sartre: (١٩٠٥- ١٩٨٠) فيلسوف الوجودية الفرنسى.

(٢) Semone de Beauvoir: (١٩٠٨- ١٩٨٦) رفيقة سارتر.

(٣) Arthur Schopenhauer: (١٧٨٨- ١٨٦٠) فيلسوف التشاؤم الألمانى الشهير.

(٤) Friedrich Nietzsche: (١٨٤٤ - ١٩٠٠) الفيلسوف الألمانى وأشهر الملاحدة فى التاريخ المعاصر.

(٥) The Marquis de Sade: (١٧٤٠- ١٨١٤) الفيلسوف الفرنسى المدافع عن الحرية الجنسية.

(٦) Margaret Sanger: (١٨٧٩- ١٩٦٦) من الناشطات الأمريكيات المتعصبات للأنثوية، وتدريس الجنس بالمدارس والإجهاض.

لماذا؟!... تجيب مارجريت؛ إن هدفى هو الإشباع الجنسى دون خوف من ولادة أطفال غير مرغوب فيهم. فالمرأة ينبغى أن تتمتع بالحق فى أن تحيا، أن تحب، أن تتكامل، أن تصبح أمًّا غير متزوجة، أن تخلق، أن تحطم. وكانت تقول: «إن فراش الزوجية هو أسوأ عناصر النظام المجتمعى» وتقول: «إن أكثر الأشياء رحمة تقدمها الأسرة لأحد أطفالها؛ أن تقتله».

هؤلاء مجموعة من راسمى خارطة الطريق للبشرية!!

إرادة القبح

لا يكشف كتاب جونسون فقط أن معلمى الحضارة المادية ورموزها الفكرية قد **فشلوا فى أن يحيوا تبعًا لما يروِّجون له من قيم أخلاقية**، بل إن سلوكهم هذا **يدعونا للشك فى صحة وسلامة ما يدعون له من أفكار**. لذلك، يتبنى جونسون أن طرح هؤلاء لأفكارهم الإنسانية والأخلاقية كان محاولة للتقليل من عار فسقهم وخطيئتهم.

والمتابع لصفات من ذكرنا من الشخصيات يلاحظ دون شك أن خيطًا واحدًا يجمع سلوكهم، وهو **فحشهم الجنسى**. لذلك، ليس غريبًا أن معظم هؤلاء **كانوا يرفضون القيم والمفاهيم الدينية**، بل كانوا يتحدونها ويهاجمونها فى كتاباتهم.

ويستنتج بول جونسون من ذلك، أن المدارس الفلسفية والمبادئ الاجتماعية لكثير من المفكرين المحدثين **ترجع لرغبتهم فى التحرر الأخلاقى وليس بحثهم عن الحقيقة**.

وللفيلسوف والمفكر الإنجليزى اللامع **ألدوس هكسلى** [(1)] Aldos Huxley رؤية تدعم ما ذهب إليه بول جونسون، ينبغى أن نعرضها هنا، بخصوص **فلسفة العدمية** Nihilistic World View، يقول هكسلى:

«بالنسبة لى وللكثيرين غيرى، فإن **فلسفة العدمية كانت أداة للتحرر**. وإذا كان التحرر الذى نتوق إليه هو تحرر من بعض المنظومات السياسية والاجتماعية والأخلاقية، **فإن اعتراضنا على الجوانب الأخلاقية يرجع إلى أنها تتعارض مع حريتنا الجنسية**. إننا بإرادتنا الحرة نحدد

(1) Aldos Huxley: (١٨٩٤ - ١٩٦٣) الفيلسوف والكاتب الإنجليزى. وهو حفيد عالم البيولوجيا توماس هكسلى تلميذ دارون.

كيف وأين نستخدم ذكاءنا، فهؤلاء الذين يتبنون أن العالم لا معنى له، إنما يفعلون ذلك لأنه يناسب رغباتهم فى ألا يكون للعالم معنى»[١].

ويلخص الفيلسوف والمفكر الأمريكى الكبير **مايكل جونز** E.Michael Jones [٢] ما ذهب إليه بول جونسون قائلًا: «هناك نوعان من المفكرين، هؤلاء الذين **يشكلون رغباتهم تبعًا للحقيقة**، وهؤلاء الذين **يشكلون الحقيقة تبعًا لرغباتهم**. وبين هؤلاء وهؤلاء يوجد طيف واسع من الأنماط الفكرية»[٣].

الحداثة، محاولة لتبرير الانحرافات الجنسية

للفيلسوف والمفكر الأمريكى الكبير **مايكل جونز** كتاب مدهش بعنوان «**تفسخ الحداثيين** Degenerate Moderns»، يستكمل فيه دراسة بول جونسون للسلوك الشخصى للمفكرين المحدثين، مع التركيز على **العلاقة بين النظريات الأكاديمية التى وضعها هؤلاء وبين انحرافاتهم وسوء ممارساتهم الجنسية**. وقد عبر جونز عن رسالة الكتاب النهائية فى عنوانه الجانبى: الحداثة Modernism، محاولة لتبرير الانحرافات الجنسية.

فليحيا الزنا !! بالعافية !!

تَعَرَّض مايكل جونز فى كتابه «تفسخ الحداثيين» لكتاب عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية **مارجريت ميد** Margaret Mead [٤]، المسمى «**العائدون من التاريخ السحيق فى ساموا** Coming of Age in Samoa»[٥] والذى حظى بمنزلة أكثر الكتب مبيعًا عند صدوره عام ١٩٢٨.

تبنت مارجريت فى كتابها أن **المفاهيم الأخلاقية ليست إلهية المصدر**، ومن ثم فإن المفاهيم والمقاييس الجنسية السائدة بين البشر هى **إفراز حضارى**، يختلف من حضارة لأخرى.

وللوصول إلى هذا المعنى، درست مارجريت السلوك الجنسى لسكان جزر ساموا

(١) Aldos Huxley, Ends and Means (New York: Har Perc Brox, 1937), 316

(٢) E. Michael Jones: (١٩٤٨-   ) أستاذ الإعلام الأمريكى.

(٣) E.Michael Jones, Degenerate Moderns (San Francisco: Ignatius Press, 1993), 11

(٤) Margaret Mead: (١٩٢٣-١٩٢٨).

(٥) Margaret Mead, Coming of Age in Samoa, (New York: Blue Ribbon Books, 1928)
وتوجد جزر ساموا (عشر جزر) فى المحيط الباسيفيكى جنوب خط الاستواء قرب نيوزيلاندا، ويسكنها قرابة الربع مليون نسمة (٢٠٠١).

Samoa . انتهت مارجريت فى دراستها إلى أن هذا الشعب يسخر من العفة الجنسية Fidelity، ولا يرى فى الزنا ما يشين أو يهدد سلامة النسيج المجتمعى، لذلك فالاغتصاب لا وجود له فى هذه الجزر، كذلك ليس لهؤلاء شكل شرعى (الزواج) للعلاقات الجنسية.

لقد كان تأثير دراسة مارجريت ميد على الحضارة الغربية كبيرًا، **فقد روجت للإباحية الجنسية فى الغرب، كما دعمت مفهوم النسبية الحضارية بين الشعوب.**

لم يفكر أحد طوال خمسين عامًا فى مراجعة ما انتهت إليه دراسة مارجريت، حتى قام بذلك **عالم الأنثروبولوجيا النيوزيلاندى ديريك فريمان** Derek Freeman [١].

أعلن فريمان أن مارجريت قد أخطأت بشدة فى فهم حضارة الساموانيين وسلوكهم الجنسى. بل لقد وجد فريمان أن **هذا الشعب متحفظ تمامًا فى سلوكه الجنسى**، حتى إنه يعتبر الاغتصاب والزنا جرائم خطيرة، قد تصل عقوبتها إلى القتل، ومن ثم فهو شعب يحترم كثيرًا رابطة الزواج ومؤسسة الأسرة.

كيف سقطت مارجريت ميد فى هذا الخطأ الكبير؟!

يبين مايكل جونز ـ وآخرون ـ أن مارجريت قد **تأثرت فى رصدها لسلوك الساموانيين بقيمها الشخصية**، سواء عن قصد أو غير قصد، تلك القيم التى تتمركز حول مفهوم **«النسبية الحضارية»**، والذى **تجد فيه تبريرًا للحرية الجنسية.**

لقد كانت مارجريت تحيا حياة مليئة بالممارسات الجنسية اللاشرعية، كما ظلت تمارس الجنس المثلى مع زميلتها عالمة الأنثروبولوجيا والنسبية الحضارية روث بنيدكت Ruth Benedict [٢].

لقد تأثرت أمانة ودقة بحث مارجريت بما تعانيه من **انحرافات جنسية**. ولا شك أنها نموذج واضح لكيف **تؤثر بنيتنا النفسية وانضباطنا الأخلاقى على ما نعتنقه من أفكار**، بل يذهب هذا التأثير إلى مدى أبعد، **فيؤثر على قدرتنا على رصد الظواهر من حولنا وعلى قيامنا بالبحث العلمى.**

تقرير كنزى المضلل

مثال آخر يطرحه مايكل جونز فى كتابه «تفسخ الحداثيين»، ويعكس **تأثير منظومتنا الشخصية الأخلاقية على منظومتنا الفكرية، إنه ألفريد كنزى Alfred Kinsey** [٣] صاحب

(١) Derek Freeman: (١٩١٦ - ٢٠٠١).

(٢) **Ruth Benedict**: (١٨٨٧ - ١٩٤٨) عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية.

(٣) Alfred Kinsey: (١٨٩٤ - ١٩٥٦) البيولوجى وأستاذ الحشرات الأمريكى، المهتم بالسلوك الجنسى.

«**تقرير كنزى Kinsey Report**»[1] الشهير، الذى أثر جذريًا فى الحياة الجنسية للأمريكيين **وانعكس على الحياة الجنسية للبشرية كلها**، فقد كان التقرير رافدًا مهمًا للثورة الجنسية فى الغرب فى ستينيات القرن العشرين.

كان كنزى بالإضافة لتخصصه فى الطب النفسى Psychiatry متخصصًا فى علم الحشرات Entomologist. وقد **بدأ اهتمامه بالحياة الجنسية للبشر** منذ منتصف الثلاثينات من عمره، فكان يحرص على تسجيل تاريخ الممارسة الجنسية Sex History لمرضاه، وكان يستعين فى مناظرته وعلاجه للمرضى بأفلام إباحية يقوم بتصويرها بنفسه. وما زالت **عشرات الآلاف** من المجلدات والأفلام الجنسية موجودة فى مركز كنزى للأبحاث الجنسية فى جامعة إنديانا.

وباعتباره من علماء البيولوجيا التطورية، اهتم كنزى بالتنوع فى السلوك الجنسى، فكان يسعى جاهدًا لإثبات **وجود التنوع فى سلوك البشر الجنسى** مثلما لاحظه فى الحشرات. وقد انعكس هذا الفهم على منهج البحث عند كنزى، فكان **الكثير ممن ناظرهم من المومسات والمسجونين والشواذ**، وقد غذته هذه العينات بقدر كبير من التنوع فى السلوك الجنسى، وهو ما أَثَّر على تصوره لما أطلق عليه «**السلوك الجنسى الطبيعى** Normality».

لقد كان ذلك **خطأً فادحًا فى منهج البحث العلمى، فقد كانت العينة البحثية (الأشخاص محل البحث) منتقاة** بشكل يجعل نتائج البحث محددة قبل بدايته، وكانت النتيجة **أن** وَسَّعَ كنزى مفهوم «**السلوك الجنسى الطبيعى**» بأن ضم إليه الممارسات غير الطبيعية.

لقد اتفقت نتائج أبحاث كنزى مع نتائج أبحاث مارجريت ميد فى أنها **تدعم مفهوم «النسبية الأخلاقية Moral Relativism»**. ويؤكد كنزى هذا المعنى قائلًا: «تنتظم الفوارق الفردية فى السلوك الجنسى فى منحنى منتظم مستمر، ليس فيه حد فاصل بين الطبيعى وغير الطبيعى، ليس فيه صواب وليس فيه خطأ»[2].

لقد كان الخطأ المنهجى الأكبر لكنزى أنه **دخل ساحة البحث العلمى بمفهوم مُسبق، وهو مفهوم النسبية الأخلاقية**، فسعى إلى دعم مفهوم التنوع Variation، **فأدى ذلك إلى اعتبار الانحرافات الجنسية سلوكًا طبيعيًا**.

(١) Kinsey Report: صدر على هيئة كتابين؛ السلوك الجنسى للذكور (١٩٤٨)، والسلوك الجنسى للإناث (١٩٥٣).
(٢) Cornelia Christenson, Kinsey: A Biography (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1971), 6-7

وحتى تكتمل الفائدة من دراسته، كان ضروريًا أن يبحث مايكل جونز فى **سلوك كنزى الجنسى**. لقد وجد جونز أن كنزى كان مزدوج العلاقة الجنسية Bisexual، كما كان ماسوشيًّا Masochistic [(١)]، وكان يشجع تلاميذه على العربدة وممارسة أشكال الانحرافات الجنسية المختلفة[(٢)]. إن ذلك يكشف - كما فى حالة مارجريت ميد - **تأثير الحالة الأخلاقية والسلوك الفردى والخلفية النفسية والشخصية على ما يتبنى الإنسان من قناعات عقلية.**

تقنين الشذوذ الجنسى

عبر الأطلنطى، ظهرت فى إنجلترا فى النصف الأول من القرن العشرين مجموعة تبنت مفاهيم أعمق وأوسع من مفاهيم كنزى بخصوص الحرية الجنسية ورفض الالتزام الأخلاقى، إنها مجموعة بلومزبرى Bloomsbury الشهيرة، التى ضمت مجموعة كبيرة متباينة من الكتاب والفنانين، وكان لها تأثير كبير على الثقافة الغربية فى أوروبا.

لقد كان الكثيرون من أعضاء المجموعة من **الشواذ جنسيًا** ومن ممارسى الجنس الجماعى[(٣)]. وكان هؤلاء يعتبرون ممارساتهم الجنسية الشاذة جزءًا من رؤية أخلاقية وجمالية أشمل، محورها «**النسبية الأخلاقية**» التى لا تُمايز بين صواب وخطأ، لكنها تختلف تبعًا لخبرة كل شخص ودوافعه وقدرته على التحكم فى نفسه، لذلك كانوا يرفضون تمامًا الأعراف والمفاهيم الاجتماعية السائدة، ومن ثم لا يؤمن هؤلاء بمفهوم «اللا أخلاقى» إطلاقًا[(٤)]. وقد انعكس ذلك فى أعمالهم التى أنتجوها فى تخصصاتهم المختلفة.

لقد كانت مجموعة بلومزبرى مثالًا آخر على كيف أن الميول الشخصية الأخلاقية والسلوكية تُوَجِه المفاهيم والأفكار وليس العكس.

(١) الماسوشية: الاستمتاع جنسيًّا بأن يعذبه الآخرون.

(٢) Cornelia Christenson, Kinsey: A Biography (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1971), 6-7

(٣) من هؤلاء:

الأديب إى إم فوستر E.M. Foster،

والأديبة فيرجينيا وولف Virginia Wolf،

والرسام دانكان جرانت Dancan Grant،

والاقتصادى كينيس J.M. Keynes،

والناقد ليتون ستراشرى **Lytton Strachery**.

(٤) John Maynard Keynes, Two Memories (London: Hart – Davis, 1949), 97-98

الشذوذ الجنسى والحداثة

يلخص جونز أفكار من عرضنا من الشخصيات (مارجريت ميد وكنزى ومجموعة بلومزبرى)[١] فى «**أن الجنس غير التقليدى (يقصد ما نتعارف عليه بالشذوذ الجنسى) والحداثة متضافرين متداخلين دون إمكانية للانفصال للأبد**»[٢]. حتى إن الاقتصادى البريطانى جون كينيس John Keynes[٣] كان دائمًا يصف الحداثة بأنها **اللواط الأعلى** Higher Sodomy

ونختم وقفتنا مع مايكل جونز بأن نلخص ما قصد إليه فى كتابه «المفكرون» بقوله: «**إن الخطايا الجنسية مدمرة مُفسدة للعقل. وإذا كانت هذه الخطايا هى الأكثر شيوعًا بين البشر، ففساد العقل هو الأخطر**»[٤].

وإذا كان معظم مَن ذكرنا ملاحدة، فإن نظرة إلى الواقع الأمريكى الحالى تؤيد ما ذهب إليه جونز[٥]:

فكبار المؤسسين والداعين لمنظمات ومجتمعات الانحرافات الجنسية من الملاحدة[٦].

وتقوم صناعة الجنس والمنتجات الإباحية Porno بشكل رئيس على الملاحدة.

إن علاقة الفسق بالإلحاد ليست غريبة، ألم يقل ريتشارد دوكنز كبير الملاحدة المعاصرين: «إن الوجود لا تصميم فيه ولا غاية، ولا شر ولا خير، لا شىء إلا لا مبالاة مؤلمة».

إن غياب الإله قد جعل الوجود (كما يقول نيتشه) وحشيًّا فظًّا Brutish، وكما قال دستوفسكى: «إذا مات الإله فكل شىء مباح»[٧].

(١) وبالإضافة لهؤلاء، يتعرض جونز لشخصيات أخرى من مفكرى القرن العشرين، تشمل الرسام بابلو بيكاسو Pablo Picasso، ومؤسس مدرسة التحليل النفسى سيجموند فرويد Sigmund Freud، والصحفية والكاتبة الأمريكية أنا كندلين Anna Quindlen

(٢) Johes, Degenerate Moderns, 54

(٣) John Keynes: (١٨٨٣ - ١٩٤٦)، الاقتصادى البريطانى الكبير، الذى أثرت كتاباته فى الاقتصاد العالمى وعلاقته بالسياسة.

(٤) Jones, Degenerate Moderns, 12

(٥) Atheism ConservaPedia, 10: ConservaPedia. Com/Atheism

(٦) اتحاد أمريكا الشمالية للعلاقات الجنسية بين الرجال والمراهقين NAMBLA
مجتمع Lesbian, Bisexual, Gay, Transexual (LBGT)

(٧) فى تاريخنا الإسلامى تقابلنا أمثلة من العلاقة بين التحلل الأخلاقى وبين الإلحاد، ربما تكون حركة الزنادقة التى قامت فى ظل الدولة العباسية من أشهرها. وسنعرض لهذه الحركة فى الفصل العاشر.

التمركز حول الذات [١]

يقول الفيلسوف الأمريكى مورتمر آدلر Mortimer Adler [٢]؛ «**إن التدين يحتاج إلى تغير جذرى فى طريقة حياة الإنسان؛** يشمل اتجاهات اختياراته اليومية، وأهدافه العامة التى يسعى إلى تحقيقها»[٣]. قال آدلر ذلك عام ١٩٧٧، وعندما تبنى المسيحية عام ١٩٨٤ وتم تعميده قال: «إذا كان الإيمان صعبًا فعدم الإيمان أكثر صعوبة».

المشكلة فى الغرب أن مقابل كل آدلر يوجد الكثيرون من أمثال مايكل أونفراى Michel Onfray [٤] الداعى لمبدأ اللذة Hedonism [٥]، ومن أمثال كريستوفر هتشنز Christoper Hitchens [٦] الذى انفصل عن زوجته الأولى وقت أن كانت حاملًا فى ابنه!

الشعور بالنقص، والشبق إلى الشهرة

يعتبر الكثيرون من علماء النفس أن الملاحدة يعانون **عقدة نقص** Inferiority Complex. وللهرب مما تسببه هذه العقدة من الشعور بالدونية وعدم الشعور بالأمان فإنهم يكبتون R-pression هذه المشاعر ويستبدلون Supplantation بعقدتهم **عقدة التعالى** Superiority Complex، وهذا ما يجعل الملاحدة يشعرون بأنهم متميزون وأنهم أفضل من الآخرين[٧]. ومن أجل إشباع هذه العقدة، يسعى الملاحدة إلى الشهرة.

وكُتب علم النفس والسِير الشخصية ملأى بمواقف الكثيرين من كبار وصغار الملاحدة التى تكشف ذلك. **فتجد الملحد يعلن إلحاده على الملأ ليحقق الشهرة ليشعر بذاتيته وتميزه.** والمتابع لكتابات الملاحدة ومواقع تواصلهم الاجتماعى يدرك بوضوح كم يحبون أن يُعرَفوا بتفردهم ودقتهم وحريتهم الفكرية، وتمردهم واستنارتهم. صدق الفيلسوف الملحد جوليان باجينى Julian Baggini [٨] حين قال «**يحتاج الملاحدة لعدو حتى يشعروا بذواتهم**».

(١) Self - Centeredness

(٢) عَرَّفنا به فى بدايات الفصل.

(٣) Mortimer Adler, Philosopher at large (New York: Macmillan, 1977), 316

(٤) Michel Onfray: (١٩٥٩-) الفيلسوف والكاتب الفرنسى الملحد.

(٥) Hedonism: مدرسة تتبنى أن المتعة هى أهم غرائز الإنسان.

(٦) Christoper Hitchens: (١٩٤٩- ٢٠١١) الصحفى الأمريكى، من زعماء الإلحاد الجديد.

(٧) Paul Vitz, Fath of the fatherless, Ignatius Press, San Francisco, 2nd ed, 2013 – P. 158

(٨) Julian Baggini: (١٩٦٨-) الفيلسوف البريطانى المهتم بتبسيط الفلسفة.

شخصيات متمركزة حول ذواتها

ولإثبات هذا المفهوم، يعرض عالم النفس الأمريكى بول ڤيتز[١] مواقف وصفات بعض كبار الملحدين كما وردت فى كتب سيرهم الشخصية، ومن هؤلاء:

ڤولتير Voltaire [٢]

يتفق كل المؤرخين والنقاد أن السيرة الشخصية لفرويد تكشف بوضوح أنه كان يتسم بخُيَلاء عقلية كبيرة، رفعت سطح طموحاته وتطلعاته، وجعلت الشهرة شاغله الأول[٣].

لودڤيج فيورباخ Ludwig Feuerbach [٤]

كان فيورباخ شخصية انعزالية للغاية، ويرجع ذلك إلى عجزه عن تحقيق طموحاته العقلية، إذ كان يعتبر نفسه فيلسوفًا فى غاية الأهمية للبشرية[٥].

نيتشه Nietzsche

لم تكن غطرسة نيتشه وتكبره وعشقه للشهرة خافية على أحد. بل إن فلسفته كلها تنطلق من هذه السمة، فقد تبنى تقديس القوة والإنسان السوبرمان. ولكى يروج لهذا المفهوم أعلن مقتل الإله، كما حاول إحلال نفسه محل المسيح!! فكان يصف نفسه بالإنسان المصلوب.

وفى سنوات جنونه، أعلن نيتشه نفسه «عدو المسيح»، فكان يعادى كل تعاليم المسيحية. لقد أراد أن يصيب العالم بالجنون بأن يقتل الإله، فكانت النتيجة أن أصيب هو بالجنون ودمر نفسه[٦].

سيجموند فرويد Sigmund Freud

لم يكن الدارسون لفرويد مخطئين حين وصفوه بالإنسان الطموح المتطلع، فقد وصف نفسه قائلًا: «لست بالمرة رجل علم، أو رجل تجارب، أو رجل ملاحظة وتأمل. فما أنا إلا مغامر **مُخاطر** Adventurer». كما وصف نفسه بأنه «**الفاتح المنتصر** Conquistador»[٧].

(١) Paul Vitz, Fath of the fatherless, Ignatius Press, San Francisco, 2013 – P. 158

(٢) Voltaire: (١٦٩٤ - ١٧٧٨) فيلسوف الاستنارة الفرنسى.

(٣) A.D. Aldridge, Voltaire and the century of light (Princeton: Princeton University press, 1975), P.12

(٤) Ludwig Feuerbach: (١٨٠٤ - ١٨٧٢) الفيلسوف والأنثروبولوجى الألمانى الشهير، مؤسس نظرية الإسقاط.

(٥) E. Kamenka, The philosophy of Ludwig Feuerbach (New York: Praeger, 1979), P.155

(٦) Nietzsche, The Gay Science, Trans. Kaufmann (New York: Vintage, 1974), 181

(٧) M.Schar, Freud: Living and Dying (New York: International Universities Press, 1972), P.201

بارون دو هولباخ Baron d'Holbach [1]

كان هولباخ من ملاحدة فترة الاستنارة المشهورين. قام بتضخيم شأن عائلته وأصولها العريقة، وفى الوقت نفسه تَرَفَّع عن والديه ولفظهما، كما اشترى لقب البارون حتى يضفى على نفسه صفة النبلاء، وسعى للانتماء إلى ما عُرف بدائرة المفكرين الأحرار، فحقق من الشهرة بينهم ما عجز عن تحقيقه مع والديه.

المركيز دى صاد The Marquis de Sade

أبو السادية، لم يكن يعترف بأية حدود للسلوك الجنسى، وكان يسعى لتحقيق الشهرة عن طريق إشاعة سيرته كفاسق عاهر!!

جون تولاند John Toland [2]

كان جون ابنًا غير شرعى، وكان يسعى لمحو هذه الحقيقة من ذاكرة المجتمع، من خلال النجاح والتفوق ومصادقة مشاهير عصره (مثل جون لوك)، وكذلك عن طريق كتابة الأعمال الصادمة مثل: المسيحية ليست أعجوبة Christianity Not Mysterious.

ريتشارد كارليل Richard Carlile [3]

مارجريت سانجر Margaret Sanger [4]

سعيا لجذب الانتباه عن طريق الدعوة للتحكم فى الحمل والإجهاض، فى وقت كان ذلك سلوكًا منبوذًا لا تقوم به إلا العاهرات. وكانا يكتبان المقالات الصادمة فى الصحف.

جل جونستون Jill Johnston [5]

نبذها والدها، فسعت لتحقيق الشهرة التى كانت تواقة لها عن طريق التعصب للنسوية Radical Feminism وللشذوذ الجنسى بين الإناث.

---

(١) Baron d'Holbach: (١٧٢٣ - ١٧٨٩) البارون الفرنسى، صاحب الصالون الفكرى المشهور.

(٢) John Toland: (١٦٧٠ - ١٧٢٢)، الفيلسوف الأيرلندى المهتم بالمنطق والسياسة والديانات.

(٣) Richard Carlile: (١٧٩٠ - ١٨٤٣) المفكر الإنجليزى المهتم بالحريات.

(٤) Margaret Sanger: عرفنا بها منذ قليل.

(٥) Jill Johnston: (١٩٢٩ - ٢٠١٠)، كاتبة إنجليزية المولد أمريكية الجنسية.

برتراند رَسِل Bertrand Russell

وصف رَسِلَ مؤرخوه بأنه كان متغطرسًا متكبرًا حقودًا شديد البرود كثير الكذب[1].

كارل ساجان Carl Sagan [2]

كان كارل ساجان يسعى لتغيير الصورة عن أصله المتواضع؛ فقد كان والده حائكًا للملابس (ترزى). فسعى (ونجح) فى تحقيق الشهرة العريضة كعالم فضاء وكاتب وإعلامى.

كريستوفر هتشنز Christopher Hitchens

كان هتشنز يتبنى طوال حياته المهنية أسلوب «**الصدمة**» للحصول على الاهتمام ولفت الأنظار، فهاجم الأم تريزا ووصفها بأنها أصولية متعصبة مخادعة، تسببت فى شقاء الملايين لتحقق الشهرة! وقد حصل على شهرة كبيرة نتيجة لهذا الهجوم.

وقد وصفت أستاذة الفنون الملحدة كامِل باجليا Camille Paglia [3] هتشنز بأنه نرجسى (مباه بذاته محب لها) منغمس فى اللذات، ولا يعير اهتمامًا لأى شىء إلا ملذاته الشخصية.

وعندما أصيب هتشنز بسرطان المرىء، سعى لتسليط الأضواء على مرضه ثم ملابسات موته، وجعله حدثًا عامًا.

سام هاريس Sam Harris

رجل تواق للشهرة ولو على حساب الحقيقة، يسعى إلى ذيوع الصيت، وهو مفكر غير ملتزم، نرجسى لا يقبل آراء الآخرين، ويحاول أن يجعل من نفسه محورًا ومركزًا لأى مجموعة عمل.

وقد نشر سام هاريس كتابه خطاب إلى أمة مسيحية Letter to a Christian Nation على نفقته ليحقق الصيت. والكتاب ملىء بالهجوم غير المبرر على الديانات كقوله: تتبنى الديانات مبادئ تدعو لقتل الآخرين من أجل أن يؤمنوا بها!!

ويصفه عالم الأنثروبولوجيا سكوت أتران Scot Atran، بأن هجومه على الدين لا أساس علمى له ولا حجة وراءه، وأنه ساذج سياسيًا وأن فكره غير مثمر.

---

(١) R. Monk, Bertrand Russell: The Spirit of Solitude (New York: Free Press, 1996)

(٢) Carl Sagan: (١٩٣٤- ١٩٩٦) مستشار الناسا، وصاحب برنامج الكون، أشهر برنامج تليفزيونى علمى فى التاريخ.

(٣) Camille Paglia: (- ٢٠٠٧)، أستاذة الفنون فى جامعة فيلادلفيا، المهتمة بالنقد الاجتماعى.

يدرك المتابع لبرامج دوكنز وكتبه، خاصة كتابه الأخير (وهم الإله God Delusion)، شبقه للشهرة باعتباره المتحدث باسم الإلحاد والملاحدة، بغض النظر عن الحجية العلمية لما يقدمه من استدلالات. لذلك، أسعده كثيرًا أن أختاره قراء مجلة Prospect Magazine كأحد كبار المفكرين فى زمانه، كما أسعده أن تَذْكُره جريدة Independent (أشهر جريدة علمانية فى إنجلترا) كأحد أكثر الرجال أناقة فى بريطانيا.

وفى ذلك يقول الفيلسوف الملحد مايكل روس[1]: «لقد جعلنى كتاب وهم الإله أشعر بتوتر وارتباك Embarrassed لكونى ملحدًا. فالكتاب الذى يعالج فى المقام الأول قضية الأخلاق يتبنى **حملة صليبية لا أخلاقية، تتسم بالتكبر والعجرفة**. فدوكنز لا يتحدث كفيلسوف يعالج الأدلة ليصل إلى استنتاجات منطقية، لكن كواعظ أصولى يرسم طريق الخلاص ويهدد بالطرد من الرحمة». ثم يطرح روس تساؤله: «إذا كان الإله غير موجود، فلِمَ هذا التطرف الشديد ضد الدين؟!».

تتفق شخصيات كل من ناقشنا حالاتهم فى أنهم من ذوى **الطموح الكبير Ambition مع الغطرسة والكبر والشبق إلى الشهرة.**

وقد أدرك هؤلاء أن من أجل أن تصبح شخصية مرموقة فى الأوساط الفكرية، عليك ببذل قدرًا كبيرًا من الجهد. وقد وجد هؤلاء بديلًا مريحًا فى الإلحاد الذى يحقق ذيوع الصيت بسهولة لتعارضه مع الفكر المجتمعى السائد، ولا شك أن ما يتمتعون به من الغطرسة والتكبر صفات شخصية تخدم هيمنة أفكارهم الشاذة على الآخرين.

وفى عالمنا العربى، نجد فى التاريخ الإسلامى شخصية **ابن الراوندى** كما نجد شخصية **عبد الله القصيمى** فى التاريخ الحديث، كمثلين يجسدان هذا النمط الشخصى المنحرف. كما حاور كاتب هذه السطور العديد من شبابنا الذين عصفت بهم عقدة النقص وحب الشهرة فأردتهم فى الإلحاد. وقد أسميت هذا النوع بـ «**إلحاد خالف تُعرف**». وسنقوم بمناقشة الإلحاد فى عالمنا العربى الإسلامى فى الفصل العاشر من الكتاب.

(١) Michael Ruse: إنجليزى، فيلسوف العلوم المتخصص فى فلسفة البيولوجيا. ولد عام ١٩٤٠.

كراهية الكمالات والفضائل

يبرر البعض إلحادهم بما يعتبرونه مصائب وكوارث تصيب البشر **تحدث بسبب الإله والدين،** مثل ما يحدث لهم من شرور ومعاناة بسبب الأمراض والكوارث الطبيعية (وهو ما يُعرف **بمجادلة الشر والألم**)، ومثل ما يقوم به **الإرهابيون المتطرفون** من عمليات إرهابية ضد المدنيين الآمنين. ويعتبر آخرون أن تعاليم الكتب السماوية وما جاء فيها **سطحى وتافه.**

وكثيرًا ما تكون هذه الأسباب المعلنة قناعًا تختفى وراءه أسباب أعمق لرفض الإله والدين، أسباب يخجل الملاحدة من إعلانها.

فبعضهم يتبنى الرفض بسبب **تجارب شخصية ومعاناة مؤلمة.** وبعضهم يحمل **بغضًا شديدًا بل وخوفًا من كل ما هو جميل أو طيب،** وهؤلاء يسخرون من كل ما جاء فى الكتب السماوية من كمالات وفضائل تُنسب للإله وتدعونا للتخلق بها.

لكن، **لماذا يرفض** هؤلاء الجمال والحسن والفضائل؟!

السبب أنها **تمثل قيودًا** يعلمون أن عليهم الالتزام بها.

بل ويسعى كثير من هؤلاء **لتحطيم كل صاحب فضيلة أو جمال أو حُسن أو صدق، حتى لا يعانون الشعور بدونيتهم**[1].

الحياة الطويلة الرغدة

يقول عالم اللاهوت الكبير ك. س. لويس C. S. Lewis: «إن أقوى أسلحة الشيطان ليست قدرته على إقناعنا أن ليس هناك إله، بل **إقناعنا أن لدينا متسعًا من الوقت**».

لقد صار إنسان العصر الحديث **يتمتع بمتوسط حياة أطول كثيرًا من ذى قبل**[2]، وذلك نتيجة لتقدم علوم الطب وتوافر سبل الوقاية الصحية والتغذية. وقد أدى ذلك إلى ضعف

(١) Faith of the fatherless: The psychology of Atheism, Paul Vitz, Ignatius press, San Francisco, 2013. P. 191-192

(٢) متوسط عمر الإنسان الغربى فى الفترات الزمنية المختلفة:
العصر الحجرى وما قبله ١٣ - ١٨ سنة - الحقبة اليونانية الرومانية ٢٨ سنة ـ القرن السادس عشر ٥٠ سنة ـ القرن السابع عشر ٣٥ سنة (انخفض عن القرن السابق له) ـ أوائل القرن العشرين ٤٨ سنة ـ أوائل القرن الحادى والعشرين ٧٨ سنة.

الشعور بالحاجة إلى الإله. فلا شك أن توقع الإنسان أن يحيا ثلاث عشرة سنة يختلف عن توقعاته إذا أدرك أنه سيتجاوز الثمانين عامًا من العمر.

فعندما يكون **الموت قريبًا حاضرًا** فى عقل الإنسان، تجده يهتم بشكل أكبر بالقضايا الخاصة بمصيره. وفى المقابل، عندما يكون **الموت بعيدًا والمعاناة الحياتية اليومية** أقل ومستوى الحياة أفضل **يصبح الإله أبعد عن عقل الإنسان**. وكلما عاش الإنسان أطول كلما صار تركيزه على «**الآن وهنا**» أى الفردوس الأرضى، ومن ثم يزداد تمركزه حول ذاته وتبنيه للعلمانية والمادية والإلحاد.

الأسباب العقلية (البيولوجية) للإلحاد

التوحد Autism

تتركز مشكلة التوحد التى يعانيها بعض الأطفال فى «**صعوبة التواصل**» **مع الآخرين**، وقد تصل إلى «**لا تواصل**» على الإطلاق.

وترجع المشكلة إلى عدم إدراك هؤلاء الأطفال أن للآخرين عقولًا مثلما أن لهم عقولًا وانفعالات، أى إنهم ينظرون إلى الآخرين كأشياء، لذلك يوصَف هؤلاء بأن مشكلتهم هى «**العمى العقلى Mind Blindness**». وبتعبير آخر، يصبح هؤلاء عاجزين عن تكوين «**نظرية العقل Theory of mind**» التى تعنى القدرة على فهم ما يدور فى عقل الآخر، وهى أهم سمات العقل البشرى.

وتبدأ ملاحظات الأسرة، بأن الطفل يعجز عن التواصل مع أمه، ثم أبيه، ثم الآخرين - ولم لا: الإله**!**

وقد ذكر **سيمون بارون كوهين**[1]، عالم النفس بكمبردج والمهتم بالتوحد، أن المشكلة أقل شيوعًا فى الإناث عن الذكور (١ : ٣-٤ مرات). ولما كان **الذكور أكثر اهتمامًا بالأشياء** بينما الإناث **أكثر اهتمامًا بالمشاعر والعلاقات**، يعتبر كوهين أن مرضى التوحد يمتلكون «**أمخاخًا/ عقولًا متطرفة الذكورة Hyper – Male – Type of Brain / Mind**».

(١) Simon Baron - Cohen : (١٩٥٨-   ) أستاذ علم النفس بجامعة كمبردج، المهتم بالتنشئة، وبالفوارق النفسية والفكرية بين الذكور والإناث.

التوحد والتدين

أجرى عالم النفس **كوينتن ديلى** Q. Deeley [(١)] دراساته على مرضى التوحد الوظيفى عند الكبار[(٢)]، ووجد أنهم يتصفون بنقص الاهتمام بالدين.

إن ذلك يثير العديد من التساؤلات: هل نقول إن العكس صحيح؟ أى، هل يرجع نقص الاهتمام بالدين إلى التوحد الوظيفى؟

وإذا كانت الديانات الإبراهيمية تقوم على التواصل مع الإله، فهل يملك المتدينون قدرة أعلى على التواصل (عكس التوحد)، أى يملكون أمخاخًا أنثوية؟

وفى المقابل: هل يملك الملاحدة أمخاخًا غير قادرة على التواصل (مخ متطرف الذكورة)؟

وإذا كان الأعمى غير قادر على رؤية الأشياء وفهمها، فهل أصحاب العمى العقلى Mind Blindness يصبحون عاجزين عن فهم الإله والديانات؟

وإذا كان التوحد يتماشى بشكل أكبر مع المخ/ العقل الذكورى، الذى يتصف بأنه عقل مجرد لا يبالى بالعلاقة مع الآخرين وينجذب إلى الفلسفة المادية، فهل نقول إن هذه الصفات تمهد للإلحاد؟

والخلاصة؛ **هل التقصير فى إقامة علاقات مع الآخرين/ الإله يرجع إلى درجة ما من التوحد الوظيفى؟**

هناك العديد من الدراسات الحديثة[(٣)] (٢٠١٢) تؤيد ما ذهب إليه ديلى، فقد **ظهر أن**:

١) أصحاب التوحد الوظيفى يكونون أكثر ميلًا للإلحاد بأشكاله، والمتدينون منهم يكونون أكثر قدرة على تشكيل منظوماتهم الإيمانية.

٢) الإلحاد يكون أكثر شيوعًا بين من يقومون بأعمال تتطلب ملكات تنظيمية ذكورية، هذا لا يعنى أن الإلحاد يقف وراءه التوحد، ولا أن المتوحدين لا يمكن أن يؤمنوا.

---

(١) Q. Deeley, "Cognitive style, spirituality and Religious Understanding: The case of Autism", Journal of Religion, Disability and Health 13 (2009) : 77- 82

ويعمل كوينتن ديلى كاستشارى ومحاضر للطب النفسى بكنجز كولدج.

(٢) إذا كان التوحد يشغل (تبعًا لشدته) طيفًا، فإن الدرجات الأقل شدة منه توصف بـ «التوحد الوظيفى High Functioning Autism» حيث يستطيع الطفل ممارسة معظم وظائفه الحياتية.

(٣) من هذه الدراسات:

Caldwell- Harriset al. "Religious Belief Systems" 2012,P.3362

Norenzayan er al., Mentalising deficits constrain belief in a Personal god, Plos one 7, no.5 (2012).

٣) يعتبر سيمون بارون كوهين أن أينشتين هو أحد مرضى **متلازمة أسبيرجر** Asperger's Syndrome [(١)] وهو أحد أنواع التوحد الوظيفى الذى يتسم بصعوبة التواصل الاجتماعى. فقد كان أينشتين فى صغره خجولًا غير اجتماعى يسلك كالمتوحد، وعندما كبر كان يواجه صعوبات فى التعاملات الاجتماعية. كما كان أينشتين يؤمن بإله مجرد غير متشخص، إله شديد التنظيم، لا يحتاج لتواصل (أليست هذه صفات المخ الذكورى؟!)[(٢)].

هذه ملامح حول «**علاقة محتملة**» **بين الإلحاد والتوحد** فى حياة البعض.

أتدرى قارئى الكريم أن هذه العلاقة تؤثر فى بنية الحضارة وإلحاد المجتمع؟!

هذا ما سنناقشه فى الفصل السابع.

هل الملاحدة هم الأذكياء؟!

تروج كتابات الملاحدة دائمًا أن **الملحدين هم الصفوة الفكرية فى المجتمعات**، وأنهم يحصلون على معدلات عالية فى اختبارات الذكاء، وأن متوسط معدلاتهم أعلى من متوسط معدلات المتدينين، ويَدَّعون كذلك أن الشخص كلما ارتقى فى سلم التعليم كلما كان أكثر ميلًا للإلحاد. ويدعم الملاحدة دعاويهم تلك بقوائم تحمل أسماء علماء كبار ينسبونهم إلى الإلحاد.

فهل **هذه الادعاءات** صحيحة؟

الحقيقة أن فى مقابل هذه الدراسات هناك دراسات أخرى عديدة تؤكد عكس ذلك.

كذلك، فإن هناك **قوائم أخرى بأسماء علماء كبار متدينين**، تشمل معظم العلماء الفطاحل الذين قامت على أكتافهم علوم الفيزياء والكيمياء الكلاسيكية، وأيضًا علماء الفيزياء الحديثة (الكوانتم) الذين حصل معظمهم على جوائز نوبل، وكذلك العلماء الفطاحل الذين تأسست على جهودهم علوم المخ والأعصاب ومعظمهم أيضًا حصلوا على جوائز نوبل[(٣)].

(١) بالإضافة إلى أينشتين، نسب أطباء النفس عددًا غير قليل من كبار العلماء إلى متلازمة أسبيرجر، منهم: إسحق نيوتن، موزارت، مارك توين، توماس جيفرسون، هتلر، بيل جيتس، آل جور،....

(٢) فى المقابل لأينشتين، وصف باسكال الإله (كما كتب داخل معطفه): «إلهى إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ـ وليس إله الفلاسفة ولا المفكرين ـ الإله الذى تستشعره بقلبك ـ السلام ـ الأمان ـ إله المسيح ـ لن أنسى ذلك ـ وعليه أموت ـ آمين». **إنه إله متواصل مع خلقه.**

(٣) فى مقابل موقف الملاحدة **أمثال دوكنز وأتكنز**، نجد أن معظم كبار العلماء من **مؤسسى فيزياء الكم** والحاصلين جميعًا على جوائز نوبل كانوا من المؤلهة، وعلى رأسهم أينشتين، وماكس بلانك، وهيزنبرج، وشرودنجر، وبول ديراك. وكذلك أشهر الرواد من **علماء المخ والأعصاب** كانوا من المؤلهة، ومنهم روجر سبيرى، وويلدر بنفيلد،=

يحتاج ما يشاع من أن الملاحدة يسجلون درجات أعلى فى اختبارات الذكاء إلى وقفة تبين مدى حجية هذه الاختبارات فى قياس قدرات الإنسان العقلية.

تتبنى دائرة معارف الاضطرابات العقلية[1] أن اختبارات الذكاء **تعجز عن قياس الذكاء الحقيقى للشخص**. وتستشهد دائرة المعارف على ذلك بأن أكثر اختبارات الذكاء مصداقية[2] يقوم على عدد من العوامل أهمها: استخدام اللغة ـ التفكير المجرد ـ الملكات الرياضية ـ التصور المكانى ـ قدرات القراءة ـ الثروة اللغوية ـ المعلومات العامة ـ الذاكرة؛ وهذه هى **المهارات المطلوبة للتفوق الدراسى**. وفى نفس الوقت يعجز هذا الاختبار عن قياس **مهارات أخرى غير ملموسة**، مثل: المهارات الاجتماعية ـ المزاج ـ الانضباط ـ الرغبة فى النجاح ـ عمق المعلومات ـ الإبداع، وهذه المهارات هى **الأكثر أهمية بخصوص الإيمان بالإله**.

ومما يعين الملاحدة فى الحصول على نتائج عالية فى اختبارات الذكاء، أن هذه الاختبارات **موضوعية مادية علمانية**، ومن ثم فالماديين يمكن أن يحصلوا فيها على معدلات أعلى. وفى المقابل، فإن **الدراسات الاجتماعية** التى تعتمد على ملاحظة أنماط السلوك الاجتماعى تكون أكثر مناسبة لطبيعة المتدينين، ومن ثم يحصلون على نتائج أعلى فى هذه الدراسات.

وقد أذاع الإعلامى الأمريكى الشهير جيم كافاناغ Jim Kavanagh فى فضائية السى إن

= وتشارلس شرنجتون، وجون إكلز، وقد حصل الأربعة على جوائز نوبل أيضًا. ولا شك أن هذين المثلين يقضيان على الهراء الذى يملأ به الملاحدة الساحة مرددين أن معظم العلماء من الملاحدة، **ويُزَوِّرون الإحصائيات** من أجل إثبات ذلك.

انظر أيضًا إلى **الرواد الفطاحل من العلماء المتدينين**. هذا «**جاليليو**» يعلن أن وراء عقله المتسائل الباحث عن الحقيقة قناعته الداخلية بأن الخالق الذى أمدنا بالحواس والعقل والذكاء يريد منا أن نستخدمها لنتوصل إلى المعرفة. وهذا «**كبلر**» يعلن أن الهدف الرئيس للبحث فى العالم الخارجى هو اكتشاف النظام المنطقى الذى وضعه الإله، والذى كشفه لنا فى لغة الرياضيات. ويؤكد «**أينشتين**» أن هدفه الرئيس أن يعرف كيف يفكر الإله، والباقى تفاصيل. ويقول سير **جون هوفتن** عالم المناخ الكبير: «إن علمنا يؤمن بالإله، **إن الإله يقف وراء قصة العلم كلها**؛ النظام المدهش، الانضباط، المصداقية، التعقيد المذهل، إن ذلك كله ليس إلا ممارسات الإله». وانظر **أيضًا إلى قول سير جيليان** برانس: «لسنوات عديدة وأنا أعتقد أن **الإله هو مصمم الوجود**، إن كل دراساتى العلمية تثبت هذا الإيمان». وغير هؤلاء من الأسماء الكبيرة **باسكال وبويل ونيوتن وفاراداى ومندل وباستير وماكسويل**.

(١) The Engyclopedia of mental Disorders

(٢) Stanford – Binet / wechsler test

إن CNN نتائج دراسة تشير إلى أنه مع الارتقاء فى التعليم يكون الإنسان الغربى أكثر ميلًا لأن يقول: «**أنا أؤمن بقوى عليا**» بدلًا من أن يقول: «أنا أؤمن بالإله»، ومن ثم يُحسب هؤلاء كملاحدة.

كذلك نشرت صحيفة الديلى ميل The Daily Mail عام ٢٠١١ نتائج دراسة دقيقة[١] جاء فيها: مع تحليل نتائج استطلاع رأى قومى واسع، وُجدَ أن الأفراد يصبحون أكثر تدينًا مع ارتقائهم فى التعليم.

ولا شك أن عوامل عديدة للغاية تحكم ذكاء هذا الكائن غير المحدود - الإنسان.

حرية الإرادة والاختيار

إذا كان للإلحاد **أسبابه النفسية (التنشئة Nurture)** والشخصية، بالإضافة إلى **أسبابه العضوية Nature** (المنظومة البيولوجية للإيمان ـ التوحد)، فهل يعنى ذلك أن الإنسان مُسير فى تبنيه الإيمان أو الإلحاد.

يجيب بول ڤيتز عن هذا السؤال من خلال شخصية هتلر، فيقول:

«كان الكُره يملأ هتلر، هذا الكُره الذى وقف وراء ما أنزل بالبشرية من مصائب. وإذا كان تقصير أبيه الشديد تجاهه، والإساءة إليه كطفل، قد أسهم فى نشأة هذا الكُره، حتى إنه صار يكره نفسه، فقناعتنا أن هتلر **«قد اختار»** أن يُنَمِّى ما بداخله من كُره، بدلًا من أن يعمل على كبته أو التعامل مع ما يسببه له من معاناة».

ويضيف بول ڤيتز: «**باختصار، إن كل شخص يستطيع بإرادته الحرة واختياره أن يتوجه إلى الإله، أو أن يبتعد عنه، أو أن يقف ضده**».

ولنا فى تفصيل هذا الأمر حديث طويل نخصص له الباب الرابع فى ثلاثة فصول.

---

(١) أجرى هذه الدراسة عالم الاجتماع فيليب شواديل Philip Schwadel فى جامعة نبراسكا - لنكولن The University of Nebraska - Lincoln

تعتبر **دوافع الإلحاد الشخصية** بمثابة منشطات النمو (كالماء والسماد) لما يُلقى فى التربة من بذور. وتتلخص هذا المنشطات فى **إمتاع الذات حسيًّا ونفسيًّا**. فبعض هذه الدوافع تتركز فى إشباع إحتياجات الملحد الاجتماعية والمهنية لأن يتأقلم مع المجتمع ومع وسطه المهنى، وأيضًا إشباع احتياجه لأن يحيا تبعًا لنمط معيشى يُمتعه.

ومن المحزن أن **العديد من الرموز الفكرية للبشرية كانوا إباحيين، وكانوا أنانيين مغرورين، وأن اهتمامهم المزعوم بالإنسانية كان كذبًا ونفاقًا يختفى وراءه قدر كبير من القسوة واللامبالاة بأقرب الناس إليهم، خاصة أفراد عائلاتهم.**

لذلك ليس من الغريب وجود تعارض صارخ بين **النظريات الأكاديمية التى وضعها هؤلاء وبين انحرافاتهم وسوء ممارساتهم الجنسية.**

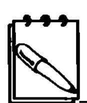
كذلك صار الجنس غير التقليدى (ما نتعارف عليه بالشذوذ الجنسى) والحداثة Modernism **متضافرين متداخلين دون إمكانية للانفصال للأبد**». بل ويسعى كثير من هؤلاء **لتحطيم كل صاحب فضيلة أو جمال أو حُسن أو صدق، حتى لا يعانون الشعور بدونيتهم.**

وتروج كتابات هؤلاء دائمًا **أن الملحدين هم الصفوة الفكرية فى المجتمعات**، وأنهم يحصلون على معدلات عالية فى اختبارات الذكاء. **لذلك أصبحت** كُتب علم النفس والسِير الشخصية ملأى بمواقف الكثيرين من كبار وصغار الملاحدة التى تكشف ذلك. فتجد الملحد **يعلن إلحاده على الملأ ليحقق الشهرة ليشعر بذاتيته وتميزه**، وصدقت المقولة بأن الملحد **يحتاج لعدو حتى يشعر بذاته**».

وإذا كان للإلحاد **أسبابه النفسية (التنشئة Nurture)** والشخصية، بالإضافة إلى **أسبابه العضوية Nature** (المنظومة البيولوجية للإيمان ـ التوحد)، فليس معنى ذلك أن الإنسان مُسير فى تبنيه الإيمان أو الإلحاد، بل **إن كل شخص يستطيع بإرادته الحرة واختياره أن يتوجه إلى الإله، أو أن يبتعد عنه، أو أن يقف ضده.**

* * *

الفصل السابع



علم نفس مجتمع الإلحاد

- زلزال وتوابع
  - زلزال الاستنارة
  - الخراب... توابع الاستنارة
  - الانهيار فى العصر الفيكتورى
  - إذا مات الإله، فكل شىء مباح
- د. عبد الوهاب المسيرى: عالم نفس الحضارة المادية
  - حضارة تفرز الإلحاد
  - مجتمع ما بعد الإلحاد: طوفان النموذج المادى وسلبياته
  - حضارة مصابة بالتوحد
- مجتمع الإباحية الجنسية
  - النموذج المادى يفرز السعار الجنسى
  - الجنس فى المدرسة
  - مجتمع صناعة الجنس
  - الإجهاض
  - الجنس قبل الزواج
  - ثمار الإباحية الجنسية
  - الزواج المثلى
- مجتمع العنف: بداية النهاية
- الإعلام: منبر مجتمع الإلحاد وكتابه المقدس
  - لعبة المصباح والفراشة
  - سمات الخطاب الإعلامى المادى
    - ١) العنف
    - ٢) عبادة الجسد
    - ٣) تدمير الذات
    - ٤) مجتمع يتعاطى العقاقير
    - ٥) عالم شاغله الجنس
    - ٦) ضجيج الإعلام المبتذل
    - ٧) مجتمع متدنٍ معرفيًا
    - ٨) التضليل والإغواء
    - ٩) إزهاق روح التعاطف
    - ١٠) تعزيز السلبية
    - ١١) وأد الحقيقة
  - المسيخ الدجال
- آلهة مجتمع الإلحاد.
  - العلم الإله
- القارئ الكريم

«لقد عاد الإنسان
البربرى إلى الحياة»
نيتشه
«لا أحد إلا الإله يُحَجِّم
الوحش البربرى داخل الإنسان»
ألكسندر سولزهنتزن

تَعَرَّضنا فى الفصل الأول **لميلاد الإلحاد المعاصر** الذى أعقب الثورة العلمية فى أوروبا. ورأينا كيف أنه لا يوجد اكتشاف علمى واحد يتعارض مع الوجود الإلهى، ومع ذلك فقد حدثت فى أوروبا **أعتى موجة إلحادية فى تاريخ البشرية**، بعد أن استقر فى العقل الغربى أن كل اكتشاف علمى يفسر ظاهرة من الظواهر الطبيعية ينتقص من رصيد الألوهية. والحقيقة أن هذه الموجة الإلحادية ترجع لعدة **أسباب نفسية مجتمعية**، استعرضناها فى ذلك الفصل.

وبديهى أن الانتقال من المنظومة الدينية الكنسية فى أوروبا إلى الإلحاد لم يتم فى خطوة واحدة، لكنه تم من خلال **مراحل وسطى شكلتها الخلفية النفسية للمجتمع**، نعرضها فى بداية هذا الفصل.

ثم نتبع ذلك بدراسة **ثلاث من السمات النفسية الرئيسة للمجتمعات المادية المعاصرة**، والتى ساعدت على نشأة الإلحاد فى حضارتنا المعاصرة، وهى فى نفس الوقت من أهم إفرازات الإلحاد، أى أن العلاقة بين هذه السمات وبين الإلحاد **علاقة تبادلية**، وهذه السمات هى:

- حضارتنا حضارة مادية.
- نحيا فى مجتمع الإباحية الجنسية.
- نحيا فى مجتمع العنف.

ونختم الفصل بوقفة مع **الإعلام**، باعتباره منبر مجتمع **الإلحاد** وكتابه المقدس، وباعتبار أن العلاقة بينهما علاقة تبادلية أيضًا.

زلزال وتوابع

زلزال الاستنارة

يُعرف القرن الثامن عشر فى أوروبا **بعصر الاستنارة Enlightenment**. وفى هذه الفترة، كان من لوازم الوجاهة عند **رجال الطبقة الأرستقراطية** فى إنجلترا وفرنسا أن يشتهروا بمغامراتهم النسائية، كذلك ما كان الرجل منهم يستطيع أن يحتمل العار فى مجتمعه إذا أُسيء إلى شرفه ولم يدعو غريمه للمبارزة ويقتل أحدهما الآخر.

فى هذه الفترة من تاريخ أوروبا، استخدمت هذه **الطبقة الراقية** ما تَكَشَّفَ للعلم من معارف جديدة ليؤسسوا **دينًا جديدًا هو «الربوبية Deism»**. لقد أصبح هؤلاء يؤمنون بالإله كخالق، لكن يرفضون أن يضع لهم منظومتهم الأخلاقية، المتمثلة فى الوصايا العشر من الكتاب المقدس. لا شك أن الربوبية كانت زلزالًا أدى إلى انحراف كبير عن المسيحية التقليدية فى أوروبا.

لقد كان هؤلاء يبحثون عن **الإيمان الذى يسمح لهم بالمعاصى**، أو على الأقل يتجاهلها. وإذا أَصَّرَ البعض على رفض الزنا وقتل المبارزة، فليفعل ذلك باعتبارهما عملين وحشيين بذيئين، **وليس لأن الإله ينهى عن ذلك**.

وفى الوقت نفسه كان من لا وظيفة ولا مهنة له من الطبقات العليا **يلتحق بالكنيسة** ليكون من رجالها، وهو ما شارك فى تدهور حال الكنيسة.

وإذا كان الربوبيون يرفضون الإله الذى يحد من رغباتهم وحرياتهم، فقد أصبحوا **أكثر رفضًا للكنيسة** لِما صارت تتسم به من تشدد فى فهم وفرض نصوص الكتاب المقدس، وما يتسم به رجالها من نفاق ووحشية.

وإذا نظرنا إلى **مؤسسة الأسرة فى عصر الاستنارة**، نجد الشاب الأرستقراطى الفاسق ذا المغامرات النسائية المتعددة يبحث عن فتاة لا ماضٍ لها ليتزوج منها وينجب طفلًا ذَكَرًا لا شك فى نَسَبِه يقوم الوالدان بمتابعة تربيته، ليرث ألقاب العائلة وممتلكاتها. أما باقى الأبناء فكانت الخادمات تقمن بتربيتهم.

لذلك، لم يكن هؤلاء الأطفال (القرن ١٨) يتعرضون لتأنيب كبير من والديهم المشغولين

بالالتزامات الاجتماعية، فنشأوا دون **ضغوط نفسية** كنسية ولا أسرية كبيرة، مما سمح لهم بعدما شبوا بالنظر فى الدين والإيمان بالألوهية من **منطلقات منطقية**، لذلك تبنى الكثيرون منهم الربوبية ورفضوا المسيحية.

الانهيار فى العصر الفيكتورى

كان **العصر الفيكتورى Victorian Era** فى أوروبا هو **التربة التى نبت فيها الإلحاد المعاصر**. فبعد قيام الثورة الفرنسية التى أعقبتها حروب نابليون انتهى عصر الاستنارة، وبدأت **المرحلة الرومانسية**، التى يمكن تلخيص فكرها فى كلمات ثلاث: «**المشاعر فوق العقل**».

كانت هذه المرحلة إيذانًا **بأفول دين الربوبية** الذى اتشح بوشاح العلم والعقل. فبعد وصول **الملكة فيكتوريا** إلى العرش عام ١٨٣٧، تزوجت من الأمير الألمانى ألبرت الذى استقدم التقاليد والمفاهيم شديدة الرومانسية من ألمانيا إلى إنجلترا. وبذلك **بدأ العصر الفيكتورى**.

فى هذا العصر الفيكتورى الرومانسى تم بعث المسيحية من جديد، فصار الرجال أكثر التزامًا، وصارت الأسرة تسعى لإنجاب عدد كبير من الأطفال الذين يموت نصفهم، وكان الوالدان يتابعان عن قرب شديد تربية من تبقى من أبنائهما أحياء على **التقاليد** المسيحية، وقد أصبح ذلك أمرًا بديهيًّا بعد أن اشتهر عن الملكة فيكتوريا أنها تتابع تربية أبنائها بنفسها.

لقد **عانى هؤلاء الأطفال العقوبات الشديدة** على أخطاء تافهة، مما أدى إلى كراهية دفينة تجاه الوالدين. ولم تقف المشكلة عند البيت وحسب، بل كان ذلك أيضًا هو **أسلوب التعليم فى المدارس**. وزاد الطين بِلّة، أن الأطفال كانوا يُلَقَّنون أن الكتاب المقدس يأمر دائمًا بمعاقبتهم. إذًا، ليس الوالدان والمعلمون هم فقط الساديين، بل إن **الإله سادىٌّ أيضًا**.

لقد أصبحت العلة التى يعانيها أطفال هذا الجيل هى «**افتقاد الحب Love Lessness**». **لقد امتدت الكراهية إلى الإله**، الذى يرمز إليه الوالدان والمعلمون بالنسبة للطفل.

يتركز ميراث العصر الفيكتورى على المستوى النفسانى فى ظهور نموذج «**الابن الضحية The Son Victim**». لقد كان عصرًا صارمًا عابثًا، قاسيًّا بتوحش، يفتقد الحب، **أخرج جيلًا مهووسًا بكره الإله**. وكان طبيعيًّا أن يفرز هذا الجيل رجالًا يعانون نمطًا من الإلحاد، يتلخص منهجه فى «**التلاعب بالحقائق العلمية لمهاجمة الإله كرمز للأب**».

لقد كان كبار **مؤسسى هذا الإلحاد المادى** (دارون ـ نيتشه ـ فرويد ـ شوبنهور ...) من

ضحايا هذا العصر، مع كثيرين غيرهم. كذلك كان كبار رجال **الإلحاد الجديد** من تلاميذ هؤلاء الضحايا المهووسين.

الخراب... توابع الاستنارة

يتحدث العلمانيون عن عصر الاستنارة Enlightment فى أوروبا باعتباره استنارة بحق!! **وتعاموا عما سببته الاستنارة من خراب بشكل مباشر أو غير مباشر.**

فمن أجل دعم إلهها «**العقل**»، أجبرت «**الثورة الفرنسية**» **٢٠,٠٠٠ قس** على الاستقالة من وظائفهم الدينية تحت التهديد بالقتل أو السجن. كما أُجبر ٣٠,٠٠٠ قس على مغادرة فرنسا، ومن رفض كان غذاءً للمقصلة أو أُكرم بالنفى إلى غينيا. وقد كان مصير **٤٠,٠٠٠ كنيسة** إما الإغلاق أو البيع أو التدمير أو الاستخدام فى أغراض غير دينية. وحتى الآن لم تتعاف فرنسا من هذا السلوك الإرهابى ضد الدين[(١)].

وفى «**ألمانيا**»، قامت **الحركة الليبرالية (١٨٧١ - ١٨٧٨)**، وتبنت اتجاهات علمانية إلحادية. لقد تم سجن أو نفى نصف **أساقفة ألمانيا**، حتى أصبح نصف الشعب الألمانى دون قساوسة، كما تم نفى نصف الرهبان والراهبات وإغلاق ثلث الأديرة، وسُجِن عشرات الآلاف من **العوام** لمساعدتهم رجال الدين على الاختباء[(٢)].

لقد كانت المبادئ الإلحادية (التنويرية!!) **لنيتشه وشوبنهور** هى الأساس الذى أقام عليه هتلر ألمانيا النازية.[(٣)] وقد أهدى هتلر بنفسه نُسخًا من كتابات نيتشه لستالين وموسولينى[(٤)].

وقد قام «**هتلر**» بإلغاء الخدمات الدينية من المدارس، وصادر ممتلكات الكنيسة، وأغلق العديد من الكنائس والأديرة، ووزع منشورات ضد الكنيسة وضد الدين على جنوده. وقد قامت **حكومة النازى** بمصادرة المطبوعات الدينية وأغلقت مطابعها، وحَلَّت جمعيات الشبيبة الدينية وكافة المؤسسات الدعوية، وسجنت الآلاف من القسيسين والرهبان والراهبات والمتدينين بتهم كاذبة، وأغلقت دور حضانة الكنائس ورفعت الصلبان من المدارس. وتم شحن **الآلاف** من رجال الدين

---

(١) Richard Helmstader, Freedom and Religion in the 19th century (Stanford university press, 1997), 19

(٢) Ravi Zacharias, The end of Reason (Grand Rapids: Zondervan, 2008), 51

(٣) Rober Wicks, Arther Sehopenhauer, in the Stanford Encyclopedia in philosophy, ed. Eduward zalata, 2007

(٤) Ravi Zacharias, The end of Reason (Grand Rapids: Zondervan, 2008), 51

والعامة من المتدينين إلى ثكنات خاصة فى معسكرات للنازى يلقون فيها معاملة بالغة القسوة، حتى قُتل منهم ٢٦٠٠ قسيس[١].

كذلك كان الإلحاد الجذرى فى «**الاتحاد السوفييتى**» الذى تبنى أفكار ماركس من إفراز حركة الاستنارة، وقد تبنى هذا الإلحاد الإبادة الجماعية. ولما كانت وطأة الحرب شديدة وتطلبت التسخير فى الخدمة العسكرية، فقد انتشرت المجاعات والأوبئة، وهو ما قَضَى على عشرات الملايين من البشر. وأغلقت المساجد والكنائس وتحولت أنشطتها إلى نشاطات علمانية عامة.

وتشير الإحصائيات إلى أن **لينين** قتل ٦-٨ ملايين شخص، وقتل **ستالين** ٢٠-٢٥ مليونًا، وكان من هؤلاء ٥٠,٠٠٠ قس، وبعد أن كان فى روسيا قبل الثورة الشيوعية ٦٦,١٤٠ قس أصبحوا ٦,٣٧٦ قبيل الحرب العالمية الثانية. وقُتل فى «**أوروبا الشرقية**» باسم الاشتراكية ٢-٣ ملايين شخص، وفى الفترة من ١٩١٧ - ١٩٦٩ تم تدمير ٤١,٠٠٠ - ٤٨,٠٠٠ كنيسة[٢].

ويبين كتاب «**التاريخ الأسود للشيوعية**»، أن عدد ضحاياها فى العالم تجاوز ١٤٨ مليون قتيل على أحسن تقدير، ويصل به البعض إلى ٢٥٠ مليون قتيل. حتى إن الشيوعية **تُعَد أكثر التجارب الفاشلة كُلفة فى التاريخ**.[٣]

وفى «**أسبانيا**» قتلت منظمة الإرهاب الأحمر عام ١٩٣٦ ثلث القساوسة العاملين بالمؤسسات الكاثوليكية و ٢٨٣ راهبة، وأغلقت كنائسها وتم الاستيلاء على ممتلكاتها، وتم حرق ٥٨ كنيسة حرقًا كاملًا، ومُنع تدريس الدين نهائيًا.

أما ملاحدة «**المكسيك**» (القمصان الحمراء والحزب الاشتراكى) فقد قاموا فى الفترة من ١٩٢٦ - ١٩٣٤ بقتل ونفى ٤٠٠٠ رجل دين ولم يبق منهم إلا ٣٣٤ فقط.

وفى «**الصين**»، قام **نظام ماو** بأعمال مشابهة لما حدث فى روسيا. فتم تدمير ٧٠٠٠ دير ومعبد بوذى فى التبت، و ٤٤٠ معبدًا فى كوريا الشمالية من إجمالى ٥٠٠ معبد، و ٢٤٠ فى فيتنام من إجمالى ٧٠٠ معبد.

ويلخص المفكر والمؤرخ والأديب ألكسندر سولزهنتزن[٤] Aleksandr Solzhenitsyn الحائز على جائزة نوبل فى الأدب الموقف قائلًا:

(١) Alan Bullock, Hitler: A Story in Tyranny (Harper Prennia Edition, 1991), 218

(٢) Letter to Dr. Clarence Gamble, Sophia Smith Collection, Smith College

(٣) Zbigniew Brzenzinski, out of control, (New York: Touchstone, 1995) 17

(٤) Aleksandr Solzhenitsyn: (١٩١٨ - ٢٠٠٨) من أشد المعارضين لديكتاتورية الشيوعية.

لقد أنفقتُ خمسين عامًا فى دراسة الثورة الشيوعية، قرأت فيها مئات الكتب ومئات الدراسات. وقد كتبت قناعاتى فى ثمانية مجلدات لتفسير لماذا قضت هذه الثورة على عشرات الملايين من إخواننا البشر. وأستطيع أن ألخص هذه المجلدات فى جملة واحدة، وهى «**لقد نسى الرجالُ الإله Men have forgotten God**»[1]، **فلا أحد إلا الإله يحجم الوحش البربرى داخل الإنسان.**

إذا مات الإله، فكل شىء مباح

إذا كانت بنية الديانات عقيدة وشريعة...

وإذا كانت «**عقيدة ديانة الإلحاد**» هى إنكار الغيب كله، وعلى رأسه الإله... فما «**شريعة ديانة الإلحاد**»؟

تتلخص هذه الشريعة فى مقولة «دستوفسكى» فى رائعته «الأخوة كرامازوف»: **إذا مات الإله، فكل شىء مباح.**

وإذا ترجمنا هذه المقولة بلغة علم النفس نقول: إن الإله يُحَجِّم الوحشَ داخل نفوسنا، إننا بدون الإله نصبح برابرة...

لقد جعل الإلحادُ الحاضرَ كئيبًا، وسيصبح المستقبل أكثر كآبة..

ففى غياب المطلق يمكن إجهاض كل خير..

فعندما تكون المرجعية هى المصلحة وحفظ الذات ومذهب اللذة، وعندما يسيطر على المجتمع **الصراع من أجل البقاء والبقاء للأصلح... فستهلك الحضارة.**

إن ما كان فسقًا بالأمس أصبح مقبولًا اليوم، لقد كانت الإباحية الجنسية والإجهاض والتمييز العنصرى وإفساد البيئة خطايا بالأمس، ثم تم السكوت عنها، ثم أصبحت اليوم مقبولة.

وكما رأينا (فى الفصل الرابع) أن الإلحاد يدمر حياة الإنسان، فإنه بالمثل، **يدمر الحضارة والمجتمع.**

انظر إلى قول **أستاذ العلوم العصبية والنفسية فيكتور فرانكل**[2] Victor Frankl:

(١) Paul G. Humber, Insight (October 1987),n.172

(٢) Victor Frankl : (١٩٠٥ - ١٩٩٧) عالم النفس النمساوى الذى عانى الاضطهاد النازى.

«إذا غذينا عقول مجموعة من الناس بمفاهيم خاطئة عن الإنسان، فلا شك أن **عقولهم ستفرز نمطًا منحرفًا من التعامل مع البشر**. إن الملاحدة يتبنون أن **الإنسان ليس إلا آلة تعمل** بردود الأفعال (تحكمها الدوافع والاستجابات)، وأنه مجموعة من الغرائز توجهها الوراثة والبيئة، ومن ثم تعامل هؤلاء مع الإنسان من هذا المنطلق. وإذا كان الفلاسفة والعلماء النازيين قد تبنوا أن الإنسان ليس إلا «لحم ودم»، فقد أفرز هذا الفهم أفران الغاز التى تخلصوا فيها من كل ما يعوق النازية»[(١)].

هل ما ذكره فيكتور ادعاء متدينين؟

فلننظر كلمة الملاحدة أنفسهم.

انظر كلمة **مارجريت سانجرز** Margaret Sangers الداعية إلى العنصرية وسيادة الأنثى Feminism فى عشرينيات القرن العشرين:

«إن البشر من ذوى الجينات المتدنية، كاليهود واللاتينيين والسلافيين، ليسوا إلا أعشابًا ضارة متسلقة، أو قل **نفايات بشرية**. وينبغى تخييرهم بين العزل فى مجتمعات مغلقة أو تعقيمهم، أليس ذلك أفضل من إبادتهم؟!

وينبغى إعطاء الفرصة الأكبر للتكاثر للأقوى والأصلح **والأقدر على الصراع**، حتى ننقى جنسنا البشرى، لذلك يصبح منع التكاثر بالتعقيم حاجة ملحة.

وينبغى أن تجعل البشريةُ **الإشباعَ الجنسى اللامحدود** من أهم أهدافها، دون تحمل عبء نشأة أطفال غير مرغوب فيهم. أليس من حق المرأة أن تحيا وأن تحب دون تحمل عبء الأمومة، كما أن من حقهن أن يصبحن أمهات دون الحاجة إلى زواج. أليس من حقهن أن يهبن الحياة أو أن يدمرنها»[(٢)].

لم يكن هذا الطرح مجرد دعوة لحرية المرأة فى بداية القرن الماضى، لكنه جزء من مفاهيم إلحادية امتدت إلى زماننا المعاصر. انظر إلى سام هاريس يقول: «**إن المفاهيم الدينية خطيرة للغاية، حتى صار قتل معتنقيها عملًا أخلاقيًّا**»[(٣)].

(١) Victor Frankl, The Doctor and The soal (New York: Vintage, 1973) xxi

(٢) Letter to Dr Clarence Gamble, Sophia Smith Collection, Smith College

(٣) Harris, End of Faith, 52-53

د. عبد الوهاب المسيرى

عالِم نفس الحضارة المادية[1]

حضارة تفرز الإلحاد

رأينا فى الفصل الأول كيف طرح د.المسيرى متتالية (العقل المادى ـ الفكر المادى ـ الحضارة المادية) **ثم الإلحاد**، كسبب أول لميلاد الإلحاد المعاصر، والآن نتعرض لسمات المجتمعات التى أصبحت ضحية الإلحاد.

مجتمع ما بعد الإلحاد

طوفان النموذج المادى وسلبياته

يحدد أستاذنا المسيرى عددًا من سمات مجتمع ما بعد الإلحاد، التى تُعتبر بمثابة الأعمدة النفسية التى يقوم عليها، ويصف هذه السمات مجتمِعَة **بالعقلانية المادية أو الاستنارة المظلمة**.

يقول د. المسيرى (رحمه الله):

اكتشفت بالتدريج أن **العقلانية الغربية** يتخفى وراءها **نموذج مادى** يساوى بين الإنسان والطبيعة المادية، ويعتبر أن مهمة العقل الإنسانى الوحيدة أن يرصد الطبيعة ويعرف مسارها وقوانينها ليطبقها على الإنسان، ومن هنا سميتها «**العقلانية المادية**»[2] (التى تُسمَّى عادةً **الاستنارة**)، وهى

(١) هذا المبحث عن كتاب: رحلة الدكتور عبد الوهاب المسيرى الفكرية، دراسة فى فكره وسيرته. تأليف د. عمرو شريف. الناشر نيوبوك، الطبعة الخامسة ٢٠١٥.

(٢) يتبنى د. المسيرى أن **هيمنة العقل المادى فى الغرب هى المسئولة عن الكره العميق الذى يشعر به الكثيرون تجاه العرب**، وعن عدم فهم قضية حق العودة للفلسطينيين وأهمية القدس. فاللاجئون الفلسطينيون يعيشون فى وضع مادى مزرٍ ومع هذا يرفض غالبيتهم التعويضات السخية التى يمكن أن تُدفع لهم، وهم لا يزالون يتذكرون بيوتهم فى حيفا ويافا ويحتفظون بمفاتيحها، وهم مستمرون فى مقاومة العدو عبر ما يزيد على مائة عام، ويصرون على أن مدينة القدس هى عاصمة دولتهم. **كل هذا، من منظور العقلانية المادية، يبدو أمرًا متخلفًا لاعقلانيًّا يثير الغيظ والحنق**، إذ كيف يمكن لهؤلاء الفقراء أن يتمسكوا بتراثهم ومقدساتهم برغم كل الإغراءات المادية؟ ما الذى حدث لعقولهم؟!.

تتباهى بمقدرة العقل (المادى) على التجريب **ولكنه تجريب منفصل عن القيم الإنسانية والأخلاقية، ثم يتلقف نتائج تجريبه دون تساؤل عن المعنى والغاية**. وأهم سمات هذا النموذج:

أولًا: لا مكان للطمأنينة والاتزان فى قلب الإنسان

القلق والتآكل الكامل للأسرة

كانت معظم المجتمعات الإنسانية فى الماضى تحاول «**إدخال الطمأنينة**» على قلب الإنسان، بحيث يحتفظ بتوازنه مع نفسه ومع الطبيعة. ولعل الأسرة هى أهم المؤسسات التى طورها الإنسان ليُدخل الطمأنينة على قلبه. أما المجتمعات الحديثة (خصوصًا المجتمع الأمريكى) فقد **جعلت الإنتاجية والحركية هدفها**. ويبدو أن الفرد المطمئن المتوازن مع نفسه يقف على طرف النقيض من الفرد المنتج الحركى (فالقلق، يولد نزعة إمبريالية فى الإنسان تجعله يود غزو العالم والهيمنة عليه ليثبت لنفسه تفوقه فيحقق شيئًا من الاتزان والطمأنينة)[1].

إن المجتمع الأمريكى هو **مجتمع القلق**، يتحدث عن الاعتماد على النفس ويقذف بأطفاله فى سوق العمالة فى مرحلة مبكرة للغاية. وفى سن الثامنة عشرة لا بد من أن يترك الفرد أسرته ليعيش بمفرده وليكمل تعليمه. لقد جعل **التآكل الكامل للأسرة** الفرد يعيش منعزلًا ولا يشعر بأى اطمئنان، بل يُترك وحيدًا أمام آلاف الاختيارات والإعلانات، حتى يلتهمه الإعلام الكفء التهامًا، لا يجد أية مرجعية تكون موضع ثقته ومصدر شرعيته وتضفى معنى على وجوده وتساعده على اتخاذ القرار. لقد **فقد الإنسان «المرفأ فى عالم بلا قلب»** كما يقول عالم الاجتماع الأمريكى كريستوفر لاش فى وصفه لتآكل نظام الأسرة.

ثانيًا: ليس هناك تميّز فردى إنسانى. وإنما نمطية مذهلة

كنت أتصور، شأنى شأن الكثيرين، أن الحضارة الغربية هى حضارة تُميز كل إنسان عمن سواه، وتحترم تفرده «**حضارة الفردية**»، وأن حضارتنا هى الحضارة الشرقية الجَمعيّة. هكذا تعلمنا، وهكذا أدركنا الحياة.

(١) يعقد د. المسيرى هذه المقارنة: قمت بعقد مقارنة بين الأنماط الأمريكية والأنماط المصرية التى عرفتها فى مصر، فوجدت أن **عالم الإنسان المصرى أكثر امتلاءً وأكثر صلابة**، فهو قادر على الحب وعلى الكره، وعلى التعاون والتآمر، وعلى أن يسترجع ذكرياته وأن يتحمس لوطنه وذاته. وهو لا يصدق كلي ما يُقال له بسرعة، بل تجده يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ليتحقق من صدق ما سمع فى إذاعة مصر. أما الإنسان الأمريكى، فهو مؤمن تمامًا بكل ما يُقال له، وما يُقال له هو كبسولات إعلامية تزيده تبعية خارجية وهشاشة داخلية.

ولكننى حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة، لاحظت أن ثمة «**نمطية مذهلة**» فى أشكال الحياة وفى الأنماط الإنسانية. وقد زادت النمطية بعد ظهور **علوم متخصصة فى التحكم فى السلوك الإنسانى**، تخصصت فى توجيه حياة الإنسان وضبطها وفقًا لخطة محددة (نوم ـ إفطار ـ عمل)، بحيث أصبح كل شىء مجهزًا مسبقًا، حتى الإجازات والأفراح بل والمآتم[1].

كنت أقابل الكثيرين من الأمريكيين الذين يغيرون ملبسهم ومأكلهم وسلوكهم **حسب ما يمليه الإعلام والكتالوجات**، فأدركت أن ما يسود فى الولايات المتحدة ليس الفردية وإنما البراجماتية. **والإنسان البراجماتى** لا يكترث بالثوابت ولا يهتم بالقيم مثل الكرامة والشهامة، فهو إنسان مرن إلى أقصى حد، وعملى بشكل متطرف، يقبل أى شىء طالما إنه ينجح، ولذا ينتهى به الأمر إلى أن **ذاته الجوانية تضمر**، ويأخذ فى التكيف مع ما حوله ويستجيب بشكل مباشر لما يأتيه من إشارات ونداءات وإعلانات وبيانات سياسية، فيعيد صياغة نفسه بسهولة وسرعة حسب آخر الصيحات.

ويتنافى هذا مع ما تعلمناه من أن الإنسان الغربى إنسان فاوستى مسيطر (يعتز بفرديته إلى أقصى درجة)، يقف وحيدًا فى الكون، عالمه الداخلى من صنعه، وهو يحاول فى الوقت نفسه أن يملى إرادته على العالم الخارجى من حوله. لم أجد شيئًا من هـذا (إلا فى الأعمال الأدبية والسينمائية). لقد أصابت الإنسان الغربى «**عقدة عدم الثقة بالنفس**» فأخذ يستمد صورته لنفسه من الإعلام الذى كان آخذًا فى التوحش والتغول.

ثالثًا: اجتماع النقيضين، الذاتية المتطرفة مع الذوبان فى الكل

حينما درست الأدب الأمريكى لاحظت ظاهرة غريبة: أن كلًّا من «**الذاتية المتطرفة**» (شعورى بذاتى ورغبتى فى تحقيقها) و«**ذوبان الذات فى الكل**» (الطبيعة ـ الكون ـ الولايات المتحدة الأمريكية)

(١) يعطى د. المسيرى مثالاً لذلك: فى حفلات الكوكتيل، كنت ألاحظ حرص العاملين على أن يثبتوا لرؤسائهم أن حياتهم العائلية مستقرة ولن تعوق مسيرة الإنتاج والعمل، أى أن **الحياة الخاصة تُوَظَّف فى خدمة الحياة العامة**، ولذا كانت زوجات المرءوسين يحرصن على الحديث مع الرئيس أو زوجته ليبرهِنَّ على أن كل شىء تمام التمام!.
وقد حدث العكس تمامًا حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩، إذ دعوت أنا وزوجتى **عضوات هيئة التدريس فى كلية البنات** وأزواجهن لطعام العشاء فى منزلى، ففوجئت بأنهن جميعًا تقريبًا حضرن مستقلات. وحينما تأملت الواقعة أدركت أن حياتهن الخاصة لها حرمتها وخصوصيتها وفرديتها وأنه لا يجوز بأى حال جرها جرًّا للحياة العامة.

يتعايشان جنبًا إلى جنب، برغم تناقضهما، وبدأت أُلاحظ أن المجتمع الحديث الذى يزعم أنه يدافع عن الفردية يقوم فى واقع الأمر بهدمها وتذويبها، وباقتحام عالم الإنسان الجوانى.

وأضرب مثلًا بتقاليع موضة الملابس نصف السنوية (شتاءً وصيفًا)، وكيف أن من يقرر أن يرتدى رداء حسب «آخر موضة» هو **إنسان متمركز حول ذاته** يود إظهارها وتحقيقها بكل قوة، ولكن المفارقة أنه حين يفعل ذلك يكون قد **تخلى عن فرديته تمامًا!** لأن عليه أن ينفذ أوامر مصمم الأزياء بحذافيرها لأن **«الموضة كده السنة دى»**.

ويمكن وصف المجتمعات الغربية المتقدمة بأنها مجتمعات يسود فيها نوع من **«غياب الحرية فى إطار ديمقراطى سلس معقول** unfreedom democratic reasonable smooth» كما يقول المفكر هربرت ماركوز، أى أنها مجتمعات شمولية نجحت فى أن تجعل الجماهير تتبنى الرؤية السائدة فى المجتمع، وتسلك حسبها دون قمع بوليسى، بحيث يقتنع الإنسان أن الهدف من الحياة هو زيادة الإنتاج والاستهلاك والاستمتاع.

رابعًا: مستنقع النسبية المطلقة

١) النسبية المعـرفية والأخلاقية

أصبح الإنسان بلا مرجعية، شخص غير قادر على الحكم

من السمات الأساسية فى الحضارة الغربية الحديثة (بل أهم سلبياتها) **«النسبية المعرفية والأخلاقية»** التى كان من المفروض أن «تُحرر الإنسان» وتفسح له المجال لتأكيد فرديته، لكنها أدت إلى العكس. فالنسبية تنزع القداسة عن العالم (الإنسان والطبيعة) **وتجعل كل الأمور متساوية**، ومن هنا فالظلم مثل العدل، والثورة ضد الظلم لا تختلف عن الاستسلام له. فيصبح من العسير للغاية على الإنسان الفرد أن يتخذ أية قرارات بشأن أى شىء، ويصبح من السهل اتخاذ القرارات بالنيابة عنه والهيمنة عليه سياسيًّا. **فالنسبية قوضت الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار وإن كانت، فى الوقت ذاته، قادرة على إقناعه بأى شىء، وكل شىء.**

وبدلًا من أن تجعل النسبية من الإنسان شخصية ثورية يفعل ما يريد، جعلته شخصية محافظة رجعية قادرة على **التكيف مع الأعم والأغلب**، وهذا الأعم والأغلب تحدده صفوة من **الشخصيات النيتشوية القوية المسيطرة** من الاقتصاديين والسياسيين والإعلاميين، لذلك فإن

تآكل المعايير الأخلاقية والاجتماعية السائدة فى المجتمعات يترك الإنسان بلا معيارية (أى بلا مقاييس يحتكم إليها)[1].

بل إن القانون الأمريكى نفسه، بتقبله المفاهيم النسبية، **يجعل إصدار الأحكام أمرًا فى غاية الصعوبة.** أخبرتنى إحدى الزميلات أنها قررت أن تجلس على حِجْر صديقها فى أثناء قيادته للسيارة. فأوقفهما ضابط الشرطة، الذى تَبَرم من منظرهما، ولكن القانون لا يخول له أن يُجَرِّم مثل هذا الفعل، فأصدر للسائق تذكرة مخالفة مرورية، على اعتبار أن زميلتى كانت تحجب عنه الرؤية!.

٢) غياب المفاهيم الإنسانية الفطرية عن السعادة يؤدى إلى البؤس

لقد أدى الغلو فى النسبية إلى أن يصبح الكثير من المفاهيم الإنسانية الفطرية الأساسية، مثل الإحساس بالسعادة أو البؤس، محل تساؤل بسبب اختفاء المعايير وفقدان المقدرة على الحكم.

---

(١) يضرب د. المسيرى على ذلك عدة أمثلة:

١) من القصص الكوميدية التى تبين مدى تقويض النسبية للإنسان الغربى قصتى مع «ميس إيزو Eizo». كنا نتجاذب أطراف الحديث عن أشكال القهر فى العالم، فقالت الآنسة إيزو إنها تشعر بالاضطهاد لأنها لا يمكن أن تصبح بابا Pope (أى رئيسًا) للكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان؛ لأنها أنثى، فقلت (مازحًا بطبيعة الحال) أنا الآخر أشعر بنفس الإحساس بالاضطهاد لأننى لا يمكن أن أُعيَّن بابا للكنيسة الكاثوليكية لأننى مسلم. وبدلًا من أن يضحك الحاضرون، التزموا الصمت، وإذا بالآنسة إيزو تُعبِّر عن تعاطفها معى، ولم أدر ماذا أفعل! ولحسن حظى، تركت الآنسة إيزو المكان، فتشجع بقية الحاضرين وتساءلوا: «ألم تزد الآنسة إيزو عن حدها قليلًا؟» أى أنهم حتى أمام موقف فى غاية الوضوح لا يتحمل أى إبهام، لم تواتهم الشجاعة الكافية ليعبِّروا عن رأيهم.

٢) كنت أجلس أمام التليفزيون البريطانى أشاهد برنامجًا حواريًّا. كان يجلس على المنصة رجل وزوجته وأطفالهما، مع إضافة بسيطة للغاية وهو **عشيق الرجل** (نعم عشيقه لا عشيقته) الذى يعيش معهم تحت سقف نفس المنزل، بموافقة الزوجة والأطفال. وقد واجه الجمهور إشكالية حقيقية، فمن ناحية توجد الموافقة (وهى الشرط الأساسى والوحيد لأية علاقة جنسية فى العالم الغربى)، ومن ناحية أخرى يوجد الشذوذ الذى يسم هذا الوضع، **ولكن لا توجد أرضية دينية أو أخلاقية أو إنسانية يؤمن بها الجميع ويمكن الاحتكام إليها.** وكلما كان أحد الحاضرين يحتج على شىء، كان الزوج يرد بكل ثقة، بأن زوجته وأولاده موافقون وسعداء، وأى تدخل فى شئونهم سيكون إهدرًا لحريتهم وحقهم فى الاختيار، وعلى المعترض أن يتحلى بسعة الأفق broad-mindedness (وغنى عن القول إن سعة الأفق هذه تفتح الباب على مصراعيه لتقبل كل شىء أو أى شىء). ظل النقاش دائرًا دون مَخرج، إلى أن اكتشف أحد الحاضرين أن الأطفال ليسوا فى سن تسمح لهم بالاختيار، وتنفس الجمهور الصعداء، إذ وجدوا أرضية فلسفية مشتركة تعطيهم الحق فى الهجوم على الشذوذ، فشنوا هجومهم بشجاعة بالغة.

٣) من القصص الحزينة التى توضح **خطورة التنكر للطبيعة البشرية كأرضية صلبة يمكن الاحتكام إليها** قصة طالبتى التى فوجِئتُ بأن درجاتها بدأت تنخفض بسرعة، وعندما سألتها عن السبب قالت إن زوجها يحضر عشيقته معه إلى المنزل، وينامان معًا فى غرفة نومها، فتضطر هى إلى النوم على الأريكة فى الصالة. ولكنها بدلًا من أن تعبِّر عن أية مشاعر إنسانية فطرية (كالغيرة)، أخبرتنى بموضوعية شديدة أن «الأريكة فى الصالة غير مريحة، ولذا فهى لا تستطيع النوم». أخبرتها بأن عليها إذن أن تشترى أريكة جديدة مريحة، فنظرت إلىَّ وقد أدركت أننى عرفت ما لا تريد البوح به.

نشرت مجلة تايم مقالة بعنوان «صحيح الجسم، وثرى، وغير سعيد»، ورد فيه أن أكثر الأوربيين ثراءً وتقدمًا هم الألمان وهم كذلك أكثرهم بؤسًا وتشاؤمًا، وأن أكثرهم فقرًا الأيرلنديين والبرتغاليين. وهم أكثرهم رضًا. وتضيف المقالة أن **مقاييس التقدم الإنساني التى اعتمدتها هيئة الأمم المتحدة غير كافية**، فقد اعتبرت الدخل والتعليم ومتوسط العمر هى المقاييس الأساسية. ويقول الكاتب: حسب هذا المعيار، فإن أمة من المصابين بالأمراض النفسية، حصل كل أفرادها على شهادة دكتوراه ومتوسط أعمارهم ٩٠ عامًا، ستحصل على الدرجات النهائية. لأن المرض النفسى ليس جزءًا من المعايير. وانتهت المقالة بأن وصفت الإنسان الغربى بأنه «**خفاش يطير، ولكن بتوتر، ولا يعرف إلى أين**»[(١)].

ومما يجعل هذا البلاء غائبًا عن كثيرين، أن كلمات نحتاج إليها لوصف واقع هذه المجتمعات مثل «ضياع» و «اغتراب» «والطبيعة البشرية» تقع خارج قاموس أنصار النسبية المطلقة، فهى كلمات وثيقة الصلة بعالم الروح والمعنويات!.

٣) ازدواج الشخصية، وتبنى أكثر من نموذج

من الأشكال الحديثة لـ«**النسبية الأخلاقية**» أن يتبنى الإنسان أكثر من نموذج، فعلى سبيل المثال يتغنى **المجتمع الأمريكى** بأغانٍ يدور معظمها حول الحب الرومانسى، ولكن هذا المجتمع نفسه لا يكف عن الحديث عن الصراع من أجل البقاء كقيمة أساسية. **وبالمثل يتنازع الآباء اتجاهان متناقضان فى تنشئة أطفالهم**: هل يحافظون على براءة أطفالهم ورومانسيتهم، أم يعلمونهم فنون الصراع من أجل البقاء؟ إن حافظوا على براءتهم أفقدوهم جزءًا كبيرًا من مقدرتهم على الصراع، وإن فعلوا العكس، أفقدوهم جزءًا كبيرًا من براءتهم.

ويحسم بعض الأمريكيين (وكثير من البشر) هذه القضية بتبنى نموذجين: أحدهما للحياة

(١) إذا تأملنا نمط حياة الإنسان فى هذه **المجتمعات «الثرية البائسة»** وجدنا: بيت يبعد عن محل عمله - علاقات أسرية مفتتة - علاقة واهية بمحيطه الإنسانى - إيقاع حياة رهيب لا يترك مجالًا لأى شىء إنسانى - ساعات عمل قاسية - نسبة طلاق عالية - برامج تليفزيونية باهتة، كل هذا يؤدى إلى الإحساس القاسى بالوحدة. وللاستدلال على بنية **البؤس العميقة التى تخبئها قشرة السعادة السطحية**، تأمل: عدد الساعات التى يقضيها المواطن الأمريكى مع أطفاله وتلك التى يقضيها مع المعالج النفسى الذى أصبح جزءًا روتينيًا من الحياة اليومية فى الولايات المتحدة (٣٥٪ من شباب الدولة التى يُقال عنها متقدمة مصابون بأمراض نفسية). وكذلك الاستخدام المذهل للحبوب المهدئة والمنومة وأدوية الاكتئاب النفسى وانتشار المخدرات. كل هذا من أجل أن يستعيد الإنسان الأمريكى بعض التوازن الذى فقده؛ فلا يمكن تخيل سعادة دون توازن. هذا فى مجتمع جعل تحقيق السعادة الأرضية هدفه الأساسى والوحيد ويُفترض أنه نجح فى تحقيق أهدافه.

الخاصة والآخر للحياة العامة. لذا يمكن أن تجد أستاذًا للفلسفة يدعو للإباحية فى فلسفته، ولكنه فى حياته الخاصة يتمسك بأهداب الفضيلة التى ليس لها أى أساس فى رؤيته الفلسفية. ومرة كنت أحاور واحدًا من هؤلاء، فقال: أنا أومن بالنسبية المعرفية ومع ذلك لا يمكن القول بأننى منحل أخلاقيًا؟ فأجبته من غيظى قائلًا: **«إذن ستذهب أنت إلى الجنة أما أفكارك فستذهب للجحيم»**.

٤) مستنقع النسبية المطلقة أصاب الفنون بالعفن

لقد أثّرت النسبية فى كثير من مجالات الحياة، خصوصًا الفنون. فبدأت فى ستينيات القرن العشرين **«عملية تحرير الفن»** من القيود والحدود الأخلاقية والجمالية، حتى **أصبحت تحررًا من أية قيود أو معايير، كما تزايدت معدلات الإباحية والعنف**(١).

ويبلغ انحراف هذا الاتجاه الفنى أقصاه ليصل إلى ما يسمى «سنف موفيز snuff movies»، وهى أفلام يختلط فيها العنف والجنس بطريقة متطرفة، وكثيرًا ما تنتهى بقتل حقيقى لبطلة الفيلم وهى فى حالة نشوة جنسية. وقد بينت جريدة وول ستريت أن ما يحدث هو نتيجة طبيعية للموقف النسبى المتسيب من الفن والجنس ونتيجة إنكار الحدود باسم الحرية المطلقة والإبداع غير المتناهى!.

٥) مستنقع النسبية المطلقة أصاب السياسة كذلك بالعفن

صاحَبَ انتشار النسبية المطلقة ما يُسمَّى بـ«الخطاب السياسى الصحيح» correct politically وهو خطاب متعجرف، **يطالب المرء بألا يقول شيئًا قد يسىء لأحد أعضاء الأقليات**. وكل

(١) فى منتصف الستينيات كان الفنان آندى وورهول يُوَقِّع على علب القمامة وعلب الحساء القديمة فتتحول بقدرة قادر إلى أعمال فنية تُباع بآلاف الدولارات. وهناك مسرحية بعنوان **«أخت فيديل كاسترو»**، مليئة بالإشارات الجنسية الطفولية مع عرض الأعضاء التناسلية، **ولا تهدف إلى نقل أية رسالة، فهدفها الأساسى هو أن تصدم الجمهور**، كان الذكور يلعبون دور الإناث، وكانت الإناث يلعبن دور الذكور، ويتم كل هذا باسم الإبداع والنسبية والحرية.

وقد وصلت النسبية إلى أن أصبحت تعنى **التحرر من الحدود الإنسانية ذاتها**: انظر إلى آندريه سيرانو الذى تعود شهرته إلى «لوحة» بعنوان «فلتبول على المسيح Piss Christ»، حيث وضع الفنان صورة المسيح على الصليب فى البول. وأيضًا روبرت مابلثورب، وهو مصور فوتوغرافى تخصص فى تصوير نفسه فى أوضاع جنسية شاذة تتسم بالعنف. وثالثهم وأشهرهم هو جويل بيتر ويتكين وهو مصور فوتوغرافى يستخدم أجساد الموتى فى أعماله الفنية، وتُباع النسخة من صوره بـ ٣٥ ألف دولار. وحياة ويتكين لا تقل وحشية أو نسبية، فهو يعيش مع زوجته وعشيقتها وينامون فى نفس الفراش، كما يعترف أنه يمارس الجنس أحيانًا مع موضوعاته، أى جثث الموتى!.

البشر ـ حسب تصور هذا الخطاب ـ أعضاء أقليات: البدينون ـ طوال القامة ـ السود ـ اليهود ـ المعوقون. كما **يعدد هذا الخطاب الأشياء الصحيحة والمواقف الواجب تبنيها**، ومن ضمنها: الاهتمام بالبيئة ـ الاهتمام بكل الأقليات ـ قبول الشذوذ الجنسى بحُسبانه شكلًا طبيعيًّا من أشكال التعبير عن الهُوية[1]. وبعض هذه الأفكار خيرٌ ولا شك ولكن البعض الآخر يعبر عن رؤية مغالية فى النسبية.

ويُدعى إلى هذا الخطاب النسبى بطريقة متعصبة إرهابية، وأصبح شيئًا مخيفًا يهدد الجميع[2].

خامسًا: البحث عن اليقين العلمى الموضوعى الكامل حتى فى الأمور الإنسانية

لقد صاحَب النسبية المطلقة شىء مناقض لها تمامًا، وهو الرغبة الصارمة فى أن يصل المرء إلى اليقين العلمى الموضوعى الكامل بخصوص كل شىء، بما فى ذلك الأمور الإنسانية. **فما لا يمكن تعريفه بوضوح والتعبير عنه بدقه يتم تهميشه واستبعاده؛** كالتعبير عن العواطف والقيم الإنسانية[3].

سادسًا: وهْم الإحساس بالذنب

ثمة مقولة واهمة تعلمناها عن الحضارة الغربية، أنها حضارة «الإحساس (الجوانى والفردى) بالذنب guilt»، أما حضارتنا فهى حضارة الإحساس (البرانى والجماعى) «بالخجل

(١) هناك **الجانب الكوميدى لما يسمى بالخطاب السياسى الصحيح**. فمثلاً يجب ألا يقول الإنسان المتحضر: «رجل الثلج snow-man» بل عليه أن يقول «الشخص الثلجى snow-person» حتى لا تتضمن عبارته تميزًا للذكور على حساب الإناث!.

(٢) على سبيل المثال، قامت أستاذة علم اجتماع فى جامعة كاليفورنيا بتدريب الطالبات على الاستمناء (حتى يمكنهن الاستغناء تمامًا عن الرجال)، فاحتج أحد أولياء الأمور، فاتُهم بأنه ضيق الأُفق غير قادر على تقبل الجديد. فاضطر إلى اللجوء إلى القضاء، شاكيًا من أنه يُضّيع ماله بحسبانه من دافعى الضرائب، إذ لا يمكن لصاحبنا أن يشكو إلا على هذا الأساس، فالقانون الأمريكى قد فشل تمامًا فى تحديد موقف محدد من الإباحية أو العيب.

(٣) يضرب د. المسيرى مثالًا لذلك: فى حفل زفاف بالولايات المتحدة، التقيت بفتاة بلغ بها البحث عن اليقين العلمى الموضوعى مبلغًا كبيرًا، ودار بيننا حوار حاولت فيه **أن أبيِّن لها أن التواصل الإنسانى لا يتطلب دقة فى الحديث تحول لغة الحوار الإنسانى إلى معادلات رياضية. فالحوار يستند إلى مجموعة من التعميمات المشتركة التى لا يبوح بها أحد برغم وجودها،** ولكن الفتاة أصرت على أن كل شىء يجب أن يتم تقريره بوضوح. وفى اليوم التالى، استوقفتنى نفس الفتاة فى الطريق وسألتنى عن الوقت قائلة: **«هل تعرف الوقت؟»** فأجبتها: **«نعم أعرف الوقت»**، وهممت بالانصراف ثم استدرت وقلت ضاحكًا: «إن الدقة البالغة فى التعبير تؤدى إلى مثل هذا الموقف فى الأمور الإنسانية، فقد سألتينى عما إذا كنت أعرف الوقت أم لا، فكانت إجابتى على قدر سؤالك، وكان ينبغى عليكِ أن تقولى إن كنت تعرف الوقت، فهل يمكن أن تخبرنى به؟ «وضحكنا ثم افترقنا».

أو العار shame». **يريدون أن يشعروننا بأن الإنسان الغربى ينضبط من داخله، ولذا فهو أكثر تحضرًا**، أما الذى يتم ردعه اجتماعيًّا من الخارج بشكل دائم، فهو إنسان غير متحضر.

ولكن أسطورة إحساس الفرد بالذنب هذه تبخرت بغتة عام ١٩٧٧ حين انقطع التيار الكهربائى عن نيويورك بضع ساعات، وبدأ الناس يتحركون كالقطيع ويقومون بنهب كل ما تقع عليه أيديهم دون سبب واضح، بل اشتركت بعض السيدات من الطبقات الثرية البيضاء فى كرنفال السرقة. أخبرت أصدقائى الأمريكان ساعتها بأننى شاهدت الليلة السابقة تَبَخُّر إحدى الأساطير الحاكمة والمقولات المرجعية فى حياتنا جميعًا، وعلينا ألا نتحدث عن «الضبط الفردى الجوانى» وإنما عن «الضبط العلمى وربما البوليسى الكهربائى».

سابعًا: البحث عن ميتافيزيقا دون أعباء أخلاقية

ثمة ظاهرة غريبة انتشرت فى الولايات المتحدة؛ وهى زيادة قارئى الطالع والكف (كان آل ريجان لهم قارئة الطالع الخاصة بهم فى البيت الأبيض). كما ظهرت العبادات القديمة الجديدة (مثل عبادة الشمس أو الإيمان بالقدرات الخارقة للهرم وعبادة جايا؛ أى كوكب الأرض) والإيمان بالأطباق الطائرة. ويرجع ذلك إلى أنه رغم تزايد معدلات النسبية وتفشى أخلاقيات السوق **فإن الإنسان يظل بحاجة لإشباع الجانب الإنسانى فيه**. لذلك فلا مفر من الإيمان بما أسميه «**ميتافيزيقا دون أخلاق**»، فهذا يعطيه الشعور الميتافيزيقى الذى يبحث عنه، ولكنه فى الوقت ذاته لا يُحَمِّله أية أعباء أخلاقية، مثل الكسب الحلال وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

ثامنًا: النموذج المادى يفرز الإمبريالية

حضارة دفعنا تكاليفها

ببعض التأمل، تتضح **علاقة العقلانية الغربية بالإمبريالية**. تلك الأيديولوجية التى قامت على استغلال خيرات آسيا وإفريقيا ونهب العالم، تساندها فى ذلك القوة العسكرية والمفاهيم العنصرية مثل «مسئولية الرجل الأبيض تجاه العالم الثالث»، وهى أيديولوجية أبعد ما تكون عن العقلانية (كُشف أخيرًا أن الجنرال مونتجمرى، «بطل» العلمين، وضع مخططًا لاستعباد إفريقيا وأهلها وتحويلها إلى مصدر للمواد الخام)[1].

(١) يقول د. المسيرى: فى قراءتى لتاريخنا مع الغرب رأيت أنه يأخذ شكل **المواجهة العسكرية** منذ البداية: ثورة الحرية والإخاء والمساواة ترسل لنا بحملة نابليون التى تحمل المدافع ـ إحباط محاولة محمد على التحديثية حين تكأكأت عليه كل أوروبا بما فى ذلك حليفته فرنسا ـ جيوش بريطانيا الديمقراطية تغزو مصر وتهزم أحمد عرابى (ممثل الشعب المصرى) لتناصر الخديوى توفيق (ممثل الاستبداد). وتستمر الحلقة دون توقف حتى يومنا هذا.

وفى تطور أخير، أدرَكَت الإمبريالية التقليدية أن تكلفة المواجهة العسكرية مع شعوب العالم الثالث أصبحت باهظة، كما أن الدخول فى حروب عسكرية «عالمية» يؤدى إلى استنزاف طاقة الدول الكبرى الغربية. ثم وَجَدَت الحل فى أن تقذف بالدول النامية إلى حروب صغيرة تحقق من خلالها أرباحًا عالية من بيع السلاح للطرفين المتنازعين (لا تزال تجارة السلاح أهم تجارة فى عصرنا الحديث، لا تفوقها حتى تجارة المخدرات).

تاسعًا: النموذج المادى يفرز العنصرية والصهيونية

يلاحظ أى عربى مقيم فى الغرب تعاطفه الكامل مع ضحايا النازية من اليهود، ويصاحبه فى الوقت ذاته إنكار كامل للجرم الصهيونى الغربى ضد الفلسطينيين. كما يتبنى الغرب فى موقفه من إسرائيل خطابًا عقائديًّا؛ فهو يُظهر تفهمًا عميقًا لرغبة اليهود فى العودة «لأرض أجدادهم» أرض الميعاد (بعد غياب دام بضعة آلاف من السنين)، ولكن الغرب نفسه لا يتفهم لِمَ يصر الفلسطينيون على العودة، ويعرض عليهم بضعة ملايين من الدولارات للتخلى عن أوطانهم. **فالحق ليس فوق القوة**، بل إن دارون ونيتشه فوق الجميع.

إن العقل الغربى يُعجَب أيما إعجاب بالصهاينة بسبب بطشهم وقوتهم ومقدرتهم على حل كل الأمور بطريقة عملية جراحية باترة مباشرة. كما يرى هذا العقل أن الصهيونية جزء **أصيل وجوهرى داخل التشكيل الحضارى الغربى الحديث**، ولذا فهو يعطيها حقوقًا مطلقة ويطلب منا أن نعترف بإسرائيل، لا بسبب الإبادة النازية، ولا بسبب ما تعرض له اليهود من المظالم، وإنما بسبب موازين القوى التى لا تعرف الله أو الإنسان ولا تعترف بهما، فالمعيار الوحيد هو القوة لا الحق أو العقل.

والعنصرية الغربية ليست موجهة ضد العرب وشعوب العالم الثالث وحدهم، وإنما تمتد لتشمل كثيرًا من **الأقليات فى الولايات المتحدة**، وبخاصة الأمريكيين السود الأفارقة[1].

(١) كان صيف عام ١٩٦٤ حارًا رطبًا بشكل لا يُطاق ورفضت الحكومة أن ترسل جامعى القمامة والمبيدات الحشرية إلى حى هارلم الذى يقطنه السود، توفيرًا لبضعة آلاف من الدولارات. فحدث الانفجار ونزل الفقراء السود إلى الشوارع يطلبون الحد الأدنى اللازم للحفاظ على إنسانيتهم، حينئذ نزلت السيارات لتجمع القمامة استجابةً للضغط الشعبى. ويؤكد د. المسيرى أن الشرطة الأمريكية تسمح لتجار المخدرات ببيع سمومهم فى حرية بالغة داخل أحياء السود حتى تضمن تخديرهم وتحقيق الأمن الاجتماعى!.

عاشرًا: حضارة حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم

يقتبس د. المسيرى كلمات روچيه جارودى حين يقول:

«**كان نمو الغرب وليد نهب ثروات العالم الثالث** ونقلها إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، ومن ثم **فإن الغرب هو الذى جعل ما نسميه العالم الثالث متخلفًا**، وقد حدث ذلك خلال مراحل عدة: إبادة هنود أمريكا بدءًا من القرن السادس عشر ـ نخاسة العبيد السود التى أصبحت ضرورية لتوفير اليد العاملة ـ السيطرة الاستعمارية على إفريقيا وعلى القسم الأكبر من آسيا لتأمين المواد الخام والاستثمارات ذات الريع الأعظم فى الصناعة وفى التجارة، عن طريق فرض السعر الأدنى على اليد العاملة، والأسعار الأعلى للمنتجات المستوردة فرضًا بالقوة. ثم تَحَوَّل استغلال العالم الثالث إلى شكل جديد بنشأة الشركات المتعددة الجنسيات وتوسعها».

وقد أوجز جارودى إنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية فى صورة مجازية رائعة حين وصفها بأنها «**حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**».

بالإضافة إلى كل هذا لا بد أن نشير إلى عمليات نهب آثار إفريقيا وآسيا، وأخيرًا متاحف العراق، وكيف تغص متاحف البلاد الغربية وميادينها بآثار هذه الحضارات.

لذلك لا نجافى الحقيقة قيد أنملة حين نؤكد أن «**التقدم الغربى» هو ثمرة نهب العالم الثالث، وأن الحداثة الغربية لا يمكن فصلها عن عملية النهب هذه**، وأن نهضة الغرب تمت على حساب العالم بأسره. لذلك لا ينبغى أن نتحدث عن «**التراكم الرأسمالى**» وإنما عن «**التراكم الإمبريالى**».

حضارة مصابة بالتوحد Autism

ذكرنا فى الفصل السابق أن التوحد Autism هو أن ينظر المريض إلى الآخرين كأنهم أشياء لا عقل لها، فهل ينطبق ذلك على الحضارة المعاصرة؟

رأينا فى طرح د. المسيرى أن **الحضارة المعاصرة حضارة مادية** بالدرجة الأولى، أفرزتها الفلسفة المادية، واتخذت من المنظور المادى للعلم فرسها وسيفها.

فبعد أن كانت **فلسفة أرسطو** تنظر إلى عالم الغيب والإله باعتبارهما جزءًا من الوجود، تم **إسقاط الغيب كله من المنظومة**، وصار الوجود هو الطبيعة وحسب، تلك الطبيعة التى لا غائية ولا عقل لها. **فصار الإنسان يتعامل مع وجود لا عقل له.**

صار الإنسان يعتبر أن الوجود لا عقل له: أى **أصاب الإنسان التوحد**.

وبنى الإنسان الحضارة على هذا النمط: فصارت **حضارة مصابة بالتوحد**، تعتبر أن الوجود لا عقل له[1].

وإذا كان العلم قد حقق بهذا المنظور نجاحات مادية هائلة، فإن هذا لم يمنع الكثير من العلماء أمثال نيوتن وليبنز وماكسويل لأن يرفضوا هذا المنظور، ويصروا على أن **الكون مفتوح للتدخلات الإلهية الغيبية**.

ولا شك أن **فيزياء الكم قد هزت جزئيًا عرش الفلسفة المادية**، حين قضت على الحتمية الفيزيائية على مستوى العالم الدقيق. نعم، لقد اهتز عرش الفلسفة المادية، لكن الفيزياء الحديثة (الكم) لم تطرح وجود «**عقل أول**» فى منظومة الوجود كتفسير للظواهر، وما زال الوجود بالنسبة لها يعانى التوحد (لا عقل له)، وما زال الإنسان يعانى العمى العقلى.

وفى المقابل، تطرح الفيزياء الحديثة **مفهوم التعالق Entangelment**، الذى يعنى أن كل ما فى الوجود (حتى أفكارنا ونياتنا) يؤثر بعضه فى بعض، مما يفتح الباب قليلًا لمفهوم التأثير والتأثر بالآخر.

وقد طُرحت حديثًا «**نظرية المستويات** Category Theory» فى فلسفة العلم والرياضيات. وتدور هذه الفلسفة حول أن الأشياء لا ينبغى أن تُوصف كميًّا فقط ولا أن توصف بما تمثله بذاتها (وإلا كانت نظرة متوحدة). ولكن ينبغى أن توصف الأشياء بـ «**علاقتها**» بما يحيط بها، ومن ثم أصبحت العلاقة هى حقيقة الشىء، أكثر من مجرد قيمته العددية[2].

وجاءت **النظرية النسبية**، التى جعلت للراصد دورًا، ليس فقط فى إدراك الظواهر الفيزيائية، بل وفى تحديد سلوك هذه الظواهر. وقد تنبه **أينشتين** (صاحب النسبية) إلى أن وراء **الوجود وانتظامه وقابليته للتنبؤ عقلًا جبارًا**، ونبهنا إلى أن العلم ينبغى أن يتعافى من عماه العقلى.

ها هو العلم الحديث يبدأ فى التنكر لنظرة التوحد التى تعانيها الحضارة المادية المعاصرة، ويتبنى الاعتراف بالآخر والإقرار بتمتع الوجود بالعقل والحكمة والغائية[3].

(١) معنى ذلك أن الوجود ليس إلا مادة، وأن العلم قادر على تفسير كل شىء فى إطار مادى، وهو ما يُعرف بمذهب «العلمية Scientism».

(٢) مثال: إذا كان الرقم «٢» يمثل وحدتين، فإن الأهم من ذلك أنه يتلو الرقم «١» ويسبق الرقم «٣» ويتوسط المسافة بينهما.

(٣) لا شك أن القرآن الكريم حين ينبهنا إلى أن وراء كل ما فى الكون حكمة وغائية فإنه يعالجنا من هذا العمى الذى يتسم به الماديون والملاحدة حين ينظرون إلى العالم باعتبار أنه لا عقل له.

مجتمع الإباحية الجنسية

النموذج المادى يفرز السعار الجنسى

يقول أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله):

كانت **إحدى الصور التقليدية الشائعة** فى عقولنا أن الجنس طاقة مادية، **إن فُرِّغت** يصبح الفرد عاديًا وطبيعيًّا وسويًّا، أما إن كُبتت فإنها تصبح قوة مدمرة. لذا كان من المفهوم أن **ينشغل الشرقيون بالجنس**، فهم مكبوتون قُمعت رغباتهم الجنسية فى طفولتهم ومراهقتهم، **مما أدَّى** إلى تشوههم النفسى الكامل، وتحولوا إلى مراهقين أزليين. كما تعلمنا **أيضًا** أن الأمور مختلفة تمامًا فى الغرب المادى، فهم يتصرفون بشكل طبيعى ويُصَرِّفون الطاقة الجنسية بلا قمع ولا كبت.

ولكن حينما وصلت إلى الولايات المتحدة وجدت أن التصور البسيط الذى آمنت به **لا يُفسِّر** الأمور، إذ لاحظت **إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحيانًا المَرَضى) بالجنس**، إلى درجة انتشار حوادث الاغتصاب بالرغم من أن مجال الإشباع الجنسى متاح أمامهم بشكل ديمقراطى مذهل (وهو ماسميته فيما بعد **«ديمقراطية اللذة»**). الأمر الذى كان يحيرنى كثيرًا فى بادئ الأمر.

إن بعض الناس فى الغرب يُمارس رغباته الجنسية كإنسان مدمن، **لا للخمر وإنما للجنس sexaholic** على وزن alcoholic فيمارسه بشراهة ولكن دون متعة حقيقية، ومن المعروف أن بعض مدمنى الجنس يودون التوقف ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا، شأنهم فى هذا شأن مدمن الخمر الذى يمقت ما يتعاطاه ولا يملك منه فكاكًا. وتساءلت: كيف يمكن أن ننظر إلى هذا الهوس الجنسى بحُسبانه تعبيرًا طبيعيًّا عن رغبة جنسية طبيعية؟

ليتهم اعتبرونا حيوانات

ولتفسير هذا التناقض بدأت أتأمل وأتساءل: لعل الارتواء الجنسى عند الإنسان مرتبط بعناصر مادية وأيضًا غير مادية (بخلاف الحيوان)، ولعل **العناصر غير المادية ليست مجرد قشرة وإنما من صميم الإشباع الجنسى عند الإنسان**. ولعل الجوع الذى نشاهده فى الولايات المتحدة

يعود إلى «رؤيتهم» المادية، **فهم ينظرون للجنس كما لو كان شيئًا طبيعيًّا ماديًّا؛ مسألة غدد** وعضلات وحسب، لا تختلف عن أية عملية بيولوجية أخرى مثل تناول الطعام[1].

ولعل هذه **المحاولة لتطبيع الجنس** تفسر **رغبتهم العارمة فى ممارسته فى العلن**، بلا أى إحساس بالحرج أو الخصوصية أو الفردية، ورغبتهم فى أن يصبح الجنس جزءًا من الحياة العامة، وقد يُفسِّر هذا إصرار الشذاذ جنسيًّا على علنية ممارساتهم وضرورة تطبيعها وتقنينها[2].

الجنس كما نفهمه وكما يفهمونه

لم يدرك كثير من الأمريكيين أن **الجنس مسألة إنسانية مركبة، خاصة وأنها مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية**. وعدم إدراكهم لهذه الحقيقة البسيطة العميقة، هو أحد أسباب عدم الارتواء الجنسى، فهم يمارسون الجنس فى إطار مادى نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه، ويترك ذلك كيانهم الإنسانى بلا إشباع. أو لعلهم أدركوا إنسانية الجنس على المستوى الفردى، لكن مؤسسات الإعلام التى تبحث عن الربح تشيع صورة الجنس السهل المباشر، الذى لا تسبقه مقدمات، ولا توجد بعده أية توابع: أطفال وعلاقات اجتماعية وتغير فى الرؤية.

لا شك أن هناك علاقة بين إنسانية الإنسان وبين تصاعد رغبته الجنسية. **فكلما ضَمُر شعوره بإنسانيته، ازداد السُّعار الجنسى** كمحاولة لتعويض الإنسان عن اختفاء عالم الأحلام، إذ إن **عالم الجنس هو البديل المادى والمباشر للمدينة الفاضلة**. وكلما ازداد العالم نسبية وتوارى المطلق، ازداد السُّعار الجنسى أيضًا، إذ إن **الجنس يزود الإنسان بمركز ومطلق مؤقتين** فى عالمه النسبى الذى لا مركز له ولا مطلقات فيه. **إنه ميتافيزيقا من لا ميتافيزيقا له**، أو ميتافيزيقا من لا يود أن يحمِل أية أعباء إنسانية أو أخلاقية.

(١) إن **الصورة «المثالية»** التى تُعبر عن نظرة الغرب للجنس هى صورة **چيمس بوند** حين يحضر ليقبض على إحدى الجميلات، فيكتشف أنه وصل قبل موعده فيقرر أن يضاجعها لتزجية وقت الفراغ، وفى أثناء ذلك ينظر إلى ساعته ويكتشف أن الوقت قد حان، فيأخذ الكلبشات من جيبه ويضعها على يديها ويرحل بها. إن الأفلام ووسائل الإعلام الأمريكية تصور الإنسان كما لو كان كائنًا جسمانيًّا، يعيش فى جسده (المادى) وحسب، تمامًا مثلما يصوره دعاة السوق الحرة كائنًا اقتصاديًّا تحركه الدوافع الاقتصادية (المادية) وحسب.

(٢) قد تُفسِّرُ هذه العلنية المرض الغريب الذى يُسَمى **«الخوف من الحميمية Fear of intimacy»**، فحينما يعتاد البعض ممارسة الجنس فى إطار غير رومانسى وعلنى (كأن يضاجع رفيقته على عجل فى فندق بجوار محل عمله فى أثناء الساعة المخصصة للغداء أو فى المقعد الخلفى للسيارة أو فى حديقة) تصبح هذه الظروف شرطًا لأدائه الجنسى، ويفاجأ هذا الشخص بأنه غير قادر على الأداء داخل المنزل مع زوجته تحت ظروف رومانسية مريحة، لأنه لا يستجيب جنسيًّا إلا تحت ظروف تدعو للسرعة والتوتر وفى رقعة الحياة العامة!

كل هذا يفصل الجنس عن مضمونه الاجتماعى والإنسانى المركب ليصبح ترجمة عملية لمبدأ السعادة واللذة. إن هذا الإنسان ينعزل عن تراثه وماضيه، بل وعن وجوده الإنسانى المركب، فيعيش فى الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التى لا علاقة لها بالخير أو بالشر[1].

هذا إلى جانب أن الباحث عن اللذة هو إنسان **فرد مكتفٍ بذاته، لا يطيق أية حدود أو قيود** أو مسئولية، فهو يود تحقيق رغباته فى التو (الآن وهنا)، خاصةً وأن هذا الفرد يعيش فى مجتمع نفعى مادى، لا يعرف المثاليات التى تساعده على تجاوز ذاته الضيقة. إن مثل هذا الفرد **لا يمكنه أن يقبل مؤسسة الأسرة،** فهى تُلقى على كاهله (كأب وكأم) مسئوليات اجتماعية شتى، ولذا تضمُر مؤسسة الأسرة تمامًا. ولهذا يزداد العزوف عن الإنجاب والزواج مع ازدياد الإحساس بأن الأسرة عبء لا يُطاق وأن مسئولية تنشئة الأطفال تفوق طاقة البشر.

الشذوذ: الطامة الكبرى:

لعل هذا البحث عن اللذة الجنسية الخالصة هو الذى يفسر انتشار الشذوذ الجنسى فى المجتمعات الرأسمالية الغربية. تبعًا لإحصاء عام ١٩٧٢ يوجد فى الولايات المتحدة ما يزيد على أربعة ملايين من الشواذ[2]، وتوجد لهم بعض **الكنائس** التى يديرها وعاظ شاذون جنسيًّا مثل كنيسة لوس أنجلوس، كما أُنشئ معبد يهودى ومدرسة تلمودية لتخريج الشواذ.

وأعتقد أن **الشذوذ هو النتيجة المنطقية لمبدأ اللذة النفعى،** فالإنسان الشاذ يمكنه أن ينشئ علاقة مع شخص آخر من جنسه ليتغلب على اغترابه بشكل مؤقت دون أن يدخل فى علاقات ذات آثار اجتماعية تضطره للدخول فى علاقة حقيقية مع الآخرين (كالزواج).

وحينما كنت فى نيويورك لاحظت أن **الشاذات من النساء** أصبح لهن وجود وظهور ملحوظ، وهذا «التطور» أو «التقدم» يعود لحركة تحرير المرأة Feminism (التى أسميها **حركة التمركز حول الأنثى**) التى ينادى بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسيًّا والتى استغنت كلية عن الرجال

---

(١) كلما فتحت التليفزيون الأمريكى تجد امرأة نصف عارية تبيع لك شيئًا ما. وهذا يُصَعِّد من توقعات الرجل الأمريكى بالنسبة للجنس، فيطلب من زوجته أن تكون إحدى ملكات الإغراء (ويحاول هو جاهدًا أن يصبح أحد ملوك الإغراء) مما يصيبهما بالإحباط وعدم الاطمئنان. وتسهم شركات التجميل فى تصعيد هذا الجانب، فتزيد من توقعات الذكور الجنسية، وهو ما يضطر الإناث لاستهلاك المزيد من مستحضرات التجميل.

(٢) تزايدت هذه الأرقام مع الوقت. ففى عام ٢٠١٢ كانت نسبة الشواذ ٣,٤٪ من إجمالى ٣١٤ مليون أمريكى (حوالى ١٠,٦٧٠ مليون شخص)، وذكر ٨,٢٪ من الأمريكيين (٢٥,٧٥٠ مليون شخص) أنهم مارسوا الجنس مع نفس جنسهم ولو مرة واحدة (William Institute Report).

هى أكثر النساء تحررًا، وهى المرأة التى حققت المساواة البيولوجية الكاملة مع الرجال، وحققت بذلك الاكتفاء الذاتى!.

ويبدو أن مع الإغراق فى المادية أصبح الفرد غير قادر على الاستجابة التلقائية للدوافع الغريزية العادية، ولذا فهو يحتاج إلى مؤثرات عنيفة وأحيانًا شاذة حتى يمكنه الاستجابة. وقد يفسر هذا تصاعد معدلات العنف فى الحياة وفى الأفلام، كما يفسر أيضًا ارتباط الجنس بالعنف.

الثورة الجنسية والتحرر الجنسى:

حاولت **حركة الهيبى** أن تجعل الثورة على المجتمع ثورة جنسية، وذلك بأن تجعل التحرر الحقيقى تحررًا جنسيًّا كاملًا. ولكن المفارقة الكبرى هى أن تَحَقُّق هذه الرؤية يعنى أن يصبح الإنسان مسلوب الإرادة لا حول له ولا قوة، يسير حسبما توجهه غرائزه.

وتعد مسرحية **«هير Hair»** (أى شَعْر) الغنائية، التى عُرضت فى نيويورك فى منتصف الستينيات، علامة أساسية فى تاريخ الثورة الجنسية، فهى تحتفى بانتصار إله الجنس وهيمنته الكاملة على الإنسان، إذ يصبح هو المحرك الأساس للفرد فيفقد حريته ومقدرته على الاختيار.

ويُعتبر **مايكل جاكسون** (الذى لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى) ممثل النسبية الكاملة وعدم الانتماء لأى شىء؛ التجسيد الحق للتفكيكية (رد الإنسان لماديته).

يمكننا مما سبق أن نفهم الحديث المتكرر والممل عن الجندر gender، أى النوع، (وليس الجنس «sex») بحُسبان أن الفروق الجسدية والتشريحية بين الرجال والنساء ليست أساسية، وأن **دور كل منهما (كذكر أو أنثى) ليس مسألة مرتبطة من قريب أو بعيد بالخصائص الجسدية**، وإنما هى مسألة اختيار شخصى. فأنت تستطيع أن تتصرف فى المجتمع كذكر أو كأنثى تبعًا لاختيارك، بغض النظر عن جنسك، وهذه مفارقة تستحق التسجيل: **فى الحضارة التى يصل فيها الاهتمام بالجنس والتركيز على الأعضاء التناسلية حد الهوس، ثمة محاولة إلى تحييده تمامًا و«إلغائه»**.

ولعل تحرر الجنس من الإطار الاجتماعى وتحييده وتطبيعه يتضح فى ظهور **«أشكال بديلة من الأسرة»** (حاول مؤتمر السكان فى القاهرة[1] إسباغ الشرعية عليها) مثل أسرة تتكون من رجلين أو امرأتين ويحق لهما الآن تبنى الأطفال، بل «إنجابهما» عن طريق عمليات التلقيح الصناعى.

(١) نظمت الأمم المتحدة المؤتمر الدولى للسكان والتنمية فى القاهرة ما بين ٥-١٣ سبتمبر عام ١٩٩٤، وشاركت فيه ١٨٠ دولة بحضور ١١,٠٠٠ مشارك، وهذا ما جعله المؤتمر الأكبر على الإطلاق فى هذا المجال.

ولعل هذه التطورات تؤدى ببعض المنادين بمثل هذه الحرية إلى التريث قليلًا فى دعوتهم إلى الحرية، بل عليهم أن ينظروا إلى التطورات اللاحقة التى بدأت تظهر فى مجتمعاتنا بالفعل[١].

ويرى البعض أن «**الإباحية**» قضية فكرية إبداعية، وبالتالى لا يمكن إخضاعها لأية رقابة، ويمكن قبول هذا المنطق لو توافر فى كاتب الأدب الإباحى وكذلك مخرجه السينمائى شرطان: ألا يحقق ربحًا ماليًا من أدبه، وأن يثبت هذا الكاتب لنا أنه يمارس فى حياته الخاصة ما يدعو إليه نظريًا، لنتأكد من إيمانه بما يقول. ولا أعرف أديبًا إباحيًا واحدًا يتوافر فيه هذان الشرطان!.

ويمكن **تلخيص الثورة الجنسية** بأن الرغبات الجنسية قد انفلتت من عقالها، وبدلًا من أن تحرر الإنسان حيدته ثم استعبدته. **فانتشرت الإباحية وتم «تطبيعها»** بشكل لم يعرفه المجتمع الأمريكى من قبل. فكأن الهدف من الإباحية لم يكن إرضاء الشهوات وإنما اختزال الإنسان إلى جسد، **فالتعرية تبدأ بالجسد وتنتهى بتعرية الإنسان من تركيبيته وإنسانيته**. لكل هذا يُنظَر للجنس بطريقة محايدة للغاية وكأنه **نشاط بيولوجى منفصل عن القيمة**، لذلك يُشار الآن إلى البغاء بحُسبانه نشاطًا اقتصاديًا محايدًا، مجرد عمل عضلى لا يختلف عن غيره من الأعمال، ولذا تُسمَّى البغى الآن فى بعض الأوساط «عاملة جنس sex worker»[٢].

انتهى طرح د. المسيرى.

مجتمع صناعة الجنس Pornographic Society

تقول مارجريت سانجر Margaret Sanger [٣] المؤسِسَة لمؤسسة «تنظيم الأسرة Planed Parenthood» ومن الزعيمات الملحدات لحركة التمركز حول الأنثى Feminism: «إن هدفنا هو

(١) انظر إلى التليفزيون المصرى وإعلاناته الراقصة التى لا تنتهى، وتوظيف الجنس فى بيع كل شىء ابتداءً من كريمات الجلد وانتهاءً بالمبيدات الحشرية. وانظر إلى الفيديو كليبس ومحطاتها المليون التى تعمل ٤٨ ساعة كل يوم حتى **يترسخ فى أذهان الجميع أن الجسد هو المرجعية النهائية وهو الذى يسبغ معنى على حياتنا!.**

(٢) يقول د. المسيرى: يكنت أحاول أن أشرح هذه القضية لبعض الفقهاء ممن كانوا يتحدثون عن «الزنا» فى الغرب، وكأن الغرب لا يزال يدور داخل إطار الحلال والحرام. فكنت أقول لهم: فى مجتمعاتنا إن اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما، المشكلة فى الغرب أن الشيطان لا يحضر لأن **المسألة أصبحت طبيعية ومحايدة بدون أى إحساس بالذنب، إلى درجة أنها أصبحت قضية إجرائية محضة: أين؟ متى؟ إلخ.** وكنت أخبرهم بأننى أرحب بحضور الشيطان فهو على الأقل يذكرنا بالله، تمامًا كما يذكرنا الشر بالخير، والحرام بالحلال.

(٣) Sanger, The women Rebel, Vol, 1, n. 1, (New York: Brentanos Publishers, 1922)

الإشباع الجنسى اللامحدود، دون عبء إنجاب أطفال غير مرغوب فيهم. إن فراش الزوجية هو أخطر ما يهدد تماسك ونظام المجتمع، إن أكبر رحمه تقدمها الأسرة لطفلها هى أن تقتله.

لا شك أن «**الإشباع الجنسى اللامحدود**» هو أهم أسس المجتمعات العلمانية والإلحاد. ويظهر ذلك فى اندفاع المجتمع إلى **صناعة الجنس**، حتى صارت أكبر الصناعات إدرارًا للربح فى العالم. فالمنتَج يباع فى كل مكان، ويُشاهد فى كل مكان، وتزداد الحاجة إليه مع ازدياد توجه المجتمع للإلحاد.

وتحقق صناعة الجنس عن طريق النت **ربحًا سنويًا** يصل إلى عشرة بلايين دولار. وهو عائد يفوق رأس مال أكبر الشركات الإعلامية الأمريكية (ABC – NBC – CBS) مجتمعة.

وقد وجد أن ١٠ – ٣٠٪ من الأمريكيين مدمنين على المنتجات الإباحية، وأن ٩٠٪ ممن يشاهدون الأفلام الإباحية من الشريحة العمرية ٨ – ١٧ سنة، وتبلغ ذروة المشاهدة بين ١٢ – ١٧ سنة[١].

ويقصر المنظور العلمانى الغرض من الجنس فى «**إمتاع الذات**»، دون أية مشاعر روحية أو عاطفية مصاحبة. لذلك، تقوم صناعة الجنس على تقديم الأنثى والذكر والصغار «**كأشياء**» للإمتاع الجنسى إلى أقصى مداه، والذى يصلون إليه بالعنف وأحيانًا بالقتل!. ويؤدى هذا الطرح إلى قولبة المرأة والرجل فى عقول الصغار فى القالب الجنسى وفقط، ويكبرون على ذلك.

هل من الغريب بعد ذلك أن أصبح الزنا والخيانة الزوجية وانتشار الاغتصاب والشذوذ والتحرش واستخدام الأطفال جنسيًا مُشكلات متوطنة فى المجتمعات الغربية؟ وهل من الغريب أن يصبح البغاء حرفة معترف بها، وأن يطلق على العاملات والعاملين فيه **عاملة/ عامل جنس Sex Worker**، وأن يحصلن على الجوائز من مؤسسات مجتمعية لإتقانهن القيام بعملهن؟

وهل من الغريب أن تبدأ ممارسات الجنس قبل سن العاشرة، وأن تحمل فتيات فى سن الثانية عشرة؟

باختصار؛ إذا نظر الإنسان لنفسه باعتباره حيوانًا، فلا شك أنه سيسلك كحيوان، وعندها يصدق عليه قول نيتشه: **لقد عاد الإنسان البربرى إلى الحياة**. ولا يمكن أن يتبنى هذا الإنسان الحيوان دينًا إلا الإلحاد.

وإذا كانت صناعة الجنس نتاجًا لتوجه المجتمع نحو الإلحاد، فنتيجتها المزيد من الإلحاد.

(١) CF. Family Safe Media (January 10,2006); National Research Council Report, 3-1, 2002

الجنس قبل الزواج

بعد أن انحدر الجنس إلى أدنى مستوياته وأصبح مجرد غريزة، بعد أن فقد ما يرتبط به من قيم وفقد دوره كرباط للأسرة، أخذت المجتمعات المادية تروج عن طريق كل المنابر (المدرسين- السياسيين- الإعلاميين- مسئولى الدعاية الصحية- ...) أن الجنس قبل الزواج غير ضار. فكانت النتيجة أن مارس ٥٠٪ من الشباب الأمريكى الجنس قبل الالتحاق بالجامعة، كما مارس ١٧٪ من الصغار الجنس قبل سن الثالثة عشرة، وأصبح ١٠٪ من هؤلاء الفتيات الصغار حوامل.

هل حقيقةً أن ممارسة الجنس قبل الزواج غير ضارة، كما يروج الملاحدة؟

فلنراجع هذه الإحصائيات الأمريكية التى ترجع إلى عام ٢٠٠٧:[١]

- يعانى ٦٥ مليون أمريكى أمراضًا جنسية، ويعانى واحد من كل أربعة بالغين أمريكيين مرضًا جنسيًّا.
- يحدث ثلثا الأمراض الجنسية تحت سن الخامسة والعشرين.
- يعانى ثلث الفتيان والفتيات الأمريكيات الثآليل الجنسية Genital Warts
- يصاب ١٢ مليون أمريكى كل عام بمرض جنسى، منهم ١,٣ مليون حالة سيلان.
- تصاب كل عام ٦٠,٠٠٠ - ١٠٠,٠٠٠ فتاة بالعقم نتيجة لأمراض جنسية.

لذلك، يلجأ الفتيان والشباب قبل الزواج إلى ما أسموه **الجنس الآمن** Safe Sex؛ كالاستمناء والجنس الفموى واستخدام الواقى الذكرى وحبوب منع الحمل. وبالرغم من ذلك تحدث **الأمراض الجنسية** بالمعدلات التى ذكرناها، كما تحدث حالات من **الحمل غير المرغوب فيه** ويتم اللجوء إلى الإجهاض. وفى الولايات المتحدة يتم إجهاض ٤٠٠,٠٠٠ فتاة تحت سن العشرين سنويًّا، وتحمل خمسهن مرة أخرى.

كما يُزيد الجنس قبل الزواج من **معدلات الطلاق**؛ فللرجال رغبة فطرية فى الارتباط بالعذارى، ومن يرتبط بغير عذراء يعتبرها فى أعماقه (حتى فى المجتمعات الغربية) غير أمينة على نفسها Impure – Loose، مما يسبب المشاكلات النفسية والصعوبات الأسرية[٢].

---

(١) Center for Disease control and prevention, November 2007

وقد بلغ عدد الأمريكيين فى هذا العام ٣٠١مليون أمريكى.

(٢) Marriage and Divorce-American Psychological Association www.apa.org/topics/divorce

ولما كان من الطبيعى أن يؤدى الجنس قبل الزواج إلى عزوف الشباب عن الزواج، فقد أكدت الإحصائيات أن الملاحدة هم الأقل رغبة فى الزواج[1].

الزواج المثلى

لا شك أن العلاقة الجنسية المثلية والزواج المثلى قد أصبحا من الطقوس التى لا ينبغى الاعتراض عليها فى المجتمع المادى والفكر الإلحادى. ويعتبر أنصار هذا التوجه أن الأمر حرية شخصية **ويساوونه بالعلاقة بين الرجل والمرأة.**

هل هذا الادعاء صحيح؟

أظهرت الإحصائيات[2] أن نسبة مَن يُقدمون على **الانتحار** بين المثليين تبلغ نسبتها أربعة عشر ضعفًا مقارنة بالطبيعيين، وأن محاولاتهم الانتحارية تكون أكثر نجاحًا من الطبيعيين بنسبة ٣,٥ : ١. كما أظهرت الدراسات أن هؤلاء أكثر استخدامًا **للمخدرات**، وأكثر عرضة للمشكلات النفسية والسلوكية. ويُرجع المثليون هذه المشكلات إلى أن **المجتمع يضطهدهم**، وأنهم سيصبحون أحسن حالًا مع تقبل المجتمع لهم.

ولكن هل تَقَبُّل العلاقات الجنسية المثلية وزواج المثليين سيعدل من **الصورة الطبيعية الأزلية للعلاقة بين الرجل والمرأة**؟ وهل يقف أمام قوانين الفطرة؟ وهل يحطم القوانين والأعراف الاجتماعية التى استقرت عبر عشرات الآلاف من السنين؟

الجنس فى المدرسة

ينطلق تدريس الجنس فى المدارس فى المجتمعات المادية من قاعدتين أساسيتين. الأولى أن الجنس **«ممارسة بيولوجية»**، يتم قبولها أو رفضها تبعًا لرؤية نسبية تختلف من مجتمع لآخر. والقاعدة الثانية، أن الممارسة الجنسية بين بالغين **مقبولة طالما رضِيَا ذلك**، وليس فى الأمر صواب وخطأ، فالأمر **خارج المنظومة القيمية** وليس له أى بعد أخلاقى، تمامًا كالممارسة بين الحيوانات. بذلك ينزع هذا التدريس عن الإنسان خصوصيته، وقد تم تربية أجيال من الصغار على هذه المفاهيم.

(١) Marriage and Divorce-American Psychological Association www.apa.org/topics/divorce

(٢) Journal of Gay and lesbian Association 4, no.3, 2000, 101-51

إن نظرة سريعة لعناوين بعض الفصول فى الكتب المدرسية ترينا كيف يتم تدريس الجنس فى ظل هذه الفلسفة: الجنس قبل الزواج - الجنس دون زواج - الجنس الجماعى - الجنس غير التقليدى (الشذوذ الجنسى) - الاستمناء باليد - ممارسة الجنس بالأجهزة والأجسام الصلبة.

يأتى بعد ذلك تدريس: منع الحمل - الإجهاض - التعقيم..

كل ذلك **دون أية نظرة قيمية** ترتبط بما يُدَرَّس.

الإجهاض[1] Abortion

ترينا الإحصائيات الأمريكية[2]، أن حالة من كل أربع حالات حمل يتم إجهاضها. ويكون ذلك بمعدل حالة كل ٢٢ ثانية، أى ٣٦٠٠ - ٤٢٠٠ حالة يوميًّا، وهو ما يعادل ٤ ,١ - ٦ ,١ مليون حالة كل عام. وهذا يعنى وجود أكثر من ٤٠ مليون حالة إجهاض منذ عام ١٩٧٣ وحتى مدخل القرن الحادى والعشرين. وإذا كانت أحداث مركز التجارة العالمى قد قتلت ٣٠٠٠ شخص، وقامت من أجلها الدنيا وقامت الحروب، فإن ما يُقتل بالإجهاض المتعمد دون سبب طبى فى اليوم الواحد فى الولايات المتحدة يفوق هذا الرقم!

وقد رأينا فى الفصل الرابع كيف أن **للإجهاض آثارًا نفسية سلبية عميقة**، ليس على الحامل وحسب ولكن على كل أفراد عائلتها.

ومن المخجل أن يعتبر دوكنز أن **الإله هو المُجهِض الأكبر فى التاريخ!!** إشارة إلى حالات الإجهاض والسقط الذاتى لبعض الحوامل! كيف غاب عن هذا البيولوجى أن معظم هذه الحالات تكون لأجنة غير مكتملة البنية والوظيفة، ومن ثم فهو ليس حملًا وليس إجهاضًا.

ثمار الإباحية الجنسية

قامت «**الثورة الجنسية**» فى الولايات المتحدة ثم انتقلت إلى أوروبا فى ستينيات القرن العشرين، ولا شك أن دراسة إحصائيات هذه الفترة[3] ترينا مدى ما أصاب المجتمع من تَفَسُّخ من جَرَّاء تلك الثورة:

(١) فى الأسبوع السابع من الحمل تكون كل الأعضاء الداخلية للجنين قد اكتملت، وفى الأسبوع السادس عشر تكون كل أجهزته تعمل بشكل كامل، ففى هذه المرحلة يكون الجنين قادرًا على التنفس والبلع والهضم والنوم والحلم، كما يحس بالألم والسعادة.

(٢) ABORT73.com

(٣) Clows, Facts of Life, 276-277

- زاد معـدل **عمليات الإجهاض** من ٢٠٠,٠٠٠ إلى ١,٤ مليون حالة فى السـنة، بالرغم من شيوع استعمال وسائل منع الحمل المختلفة.

- زادت حـالات المعيشـة مـع رفيق مـن الجنس الآخـر **دون زواج** مـن ٥٠٠,٠٠٠ إلى ٤ ملايين، وأصبح أكثر شيوعًا من الزواج خاصة بين الملاحدة.

- زاد **معدل الطلاق** من ٤٠٠,٠٠٠ إلى ١,٢ مليون حالة فى العام.

- ارتفع معدل **الأسرة ذات والد/ والدة واحدة** من ٩ إلى٣٢٪.

- ارتفعت حالات **الحمل دون زواج** من ٢٠٠,٠٠٠ إلى ١,٥ مليون حالة كل عام.

- ارتفع معدل **الحمل فى الفتيات** من ٣٠ إلى ١١٠ من كل ١٠٠٠ فتاة.

- زاد معدل **الأمراض الجنسية** بنسبة ٢٤٥٪.

- زاد معدل **سوء معاملة الأطفال Child Abuse** بنسبة ٢٨٦٪.

- ارتفع **معدل الجريمة** بنسبة ٥١٠٪.

إن الجنس يخضع لقاعدة أساسية: «**إما أن تتحكم فيه وإما أن يتحكم فيك**». فإذا كان البحث عن الربح المادى والإعلام والتعليم والإعلان يثيرون شهوات الإنسان الجنسية كلما تَلَفَّتَ حوله، كما ييسر المجتمع الممارسة، عندها **يصبح الجنس هو المتحكم فى الإنسان**.

وعندما يتحكم الجنس **دون منظومة أخلاقية**، تختفى الفضيلة، ويصبح الإنسان عبدًا لغرائزه، ويغيب عن الإنسان معنى الحياة الأسرية والحب العفيف، كما تغيب قيمة الجنس فى حياة الإنسان وانعكاساته الإنسانية عليه.

إن العلاقة بين شيوع الإلحاد وبين الثورة الجنسية وتدريس الجنس وصناعة الجنس ليست من باب الصدفة، لكنها **نتائج تتابعية بديهية، وعلاقة تبادلية** يدفع فيها كل طرف الطرف الآخر للأمام.

مجتمع العنف

بداية النهاية

قادتنا جولتنا مع علم نفس مجتمع الإلحاد (حتى الآن) إلى استنتاج لا مفر منه، وهو أن **مجتمع الإلحاد مجتمع عنف**. ولا شك أن من أكثر المؤشرات حساسية ودقة لما يعتمل فى المجتمع من عنف هو ما يُعرف **بسوء معاملة الأطفال Child Abuse**، ولهذا المؤشر عدد من القياسات التى تبين مقدار خطورة المجتمع على أطفاله.

إن مجتمع الإباحية الجنسية والشذوذ الجنسى والإجهاض غير المبرَّر والإلحاد يفرز دون شك **أُسرًا مفككة وشخصيات مشوهة وحشية**، أدت إلى أن أصبح سوء معاملة الأطفال وباءً فى الغرب، حتى صارت الشوارع ملأى بأشخاص يعانون مشكلات نفسية عديدة بسبب الاعتداء عليهم فى الصغر.

لقد أصبح الغرب **أسيرًا لدائرة مغلقة**، فيها يؤدى الإلحاد إلى سوء معاملة الأطفال، فيُخرِج أشخاصًا مشوهين يتبنون الإلحاد ويتبنى العنف والإجرام، وهكذا.

ونتيجة لسوء معاملة الأطفال فى الولايات المتحدة، **تفجعنا هذه الإحصائيات**[1]:

- خمس وفيات يوميًا من الأطفال، منها ثلاث قبل سن الرابعة.
- اعتداء على الأطفال بمعدل ٣,١٢ / ١٠٠٠، بما يعادل حالة كل عشر ثوان. ويمثل الاعتداء الجنسى ١ / ٤ هؤلاء البنات و ١ / ٧ الأولاد.
- ٢٥٪ زيادة فى احتمالات الحمل فى الصغيرات.
- ٥٩٪ زيادة فى احتمال القبض على المجرمين فى جرائم يرتكبها صغار، وزيادة بمقدار ٢٨٪ وهم بالغين.
- ٨٠٪ ممن أُعتدى عليهم فى الصغر يعانون اضطرابات نفسية فى سن الحادية والعشرين.
- ٣٦٪ من إجمالى المساجين و ١٤٪ من المسجونات، تم الاعتداء عليهم فى الطفولة.
- ١ / ٣ مدمنى الخمر والعقاقير و ٢ / ٣ المعالَجين منها تعرضوا لاعتداء فى الطفولة.

التنيجة، مجتمعات من إناس محطمين نفسيًا وعقليًا وجسديًا، وأيضًا دينيًا.

---

(١) Child Maltreatment, 2012

ونختم جولتنا مع الأرقام بإحصائيات وردت فى تقرير مكتب **التحقيقات الفيدرالى الأمريكى** FBI Uniform Crime Report، تبين بوضوح ما أصاب البشرية[١] بعد ٤٠ سنة من العلمانية الشاملة (الإلحاد العملى).

لقد صرنا على حافة الانهيار[٢]:

	عام ١٩٦٠	عام ٢٠٠٧
جرائم المِلكية	٣,٠٩٥,٧٠٠	٩,٨٤٣,٤٨١
قتل	٩,١١٠	١٦,٩٢٩
اغتصاب	١٧,١٩٠	٩٠,٤٢٧
سرقة	١٠٧,٨٤٠	٤٤٥,١٢٥
تعدى	١٥٤,٣٢٠	٩١٠,٧٤٤
سطو	٩١٢,١٠٠	٢,١٧٩,١٤٠
سرقة سيارات	٣٢٨,٢٠٠	١,٠٩٥,٧٦٩

هذه هى المدينة الفاضلة التى يبشر بها دين الإلحاد.

إن إنكار أننا قد خُلقنا للإيمان بالإله هو بداية انهيار المجتمع.

إن هذا الانهيار هو أكبر الأدلة على الوجود الإلهى. **إذًا فالوجود الإلهى ليس افتراضًا نحقق به الأمان النفسى (فرويد)، بل وجود حقيقى نحقق به الأمان الحقيقى.**

وصدق ألكسندر سولزهنتزن حين قال: **إن الإله يحبس البربرية والبهيمية داخلنا.**

---

(١) الإحصائيات خاصة بالولايات المتحدة.

(٢) بالرغم من تعديل الأرقام تبعًا لزيادة السكان، فالزيادة ما زالت مرعبة.

كان عدد سكان الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ (١٨٠ مليون)، صار ٣٠١ مليون عام ٢٠٠٧، أى أن الزيادة السكانية كانت بنسبة ٦٦٪ تقريبًا.

أما الزيادة فى الجرائم فقد تراوحت بين ٨٠٪ وستة أضعاف (٦٠٠٪).

الإعلام
منبر مجتمع الإلحاد وكتابه المقدس

لا شك أن أكثر ما يُظهر سَريرة المرء وأفكاره ومبادئه ودوافعه النفسية وأخلاقه هو **كلامه وحواراته وسلوكه**. لذلك لا نتجاوز الحقيقة قدر أَنمُلة إذا قلنا إن **الخطاب الإعلامى** هو أكثر ما يُعَبِّر عن طبيعة المجتمع ودوافعه وغاياته. لذلك لم يكن من الممكن أن نتعرض لعلم نفس مجتمع الإلحاد دون أن تكون لنا وقفة مع الخطاب الإعلامى للحضارة المادية.

لا شك أن الإعلام المعاصر فى الغرب (وإلى درجة أقل فى بلادنا) يَسُودُه **الخطاب العلمانى، بل وربما الإلحادى، وفى بعض الأحيان الخطاب الإلحادى الأصولى.**

ويدرك من يمتلك خلفية فى علم الاجتماع أن ما نسمعه وما نراه فى الإعلام **يشكل شخصيتنا ويحدد مَن سنكون**، كما يلمس كل من يحيا فى هذا العصر كم نحن محاصرون إعلاميًّا. لذلك نقول دون أدنى تجاوز إن **الإعلام (خاصة الغربى) قد صار «مُشَكِّلًا» و «مُعَبِّرًا» عن نمط حياة وفكر الإلحاد**. ولذلك اخترنا عنوان هذه المعالجة الذى يبين أن الإعلام قد صار **«منبرًا»** يبشر من خلاله الملاحدة، وصار **«الكتاب المقدس»** الذى يُشَرِّع لهم (وللمجتمع) ما يفعلون وما يتركون.

ولا شك أن المفاهيم التى يطرحها الإعلام (مفاهيم علمانية - إلحادية - حب الذات - الصراع من أجل البقاء..) **قد أخرجت أجيالًا أكثر تقبلًا للعنف واللا مبالاة والتمييز العرقى وكل السلوكيات الشاذة.**

قد يقول البعض، **إن إعلام بلادنا يحتوى على برامج دينية كثيرة**، وباقى البرامج لا تصرح بالدعوة إلى الإلحاد ولا تتحمس لأفكاره مثلما يحدث فى الإعلام الغربى. ونحن إذ نوافق على هذا الاعتراض من ناحية المبدأ، فإن ما نحذر منه **يحدث بشكل غير مباشر**، يفرز فى النهاية **«منظومة نفسية»** تشجع على تبنى الإلحاد، وهذا ما سنثبته فى هذا المبحث.

لعبة المصباح والفراشة

يقول أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله):

عندما قَرَّرَت الرأسمالية توسيع رقعة السوق لمنتجاتها فقد فعلت ذلك، لا عن طريق الانتشار الأفقى فى الخارج بتكلفته العسكرية الباهظة (الغزو الخارجى = **الإمبريالية العسكرية**)، وإنما عن

طريق **الانتشار الرأسى داخل النفس البشرية ذاتها** (الغزو الداخلى = **الإمبريالية النفسية**). وقد حققت الرأسمالية ذلك بأن ألقت فى روع الفرد أن ما تعرضه فى السوق من سلع لا يحقق «**منفعته**» وحسب بل و«**سعادته**» (**أى لذته**) أيضًا، عندها يتوحد الفرد تمامًا بالسلعة ويصبح «**إنسانًا متسلعًا**» ذا بعد واحد، غارقًا تمامًا فى السلعة والمادة واللذة، **وفى حالة غيبوبة إنسانية كاملة**.

وتتعامل الإمبريالية النفسية مع الإنسان **باعتباره حيوانًا اقتصاديًّا جسمانيًّا لا يبحث إلا عن منفعته (الاقتصادية) ولذته (الجسدية)**، فلا يهدف فى حياته إلا إلى تحقيق المنفعة واللذة، ويرى أن خلاصه يكمن فى ذلك. وإذا كانت «**الحاجة أم الاختراع**» فى الماضى، ففى إطار الإمبريالية النفسية يصبح «**الاختراع هو أبو الحاجة**»، ولا بد أن تظهر سلعة جديدة كل يوم. ومن هنا يدخل الإنسان دائرة الإنتاج الآخذة فى الاتساع إلى ما لا نهاية.

وقد نجحت هذه الإمبريالية فى تجنيد كل الطاقات فى **مختلف وسائل الإعلام**، وخاصة **قطاع الأفلام**، الذى يُرَوِّج صورة الإنسان الذى يعيش فى اللحظة الآنية، يساعده **قطاع الأزياء** الذى يُغيِّر «أذواق» الإناث والذكور والأطفال كل عام مرتين. ومن أهم القطاعات الأخرى، ولعلها أهمها قاطبة، **قطاع الإعلانات التجارية** التى لا يكف التليفزيون والفضائيات عن بثها[١].

وكلما نظرت حولك فى الولايات المتحدة، وجدت كلمة «سيل sale» أى «**تخفيض**» أو «**أوكازيون**» تطاردك أينما ذهبت فى المحلات والشوارع والجرائد والمكتبات ومنزلك، تحاول أن تقنعك بأن أمامك فرصة ذهبية لأن «تخرب بيت» صاحب المحل المسكين، المضطر إلى تصفية بضاعته.

ليست الشطارة أن تبيع للإنسان ما يحتاج إليه، بل أن تبيع له ما لا يحتاج إليه!

يرسم صديقى **كافين رايلى** Kevin Rayle (عالم الاجتماع الأمريكى) صورة واقعية ومثيرة لهذه الهجمة الإمبريالية النفسية على الإنسان الفرد فى كتابه «**الغرب والعالم**»، فيقول:

«إن قدرة العلاقات العامة والإعلان على التلاعب بالآراء والتأثير فى قرار الإنسان مع التظاهر بتوسيع فرصة الاختيار أمامه هى قدرة هائلة (**أىَّ خداع وأىَّ سرقة**). ولنتأمل هذا المثل:

(١) يضرب د. المسيرى مثالاً على ذلك:
حدث لى موقف مع **شركات الطيران**. كنت أرتاح كثيرًا للسفر بالدرجة السياحية إلى أن رأيت إعلانًا لإحدى شركات الطيران يتحدث عن مدى اتساع كراسى الدرجة الأولى، ويُظهر صورة راكب ممدد على كرسيه الوثير، مقارنةً براكب الدرجة السياحية، الذى يتقلب من الألم فى كرسيه ويلكزه جاره عن غير قصد. منذ تلك اللحظة أصبح السفر بالدرجة السياحية مسألة مؤلمة بالنسبة لى. هذا هو حالى أنا المدرك لما حولى، الواعى به تمام الوعى، فما بالك بالمواطن الأمريكى التلقائى الطيب؟.

أرادت شركة الدخان الأمريكية زيادة مبيعاتها عن طريق حث النساء على الجهر بالتدخين، فقامت عام ١٩٢٩ ـ بناءً على مشورة محلل نفساني ـ بالإعداد لموكب تسير فيه المدخنات فى عيد الفصح فى شوارع نيويورك، وأرسلت سكرتيرته تلغرافات لثلاثين من الفتيات من عِلْية القوم فى المدينة، وهذا نصه:

(من أجل المساواة بين الجنسين، قررت مع غيرى من الشابات أن نوقد مشعلًا آخر للحرية، بتدخين السجائر فى أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح).

وقد أثار الحدث ضجة قومية فى أرجاء البلاد واستجابت النساء ودخَّنَّ جهارًا، وأثبتت الشركة **أن العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريق إصدار نداء مثير، تنشره شبكة من وسائل الإعلام.**

ولما كان المطلوب هو تدخين نوع معين من السجائر، وهو **«لكى سترايك Lucky Strike»** ذو العلبة الخضراء، كان لا بد من إشعال **«الثورة الخضراء»**! فقام مشجع مجهول بإرسال مبلغ ٢٥٠٠٠ دولار لأهم منظم للحفلات الراقصة فى المجتمع الراقى لينظم **حفلًا أخضر**. وأقام أحد منتجى الحرير مأدبة لمحررى الموضة، كانت قائمة الطعام فيها خضراء وكل **الطعام أخضر**، وقام أحد علماء النفس فحدثهم عن تأثير **اللون الأخضر**. ثم حاضرهم رئيس قسم الفن بكلية هنتر للفنون عن **«اللون الأخضر» فى «أعمال مشاهير الفنانين»**.

وبشرت الصحف **«بخريف أخضر» و«شتاء أخضر»** ليكون اللون الأخضر هو سيد الألوان، فى الملابس وفى الإكسسوارات وحتى ديكورات المنازل والأثاث. وقام رئيس حفلة الموضة الخضراء بالسفر إلى فرنسا ليضمن تعاون صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية.

ولما اشتدت الحملة ركب **سائر المنتجين الموجة**، فأعلن أحدهم عن طلاء أظافر جديد أخضر زمردى، وأدخل آخر الجوارب الخضراء. وأخيرًا انضم **المنافسون** إلى الحملة، فعرضت سجائر **«كامل Camel»** فتاة ترتدى زيًّا أخضر مقلمًا بالأحمر، وهى نفس ألوان علبة سجائر لكى سترايك. وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكى سترايك هى قمة الموضة».

إن الإعلانات ـ كما نعلم كلنا ـ **كذب فى كذب**، ومع ذلك نتأثر بها ويتحدد سلوكنا من خلالها.

ولكن ماذا أفعل لو كنت فقيرًا (وقد مَلَكَت السيارة التى فى الإعلان عقلى وقلبى)؟ لا داعى للقلق فصديقك ذو الابتسامة العريضة فى بنك نيويورك المسئول عن القروض سيساعدك، كل ما عليك أن تفعله هو أن توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح السيارة والسعادة. وإن دققت النظر فى محتوى هذه الورقة البيضاء الصغيرة اكتشفت أن عليك أن ترهن منزلك وأولادك وزوجتك وذاتك وعرضك وسيارتك فى مقابل هذا! كما أن سعر الفائدة ليس ٤٪ كما تقول اللافتة العريضة؛ لأنه يصل بالحساب المركب إلى أضعاف أضعاف ذلك. فإن انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك **طوفان السلع الأخرى**... معجون أسنان، صابون للأطباق، أنواع جذابة من المكرونة والعطور والمياه الغازية والملابس الداخلية والأحذية والشيكولاتة والمنشطات الحيوية والمهدئات وأدوات التجميل والتخسيس والأهداب والنهود الصناعية.

كل هذا الركام يمكن أن يزول لو توقف الإنسان للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كل هذا، ولكنه بالطبع لا يفعل لأنه إنسان ناجح، يتعامل مع الواقع (كما أخبره الإعلان)، فالإمبريالية النفسية لا تغزو الإنسان من الخارج فحسب، بل تغزوه وتقمع إنسانيته من الداخل.

السوبرمان والمرأة اللعوب

يتمثل الغزو الداخلى للإنسان فى مجالات عديدة، أهمها **الجنس**. فصورة الإنسان الآن فى الولايات المتحدة **خليط من الإنسان الاقتصادى والجسمانى**، ولذا نجد أن الإعلانات التليفزيونية ـ سواء فى الولايات المتحدة أو فى مصر ـ توظف الجنس بلا حياء فى بيع السلع[1].

وقد نجم عن ذلك **انتشار الإباحية**، وهى إباحية علمية من نوع جديد، تعتبر **أن الجنس** طاقة محايدة يمكن استخدامها فى التحكم فى الإنسان. إنه بعث جنسى لا علاقة له بالحياة أو الحب أو الزواج أو الطلاق أو حتى إبليس، **فهو بعث جنسى يدور فى فراغ لا نهائى هدفه الاستهلاك.**

ولو وجد أصحاب هذه الإعلانات أن بعض أسفار الإنجيل قد تساعدهم بشكل أكبر على البيع لما ترددوا فى التخلى عن توظيف الجنس ولوظفوا الإنجيل بدلًا من ذلك.

حضارة السهل: بلاش عقد Take it easy

إن الإمبريالية النفسية هى **حضارة السهل، بدلًا من المُرَكَّب والجميل**. وتحت شعار «**فلتكن بسيطًا**» أو «**لتكن طبيعيًّا**» (يقابلها فى حضارتنا الآن حضارة «بلاش عُقد») يتم إنتاج مجموعة من السلع البسيطة (مثل الهمبورجر والديسكو والبنطلون الچينز). وقد أُطلق على هذا النمط الإنتاجى/ الاستهلاكى البسيط الذى أفرزته الإمبريالية النفسية اصطلاح «**ضد الحضارة** anti-culture»، فهو يهدد كل الأشكال الحضارية وكل الخصوصيات، بما فى ذلك الحضارة والخصوصية الأمريكية التى أنتجته (فالحضارة الأمريكية تعرف تقاليد حضارية محلية ثرية مختلفة تبعًا لاختلاف الهجرات: حضارة الكريول فى لويزيانا ـ حضارة الساحل الشرقى ـ حضارة الوسط الغربى الأمريكى... إلخ). إن هذه السلع النمطية **تحول الإنسان الفرد إلى كائن نمطى**

(١) انظر إلى هذا الإعلان: تسير السيارة ثم تخرج منها فتاة نصف عارية رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد فى شرائها: السيارة/ الفتاة، وقد أصبحت إعلانات بنتون وكالفين كلاين من أهم الرموز الجنسية فى المجتمع الأمريكى.
انظر أيضًا إلى كريم الشعر هذا، إن سحره لا يُقاوَم، إن استخدمته وقعت كل الفاتنات فى شباكك. وأنت يا سيدتى إذا شربتِ هذا الدواء، فإنكِ ستتمتعين بجاذبية جنسية بعد شربه. وأنت أيها العجوز الكركوب لم لا ترتدى باروكة أو تصبغ شعرك أو تفرد جلدك أو تقصر بنطلونك أو تطوله، اختر ما تشاء من السلع وكله فى سبيل الحيوية والبعث الجنسى.

بلا أبعاد وتفقده خصوصيته وتراثه، بحيث يمكن توجيهه بسهولة كما يمكن التنبؤ بسلوكه واحتياجاته، ولذا فهى **حضارة معادية للحضارة وللإنسان**.

سمات الخطاب الإعلامى المادى

لا شك أن ما نقلناه عن أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) يبين مدى سطوة الإعلام، كما يعبر عن الكثير من سمات الخطاب الإعلامى المادى، الذى يقوم **بتفكيك الإنسان** إلى مكوناته المادية وحسب، ثم **يعيد تركيبه** فى ثلاثية مادية صرفة (منتج - مستهلك - مستمتع) لا تدع مجالًا لأية قيم روحية أو دينية. إنها **منظومة تمهد الطريق للإلحاد بشكل مباشر**.

ويمكنك - قارئى الكريم - أن تتأمل منافذ الإعلام من حولك لترى بنفسك صدق كل مفهوم طرحه د. المسيرى، ولترصد بنفسك سمات الخطاب الإعلامى المادى التى نوجز أهمها فيما يلى:

١) العنف

أكدت نتائج دراسات الاتحاد الأمريكى لعلماء النفس The American Psychological Association إن الأشخاص الذين يشاهدون العنف بشكل مكثف فى التليفزيون يكونون **أقل تعاطفًا مع آلام ومعاناة الآخرين**، كما يكونون أكثر **استعدادًا لتبنى المفاهيم والسلوك العنيف**، وكلما كان الإنسان أقل ثباتًا واستقرارًا من الناحية النفسية كلما كان أكثر تقبلًا لذلك. وقد انعكس ذلك على ارتفاع نسبة مشاركة المراهقين للكبار فيما يرتكبون من جرائم[(١)].

٢) عبادة الجسد

يشيع فى الإعلام المعاصر **الاهتمام بالجمال الجسدى ومستحضرات التجميل**. ولا شك أن هذا التوجه يمهد لتبنى **أخلاقيات الإلحاد**؛ كالاهتمام بالذات وأمتاعها والانشغال بها، والتركيز على الإنسان باعتباره «شىء جنسى»، وإشاعة أن قيمة الإنسان فى المجتمع تكون بمنظره ومظهره.

ولا شك أن بعض ما يصيب الإنسان من اضطرابات فى التغذية، والمبالغة فى الاهتمام بجراحات التجميل، والتوجه إلى النيولوك كل حين، هو نتيجة مباشرة لعدم رضا الإنسان عن هيئته وإلى اهتمامه بالجمال الظاهرى. **فالأجمل والأحسن مظهرًا** هم أصحاب الفرص الأكبر فى التعيين فى الوظائف وفى تكوين الصداقات، وهم الأكثر شهرة وتفضيلًا فى المجتمع. إنه **البقاء للأصلح**.

(١) C.F. Antina Diamant, "Media Violence", parents (October 1994): 40-45

أما من ليس على جمال، أو فقد جماله وجاذبيته بالشيخوخة، فهم المنبوذون فى المجتمع والمكتئبون والمعتلون وربما المشتهون للوفاة[1].

٣) تدمير الذات

وكما يروج الإعلام لعبادة الجسد (الذات) فإنه يتبنى معبودًا مضادًا، وهو تدمير الذات Self Abuse!

فـإن لم تكن جميلًا، أو عجزت عن أن ترى نفسك جميلًا، وشعرت بكراهية لهذه الذات! فلا بد من التعامل مع هذا الكُره. ربما كان أيسر وسائل ذلك هو **أن تتبنى ما يفعله أصحاب الجمال الذين تشاهدهم فى التليفزيون**.

وقد أظهرت الدراسات أن السبب الرئيس فى تبنى بعض **السلوكيات الضارة**، كالتدخين ومعاقرة الخمر والعقاقير هو الرغبة فى محاكاة الصورة التى يطرحها الإعلام. كما أظهرت الدراسات أن ممارسة هذه السلوكيات يشغل حوالى ٧٠٪ من وقت برامج التليفزيون، وأكثر من ٩٠٪ من وقت الأفلام، و ٥٠٪ من كليبات الغناء والموسيقى[2].

وإذا تأملنـا الرؤيـة التى يتبناهـا الإعلام للحيـاة، وكيف أنها مغرقة فى الشـهوات والقبح واللاغائيـة، وهـذا يعنى أنها لا تستحق أن تُعـاش، أدركنا **كيف تتلاقى هـذه الرؤية مع الفكر الإلحادى**، وبذلك أصبح كل منهما يغذى الآخر.

٤) مجتمع يتعاطى العقاقير

يركز الإعلام على **صورة واقعية** للمجتمعات المادية (المجتمع الأمريكى بشكل خاص)، فغياب الإله يسبب خواءً روحيًا ونفسيًا للمواطن، ويزيد من هذا العبء ما يغذيه الفكر العلمانى الإلحادى من تمحور حول الذات. ويروج الإعلام أن **التخفف من عبء هذا الخواء** يكون فى الخمور والعقاقير، وبذلك تكاد مشكلة الإدمان أن تصبح داءً مستوطنًا فى المجتمع. هذا ما يتبناه الإعلام، وإلى هذا ينحدر المجتمع[3].

٥) عالم شاغلة الجنس

يمثل الجنس محورًا أساسيًّا يتبناه الإعلام فى منظومة «**الإنسان الشىء**» الذى يُستخدم ثم يُلقى جانبًا!

---

(١) Pasquini, Secularism, 72

(٢) Pasquini, Secularism, 74

(٣) Drug Data Summery, www.whitehousepolicy.gov

فالأمريكى يشاهد فى المتوسط ١٥,٠٠٠ صورة جنسية سنويًّا، وتحوى ٥٦٪ من برامج التليفزيون مواد جنسية، وتحتوى كل ساعة من المادة الإعلامية التليفزيونية على ثمانية مواقف جنسية، وفى ساعات النهار يعرض التليفزيون الأمريكى يوميًّا ١٥٠ ممارسة جنسية ثلاثة أرباعها خارج الرابطة الزوجية.

هذا هو طرح **كتاب الإلحاد المقدس (الإعلام)**، وقد أدى ذلك إلى أن أصبح الجنس والإباحية أمرًا عاديًا وبديهيًّا فى المجتمع الأمريكى، حتى أصبحت **صناعة الجنس** والإباحية من أكبر الصناعات فى العالم تحقيقًا للربح.

وقد يظن البعض أن الحرية الجنسية فى المجتمع الأمريكى - بالإضافة إلى هذه الإباحية - تحقق إشباعًا، على العكس!!، فالمجتمع الأمريكى **أكبر المجتمعات فى معدلات الاغتصاب والشذوذ الجنسى فى العالم**.

٦) ضجيج الإعلام المبتذل

يقول المفكر الأمريكى جون باسكوينى John Pasquini [١] فى كتابه العلمانية Secularism:

ماذا تنتظر من إعلام الحضارة المادية؟ إنها حضارة تتبنى رؤية تنعدم فيها المرجعية والمطلق، الأخلاق فيها نسبية، الإنسان فيها مادة وحسب، والمفاهيم الإنسانية الحقيقية فيها غائبة.

ويضيف باسكوينى: إن المجتمع الذى يروج له الإعلام الأمريكى هو **مجتمع العلمانية والإلحاد**. إنه مجتمع صاخب مشاكس فظ بجح عدائى مهين جِلْف، لا يبالى باحترام الآخر. إنه مجتمع وصولى مستغل، يهين ويسخر من القيم الأخلاقية، إنه **صورة مجسدة حية لشريعة الإلحاد**.

٧) مجتمع متدنٍ معرفيًا

لم تفرز البشرية فى عصر من العصور **مفكرين بهذا التدنى** (كمًا وكيفًا) الذى أفرزته فى العصر الحديث، هذا بالرغم من الثراء المعرفى والمعلوماتى السائد[٢]. لقد أصبح إنسان العصر الحديث عاجزًا عن الاستفادة إنسانيًّا من هذا المحتوى المعلوماتى الهائل المتاح له، وذلك لانشغاله بنفسه لإمتاعها وإبعاد الألم والمعاناة عنها، لقد أصبح **متمحورًا حول ذاته**.

ومن أمثلة ذلك التناقض، موقف إنسان العصر الحديث من **فيزياء الكم**، فقد استغلها العلماء أفضل استغلال على المستوى المادى، حتى أصبحت منتوجاتها صاحبة أعلى مصدر

---

(١) John Pasquini : الفيلسوف والمفكر ورجل الدين الأمريكى.
(٢) Pasquini, Secularism, 74

للداخل فى الاقتصاد الأمريكى. وفى المقابل، عجز الإنسان العصرى عن الاستفادة من المعانى الفلسفية وراء هذه الفيزياء، تلك المعانى التى جعلت كل الفطاحل الكبار المؤسسين لها من المؤمنين بالإله.

كذلك، ثبت أن الإفراط فى مشاهدة التليفزيون **يعوق نشأة القشرة المخية قبل الأمامية**، المسئولة عن التخطيط وإصدار الأحكام والكثير من السلوك البشرى[١].

٨) التضليل والإغواء

يكشف طرح د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) كيف يستخدم الإعلام عددًا من المصطلحات والرموز من أجل تضليل الإنسان العصرى وإغوائه بالإقبال على سلعة ما أو تبنى أفكار ما.

لقد **أصبح الإعلام بذلك هو المُشَرِّع** الذى يحدد الصواب والخطأ، وهو العقل الذى يحدد لنا ماذا نرتدى وماذا نأكل، أى سيارة نركب، لون الشعر وأحمر الشفاة،... ومن أجل ذلك يلجأ المعلنون والإعلاميون إلى **كل الوسائل**، وأكثرها استخدامًا المرأة الجميلة التى ترتدى البيكينى، وكذلك التعبيرات الموحية جنسيًّا، بل ويلجأون إلى السخرية من الصليب والإنجيل والمسيح.

إن الغالبية العظمى من البشر يبتلعون **طُعم الإعلان والإعلام**، ويفعل ذلك الطُعم فى نفوسهم ما يفعل، دون أن يدركوا ما أصابهم من تشويه نفسانى.

٩) إزهاق روح التعاطف

إذا كان **التعاطف** هو روح (محور) المجتمع المتماسك، فقد نجح الإعلام إلى حد بعيد فى إزهاق هذه الروح.

لقد أصبح **أفراد الأسرة غرباء** بعضهم عن بعض، لا يجتمعون على طعام ولا يتحاورون، وإذا جلسوا فى مكان واحد كان كل منهم جزيرة منعزلة لانشغاله بالآى فون أو الآى باد!

كذلك أصبحت **بيوتنا قلاعًا**، أبوابها مصفحة، شبابيكها مغلقة باستمرار، تستخدم العيون السحرية والكاميرات للتعرف على الزوار، بل لقد أصبحنا لا نعرف جيراننا ناهيك من مصادقتهم.

---

(١) University of Michigan 2008, www.medumich.edu/1libr/yourchild/tv.htm

ويضرب أستاذنا د. المسيرى مثالًا لذلك **بالرسائل التليفونية**، التى يكتب فيها أحدهم لتهنئة آخرين بالعيد، «أخصك بأحر التهانى»، ثم يرسلها إلى قائمة معارفه المسجلة على الهاتف والتى تبلغ المئات!!

كذلك أصبحت عباداتنا الجماعية (كالصلاة فى المسجد والكنيسة) فى مرتبة متدنية. وتحولت **مناسباتنا الاجتماعية** (كالأفراح والجنازات) إلى فرصة للتباهى والتعالى على الآخرين.

١٠) تعزيز السلبية

لقد بلغت احترافية الإعلام والإعلان حدًّا يُمَكِّنه من أن يُسَرِّب مفاهيمه المادية والعلمانية والإلحادية إلى عقل المتابع **دون مقاومة أو اعتراض، ودون تفكير نقدى أو تقييم حقيقى**. ويؤدى ذلك إلى أن يعتاد الشخص استقبال المفاهيم الحياتية السطحية وأيضًا الشريرة **دون مقاومة**، وتكون المحصلة النهائية **أن ينحدر الإنسان فى سلم الإنسانية**.

بذلك يحدث «**التطبيع**» بين العقل الإنسانى وبين المفاهيم والسلوكيات العلمانية والإلحادية، وبالتالى تصبح المفاهيم الدينية الغيبية مفاهيم متدنية عقليًّا وضارة حضاريًّا!

١١) وأد الحقيقة

إن المفاهيم التى يزرعها الإعلام والإعلان فى عقل الإنسان تؤثر فى كل شىء يؤمن به ويفعله. ومع نمو الصبى ودخوله فى طور الشباب، يظل البعض محتفظين بقدرتهم الفطرية على النقد وعلى اتباع العقل والحكمة، لكن الأغلبية يصبحون **منقادين للمفاهيم التى حفرها الإعلام فى عقولهم** ويرفضون كل ما يتعارض معها.

المسيخ الدجال

يجعلنى تأمل هذه السمات للخطاب الإعلامى المادى أستحضر مفهوم «**المسيخ الدجال**» الذى تطرحه علينا الديانات السماوية، وذلك لما يجمع بينهما من سمات:

ألا يجعلنا الإعلام المادى نسمع ونبصر ما يجرى فى أقصى الأرض بل وفى كواكب أخرى؟!

ألا يعرض علينا الإعلام الخطأ البين باعتباره الصواب كما يعرض الصواب والفضيلة باعتبارهما الخطأ؟!

أليس الخطاب الإعلامى أعور لا يبصر من الإنسان إلا ماديته؟!

أليس إعلامًا لا يدرك حقيقته الإلحادية إلا ذوو البصائر؟!

ماذا تبقى للخطاب الإعلامى المادى ليتصف بكل سمات المسيخ الدجال؟!

لا يتبقى إلا أن **يدعى الألوهية.**

وهو بالفعل يقدم لنا آلهة أخرى لمجتمع الإلحاد، غير إلهنا الذى نعرفه.

آلهة مجتمع الإلحاد

نختم هذا الفصل بنظرة على «مَجْمَع آلهة مجتمع الإلحاد».

يحثنا الإعلام المادى على أن نحيا الحياة فى **أشد صورها بدائية ودناءة**، بعد أن يوهم الإنسان بأننا **نحيا الحياة مرة واحدة.**

لم يعد **أبطال الإنسانية** هم المفكرين والعلماء والفلاسفة، ولكنهم رجال يحيون حياة جنسية إباحية، عدوانيون، وقحون، متمحورون حول ذواتهم، مثل جيمس بوند، الذى هو مثال **لسوبرمان الذى عبده نيتشه**. إنهم هؤلاء الذين يرتدون أغلى الثياب تبعًا لآخر موضة، ويركبون أفخر السيارات، وبذلك يصيبون أجيالًا كاملة بالإحباط.

ويصبح الهدف من العمل والحياة كلها ليس تأصيل المفاهيم والقيم الأخلاقية، ولا حتى التقدم العملى والوظيفى، بل **إبهار الآخرين** وفتنتهم بشخصيتك.

لم تعد السعادة أن تحقق قيمك العليا وأن تحيا تبعًا لمبادئك، بل السعادة هى **الاستمتاع هنا والآن**، أى تحقيق **الفردوس الأرضى**، مهما كان الثمن، وعلى حساب أى شخص، أو حتى المجتمع كله.

لقد أصبحت الحياة المثالية أن تكون **علاقتك بالآخرين سطحية**، تلقى بها فى أول سلة مهملات إذا شعرت بأى ضيق. لم يعد للعلاقة العميقة موضع ولم يعد للعلاقة ذات التبعات مكان، لذلك تجد ٣٧٪ من الملاحدة فى الولايات المتحدة يحيون معًا كذكور وإناث دون زواج.

إن شبق الإنسان المادى للأفضل والأمثل لا يشبع؛ الحبيب الأمثل، رفيق الجنس الأمثل، العائلة المثلى، الطفل الأمثل، الوظيفة المثلى، البيت...، الجسم...، ... إنه الجوع وعدم الرضا، إنها المرارة والإحباط الدائمان.

إن **أبطال التليفزيون وَهْم**، إنهم صور لا يمكن تحقيقها، ولا بأس بأن يجعلوا من السفاحين نجومًا ومن الزناة مثلًا أعلى. وفى النهاية، من منا يمكن أن يصل إلى هذا الثراء والجمال والنجاح والشهرة والوسامة؟!

هـذه بعـض آلهة مجتمع الإلحـاد: **التقدم لِذَاته - الشـهرة لذاتهـا - القوة لذاتها - الإنسـان السوبرمان** .

ونتيجة للعجز عن إرضاء هذه الآلهة والتقرب إليها يلجأ الإنسان إلى طقوس تنسيه عجزه، يلجأ إلى **الجنس والخمر والعقاقير**.

العلم الإله

يقول نيتشه:

«إن الفوارق بين العلماء والفلاسفة وبين المتدينين والمؤمنين ليست فوارق نوعية، فكلنا نؤمن، ولكن الفارق هو مقدار **الإيمان والورع والتقوى**، فنحن **أقل** من المتدينين فى هذا الجانب.

ويبين عالم البيولوجيا الكبير ريتشارد ليونتن Richard Lewontin[1] **كيف اتخذت البشرية من العلم المادى إلهًا فى العصر الحديث، فيقول:**

«لقد اخترنا جانب العلم بالرغم مما فيه من مفاهيم تنافى العقل بشكل واضح، وبالرغم من عجزه عن تحقيق طموحاتنا الصحية والحياتية، وبالرغم من كثرة قبول المجتمع العلمى لمقولة Just so (هو كده) كإجابة على الكثير من التساؤلات. لقد **اخترنا التفسيرات المادية للظواهر لقناعتنا المسبقة بالفكر المادى**، وليس لأن نتائج العلم أقنعتنا بهذه التفسيرات!! وبناء على قناعاتنا المادية المسبقة **وضعنا منظومة أبحاثنا وصممنا أجهزتنا وتجاربنا لتصل إلى التفسير المادى المناسب لكل ظاهرة**. وقد تجاوزنا فى هذا المنهج عن العديد من الاعتراضات والمآخذات، فقناعتنا بالفكر المادى قناعة مطلقة، ولن تترك مجالًا لموضع قدم لتدخل الإله».

لقد طرحت الثورة العلمية فى القرن السادس عشر مفهوم أن **المعرفة والإيمان لا يجتمعان**. وظن الكثيرون أن «الإيمان بالإله» كان طرحًا لتفسير ما يعجز الإنسان عن تفسيره، أما وقد قام العلم بالمهمة فلم تعد هناك حاجة للإله.

(١) Richard Lewontin : (١٩٢٩-   ) عالم بيولوجيا التطور والوراثة الأمريكى.

لذلك تتبنى المجتمعات المادية الإلحادَ بالإله، وتعتبر الإله «تفسيرًا قبل علمى للظواهر **Pre-scientific Explanation**»، ومن ثم لم تعد فى ضوء مجتمع العلم حاجة لإله. لذلك أصبح الإعلام **ينطلق من مقولات كبار الملاحدة**، مثل مقولة هتشنز: إن كل المحاولات للمواءمة بين الإله والعلم والعقل مصيرها الفشل. وأيضًا مقولة دوكنز: إن الهدف من العلم هو قتل الديانات التى تقوم على الإله وإحلال **دين العلم مكانها**.

وفى سبيـل تحقيـق ذلك أصبح الإعلام يروج لعـدد من المفاهيـم التى لا معنى لها، ويلبسها ـ من أجل فرضها على العقول ـ ثوبًا علميًّا. ومن هذه المفاهيم الأكوان المتعددة، الكائنات الفضائية، الصدفة، التطور المتوافق،....

وللبابا فرانسيس قول حكيم يعبر عما آل إليه حال آلهة مجتمع الإلحاد، فيقول:

إن هؤلاء الذين يقررون أن يضعوا الإله جانبًا، لا بد أن يصك آذانهم صراخ آلهة عديدة، كل منهم يحثه أن «ضع ثقتك فى».

وإذا كان كل من العلم والسوبرمان والتقدم والشهرة والقوة يتنافسون ليكونوا القِبلة التى يتوجه إليها الملاحدة بإجلالهم وتقديرهم، فإن لهذه الآلهة إلهًا أكبر (زيوس العظيم) إنه **الفكر المادى**. وقد أدرك الإعلام ذلك فصار كل ما يقدمه هو صلوات فى محراب هذا الفكر.

القارئ الكريم

ترينا قراءة التاريخ أن أطفال فترة الاستنارة فى أوروبا (القرن ١٨) لم يكونوا يتعرضون لتأنيب كبير من والديهم المشغولين بالالتزامات الاجتماعية، فنشأوا **دون ضغوط نفسية** كنسية ولا أسرية كبيرة، مما سمح لهم بعدما شبوا بالنظر فى الدين والألوهية من **منطلقات منطقية**، لذلك تبنى الكثيرون منهم الربوبية ورفضوا المسيحية.

وأعقب هذه الفترة **العصر الفيكتورى**، ويتركز ميراث **هذا العصر** على المستوى النفسانى فى ظهور نموذج «**الابن الضحية The Son Victim**»، إذ كان عصرًا صارمًا عابثًا قاسيًّا بتوحش، يفتقد الحب، **فأخرج جيلًا مهووسًا يكره الإله**. وكان طبيعيًّا أن يُفرز هذا الجيل رجالًا يعانون نمطًا من الإلحاد، يتلخص منهجه فى «**التلاعب بالحقائق العلمية لمهاجمة الإله كرمز للأب**» عندها صدقت مقولة «**إذا مات الإله، فكل شىء مباح**». فالإله يُحجِّم الوحشَ داخل نفوسنا،

لذلك فإننا بدون الإله نصبح برابرة... **لقد جعل هذا الميراث الإلحادَ الحاضر كئيبًا، وسيصبح المستقبل أكثر كآبة**، فمجتمع ما بعد الإلحاد يتسم بعدد من السمات النفسية التى توصف مجتمِعَة **بالعقـلانية المادية أو الاستنارة المظلمة**.

فالعقلانية الغربية يتخفى وراءها **نموذج مادى** يساوى بين الإنسان والطبيعة المادية، ويعتبر أن مهمة العقل الإنسانى الوحيدة أن يرصد الطبيعة ويعرف مسارها وقوانينها ليطبقها على الإنسان، وتتباهى هذه العقلانية بمقدرة العقل (المادى) على **التجريب**، **ولكنه تجريب منفصل عن القيم الإنسانية والأخلاقية، ثم يتلقف نتائج تجريبه دون تساؤل عن المعنى والغاية**. لذلك صدق وصف جارودى لإنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية بأنها «**حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**».

كذلك لم يدرك كثير من هؤلاء الماديين أن **الجنس مسألة إنسانية مركبة، خاصة وأنها مرتبطة برؤية الإنسان للكون وهويته الفردية**. وقد أدى عدم إدراكهم لهذه الحقيقة البسيطة العميقة، إلى عدم الارتواء الجنسى، فهم يمارسون الجنس فى إطار مادى نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه، ويترك ذلك كيانهم الإنسانى بلا إشباع.

إن مجتمع الإباحية الجنسية والشذوذ الجنسى والإجهاض غير المبَرَّر والإلحاد يفرز دون شك **أُسرًا مفككة وشخصيات مشوهة وحشية**، أدت إلى أن أصبح سوء معاملة الأطفال وباءً فى الغرب، حتى صارت الشوارع ملأى بأشخاص يعانون مشكلات نفسية عديدة بسبب الاعتداء عليهم فى الصغر.

لقد أصبح الغرب أسيرًا **لدائرة مغلقة**، فيها يؤدى الإلحاد إلى سوء معاملة الأطفال، فيُخرِج أشخاصًا مشوهين يتبنون الإلحاد ويتبنى العنف والإجرام، وهكذا.

كذلك نقول دون أدنى تجاوز إن **الإعلام (خاصة الغربى) قد صار «مُشَكِّلًا» و «مُعَبِّرًا» عن نمط حياة وفكر الإلحاد**. وبذلك صار الإعلام «منبرًا» يبشر من خلاله الملاحدة، وصار «**الكتاب المقدس**» الذى يُشَرِّع لهم (وللمجتمع) ما يفعلون وما يتركون.

لذلك **أخرجت** المفاهيم التى يطرحها الإعلام (مفاهيم علمانية ـ إلحادية ـ حب الذات ـ الصراع من أجل البقاء..) **أجيالًا أكثر تقبلًا للعنف واللا مبالاة والتميز العرقى وكل السلوكيات الشاذة**.

لم يعد **أبطال الإنسانية** هم المفكرين والعلماء والفلاسفة، ولكنهم رجال يحيون حياة جنسية إباحية، عدوانيون، وقحون، متمحورون حول ذواتهم، مثل جيمس بوند، الذى هو مثال **لسوبرمان** الذى **عبده نيتشه**.

وإذا كان كل من العلم والسوبرمان والتقدم والشهرة والقوة يتنافسون ليكونوا القِبلة التى يتوجه إليها الملاحدة بإجلالهم وتقديرهم، فإن لهذه الآلهة إلهًا أكبر (زيوس العظيم) إنه **الفكر المادى**. وقد أدرك الإعلام ذلك فصار كل ما يقدمه هو صلوات فى محراب هذا الفكر.

* * *

الفصل الثامن



النموذج المعرفى للإلحاد

- مفهوم النموذج المعرفى
  - النموذج المعرفى فى فكر د. المسيرى
  - فيلـم الحاسة السادسة
  - تَشَكُّل النموذج المعرفى العلمى
  - تجربة عقلية
  - الذاتية والتحيز العلمى
- النماذج المعرفية للوجود
  - جدلية المتدينين والملاحدة
- قصور النموذج المعرفى الإلحادى
  1) نموذج ذاتى متحيز
  2) نموذج مبنى على التحايل
  3) نموذج يفرز أيديولوجيات مدمرة
  4) نموذج يقف على ساقين كسيحتين
  5) نموذج المثلث المتداعى
  6) نموذج معرفى عاجز
  7) نموذج معرفى قاصر
  8) نموذج منهار من داخله
     - ضربة فلسفية قاضية
     - هل يمكن الاستمتاع بالحياة فى غياب الإله؟!
     - ألا يمكن أن نكون خَيِّرين من أجل الخير ذاته
  9) نموذج معرفى أعمى معرفيًّا
  10) نموذج معرفى يطمس الفطرة
- الخلاصة: اكتمل التصور
- القارئ الكريم

«إن النموذجَ المعرفى للإلحاد
نموذجٌ أعمى معرفيًّا».
جيمس سبيجل

طرحنا فى الفصول السابقة من هذا الباب **العوامل المختلفة** التى تقف وراء تبنى الشخص للإلحاد. وشبهنا هذه العوامل بجبل الثلج فى مياه المحيط. فكانت **العوامل النفسية** (الفصل الرابع والخامس) بمثابة قاعدة الجبل، وتعلوها **العوامل الشخصية** (الفصل السادس)، كما شبهنا **العوامل المجتمعية** (الفصل السابع) التى تحيط بالإنسان بمياه المحيط. أما ما يعلنه الملاحدة من **حجج وأدلة منطقية ومعرفية** لإلحادهم فليست إلا قمة جبل الثلج الذى يظهر فوق الماء، وهى ليست فى الحقيقة **إلا القناع Persona** الذى تختفى وراءه العوامل السابقة.

وقناعتنا بأن الإنسان، انطلاقًا من هذه العوامل النفسية والشخصية والمجتمعية، يشكل ما يُعرف «**بالنموذج المعرفى Paradigm**» الذى هو بمثابة النظارة التى ينظر من خلالها إلى الوجود كله؛ الكون ـ الحياة ـ الإنسان ـ عالم الغيب ـ ... وإذا كان للحجج والأدلة المنطقية والمعرفية دور فى تشكيل **النموذج المعرفى الإلحادى**، فليس ذلك إلا عند مجموعة صغيرة من الملاحدة الذين يتمتعون بقدر من الموضوعية، أما السواد الأكبر منهم فلا تمثل هذه الحجج والأدلة عنده إلا القناع، كما ذكرنا.

مفهوم النموذج المعرفى[1]

النموذج المعرفى فى فكر د. المسيرى

من أجل أن ندرك دور «النموذج المعرفى» فى تفسير كل ما يحيط بالإنسان وكل ما يعتمل فى عقله ونفسه، آثرت أن نبدأ الفصل بوقفة مع أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) يُعَرِّفنا فيها المقصود بهذا المفهوم ومدى أهميته ودور العوامل النفسية فيه.

يقول د. المسيرى: إن الإنسان لا يدرك شيئًا مما حوله بشكل مباشر، وإنما من خلال **«نموذج معرفى»** يتم تكوينه تدريجيًّا - أحيانًا بشكلٍ واعٍ وغالبًا بشكل غير واعٍ - حتى **يصبح جزءًا من وجدانه وسليقته وإدراكه**. بذلك يصبح النموذج المعرفى هو **المنظار الذى يُنظَر من خلاله إلى الواقع**، أمَّا الإدراك المباشر للواقع بتفاصيله المتناثرة فهو تلقٍ سطحى للأمور (كعدسة الكاميرا) لا يؤدى إلى أى فهم حقيقى.

ويضرب د. المسيرى على ذلك مثالًا: إذا نظرنا إلى **«واقع المسلمين»**، فإن من يتخذون **«فكر المؤامرة»** كنموذج معرفى ينظرون من خلاله للواقع سيفسرون ما نعانيه بأنه نتيجة تحالف قوى مختلفة آثرت ألا تقوم للمسلمين قائمة. أمَّا من يتمتعون بالقدرة على النقد الذاتى ويعتبرون أن النجاح هو محصلة مقدمات وأسباب (إن أخذنا بها أصبنا النجاح وإن أهملناها أصابنا الفشل) فهؤلاء ينظرون إلى الواقع من خلال نموذج **«الأخذ بالأسباب»** ويُحَمِّلون تقصيرنا مسئولية ما نحن فيه إلى حد بعيد.

كذلك إذا نظرنا إلى **«هجمة الجراد الشرسة على البلاد»** فى أوائل عام ٢٠٠٥، نجد الأصوليين الإسلاميين قد تبنوا نموذجًا يشير إلى الواقعة باعتبارها **«عقوبة من الله ﷻ»** كما حدث مع قوم فرعون. أمَّا أحزاب المعارضة فتبنت نموذج **«تقصير الحكومة والجهات المختصة»** فى رصد الهجمة والتعامل معها قبل وصول الجراد إلى المناطق السكنية والأراضى الزراعية.

---

(١) المرجع الرئيس فى هذا البحث مقدمة كتاب

The Making of on Atheist. James s.spiegel, Moody Pubishers, Chicago 2010

ويبين هذان المثالان، **كيف يصبح واقعنا تفاصيل متناثرة وأوهامًا إن لم نفهم النموذج المعرفى الحاكم وراءه**[1].

فيلم الحاسة السادسة

يدور فيلم «الحاسة السادسة The Sixth Sence» حول طبيب نفس الأطفال مالكوم كرو Malcolm Crow، الطبيب المعالج للصبى كُل سير Cole Sear الذى يتعذب بسبب رؤيته المتكررة للأشباح[2].

قال الصبى لطبيبه، إنى أرى موتى، بل إن بعضهم لا يعرفون أنهم موتى. لم يصدق الطبيب مريضه فى البداية، ثم اقتنع أنه صادق، فبدأ فى اتخاذ خطوات فعالة لعلاجه.

وفى نهاية الفيلم، نكتشف أن الطبيب نفسه شبح! ممن لا يعرفون أنهم موتى! وأن أحد مرضاه قد قتله قبل سنتين.

وعندما أدرك الطبيب كرو حقيقته، كان عليه أن يعيد تفسير وفهم العالم من حوله بناء على هذا الواقع الجديد. لقد **تغير النموذج المعرفى** لمالكوم كرو، فبعد أن كان يتعامل مع الوجود باعتباره طبيبًا نفسيًّا، أصبح عليه أن يتعامل معه باعتباره شبحًا.

يحمل الفيلم **عدة رسائل** للمؤمنين والملاحدة، تدور حول النموذج المعرفى:

- قد يكون الإنسان مَيْتًا وهو لا يدرى، وهذا هو **حال من يحيا خارج منظومة الإيمان.**
- **إذا انتابت الإنسان الميت روحيًّا «صحوة روحية»، يصبح عليه أن يعيد النظر إلى العالم من حولـه (أن يتبنى منظورًا معرفيًّا جديـدًا)،** فالعالم الذى يحكمه إله يختلف تمامًا وجذريًّا عن العالم الذى لا يحكمه إله.

---

(١) يضرب د. المسيرى مثالًا طريفًا لدور النموذج المعرفى على **المستوى الشخصى**؛ فيروى لنا كيف أن عددًا من السيدات فى الولايات المتحدة أخبرنه (فى مناسبات وظروف مختلفة) بأن **رائحته جميلة للغاية** Dr. Messiri, you smell so nice، وبدأت تساوره الأوهام بأن **سحره لا يقاوم**، حتى أخبرته زوجة صديقه المؤرخ كافين رايلى بأن عطر (أولد سبايس) الذى اشتراه مع زوجها كان هو الوحيد تقريبًا المُتاح فى ستينيات القرن العشرين، ولا بد أن آباء هؤلاء النسوة كانوا يستعملونه، ومن ثم فهو يذكرهن بطفولتهن. حينئذ تغيرت تمامًا رؤية د. المسيرى للموقف بعد معرفة السبب (أى معرفة النموذج المعرفى الكامن وراء الموقف): اختفت فورًا صورة **دون جوان الخطير** وحلت محلها صورة الأب الوقور الحنون.

(٢) أُطلق على الفيلم اسم «الحاسة السادسة» تعبيرًا عن قدرة الطفل على إدراك عالم الإشباح.
من إخراج الأمريكى M. Night Shyamalan، إنتاج عام ١٩٩٩.

- كلنا يحتاج إلى البصيرة (**الحاسة السادسة**)، لتنبهنا لحالنا ولنعرف حقيقتنا.

- يتبادل كل من الملاحدة والمتدينين اتهامَ الآخر بأنه **متوهِم** Delusional. فالمتوهم هو الذى يرفض الوجود الحقيقى، ثم يبنى تصورًا غير حقيقى عن الوجود، ويخطط لحياته تبعًا لذلك.

تؤكد هذه الرسائل أنه ينبغى على كل إنسان أن يحدد لنفسه النموذج المعرفى الذى ينظر من خلاله إلى الوجود.

تَشَكُّل النموذج المعرفى العلمى

أدخل الفيزيائى والمؤرخ الأمريكى العظيم توماس صامويل كُن Thomas Samuel Kuhn [1] (١٩٢٢ - ١٩٩٦)، المهتم بتاريخ العلم، مفهوم «**النموذج المعرفى Paradigm**» فى فلسفة العلوم. ويتكون «**النموذج المعرفى العلمى Scientific Paradigm**» من **الافتراضات والتعريفات والقوانين والتقنيات التى يتعارف عليها الوسط العلمى**، أى أنه يشمل البنية النظرية مع الخطوات العملية للبحث العلمى.

ومن **النماذج المعرفية العلمية الحاكمة** فى العلم الحديث، نظرية النسبية ونظرية الكم ونظرية التطور البيولوجى. وقد حلت هذه النماذج (أو أضافت) محل النماذج الأقدم؛ فيزياء نيوتن ونظرية بور الذرية والخلق الخاص، على التوالى. وتقدم كل من هذه المفاهيم العلمية منهجها لتفسير وحل الإشكاليات العلمية، كما تنظم منهج البحث العلمى تبعًا لرؤيتها.

ولا شك أن النماذج المعرفية العلمية لا تبزغ تلْقائيًّا، لكنها **إفراز للعقل البشرى**، فالعلماء يتخيلونها (يتصورونها ـ يبنونها ـ يشكلونها). لذلك قيل إن أهم أداة علمية ينبغى أن يتحلى بها العالِم هى «**التخيل الصائب ـ الجيد**». والنماذج المعرفية تكون دائمًا غير مكتملة ومن ثم قابلة للمراجعة والتطوير والاستبدال، لذلك يتقدم العلم من خلال التحولات فى النماذج المعرفية Paradigm Shifts، وهو ما تعارفنا عليه بـ «**الثورات العلمية**».

ومن الأمثلة الشهيرة لتبدل النماذج المعرفية؛ إحلال **نموذج مركزية الشمس** (نموذج كوبر نيكوس) محل **نموذج مركزية الأرض** (نموذج بطليموس). فقد كانت تقابل نموذج مركزية

(١) Thomas Kuhn, The structure of scientific revolutions, 2nded. (Chicago: University of Chicago Press, 1970) 150

الأرض Geocentrism **صعوبات شتى**، أهمها اختفاء بعض كواكب المجموعة الشمسية عن الرصد من أرضنا ثم عودة ظهورها فى موضع آخر. وقد نجح نموذج مركزية الشمس Heliocenterism فى تفسير ذلك بدوران كل من الأرض وباقى الكواكب حول الشمس. ولا شك أن تبديل هذا النموذج المعرفى قد احتاج لجهد كبير ولم يحدث بجرة قلم.

ومن البديهى أن **النماذج المعرفية القديمة تناضل باستماتة قبل أن تستسلم**، خاصة إذا كانت تدعمها بعض المفاهيم الدينية، ومثال ذلك ما نراه من إصرار بعض شيوخ السلفية ـ حتى الآن ـ على أن المفهوم الصحيح هو مركزية الأرض تبعًا لفهمهم لآيات القرآن الكريم!!

تجربة عقلية

أطرح هذه التجربة العقلية حتى ندرك **صعوبة تبدل النماذج المعرفية**، وحتى لا نكون متعصبين ضد أصحاب النماذج المعرفية القديمة وأن نلتمس لهم الأعذار.

تصور أنك **اخترعت آلة الزمن**، وانتقلت بها للوراء لعام ١٥١٠م.

بعد أن استرحت من الرحلة المجهِدة، التقيت ببعض علماء العصر، فوجدتهم يستخدمون اصطلاحات **شروق الشمس وغروبها** استخدامًا حرفيًّا، مؤكدين بذلك أن الشمس تتحرك فعليًّا من شرق الأرض إلى غربها. عندما حاولت أن تنقل لهؤلاء العلماء ما تعرفه من أن الأرض هى التى تتحرك، أخبروك بأن نظرة واحدة إلى السماء تجعل حججك تتهاوى؛ فسترى رأى العين أن الشمس هى التى تدور حولنا ببطء.

حذار أن تقول لهم إن ذلك يرجع إلى أن الأرض تدور حول نفسها مرة واحدة يوميًّا، حذار... **فإنهم سيعتبرونك مجنونًا ويحتجزونك فى إحدى المصحات العقلية** التى كانت فى ذلك الوقت قطعة من جهنم، لا تخرج منها إلا إلى القبر. وإذا كانوا غير مبالين بك بالمرة فسيكتفون بالضحك والسخرية من جهلك، إنك لست جاهلًا وحسب بل وعاجزًا عن التخيل! فكيف تدور الأرض ونحن نحيا مستقرين عليها ولا نتساقط من فوقها؟!

وإذا ركبت آلة الزمن مرة أخرى، وسافرت بها ٤٠٠ سنة للأمام، ووصلت إلى عام ١٩١٠، وبعد أن تستريح (أنت أحوج للراحة، فالانتقال للأمام أكثر مشقة من السفر للوراء) ذهبت إلى محفل لعلماء الفيزياء فى النمسا Austria، وجدتهم يتحدثون عن هذا **الشاب الأحمق (يقصدون أينشتين)** الذى يَدَّعى أن **«الزمان» و«المكان» ليسا مُطْلَقَين**، بل قابلين للتغير تبعًا

لمقدار سرعتك ومقدار الجاذبية فى المكان الذى تحيا فيه. وستجد أحدهم يرفع صوته قائلًا: ألا يدرى هذا الأحمق أنه بذلك يُكَذِّب «الحقائق» التى أثبتها نيوتن؟!

طبعًا لستُ فى حاجة لأن أكرر تحذيرى الذى قلته لك منذ ٤٠٠ سنة، وإن كانت مستشفيات الأمراض العقلية قد أصبحت أفضل حالًا مما مضى.

ثم قررتَ أن تعود إلى زماننا، لكنك لم تضبط إحداثيات الآلة المكانية بدقة، وبدلًا من أن تعود بك آلة الزمن إلى بيتك، نقلتك إلى **حديقة الحيوان فى الجيزة.**

وقفتَ بجوار مجموعة من الشباب الجامعى وأستاذهم الذى يقودهم فى جولة بالحديقة. كان الأستاذ يشرح لطلبته **نظرية التطور لدارون**، سمعت أحد الشباب يقول؛ **ما أبدع ما أنتجه الانتخاب الطبيعى**، كم كان دارون رائعًا حين توصل إلى نظريته، فخالفه شاب آخر وصاح فيه: أى انتخاب طبيعى؟ هل تصدق أن هذا القرد (وأشار إلى مجموعة من قردة الشمبانزى داخل قفص مجاور) هو جدنا؟ كان الأجدر بك أن تقول **ما أبدع ما خلق الله** ﷻ، أى كفر هذا؟ ثار الشاب الأول الموصوف بالكفر وارتفعت الأصوات، والتحم الشابان واشتبكت الأيدى.

فقفلت عائدًا إلى بيتك...

تبين هذه التجربة العقلية **اختلاف وتبدل النماذج المعرفية**، وفى نفس الوقت تؤكد حقيقة نفسية أساسية، وهى أننا **عندما نفكر فنحن نتأثر إلى حد بعيد بنماذجنا المعرفية وبها نرصده من حولنا.** فتبعًا للنموذج المعرفى الحاكم فى زمن ما، يرى العلماء أشياء مختلفة، بالرغم من أنهم ينظرون من نفس الموقف إلى نفس الظاهرة!! إن الشىء نفسه لم يتغير، لكن **رؤيتنا كراصدين هى التى اختلفت.**

ولا شك أن التمرد على النموذج المعرفى السائد هو الذى يدفع العلم إلى الأمام...

الذاتية والتحيز العلمى

من المفاهيم التى أَصَّلَها الفيزيائى المؤرخ توماس كُن أن **العلماء فى أبحاثهم لا يكونون محايدين أو ملتزمين بالموضوعية المطلقة**، بل إنهم **يتمسكون بما «بروق لهم من نظريات»** بالرغم من أن الأدلة قد تعارضها!! وقد ضرب عشرات الأمثلة على ذلك[1].

(١) من أمثلة ذلك اعتبار الدراونة أن نظرية التطور البيولوجى «حقيقة علمية»، بينما أدلة النظرية لا ترقى بها إلى هذا المستوى. ودافع الدراونة فى ذلك أن النظرية تدعم الفكر المادى الإلحادى الذى يتبنونه.

ويؤكد ذلك المعنى عالِم الكيمياء والفيلسوف مايكل بولانى Michael Polanyi [1]، **فيعارض دعوى الموضوعية المطلقة فى البحث العلمى**، ويتبنى أن ما يتمخض عنه بحث ما من نظريات هو **أمر شخصى** وليس موضوعى تحكمه مناهج محددة. فالعلماء يدخلون إلى موضوع البحث وهم مُحَمَّلون برغباتهم وعواطفهم وتحاملاتهم وانحرافاتهم، مما يؤثر بشدة على الأدلة والمنطق العقلى. وقد تفاقمت هذه العوامل الذاتية مع تضخم تأثير رجال الأعمال والحكومات والرأى العام والطموحات والمشروعات العلمية.

ويلخص فيلسوف العلوم بول فيرابند Paul Feyerabend [2] الموقف فى تعبير خطير إذ يقول: «**إن بناء النظريات العلمية عملية ذاتية**». ويضيف «وإذا كانت الموضوعية الكاملة مستحيلة، فسيبقى الحس الجمالى والذوق الخاص وعقائدنا الدينية، باختصار لا يبقى إلا الذاتية»[3].

ولا شك أن تَقَبْل وتطور **نظرية التطور الداروينية** من أشهر أمثلة الذاتية والتحيز فى العلوم الطبيعية. فعندما طرح داروين نظريته كانت **الفلسفة المادية** فى عنفوانها، وكانت تبحث عن أدلة علمية على صحتها، وقد وجدت فى الداروينية ضالتها؛ فالنظرية ـ بزعم الماديين ـ تلغى الحاجة لوجود الإله، لذلك جعلها الماديون بمثابة ديانة لا إلهية، لا يجوز الطعن فيها. إن ما حدث كان **خطأً معرفيًّا ومنهجيًّا كبيرًا**؛ فبدلًا من أن يؤدى اتِّباع المفاهيم العلمية إلى وضع الفلسفات الخاصة بالوجود، حدث العكس! فقد انطلق الماديون من ماديتهم ليؤكدوا صدق نظرية علمية، وليدافعوا عنها دفاع المستميت.

ولا يعنى ذلك ـ كما يروج الكثيرون من المعارضين للتطور ـ أن النظرية أكذوبة كبرى، بل إن النظرية ـ كأى نظرية أخرى ـ لها مؤيدات ولها معارِضات. أقصد بذلك أن **وجود التحيز لا يعنى فساد النظرية**.

وإذا كنا نؤيد ما ذهب إليه كُون وأنصاره Kuhnians من وجود التحيز فى مجال العلوم الطبيعية، **فإننا نرفض المبالغة بادعاء ذاتية العلم على حساب الموضوعية**.

وإذا كانت النماذج المعرفية لا تغيب عن أى مجال من مجالات العلم، حتى إن كل التخصصات تستخدمها، **فلا شك أن تعدد الاتجاهات والنظريات فى كل مجال من مجالات**

(١) Michael Polanyi : (١٨٩١ - ١٩٧٦) هنجارى الأصل إنجليزى الجنسية.
(٢) Paul Feyerabend : (١٩٢٤ - ١٩٩٤) فيلسوف العلوم النمساوى، شغل منصب الأستاذية فى جامعة كاليفورنيا.
(٣) Paul Feyerabend, Against Method (London: New Left, 1975), 285

العلوم هو أقوى دليل على ما أشرنا إليه من تأثر النماذج المعرفية **بالمنظومة الذاتية**. تأمل معى هذه العلوم وما **يشتمل عليه كل علم من رؤى متعددة**:

التاريخ: النموذج الخطى أو الدورات ـ النموذج العشوائى أو الغائى ـ ....

السياسة: الديكتاتورية ـ الديمقراطية ـ التحالفات ـ ....

الاقتصاد: الاشتراكية ـ الرأسمالية ـ الليبرالية ـ ....

علم النفس: السلوكيين ـ المعرفيين ـ الفرويديين أنصار التحليل النفسى ـ ....

فلسفة الوجود: المؤلهة ـ وحدة الوجود ـ الربوبيون ـ الملاحدة ـ ....

الدين: السنة ـ الشيعة ـ الكاثوليك ـ الأرثوذكس ـ ....

ونظرًا لما يعترى النماذج المعرفية من ذاتية، قليلًا ما نجد من المفكرين من يغير نظرته التى يتبناها تجاه الحياة وتجاه تخصصه خلال حياته العملية. لذلك، يصف البعض المفكرين بأنهم يعانون **تصلبًا صنفيًّا / طبقيًّا Hardening of the Category**. ولا يقف ذلك عند العلماء فقط، بل وأيضًا العامة، ولا شك أن **الملاحدة هم أكبر ضحايا هذا التصلب**.

النماذج المعرفية للوجود

قمنا فيما سبق بتأصيل مفهوم «النموذج المعرفى Paradigm»، وكيفية تكوينه، وفَصَّلْناه على المستوى العلمى من خلال رؤية الفيزيائى والمؤرخ الكبير توماس كُن، الذى أثبت أن ميلاد النموذج المعرفى تعتوره العديد من العوامل الذاتية. وإذا كان هذا هو الحال فى النماذج المعرفية للعلوم التجريبية، فلا شك **أن نصيب الذاتية والتحيز فى النماذج المعرفية للعلوم الإنسانية والاجتماعية والوجودية أكبر**.

جدلية المتدينين والملاحدة:

إذا تأملنا النماذج المعرفية الحاكمة لنظرتنا للوجود نجدها تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين:

النماذج المعرفية للمتدينين، والنماذج المعرفية للملاحدة.

والمتأمل للنماذج المعرفية للمجموعتين يجد أنها تختلف عن بعضها اختلافًا جذريًّا، ويرجع ذلك إلى أن كلًّا من المتدينين والملاحدة **يحيون فى «عالم مختلف»!!**

نعم...

فالكون بالنسبة للمتدينين «كون مفتوح» للتدخلات الخارجية. والمقصود بذلك أنه لا يقف عند حدود **الطبيعة المادية: منظومة المادة** (الطاقة ـ المادة ـ الزمان ـ المكان) فقط، **ولا قواها الأربع** (القوى الكهرومغناطيسية ـ قوة الجاذبية ـ القوة النووية القوية ـ القوة النووية الضعيفة) فقط، **ولا القوانين الفيزيائية** التى تحكم هذه المنظومة وهذه القوى.

أقول إن الكون المفتوح لا يقف عند حدود الطبيعة المادية، ولكن كل عناصر الطبيعة السابقة **تخضع لتدخلات إلهية مباشرة، تحفظها وتوجهها**، وبدون هذه **التدخلات** تصبح عدمًا.

وأضرب مثالًا يبين معنى التدخلات الإلهية المباشرة فى حفظ وتوجيه الطبيعة المادية: إذا نظرنا إلى **العملات الورقية** التى ليست إلا قطعًا من الورق، وجدناها تستمد قيمتها ومنظومتها من ضمان البنك المركزى لها، وإذا رفع البنك ضماناته لحظة لاستحالت العملة إلى قطع ورقية لا قيمة لها.

والإنسان بالنسبة للمتدينين هو **الكائن الخليفة**، الذى أمده الله بالكثير من أسمائه وصفاته، وسخر له الوجود. وقد **تواصل الإله مع الإنسان** عن طريق الأنبياء والرسل، ومن خلال الديانات أصبح الإنسان **مُكلفًا** (افعل ولا تفعل) فى هذه **الحياة الدنيا التى هى دار ابتلاء**، ثم يُبعث الإنسان بعد الموت **ليُحاسَب ثم يُجازى** بنعيم فى الجنان أو بعذاب فى السعير.

هذا هو النموذج المعرفى الشامل للوجود وللإنسان فى المنظومات الدينية.

أما الكون بالنسبة للملاحدة «فكون مغلق» مكتف بذاته، ليس فيه إلا الطبيعة المادية بعناصرها وقواها وقوانينها. والإنسان ليس إلا جزءًا من هذه الطبيعة، مادة وحسب.

ومن ثم يتمحور النموذج المادى حول **الفلسفة المادية** Naturalism التى تتبنى أن لا وجود إلا للعالم المادى، لذلك يرفض أية مفاهيم غيبية، بل يعتبرها مضادة للعقل.

قصور النموذج المعرفى الإلحادى

تعرضنا فيما سبق من فصول الكتاب للظروف التاريخية والسياسية لميلاد الإلحاد المعاصر، وأيضًا لظروف ميلاد الإلحاد الجديد. كما عرضنا العوامل النفسية والشخصية والمجتمعية التى تؤثر فى البناء النفسى للإنسان، فتجعله أكثر تقبلًا للفكر الإلحادى. من خلال هذه المنظومة ـ التى شبهناها بجبل الثلج القابع فى المحيط ـ وُلد النموذج المعرفى الإلحادى، ومن خلال نفس المنظومة يولد الإلحاد فى نفس كل ملحد.

وإذا كان النموذج المعرفى الإلحادى (المنظار الذى ينظر من خلاله الملحد للوجود) يتلخص فى كلمتين: «**الفلسفة المادية Naturalism**». وإذا كنا قد طرحنا ملامح هذا النموذج فى الفصل السابع كما رصدها أستاذنا د.عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) عالِم نفس الحضارة المادية، فإننا سنطرح فيما يلى أهم جوانب قصور هذا النموذج المعرفى الإلحادى..

١) نموذج ذاتى متحيز

يدعى الملاحدة الجدد أنهم قد توصلوا إلى آرائهم انطلاقًا من قناعات عقلية موضوعية. ولا شك أن ذلك هراء، فما إلحادهم إلا موقف ذاتى متحيز ضد الإله، ودليلنا ما استشهدنا به طوال الفصول الماضية على **الخلفية النفسية والشخصية لتبنى الإلحاد**. ونضيف إلى ما ذكرنا بعض المواقف الصارخة الدالة على كذب ادعاء الملاحدة:

يقول **توماس ناجل** Thomas Nagel [١] فيلسوف الإلحاد: «كم يُسيئنى أن بعض من أعرف من العقول الكبيرة الحكيمة يتبنى المفاهيم الدينية. إننى لا أعارضهم لأننى لا أؤمن بالإله فحسب، بل إننى «أتمنى من داخلى» أن أكون على صواب فى رفضى للإله. **إنى لا أريد أن يكون هناك إله يتحكم فى الوجود** كما يدعى المتدينون»[٢].

وهذا عالم المناعة **جورج كلين**[٣] يصارحنا بأن إلحاده ليس منطلقًا من العلم، بل كان إيمانًا مسبقًا اكتسبه فى صباه. ويؤكد نفس المعنى عالم الوراثة ريتشارد ليونتن[٤] فى حديثه عن صديقه **كارل ساجان**[٥] فيقول: من الواضح تمامًا أن **القناعات المادية لساجان كانت عقيدة مسبقة، شكلت نظرته للعلم**. ويتبنى ريتشارد ليونتن نفس القناعة التى نسبها إلى ساجان، ويقول: إن **المادية هى المطلق**، ولن نسمح للألوهية أن تقترب من الباب.

أما الموقف المحزن شديد التحيز فهو لعالِم الفيزياء الكبير سير جون مادوكس[٦] رئيس

---

(١) Thomas Nagel : (١٩٣٧-   ) أستاذ الفلسفة الأسبق بجامعة نيويورك.

(٢) Thomas Nagel, The Last word (New York: Oxford university press, 1997), 130

(٣) George Klein: بيولوجى سويدى، مهتم بأبحاث السرطان. له كتب فى الإلحاد أهمها «الملحد والمدينة المقدسة». ولد عام ١٩٢٥.

(٤) Richard Lewontin: عالم وراثة أمريكى مهتم بالتطور. ولد عام ١٩٢٩.

(٥) Carl Sagan: (١٩٣٤ - ١٩٩٦)، عالم فضاء أمريكى، كان مستشارًا لـ «ناسا»، اشتهر ببرنامج «الكون»، أكثر البرامج التليفزيونية مشاهدة فى التاريخ.

(٦) Sir John Madox: (١٩٢٥ - ٢٠٠٩)، تخصص فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، بدأ يكتب كمحور علمى لمجلة Nature فى سن الثانية والعشرين، وأصبح رئيسًا لتحريرها لمدة عشرين عامًا.

تحرير مجلة Nature. إن مادوكس يرفض أن يكون للكون بداية، ومن ثم فهو يرفض نظرية الانفجار الكونى الأعظم، لابأس، لكن ما دليله العلمى؟ إنه يرفض (كما يقول)؛ **لأن القول بوجود بداية للكون يُعطى حُجية لادعاء المتدينين بأن هناك إلهًا!!!**

٢) نموذج مبنى على التحايل!!

إن «النموذج المعرفى الإلحادى» ليس مرضًا فى حد ذاته، بل هو أهم أعراض خلل نفسى وتمرد أخلاقى متجذر Moral Rebellion. ولقبول هذا النموذج المعرفى الشاذ المتضارب[١] يلجأ الملاحدة إلى أطروحات تفوق أشد أفلام الخيال العلمى شذوذًا وغرابة، ومن هذه الأطروحات:

- **إن شيئًا يمكن أن ينشأ من لا شىء دون سبب!** فهذا ما يطرحه الملاحدة عند القول بنشأة الكون من عدم مطلق، دون سبب أول!!
- القول بفرضية **«الأكوان المتعددة Multiverse»**، وذلك لتفسير ملاءمة كوننا الحالى لنشأة الحياة. إن هذه الفرضية تقول بوجود ما لا نهاية له عددًا من الأكوان، لكل منها قوانينه الفيزيائية المخالفة للأكوان الأخرى!! إذا كانوا قد عجزوا عن تفسير نشأة كون واحد دون سبب أول، هل نصدق نشأة ما لا حصر له من الأكوان دون سبب، وأيضًا دون دليل!!
- يتبنى ريتشارد دوكنز، مفهوم قدوم الحياة إلى الأرض من كوكب آخر محمولة على صاروخ انطلق من حضارة بعيدة ترغب فى أن تنشر الحياة فى الكون! وهو المفهوم الذى طرحه فرانسس كريك Francis Crick [٢]، والمعروف باسم Direct Panspermia.

إن دوكنز يتبنى تصور **«الرجل الأخضر القزم»** الذى أوجد الحياة على الأرض، وبعد ذلك يصف المتدينين بأنهم يهلوسون!!

كيف يطرح علماء أذكياء مثل هذه السيناريوهات السخيفة من الشطط العلمى، باعتبارها نظريات علمية؟! أى خلل علمى وأى كذب وتحايل.

٣) نموذج يفرز أيديولوجيات مدمرة.

لما كان النموذج المعرفى الإلحادى لا يخرج عن أن يكون تزييفًا للحقيقة فى مستوياتها

(١) سنثبت هذا التضارب فيما تبقى من الفصل.

(٢) Francis Crick : (١٩١٦ - ٢٠٠٤) عالم البيولوجيا الجزيئية الإنجليزى، الحاصل مشاركةً على جائزة نوبل لاشتراكه فى اكتشاف بنية الدنا DNA وطريقة أدائه لوظيفته.

الأولية، لم يكن غريبًا أن يفرز **أيديولوجيات مدمرة**؛ كالماركسية Marxisim والعدمية Nihi-ism واللامنطقية Irrationalism [١]...

٤) نموذج يقف على ساقين كسيحتين.

يقف النموذج المعرفى الإلحادى على دعامتين عقليتين كاذبتين؛ الأولى هى **الفلسفة الوضعية المنطقية** Logical Positivism التى تتبنى أن ما لا يمكن رصده لا وجود له. وقد أعلن سير ألفريد آير Alfred Ayer [٢] واضع هذه الفلسفة خطأها وموتها، وذكر أنها تحتاج لمن يدفنها، وبالرغم من ذلك قام الملاحدة الجدد بإعادة إحيائها!!

والدعامة العقلية الثانية، هى **مجادلة الشر والألم**، التى طرحها أبيقور منذ أكثر من خمسة وعشرين قرنًا. لقد تم الرد على هذه المجادلة من قِبَل فلاسفة عديدين، وربما كان آخرهم هو سير أنتونى فلو الذى كان زعيمًا للإلحاد طوال النصف الثانى من القرن العشرين، ثم أعلن إيمانه بالإله بعد أن تجاوز الثمانين من عمره، وكان ذلك عام ٢٠٠٤.

كذلك قام رجال علم الكلام الإسلامى وأيضًا رجال اللاهوت المسيحى واليهودى بالرد على هذه المجادلة فى مئات الرسائل ردودًا منطقية قوية، لكن الملاحدة أعرضوا عن كل هذه الردود وتمسكوا بحجتهم الواهية.

إنه نموذج معرفى يقف على ساقين كسيحتين.

٥) نموذج المثلث المتداعى.

يقوم النموذج المعرفى الإلحادى عند كبير الملاحدة الجدد (ريتشارد دوكنز) **على مثلث من المفاهيم التى ثبت تداعيها**. وإذا تأملنا العناصر الثلاثة التى يقوم عليها منهج دوكنز الفلسفى وهى (التعارض - المماثلة - الاحتمالية) نجد أنها **تجهض أية دراسة موضوعية لقضية الألوهية، ولا تسمح إلا بتبنى الإلحاد!!**

فعنصر «**التعارض**» (إما العلم وإما الألوهية) يضعنا من البداية فى مفترق طرق، إذ لا يمكن (عند دوكنز) الجمع بينهما. إن الاختيار محسوم مسبقًا؛ إذا لم يمكن الجمع حقيقة فأنا شخصيًّا سأختار العلم!!

(١) ناقشنا تلك الآثار المدمرة بشىء من التفصيل فى الفصل السابع.
(٢) Alfred Ayer : (١٩١٠ - ١٩٨٩) الفيلسوف البريطانى الكبير.

وينطلق دوكنز فى عنصر «**الاحتمالية**» من مقدمة مسبقة بأنه يستحيل إثبات أو نفى أن هناك إلهًا، فلماذا نضيع وقتنا وجهدنا من أجل قضية مقطوع بالعجز عن الوصول إلى قرار بشأنها.

وتُوقِع الاحتمالية دوكنز فى مطب عسير، فهو لا يستطيع نفى «احتمالية» وجود الإله، إذًا يظل باب الألوهية مُوارَبًا. هنا يطرح دوكنز العنصر الثالث «**المماثلة**» بين الإله والإنسان، أى أن الإله ليس إلا إنسانًا ذا قدرات خارقة (سوبرمان)، إن ذلك الطرح يستبعد كل احتمالية لوجود الإله! فالتصرفات الإلهية لن تماثل تصرفاتنا البشرية، مما يجعلك تحاكم الإله عند كل موقف يخالف ما نتوقعه منه، وتكون النتيجة أن تطرده من الساحة، وتعود إلى المربع صفر؛ مربع الإلحاد.

إن منهج دوكنز الفلسفى يشبه «المتاهة» التى تقودك ـ إذا دخلت فيها ـ إلى نقطة البداية، ياله من منهج شيطانى يمثل سياجًا حديديًّا يحمى العقيدة الإلحادية ولا يُمَكِّن العقل من اختراقه.

ولا شك أن ريتشارد دوكنز هو أول ضحايا هذا المنهج.

٦) نموذج معرفى عاجز.

يلخص الفيلسوف هولمز رولستون Holmes Rolston [١] قصور النموذج المعرفى المبنى على الفلسفة المادية قائلًا: «**لا يمكن أن يكون العلم** (الذى يتبنى الفلسفة المادية كمنطلق) **نهاية القصة**، فالعلم (بهذا التصور) لا يستطيع أن يجيبنا عن أكثر الأسئلة إلحاحًا فى حياتنا: من أين، وإلى أين؟ ما معنى الحياة؟ كيف نُقَيِّمها؟ ... وما زلنا بعد العلم نحتاج لمن يعرفنا الصواب والخطأ، والخير والشر، والغاية من وجودنا،....».

إنه ببساطة نموذج عاجز عن الإجابة عن **أبسط الأسئلة التى يطرحها أبناؤنا عن مصدرنا** ومآلنا، بالرغم من ادعاء أنصاره أنه نموذج متكامل لتفسير الوجود.

٧) نموذج معرفى قاصر

إذا كان النموذج المعرفى للإلحاد يدعى أنه يتبنى العلم كمنهج، فإنه بذلك **يتحمل جوانب قصور العلم.**

فالعلم الذى يقوم على البحث عن أسباب الظواهر يعانى جانبىّ قصور شديدى الأهمية **فى منهجه.** الجانب الأول، هو **أن العلم يتعامل فقط مع عالم المادة**، ومن ثم لا تخرج نظرياته وتفسيراته عن هذا العالم، ولا بأس فى هذا، بشرط ألا يترتب على ذلك **نفى وجود عوالم أخرى غير مادية دون دليل**، وهذا هو الخطأ الأكبر الذى يقع فيه الملاحدة الماديون.

(١) Holmes Rolston: (١٩٣٢ -   ) أستاذ الفلسفة الأمريكى بجامعة كولورادو.

وجانب القصور الثانى، هو أن العلم فى بحثه عن أسباب الظواهر **يكتفى بالآليات المباشرة للظاهرة**، ويتجاهل أن وراءها سلسلة من الآليات تتدرج لأعلى حتى **تصل حتمًا إلى سبب أول**. ولا بأس أيضًا فى اكتفاء العلم بالسبب المباشر للظواهر، بشرط ألا يدعى العلماء الماديون أن ما يتوصلون إليه من آليات هو نهاية المطاف وأنها ذاتية عشوائية لا سبب وراءها، ويكون ذلك الادعاء أيضًا دون دليل.

٨) نموذج منهار من داخله

يمكن وصف النموذج المعرفى الإلحادى بأنه **يحوى داخله عناصر انهياره**. فهو يتبنى عددًا من المفاهيم المتضادة فيما بينها، بل إن كلًّا منها **خطأ ومنهار داخليًّا**، ومن ثم فهو **نموذج يُكَذِّب ذاته**.

ضربة فلسفية قاضية

يقدم الفيلسوف الأمريكى الكبير ألفن بلانتنجا Alvin Plantinga [1] دليلًا فلسفيًّا كاسحًا على صحة ما ذهبنا إليه. وينطلق بلانتنجا فى استدلاله من أن جوهر النموذج المعرفى الإلحادى، وهو **الفلسفة المادية، وهْم كبير يتعارض مع المنطق**.

يمهد بلانتنجا لطرحه بمثالين يثبت من خلالهما أن **تحقيق فائدة عملية لا تعنى صحة وصواب المفاهيم التى حققت الفائدة**:

إذا كان قد ثبت خطأ **مفهوم مركزية الأرض** Geocentrism، فذلك لا ينفى أن هذا المفهوم الخطأ كان مفيدًا للإنسان عبر قرون، سواء للفلاحين، أو البحارة، أو ... بل لقد تم بناء حضارة العصور الوسطى فى أوروبا وفى العالم الإسلامى فى إطار هذا المفهوم.

المثال الثانى: إذا سمعت إشاعة بأن الحكومة ستلغى قريبًا **العملات الورقية**، فقمت بتحويل كل مدخراتك إلى ذهب وأصول عقارية، وكذلك فعل الكثيرون بعدك. لقد أدى ذلك إلى ارتفاع أسعار الذهب والعقارات بعد أن اشتريت، فحققت ربحًا كبيرًا. وبعد ذلك ثبت خطأ هذه الإشاعة.

بعد أن أثبت بلانتنجا أن **الفائدة العملية لا تعنى صحة وصواب المفاهيم التى حققتها**، فإنه يوجه ضربة قاضية للفلسفة المادية من خلال تطبيقه لهذا الاستنتاج على **النظرية الداروينية**:

إن تبنى الملاحدة الماديين للداروينية يعنى إيمانهم **بأن كل منظومات الإنسان قد نشأت**

---

(١) Alvin Plantiga : (١٩٣٢-) فيلسوف الأديان الأمريكى الكبير. صاحب الكتب والمناظرات العديدة ضد الإلحاد والملاحدة.

بالانتخاب الطبيعى الذى يسعى لإبقاء الأصلح، ومن هذه المنظومات **ملكاتنا ومفاهيمنا العقلية**. لاحظ (فى ضوء المثالين السابقين) أن نجاح المنظومات العقلية ومساهمتها فى بقاء الإنسان وبناء حضارته **لا يعنى بالضرورة أنها صحيحة** من الناحية العقلية والعلمية.

معنى ذلك **أن جهازنا العقلى يمكن أن ينتج مفاهيم خاطئة، ومع ذلك يظن الماديون أنها صحيحة لأنها تحقق فائدة.**

هنا تصل حجة بلانتنجا أقصى مداها، وتنطلق كالسهم على هيئة تساؤل واحد:

ما مصدر ثقتنا فيما تنتجه عقولنا من مفاهيم؟

لا إجابة عند الماديين.

والذى يخرجنا من هذا الحرج هو المنظور الدينى. فنحن «نؤمن» **أن الإله قد شكل عقولنا لتصل بنا إلى مفاهيم حقيقية. فالإله هو الضمان الوحيد لاقتناعنا بصحة ما تنتجه عقولنا من مفاهيم، وهذا هو الضمان الأوحد لاحترام العلم.**

ومن ثم، **فغياب الإله يتبعه غياب الثقة فى العقل وفى العلم، وأيضًا فى الفلسفة المادية.**

أى **أن الثقة فى صواب الفلسفة المادية (التى تنكر الإله) لا تأتى إلا من الإيمان بالإله!!** فليس لدينا دليل أو مبرر آخر للاقتناع بأنها صحيحة حتى وإن كانت قد حققت فوائد.

ألا يعنى ذلك ما ذهبنا إليه من أن النموذج المعرفى منهار داخليًّا؟

بالإضافة لهذا الدحض الجازم الذى قدمه بلانتنجا، نقف مع اثنين من المفاهيم التى تُعتبر من أساسيات النموذج المعرفى الإلحادى لنبين مدى تهاويها.

ألا يمكن أن نكون خَيِّرين من أجل الخير ذاته؟ Be Good for Goodness Sake

يقصد الملاحدة بهذا التساؤل أننا لا نحتاج لإله من أجل أن نكون خَيِّرين. ما أشد خطأ هذا القول، لسببين:

١ - كيف نحكم على الأشياء بالخيرية فى غياب الإله؟!

ألا يتبنى الملاحدة أن الطبيعة لا تعرف الخير والشر، بل هى محايدة؟!

٢ - هل يجد الإنسان الدافع للتضحية بمُتَعِه ويحرص على أن يحيا تبعًا لقيم الخير فى غياب المفاهيم الدينية؟!

لقد عَبَّرَ الفيلسوف الكبير إيمانويل كانت عن هذين السببين بقوله: **«لا يمكن تصور التزامات**

أخلاقية فى غياب الإله» (هذا هو الاعتراض الأول). وأضاف «**بدون منظومة الحساب والثواب والعقاب لا يوجد دافع حقيقى قوى للالتزام الأخلاقى»** (هذا هو الاعتراض الثانى).

بل إن نيتشه زعيم الملاحدة يتبنى أنه بغياب الإله صار لا معنى لحياة الإنسان ولا للقيم والمفاهيم الأخلاقية[١]. ويعنى هذا القول لنيتشه أنه **لا جدوى لأن نكون خيرين فى غياب الإله.**

كما يؤكد الفيلسوف الملحد الكبير برتراند رسل عدم جدوى محاولة إضفاء معنى على الحياة والوجود والقول بمنظومة أخلاقية، فهى **أمور تتسامى على العالم المادى**، ولا يمكن أن يكون لها وجود فى غياب الإله.

قد يرفض البعض اعتراضاتنا بحجة أنه قد تعامل مع **ملاحدة متمسكين بمنظومة أخلاقية جيدة**، ومن ثم يمكن بالفعل أن نكون جيدين دون إله.

نقول لهؤلاء، إن ما عليه بعض الملاحدة من أخلاق إنما هو من فعل «**الفطرة**» التى وضعها الإله فى نفوسنا، ذلك بالإضافة إلى «**ميراث الفكر الدينى**» الذى انتقل إلينا كدين أو كعرف. وأخيرًا فالمجتمعات المادية لا تلتزم إلا بالأخلاق التى **تحقق مردود نفعى** على المستوى العملى.

هل يمكن الاستمتاع بالحياة فى غياب الإله؟!

لريتشارد دوكنز مقولة تعبر عن جانب آخر من جوانب النموذج المعرفى الإلحادى، انظر إلى قوله: فى الأغلب ليس هناك إله، استرخ، واستمتع بحياتك[٢] Most Probably There is no God, Relax and Enjoy your Life

قبل دوكنز، أجاب عن هذا السؤال الفيلسوف الملحد الكبير برتراند رسل، قائلًا:

«ما أسوأ أن يكون الإنسان نتاج عوامل عمياء ليس لها رؤية مستقبلية، وأن يكون أصله وحياته وآماله وأحلامه ومخاوفه وحبه ومعتقداته ليست إلا نتاج تنظيم عشوائى لذرات المادة، وألا يكون فى انتظاره بعد الموت إلا الفناء، وأن تفنى الإنسانية تمامًا بما يميزها من عبقرية وآمال وإنجازات مع نهاية النظام الشمسى، **كم هى بائسة حياة الإنسان فى مواجهة هذه الحقائق»**[٣].

(١) Friedrich Nietzsch, The Portable Nietzsche, Trans (New York: Penguin, 1982), 500

(٢) تبنى دوكنز حملة فى إنجلترا كلفته ١٦٠ ألف جنيه استرالينى، علق فيها هذه الملصقات على أتوبيسات النقل العام الحمراء.

(٣) Bertrand Russell, "A Free Man's Worship", in Why I am Not a Christian, ed, Paul Edwards (New York: Simond Schuster, 1957), 107

ويصف جيفرى لانج[1] Jeffrey Lang ، أستاذ الرياضيات الأمريكى الذى كان ملحدًا ثم أعلن إسلامه، يصف بحرقة **نفسية الفرد الملحد** وطبيعة علاقاته وانفعالاته وتوجهاته الفكرية والعقائدية والاجتماعية، محللًا سيكولوجية الملحد الانعزالية الهشة، فيقول: «**لقد تعلمت أن لا أحد يعرف الوحدة كالملحد**. فعندما يشعر المؤمن بالوحشة فإنه يناجى من أعماق روحه الواحد الأحد الذى يعرفه، ويكون بمقدوره أن يشعر بالاستجابة. ولكنّ الملحد محروم من هذه النعمة؛ لأن عليه أن يسحق هذا الدافع، ويُذَكِّر نفسه بسخفه. **فالملحد هو إله عالمه الخاص**، وهو عالَم صغير جدًّا، يحدده مجال إدراكاته، وهذه الحدود دومًا فى تناقص مستمر. والملحد لا يُشبع حاجاته شىء؛ لأن عقيدته تخبره **بأن ليس للحياة هدف، وأن ليس هناك شىء كامل ولا شىء مطلق**. ولذا، عندما اتَّبعتُ أثناء إلحادى النماذج الاجتماعية السائدة[2]، لم يكن ذلك لأنى أُقَدِّرها، بل لأنها تُسَيِّر سفينة الحياة».

ويتصدى دوكنز لهذا الرأى الأمين لبرتراند رسل وجيفرى لانج قائلًا: «أنا لا أشعر بأى اكتئاب كالذى يدعيه هؤلاء، **وإذا شعر أحد بذلك فتلك مشكلته**. نعم إن الوجود لا مبال بارد خاو، ماذا فى ذلك So What؟»[3].

وأترك لك قارئى الكريم أن تحكم أى الرأيين صواب.

حقًّا إن النموذج المعرفى المادى يحمل داخله عناصر انهياره.

٩) نموذج معرفى أعمى معرفيًّا

للكاتبة الأمريكية جين أوستن Jane Austen قصة بعنوان إيما Emma [4]. وبطلة القصة ـ صاحبة الاسم ـ كانت شخصية عنيدة، ترفض أن تستجيب للشواهد والأدلة. وفى أثناء أحد الحوارات المحتدمة مع صديقها نايتلى، عَلَّقَ الصديق على عنادها قائلًا: «**أن تكونى بدون عقل أفضل من أن تسيئى استخدامه**»[5].

(١) Jeffrey Lang:أستاذ الرياضيات بجامعة كانساس بالولايات المتحدة. ولد لعائلة كاثوليكية بمدينة برديجبورت عام ١٩٥٤.

(٢) يقصد بذلك التماشى مع أعراف المجتمع ومقاييسه ومفاهيمه.

(٣) Richard Dawkins, as quoted in Science and Christianity: Conflict or Coherence? (Watkinsville, GA: Apollos Trust, 2003), 134-35.

(٤) صدرت القصة عام ١٨١٥.

(٥) هذا ما نقول عنه بالعامية (قِلّتُه أحسن).

إن قول نايتلى ينطبق تمامًا على قضية الإلحاد. فالعقل إذا أُحسن استخدامه كان نعمة يستمتع بها الإنسان فى جميع مجالات الحياة، ابتداء من أغانى الحب إلى أعلى تقنيات القرن الحادى والعشرين. أما إذا أُسىء استخدامه فلا شىء ينافسه فى آثاره التدميرية، فالقنابل الذرية والحروب العالمية والثورة الماركسية لم تكن إلا نتاج عقول جبارة أُسىء استخدامها. وقد كانت المصائب كبيرة، حتى إن من تسببوا فيها لم يتحملوها، دليلنا على ذلك أن أوبنهايمر مخترع القنبلة الذرية سُئل بعد إلقاء قنبلة هيروشيما، بماذا شعرت؟ قال: تقيأت...

ويصف أستاذ الفلسفة والأديان الأمريكى جيمس سبيجل James Spiegel هؤلاء العباقرة المدمرين بأنهم يرون العالم بعدسة نموذج معرفى كاذب أو مشوه أو منحرف. ومن ثم فإنهم يعانون **«عمىً معرفيًّا Paradigm Induced Blindness»**، فنموذجهم المعرفى يمنعهم من رؤية الحقيقة حتى لو كانت جلية أمامهم.

إن العمى المعرفى أخطر بكثير من الجهل بالأمر، فالأول **جهل** مركب يستعصى على العلاج، إذ يحيا أصحابه فى وهْم الاستنارة والرؤية العلمية الثاقبة. بينما الثانى **جهل بسيط** قابل للإصلاح والتعلم[1].

كذلك، فإن عمى النموذج المعرفى الإلحادى يجعل صاحبه عاجزًا عن رؤية المعاصى كأمر لاأخلاقى، ومن ثم يدخل فى دائرة مغلقة:

عمى معرفى ⇄ تدنٍ أخلاقى

هذا على المستوى النفسى.

أما على المستوى العقلى، فهؤلاء العميان معرفيًّا **يسخرون من قيم المتدينين ومفاهيمهم الأخلاقية**، ذلك ليعوضوا ما يشعرون به من دناءة.

١٠) نموذج معرفى يطمس الفطرة

يستوقفنى كثيرًا موقف المجتمعات الغربية من العلاقات الجنسية. فهو موقف يتصف بالفصام والازدواجية.

(١) يبين القرآن الكريم علاج الجهل البسيط: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾. أما الجهل المركب فقد أعيا الأطباء: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة].

فالمجتمعات الغربية تسمح قبل الزواج بقدر كبير من «**الحرية الجنسية**»، تتعدد فيه العلاقات دون قيد أو شرط[١].

أما بعد الزواج، فعادة ما تُراعى «**العفة الجنسية**»، فتقتصر العلاقة على ما يحدث بين الزوجين، وتُعتبر أية ممارسة خارج إطار الزواج بمثابة خيانة يستنكرها المجتمع!!

كيف نفسر هذه **الازدواجية فى النظر إلى العلاقة الجنسية قبل وبعد الزواج؟**

هل الأصل هو «الحرية الجنسية»، ثم يأتى الزواج ليقيدها؟

أم الأصل هو «العفة الجنسية»، التى يتم التغاضى عنها للحصول على أكبر قدر من المتعة قبل الزواج؟

قناعتى، أن الحضارة الغربية المادية ما كانت لتُقَيِّد ببساطة شيئًا تشتهيه النفس، لذلك قناعتى أن الأصل هو العفة الجنسية. لكن: **ما مصدر هذه العفة؟**

إنه شعور يولد به البشر جميعًا، وينمو معنا، ولا ندركه على المستوى الواعى.

إنه أحد ملامح «**الفطرة**».

ولا تقتصر الفطرة على «العفة الجنسية»، فالإنسان زُود بالعديد من الفطرات. فالأمومة والأبوة فطرة، وحياء الإناث فطرة، وشجاعة الرجل فطرة.

وأيضًا الشعور بوجود الإله فطرة، ومحاولة التواصل معه فطرة.

ولكن، **ما علاقة مفهوم الفطرة بالنموذج المعرفى للإلحاد؟**

يمهد الفيلسوف الأمريكى الكبير ألفن بلانتنجا للإجابة عن هذا التساؤل قائلا[٢]:

«إن أية منظومة إنسانية يمكن أن **يصيبها خلل** لعدة أسباب، أهمها **أن تعمل فى غير الوسط الذى صُممت لتعمل فيه**. ومن أمثلة ذلك ما يعترى الإنسان من مشاكلات صحية فى المرتفعات العليا، أو أعماق البحار أو غياب الجاذبية فى رحلات الفضاء».

(١) نستشهد على ذلك بحوار دار بين أستاذنا د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) وبعض المشايخ: استنكر علماء الدين ما فى الغرب من اختلاط بين الرجال والنساء دون مراعاة لشروط الخلوة الشرعية، مما يسمح بأن يكون الشيطان ثالثهما. أجاب د.المسيرى، ليت الشيطان يكون موجودًا، عسى أن يُحِد وجود ثالث مما يحدث، وأضاف: إن المشكلة يا سادة تنحصر فى: متى؟ وأين؟!!

(٢) سفر كبير فى ٩٨٠ صفحة Alvin Plastigna, Warranted Christian Belief, 2000

ثم ينتقل بلانتنجا من هذا التمهيد إلى مفهوم الفطرة، فيقول:

«إذا كانت الملكات الحسية والمعرفية يمكن أن تصيبها الأمراض، فالفطرة كذلك. ويرى بلانتنجا **أن الانحرافات الأخلاقية (المعاصى/ الخطايا Sins) تؤدى إلى اضطراب كل منظومات الوجود**، والمنظومة المعرفية ليست استثناءً. وأول اضطراب تسببه الخطايا هو عدم القدرة على التفكير السليم، ويشمل ذلك اختلال المفاهيم حول حقيقة الإنسان والقيم الأخلاقية، والغاية من الوجود، وأصل الأشياء، وغيرها...»[(١)] .

إن ذلك الطرح لبلانتنجا ليس ادعاءات متدينين، فقد تعرضنا فى الفصل السادس لدراسات جونسون وجونز التى تبين كيف أن الانحرافات الجنسية تدفع إلى تكوين نموذج معرفى أعمى، وهو **النموذج المعروف بالنسبية الأخلاقية** Ethical Relativism، الذى يشتمل على مفهوم **«الحرية الجنسية»**، مما **يسمح بالتمرد على الأخلاق دون الشعور بالخزى** Guilt Free Way، أى أنه يطمس الفطرة الأخلاقية. ولا يتوقف تأثير العمى المعرفى عند إفراز نموذج النسبية الأخلاقية، بل يمتد إلى إفراز نموذج أعم وهو **النسبية المطلقة**، التى هى إحدى أكبر دعائم الفكر الإلحادى.

وإذا كان علماء النفس يحدثوننا عن **«الآليات النفسية لخداع الذات** The Psychological Machinary of Self - Deception»[(٢)]، والتى تعين الشخص على التنكر للحقيقة، فإن هذه **الآليات هى الأداة الكبرى للنموذج المعرفى الإلحادى لطمس الفطرة** من أجل تحقيق أكبر قدر من المتع، ومن أجل التنكر لفطرة الوجود الإلهى التى تعتمل داخل نفوسنا.

لذلك، **يتمرد الملحد** Personal Rebellion على المنظومات الدينية التى تحد من شهواته وتطالبه بالتزامات أخلاقية لا يريد الخضوع لها، فيتبنى «بإرادته» النموذج المعرفى المادى، الذى يُسَوِّغ له اتباع الهوى وارتكاب المعاصى، مما يؤدى إلى ما أطلق عليه بلانتنجا **«التأثيرات النفسانية للخطيئة»**، وتؤدى هذه التأثيرات إلى مشكلتين، إحداهما واعية والأخرى غير واعية.

---

(١) فى هذا المعنى يقول الحق ﷻ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين] .
وقال الرسول الكريم ﷺ: إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكته سوداء (رواه الترمذى).
وقد طرح الإمام الغزالى مفهوم «هزال الروح» فى سفره إحياء علوم الدين، وأرجعه إلى ما نكتسب من خطايا.

(٢) أهم هذه الآليات:
١- الكذب على النفس Lying of oneself
٢- عدم المنطقية الموجهة Motivated Irrationality
٣- العمليات اللاواعية المتعارضة Conflicting Subconcious Processes
٤- التنصل عن المسئولية Existential disavowal

المشكلة الواعية هى «**العمى المعرفى**»، الذى يمنع الإنسان من إدراك الإله الذى تتجلى شواهده فى كل ما حولنا.

والمشكلة اللا واعية هى «**طمس الفطرة**»، الذى يمحو الإدراك الخِلْقى لوجود الإله.

من ثم، فإن النموذج المعرفى المادى الذى يتبناه الملاحدة ـ بما ينوء به من جوانب قصور ـ لا يمكن بطبيعته إلا أن يصل بهم إلى الإلحاد.

الخلاصة

اكتمل التصور

لقد اشتهر نيتشه وماركس وفرويد بأنهم من أشهر من وضعوا نظريات يمثل الإلحاد محورها الرئيس. وبالرغم من ذلك لم يبال هؤلاء بأن يناقشوا «حجج الوجود الإلهى»، بل اهتموا بأن يناقشوا ويفندوا «**دوافع الإيمان بالإله**».

وبنفس المنطق، آن الأوان لأن نطبق نفس المنظور على الجانب الملحد:

ما دافع الملحدين لتبنى الإلحاد؟ إنها هذه المنظومة:

١) العوامل المجتمعية.

٢) عوامل نفسية وعقلية، يمكن تقسيمها إلى:

أ - عوامل نفسية بعيدة: تربية (التقصير الأبوى ـ نظرية الارتباط).

ب- عوامل شخصية مباشرة: خالف تُعَرف ـ الطموح ـ الاستياء ...

جـ - عوامل عقلية:؟ التوحد.

٣) تكوين النموذج المعرفى.

٤) ذكاء فوق المتوسط.

٥) الاختيار الحر: سنعالج هذا المفهوم فى الباب الرابع.

وهكذا تتكامل النظرة إلى الإلحاد باعتباره «**مشكلة نفسية**»، **تختبئ خلف قناع الحجج العقلية والمعرفية.**

القارئ الكريم

إن النموذج المعرفى هو **النظارة التى ننظر من خلالها إلى الوجود كله**؛ الكون ـ الحياة ـ الإنسان ـ عالم الغيب ـ ...، وتفتقر النماذج المعرفية (حتى العلمية منها) **كثيرًا إلى الموضوعية**، ويشوبها الكثير من التحيز والذاتية، وهو ما ظهر جليًا فى النموذج المعرفى الإلحادى.

ويمكننا اختصار النموذج المعرفى الإلحادى فى كلمتين: «**الفلسفة المادية Naturalism**».

والكون بالنسبة للملاحدة «كونٌ مغلق» مكتفٍ بذاته، ليس فيه إلا الطبيعة المادية بعناصرها وقواها وقوانينها. والإنسان ليس إلا جزءًا من هذه الطبيعة، مادة وحسب. ومن ثم يتمحور النموذج المادى حول **الفلسفة المادية** Naturalism التى تتبنى أن لا وجود إلا للعالم المادى، لذلك يرفض أية مفاهيم غيبية، بل يعتبرها مضادة للعقل.

ويتسم النموذج المعرفى للملاحدة بعشر **جوانب قصور** تُفقده موضوعيته، وتجعل مِن تبنى **الإلحاد** نتيجة لا بديل عنها. وهذه الجوانب هى:

١) **نموذج ذاتى متحيز**: يدعى الملاحدة الجدد أنهم قد توصلوا إلى آرائهم انطلاقًا من قناعات عقلية موضوعية. ولا شك أن ذلك هراء، فما إلحادهم إلا موقف ذاتى متحيز ضد الإله.

٢) **نموذج مبنى على التحايل**: يلجأ الملاحدة إلى أطروحات تفوق أشد أفلام الخيال العلمى شذوذًا وغرابة، مثل: **أن شيئًا يمكن أن ينشأ من لا شىء دون سبب**، وكذلك القول بفرضية «**الأكوان المتعددة Multiverse**» لتفسير ملاءمة كوننا الحالى لنشأة الحياة. والأكثر سخرية من ذلك، ادعاء ريتشارد دوكنز أن الحياة قدمت إلى الأرض من كوكب آخر محمولة على صاروخ انطلق من حضارة بعيدة ترغب فى أن تنشر الحياة فى الكون!

٣) **نموذج يُفرز أيديولوجيات مدمرة**: لما كان النموذج المعرفى الإلحادى لا يخرج عن أن يكون تزييفًا للحقيقة فى مستوياتها الأولية، لم يكن غريبًا أن **يُفرز أيديولوجيات مدمرة**؛ كالماركسية Marxisim والعدمية Nihilism واللامنطقية Irrationalism ...

٤) **نموذج يقف على ساقين كسيحتين**: يقف النموذج المعرفى الإلحادى على دعامتين عقليتين كاذبتين؛ الأولى هى **الفلسفة الوضعية المنطقية** Logical Positivism التى تتبنى أن

ما لا يمكن رصده لا وجود له، وقد أعلن سير ألفريد آير Alfred Ayer واضع هذه الفلسفة خطأها وموتها. والدعامة العقلية الثانية، هى **مجادلة الشر والألم**، التى طرحها أبيقور منذ أكثر من خمسة وعشرين قرنًا، وقد تم الرد على هذه المجادلة من قِبَل فلاسفة عديدين.

٥) **نموذج المثلث المتداعى:** يقوم النموذج المعرفى الإلحادى عند كبير الملاحدة **الجدد (ريتشارد دوكنز) على مثلث من المفاهيم التى ثبت تداعيها.** وإذا تأملنا العناصر الثلاثة التى يقوم عليها منهج دوكنز الفلسفى وهى (التعارض ـ المماثلة ـ الاحتمالية) نجد أنها **تجهض أية دراسة موضوعية لقضية الألوهية، ولا تسمح إلا بتبنى الإلحاد!!**

٦) **نموذج معرفى عاجز:** إنه ببساطة نموذج يعجز عن الإجابة عن **أبسط الأسئلة التى يطرحها أبناؤنا عن مصدرنا ومآلنا**، بالرغم من ادعاء أنصاره أنه نموذج متكامل لتفسير الوجود.

٧) **نموذج معرفى قاصر:** إذا كان النموذج المعرفى للإلحاد يدعى أنه يتبنى العلم كمنهج، فإنه **بذلك يتحمل جوانب قصور العلم.**

فالعلم الذى يقوم على البحث عن أسباب الظواهر يعانى جانبىّ قصور شديدى الأهمية **فى بنية منهجه.** الجانب الأول، هو أن العلم **يتعامل فقط مع عالم المادة**، ومن ثم لا تخرج نظرياته وتفسيراته عن هذا العالم. وجانب القصور الثانى، هو أن العلم **يكتفى بالآليات المباشرة للظاهرة**، ويتجاهل أن وراءها سلسلة من الآليات تتدرج لأعلى حتى تصل حتمًا إلى **سبب أول.**

٨) **نموذج منهار من داخله:** يمكن وصف النموذج المعرفى الإلحادى بأنه يحوى داخله عناصر انهياره. فهو يتبنى عددًا من المفاهيم المتضادة فيما بينها، بل إن كلًّا منها **خطأ ومنهار داخليًّا**، ومن ثم فهو **نموذج يُكَذِّب ذاته.**

٩) **نموذج معرفى أعمى معرفيًّا:** يرى الملاحدة العَالَم بعدسة نموذج معرفى كاذب مشوه منحرف. ومن ثم فإنهم يعانون «**عمىً معرفيًّا Paradigm Induced Blindness**»، يجعلهم عاجزين عن رؤية الحقيقة حتى لو كانت جَلِيَّة أمامهم. والمصيبة أن أصحاب هذا النموذج يحيون فى وهم الاستنارة والرؤية العلمية الثاقبة.

١٠) **نموذج معرفى يطمس الفطرة:** يعانى المجتمع الغربى من **ازدواجية فى النظر إلى العلاقة**

الجنسية قبل وبعد الزواج، ويرجع ذلك إلى أنه أصبح يتغاضى عن فطرة «العفة الجنسية»، للحصول على أكبر قدر من المتعة قبل الزواج؟

وباستعراض النموذج المعرفى للإلحاد، **تتكامل أمامنا دوافع الملاحدة لتبنى الإلحاد، إنها منظومة** العوامل المجتمعية، والعوامل النفسية والشخصية والعقلية. وفى ضوء هذه العوامل يقوم الملحد بتكوين النموذج المعرفى الإلحادى. ويتطلب ذلك قدرًا من الذكاء فوق المتوسط، ويمارس الشخص فى تكوينه حقه من الاختيار الحر.

وهكذا تتكامل النظرة إلى الإلحاد باعتباره **«مشكلة نفسية»، تختبئ خلف قناع الأسباب العقلية والمعرفية.**

***

الفصل التاسع

مواقف الملاحدة المُعْلَنة

دراسات ميدانية



- لمـــاذا ألحـــدوا ؟
  - بنية الدراسة
  - نتائج الدراسة
  - السؤال الأول الذى راودك
  - الانفجار
  - سيناريو العودة إلى الماضى
  - ظاهرة تمرد الفتيان
  - المشكلات مع الأسرة
  - خسائر ومكاسب الارتداد
  - إذًا، ما سبب الإلحاد؟
  - أتترك غيرك يتبع خطواتك؟
  - كيف تُربون أبناءكم؟
  - ملخص الدراسة
- دور الوالدين
  - هل تُوَرَّث التوجهات الدينية جينيًّا؟
  - دور التنشئة
- ماذا تفعل لو وُلدت على ديانة غير ديانتك؟
- لماذا بدلوا دينهم؟
- وماذا بعد سن المراهقة؟
- لماذا لا يزال هناك دين ؟
- القارئ الكريم

«إن الدين هو الأقدر على التعامل مع المفاهيم الذاتية والنفسية والانفعالية، ومن ثم فهو يُغنى حياتنا، بل يحكمها».

من نتائج الدراسات الميدانية
بوب ألتمير - بروس هنزبرجر

إذا كان الإنسان يرث صفاته البنائية والسلوكية عن والديه عبر المنظومة الجينية، فإنه يكتسب **أيضًا دينه عنهما** من خلال **منظومته التربوية**. وقد عرضنا فى الفصول السابقة دور علاقة الطفل بوالديه فى تبنيه للتدين أو للإلحاد.

وقد أظهرت عدة دراسات غربية أن قرابة ٤٧٪ من **الملاحدة والشكاكين واللاأدريين** ينشأون فى أسر تتبنى هذه الاتجاهات. إذًا من أين أتى النصف الآخر من هؤلاء؟

إنهم المُرْتَدُّون Apostates الذين تربوا على الدين ثم خرجوا عنه.

ما الذى قادهم إلى ذلك؟

هل أستاذ اقتدوا به؟

هل الميل الشديد للجنس والمخدرات؟

هل حياة التسيب واللامبالاة؟

كل هذه الأسباب قد تكون مسئولة، لكن العامل الرئيس يكمن فى مجال آخر.

أظهرت دراسة أجريت فى جامعتين كنديتين[1] على أكثر من أربعة آلاف طالب جامعى،

(١) جامعتى Manitoba & Wilfried Caurier

أن ٨٠٪ من الطلبة الذين تربوا كمسيحيين ظلوا مسيحيين، بينما ارتد ٢٠٪ منهم. وقد بينت الدراسة أن أُسَر مَن تمسكوا بدينهم قد اهتمت بتنشئة أبنائها تنشئة دينية أكثر بمقدار الضعف من الأسر التى ارتد أبناؤها. أى أن الفرق يكمن فى مقدار الجهد الذى بذلته الأسرة فى **تعميق المفاهيم الدينية فى نفوس أبنائها، وفى مدى نجاح الأسرة فى تمرير المفاهيم التى زرعها الأجداد فى الوالدين إلى الأبناء.**

وفى المقابل، أظهرت الدراسة أن بعض الفتيان قد نشأوا فى أسر ملحدة، وبالرغم من ذلك تبنوا الدين.

وإذا كانت المجموعة الأولى قد استحقت اسم «**المرتدون المدهشون** Amazing Apostates = AA»، وذلك لتبنيهم الإلحاد بالرغم من نشأتهم الدينية، فإن المجموعة الثانية تستحق اسم «**المؤمنون المدهشون** Amazing Believers AB»، وذلك لتبنيهم الدين بالرغم من تنشئتهم الإلحادية.

وللأسف لم تُجْر فى الغرب إلا دراسات ميدانية قليلة للغاية لمعرفة الدوافع النفسية لهؤلاء، أما فى بلادنا فلم تقابلنا أية دراسة فى هذا المجال.

وسنعرض فيما يلى عددًا من الدراسات الميدانية الغربية ذات العلاقة بقضية الإلحاد.

لماذا ألحدوا؟

نبدأ فصلنا هذا عن الدراسات الميدانية فى مجال الإلحاد والتدين بالدراسة الفريدة التى أشرنا إليها آنفًا، ولم يجد صاحباها (ولا نحن) مثيلًا لها فى مجالها. وقد نُشرت نتائج الدراسة فى كتاب بعنوان «**التحولات المدهشة Amazing Conversions**».

قام بهذه الدراسة **أستاذا علم النفس** بوب ألتمير Bob Altemeyer وبروس هنزبرجر Bruce Hunsberger، **بجامعتى Maintoba & Wilfried Caurier Universities الكنديتين.** وقد أُجريت الدراسة فى **أواسط التسعينيات (١٩٩٤ - ١٩٩٥)** من القرن العشرين، وتدور حول الديانة المسيحية.

وتهدف الدراسة إلى الإجابة عن سؤالين:

لماذا يرتد البعض عن الدين ويتبنى الإلحاد بالرغم من نشأتهم فى أسر متدينة (**المرتدون المدهشون**)؟

والسؤال الآخر المقابل: لماذا يتبنى البعض الدين بالرغم من نشأته فى أسر ملحدة **(المؤمنون المدهشون)**؟

وسنركز بطبيعة الحال على المجموعة الأولى (المرتدون المدهشون)، فهى المتعلقة بموضوع كتابنا، مع عرض سريع للمجموعة الثانية، من أجل أن نستفيد من المقارنة بين المجموعتين.

وترجع أهمية هذه الدراسة **وتفردَها إلى** عدة أسباب؛ أهمها: اتساع الدراسة؛ فقد اشتملت على عدة آلاف من الحالات. وكذلك **تركيزها على الملاحدة ومقارنتهم بالمتدينين**، وذلك فى مقابل آلاف الدراسات التى اهتمت فقط بعلم نفس التدين؛ لماذا تبنى المتدينون الدين، وما أثر التدين فى حياتهم... وأخيرًا أن هذه الدراسة تمت فى منتصف التسعينيات، **قبل أن يمارس الإعلام دوره** فى نشر الإلحاد ابتداء من مدخل القرن الحادى والعشرين. لهذه **الأسباب مجتمعة** تُمكننا الدراسة من رصد **الأسباب الحقيقية وراء الإلحاد فى الغرب، وتقييم دور العوامل النفسانية والشخصية والاجتماعية وراء هذه الظاهرة.**

بنية الدراسة

أُجريت الدراسة على طلبة علم النفس التمهيدى Introductory Psychology فى الجامعتين الكنديتين، وذلك فى عامى ١٩٩٤ و ١٩٩٥، وقد اشتملت على ٤٢٤٦ طالبًا وطالبة.

اعتمدت الدراسة على استطلاع للرأى حول **المفاهيم الدينية العامة**، من خلال عشرين سؤالًا، أعقبه استطلاع آخر (٢٤ سؤالًا) حول مدى **الاقتناع بمفاهيم الديانة المسيحية.**

وقد بدأت الدراسة (من خلال الأسئلة) بالتعرف على **مدى تدين الأسرة** التى نشأ فيها الطالب، **وما آل إليه حاله** (تدين - إلحاد - شك - لاأدرية).

ثم اهتمت الدراسة بمعرفة **الأسئلة الوجودية التى خطرت ببال الطفل** (وجود الإله - مجادلة الشر والألم - الحياة بعد الموت...)، ومدى إلحاح هذه التساؤلات على عقله، وكيف تعامل مع هذه الأسئلة، وكيف تعاملت الأسرة مع ابنها ومع تساؤلاته.

تلت ذلك مجموعة من الأسئلة حول **تشكك الطالب فى الدين**، وسبب ذلك.

وقد تم إعطاء الطلبة درجات تتراوح بين (صفر) و (٦) تبعًا لإجاباتهم، ثم تم **حساب مجموع الدرجات** على كل الأجوبة.

نتائج الدراسة

المرتد المدهش

يُعَرِّف الباحثان «المرتد المدهش» بأنه الشخص الذى تبنى الإلحاد بالرغم من تنشئته الدينية.

وقد أظهرت الدراسة أن ١/ ٧ من الطلبة ملاحدة. وإذا أَضَفْت من قالوا إنهم يَتَّبِعون ديانة والديهم لكنهم يرفضون تعاليمها وطقوسها لارتفعت النسبة إلى ١/ ٤.

وبعد تفريغ نتائج استطلاع الرأى وتحديد المرتدين المدهشين[١]، تم عمل مقابلات Interview معهم لسماع قصة كل منهم والخروج منها بالشواهد. وقد اشتملت نتائج الدراسة على ٥٨ مرتدًا (١,٤٪ من ٤٢٤٦ طالبًا)، تم دعوتهم للمقابلة الشخصية. وقد أظهرت المقابلات انطباق التعريف بدقة على ٤٦ طالبًا[٢]، هم من سنعرض نتائجهم فيما بعد.

المؤمن المدهش

هو الطالب الذى لم يمر بتنشئة دينية ثم أصبح من المتحمسين للمسيحية. وقد بلغ عدد هؤلاء ٢٤ طالبًا من مجموع ٤٢٦٤ (٠,٨٪). وقد تم عمل مقابلات شخصية معهم.

إحصائيات مبدئية

الجنس: كان بين الستة والأربعين مرتدًا مدهشًا ٥٦,٥٪ ذكور والباقى إناث. وهذا يتماشى مع الفكرة العامة بأن الذكور أقل تدينًا من الإناث.

ترتيب الميلاد: كان ٤٨٪ من المرتدين المدهشين هم المولودين أولًا فى الأسرة، ثم ٣٧٪ المولود الثانى، ثم ١٥٪ بعد الثانى.

وتتعارض هذه النسبة مع السائد من أن المولودين أولًا هم أكثر الأبناء التزامًا بمعتقدات والديهم.

الفئة العمرية: كان ٦١٪ من المرتدين المدهشين تحت سن العشرين.

وفى المتوسط أعلن أفراد الدراسة إلحادهم فى سن ١٥,٩ سنة[٣].

---

(١) تم ذلك من خلال مجموع درجات الإجابة عن الأسئلة، تبعًا لنظام لا نرى حاجة لأن نفصله هنا.

(٢) لم ينطبق التعريف على الطلبة الذين تركوا الدين بعد أن تركه والداهم، وبعضهم تمسك بالدين اسمًا فقط، واثنان ذكرا أنهما خرجا من الدين فى سن الثالثة والسابعة.

(٣) فى نفس هذه السن تقريبًا أعلن د. عبد الوهاب المسيرى وسير أنتونى فلو إلحادهما فى الأسرة.

ديانة الأسرة: كان ٦٣٪ من المرتدين المدهشين ممن تربوا على الكاثوليكية، بالرغم من أنها كانت ديانة ٢٩٪ فقط من أفراد الدراسة[١].

السؤال الأول الذى راودك:

ما هو؟ - متى؟ - كيف تم التعامل معه؟

تمكن كل أفراد المجموعة (٤٦ طالبًا) من تذكر السؤال الأول ضد الألوهية والدين الذى خطر ببالهم، وكان ذلك فى سن المراهقة (المتوسط ٥ , ١٢ سنة). وكان هذا السؤال:

٩/ ٤٦ تشككوا فى الإنجيل. إما حول معقولية القصص الدينى (آدم – حواء – طوفان نوح...)، وإما لأنهم عثروا على تناقضات داخل الإنجيل نفسه.

٧/ ٤٦ تشككوا بشكل مباشر فى وجود الإله.

٦/ ٤٦ (كلهم إناث) استنكروا القصص الجنسى فى الكتاب المقدس.

٦/ ٤٦ استنكروا اعتراض الكتاب المقدس على المثلية الجنسية.

٣/ ٤٦ تعارُض قصة الخلق فى سفر التكوين مع نظرية التطور الداروينى.

٤/ ٤٦ تَعارُض الإنجيل مع بعض المفاهيم العلمية الأخرى.

٤/ ٤٦ لم يقبلوا ما يُنزِله الإله المحبة بالبشر من شرور وآلام (مجادلة الشر والألم).

وأرجعت طالبة واحدة اعتراضها الأول على الدين إلى أن الإله لم يعاقبها عندما لعنت المسيح فى خيالها[٢].

يبين ذلك أن التساؤلات الأولى الأكثر شيوعًا كانت **تساؤلات عقلية مشتقة من إنكار حجية الكتاب المقدس**. أما **التساؤلات ذات القيمة الانفعالية والشعورية** (كموت أحد المقربين) فلم يكون لها مكانة كسؤال اعتراضى أول على الدين.

---

(١) يرجع ذلك إلى عاملين:
١- يتطلب تصنيف عضو الدراسة كمرتد مدهش أن يكون قد نشأ فى خلفية دينية قوية، وهذا لا يتوافر فى البروتستانتية ديانة معظم أفراد الدراسة. لذلك انطبق تعريف المرتد المدهش على الكاثوليك بشكل أكبر.
٢- تُعتبر تعاليم الكاثوليكية أكثر تشددًا من غيرها، أى أنها ذات طبيعة طاردة، لذلك كان طبيعيًا أن يكون أغلب المرتدين ممن ينتمون إليها.

(٢) مجموع هؤلاء الطلبة ٤٠ طالبًا، لم تذكر الدراسة «السؤال الأول» عند الستة الباقين.

التعامل مع السؤال الأول

شعر ٨٠٪ من الطلبة **بالذنب** للتساؤل حول صدق الدين، أو **بالخوف** مما يمكن أن ينزله بهم الإله أو الأسرة.

لم يطلب قرابة النصف (٢١/ ٤٦) مساعدة من أحد للإجابة عن التساؤل الأول، وحاولوا الإجابة والخروج من التعارض بأنفسهم.

أما الـ ٢٥ طالبًا الباقين فقد **سألوا أحد والديهم أو كليهما** أو سألوا **رجل الدين** فى الكنيسة. لم **يقتنع** معظم هؤلاء (١٧/ ٢٥) بما قيل لهم كما لم يعجبهم موقف من سألوهم، فقد:

غضب الوالدان وصرخا، أو قالا عليك أن تؤمن كما يأمرنا الإله.

كانت إجابة **الأمهات** (٨/ ٢٥) متعاطفة هادئة، لكنها لم تكن مقنعة.

كانت إجابة **رجال الدين** أكثر منطقية لكنها لم تكن كافية. وشَكَت إحداهن أن رجل الدين قال لها؛ من الجيد أن تطرحى الأسئلة، طالما **لا تؤثر** فى إيمانك.

هل نستطيع أن نقول؛ إنه كلما كانت **التربية تهتم بالدين** كلما كان شعور الطفل بالذنب من طرح التساؤلات أكبر؟

وإذا كان الأفضل طرح التساؤلات، **فمتى وكيف نطرح على أطفالنا كل معلومة دينية** حتى لا يسقطوا فى هوة الشك؟... لا ندرى تمامًا.

الانفجار Breaking Away

عندما لم يحصل السؤال الأول على الإجابة المقنعة (الطلاب الـ ٤٦ جميعهم)، بدأت **التساؤلات الأخرى** فى الانطلاق، وبدأت الفجوة بين الفتى وبين ديانته فى الاتساع.

كانت الخطوة التالية أن **طَرَحَ الفتى تساؤلاته على أقرانه**، أما الوالدان فلم يكتشفا (فى معظم الحالات) ما وصلت إليه شكوك أولادهم إلا بعد فترة طويلة؛ بعد أكثر من ٣ سنوات، عندها **تنبهت الأسرة**، ولم تعرف السبب، واعتبرت ذلك أمرًا عارضًا مرحليًّا سينجلى عما قريب.

وفى خمس حالات لم تعرف الأسرة بتاتًا بإلحاد ابنها، منها ٣ حالات لا يعرف بإلحادها إلا المشرفون على هذا البحث، ويرجع هذا **الكتمان** إلى الشعور بالذنب أو الخوف. وما زال ١٥ شخصًا من أفراد الدراسة يخافون بعد إعلانهم الإلحاد من والديهم أو **يخافون** من الذهاب لجهنم.

وقد لجأ الطلبة أمام طوفان الأسئلة فى الصبا إلى أحد سبيلين:

لجأ **الذين تربوا تربية دينية** إلى سؤال الوالدين ورجال الدين وإلى الصلاة والدعاء وقراءة الكتاب المقدس، وهؤلاء انتهوا عادة إلى تأكيد الإيمان. **والذين تربوا تربية لا دينية** لجأوا إلى توسيع مجال البحث (ديانات أخرى - أصدقاء ملاحدة - كتب إلحادية...)، وهؤلاء انتهوا عادة إلى الارتداد أو اللامبالاة.

سيناريو العودة إلى الماضى

ذكر نصف المرتدين المدهشين (٢٣/ ٤٦) أنهم كانوا **سيشعرون بالصدمة** لو أدركوا فى صغرهم ما آل إليه حالهم من إلحاد. وذكر بعضهم أنهم لو اطلعوا على ما سيحدث لاحقًا لغيروا مسار حياتهم حتى لا يصلوا إلى ما وصلوا إليه.

وذكر ١٤ مرتدًا أنهم **غير نادمين على ما وصلوا إليه**، فحال الكنيسة سيئ للغاية، كما أن تساؤلاتهم لا إجابة عنها.

ووقف تسعة مرتدين موقفًا وسطًا، فقد كانوا حزانى لكن غير مصدومين.

وأعلن (٢٥/ ٤٦) من الطلبة أنه غير محتمل بتاتًا **أن يعودوا لدياناتهم**، وذكر (١٦/ ٤٦) أن ذلك غير محتمل، وذكر الباقون (٥/ ٤٦) أن ذلك أمر محتمل.

وقد وصف الكثير من المرتدين ـ فى أثناء الحوارات ـ أنفسهم فى فترة ما قبل الإلحاد بأنهم كانوا **سُذَّج ولا يدرون**، كذلك **استبدل معظمهم بأصدقائهم** المؤمنين ملاحدة مثلهم أو متشككين. إن هذين الموقفين يبينان أن هناك «**نقطة تحول**» فى حياة هؤلاء، وصفها بعضهم بالميلاد الثانى.

ظاهرة تمرد الفتيان

أكدت الدراسة المفهوم السائد بأن فى سن المراهقة **تتفجر الشخصية الناقدة لكل سلطة ولكل عرف اجتماعى**[1].

فقد ذكر (١٢/ ٤٦) من الطلبة أنهم فى هذه السن أصبحوا معارضين لأشياء كثيرة، جاءت

(١) هذا ما أسميته بإلحاد المراهقين فى كتابى «خرافة الإلحاد».

المفاهيم الدينية من ضمنها. بينما ذكر (١٤/ ٤٦) أن الشك في الدين ظهر أولًا، وأن هذا الشك هو الذي فجر فيهم التوجه النقدي لباقي المفاهيم.

المشكلات مع الأسرة

إذا كانت فترة المراهقة تتسم بالتمرد والمشاغبة والاضطراب، فإن ذلك قد ينعكس على هيئة صدام مع الوالدين أو الأخوة، وهذا يؤدي إلى تصدع الأسرة، فهل ظهور الإلحاد يرجع إلى ذلك؟

ذكر (٢٧/ ٤٦) من الطلبة أنه لم توجد في فترة التحول مثل هذه الصراعات، وذكر بعضهم أن علاقاتهم بالأسرة في تلك الفترة كانت مثالية.

وذكر الباقون (١٩/ ٤٦) أن ردتهم قد صحبها **تمرد وصراع كبيران مع الأسرة**. وأرجع ستة منهم هذا الصراع إلى رفض والديهم المتدينين لنشاطاتهم كمراهقين، وفي ثلاثة منهم كان الصراع بسبب اختيارهم لأصدقائهم، واثنين بسبب تعاطيهم الخمور والعقاقير. وقد كان الصراع في بعض الحالات مع الأشقاء.

ولما كان تشخيص المرتد المدهش يتطلب أن تكون العائلة متدينة، فقد كانت **نسبة الانفصال بين الأبوين** قليلة (٣/ ٤٦).

خسائر ومكاسب الإلحاد

لا شك أن **خسائر الإلحاد** - كما أظهرتها الدراسة - كانت كبيرة:

ذكر (١٦/ ٤٦) من الطلبة أن **علاقاتهم بوالديهم** قد تدهورت بشكل مؤلم، وامتد تدهور **العلاقة إلى الآخرين من العائلة**، بعد أن أصبح يُنظر إليهم باعتبارهم **حزب الشيطان** In the Grip of satan.

وذكر (١٢/ ٤٦) من الطلبة أنهم **فقدوا بوصلتهم في الحياة**، وافتقدوا توجيهات الدين، كما شعروا بالعزلة والاضطراب وفقدان الراحة والأمان اللذين كانوا يشعرون بهما في أثناء تدينهم، وأصبح عليهم أن يعيدوا النظر في جميع شئونهم[١].

وذكر (٣/ ٤٦) من الطلبة أنهم أصبحوا **أكثر خوفًا من الموت**.

(١) هذا ما وصفناه في الفصل السابق بـ «إعادة تشكيل النماذج المعرفية».

وافتقد آخرون **الخدمات التى تقدمها الكنيسة** (كالرحلات والحفلات والندوات والدروس)، وقد **فقد معظمهم أصدقاءهم جميعًا**.

وفى المقابل، أعلن المرتدون المدهشون جميعًا (باستثناء ثلاثة طلاب) أنه **قد تم تعويضهم عن هذه الخسائر**. دَعَكَ ممن قال إنه أصبح لا يحتاج لأن يستيقظ يوم الأحد مبكرًا للذهاب إلى الكنيسة. فالبعض كانوا أكثر جدية وذكروا أنهم أصبحوا **أكثر تحقيقًا لذواتهم، وأكثر شعورًا بشخصيتهم وأكثر ثقة بالنفس**، وأصبحت **عقولهم** متفتحة وأكثر معرفة، وأصبحوا أكثر قوة. وبالرغم من ذلك **لم يقل أحد منهم أنه قد صار أكثر سعادة**[1].

إذًا... ما سبب الإلحاد ؟

دعنا الآن نتأمل النتائج السابقة لنضع أيدينا على القضية المحورية فى الدراسة:

لماذا اختار هؤلاء ترك الدين، فى الوقت الذى تمسك المحيطون بهم بدينهم، بالرغم من أنهم يشاركونهم نفس ظروف المعيشة؟

نأخذ الإجابة من حواراتهم فى أثناء المقابلات الشخصية:

«من المستحيل الاقتناع بأن المعتقدات الدينية صحيحة».

كانت هذه الإجابة هى التى أجمع عليها **معظم الطلبة**، وبَسَطُوا الأمر قليلًا بأن قالوا:

- لم تقفز الفكرة لأذهاننا فجأة، لقد استغرق الأمر قرابة ثلاث سنوات من تزايد الشكوك فى الدين.
- لم نستطع أن نقنع أنفسنا بما نعتقد أنه خطأ.
- لقد خرجنا من الدين بعد أن لم يعد أمامنا خيار آخر.

هل حقيقة لم يعد لديهم خيار آخر؟

هل كان يمكنهم **متابعة ما اختاره الآخرون**... الإيمان.

(١) تذكرنى هذه النتيجة فى الدراسة بالملحد د. إسماعيل أدهم. فقد ذكر عن نتائج إلحاده مثل ما ذكروا، بل وأضاف أنه أصبح أكثر سعادة، وبالرغم من ذلك انتحر فى سن الثامنة والعشرين، وترك رسالة ذكر فيها أنه قد صار يشعر بعدم جدوى الحياة وبالاكتئاب الشديد.

ألا تخبرهم المسيحية بأن هناك أشياء لا يمكن أن يفهموها، وعليهم الإيمان بها حتى لو كانت ضد الأدلة، وحتى لو كانت مستحيلة.

إذًا السؤال المطروح الآن: **لماذا لم يستطع الستة وأربعون طالبًا الاحتفاظ بإيمان أجدادهم ووالديهم وأخواتهم وأقاربهم وأصدقائهم؟**

أجابوا جميعًا قائلين: إن الإيمان الذى تطلبون **يتعارض مع العقل والمنطق.**

وأضافوا؛ إذا اعتمدنا على الإيمان دون تَعَقُّل، فإن كل صاحب ديانة سيتمسك بديانته، **فأى الديانات هى الجديرة بأن توجه لها إيمانك؟!** وأضاف بعضهم؛ إن صاحب كل دين يعتقد أنه وُلد على الدين الحق، وأن الآخرين مخطئون، معنى ذلك أن كل الديانات خطأ[١].

وعندما سألوهم؛ **لماذا لا تستطيعون الإيمان؟ ولماذا لا تستطيعون العودة إلى ما كنتم عليه؟** أجابوا:

إن هذه المفاهيم الدينية، وكذلك علاقتى بأسرتى وأصدقائى، **ليست عندى أهم من الحرية،** كما ينبغى أن أكون **صادقًا مع نفسى،** ينبغى أن **أكون أمينًا.**

لم أستطع أن ألزم نفسى بهذا الإيمان غير المنطقى.

وشذ عن هؤلاء أحدهم وقال: **لقد تبنيت «ما أريد» أن أؤمن به، وليس ما اقتنعت به**[٢].

إن كل ما ذكروه فى لقاءاتهم الشخصية يدور حول **حرصهم على الحقيقة والصدق والاستقامة والتوازن النفسى، فكيف اكتسبوا هذه المفاهيم؟**

يجيب أستاذا علم النفس القائمين بالدراسة بأن هناك عاملين مسئولين عن ذلك:

العامل الأول، أن هذه المفاهيم التى يتبناها هؤلاء المرتدون (الحرص على الحقيقة والصدق مع النفس والاستقامة) **تمثل منظومة إلهية،** لا يفرزها التطور الداروينى الذى لا يهتم إلا بالبقاء أحياء. ألم يؤكد الدراونة أن تطور العقل البشرى يخدم الصراع من أجل البقاء، ولا يهتم بالبحث عن الحقيقة، بينما يخبرنا الدين بأن الحقيقة أهم من الدين نفسه، لذلك وهبنا الإله العقول الباحثة عن الحقيقة.

---

(١) تبنيت فى كتاباتى أن **الدين منظومة موضوعية،** يمكن الحكم عقليًا على صحتها. وطرحت فى كتابَىّ «رحلة عقل» و«خرافة الإلحاد» مقاييس موضوعية يمكن الحكم من خلالها على الدين الحق.

(٢) هذا الطالب هو أكثرهم صدقًا.

والعامل الثانى، أن ذكاء هؤلاء الطلبة أعلى من المتوسط، وهذا يدفعهم ويشجعهم للبحث عن أخطاء وسوءات الطرح الدينى ويُمَكّنَهم من تصيدها. ثم يجعلهم ذكاؤهم هذا يثقون بأحكامهم.

معنى ذلك أن مفاهيم الحقيقة والصدق والاستقامة التى تبنوا من أجلها الإلحاد لا يمكن أن تتحقق بغير دين!!

أتترك غيرك يتبع خطواتك ؟

حرصت الدراسة على استكشاف موقف المرتد المدهش تجاه من يبدأ من معارفهم فى التساؤل والشك. من أجل سبر ذلك طَرَحَت الدراسة سؤالًا:

إذا جاءك المتشكك متسائلًا، هل تنصحه بالإلحاد، أم تعرض عليه وَجْهَى الأمر وتدعه يختار؟

حرص طالب واحد منهم على أن يجعل المتشكك ملحدًا.

بينما فَضَّلَ (٤٥/٤٦) طالبًا أن **يَدَعُوا المتشكك لنفسه ولحرية قراره**، وقال بعض هؤلاء إنهم لا يحبون إطلاقًا قيادة آخر إلى الإلحاد[١].

وتمسك (٣٦/٤٦) طالبًا بأن على المتشكك أن **يبحث فى الجانبين**، وأن يسأل رجال الدين، وأن يقرأ كتابه المقدس ويتفكر فيه، وبعد ذلك يحدد اختياره بكامل حريته.

كيف تُربون أبناءكم ؟

لقد انعكس موقف **حرية الرأى** الذى تبناه المرتدون المدهشون على تصورهم لأسلوب تربيتهم لأبنائهم:

أعلن (٨/ ١٩)[٢] من الطلبة أنهم سيرسلون أبناءهم إلى الكنيسة حتى يتيسر لهم التعرف على الدين.

---

(١) ليس هذا موقف عتاة الإلحاد الجديد فى الغرب، ولا موقف تلاميذهم فى بلادنا. فكتابات وصفحات الفيس بوك لهؤلاء تصرخ بمهاجمة الدين وبالرغبة فى أن يتبعهم العالم كله.

(٢) العدد قليل لأن هذه النقطة طُرحت فقط على طلبة السنة الثانية من الدراسة، وكان عدد المرتدين المدهشين منهم ١٩ طالبًا.

وافق (٨/ ١٩) من الطلبة على أن يدعوا أبناءهم يتعلمون الدين من باقى أفراد العائلة.

أجاب (٣/ ١٩) طالبًا بأنهم لا يعرفون الآن ما سيفعلون فى المستقبل، وأضافوا أن القرار سيتوقف على رأى شريكه الآخر.

إن إجاباتهم تبين أنهم **مستعدون لأن يعطوا أبناءهم فرصة الإيمان.**

ملخص الدراسة

يمكن إجمال نتائج هذه الدراسة فى أن **التساؤلات الأولى** الأكثر شيوعًا لدى المرتدين عن الدين كانت **تساؤلات عقلية** مشتقة من **إنكار حُجية الكتاب المقدس.** أما **التساؤلات ذات القيمة الانفعالية والشعورية** (كموت أحد المقربين) فلم يكن لها مكانة كسؤال اعتراضى أول على الدين. وقد شعر معظم الطلبة **بالذنب** للتساؤل حول صدق الدين، أو **بالخوف** مما يمكن أن ينزله بهم الإله أو الأسرة. وإذا كان نصف هؤلاء الطلبة قد حاولوا الإجابة عن تساؤلاتهم الأولى بأنفسهم، فبالنسبة للنصف الآخر لم تكن إجابات والديهم أو رجال الدين مُرضية.

أعقب التساؤل الأول طوفانٌ من الأسئلة، وقد لجأ الطلبة فى الصبا للإجابة عنه إلى أحد سبيلين: لجأ **الذين تربوا تربية دينية** إلى سؤال الوالدين ورجال الدين وإلى الصلاة والدعاء وقراءة الكتاب المقدس، وهؤلاء انتهوا عادة إلى تأكيد الإيمان. **أما الذين تربوا تربية لا دينية** فقد لجأوا إلى توسيع مجال البحث (ديانات أخرى ـ أصدقاء ملاحدة ـ كتب إلحادية...)، وهؤلاء انتهوا عادة إلى الارتداد أو اللامبالاة.

وقد كانت **خسائر الردة** عن الدين كبيرة، تضمنت تدهور العلاقة بالأسرة بشكل مؤلم، وفقدان البوصلة فى الحياة والخوف من الموت، وافتقاد خدمات الكنيسة وفقد الأصدقاء. وفى نفس الوقت اعتقد الطلبة جميعًا أنه قد **تم تعويضهم** عن ذلك؛ فقد أصبحوا **أكثر تحقيقًا لذواتهم، وأكثر شعورًا بشخصياتهم وأكثر ثقة بالنفس،** وأصبحت **عقولهم** متفتحة وأكثر معرفة، وأصبحوا أكثر قوة. وبالرغم من ذلك **لم يقل أحد منهم أنه قد صار أكثر سعادة.**

ويمكن تلخيص أسباب الإلحاد فى أن المرتدين قد تركوا الدين بعد أن أدركوا أن «**من المستحيل الاقتناع بأن المعتقدات الدينية صحيحة**». ومن ثم **يتعارض الإيمان بالدين مع العقل والمنطق**، وقد أعلن هؤلاء أن المفاهيم الدينية، وكذلك علاقتهم بأسرهم وأصدقائهم، **ليست عندهم أهم من الحرية والأمانة والصدق مع النفس.**

وبالرغم من ذلك، مال معظم المرتدين إلى أن **يَدَعُوا المتشكك لنفسه ولحرية قراره، فهم لا** يحبون قيادة آخر إلى الإلحاد. لذلك على المتشكك أن **يبحث فى الجانبين**، وأن يسأل رجال الدين، وأن يقرأ كتابه المقدس ويتفكر فيه، وبعد ذلك يحدد اختياره بكامل حريته. كما فضل المرتدون أن يربوا أبناءهم على حرية الاعتقاد وأن يعطوهم فرصة الاختيار.

دور الوالدين

هل تُوَرَّث التوجهات الدينية جينيًّا[1]؟

منذ قرن مضى، تبنى علماء النفس أن معظم سلوكياتنا (ومنها الميول الدينية) **تُوَجَّه** بيولوجيًّا، لذلك طرحوا ما يُعرف بـ «**نظرية الغرائز** Theory of Instincts» [2]. ويؤيد دور الوراثة فى تبنى الدين ما ذكره علماء الاجتماع من أننا نجد فى كل مجتمع ـ مهما صَغُرَ ـ دورًا للعبادة، لذلك أطلقت عالمة الاجتماع كارين أرمسترونج على «**الإنسان العاقل**» اسم «**الإنسان الدَّين**»، وقد حدا ذلك راماشاندران (حجة علـوم المخ والأعصاب) لأن يعلن أن شيوع التدين عبر التاريخ وعبر الجغرافيا يدفعنا لأن **نبحث عن أُسسه البيولوجية**.

إن هذه المفاهيم تطفو فى كتب علم النفس كل بضع سنوات. فنجد عالم التحليل النفسى العظيم كارل يونج Carl Jung [3] يتبنى أننا كبشر **تحركنا الرغبة الفطرية فى أن نجد إلهًا، وأن نؤمن بقوة عليا**. وحديثًا أجرى الباحثون فى جامعة مينوسوتا بالولايات المتحدة عام ١٩٩٠ دراسة على مجموعة من التوائم المتطابقة الذين تربوا معًا، ومجموعة أخرى منهم تربوا منفصلين، وقد أظهرت هذه الدراسة **دورًا قويًّا للوراثة**.

وإذا كانت الدراسة السابقة عن **المرتدين المدهشين** لا تدعم من النظرة الأولى دور الجينات فى المنظومة الدينية، إذ ورث هؤلاء جيناتهم من آباء متدينين، فإن **نظرة أعمق** للدراسة تدعم دور الوراثة؛ فباستثناء الـ ٤٦ مرتدًا مدهشًا تطابقت التوجهات الدينية للطلبة مع توجهات الوالدين.

(١) تناولت ذلك بقدر من التفصيل فى الفصل الثالث.
(٢) تتبنى نظرية الغرائز أن الإنسان تدفعه وتحركه آليات عضوية ميكانيكية كالتى تتحكم فى الحيوانات.
(٣) Carl Jung : (١٨٧٥- ١٩٦١) عالم وطبيب النفس السويسرى الشهير، أثَّرت كتاباته فى الفلسفة وعلوم الدين.

دور التنشئة

تؤكد دراسة «**التحولات المدهشة**» صحة المفاهيم المطروحة بقوة فى علم النفس فى الفترة الأخيرة، والتى **تُرجِع تَدَيُّن الشخص إلى حد كبير إلى نشأته** وإلى العوامل الاجتماعية المحيطة. ويستشهد الباحثان بما ورد فى كتاب «**علم نفس التدين** The Psychology of Religion» من أن الوالدين يلعبان دورًا تربويًّا مهمًّا للغاية فى نشأة التوجهات والممارسات الدينية لأبنائهم(١). كما يرى ديفيد الكند David El kind (٢) أن تنشئتنا ونمونا العقلى يُسلمانا إلى التدين.

ويتوقف هذا الدور على مدى **اهتمام الوالدين بالدين** وعلى الجو الدينى فى البيت. ويستمر هذا التأثير على الأبناء حتى بعد أن يكبروا. وفى المقابل يتوقف تبنى الارتداد على ضعف الاهتمام بالدين فى البيت.

وقد أرجعت عدة دراسات تَدَيُّن الصغار إلى **نظرهم لوالديهم كقدوة**، فى وقت تكون الملكات العقلية على التفكير المجرد، وكذلك القدرات العقلية الناقدة محدودة. وعندما يبلغ هؤلاء سن المراهقة تنشط هذه الملكات وهذه القدرات، فيبدأ الفتيان والفتيات فى **إعادة التفكير** فى معتقداتهم الدينية، ويطرحون التساؤلات ويَشُكُّون فيما يُعرض عليهم من أجوبة.

ماذا تفعل لو وُلِدْتَ على ديانة غير ديانتك؟

لا شك أن هذا السؤال يدور فى ذهن الكثيرين منا. وللإجابة عنه أُجريت دراسة فى **جامعة مانيتوبا** Manitoba الكندية عام ١٩٩٦، وفى الدراسة وُجه سؤال إلى ٤٠٠ من الطلبة المسيحيين:

ما موقفك لو كنت قد تربيت على ديانة أخرى غير المسيحية؟

كانت أجوبة الطلبة كالآتى:

٥٧٪ الأرجح Probably سأؤمن بها كإيمانى الآن بالمسيحية.

١٩٪ الأرجح Probably سأؤمن بها بشكل أقل من المسيحية.

---

(١) By: Good, Spilka, Hunsberger and Gorsuch (2003) P.82

وأيضًا دراسة أجراها أحد الباحِثَيْن (التيمير) ونشرت عام ١٩٨٨، ص ٢١٨.

(٢) David Elkind : (١٩٣١-) عالم النفس اليهودى الأمريكى، المهتم بعلم نفس الطفل. الأستاذ بجامعة تفت.

١٣٪ **لا شك I am Certain** سأؤمن بها بشكل أقل من المسيحية.

١١٪ سأؤمن بها **بشكل أكبر** من المسيحية (كثير من هؤلاء لهم مؤاخذات كبيرة على المسيحية).

تتماشى هذه الإحصائيات مع ما نتبناه من أن الإنسان يقوم بتأسيس نظامه الدينى كَبِنْية تقوم على الشعور الفطرى بوجود الإله. ولا تشترط هذه **الفطرة** أن يشتمل النظام الدينى على صفات محددة للإله، كما لا تستلزم توضيح الغايات من الخلق، ولا تشترط أية طقوس لعبادة الإله الخالق، إنما تتطلب **تأكيد وجود الإله من حيث المبدأ** وحسب.

لذلك، كما يتم إشباع هذا الوعى الفطرى بوجود الإله بالعقيدة الصحيحة وبالعبادة الحقة، **فيمكن إشباع هذا الوعى بعقيدة وعبادة وثنية أو بدائية**، تم استبعاد العقل تمامًا عن النظر فيها.

لماذا بَدَّلوا دينهم؟

فى دراسة متفرعة من الدراسة الأولى (التحولات المدهشة) التى أجراها أستاذا علم النفس فى الجامعتين الكنديتين (١٩٩٤ - ١٩٩٥)، تم **سؤال من بَدَّلوا دينهم من آباء وأمهات الطلبة عن سبب ذلك**. كانت الإجابة:

٣٠/ ٦٣ **الزواج**. وقد بَدَّل بعض هؤلاء دينهم إلى الكاثوليكية عند الزواج بضغط من الكنيسة، ومعظم هؤلاء لم ينتظموا فى الكنيسة بعد ذلك. كما بدل بعضهم دينه عند الزواج حتى يكبر الأولاد فى بيت يخيم عليه دين واحد.

٢٤/ ٦٣ **عدم الاقتناع بالدين الأول**. وقد ترك ١٩ من هؤلاء الكاثوليكية وتبنوا البروتستانتينية.

وماذا بعد سن المراهقة؟

أُجريت الدراسة الأولى (التحولات المدهشة) فى هذا الفصل على طلبة الصف الجامعى الأول (حوالى سن الثامنة عشرة) ممن يدرسون علم النفس، فهل سيظل هؤلاء متمسكين بآرائهم تجاه دين العائلة باقى حياتهم (إيمان - إلحاد)؟

تحتاج الإجابة عن هذا السؤال إلى **دراسة طويلة المدى**، يتم فيها متابعة هؤلاء المراهقين لعدة عقود.

إن الدراسة الوحيدة المتاحة حول هذا الموضوع هى ما قام بها نفس الأستاذين الكنديين اللذين قاما بدراسة التحولات المدهشة. ففى عام ١٩٧٦، سأل الأستاذان طلبة السنة الجامعية الأولى عن موقفهم من الدين، ثم قاما **بعد ١٨ سنة** بسؤال ٨٦ شخصًا من هؤلاء الطلبة عن حالتهم الدينية، بخصوص المعتقدات والممارسة. أظهرت النتائج **تغيرًا ضئيلًا للغاية** فى مواقف هؤلاء الدينية. وذلك عكس ما يعتقده الكثيرون من أن الإنسان يصبح أكثر تدينًا بعد أن يتجاوز مرحلة المراهقة.

لماذا لا يزال هناك دين؟

أحببت أن أنهى هذا الفصل الذى دار حول الدراسات الميدانية حول تبنى الإلحاد وأفكار الملاحدة بهذه الدراسة المهمة.

يرى الفلاسفة والمفكرون الماديون أن المفاهيم الدينية قد ثبت خطؤها (عقليًّا وعلميًّا)، حتى إن زعماء الإلحاد الجديد يرون أن الدين يسمم كل شيء، وأنه أسوأ ما حل بالبشرية. والسؤال البديهى الذى يخطر على البال هو: إذا كان للدين كل هذا الضرر، **فلماذا لم يقض التطور الداروينى عليه بآلية الانتخاب الطبيعى التى تستبعد كل ما هو ضار؟!**

والسؤال بأسلوب آخر؛ لماذا بقى الإيمان بالدين عبر العصور، خاصة وقد أجاب العلم والفلسفة عن الكثير من تساؤلات الإنسان؟

تعرضت دراسة التحولات المدهشة لهذا السؤال فى شقها الثانى حول **المؤمنين المدهشين**. وقد أسفرت الدراسة عن نتيجة حاسمة؛ وهى أن **الدين يُشبع احتياجات الإنسان الرئيسة، خاصة النفسية والانفعالية، سواء كان الدين صوابًا أو خطأً، وهو ما لا يحققه العلم ولا الفلسفة.** وإليك بعض التفاصيل:

وُجه لوالدىَّ ٥٠٠ طالب ممن اشتركوا فى الدراسة ستة عشر سؤالًا تدور حول نقطتين أساسيتين:

١) إلى أى مدى **تحقق المفاهيم الدينية الراحة والسعادة والبهجة** (Comfort, Happiness, Joy)؟

٢) إذا كان البعض لا يقبل المفاهيم الدينية التقليدية؛ لأنها تحتاج لإيمان أعمى، ويفضلون الإيمان بالعلم والمنطق، فإلى أى مدى يحقق العلم والمنطق الراحة والسعادة والبهجة؟

أظهرت الإجابات عن السؤالين ما يلى:

- يحقق الدين للوالدين الراحة والسعادة والبهجة أكثر من العلم والمنطق (٤٩,٣ درجة مقابل ٣٥,٦).
- حصلت معظم الأسئلة التى تؤكد أن الدين يحقق «البهجة» على درجات فوق المتوسط[1].
- وافق معظم الآباء والأمهات على أن الدين يحقق «الارتياح النفسى»، وكانت أسباب ذلك:

يجعلنى الدين أشعر بحب ودعم الآخرين.

استمتع بحب الإله.

أشعر بالأمان وحماية الإله.

يجمع الدين بينى وبين من أحب.

يعدنى الدين بالتجاوز عن خطاياى.

هذا لا يمنع أن هناك بعض الدوافع العقلية لما يسببه الدين من ارتياح نفسى، مثل:

يحدد لى الدين الصوابَ والخطأ.

يُحَجِّم الدين دوافع الشر فى الإنسان.

- وقد حصلت إجابة واحدة (من ١٦ سؤالًا) عن العلم والمنطق على درجات فوق المتوسط، وكانت الإجابة أن العلم والمنطق يعطيان الشخص بهجة الاكتشاف.

لقد خيبت هذه النتائج ظنون الماديين فى أن المنطق والعلم يجيبا بشكل أفضل من الدين على التساؤلات حول الوجود وحياتنا فيه.

وتتماشى هذه النتائج مع بديهية أن متعة المنطق والعلم تخص شريحة أضيق كثيرًا من متعة

(١) فوق ٣ درجات، من تدريج يتراوح من صفر : ٦ درجات.

الدين. فكم شخص يستمتع بجمال نظرية النسبية أو يستشعر النشوة فى تأمل الشفرة الجينية. إنها أمور عقلية متخصصة وليست أمورًا شعورية انفعالية؟!

إن المنطق والعلم الموضوعيين الماديين لا يجيبان عن الأسئلة الرئيسة التى تدور فى عقل الإنسان:

من نحن؟ لماذا نحن هنا؟ ماذا بعد الموت؟

كيف نشعر بالأمان والحب؟ وهكذا....

إن الدين هو الأقدر على التعامل مع المفاهيم الذاتية والنفسية والانفعالية، ومن ثم فهو يغنى حياتنا، بل يحكمها.

وربما تكون بعض الديانات غير منطقية فى بعض جوانبها، وقد تدع الإنسان لاختيارات سيئة، لكن هذا لا يدفع معتنقيها للتخلى عنها، بعد ثبوت فوائدها الكبيرة.

لذلك لا يزال هناك دين.

القارئ الكريم

يشتمل هذا الفصل على عدد من الدراسات الميدانية التى أردنا من خلالها إثبات ما ذهبنا إليه فى الفصول السابقة حول الإلحاد. ونجمل ما توصلنا إليه من هذه الدراسات فى عدة نقاط أهمها:

- **التساؤلات الأولى** الأكثر شيوعًا لدى المرتدين عن الدين تكون عادة **تساؤلات عقلية** مشتقة من إنكار **حُجية الكتاب المقدس**. أما **التساؤلات ذات القيمة الانفعالية والشعورية** (كموت أحد المقربين) فلا يكون لها مكانة كسؤال اعتراضى أول على الدين.
- **خسائر الردة** عن الدين تكون عادة كبيرة، تشمل تدهور العلاقة بالأسرة بشكل مؤلم، وفقدان البوصلة فى الحياة، والخوف من الموت، وافتقاد خدمات الكنيسة، وفقد الأصدقاء. ويعتقد المرتدون أنه قد تم **تعويضهم** عن ذلك، بعد أن أصبحوا **أكثر تحقيقًا لذواتهم، وأكثر شعورًا بشخصياتهم وأكثر ثقة بالنفس**، وأصبحت **عقولهم** متفتحة وأكثر معرفة، وأصبحوا أكثر قوة.
- يمكن تلخيص أسباب الإلحاد، فى أن المرتدين قد أدركو أن «**من المستحيل الاقتناع بأن**

المعتقدات الدينية صحيحة»، وأن الإيمان بالدين يتعارض مع العقل والمنطق والحرية والأمانة والصدق مع النفس.

- يميل معظم المرتدين إلى أن **يَدَعُوا المتشكك لنفسه ولحرية قراره**، ولا يحبون قيادة آخر إلى الإلحاد. لذلك على المتشكك أن **يبحث فى الجانبين**، وأن يسأل رجال الدين، وأن يقرأ كتابه المقدس ويتفكر فيه، وبعد ذلك يحدد اختياره بكامل حريته. كما **يفضل** هؤلاء المرتدين أن يربوا أبناءهم على حرية الاعتقاد وأن يعطوهم فرصة الاختيار.

- للعوامل الوراثية (الجينات) دورٌ كبير فى المنظومة الإيمانية، فنحن كبشر **تحركنا الرغبة الفطرية فى أن نجد إلهًا، وأن نؤمن بقوة عليا**. وقد أظهرت هذه الدراسات **دورًا قويًّا للوراثة.**

- يرجع تدين الشخص إلى حد كبير إلى نشأته وإلى الجو الدينى فى البيت، وبالعكس فالإلحاد يرجع إلى ضعف الاهتمام بالدين.

- يتجه الإنسان ـ فى الأغلب ـ إلى الالتزام بالدين الذى تربى عليه، ولا يتجه إلى تبديل الدين بآخر إلا نسبة ضئيلة من الأفراد.

- يظل الإنسان فى أغلب الأحيان محتفظًا بموقفه الدينى (القبول أو الرفض) الذى تبناه فى فترة مراهقته، وذلك عكس ما يعتقده الكثيرون من أن الإنسان يصبح أكثر تدينًا بعد أن يتجاوز مرحلة المراهقة.

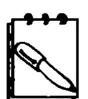
ويرجع بقاء الدين منذ نشأة البشرية وحتى الآن إلى أنه يُشبع احتياجات الإنسان الرئيسية، خاصة النفسية والانفعالية، سواء كان الدين صوابًا أو خطأ، وهو ما لا يحققه العلم ولا الفلسفة. كذلك فإن الدين هو القادر على الإجابة عن **الأسئلة الوجودية** التى يعجز أمامها العلم والفلسفة، مثل: مَن نحن؟ لماذا نحن هنا؟ ماذا بعد الموت؟ كيف نشعر بالأمان والحب؟ وهكذا....

ومن ثم فإن الدين هو الأقدر على التعامل مع المفاهيم الذاتية والنفسية والانفعالية والمعرفية، ومن ثم فهو يغنى حياتنا، بل يحكمها.

لذلك لا يزال هناك دين.

***

الفصل العاشر



الإلحاد فى بلادنا

- الإلحاد فى القرآن الكريم
  - القرآن الكريم والعوامل النفسية للإلحاد
- حروب الردة
- الزنادقة
  - نشأة الإلحاد فى الحضارة العربية الإسلامية
  - من هم الزنادقة
  - ابن الراوندى
  - دروس من حركة الزنادقة
- الإلحاد المعاصر
  - المُلَيحد د. إسماعيل أدهم
  - نكبة عبد الله القصيمى
    - لماذا؟...
    - قاذورات القصيمى الإلحادية
    - القصيمى فى الميزان
- الإلحاد فى بيوتنا
  - خلفيات الموجة الإلحادية
  - الإلحاد السفسطائى وأنماطه
    - أولًا: الأنماط النفسية للإلحاد
    - ثانيًا: الأنماط المُعلَنة للإلحاد
- القارئ الكريم

«عندما تصل الحضارة إلى طور الرفاهية،
فإن بعض النفوس تكون قد استنفدت
تطلعاتها وإمكانياتها الدينية واشتاقت
إلى المزيد من المتع الحسية».

د. عبد الرحمن بدوى

تُعتبر ظاهرة الإلحاد من أخطر الظواهر فى تطور الحياة الروحية، وهى تفسح لنفسها مكانًا فى كل حضارة حينما تصل إلى **طور الرفاهية**، ذلك أن بعض النفوس تكون قد استنفدت **تطلعاتها** وإمكانياتها الدينية واشتاقت إلى المزيد من المتع الحسية.

ويختلف نمط الإلحاد **تبعًا لروح الحضارة التى انبثق فيها**. فإذا كان نيتشه قد عبر عن الإلحاد الغربى بقوله: «**لقد مات الله**»، وعَبر الإلحاد اليونانى بقوله: «**إن الآلهة المقيمين فى المكان المقدس قد ماتت**»، فإن الإلحاد العربى يقول: «**لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء**». ذلك أن الإلحاد فى العالم الإسلامى يَصدُر عن الروح العربية التى كانت تنظر إلى العلاقة بين الله وبين العبد باعتبارها صلة افتراق وبُعد كامل، لذلك احتل **النبى (الوسيط بين الله والعبد)** أخطر دور فى الحياة الدينية الإسلامية. وهكذا ينعكس دور **المفاهيم المجتمعية** فى تحديد نمط الإلحاد الذى يتبناه الأفراد.

ولا فرق فى الواقع فى **النتيجة النهائية** بين كلا الموقفين، فكلاهما يؤدى فى النهاية إلى **إنكار الدين**؛ فبإنكار الإله عند اليونانى القديم وعند الغربى المعاصر ينتفى الدين، **وبإنكار النبوة والأنبياء** عند العربى تزول الأديان، فينقطع كل سبيل إلى الألوهية ذاتها. وفى النهاية **يتلاشى فى الحالين القول بالبعث، وما يتبعه من ثواب وعقاب** وما يتطلبه ذلك من التزام بطاعات وانتهاء عن معاصٍ. وهذا هو جوهر ما يهتم به الملاحدة بكل أصنافهم[1].

ونمهد لمناقشة الإلحاد كظاهرة نفسية فى بلادنا بتلخيص ما ذكرناه فى الفصول السابقة عن الخلفيات النفسية لنشأة الإلحاد. وقد أجملنا هذه الخلفيات فى ثلاث مجموعات؛

المجموعة الأولى، تشمل العوامل النفسية التربوية، المرتبطة **بالنشأة فى السن المبكرة**، كنظرية

(١) المقدمة السابقة تلخيص بتصرف من كتاب «من تاريخ الإلحاد فى الإسلام»، للفيلسوف الدكتور عبد الرحمن بدوى: (١٩١٧ - ٢٠٠٢).

الارتباط خاصة بالأم ومفهوم التقصير الأبوى والتعلق بوالد ملحد واضطراب العلاقة مع رجال الدين وغيرها.

المجموعة الثانية، هى **العوامل النفسية الشخصية** كحب الشهرة والاستمتاع الحسى والاستعلاء والكبر وغيرها.

المجموعة الثالثة، هى **العوامل النفسية المجتمعية**، كشيوع الأفكار المادية وتوجه المجتمعات للإشباع الجنسى.

وليتك - قارئى الكريم - من خلال إبحارك فى هذا الفصل، أن تعرض أسباب إلحاد الأشخاص والمجموعات التى ستعرض لها على هذه العوامل النفسية، لترى مدى انعكاس هذه الخلفيات النفسية على ظاهرة الإلحاد فى بلادنا.

الإلحاد فى القرآن الكريم

يرى الكثير من المفسرين أن القرآن الكريم لم يتناول قضية الوجود الإلهى، باعتبار أنها فطرة فى النفس البشرية[1]، لذلك اتجه القرآن مباشرة إلى تناول أنماط الانحراف المختلفة عن هذه الفطرة. ونحن نختلف مع هذا الرأى، فالكثير من آيات القرآن الكريم يدور حول إثبات حقيقة الوجود الإلهى، كما يدعو الإنسان للنظر فى آيات الآفاق والأنفس حتى يتبين أن القرآن حق وأن الإله حق.

والقرآن الكريم باعتباره موجهًا للبشر جميعًا وباعتباره خاتم الرسالات السماوية كان طبيعيًّا أن يخاطب البشر جميعًا، ابتداء من المؤمنين صادقى الإيمان إلى مدعى الألوهية، مرورًا بجميع أشكال الطمس والانحراف التى يمكن أن تصيب الفطرة الإنسانية. وإليك أهم أنماط هذا الانحراف كما جاءت فى القرآن الكريم:

١ - يقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]. يطلق القرآن الكريم على من تصيب فطرتهم أحد الأنماط المختلفة من الطمس والانحراف اصطلاح **«الكافرون»**. «وكَفَرَ» بمعنى غَطَّى، أى أن

(١) كذلك يرى البعض أن معظم أهل مكة كانوا يقرون بوجود الإله، ومن ثم لم يكن هناك مبرر لإثبات ذلك. وهذا الرأى مردود، فالقرآن الكريم لم يتنزل لأهل مكة وحسب، بل للبشر أجمعين عبر المكان وعبر الزمان.

فطرتهم قد غطاها ما غطاها من ران. وهؤلاء «الكافرون» قد يكونون «مدعون» أو «منكرون» أو «مشركون» أو «ضالون».

٢ - يتناول القرآن الكريم «**مُدَّعو الألوهية**» من خلال القصص القرآنى، فيحدثنا عن نمرود إبراهيم وفرعون موسى. وهذا الادعاء هو أشد أشكال الانحراف عن الفطرة السوية. وهؤلاء تقابلهم فى العصر الحديث **المدارس الفكرية المادية** التى جعلها المنكرون لله ﷻ آلهة يتبعونها؛ كالداروينية والماركسية. ويمتد الادعاء ليشمل أيضًا «**ادعاء النبوة**».

ويقول القرآن الكريم فى ادعاء النبوة وادعاء الألوهية: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ... ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام].

٣ - يُطلق القرآن الكريم على «**المنكرون**» لوجود الله ﷻ اسم «**الدهرية**». وهذه الطائفة من العرب شعارها: ما هى إلا أرحام تدفع وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر، لذلك قال فيهم الله ﷻ: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية].

وجاء فى «**موسوعة المفاهيم**» للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية؛ أن «الدهرية» مذهب كل من اعتقد فى قِدَم الزمان والمادة والكون، وأنكر الألوهية والخلق والعناية والبعث والحساب. كما يرون أن الموجب للحياة والموت هى طبائع الأشياء وحركات الأفلاك، ويعتقدون أن للحياة دورات تتكرر كل ٣٦ ألف سنة يعود بعدها كل شىء إلى ما كان عليه. وقد عُرفت الدهرية فى بلاد الهند قبل الإسلام، ومن هؤلاء مذهب «السمنية» الذين ينكرون الألوهية والوحى والنبوة والرسالة، ويؤمنون بألا طريق للمعرفة إلا الحس(١).

والدهرية أصل كل مذاهب الإلحاد والمادية التى عرفتها البشرية، كما يمكن اعتبار **الفلسفة الوضعية الحديثة** أحدث صور الدهرية القديمة. وهؤلاء الدهرية المنكرون للألوهية هم أقرب الكافرين من «الملاحدة» المعاصرين.

٤ - يخبرنا القرآن الكريم بما سيدعيه بعض الكافرين بعد أربعة عشر قرنًا عن **خلق الكون والإنسان من عدم**. فيقول الحق ﷻ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور]:

---

(١) نلخص هذه الفقرة عن مقال للأستاذ د. محمد عمارة، نُشر بجريدة الأهرام ٦/ ٤/ ٢٠٠٩: وقعت هذه المناظرة المشهورة بين السمنية والجهم بن صفوان (توفى عام ٧٤٥م) زعيم الجبرية. وفى المناظرة، وافق الجهمُ السمنية على ألا شىء سوى المحسوس، عندها أفحموه بأن إلهه غير محسوس، ومن ثم غير موجود. بعدها أرسل الجهم إلى واصل ابن عطاء (المتوفى ٧٤٨م) زعيم المعتزلة (التيار العقلانى) يطلب منه حل الإشكال، فطلب منه واصل أن يسألهم إن كان العقل الذى يؤمنون بوجوده محسوسًا؟ وجعلهم يستنتجون من ذلك أن المعلوم ليس فقط ما تدركه الحواس وإنما يضاف إليه ما يثبته الدليل. عندها سعوا إلى لقاء واصل واعتنقوا على يديه الإسلام.

سبحان الله، فـ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ تعنى من غير مادة ومن غير سبب أول، و﴿ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ تعنى أن المخلوق (الكون والإنسان) قد أوجد ذاته، وكلاهما مما وقع من الملاحدة المعاصرين.

٥- يحدثنا القرآن الكريم عن طائفة تقر بالإله الخالق، لكنها ترى أنه **قد اعتزل الكون بعد أن** وضع فيه القوانين التى تُسَيره، ومن ثم **ينكر هؤلاء «القيومية»** أى ينكرون متابعة الإله الخالق للكون بالحفظ والتدبير والرزق و... وقد قال فيهم الحق ﷻ:[1] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت].

٦- يخبرنا القرآن الكريم بأن من الكافرين من يقر بالقيومية (متابعة الله ﷻ خلقه بالرعاية) فقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت]، **لكنه ينكر أن يكون الإله قد تواصل مع البشر عن طريق الأنبياء والرسل، أى ينكرون الديانات.** وهذه الطائفة تقابل **«الربوبيون»** بالمعنى المعاصر.

ويهدف هؤلاء من إنكارهم للدين ـ فى المقام الأول ـ **إنكار البعث والثواب والعقاب.** فعند ذلك لن يكون هناك مبرر للعبادات وللالتزام بأوامر الله ﷻ ونواهيه. وبذلك **يفرغون الألوهية من كل معنى وقيمة:** ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء]، ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن].

٧- يأتى بعد المدعين والمنكرين **«المشركون»**. والمشرك هو الذى يؤمن بوجود الله ﷻ، **لكنه يعبد معه غيره،** بزعم أنه يقربه إلى الله ﷻ: ﴿ ...وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ...﴿٣﴾ ﴾ [الزمر].

وقد كان هذا الصنف من الكافرين أكثر من واجه دعوة الإسلام فى بدايتها فى مكة المكرمة.

ومن أشكال الشرك الأخرى التى يعرضها القرآن الكريم ويكشف فسادها أن يتخذ الإنسان من **«هواه» شريكًا لله** ﷻ أى أنه يُسلم زمام نفسه لميوله ورغباته: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ...﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان]. ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ...﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية].

٨- و**«الضالون»** آخر أنماط الكافرين. وهم الذين **ضلوا عن الحق بعد أن عرفوه.** ومن أخص هؤلاء المسيحيين، فقد بين القرآن الكريم أن معظمهم ضلوا عن المعنى الحقيقى

(١) جاء هذا المعنى أيضًا فى سور: لقمان -٢٥، الزمر - ٣٨، الزخرف -٩.

للتوحيد الذى دعاهم إليه نبيهم، فأشركوا مع الله المسيحَ وأمه مريم[1]: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ... ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة].

ومن الضالين أفراد من أمة محمد ﷺ، عرفوا الحق ثم ألحدوا فى أسماء الله ﷻ وآياته.

٩- جاء لفظ «يلحد» فى القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف].

وهذا هو **الإلحاد فى أسماء الله** ﷻ، أى الميل والانحراف بها إلى الباطل، فينسبون إلى الله ﷻ العدمية، أو الجبر، أو الحلول والاتحاد، أو... حاشا لله ﷻ[2].

والثانى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ ... ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت].

وهو تحريف معنى **آيات القرآن الكريم** إلى غير مراد الله ﷻ منها.

والثالث: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

ويلحدون إليه بمعنى ينسبون إليه. والمقصود فى الآية أن الكفار ينسبون تعليم محمد ﷺ إلى الكُهان، وهؤلاء لسانهم أعجمى غير عربى.

مما سبق، يتضح أن القرآن الكريم استعرض كل أنواع الضلال والانحراف عن فطرة الإنسان السوية، لذلك يحدثنا علماء التوحيد عن **توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات**[3]. فسبحان الإله الواحد الأحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

---

(١) ما زال مِن المسيحيين مَن يؤمنون بوحدانية الله، وبأن الكتاب المقدس ينص على أن المسيح رسول الله، وينكرون كل ما أُدخل على المسيحية من عقائد ضالة. ومن هؤلاء «شهود يهوا».

(٢) فى ذلك يقول الإمام ابن تيمية:

وَأَصْلُ ضَلَالِ الخَلْقِ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ ... هُــوَ الخَوضُ فِى فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَةِ

ويقول: أفعال الله لا يُسأل عنها بِلِمَ (أى لا نتفكر فى العلة وإنما نتفكر فى الحكمة)، وصفات الله لا يُسأل عنها بكيف.

(٣) **توحيد الربوبية:** هو توحيد الله ﷻ بنسبة أفعاله إليه، من الخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك.

توحيد الألوهية: هو إفراد الله ﷻ بالعبادة من صلاة وصوم وحج وزكاة ونحو ذلك.

توحيد الأسماء والصفات: أن تصف الله ﷻ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، وأن تسميه بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ.

القرآن الكريم والعوامل النفسية للإلحاد

لما كان كتابنا هذا يتناول «العوامل النفسية» وراء تبنى الإلحاد، فقد تأملنا القضية فى القرآن الكريم، ووجدنا أن الله ﷻ يُرجع إلحاد الملاحدة إلى تلك العوامل. انظر إلى قول الحق جَلَّ وعلا: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ ... (٥٠)﴾ [القصص]، وأيضًا قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ... (٢٣)﴾ [الجاثية].

بعد هذا التعميم، يختص القرآن الكريم داء «الكِبْر» بالمسئولية الأكبر عن تبنى الإلحاد. تأمل هذه الآيات: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾ [غافر].

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾ [النمل].

ولا شك أننا قد التقينا بهذه العلة النفسية فى معظم حالات عتاولة الإلحاد الغربى التى درسناها فى الفصول السابقة، كما لقيناها فى الكثير من شباب الملاحدة الذين ناظرناهم فى بلادنا، كما سنرى فى هذا الفصل.

حروب الردة

شهدت الساحة العربية الإسلامية عقب وفاة المصطفى ﷺ حدثين أَطلق عليهما الدارسون اسم **«حروب الردة»**. الحدث الأول هو **«ادعاء النبوة»**، ومن هؤلاء المدعين مسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد الأسدى، والأسود العنسى، وسكاح، وغيرهم. وكان الغرض من هذه الادعاءات تحقيق الجاه والسلطان فى بيئة تتصارع قبائلها من أجل السيادة (عوامل نفسية شخصية ومجتمعية). أما الحدث الثانى فكان **«منع الزكاة»**، إذ رفضت بعض القبائل سداد

زكواتها إلى السلطة المركزية فى المدينة المنورة، فرأى الخليفة الصِّديق فى ذلك تهديدًا لوحدة الأمة الناشئة وكيانها. وإذا كان الحدث الأول يمثل ردة حقيقية وإلحادًا، فلا ينبغى تعميم تلك النظرة على الحدث الثانى.

وقد اجتاحت هذه الفتن جزيرة العرب حتى لم يبق على الدين القويم إلا أهل مكة والمدينة والقبائل المحيطة بهما. لذلك، جَرَّدَ الخليفة أبو بكر الصديق عشرة جيوش خاضت حروبًا طاحنة مع زعماء الفتنة وانتصرت فيها حتى استقرت الخلافة الإسلامية.

الزنادقة

بعد انتهاء حروب الردة، شُغل المسلمون بنشر الإسلام وتدعيم الدولة الناهضة والدفاع عن حدودها، كما شُغلوا بصراعات الفتنة الكبرى وتأسيس الدولة الأموية ثم العباسية ومحاربة المعارضين لهما. وقد مثلت هذه الظروف **مناخًا مناسبًا** لظهور العديد من المذاهب والفرق، كالخوارج والجبرية والقدرية والمُرجئة والمعتزلة...

نشأة الإلحاد فى الحضارة العربية الإسلامية

وصل الإسلام خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة إلى أكمل صورة قُدِّرَ للحضارة العربية بلوغها.**وتبعًا لسنن التطور الحضارى**، بدأ الانحدار عن تلك القمة فى العديد من المجالات خاصة المجال الدينى، فكان ذلك هو **العامل الرئيس** وراء ظهور الإلحاد (عوامل نفسية مجتمعية)، وقد دَعَمَه عددٌ من **العوامل المساعدة**.

كانت «**النزعة الشعوبية**» أهم العوامل المساعدة لظهور الإلحاد. ونعنى بها سعْى المغلوبين الذين قامت الحضارة الإسلامية على أنقاض حضاراتهم (**خاصة الفرس**) للانتقام، وقد أجج ذلك تعصُبهم لدينهم القديم، فى بيئة تعتبر الدين هو العامل الحاسم فى قيام القوميات والدول (عوامل نفسية شخصية ومجتمعية).

تأتى بعد ذلك «**النزعة المادية**»[1] التى تمجد العقل بحسبانه الحاكم الأول والأخير الذى

(١) يُشار دائمًا إلى النزعة العقلية المادية باسم (الحركة التنويرية أو حركة الاستنارة)، وقد أُستخدم هذا الاصطلاح فى فترات مختلفة أشهرها بداية العصر الحديث. ولا شك أن هذا الاصطلاح ينحاز لتلك المفاهيم المادية، لذلك عزفنا عن استعماله إذ لا نعتبر هذه النزعة تنويرًا!

لا راد لحكمه، وقد نشأت هذه النزعة فى العالم العربى الإسلامى نتيجة لانتشار **الثقافة اليونانية** فى تلك الأصقاع؛ سواء بشكل مباشر أو عن طريق بلاط كسرى أنوشروان (عوامل نفسية شخصية ومجتمعية).

وتُعتبر «**النزعة الحسية**» العامل الثالث المساعد على ظهور الإلحاد، فقد ضاق هؤلاء بضوابط الدين التى تحد من انطلاقهم لإشباع شهواتهم الجامحة (عوامل نفسية شخصية). ونرصد ذلك بوضوح فى سلوك الجماعة المعروفة بـ«**عصابة المُجّان**» على حد تعبير ماجنها الأكبر أبو نواس.

مَن هُم الزنادقة؟

«زنديق» لفظ فارسى مشتق من «زندكراى»، وهو الشخص الذى يتبع كتاب زند **لزراديشت**[1]. وقد أُطلق الاصطلاح على مَن ظل ـ بعد الإسلام ـ **يعتنق تعاليم مزدك**[2] **ومانى**[3] التى تدعو إلى عبادة إلهين أزليين للعالم (**النور والظلمة**)، وتحرم الذبح وأكل اللحوم، وتبيح كل ما يحقق اللذة من المحرمات؛ كشرب الخمر ووطء المحارم، كما تُرَوِّج لعقائد الهند التى تقول بتناسخ الأرواح والحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

ثم اتسع معنى لفظ زنديق حتى صار يُطلق على **كل صاحب بدعة وكل ملحد**، وكل من يحيا **حياة المجون** من الشعراء والكُتاب. وانتهى الأمر باللفظ إلى أن صار يُطلق على كل من **خالف مذهبه بوضوح مذهب أهل السُّنة.**

وقد نقم الزنادقة الشعوبيون على الحكم الإسلامى، فسعوا إلى **السيطرة على الحكم** من خلال **تَقَرُّب العناصر الفارسية** (كالبرامكة) من الخليفة العباسى، أو القيام بثورات عليه. كما سعوا إلى **إفساد عقيدة المسلمين** من خلال إقناع الشباب بمفاهيم مزدك الداعية للغرق فى اللذة. وتسجل كُتب التاريخ أن بعض من كانت لهم إسهامات كبيرة فى الحضارة العربية الإسلامية كجابر بن حيان ومحمد بن زكريا الرازى ظلوا على احترامهم للعقائد الفارسية[4].

(١) **زرادشت**: مؤسس الديانة الزرادشتية (المجوسية) منذ قرابة ٣٠٠٠ سنة فيما يعرف الآن بدولة إيران وما حولها، وتعتبر أقدم ديانات التوحيد.

(٢) **مزدك**: داعية فارسى أسس الديانة المزدكية التى تؤمن بإلهين (الخير والشر). وأقرت المزدكية المشاركة فى الأموال والنساء. وقد ألغى الملك كسرى أنوشروان هذه الديانة وأعاد الزرادشتية لفارس.

(٣) **مانى**: مؤسس الديانة المانوية فى القرن الثالث الميلادى، وهى مزيج من الزرادشتية والبوذية والمسيحية، وتؤمن بإلهى الخير والشر كالمزدكية، لكنها كانت تدعو إلى العفة الجنسية.

(٤) هناك اتجاه إلى وصم كل من تبنى الاتجاه العقلانى فى هذه المرحلة بالزندقة، والأمر يحتاج لدراسة متعمقة لتحرى صحة هذه النسبة، فالأرجح أن وراءها التيارات الدينية المعارضة للنزعة العقلية.

وبالنسبة **للنظرة الدينية**، يحتل الزنادقة طيفًا يمتد من الحياة الماجنة والتمرد على العبادات إلى الإلحاد بالمعنى الكامل وهو إنكار الألوهية[١]، ومن هؤلاء ابن الراوندى الذى يُعتبر أشهر الشخصيات الملحدة من الزنادقة.

ابن الراوندى

يعرفنا الدكتور يوسف زيدان[٢] بابن الراوندى قائلًا:

«من أعجب الشخصيات فى التاريخ العربى الإسلامى، بل فى التاريخ الإنسانى كله، شخصية ابن الراوندى الملحد (أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق، المتوفى فى حدود سنة ٣٠١ هجرية)[٣]، فقد عاش الرجل حياة غريبة، تنَقَّل فيها بين الديانات والمذاهب على نحو عجيب.

كان ابن الراوندى فى أول الأمر **يهوديًّا**، وسرعان ما **أعلن إسلامه** ليدخل فى نطاق عزة الإسلام، ويستظل بظل الدولة العباسية التى كانت ـ آنذاك ـ فى أوج مجدها.. ووجد ابن الراوندى أن فرقة المعتزلة هى أكثر الفرق الإسلامية اقترابًا من الخلفاء العباسيين، **فصار معتزليًّا!** وألف مجموعة من الكتب على هذا المذهب.. لكن المعتزلة لم يفسحوا له مكانًا لائقًا بينهم، ولم يعطوه ما كان يطمح إليه، **فانقلب عليهم وهاجمهم** فى كتاب مشهور له، عنوانه: فضيحة المعتزلة (نَقَضَ فيه كتاب الجاحظ: فضيلة المعتزلة!).

وقام المعتزلة بالهجوم على ابن الراوندى وأوغروا صدر الخليفة ضده، فهرب والتجأ لأعداء الدولة من **الشيعة الباطنية**، وألف لهم كتابًا ضد مذهب أهل السُّنة، نظير مبلغ ٣٣ دينارًا! وكان عنوان الكتاب: **فى الإمامة**.. وبعد فترة، شَعر ابن الراوندى أن الشيعة لن يحموه من السُّنة، وأنه من الممكن **أن يتقرب للسنة** مرة أخرى، فكتب كتابه: فى التوحيد.

---

(١) من أبيات الشاعر بشار بن برد الإلحادية:

إبليسُ أفضلُ من أبيكــم آدم	فتبينوا يـا معشـر الفجــارِ
النارُ عنصـره وآدم طيـنـــةٌ	والطين لا يـسمو سمو النارِ

إنه يتبنى نفس منطق إبليس الذى تسبب فى طرده من رحمة الله ﷻ.

(٢) الدكتور يوسف زيدان، أستاذ الفلسفة ومدير مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية (سابقًا). والتعريف بابن الراوندى عن مقال له بعنوان «أحفاد ابن الراوندى»، نشر بمجلة أكتوبر فى ٢٧/ ٣/ ١٩٩٤.

(٣) قيل إنه مات فى الأربعين من العمر، وقيل فى الثمانين.

ثم اكتشف ابن الراوندى أنه لم يحقق مأربه عند أهل السنة فخاصمهم، وفى نفس الوقت انقلب عليه الشيعة، فخرج عن نطاق الإسلام بما فيه من سُنة وشيعة، **ولجأ إلى اليهود**. ومرة أخرى يستخدم ابن الراوندى فكره وقلمه لتحقيق أغراضه الدنيوية التافهة، فيؤلف لليهود كتاب (البصيرة) ينتصر فيه لليهودية ويرد على الإسلام، نظير مبلغ ٤٠٠ درهم تقاضاها من اليهود.. ثم أراد بعد فترة أن ينقض الكتاب ويرد على ما ذكره فيه من آراء ضد المسلمين والإسلام، فأعطاه اليهود ١٠٠ درهم أخرى، فعدل عن الرد على الكتاب!.

وفى نهاية الأمر، يقف ابن الراوندى **ضد كل الديانات وجميع الأنبياء**، فيضع كتاب «**الفِرِنْد**» (بمعنى: لا مثيل له) ليطعن فيه على الأنبياء والنبوة، ثم يضع كتابه المشهور «**الزمردة**» ويطعن فيه الرسالات السماوية كلها، ويشكك فى الألوهية ذاتها..

هكذا عاش ابن الراوندى حياته متنقلًا بين المذاهب والديانات، وقضى أيامه (الدرامية) البائسة ساعيًّا وراء المجد الدنيوى(**عوامل نفسية شخصية**)، وهو المجد الذى ما ناله ابن الراوندى قط، وإنما نال لقب: **الملحد الأكبر فى تاريخ الإسلام**».

أما أفكار ابن الراوندى الإلحادية فتمثل نموذجًا لما كان عليه الزنادقة الملحدين؛ وهذه الأفكار هى:

١ - **القرآن الكريم** ليس نصًا فريدًا، ويمكن كتابة ما هو أفضل منه. ويرجع عدم اهتمام العرب بمحاكاة القرآن إلى انشغالهم بالقتال والفتن.

٢- ليس هناك مبرر **لإرسال الرسل**؛ فما يأتى به الرسول إما أن يكون معقولًا أو لا يكون معقولًا، فإن كان معقولًا فالعقل قادر على إدراكه دون الحاجة إلى رسول، وإن كان غير معقول فلا يكون مقبولًا.

٣- ليس لله حاجة **لإرسال الرسل**، فالله قادر على أن يرتقى بالإنسان؛ بحيث يتوصل بعقله إلى رشده وصلاحه.

٤- تحيط **بتصورات الإنسان عن الخالق** الأوهامُ والأساطير؛ لأن فكر الإنسان يعجز عن إدراك الخالق أو معرفة أوصافه.

٥- **الحج ومناسكه** طقوس هندوسية وعادات وثنية كانت تمارَس فى الجاهلية، ولا يختلف الطواف حول الكعبة عن الطواف بغيره من البيوت.

٦- إن **غزوات الرسول ﷺ** عمليات سلب ونهب.

٧ - كان الملائكة الذين أنزلهم الله يوم معركة بدر «مغلولى الشوكة وقليلى البطش» إذ لم يقتلوا سوى سبعين رجلًا. ولِمَ لم يُنزل الله ملائكته يوم أُحد عندما توارى النبى ﷺ بين القتلى فَزِعًا!!

٨ - يتهكم ابن الراوندى على وصف الجنة فى القرآن الكريم قائلًا: إن فيها حليب لا يشتهيه إلا جائع، وفيها زنجبيل ليس من لذيذ الأشربة، وبها استبرق وهو الغليظ من الحرير[(١)].

هذا هو ابن الراوندى الملحد المُتَلِّون المنافق، الذى خصه المستشرقون بالأبحاث المستفيضة، مشيدين بحريته الفكرية وجهوده التنويرية[(٢)]!.

دروس من حركة الزنادقة

لا شك أن حركة الزنادقة تُعتبر مثالًا صارخًا للدوافع النفسية الشخصية والمجتمعية (ممتزجتين) لتبنى الإلحاد. فرغبة الفرس فى استعادة سيادتهم الحضارية والسياسية دفعت الكثيرين

---

(١) ينبغى هنا أن نفند أفكار ابن الراوندى (وأفكار الزنادقة)، حتى لا نكون كمن أثار زوبعة من تراب وتركها تؤذى أعين الناس:

١ - لا شك فى تعدد جوانب إعجاز القرآن الكريم، وقد تحدى الله ﷻ الكافرين أن يأتوا بعشر سور مثله، بل سورة واحدة، بل آية! ومازال التحدى قائمًا، وبالرغم من ادعاء ابن الراوندى بأن القرآن الكريم ليس متفردًا، فهو لم ينزل إلى ساحة التحدى!.

٢ - لا يستطيع العقل أن يصل إلى حقائق الوجود دون معونة من الرسالات السماوية، وقد أقر بذلك العديد من الفلاسفة حتى الملحدين منهم.

٣ - تشتمل كل الديانات التى يعتنقها البشر على طقوس متشابهة، منها الحج، فمصدر الديانات جميعًا هو الإله الخالق. ويعلم ابن الراوندى أن العرب كانوا يمارسون طقوس الحج نقلًا عن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام قبل البعثة المحمدية.

٤ - يعرف الدارس لغزوات الرسول أنها كانت إما دفعًا لعدوان، أو تأمينًا للديانة الجديدة. وما كان يؤخذ من غنائم إما كان استردادًا لأموال المهاجرين التى أُغتصبت منهم، أو تماشيًا مع أعراف العرب فى القتال.

٥ - كان الدرس المقصود من نزول الملائكة فى معركة بدر هو تعليم البشرية أن الله ﷻ يُعين من يَصْدُق التوكل عليه واللجوء إليه. أما الدرس المقصود من غزوة أُحد فكان أهمية الأخذ بأسباب النصر المادية وأهمها طاعة القائد، وهذا ما تجاهله ابن الراوندى. كذلك لم يشأ الله ﷻ أن تُفنى ملائكته مشركى بدر لعلمه أن معظم من نجا سيدخل الإسلام، وقد كان.

٦ - يعلم كل مهتم بعلوم القرآن أن أوصاف الجنة جاءت تشبيهًا بما هو معروف عند العرب ومحبَّب لديهم حتى يستطيعوا إدراكه، أما الحقيقة ففوق ذلك بكثير ومخالفة له تمامًا. ففى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(٢) يعلق د. يوسف زيدان على سيرة وفكر ابن الراوندى قائلًا: يبدو أن نسل ابن الراوندى لم ينقطع من بعده ـ مع أنه لم يترك أولادًا ـ ففى كل زمن نجد زمرة من هؤلاء الذين يتوسلون بالكلمة المكتوبة لتحقيق المآرب الدنيوية، بل إنهم قد طوروا منهجه الانتهازى المتلون، وجاءوا بما لم يعرفه الأوائل من حيل والتفافات.

منهم للتمرد على الإسلام جهرًا أو سرًا. ذلك بالإضافة إلى ما تتبناه أفكارهم من الترويج لإشباع الشهوات الحسية التى أججها انفتاح العرب على حضارتى الفرس والروم الماديتين.

وقبل أن نطوى صفحة الزنادقة، ينبغى أن **نستوعب أهم دروسها:**

فى بداية حركة الزنادقة، تصدى الخلفاء الأمويون والعباسيون لرجالها بالسجن والتعذيب والقتل، فما أثمر ذلك إلا المزيد من شيوع أفكارهم ومفاهيمهم. ثم نبه البعضُ الخليفة العباسى المهدى أن خير من يتصدى لهؤلاء هم المعتزلة (أصحاب المدرسة العقلية فى الفكر الإسلامى)، وكان الخلفاء قد ألقوا بهم فى السجون لعدم رضاهم عن أفكارهم. أفرج الخليفة عن المعتزلة، فساحوا فى الأقاليم يناظرون الزنادقة، ونجحوا فى أن يردوا معظمهم عن غيهم.

إن الدرس الذى ينبغى تعلمه من هذه الصفحة من التاريخ الإسلامى، أنه بالرغم من سيادة الدوافع النفسية للإلحاد فإن **الفكر لا يُقاوَم بالقهر، لكن ينبغى أن يُقَاوَم الفكرُ بالفكر،** وهذا ما نصبوا إليه عندما ندعو إلى **تجديد الفكر الدينى.**

الإلحاد المعاصر

كما أسهمت **النزعة العقلانية المادية** فى ظهور حركة الزنادقة فى العالم الإسلامى فى القرنين الثالث والرابع الهجرى، فقد أفرزت نفس النزعة توجهات لادينية فى مصر منذ مدخل القرن العشرين.

لقد مكنت **البعثات التى أرسلها محمد على وأبناؤه** من بعده المصريين من الاطلاع على ما كان يموج فى أوروبا ـ خاصة فرنسا ـ من **توجهات عقلانية مادية** ظهرت فيما عُرف بـ«**فلسفات التنوير**» كما ظهرت فى **الأدب العالمى** بصفة عامة. كذلك اطلع المصريون على **التوابع الفكرية المادية للنظرية الداروينية ولمفاهيم فرويد،** والتى لاقت قبولًا واسعًا فى الغرب فى هذه الفترة. كما غذى **الحلم الماركسى الملحد** المتمثل فى نجاح الثورة الروسية أوهام المدينة الفاضلة عند الكثير من الشباب. وقد أفرزت هذه العوامل مجتمعة عددًا من الأنماط الفكرية المعادية للدين.

ويقسم **المفكر الكويتى الكبير د. محمد العَوَضى**[1] تلك الأنماط المعادية للدين إلى خمس مجموعات، وهم **المتشككون والمؤدلَجون** (كالماركسيين) **والتغريبيون والعلمانيون،** وفى آخر الطيف **الملاحدة.** ويلفت د. العوضى نظرنا إلى أن الكثيرين من هؤلاء اعترتهم **صحوة فكرية**

(١) فى محاضرة بعنوان «عودة الوعى»، ألقاها فى المؤتمر الرابع لمؤسسة فور شباب العالمية بالقاهرة، يوم ٢١/ ٦/ ٢٠١٣.

أعادت إليهم الوعى بأهمية الانتماء الدينى والحضارى والتراثى. ومن أشهر هؤلاء الدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور زكى نجيب محمود والدكتور طه حسين والأستاذ محمد حسين هيكل والدكتور سليمان مظهر والشيخ على عبد الرازق والأستاذ خالد محمد خالد والدكتور مصطفى محمود والدكتور عبد الوهاب المسيرى وآخرين[1].

واستكمالًا لطرح الأبعاد النفسية للإلحاد، نعرض لفكر شخصيتين تمثلان نموذجين للإلحاد المعاصر، وهما د. **إسماعيل أدهم** الذى وُصف «بالمليحد» لموته قبيل بلوغه الثلاثين من عمره ولصغر كتيبه الذى اشتهر به «لماذا أنا ملحد»، **وعبد الله القصيمى** الذى يعتبره الملاحدة المعاصرين أبًا روحيًّا لهم.

المليحد د. إسماعيل أدهم

تركى الأصل، وُلد بالإسكندرية عام ١٩١١، حصل على الدكتوراه فى الرياضيات من جامعة موسكو بالاتحاد السوفيتى عام ١٩٣١، وعمل مدرسًا للرياضيات بجامعة سان بطرس برج ثم بجامعة أتاتورك فى تركيا، وعاد إلى مصر عام ١٩٣٦.

وفى عام ١٩٣٧ نشر المفكر الإسلامى أحمد زكى أبو شادى مقالًا بعنوان «**عقيدة الألوهية**»، فرد عليه صديقه إسماعيل أدهم بمقال ـ تحول فيما بعد إلى كتيب ـ بعنوان «**لماذا أنا ملحد**» يشرح فيه معاناته مع الشك وكيف انتهت به إلى تبنى الإلحاد. ويُعتبر أدهم من القلائل فى العالم العربى الذين كتبوا عن تجربتهم الإلحادية فى ذلك الوقت.

يقول إسماعيل أدهم عن **تأثير دراسته وحياته بالاتحاد السوفييتى**: «كانت نتيجة هذه الحياة أنى تنكرت للأديان وتخليت عن كل المعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمى (عوامل نفسية مجتمعية). ولشد ما كانت دهشتى وعجبى أنى **وجدت نفسى أسعد حالًا وأكثر اطمئنانًا** من حالى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقدى الدينى».

وإذا أردنا تتبع دوافع إسماعيل أدهم الإلحادية، وجدنا **للعوامل النفسية** الدور الأكبر. يبين أدهم فى كتيبه أن أباه كان متعجرفًا وذا بطش، كما كان زوج عمته الذى تابع تربيته يجبره وهو طفل على القيام بالطقوس الدينية وحفظ القرآن. أما والدته فكانت نصرانية، وتابَعَها أختاه فى

(١) وعَدَنَا د. محمد العَوَضى بأن يؤلف كتابًا عن تحول هؤلاء الأعلام العرب من الموقف المعادى للدين إلى الوعى بأهمية الانتماء الدينى والحضارى والتراثى.

دينها، وكان يصف الثلاثة بالتسامح والمحبة، وكن فى نفس الوقت يسخرن مما فى الكتاب المقدس من حديث عن المعجزات ويوم القيامة وكن لا يترددن على الكنيسة. ويخبرنا إسماعيل أدهم بأن **هذا التعصب الإسلامى والسخرية من النصرانية مَثَّلا** الخلفية النفسية (عوامل نفسية تربوية) التى مارس عليها **الانبهار بالعلم وبالفكر الماركسى** دوره فى أثناء حياته فى الاتحاد السوفييتى.

وبعد أقل من ثلاث سنوات، وفى إحدى ليالى شهر يوليو عام ١٩٤٠، عُثر على جثة إسماعيل أدهم طافية على مياه بحر الإسكندرية، وفى معطفه خطاب وجهه لرئيس النيابة يبين فيه أنه انتحر **لزهده فى الحياة وكراهية لها**، ويوصى بعدم دفن جثته فى مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها.

أين السعادة والاطمئنان اللذان كان يستشعرهما إسماعيل أدهم فى أثناء إلحاده؟!

ويمكن أن نلخص المفاهيم الإلحادية عند إسماعيل أدهم فى بضع نقاط:

- الإلحاد هو الإيمان بأن **الكون يتضمن سببه فى داخله**، وأن لا شىء وراء هذا العالم.
- لا يرجع إقبال الفكر الإنسانى على **مفهوم الألوهية** إلى ما فيه من عناصر القوة الإقناعية الفلسفية، لكنه يرجع إلى ما يسميه علماء النفس «**التبرير**». فقد شَقَّت فكرة الألوهية طريقها لعالم الفكر بسبب ما يعترى النفس البشرية من خوف وجهل بأسباب الظواهر الطبيعية. ولا شك أن معرفتنا لأصل فكرة الألوهية تُذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها.
- إذا كان لا بد من الأسباب بالنسبة للكون، **فلماذا يُستثنى سيادته (الله ﷻ) من مبدأ السببية** (أى لا بد أن يكون للخالق خالق!).
- يفسر أدهم وجود كل ما فى الكون **بالاحتمالية والصدفة**، ويستشهد على ذلك بمثال حروف المطبعة التى يمكن أن تتراص بالصدفة عقب حدوث انفجار بها، لتُخرِج لنا مقالًا أو تُخرج القرآن الكريم.
- **يهدى إسماعيل كتيبه** «إلى أحرار الفكر، إلى الذين حرروا الفكر من قيوده، وجاهدوا فى سبيل تحرير العقل الإنسانى من الأساطير الدينية والمزاعم الوطنية، والذين أخذوا بيد الجماعات الإنسانية إلى الحياة الصحيحة، أهدى هذا الكتيب، لعلهم يجدون فيه نظرة حرة بعيدة عن تعصب الدين وجموده».

سبحان الله...

أى **حياة صحيحة** يتحدث عنها هذا المليحد، ربما يقصد المجازر التى قام بها الشيوعيون فى الاتحاد السوفييتى الذى تعلم فيه وتأثر به. إنه نفس التعالى وادعاء التفرد بالنضج العقلى الذى

يمارسه الملاحدة الجدد فى القرن الحادى والعشرين (عوامل نفسية شخصية). كذلك هى نفس المبررات الإلحادية التى يعلنونها والتى تتسربل بالعلم[1].

نكبة عبد الله القصيمى[2]:

عبد الله القصيمى (١٩٠٧ - ١٩٩٦) مفكر سعودى، من أكثر المفكرين العرب إثارة للجدل، **بسبب انقلابه من موقع النصير والمدافع عن الإسلام والسلفية إلى الإلحاد.**

لماذا؟...

قُدِّمَت لتحول القصيمى من النقيض إلى النقيض وانتقاله إلى معكسر الإلحاد المعاكس عدة تفسيرات، تدور جميعها حول بنيته النفسية. **لقد كان القصيمى شكاكًا بطبعه**، حتى كانت تعتريه فى أثناء دفاعه عن الإسلام الشكوك حول الله ﷻ وحول الرسول ﷺ.

كذلك كان الرجل **ذا مزاج مندفع متطرف**، فهو دائمًا متمرد ثائر بشكل عنيف، يشتم هذا ويلعن هذا ويسخر من هذا ويحطم هذا ويمرغ بهذا. فى البداية كان ذلك ضد أعداء الدين، ثم صار ضد مناصرى الدين.

ويعتبر من يعرفون القصيمى أنه كان **من مدمنى ركوب الموجات الفكرية الرائجة**. فحينما كانت الفرصة متاحة للموجة السلفية ركبها وانتفع بها حتى استنفد أغراضه منها. فلما برزت موجات القومية واليسارية والشيوعية وغيرها ركبها واستغل منابرها الصحفية وتحمس لفلسفاتها الإلحادية.

وأخيرًا كان الرجل **متكبرًا مغرورًا بنفسه** (عوامل نفسية شخصية)، حتى إنه مدح نفسه شعرًا قائلًا:

ولو أن ما عندى من العلمِ والفضلِ ... يُقَسَّمُ فى الآفاق أغنى عن الرُسْلِ

يَكشف هذا البيت وحده خبيئة الرجل ويفضح دوافعه الإلحادية.

(١) ينبغى الإشارة إلى مناخ **حرية الرأى وحرية العقيدة** الذى كان سائدًا فى مصر فى ثلاثينيات القرن العشرين، والذى فاق أجواء الحرية فى بلادنا العربية فى القرن الحادى والعشرين. لقد أثار مقال عقيدة الألوهية للأستاذ أحمد زكى أبو شادى المناظرة، فرد عليه صديقه إسماعيل أدهم بكتيب «لماذا أنا ملحد»، فأجابه أبو شادى بمقال «لماذا أنا مؤمن»، كما نشر الأستاذ محمد فريد وجدى فى مجلة الأزهر مقالًا بعنوان «لماذا هو ملحد». لقد تميزت المناظرة بموضوعيتها وبأدب الاختلاف والحوار. قارن ذلك بفوضى تصارع الآراء التى سادت بعد ما عُرف بثورات الربيع العربى.

(٢) تلخيص بتصرف عن مقال فى موقع صيد الفؤاد، للكاتب المُكَنى بـ«صخرة الخلاص».

لم يَكْفِ القصيمى ما وصل إليه من شأن فى مجال الدفاع عن الإسلام، إذ شاركه فى هذا المضمار كثيرون، فقرر أن **يتفرد فى مجال تميزه**. ويتضح ذلك من نظرة واحدة إلى الغلاف الخارجى لكتابه (هذه هى الأغلال)، إذ كتب عليه: (سيقول مؤرخو الفكر إن بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل).

يبدو أن **مصيبة «الكِبْر»** التى أودت بإبليس قد أودت بالرجل.

وعندما سُئل القصيمى عن سبب تحوله، أجاب بأنه عندما بدأ يراجع نفسه وعقيدته بميزان العقل، **وجد من المشايخ ورجال الدين كل هجوم وتعنيف وازدراء**، بدلًا من التفهم والنصح والتوجيه، فدفعه هذا الموقف إلى **العناد** (عوامل نفسية شخصية). سبحان الله... ما أحكم المصريين حين قالوا فى أمثالهم الشعبية **«العند يُوْرِثُ الكفر»**، وقد كان**!**

أى تلك الأسباب يكمن وراء نكبة القصيمى؟ علها جميعها.

قاذورات القصيمى الإلحادية

بعد انحرافه عن جادة الإيمان، كتب القصيمى حوالى عشرة كتب، لا تخرج عن:

- التعدى على **الذات الإلهية** وسبها بكل فظاظة ووقاحة.
- **سب الرسل والأنبياء** ووصفهم بأحقر الألفاظ والسخرية منهم.
- السخرية من **الشرائع والديانات** جميعًا، وانتقادها بأسلوب جارح هدام معيب.
- الحط من **العرب** والتحقير والاستهزاء بكل ما هو عربى.
- الاستخفاف **بالقضايا العربية والإسلامية**.
- التغنى **بآلام الإنسان وتعاسته وأحزانه وهمومه** بشكل غريب وفظ.

ليس هناك مفر من أن نستشهد على أفكاره وأسلوبه السابق ببعض كتاباته، ولا شك أن الأسلوب الوقح الفظ لهذه الكتابات يؤكد أن **إلحاد القصيمى مشكلة نفسية لا علاقة لها** بالأسباب الموضوعية:

يقول فى كتاب **«هذا الكون ما ضميره»**، تحت عنوان فى **«غار حراء لم أجد الإله ولا الملاك»**:

«ذهبت إلى الغار... غار حراء.. غار محمد وإلهه وملاكه... الغار العابس اليابس البائس اليائس... ذهبت إليه استجابة للأوامر... ذهبت إلى الغار الذى وَلَّدَ وَوَرَّث وعَلَّم ولَقَّن وأَلَفَّ وحَرَّض وخَلَّدَ أقسى وأقوى وأغبى وأجهل وأدوم إلهيات ونبوات وديانات ووقاحات ووحشيات! لقد مات هذا الغار ... لقد مات بأسلوب الانتحار لأنه أوحى إلى الإنسان العربى... إلى النبى العربى ما أوحى...

ماذا أوحى إليه؟ لا تستطيع كل الحسابات والإحصاءات أن تحسب أو تحصى الخسران الذى أصاب الحياة والإنسان من هذا الوحى والإيحاء... هل أساء أى إله إلى نفسه مثل إساءته إليها بإيحائه ومخاطبته ومحاورته للإنسان العربى؟!

اسمع يا إلهى... اسمع بآذان غير آذانك التى جربناها وعرفناها... لو كان من صَنَعَ لك يا إلهى أذنيك أعظم فنان... فإنه قد جعلهما بلا وظيفة... بل ضد الوظيفة المفروضة فيهما.

لقد جئت يا إلهى فى حجم ترفض كل الأحجام أن تكونه أو تكون شيئًا منه... إنك يا إلهى بلا أى حجم...

كم هو فظيع أنه لم توجد منظمات ومحاكم عالمية بل كونية يتألف قضاتها وشهودها من كل الشموس والنجوم... كى تحاكم توراة الإنسان وإنجيله وقرآنه على قسوته وفحشه ووقاحته وبلادته!».

ويقول تحت عنوان: **لماذا يسارع المتخلفون إلى الدخول فى الإسلام:**

«أعلن النبى محمد أنه آخر الأنبياء وأنه بمجيئه قد أغلقت أبواب السماء، لئلا تتصل بالأرض أو تتحدث إليها بالأسلوب الذى تحدثت به إلى الأنبياء... ذلك بعد أن قرأ ورأى وعرف ضخامة وفظاعة عدوان السماء على الأرض وتشويهها لها بإرسال من تسميهم الأنبياء إليها... بعد أن عرف قبح عدوان الأنبياء على الأرض لمعرفته بقبح عدوانه هو عليها.

لو كان الإله يعاقب الوثن على قدر كونه وثنًا لما وُجد أو عُرف عقابًا يكفى لمعاقبة النبى العربى ولمعاقبة النبوة العربية!

كيف وَصْف النبى العربى محمد للإله؟ لمكره وخداعه وكبره، ولحبه وبغضه ورضاه وغضبه، ولسروره وكآبته وعداوته وشهواته وممارساته... إنه لم يوجد ولن يوجد هاجٍ مثل النبى محمد فى هجوه للإله!

إن القرآن هو أشهر وأضخم وأقسى وأفدح وأفضح كتاب امتداح وهجاء وافتخار وادعاء... لقد كان وسوف يظل بلا منافس فى فضحه وافتضاحه... القرآن أقبح وأفظع وأوقح وأنذل الأساليب والصيغ».

يكفينا ما نقلنا ... ونعتذر عما نقلنا

لستَ فى حاجة لتعليق أو تحليل أو تفنيد

لعل ما نقلنا **يفضح ما يعتمل فى نفس الرجل من كراهية وحقد وغِيرة من الكمالات... لعله** يثبت ما وصفنا من خلل نفسى... كنتُ ملحدًا أو غير ملحد، لماذا يجرنى ذلك إلى الانتقاص مما يؤمن به الآخرون ويقدسونه!!

القصيمى فى الميزان

نختم بتعليق المفكر والأديب والشاعر **ميخائيل نعيمة** على كتاب القصيمى (العَالم ليس عقلًا)، يقول مخاطبًا المؤلف:

«إنه كتاب هدم ونفى من الطراز الأول. هدم الآلهة والأخلاق والفضائل والثورات والمثل العليا والغايات الشريفة، لا عجب فأنت فى أول فصل تنفى أن يكون لوجود الإنسان أى معنى، والذى لا يعرف لوجود الإنسان ولعبقريته أى معنى كيف يكون لكلامه أى معنى؟

إن قلمك ليقطر ألمًا ومرارة واشمئزازًا وحقدًا، ولو كان لمثل حقدك أن يصنع قنبلة لكانت أشد هولًا من قنبلة هيروشيما».

يشاركنا ميخائيل نعيمة تشخيص علة القصيمى ودائه. إن **إلحاد القصيمى مشكلة نفسية** لم يستطع قناع الموضوعية إخفاءها فطفح ما بداخله من عفن وحقارة وصار مدادًا لقلم فاق ما كتبه قنبلة هيروشيما هولًا.

مات القصيمى طريح الفراش فى أحد مستشفيات القاهرة. يدعى البعض أنه تاب إلى ربه قبل أن يموت. تاب أم لم يتب، إنه الآن بين يدى ربه...

الإلحاد فى بيوتنا

يتردد فى الإعلام العربى (والمصرى بصفة خاصة) أن **مدًا إلحاديًا ظهر بين الشباب العربى فى الفترة الأخيرة**، فما نصيب هذه الأقوال من الحقيقة؟

ليس لدينا **دراسات إحصائية دقيقة** للإجابة عن هذا التساؤل[1]، لكن **انطباعى الشخصى** يؤكد وجود هذا المد. ففى العامين الماضيين حاورت عشرات الشباب الملحدين والمتشككين، كما علمت بيقين وجود مجموعات إلحادية فى الجامعات والمدارس (حتى الإسلامية والمسيحية منها)،

(١) أجرى **معهد جالوب الأمريكى** دراسة فى أعوام (٢٠٠٦ - ٢٠٠٨) شملت ١٤٣ دولة واشتملت على ١٠٠٠ شخص من كل دولة. وذكرت الدراسة أن **المصريين أكثر شعوب العالم تدينًا** بنسبة ١٠٠٪، وأستونيا أقلهم بنسبة ١٤٪، وتلى مصر بنجلاديش ثم المغرب وجيبوتى والإمارات العربية المتحدة.
كذلك نشرت **صحيفة الواشنطن بوست** فى ١٥/ ٦/ ٢٠١٣ نتائج دراسة أجراها **معهد جالوب الدولى Win Gallup** (وهو غير معهد جالوب الشهير) عام ٢٠١٢ على خمسين ألفًا من الأشخاص فى ٥٤ دولة حول موقفهم العقائدى. أظهرت الدراسة أن ٥٩٪ من العينة متدينون، ٢٣٪ غير متدينين، ١٣٪ ملحدون. وكانت أعلى نسبة للإلحاد فى الصين، بينما ارتفعت النسبة بين عامى ٢٠٠٥ و ٢٠١٢ فى باكستان من ١٪ إلى ٢٪، وهبطت فى ماليزيا من ٤٪ إلى صفر، وبذلك تصبحان أقل الدول إلحادًا.
والمدهش أن الدراسة ذكرت أن نسبة الإلحاد بلغت ٦٪ فى السعودية، وبذلك تصبح فى مقدمة دول العالم الإسلامى!! كما تضاهِى نظيراتها فى البلدان الأوروبية العلمانية مثل بلجيكا!!.
ولا شك أن **هاتين الدراستين تنقصهما الدقة العلمية إلى حد كبير**، فالاكتفاء بعينات من ألف شخص من كل دولة ـ لا ندرى كيف تم اختيارهم من مختلف الأوساط العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية ـ لقياس ظاهرة التدين شديد الشيوع يُفقد أية دراسة موضوعيتها **ويسمها بالانتقائية وعدم الحيادية وربما سوء القصد.**

حيث يوزع البعض أوراقًا على الطلبة تحمل هذه الأفكار، وأيضًا فى النوادى ومختلف التجمعات الشبابية. هذا بالإضافة إلى استحداث عشرات **المواقع الإلحادية العربية** على الإنترنت، بل وإصدار **مجلات ومطبوعات إلحادية تشكيكية فاخرة الإخراج** تُوزع فى مختلف الدول العربية. وقد سجل أحد أكبر المواقع العربية الإلحادية أن الأسبوعين الأخيرين من شهر ديسمبر ٢٠١٢ شهدا انضمام ٣٥٠ شابًا مصريًّا ملحدًا جديدًا إلى الموقع، وكان نصف هذا العدد من الفئة العمرية ١٥ - ٢٥ سنة.

خلفيات الموجة الإلحادية

لا يمكن للمهتم بظهور الموجة الإلحادية فى بلادنا أن يفصل بينها وبين مَدْ **الإلحاد الجديد فى الغرب**. ذلك المد الذى ظهر بوضوح فى الفترة من (٢٠٠٤ - ٢٠٠٧) على هيئة عدة كتب إلحادية أصولية تعادى الإله والأديان بشراسة، وفى الوقت نفسه تفتقد لأدنى الحجج موضوعية، ذلك بالإضافة إلى المؤتمرات والندوات والمناظرات التى شغلت الإعلام الغربى لفترات طويلة. أقول إن العلاقة بين موجة بلادنا ومد الغرب أوضح من أن تخطأها عين، فقد حدثنا بتتابع قريب، كما اتخذ الملاحدة من شبابنا من رموز المد الإلحادى الغربى مثلًا أعلى لهم.

ولا شك أن **شبكة المعلومات (الإنترنت)** قد يسرت اطلاع الشباب على ما يموج به العالم من أفكار إلحادية، كما سمحت **شبكات التواصل الاجتماعى** المختلفة بتبادل هذه الأفكار بينهم.

وقد تزايد هذا المد الإلحادى بعد ما **عُرف بثورات الربيع العربى** (عوامل نفسية مجتمعية)، ويرجع ذلك إلى نجاح الشباب فى تحديهم لرموز السلطة فى هذه البلاد، وهو ما شجع بعضهم على تحدى الرمز الأكبر متمثلًا فى منظومة الألوهية والدين، كما سمح جو الحرية الذى أتاحته هذه الأحداث بالبوح بتلك الأفكار. ولا شك أن **فشل تجربة الإسلام السياسى** (خاصة فى مصر) سيؤدى إلى انعكاسات سلبية فى هذا المجال.

فى الجانب الآخر، **عجز الخطاب الدينى التقليدى عن مجاراة ما تموج به الأوساط الإلحادية من أفكار وحجج علمية وفلسفية**، بسبب اكتفائه بالطرح التراثى وانقطاعه عن المستجدات العلمية والحضارية. وتشير دراسات عديدة إلى أن **الفكر الدينى القاصر** من أهم أسباب المد الإلحادى المعاصر فى بلادنا العربية.

تضعنا هذه الخلفيات أمام **مسارين لا ثالث لهما**. الأول هو «**المسار الغربى الكنسى**» الذى تصادم فيه رجال الدين مع العلم والعقل، فأفرز حضارة مادية ملحدة عاتية، هى الأولى فى تاريخ الإنسانية. والمسار الثانى هو «**المسار الشرقى**» الذى تبنته الخلافة العباسية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، حين نشطت الفلسفات المناوئة للإسلام وللألوهية، فكان الحل هو استدعاء خطاب دينى جديد للتصدى لهؤلاء المناوئين متمثلًا فى فكر المعتزلة العقلانى، وعلينا أن نختار.

الإلحاد السفسطائى وأنماطه

تدور **الحجج المعلنة للإلحاد فى الفكر الغربى** حول القضايا العلمية الخاصة بخلق الكون وظهور الحياة ونظرية التطور الداروينى والأبحاث الحديثة فى شتى المجالات العلمية، وهو ما يُسَوِّغ تسميته بـ«**الإلحاد المادى الطبيعى**». أما **الفكر الإلحادى بين شبابنا** فدور هذه القضايا العلمية فيه قليل، **بينما للخلفية النفسية** فيه الدور الأكبر، كما أن **للانطباعات العامة** فيه دورًا كبيرًا أيضًا.

وتقف وراء الإلحاد الذى ظهر بين شبابنا «**مفاهيم ونماذج معرفية**[1] **مختلة** Paradigm Errors» تختلف من مجموعة لأخرى، يمكن أن نطلق عليها جميعًا اسم «**الإلحاد السفسطائى**». وسأعرض فيما تبقى من الفصل أنماط وأسباب الإلحاد السفسطائى بين الشباب فى بلادنا، وذلك من خلال ما لمسته بتجربتى الشخصية، سواء فى محاوراتى ومناظراتى معهم أو متابعتى لمواقعهم وكتاباتهم. وقد **أطلقتُ على كل نمط إلحادى وخلل فى النموذج المعرفى اسمًا يُعَبِّر** عن سماته ويميزه عما سواه. ونظرًا لتركيز الكتاب على العوامل النفسية وراء تبنى الإلحاد، سنكتفى هنا بالاختصار عند عرض الأنماط الإلحادية بين شبابنا وتفنيدها.

ويلاحظ المتأمل لهذه الأنماط أنها تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين؛

المجموعة الأولى، وتشمل الأسباب الحقيقية وراء إلحاد الملحدين، وهى الأسباب النفسية العميقة، التى تتخفى وراء أسباب موضوعية يعلنها شبابنا.

المجموعة الثانية، وتشمل الحجج العلمية والفلسفية المُعلنة، ويختلف مدى صدق مواقف الشباب الملاحدة من هذه المفاهيم، وإن كان نصيب معظمهم من خلفيات وتفاصيل ما كُتب فى تفنيد هذه الحجج ضئيلًا للغاية.

(١) النموذج المعرفى هو العدسات التى يرى الإنسان من خلالها الحياة، ويمكن تسميتها بـ«المفاهيم الحاكمة». وقد ناقشنا موضوع النموذج المعرفى للإلحاد فى الفصل الثامن.

أولًا: الأنماط النفسية للإلحاد:

١ الإلحاد الصبيانى

اعتدنا فى صبانا أن نتحاور مع أقراننا، وكان كلٌّ منا يحرص على استعراض قراءاته وإظهار ثقافته، وكنت كثيرًا ما أطرح على محاوريَّ سؤالًا: **إذا كان الله قد خلق الكون، فمن خلق الله؟**(١)

إن الصبى فى هذه المرحلة فَرِحٌ بتساؤلاته وبتميزه عن أقرانه الصامتين (عوامل نفسية شخصية). ومع النضوج الفكرى، تنبهت إلى أننى بتساؤلى هذا قد جعلت الخالق مخلوقًا بعد أن تفتح عقلى على عالم المعرفة والتساؤلات.

وبالرغم من أن هذا التساؤل الصبيانى (الطبيعى فى هذه السن) قد **قُتل بحثًا**، وحُسم على أيدى علماء الكلام المسلمين منذ ألف سنة، وأيضًا على أيدى رجال اللاهوت فى المسيحية، وكذلك فى طرح العديد من الفلاسفة المعاصرين، فإن الملاحدة فى بلادنا وعبر العالم **يعتبرونه الحجة المحورية** فى إلحادهم، حتى إن **ريتشارد دوكنز يُقيم كتابه «وهم الإله» على هذا التساؤل!**.

وملخص تفنيد هذه الحجة الإلحادية، أن كل موجود حادث لا بد له من موجد (سبب)، وإذا تسلسلنا فى الأسباب لأعلى فسنصل حتمًا **لسبب أول وراء كل الحادثات ينبغى ألا يكون له موجد**، ويطلق علماء المنطق على استحالة التسلسل إلى ما لا نهاية اصطلاح «**التسلسل يمتنع**»، ومن ثم يصبح السؤال عن سبب السبب الأول الذى لا سبب له **سؤالًا غبيًّا!**.

وإذا كنا **لا نستطيع «تصور»** موجود لا موجد له، فإن هذا «**الدليل العقلى المنطقى**» (التسلسل يمتنع) وكذلك «**الدليل العلمى**» المتمثل فى احتياج الكون والحياة والإنسان إلى مصمم ذكى «**يحتمان**» **الإقرار العقلى** بالإله كموجد أول.

إذًا فقضية الإله الأزلى تُتَعقل وإن كانت لا تُتَصور. وقد استقر هذا المفهوم فى يقينى بعد أن قدم لنا العلم المعاصر مفاهيم لا يمكن تصورها ولكن ينبغى تَعَقُّلها إذ يثبتها البرهان الرياضى، مثال ذلك ما تخبرنا به **نظرية الكوانتم** من أن الجسيم تحت الذرى يمكن أن يوجد فى أكثر من موضع فى وقت واحد!.

(١) يبدأ د. مصطفى محمود (رحمه الله) كتابه «رحلتى من الشك إلى الإيمان» بموقف مشابه كان يمارسه فى صباه... لا شك أن الميول الصبيانية تتشابه.

٢ إلحاد المراهقين

تُعتبر **فترة المراهقة** من أحرج الفترات فى حياة الإنسان. ففيها يبدأ المراهق فى **الشعور بذاته والثقة بنفسه وعقله، فيعتبر آراءه وأحكامه العقلية هى المرجعية التى يقرر فى ضوئها صواب وخطأ الآخرين، بل ويجعل من نفسه ندًا للكبار فيتمرد عليهم ويرفض ما لا يروق له من آرائهم وأفكارهم، كما تسيطر عليه الرغبة فى الظهور (عوامل نفسية شخصية)**. وقد أفرزت هذه الصفات (سواء تَخَلَّقَ بها المراهقون أو الكبار) عددًا من الأنماط الإلحادية، فاستحقت أن نطلق على كل منها اسمًا:

أ ـ إلحاد الندية والكِبر:

ينظر المراهق (سواء كان فى سن المراهقة أو كان كبيرًا مثل دوكنز) إلى **الإله باعتباره رجلًا ذا قدرات خارقة (سوبر مان)**، فيحكم على أفعال الإله بمقارنتها بأفعاله هو.

فى المناظرة التى دارت بينى وبين قطب إلحادى، والتى أذاعتها إحدى الفضائيات، قال الملحد: فى يوم من الأيام قتلتُ باعوضة وتحديت الإله ـ إذا كان موجودًا ـ أن يقبل التحدى وأن يحييها!. يُعتبر **التحدى لإحياء الموتى** أحد أشكال الندية والكبر، وقد طرحه ملاحدة الأمم الغابرة على أنبيائهم، وكنت أظن أنه قد انقضى بانقضائهم، فإذا بالملاحدة المعاصرين يمارسونه بغباء. كيف يصير الأمر لو استجاب الله ﷻ لكل تحدٍّ يطرحه ملحد؟ لا شك أن الحياة ستصير مهزلة، ويصبح الملحدون هم الآلهة.

ومن أمثلة الندية الخرقاء شكوى البعض من أن ليس هناك «**عَقْد**» بيننا وبين الإله يضمن أنه سيوفى بوعده لنا بالجنة إن أطعناه!.

ويؤدى الشعور بالندية إلى **فرض تصوراتنا على الإله**، من أمثلة ذلك تساؤل البعض: **ما الذى يستفيده الإله من عبادتنا له طوال عمرنا؟** لهؤلاء قلت: إن قواعد المنظومة (أو اللعبة كما يقولون) يضعها الإله الخالق، **وليس للعبد المخلوق إلا الطاعة والالتزام**. فأنت إذا شاركت فى لعبة كرة القدم مثلًا عليك الالتزام بقوانينها، ولا تستطيع أن تطبق فيها قواعد لعبة كرة اليد[١]! وفى كل الأحوال **فإن طاعاتنا لا تزيد فى مُلك الله ﷻ ولا تنقص منه معصيتنا شيئًا، والعبد هو المستفيد الأول والأخير**.

(١) هذا المثال للفيلسوف الألمانى لودفنشتين الذى وضع الفلسفة الوضعية المنطقية (فلسفة الإلحاد) ثم تبرأ منها وفندها بنظرية اللغة والألعاب، التى استشهد فيها بهذا المثال.

ب ـ إلحاد التمرد:

فى مناظرتى التى بُثَّت فضائيًا، أراد الملحد إظهار إعلائه لقيمة الحرية، فقال: **إنى مستعد أن أدخل النار حرًّا ولا أدخل الجنة عبدًا للإله**[1]! إن تمرد هذا الملحد ليس بسبب اعتزازه بالحرية ورفض العبودية، فقد خاطب رفيقته من خلال موقعه على شبكة المعلومات قائلًا لها **«معبودتى»**! إنه تمرد على العبودية للإله بالتحديد.

إن جوهر المشكلة الذى يولد إلحاد الندية والكبر وكذلك التمرد، هو **الإصرار على قياس علم وحكمة وأفعال الإله المطلق الأزلى الأبدى الذى لا يحده الزمان ولا المكان ولا منظومة الأسباب على علم وحكمة وأفعال الإنسان المحدود المحكوم بالأسباب.** إن الإله **ليس كمثله شىء،** إنه مختلف تمامًا عن البشر، ومن هذه الاختلافات أنه لا يفعل لغاية أو احتياج مثلما يفعل الإنسان.

لقد سقط **إبليس اللعين** فى هذه الخطيئة المعرفية، فتمرد على الإله، وجعل من نفسه ندًا له وَحَكَمًا على أوامره ﷻ ورفض السجود لآدم عليه السلام بدعوى مخالفة أوامر الله ﷻ لمنطقه الإبليسى؛ فإبليس من نار وآدم من طين!.

جـ ـ إلحاد خالِف تُعرَف:

أخبرنى الأب أن ابنه فشل فى تحقيق ما حققه أخوته من تفوق فى مجال الدراسة، وأخيرًا مال إلى الحديث مع الآخرين فى قضايا الألوهية، ثم تبنى الإلحاد بشكل كامل. وعندما حاورت الفتى لمست **فخره** بأن ذلك جعله حديث المدرسة، طلابها ومدرسيها، وجعله يجالس ويحاور عددًا من العلماء والمفكرين بعد وساطة والده على أمل أن يردوه عن إلحاده.

إن مخالفة أعراف المجتمع ومفاهيمه وقيمه المستقرة هى أيسر الطرق لتحقيق **ذيوع الصيت والشهرة** بين الأقران وأمام الآخرين[2].

د ـ إلحاد الاستغناء:

شكى لى الوالدان أن ابنهما قد تبنى الإلحاد ويدعوهما إليه، وأنه يرفض أن يتحاور مع أحد؛ **لأنه «مبسوط كده».** أرسلت إلى الفتى مع والديه؛ أدعوه لمحاورتى، فإن أقنعنى برأيه سأدعم

(١) استعار هذا الطرح من مقولة جاءت على لسان إبليس فى قصة الفردوس المفقود تأليف جون ملتون.

(٢) يجسد هذا المعنى موقف الدكاترة زكى مبارك. فقد هاجم الإمام الغزالى فى رسالته للماجستير التى كان عنوانها «الأخلاق عند الغزالى». وبعد أن صحح زكى مبارك مساره وأدرك قيمة المنهج الإسلامى، كتب فى مقدمة رسالته للدكتوراه وموضوعها «التصوف الإسلامى»: «إليك أعتذر أيها الغزالى، قصدت مهاجمتك حتى أشتهر، **فالشهرة قد تأتى على أكتاف العظماء**». عن كتاب «المعارك الأدبية، للأستاذ أنور الجندى».

موقفه وأقنع به والديه. أما إن كان على خطأ فليعلم أن تمسكه بموقفه سيكلفه ما لا طاقة له به فى الدنيا والآخرة. وافق الفتى على دعوتى، والتقينا. قال لى: **إن حياتى سعيدة مستقرة مع إلحادى، فلماذا أشغل نفسى بقضية الألوهية والدين فى الوقت الذى لا أشعر بحاجة إلى الإيمان بها؟**

قلت له، ما تقول فى **الطالب الذى لا يستذكر دروسه**؛ لأن حياته سعيدة مستقرة دون مذاكرة؛ ولأنه لا يشعر بحاجة لبذل الجهد والمعاناة فى ذلك؟. إن هذا الطالب لا يستحضر أن هناك عواقب لحياته السعيدة تلك! ألا ينبغى على والديه ومدرسيه أن يوجهوه إلى ما فيه مصلحته، حتى وإن كانت المذاكرة على غير هواه، وحتى إن كان لا يدرك أهمية ذلك الآن.

وأضفت؛ لا ينبغى أن يحيا الإنسان تبعًا لما يحقق له السعادة وفقط، ولكن **ينبغى أن يحيا تبعًا لما يمليه عليه العقل، وينبغى أن يرسم مساره بعد أن يدرك مصدره ومآله**. وأنهيت التمهيد للجلسة قائلًا: **إن الحياة تبعًا لما يمليه «الهوى» هى حياة المراهقين**، أما حياة الناضجين فتتبع العقل، ومن ثم فإن «الاستغناء» الحالى ليس مبررًا لعدم الإيمان.

اقتنع الفتى بمنطقى وَقبِل أن يدخل معى فى حوار.

٣ إلحاد اضطراب الارتباط

ونقصد بالارتباط العلاقة بين أبنائنا ووالديهم، وتقف وراءه نظريات اضطراب نموذج الأم والتقصير الأبوى التى ناقشناها بالتفصيل فى الفصلين الرابع والخامس.

عندما عرضت فى كتابى «خرافة الإلحاد» مفهوم الإلحاد السفسطائى وأنماطه، لم أكن منتبهًا لخطورة دور الارتباط الأسرى فى تبنى الإلحاد، وما أن تنبهت لأهمية هذا الدور ـ فى أثناء إعدادى للكتاب الذى بين يديك ـ حتى قَفَزَت إلى ذهنى بضع حالات إلحادية من فتياننا وشبابنا ممن حاورتهم، فرجعت إلى ما دونته عنهم فى أوراقى، فإذا بها تدعم نظريات الارتباط بشكل مباشر.

استخرجت من أوراقى سبع حالات بالتحديد، كان والداهم منفصلَيْن، إما بالطلاق أو بالهجران، وكان الابن يحيا مع أحد الطرفين، وفى حالتين كان يحيا وحده، وكانت علاقات السبعة بوالديهم أو بأحدهما (خاصة الأب) سيئة للغاية. وفى حالتين تزوج الأب زوجة أخرى وبرر ذلك باتباعه سنة الرسول الكريم ﷺ.

وفى خمس من السبع حالات كان الوالدان من المتشددين دينيًّا، الذين حَرَّمُوا على أبنائهم متعًا بريئة باسم الدين، وكانوا يضربونهم من أجل حفظ القرآن فى صباهم.

وفى أربع حالات فى المدرسة الثانوية شغل دور الأب مدرسٌ ملحدٌ، كان مثلًا أعلى للفتى، ودفعه للإلحاد دفعًا، وأجهض كل محاولات الحوار والإقناع.

أما الارتباط بصديق أكبر ملحد تشرب منه الفتى التوجه الإلحادى فقد تجاوز العشرين حالة.

ولا شك أن الأعداد الحقيقية لمن شاركت تنشئة الوالدين فى إلحادهم تفوق ذلك بكثير، لكننى كما ذكرت لم أنتبه لخطورة هذا العامل النفسى إلا مؤخرًا.

٤ إلحاد عقدة النقص

عقب الحلقة الأولى من مناظرتى مع الملحد التى أُذيعت إعلاميًّا، اتصل بى صديق وأخبرنى أن ابنه الذى سبق أن ألحد طلب منه أن يصلى معه العصر، وعندما سأله عن سر تصحيح موقفه بالرغم من أن المناظرة ما زالت فى بدايتها، قال الابن: عندما كنا نشاهد هذا الملحد وغيره فى «النت» **كانوا يشعروننا بأنهم هم الحكماء** الذين يحتكرون العقل ويتبنون العلم منهجًا، أما الدين ورجاله فهم المتخلفون علميًّا والعاجزون عقليًّا وأنهم لا يحسنون إلا ترديد ما جاء فى التراث، فأصبحوا خارج الزمان وخارج الحضارة (عوامل نفسية شخصية). وأضاف الفتى، أما وقد شاهدت الجزء الأول من المناظرة وعاينت قوة حجج د. عمرو العلمية والفلسفية وعجز الملحد أن يدفعها، تأكد لى **كم هم أقزام ومدعون**، وأدركت **أن الدين عظيم وأن حججه لا تُدفَع بشرط أن يُحسَنَ عرضُها**.

٥ إلحاد الشهوات[1]

يُبتعَث الكثير من شبابنا إلى دول العالم الغربى والدول الشيوعية (سابقًا)، ويعاينون نمطًا من الحياة تحتل فيه **العلاقات الجنسية** خارج إطار الزواج موضعًا محوريًّا باسم الصداقة والحب. كذلك، فإن هذا النمط من الحياة يدخل بيوتنا عن طريق الإعلام والسماوات المفتوحة، كما تعرض المواقع الإباحية على الشباب كَمًّا كبيرًا من المثيرات.

نتيجة لذلك، يَطُوق بعضُ شبابنا إلى هذا النمط من الحياة (عوامل نفسية شخصية)، وقد تُمثل التنشئة الدينية حاجزًا أخلاقيًّا وعبئًا نفسيًّا يؤرقهم، **فيلجأ بعضهم للهروب من هذه المعاناة إلى إسقاط منظومة الإله والدين من حياتهم بالتنكر لها**.

(١) أطلق الشيخ عبد الحليم محمود، شيخ الجامع الأزهر الأسبق، على هذا النمط من «الإلحاد اصطلاح إلحاد البطن والفرج».

لذلك، لا نجد هذا النمط من الإلحاد فى العالم الغربى، فلا مشكلة عند شبابهم فى **الجمع بين الإيمان الدينى وبين الحياة المتحررة أخلاقيًّا.**

٦ إلحاد الربوبية

يشبه هذا النمط من الإلحاد ما كان سائدًا فى مكة وقت البعثة المحمدية. فقد كان معظم القرشيين يؤمنون بوجود الإله لكنهم ينكرون أن يكون قد أرسل رسولًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ [العنكبوت].

فيقول هؤلاء: نقر بوجود الإله، أما الأديان فادعاءات سببت كل ما فى الدنيا من شقاء، ولا حاجة لنا بها. ويضيف آخرون: **ما دليلكم على أن الإله قد خلقنا لغاية،** لِمَ لا يكون قد خلقنا وتركنا؟ وكيف ينشغل بتفاهات مثلنا؟ هل هو فى حاجة إلينا؟.

أجبت هؤلاء: **إن الإنسان إذا أقدم على فعل شىء دون سبب عددناه أبله،** فهل يُعقل أن يخلق الإله الوجود والإنسان دون حكمة أو غاية؟!.

وأضفت: أن الباحث عن الحقيقة **يرحب بأى عون يأتيه،** لذلك كان خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام (وغيره من الأنبياء والمرسَلين) يتفرس فى السماء باحثًا عن الإله، وفى النهاية قال: ﴿...لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)﴾ [الأنعام].

وإذا كنا مخلوقين لغاية ألا يكون من الظلم ألا نُوَجَّه إليها عن طريق الديانات السماوية.

وحقيقة الأمر أن «القائلين بالربوبية المنكرين للديانات» هم و«الملاحدة» سواء بسواء، إذ **إن إنكار الدين يُفرغ الألوهية من جوهرها؛** الذى هو تكليف الإنسان عن طريق الدين بأوامر ونواه، وما يعقب الموت من بعث وحساب وجزاء. وقد تبنى معظم الربوبيين هذا التوجه تحررًا من تكاليف الديانات (افعل ولا تفعل)، لذلك وضعنا هذا النمط ضمن العوامل النفسية الشخصية، وإن كان ظاهره يبدو عقليًّا موضوعيًّا.

٧ إلحاد الجبر والتسيير(١)

قال بعضهم: كان ينبغى على الإله أن يأخذ رأيى قبل أن يخلقنى! وبأى حق يحاسبنى إن لم أعبده، **ألستُ حُرًّا؟** «إزاى يحاسب واحد على لعبة هو مش عاوز يلعبها»؟

لهؤلاء قلت: لو مش عاجبك **انسحب من اللعبة!** قال: كيف؟ قلت: **بالانتحار!** وليس

(١) نتعرض لقضية حرية الإرادة الإنسانية والجبر والتسيير فى الباب الرابع.

هناك عاقبة تخشاها فأنت لا تؤمن بالبعث والحساب. وأضفت: إن عدم إقدامك على الانتحار لهو أكبر دليل على رضائك عن خَلْقِه لك، حتى إنك قبل أن تعبر الشارع تنظر يمنة ويسرة عدة مرات حفاظًا على حياتك. أَفْحَمَته حجتي فقال: ربما يكون هناك شيء مما تقول، عندها سيعذبني إلهك، إنه يعاملنا كالعبيد. قلت له: أخيرًا وصلت إلى الحقيقة. **فعلاقة الله بنا هى علاقة السيد بالعبد**، وهذا ما تحاول دائمًا التملص منه بادعاء الندية. والعدل يقتضى أن يكون الإله الرحمن الرحيم أيضًا منتقمًا جبارًا مذلًا، وأضفت، إن الإسلام يتبنى **هذا المفهوم الذى يجمع بين الجمال والجلال**، ولا يكتفى بأن «الله محبة» كما يعتقد المسيحيون، أو أنه «غضوب» فقط كما يعتقد اليهود. **فلله الأسماء الحسنى جميعًا، جمالها وجلالها، ومن لم يعرف ذلك فمعرفته بالإله ناقصة.**

وشكى بعضهم أن الإله يحاسبنا على اختياراتنا بالرغم من أنه فرض علينا أشياء، كالعائلة والبلد والمرض وأحداث كثيرة مما يمر بنا. قلت لهؤلاء؛ **إن الله لا يحاسبنا على هذه الأشياء، الحساب لا يكون إلا على ما فيه مجالًا للاختيار**، ويرجع ذلك إلى أن حرية الإنسان مقيدة وليست مطلقة، ذلك لأن قدراته ليست مطلقة، **فحرية الإرادة بقدر المقدرة، لذلك تزداد** حرية الإنسان فى عمله بقدر ارتقائه فى السلم الوظيفى، أليس كذلك؟!

ويتهم الملاحدةُ المؤمنينَ بأنهم جبريون، إذ يؤمنون بأن الله دَوَّنَ كل ما سيقع حتى يوم القيامة فى لوح محفوظ وأننا ملزَمون بأن نتبع ما دَوَّنه، ويرى الملاحدة أن هذا جبر محض وظلم بَيِّن. قلت لهؤلاء: **إن «العلم الإلهى» ـ الذى لا يحده الزمان ـ كاشف لما سيحدث وليس مُلزِمًا.** ولنوضح ذلك نضرب مثالًا: تصور إنسانًا اخترع آلة الزمان، وتقدم بها مائتى عام فى المستقبل، ورأى ما سيفعله أحفاده، ثم عاد لزمانه ودَوَّنَ ما رأى، هل ما دَوَّن الرجل مُلزِم لهم أم أنه دَوَّن ما صدر منهم بالفعل. هذا هو حال **العلم الإلهى الكاشف**. ولا يتعارض ذلك مع إرادة الله ﷻ المطلقة، **فقد أراد الله ﷻ أن تكون لنا إرادة.**

مثل النمط السابق، بالرغم من الظاهر العقلانى لإلحاد الجبر والتسيير، فإن أنصاره يحتجون به لأنه يُسقط عنهم المسئولية الأخلاقية والدينية عن أفعالهم المنحرفة، لذا استحق أن نصنفه مع عوامل الإلحاد النفسية الشخصية.

ثانيًا: الأنماط المُعلَنة للإلحاد

تتضمن هذه الأنماط الحجج التى يعلنها الملاحدة **كتبريرات منطقية ومعرفية لإلحادهم**، سواء كانت حقيقية (أقلية) أو حججًا تختفى وراءها دوافعهم الإلحادية النفسية (أغلبية).

١ إلحاد الشبهات

يُعتبر هذا النوع من الإلحاد الحجة الأولى المتداولة بين الشباب فى بلادنا.

فكثير من الملاحدة الشبان يركزون فى هجومهم على الألوهية والدين على **التشكيك فى مصداقية القرآن الكريم وكتاب المسيحيين المقدس**، وينكرون نسبتهما إلى الله ﷻ. ويدور التشكيك حول عدد من النقاط أهمها:

- تُعتبر **نظرية التطور الداروينى** أهم الأعمدة التى يستند إليها الملاحدة. فهى بزعمهم تنفى الاحتياج للإله، كما تثبت خطأ مفهوم الخلق الخاص الذى تطرحه التفاسير التراثية للقرآن الكريم وسفر التكوين فى التوراة.
- تتحدث العديد من كتب التفسير عن **آية السيف** التى تنسخ عشرات الآيات التى تؤكد حرية العقيدة فى القرآن الكريم، بل وتصل إلى حد قتل من لا يؤمن بالإسلام، مما يدمغ الإسلام بالإرهاب.
- تجعل الكتب السماوية **للقلب** دورًا فى المنظومة الإيمانية والمعرفية والشعورية، بينما يؤكد العلم أن القلب ليس إلا مضخة للدم.
- تتحدث الكتب السماوية عن عدد من **المفاهيم التى لا يقر بها العلم**؛ كالسماوات السبع، وأن الشُهب والنيازك رجوم للشياطين، وأن الشمس تختفى من السماء بانتهاء النهار لتسجد تحت عرش الرحمن و...
- تشتمل الكتب السماوية على **أحداث لا يمكن تقديم الدليل على صحتها**، كطوفان نوح وأهل الكهف، والتقام الحوت ليونس عليه السلام، وقوم يأجوج ومأجوج، والطفل الذى تلده العذراء دون أب، و...
- يدعى الملاحدة أن **الكتب السماوية اقتبست بعض الأحداث** التاريخية (كطوفان نوح وحوت يونس) من الأساطير السابقة عليها.
- أباح القرآن الكريم عددًا من **السلوكيات التى لا ينبغى أن تتبناها ديانة سماوية**، كالرق وملك اليمين والرجم وقطع يد السارق. كما أباح لرسول الله ﷺ من الزواج ما لم يبحه لأتباعه.
- كانت حياة المصطفى ﷺ **مليئة بالحروب والغزوات وسلب الغنائم**، وبعد ذلك قام صحابة الرسول الكريم ﷺ وأتباع دينه بنشر الإسلام بالسيف.

لتفنيد هذه الدعاوى نقول، إن العلم قد صار الآن يتبنى مفهوم **«التطور البيولوجى الموجه»** الذى يتماشى مع الدين[1]. كما أثبت العلم أن **للقلب دورًا فى المنظومة الإيمانية والمعرفية**

(١) جاءت تفاصيل ذلك فى كتبى «كيف بدأ الخلق» و«أنا تتحدث عن نفسها» و«خرافة الإلحاد»، مكتبة الشروق الدولية.

والشعورية، وإن كان هذا الأمر فى حاجة إلى المزيد من الدراسة[1]. كذلك فإن **القصص المشتركة** بين الكتب السماوية والأساطير إنما بقيت كأساطير عند الشعوب بعد **أن نزلت بها كتب سماوية** فى معظم الحضارات.

أما دعوى **استباحة دماء الكفار** فترد عليها الآية ١٩٠ من سورة البقرة، التى تؤكد أن مناصبة العداء إنما تكون لمن يقاتلون المسلمين: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

وبخصوص **اصطلاح «السماء»** فى الكتب المقدسة فهو **مرادف لـ«الكون»**، فلو وضعنا لفظ «الكون» بدلًا من «السماء» فى القرآن الكريم لاستقام المعنى تمامًا مع المفاهيم العلمية، لكن القرآن استخدم اللفظ المعتاد والمشهور بين العامة وأيضًا بين العلماء. **أما السماوات السبع والأراضين السبع** فمفاهيم غيبية لا ينبغى البحث عن تفسير علمى لها.

وهناك عدد من المفاهيم ينبغى النظر إليها باعتبارها **مفاهيم رمزية**، كسجود الشمس تحت عرش الرحمن بمعنى انقيادها للسنن والقوانين الكونية، وهناك عدد من المفاهيم التى طرحها القرآن الكريم ولم نتوصل لرمزيتها بعد.

أما وقوع **أحداث محلية فى بعض بقاع الأرض**، كأهل الكهف ويأجوج ومأجوج وغيرها، فأمور لا يُتوقع أن تترك أدلة تاريخية تشير إليها، بل ينبغى اعتبارها من الأحداث التى تُعرَف بالرواية، فالقرآن الكريم يرويها لنا مثلما تروى لأولادك أحداثًا وقعت لأجدادك، لا أظنهم سيطلبون عليها دليلًا تاريخيًّا.

أما باقى الشبهات، كانتشار الدين بالسيف وغزوات الرسول ﷺ والرق وما ملكت اليمين وقطع يد السارق وزوجات الرسول ﷺ، فقد تكفل **العديد من كتب رد الشبهات** بطرح الأدلة على كذب بعضها وحكمة الإسلام فى التعامل مع بعضها الآخر.

وأحيانًا يُعرَض على شبابنا **نمطٌ خاص من إلحاد الشبهات**، فيقال للشاب: ينبغى أن تؤمن بالإله فهو حق، والأدلة العلمية على وجوده كثيرة، أما القرآن فلا؛ فهو ملىء بالأخطاء. فى هذا النمط يتم الإقرار بالإله مع إنكار الإسلام، وقد تكون الخطوة التالية هى: إذًا فلنبحث عن الدين الحق، ويكون ذلك مقدمة للدعوة إلى اعتناق المسيحية؛ إذًا فهى **محاولات تنصيرية**.

---

(١) لتفاصيل هذا المفهوم راجع فصلًا بعنوان القلب والتدين، فى كتاب «رحلة عقل» للمؤلف، الطبعة التاسعة ٢٠١٥، مكتبة الشروق الدولية.

٢ إلحاد عدم التصور

قال لى شاب ملحد: لا أستطيع تصور الإله الموجود الذى لا موجد له، ولا الموجود الأزلى الأبدى، ولا الموجود فى كل مكان ولا مكان، ولا أتصور أن يكون للإنسان إرادة مع طلاقة الإرادة الإلهية. ثم أردف قائلًا: **كيف تطالبنى أن أؤمن بإله أنا عاجز عن تصوره وتصور أفعاله.**

نكرر هنا أن أُس البلوى فى قضية الإلحاد هى الغرور والكِبْر، فالملاحدة **يزنون الحكمة والعلم والفعل الإلهى المطلق بميزان الحكمة والعلم والفعل البشرى المحدود.** هنا تنشأ عدم القدرة على التصور ومن ثَمَّ يحدث الإنكار.

٣ إلحاد الإله الظالم القاسى[1]

يبلغ الإلحاد السفسطائى مداه بادعاءات تصف الإله بالظلم. فيقول بعضهم: كيف يعاقب إلهكم الرحمن الرحيم الإنسان **على معاصٍ يرتكبها فى حياته القصيرة** (وإن كثرت) **بعذاب أبدى لا يحتمله بشر.**

قلت لهذا المعترض: ولماذا لم يدهشك **عِظَم الثواب والنعيم** فى جنات تخلد فيها مقابل **طاعات قليلة؟!** إن حجتك تصبح ذات قيمة إذا كان عِظَم العقاب يقابله فقط النجاة من العقاب فى حالة الطاعة، إلا أن **عظم العقاب يقابله عظم الثواب.** ولم يكتف الإله بذلك، بل **دلك على طريق الجنة** وأعانك على السير فيه **وتعهد بأن يُبَدِّل سيئاتك حسنات فى حال التوبة من المعاصى.** وأضفت: إن الإنسان إذا سب كلبًا أزعجه فله العذر، أما أن يُهين والديه فلا عذر له. أعنى لا تنظر فقط إلى عِظَم المعصية، **لكن انظر فى حق مَن ارتكِبَت المعصية.**

أجابنى الشاب الملحد قائلًا: لقد تكررت **كلمة العذاب** بمشتقاتها فى قرآنكم قرابة أربعمائة مرة، ربما أكثر من أية كلمة أخرى، أليس هذا دليلٌ على القسوة الشديدة؟. قلت له: إنك تقلب الأمور وتجعل الرحمة قسوة، أما كان ينبغى أن تقول إن الله حذرنا أربعمائة مرة، وفى كل مرة وصف لنا **طريق النجاة.** وضربت لذلك مثالًا: ما قولك فى أم تنبه أولادها ـ كلما خرجوا من المنزل ـ أن يأخذوا حذرهم عند عبور الطريق؟ هل تصف هذه الأم بالقسوة لأن تحذيرها يجعل أولادها يستحضرون فى أذهانهم احتمال الإصابة فى حادث؟! أم أن سلوك الأم هو **عين الحب والرحمة؟.**

وأضفت قائلًا: هل تنتظر من الله ﷻ أن يربت أكتاف حفنة الشيوعيين (ستالين وماوتسى تونج و...) الذين قتلوا أكثر من مائة مليون شخص لينشروا مذهبهم الإلحادى الفاسد؟! وهل

(١) تعتبر «مجادلة الشر والألم» أحد أمثلة إلحاد الإله الظالم القاسى.

تنتظر من الله ﷻ أن يلتمس العذر لهتلر، الذى تسبب فى قتل قرابة ثلاثين مليون شخص؛ **لأن حياته كانت قصيرة؟!.**

أصر الشاب على عناده وقال: كيف **يطلب إلهكم من نبيه إبراهيم أن يذبح ابنه،** أية قسوة تلك أن يُطلَب من أب مُسن أن يذبح وحيده الذى رُزق به على كِبَر؟ قلت له: هل طُلب منك مثل ذلك؟ أجابنى بلا. قلت: وهل طُلب ذلك من إنسان آخر سوى إبراهيم؟ فقال لا. فعَقَّبت شارحًا الموقف: إن إبراهيم ؑ ادعى (عن حق) أن ليس أحدٌ أو شىءٌ أحب إلى قلبه من الله ﷻ، فكان طبيعيًّا أن يُختبر فى **هذا الادعاء السامق** بمثل هذا الابتلاء القاسى، لذلك كان الطلب ذبحًا لتعلق إبراهيم بابنه. وما كان الله ﷻ ليدع إبراهيم يقتل وحيده، بل كان جزاء إخلاص إبراهيم ؑ أن صار خليلًا للرحمن وأن أصبح موقفه هذا عيدًا تحتفل به البشرية كل عام حتى يوم القيامة.

وأضفت: بعد ذلك كله، فإن **قسوة الإله وظلمه ليست حجة ضد وجوده، بل قد تكون حجة ضد رحمته،** ومن ثم فهى ليست حجة للإلحاد. وحاشا لله أن يكون ظالمًا أو قاسيًا، بل حاشاه أن يكون عادلًا! فهو الرحمن الرحيم. لكنها **الرحمة الحقيقية الإلهية المطلقة،** وليست رحمة الضعف البشرى، فلا ينبغى أن نقيسها بمقاييسنا.

٤ إلحاد التعنت والسَّفَه

قال الشاب لى: كيف يعطينى الإله **غرائز** ثم يطالبنى ألا أستعملها؟ وكيف يطالبنى أن **أخسر نقودى** باسم الزكاة، وأن **أخسر وقتى وجهدى باسم الصلاة،** وأن **أخسرها جميعًا** باسم الحج والعمرة؟

قلت له: إن الإنسان ليس بهيمًا تحركه الغرائز فقط. إن ما طُلب منا هو **توجيه هذه الغرائز وترشيدها،** وفى ذلك ترقية للنفس وسمو للروح.

إن الملاحدة إذ يَدْعون إلى **إطلاق الغرائز** يُشبهون الصبية الذين يريدون أن يتفرغوا للعب فحسب، بينما يُلزمهم والداهم بإنفاق بعض الوقت فى مذاكرة دروسهم لما فى ذلك من مصلحة لاحقة.

وإذا كان الماديون يرفضون إنفاق بعض المال والوقت والجهد فى سبيل الله ويَعُدُّون ذلك سفهًا، فما بالُ فريقٍ منهم ينفقها فى سبيل المجتمع استجابة لتعاليم الشيوعية؟!

٥ إلحاد الإله العاجز

قال لى الشاب الملحد، وقد علت وجهه ابتسامة خبيثة: هل يستطيع إلهك أن يخلق إلهًا **أكبر منه أو أقوى منه**؟ وهل يستطيع أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها؟

ظن ذو الابتسامة الخبيثة أنه قد وضعنى فى مأزق؛ فإن قلت إن الله ﷻ يستطيع، فإنى بذلك أنفى أنه الأكبر والأقوى. وإن تهربت من هذا الاستنتاج بأن قلت إنه لا يستطيع، كنت أُثبت على إلهى العجز، حاشاه.

قلت للشاب، إن كُلًّا من سؤاليك ينطوى على **تعارض بديهى**، ومن ثم يناقض نفسه ولا يجوز طرحه. وشرحت ذلك قائلًا، إنك تطلب مستحيلات عقلية، كأن ترسم دائرة مربعة! فكيف تطلب أن يخلق الله إلهًا (سواء أكبر وأقوى أو أصغر وأضعف) بينما الإله لا ينبغى أن يكون مخلوقًا؟! وكيف تطلب أن يخلق صخرة لا يستطيع حملها، بينما كل مخلوق يستمد صفاته من خالقه، ولا يمكن بداهة أن يكون الفرع والجزء أكبر من الأصل والكل. إن سؤاليك سؤلان **مستحيلان عقليًّا**، ولا يعكسان إلا المكابرة.

اختفت الابتسامة الخبيثة وعلا الشحوب وجه الشاب.

٦ إلحاد نقض العهد

قال لى: تَدَّعون أن إلهكم أخذ علينا عهدًا فى **يوم الذر** بأن نعبده، لكننى ولا أنت ولا أحد من البشر نذكر هذا العهد، فكيف يجعل الإله هذا العهد الذى تَرَكَنا ننساه حجة علينا ويدخلنا النار إن خالفناه؟

قلت له: أَقبل حجتك لو أن سيناريو الأحداث سار كما تدعى، لكن الأمر ليس كذلك. فنحن قد تعلمنا الدرس وإن كنا قد نسينا الموقف؛ فالعهد ما زال قائمًا فى نفس كل منا، متمثلًا فى **الفطرة السليمة المدرِكة** لوجود الإله. كذلك وضع الله ﷻ **أدلة الألوهية فى الكون والأنفس**، وأرسل **الرسالات السماوية** تستحث العقل ليتأمل هذه الأدلة، وتُذَكِّر الإنسان بما نُسِىَ من العهد وطُمس من الفطرة، لذلك حفل القرآن الكريم بالدعوة إلى التذكر، بل إن الرسول الكريم ﷺ إنما بُعث مُذَكِّرًا: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية].

٧ إلحاد الإله الآخر

أمعن بعضُهم فى العبثية، فقال: ما أدرانى أن الله الذى تدعونى إلى عبادته هو الخالق والرازق والشافى و...؟ لِمَ لا يكون الفاعل لهذه الأشياء إلهًا آخر أو آلهة متعددين آخرين؟ قلت (وداخلى سخرية لم أُظهرها له): قد يكون طرحك مقبولًا إذا كنا قد التقينا فى الشارع بإله

ادعى أنه هو الخالق والرازق والشافى و... وطالبنا أن نعبده دون أن يقدم لنا الدليل، لكن الأمر ليس كذلك!

حقيقة الأمر أننا عايَنَّا أفعال الخلق والرزق والشفاء و...، وأدركنا أن لا بد لها من فاعل عظيم منزه. ثم كان أن قُدِمَت إلينا ديانات سماوية خاطَبَنَا بها مَنْ قال «**إننى أنا الله**»، ونسب هذه الأفعال لذاته، وطالبنا أن نعبده. ألا ترى أنه لو كانت هناك آلهة أخرى هى الخالقة والرازقة والشافية و... لوجب عليها ألا تسكت على هذا الادعاء وأن تبين لمخلوقاتها الحقيقة، بل وأن تصفى حساباتها مع هذا الدَّعى!.

أما قضية **تعدد الآلهة**، فإن كان لها موضع عند المشركين قديمًا، فقد **أثبت العلم الحديث** بما لا يدع مجالًا للشك أن **الخالق واحد**. ذلك بعد أن توصلنا إلى أن قوانين الطبيعة واحدة، وأن المادة الخام التى يتشكل منها الوجود واحدة، وأن نمط الخلق واحد من الذَّرة إلى المجرة. هذا بالطبع بالإضافة إلى **الأدلة الفلسفية والعقلية** التى تسوقها الكتب السماوية على التوحيد.

(٨) الإلحاد الحسى

قال لى الملحد فى المناظرة التى أذاعتها الفضائيات: إن الوجود الإلهى قضية فى منتهى الأهمية، ولا بد أن يكون الدليل عليها مناسبًا لها فى القوة، لذلك ينبغى أن يكون دليلًا حسيًّا أو تجريبيًّا. بل إننى إذا التقيت بالإله فى الطريق وصافحنى فذلك غير كاف! فعليه أن يثبت لى أنه هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى وهو... **كيف تريدنى أن أصدق شيئًا لم أره؟**.

قلت له: إن كلامك هذا ملىء بالأخطاء العلمية، **فالدليل الحسى الذى تطلبه هو أضعف الأدلة!** فالحس خادع. ألا ترانا نبصر قوس قزح ونبصر السراب وهما ليسا موجودين! وفى نفس الوقت فإننا لا نبصر أشياء أثبت العلم وجودها، كالجاذبية والثقوب السوداء. أما **الدليل التجريبى** فلا يُستخدم إلا فى العلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء، وعندما تطلبه فى قضية الألوهية فإنك **تطلب دليلًا فى غير موضعه**، كالذى يريد أن يبصر بأذنيه! لذلك، فإن الأدلة الأقوى فى الاستشهاد على الألوهية هى **الأدلة الرياضية والعقلية**.

أما إذا التقيت بالإله وأحيا أمامك الموتى فستقول إن ذلك لا يدل على الألوهية، فالعلم قد يثبت فى المستقبل أن ذلك ممكنًا! وقد سبق أن قال أمثالك عن أنبيائهم الذين قدموا لهم هذه المعجزات إنهم سحرة. **فالعلم المستقبلى بالنسبة لك هو إله سد الثغرات** الذى تقول به كلما واجهت دليلًا على الألوهية لا يمكنك رده.

٩ إلحاد تحصيل الأهداف

قال لى: أليس الغرض من الأديان حث البشر على **تعمير الأرض**، وحثهم على أن يعامل بعضهم بعضًا **بخُلق حسن**؟ وأضاف: نحن نجد أممًا ملحدة تلتزم بهذين الهدفين إلى أبعد الحدود، كما نجد أفرادًا ملاحدة أكثر التزامًا بالهدفين من كثير من المتدينين. **فما لزوم الدين؟** وكيف يدخل رجال عظماء قدموا للبشرية خدمات جليلة مثل نيوتن وفولتا وماكسويل وأينشتين النار[١]؟

قلت له: هذا الادعاء من أكبر الأخطاء وأكثرها شيوعًا عن **دور الدين**. إن تعمير الأرض والخُلق الحسن **ليسا هدفين للدين لكنهما فى الحقيقة وسيلتان! فهدف الدين** أن يُعَرِّف الإنسان بربه أولًا، ثم بمصدره ومساره ومآله، ولا يتحقق حُسن المآل إلا بتحصيل رضا الله ﷻ. والسبيل إلى تحقيق ذلك هو تعمير الأرض والخُلق الحسن، بشرط أن تكون أفعال العبد **ابتغاءً لمرضاة الله** ﷻ. أما إن لم نضع هذه الغاية فى اعتبارنا، فستظل أفعالنا - مهما حسُنَت - بعيدة عن أن تحقق للإنسان حسن المآل، وعلى الإنسان أن **يُحَصِّل مكافأته ممن عمل لأجلهم.**

وأضفت قائلًا لمحاورى: إن ما ذكرتُ لك هو دور الدين الأساسى، أما أن تسألنى عن أشخاص بعينهم **أَهُمْ** من أهل الجنة أم من أهل النار؟ أجيبك قائلًا **إن مفتاح الجنة** ليس بيدى أو بيد أحد من البشر، والأمر كله لله ﷻ.

١٠ إلحاد الإله المخادع

قال الملحد: تَدَّعون أن الإسلام هو الدين الحق، فكيف يرسل الإله لأقوام رسلًا **بديانات فاسدة؟** ولماذا **ركز الديانات كلها فى منطقة الشرق الأوسط** بينما حَرَمَ أقوامًا آخرين من الديانات تمامًا[٢]؟. وبعد ذلك يحاسب ربكم البشر ويُدخل النار أقوامًا لا ذنب لهم. إن إلهكم الذى تَدَّعون إله ظالم مخادع.

لقد جهل هؤلاء بديهيات الدين، **فالرسالات السماوية جميعها هى الإسلام**، ليس فيها دين حق ودين باطل، وقد كُلِّفَ أتباع الرسالة الخاتمة أن يبينوا لأصحاب الرسالات السابقة ما اعترى رسالاتهم من تحريف.

كذلك لم يترك الله ﷻ أمة دون أن يرسل لها رسولًا: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

---

(١) هؤلاء العلماء الأربعة الكبار الذين استشهد بهم الملحد كانوا عميقى الإيمان بالله ﷻ!!

(٢) يُسمِى بعضُ الملاحدة ذلك: «سوء توزيع الديانات»!

﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل] ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]، بل ما كان الله ليعذب من لم تصله الرسالة ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء].

إن الله ﷻ ليس بمخادع، بل الملاحدة هم الذين يخدعون أنفسهم.

⑪ إلحاد المحامى الفاشل

من أقوال الشيخ محمد الغزالى التى أصاب بها كبد الحقيقة ـ وما أكثر ما فعل ـ قوله: **إن الإسلام قضية حق محاميها مقصر خائب**. إن كثيرًا ممن حاورت من الملاحدة الشباب **عاتِب بشدة على الخطاب الدينى**، خاصة بعد ما صار يُعرف بثورات الربيع العربى، وعاتب أيضًا **على أداء تيار الإسلام السياسى**، وكانت الخطوة التالية أن حَمَّل الإسلام كدين أخطاء هذه الممارسات.

إنه خطأ معرفى أن **أُعمم التقصير**، فأنتقل به من عيب الممارسة إلى عَوَار المنظومة كلها. ما أشبه ذلك بمريض حدثت له مضاعفات صحية عقب عملية جراحية، فأصبح يُشكك ليس فقط فى قدرة الأطباء والجراحين بل وفى جدوى الطب والجراحة.

⑫ إلحاد البساطة

قال لى الشاب الملحد: إنكم أيها المتدينون تنظرون إلى الإنسان نظرة شديدة التعقيد، لقد أدخلتموه فى دهاليز غيبية وصلت بكم إلى افتراض تواصله مع إله سماوى! بينما هو **كائن بسيط مثل باقى الحيوانات**! يعمل وينتج ويستهلك ويستمتع وفقط.

قلت للشاب: إن نظرتك هذه هى سبب **مأساة إنسان الحضارة المعاصرة**، وقد شَخَّصَ د. عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) هذه المأساة قائلًا: إن الحضارة الحديثة حضارة عقلانية مادية (لا عقلانية وحسب)، فإنجازاتها الضخمة (التكنولوجيا ـ العلم ـ السيطرة على العالم) هى نتاج رؤيتها المادية التى تطلبت استبعاد الكثير من العناصر الأخلاقية والإنسانية (العناصر غير المادية)، **وذلك لتبسيط الواقع بهدف التحكم فيه** (إذ لا يمكن التحكم إلا فيما هو بسيط). لا شك أن **الإنسان هو الضحية الأولى لهذا التبسيط**، فبعد أن تم استبعاد عناصره الأخلاقية والإنسانية الراقية لم يبق منه إلا ماديته، فَسَهُل على البعض نسبتها للطبيعة العمياء.

هذه هى أكثر أنواع وأسباب الإلحاد التى قابلناها بين شبابنا شيوعًا، **وكلها خاضعة للردود والدفوع العقلية**. ولا شك أن **الشيطان والنفس الأمارة بالسوء** لن يتوقفا عن محاولات التملص من هذا الخطاب العقلانى الصِرف بما له من حجية قوية، كما لن يتوقفا عن طرح أشكال وحجج أخرى للتهرب من الإقرار بالألوهية والدين.

القارئ الكريم...

قمنا فى هذا الفصل بعرض مختصر لمسيرة الإلحاد فى العالم الإسلامى عبر التاريخ، ولعلك لاحظت ـ كما ذكرنا ـ أن دور المفاهيم والحجج العلمية فيه قليل، خلافًا لما نرصده فى الإلحاد الغربى، وبدلًا من ذلك تشيع فيه **عوامل نفسية عديدة**، بعضها **تربوى** وبعضها يصب فى الرغبة فى التملص مما تفرضه الديانات من **التزام أخلاقى**، لذلك أحسبنى كنت مصيبًا حين أطلقت على الإلحاد المعاصر فى بلادنا اسم «**الإلحاد السفسطائى**».

وقد كانت وقفاتنا مع فكر ابن الراوندى ثم إسماعيل أدهم ثم عبد الله القصيمى **رحلات عبر الجغرافيا والتاريخ**، امتدت من العراق فى القرن التاسع الميلادى، إلى مصر فى مدخل القرن العشرين، إلى السعودية فى ختام هذا القرن، فكانت جولة مع فكر أشهر ثلاثة ملاحدة فى العالم الإسلامى، كشفت عمق تأثير العامل النفسى فى تبنى الإلحاد.

ولا ينبغى أن نختم عرضنا للفكر الإلحادى فى بلادنا (سواء العرض التاريخى أو خبراتنا الشخصية نتيجة لتعاملنا مع أشكال الإلحاد السفسطائى بين شبابنا) دون الخروج بدروس تفيدنا فى التعامل مع المد الإلحادى الحالى:

١ - **للتنشئة والتربية والتعليم** الدور الأكبر فى التوجه الإلحادى، ظهر فى نشأة إسماعيل أدهم المضطربة بين تعصب وقسوة دينية مارسها والده وزوج عمته وبين تساهل دينى وسخرية تأثر بهما من أختيه، وأكمل المهمة التعليم الإلحادى الذى تلقاه فى الاتحاد السوفييتى.

٢ - **للبنية النفسية للإنسان** دور كبير أيضًا فى التوجهات الإلحادية، فالشخصيات الثلاث التى درسناها لم تكن شخصيات سوية نفسيًا. فهذا إسماعيل أدهم ينتحر فى شرخ شبابه، لأنه لم يجد طمأنينة فى الحياة التى لا معنى لها، وهذا ابن الراوندى المتطرف فى انتهازيته وتسلقه، وأخيرًا شخصية القصيمى التى ينضح من جوانبها الكِبر.

٣ - البحث عن الشهرة والتميز بمنطق «**خالف تعرف**» عامل مشترك ـ بدرجات مختلفة ـ فى الشخصيات التى درسناها والتى قابلناها.

٤ - يقوم الإلحاد على المستوى العقلى على **خطأين كبيرين**، علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا لمحوهما من عقول ونفوس الملاحدة. وهما: أن الإيمان الدينى فى كل حالاته أعمى، وأن العلم ليس فيه ذرة إيمان.

٥ - ينبغى **على الدعاة الإلمام بالخطوط العريضة** للفلسفات المادية وكيفية دحضها، وكذلك الإلمام بالمفاهيم العلمية وكيفية استنباط الأدلة على الألوهية منها. وقد رأينا كيف كان الفكر الماركسى والثورة العلمية بمكتشفاتها وراء إلحاد د. إسماعيل أدهم، وتُعتبر هذه النقلة الفكرية المرجوة من أهم جوانب **تجديد الفكر الدينى** التى ندعو إليها.

٦ - ينبغى التعامل مع الشكوك التى تعتمل فى نفوس البعض **بالرفق واللين والحوار**، وليس بالزجر والتأنيب، وهما من العوامل التى دفعت القصيمى للإلحاد.

٧ - ينبغى أن **تمتد حرية الحوار إلى المجتمع كله**، فالآراء الصحيحة الصريحة الحرة هى القادرة على دحض حجج الإلحاد، وهذا هو المنهج الذى وجهنا إليه الله ﷻ فى القرآن الكريم: ﴿... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

صدق الله العظيم

إذًا، بالرغم من **عمق تأثير العوامل** النفسية فى تبنى الإلحاد فإن «**الفكر لا يُقاوَم إلا بالفكر**».

* * *

الباب الرابع

حرية الإرادة الإنسانية

تبنينا فى الفصل الثالث أن الإيمان بالألوهية والدين منظومة فطرية لها **أصولها البيولوجية** فى جينات ومخ الإنسان، وذكرنا أن فاعلية هذه الأصول تختلف قوة وضعفًا من إنسان لآخر.

كما رأينا فى الباب الثالث كيف أن للتربية والتنشئة دورًا كبيرًا فى تشكيل الدوافع النفسية التى توجه الإنسان إلى تبنى الإيمان أو الإلحاد.

إن هاتين القناعتين معًا قد توهمان المهتم بقضية الإلحاد بأن الإنسان ـ فى مواجهة مفهوم الألوهية والدين ـ **مجرد «دُمْية»** تحركها خيوط **الطبيعة** (Nature) فى يد اللاعب وخيوط **التنشئة** (Nurture) فى يده الأخرى.

وبالفعل ينطلق الجبريون من المتدينين والحتميون من الملاحدة إلى **إنكار أن للإنسان اختيار حر** فى تبنى الإيمان أو رفضه، بل وفى تبنى أى سلوك إنسانى. إن ذلك الطرح **يُسقط مسئولية الإنسان الأخلاقية** عن أفعالة تجاه الآخرين. كما يُسقط مسئوليته عند **الحساب بعد البعث من الموت، مما** يدمر منظومة الديانات من جذورها.

لذلك شَغَلَت مجادلة **«الحتمية والحرية = الجبر والاختيار»** الإنسان منذ ميلاد الفكر الأسطورى ثم العقل الفلسفى، فى جميع الحضارات منذ آلاف السنين وحتى الآن.

ومن ثم لا تكتمل هذه الدراسة التى بين يديك دون حل هذه المجادلة. بل دون هذا التناول (الذى نختم به الكتاب) ستؤدى دراستنا إلى عكس المقصود منها.

نمهد للفصول الثلاثة التى نطرح فيها مجادلة الحتمية والحرية/ الجبر والاختيار بوقفة مع فيلم سينيمائى أمريكى تناول هذه المجادلة، أُنتج عام ١٩٩٧ ونال شهرة عالمية عريضة. إنه فيلم **«محامى الشيطان The Devil's Advocate»**(١).

يبدأ الفيلم فى **مدينة صغيرة بولاية فلوريدا الأمريكية**، حيث يقوم **محام أمريكى شاب طموح** (كيفن لوماكس Kevin Lomax) بالدفاع عن مدرس اغتصب **ثلاثًا** من تلميذاته. وبالرغم من قناعة المحامى بإدانة موكله إلا أنه وجد ثغرة فى القضية مكنته من أن يحصل له على البراءة، واعتبر المحامى أن ذلك واجبه تجاه موكله.

ويتابع **رجل أعمال كبير (جون ملتون Mr. John Milton)** المحامى فى قضاياه منذ بداية مشواره المهنى، ويُعجب بأسلوبه فى القضية الأخيرة، فيعرض عليه **عرضًا مغريًا للغاية**؛ أن يتولى الشئون القانونية فى شركاته فى نيويورك بعائد مادى وإغراءات غير محدودة، وفى نفس الوقت يمكن للمحامى أن يرفض أية قضية لا يكون مقتنعًا بها.

قَبِل المحامى العرض السخى. وكلما تردد فى قبول قضية لعدم اقتناعه ببراءة المتهم، استفزه رجل الأعمال بقوله: إن كانت القضية تفوق قدراتك دعها لمحامٍ آخر، فيقبل لوماكس القضية ويبذل فيها أقصى الجهد ليحصل على البراءة لموكله.

ويقوم رجل الأعمال بإغواء زوجة لوماكس (التى يحبها كثيرًا)، فتُقدم على الانتحار. وندرك من سياق الفيلم **أن رجل الأعمال جون ملتون هو الشيطان، وأنه أبو المحامى.**

وفى الحوار المحورى فى الفيلم، الذى يدور بعد أن تنكشف جميع الأوراق، يتهم المحامى الشيطانَ بأنه أجبره على قبول قضايا لمذنبين كما أجبر زوجته على مضاجعته. ويدفع الشيطان هذا الاتهام بأنه لا يُجبر أحدًا من البشر على أى فعل، وأن **دوره يقتصر على إعداد المسرح، ونحن البشر نقوم بالاختيار بكامل إرادتنا**، واستشهد على ذلك بأنه كان دائمًا يُخَيِّر لوماكس بين تبنى القضايا أو تركها، لكن الأخير كان يقبلها بالرغم من قناعته بإدانة المتهم، حبًّا فى الشهرة وذيوع الصيت.

وفى نهاية الحوار يطلب الشيطان من ابنه (المحامى) أن يضاجع ابنته، حتى ينجبا **المسيخ**

(١) الفيلم للمخرج الكبير Taylor Hackford، عن قصة الروائى الأمريكي Andrew Neiderman. وقام بدور الشيطان الممثل العالمى Al Pacino وبدور المحامى الممثل Keanu Reeves.

وقد تم تناول هذه الفكرة في السينما المصرية عدة مرات، لعل أشهرها دور يوسف وهبى فى فيلم سفير جهنم، ودورَىْ حسين فهمى ونور الشريف في فيلم اختفاء جعفر المصرى.

الدجال الذى يحكم العالم، ويبذل الشيطان وابنته أقصى الجهد لإغواء المحامى بذلك، فيسأله لوماكس متحديًّا: «**ألم تقل أن الأمر اختيار حر؟**»، فيجيبه الشيطان: بكل تأكيد، عندها يُخرج لوماكس مسدسه ويقتل به نفسه، بعد أن يقول للشيطان؛ لقد اخترت هذا. عندها يحترق الشيطان وابنته بعد أن ضاع حلمهما الذى خططا له طوال آلاف السنين.

ويعود بنا الفيلم إلى بداياته فى قاعة المحكمة بولاية فلوريدا، فنجد المحامى لوماكس يعتذر للقاضى عن الاستمرار فى الدفاع عن المدرس الذى اغتصب تلميذاته لعدم اقتناعه بالقضية، بالرغم من أن ذلك سيؤثر سلبًا على مستقبله المهنى. ويقوم الشيطان (متنكرًا فى هيئة صحفى) بإقناع لوماكس ـ بعد أن كان رافضًا للشهرة والظهور ـ بالظهور فى الإعلام لرواية تجربته، بدعوى أنه بموقفه هذا قد صار بطلًا يُضرب به المثل ونجمًا فى المجتمع، وأنه يستحق أن يحظى بالتقدير الإعلامى الذى يليق به.

وينتهى الفيلم بأن يستدير الشيطان ليواجه المشاهدين قائلًا:

إن الكِبْر والغرور الإنسانى هما أفضل أسلحتى

Vanity is definitely My Favorite Sin

إن فيلم «محامى الشيطان» **يطرح فكرتين أساسيتين:**

الأولى: أن كل ما يدور حولنا من أحداث وملابسات ـ مهما كانت تغرينا بتبنى سلوك ما ـ ليست إلا «**إعدادًا للمسرح**»، **أما القرار الحقيقى فبأيدينا نحن** لما نتمتع به من إرادة حرة.

الثانية: إذا كانت خطيئة الشيطان الكبرى التى تسببت فى طرده من الجنة[1] هى **الغرور والكبر**، فنفس الخطيئة هى كبرى نقاط ضعف الإنسان التى يوسوس له الشيطان من خلالها.

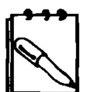
يا ترى ـ قارئى الكريم ـ هل أصاب الفيلم فى طرحه، **وهل حقيقة أن كل ما نتسم به من صفات بيولوجية وتربوية وما يحيط بنا من عوامل بيئية واجتماعية ليس إلا إعدادًا للمسرح؟ وهل حقيقة أننا نتخذ قراراتنا بإرادة حرة؟**

هذا ما سنتناوله فى هذا الباب من خلال استعراض مفاهيم الفلسفة وعلم النفس وعلوم المخ والأعصاب، وأخيرًا تأمل طرح القرآن الكريم لمفهوم حرية الإرادة الإنسانية.

---

(١) يشير اسم الشيطان «جون ملتون» إلى اسم مؤلف كتاب «الفردوس المفقود»، الذى يدور حول حرمان الشيطان من الجنة.

الفصل الحادى عشر



مجادلة الحرية والحتمية

- **ـ الإرادة الحرة**
  - ـ دليل الوعى على الإرادة الإنسانية الحرة
  - ـ الدليل الأخلاقى على الإرادة الإنسانية الحرة
  - ـ طبيعة وحدود الإرادة الحرة
  - ـ المنظور العلمى لحرية الإرادة
- **ـ عقيدة الحتمية**
  - ـ الحتمية الدينية
  - ـ الحتمية الفيزيائية
  - ـ الحتمية التربوية
  - ـ الحتمية البيولوجية
- **ـ لماذا تمثل حرية الإرادة مشكلة؟!**
  - ـ قناعتان متضادتان
  - ـ حتى الإدراك ليس حتميًّا!!
  - ـ هل مِن تَوافُق يزيل التناقض؟
  - ـ هل الأسباب النفسية حتمية التأثير؟
- **ـ القارئ الكريم**

«يقف الدليل العقلى والدليل الأخلاقى على
حرية الإرادة سدًا منيعًا فى وجه الحتمية».

ما إن شببنا عن الطوق، حتى قرع أسماعنا - فى الحوارات الدينية - بشكل متكرر سؤال؛ **هل الإنسان مُسَيَّر أم مُخَيَّر؟** ولا شك أن ذلك السؤال يمثل خبرتنا الأولى مع معضلة حرية الإرادة الإنسانية.

وتتعلق هذه المعضلة فى الطرح الدينى **بالمشيئة الإلهية.** فهل تَرَكَ الإله لنا فى أفعالنا مجالًا لاختيار حقيقى يتم الحساب بناء عليه بعد البعث؟، أم أن طلاقة المشيئة والقدرة الإلهية لا تنسجم مع وجود اختيار حر للإنسان، ومن ثم فما يبدو لنا من حرية اختيار نمارسها ليس إلا شعورًا ذاتيًّا غير حقيقى[1]؟

وما أن تقدمنا فى العمر سنوات قليلة حتى قابلتنا نفس المشكلة فى ثوب فلسفى، إنها المجادلة الكبرى بين الحرية والحتمية. فالحرية تتوازى فى **الطرح الفلسفى** مع الاختيار فى **الطرح الدينى**، حيث يستشعر الإنسان فى كلا الطرحين أنه حر مختار، لكن الاختيار فى الطرح الدينى يزيد بأن له عواقب فى الحياة الآخرة.

وفى الجانب الآخر، إذا أرجع القائلون بالجبر فى الطرح الدينى إلى **طلاقة القدرة والمشيئة الإلهية**، فإن القائلين بالحتمية فى الطرح الفلسفى يرجعونها **إلى أن المقدمات البيولوجية والتربوية والبيئية** لأى فعل كافية **لأن** تفسر الهيئة التى وقع بها الحدث.

وسنتناول فى هذا الفصل مجادلة الحرية والحتمية فى المنظور الفلسفى، ثم نتناول المجادلة فى الفصل القادم من المنظور العلمى، ونختم الكتاب بفصل عن الجبر والاختيار فى المنظور الدينى.

(١) سنطرح هذه المجادلة من المنظور الدينى بالتفصيل فى الفصل الثالث عشر.

الإرادة الحرة(١)

إذا كنا جميعًا نستشعر مسئوليتنا عن أفعالنا، وهو ما يجعلنا نؤمن بحرية الاختيار، فهل نحن نتمتع فعلًا بذلك؟

لا شك أن الفلسفة هى فارس هذا المضمار، فهى أقدر كثيرًا من العلم (حتى الآن) على الإجابة عن هذا التساؤل. ومن أجل أن نفهم الطرح الفلسفى لحرية الإرادة ينبغى أن نفرق بين أنواع **الأفعال الثلاثة**:

١) **الأفعال التلقائية**، تنشأ لاإراديًا من داخل الكائن، وليست عرضة للقهر والإجبار الخارجى، كالنمو ودقات القلب، وعادة لا نكون على وعى بها.

٢) **الأفعال الإرادية**، وهى التى تصدر من داخل الكائن ويمارسها بإرادته، ويشعر بأن لها نهاية، وتشمل الرغبات الفطرية الواعية، كعملية تناول الطعام.

٣) **الأفعال الإرادية المطلقة**، وتشمل الأفعال المختارة التى تقبل التنفيذ أو الامتناع، كشراء هذا العقار أو ذاك.

ومن ثم، فإن **السمة الأصيلة للفعل الحر هى عنصر الاختيار**؛ هل أفعل أو لا أفعل (أقاوم)؟ هل أقوم بهذا الفعل أم أقوم بفعل آخر؟ هل أقبل أم أرفض؟

وقد يبدأ تسلسل ما من الأفكار أو الاختيارات كاختيار حر، ثم يستمر تلقائيًا، مثل قيادة السيارة. إن هذا الفعل يظل فى إطار الأفعال الحرة، ويصبح الإنسان مسئولًا عن الفعل جميعه، بالرغم من استمراره تلقائيًا.

من ثَمَّ، يصبح السؤال المحورى حول حرية الإرادة هو:

«إذا توافرت كل المقدمات والظروف المطلوبة للقيام بفعل ما، فهل سنقوم بهذا الفعل حتمًا؟».

---

(١) المراجع الرئيسة لهذا البحث:

D. Hofstadter 1982, can creativity be Mechanised?
Scientific American, 247, 20 – 29.

P. Molenaar, D. Boomsma and C. Dolan, 1993.
A third source of developmental differences, Behavior Genetics, 223, 519 – 524.

وهناك صياغة أخرى للسؤال:

هل كل اختياراتنا نتائج حتمية للأسباب والدوافع التى تؤثر فينا فى لحظة ما؟

يجيب الجبريون والحتميون عن السؤالين بـ **«نعم»**.

بينما **يجيب الإراديون (الاختياريون - اللاحتميون)** بـ **«لا»**. وينطلق هؤلاء من أن العقل/ الروح يتمتع بحرية الاختيار، أى قادر على القيام بالفعل أو الإمساك عنه بالرغم من توافر الظروف الداعية للفعل.

وتنبع الأدلة الفلسفية على تمتع الإنسان بحرية الإرادة من مصدرين؛ **الدليل الأخلاقى ودليل الوعى**. وإذا كان دليل الوعى يرجع لأسباب أخلاقية، فإن الدليل الأخلاقى يرجع أيضًا لوعينا بحرية إرادتنا.

دليل الوعى على الإرادة الإنسانية الحرة

لا شك أن وعينا هو الشاهد الأول والرئيس على حرية إرادتنا الإنسانية. ويلخص هنرى سيدجويك Henry Sidgwick [1] الموقف ببساطة فى قوله: **«لا شك أننى أستشعر الفرق بين الحالات التى أكون فيها واعيًا تمامًا باختيارى البديل الصواب من بين بديلين، وبين الأفعال التى أكون مجبرًا عليها. بل إن الفلاسفة الحتميين يسلكون فى حياتهم فى ظل مفاهيم حرية الإرادة والاختيار»**.

وإذا درسنا النشاطات العقلية التى نمارس فيها حرية الاختيار؛ مثل الانتباه الإرادى، التروى، المداولة، الاختيار، مقاومة الإغراءات،... وتأملنا مواقف الفلاسفة المختلفة، وجدنا أن المعترضين منهم على حرية الإرادة[2] ينطلقون من ظنهم أننا نكون واعين فقط بما نفعل، وليس بالبدائل التى لا نفعلها. والحقيقة أن هذا تصور خطأ، فنحن نعى ما نتركه مثلما نعى ما نفعله من اختيارات، بل يمكن أن نعى كيف كان يمكن أن نفعل ما لم نفعله.

إن وعينا يؤكد بوضوح أننا على المستوى النفسى:

١) ندعم ونختار بحرية بعض البدائل.

(١) Henry Sidgwiek: (١٨٣٨ - ١٩٠٠) الفيلسوف وعالم الاقتصاد الإنجليزى المهتم بعلم النفس والغيبيات.

(٢) مثل ديفيد هيوم - جون ستيوارت مل.

٢) نقاوم بقوة ميلنا لفعل آخر.

٣) نستشعر أننا نكون مجبرين على القيام ببعض أفعالنا.

إن وعينا الإنسانى يفرق بوضوح بين هذه الأنماط الثلاثة من الأفعال.

كذلك يشعرنا وعينا الإنسانى بأننا إذا كنا نتأثر فى اختيارنا بدوافع مختلفة، **فليس ضروريًّا أن نستجيب للدافع الأقوى** كما يدعى الحتميون الجبريون. وإذا كان هؤلاء يدعون أيضًا أن اختياراتنا تتجه دائمًا إلى الأيسر أداءً (تماشيًا مع قانون المحافظة على الطاقة) فإن واقع الأمر ووعينا بما نفعل ينفى ذلك، **فكثيرًا ما نختار ما هو أشق وأكثر كُلفة** وأكثر استهلاكًا للطاقة إذا كنا مقتنعين به.

الدليل الأخلاقى على الإرادة الإنسانية الحرة

عند معارضة مفهوم الإرادة الحرة تتردد اصطلاحات متخصصة مثل الحتمية Determinism والجبرية Fatalism والضرورية Necessarianism ، وتتعارض هذه المفاهيم بشكل مباشر وواضح مع المفاهيم الأخلاقية والمسئولية الأخلاقية. فمفاهيم مثل الواجب والالتزام الأخلاقى والمسئولية والعدل والاستحقاق والأهلية و.... مفاهيم متجذرة فى الوعى الإنسانى، تعكس مدى **مسئولية الإنسان عن أفعاله**، كما تثبت بشكل واضح أن أفعال الإنسان لا تنبع جميعها من الظروف المحيطة، فكلنا يشعر بأننا نختار ألا نخالف القانون.

وعندما نشعر بأن إنسانًا ما **يستحق العقوبة** لجريمة اقترفها، أو **يستحق المكافأة** على عمل بطولى قام به بنكران شديد للذات، فذلك يثبت أنه مسئول عن فعله هذا، وأنه كان يملك ألا يقوم بذلك الفعل.

وانطلاقًا من قناعة **علم النفس** بإرادتنا الحرة، يتمسك **القانون الجنائى** بألا تتم إدانة المتهم بارتكاب جريمة ما إلا إذا توافرت لَدَيَّه عند القيام بالجريمة **أربعة شروط**: أن يكون قادرًا على تخيل بدائل أخرى للفعل المطروح، وأن يكون قادرًا على الامتناع عن الفعل، وأن يكون واعيًا بنتائج فعاله على المدى القريب والبعيد، وأخيرًا أن يكون راغبًا فى النتائج التى ينتج عنها الفعل. هل هناك تأكيد لأهمية حرية الإرادة أكثر من ذلك؟!

ونستثنى من هذه المسئولية **الأطفال والمجانين**؛ لأنهم لا يتمتعون بحرية الإرادة، بل تحركهم الدوافع الداخلية والخارجية فحسب.

يتضح من ذلك أن القائلين بالحتمية يعارضون أبسط المفاهيم الأخلاقية المتفق عليها عالميًّا، ويفعلون ذلك دون أدنى دليل.

ويعارض فيلسوف الإرادة الحرة ويليام جيمس William James [1] موقف الحتميين الرافض لدور حرية الإرادة فى تبنى المنظومة الأخلاقية، فيقول: إذا كان قلبك «**لا يريد**» عالمًا تظلله القيم الأخلاقية فلن تؤمن بأى من هذه القيم.

وبعد أكثر من مائة عام بعد ويليام جيمس، صرنا نحيا فى **عصر ما بعد الحداثة** الذى يرفض كلًّا من حرية الإرادة والقيم الأخلاقية. ومع ذلك يكشف الفيلسوف الملحد توماس ناجل Thomas Nagel [2] قناعته الدفينة بالإرادة الحرة حين يقول: «أتمنى ألا يوجد إله، لا أريد أن أحيا فى عالم به إله»، إن ناجل «**يتمنى!**» و «**لا يريد!**».

وإذا كنا نشكر لناجل أمانته فإننا نتساءل، لماذا يريد أن يحيا فى عالم ليس له إله؟ ويجيب عن تساؤلنا ذلك المفكر مورتمر أدلر Mortmer Adler [3] بالنيابة عن ناجل قائلًا: «إذا اختار الإنسان الحياة فى ظل الإله، تطلب ذلك تغييرًا جذريًّا فى حياته اليومية». وقد كان أدلر موفقًا إذا لم ينه حياته رافضًا للإله، بل تبنى المسيحية فى الثمانينات من عمره.

طبيعة وحدود الإرادة الحرة

يعتبر الحتميون أن تحصيل مصلحة وفائدة من فعل ما دافعًا ملزمًا للشخص لتبنى هذا الفعل، ومن ثم يتخذون من توافر المصلحة والفائدة دليلًا على غياب الإرادة الحرة. **هل يريد هؤلاء أن يختار الإنسان ما يتعارض مع مصلحته وفائدته حتى ينسبون فعله إلى الإرادة الحرة؟!**

إن حرية الإرادة لا تعنى اختيار الفعل فى غياب الدافع والمصلحة والفائدة، ولا تعنى تَبَنى اختيار أى شىء دون سبب!! **إن حرية الإرادة لا تعنى العشوائية أو غياب السببية**، فالإنسان لا ينبغى أن يختار - مثلًا - ما يجلب عليه البؤس بدعوى حرية الإرادة. فالمخلوق العاقل (الإنسان)**يختار دائمًا ما يستشعر خيره أو صوابه**، وهذا الخير والصواب هو ما يكون فيه

(١) William James: (١٨٤٢ - ١٩١٠) الفيلسوف والطبيب وعالم النفس الأمريكى الشهير، ويُعتبر أبو علم النفس الأمريكى.

(٢) Thomas Nagel : (١٩٣٧ -   ) أستاذ الفلسفة بجامعة نيويورك، المهتم بفلسفة العقل والأخلاق والسياسة.

(٣) Mortmer Adler : (١٩٠٢ - ٢٠٠١) أستاذ الفلسفة والمفكر الأمريكى.

المصلحة أو الفائدة أو المتعة أو الحكمة أو الحذر أو النبل أو الشرف أو الجمال أو .... فمن بين هذه الأشياء يقوم الإنسان السوى عادة بالاختيار.

وفى الوقت نفسه **لا تعنى الإرادة الحرة أن على الإنسان أن يبذل جهدًا واعيًا فى الاختيار فى كل خطوة فى حياته**، فكوْن الإنسان ـ مثلًا ـ كائنًا منطقيًّا لا يعنى أننا نمارس المنطق مع كل نَفَس يتردد فى صدورنا، إن الكثير من نشاطاتنا الحيوية يتم بآليات انعكاسية وآليات لا إرادية وآليات تم اكتسابها.

إن سلاسل نشاطاتنا التى تملأ حياتنا اليومية؛ الاستيقاظ من النوم – تناول الوجبات – المذاكرة – العمل... تم اكتسابها، وبذلك تسير فى الاتجاه الأقل مقاومة وعناء. ولا يعنى ذلك غياب **مواقف عديدة من الاختيار الحر فى أثناء** ممارسة هذه النشاطات الاعتيادية؛ هل أمد يدى إلى هذا الصنف من الطعام أم إلى صنف آخر؟ هل استذكر كذا أم كذا؟...

كذلك، فإن اعتيادنا القيام بهذه الأفعال لا يعنى سقوط المسئولية الإنسانية، فبالرغم من أننا لا نمارس اختيارًا فى كل خطوة أو فعل فى هذه التصرفات فإننا نظل مسئولين عنها، إذ:

١) اخترنا بدايةً القيام بالفعل بإرادتنا.

٢) نوافق على هذه الأفعال ونتقبلها كلما عرضناها على منظومتنا الأخلاقية من وقت لآخر.

٣) تَقَبَّلنا اكتساب هذه التصرفات كأفعال معتادة.

ولا شك أن الظهور الأوضح لحرية الإرادة يكون عند الاختيار بين الصواب والخطأ فى **المفاهيم الأخلاقية**، وأيضًا فى المواقف التى يستغرق فيها اتخاذ القرار **وقتًا وجهدًا طويلين**، كقرار شراء عقار مثلًا. وفى الوقت نفسه فإن هذه الاختيارات لا تتم مع كل شخص بنفس الطريقة وبنفس القرار، لكنها مفتوحة لاختيارات متباينة تؤكد غياب الحتمية. إن هذه الاختيارات تنشأ مع الإنسان وتتطور مع نضجه، حتى إننا بمنتهى اليقين ننسب الفعل لأنفسنا.

المنظور العلمى لحرية الإرادة

كان العلم حتى نهاية القرن التاسع عشر ينظر إلى العالم باعتباره **جسيمات صغيرة للغاية** تتحرك فى فراغ ثلاثى الأبعاد، وتؤثر هذه الجسيمات فى بعضها البعض بقوى يحددها موضعها

وسرعتها وشحنتها، وهذه القوى تحكمها قوانين الحركة والجاذبية لنيوتن. ومن ثم **فكل حالة لموجود فى العالم تحددها حالته السابقة، لذلك صار العلم يتبنى الحتمية**. ولما كان الماديون ينظرون إلى الإنسان باعتباره تجمعات من هذه الجسيمات، **لم يعد الإنسان بالنسبة لهم إلا ساعة دقيقة منضبطة بالقوانين**، لذلك **صار القول بحرية الاختيار مجرد توهمات**.

وبانقضاء القرن التاسع عشر، اعترى النظرة العلمية للوجود تغير جذرى، بعد أن عجز الفيزيائيون عن فهم فيزياء الجسيمات تحت الذرية فى إطار منظومة فيزياء نيوتن الحتمية.

لذلك، بزغت فى مدخل القرن العشرين **ميكانيكا الكم والنظرية النسبية**، اللتان تبنتا فلسفة جديدة، تدور حول أن كل النظريات والتصورات العقلية للعالم ليست إلا أدوات تعكس **خبراتنا الشخصية!!** وأنها ليست صورًا حقيقية للعالم!!

لقد ثبت أن النظر للعالم باعتباره فراغًا تتحرك فيه الجسيمات الصغيرة فى مدارات ليس إلا توهمًا، ثبت ذلك بتجارب حقيقية. كذلك ثبت أن **الحتمية** التى تعنى أن كل أحداث الكون يمكن تفسيرها بما يسبقها من أحداث هى **توهم أيضًا**.

لقد ثبت أن **الحرية Freedom** التى نفتها فيزياء القرن التاسع عشر قد أصبحت جزءًا من الوجود، بل هى جوهره. وثبت أيضًا أن النظر إلى قوانين الطبيعة باعتبارها توصيفًا حتميًّا لوقوع الأحداث ليس إلا نقصًا فى المعلومات. لقد أصبح ضروريًّا **أن ننظر إلى قوانين الطبيعة باعتبارها تحديدات** Restrictions (حالات خاصة وليست مطلقة) **للعالم الاحتمالى واللاحتمى**.

ولا يزال **التنسيق بين لا حتمية عالم الجسيمات الصغيرة وحتمية عالم الأجسام الكبيرة** من أكبر ألغاز العلم الحديث، التى يبدو أنه لن يتوصل إلى حل لها. فكيف يُنتج سلوكٌ لاحتمى سلوكًا حتميًّا !! مثال ذلك: تاجر اعتاد أن يعقد صفقات يكسب فى بعضها ويخسر فى البعض الآخر (لاحتمية)، لكنه فى آخر كل شهر يربح من صفقاته كلها مبلغًا ثابتًا من المال (حتمية)! كيف يؤدى المكسب والخسارة غير المقننين إلى مكسب ثابت؟! لا بد أن يكون وراء ذلك تخطيط وتنسيق.

لقد أثبت العلم أن «**الحرية أصيلة فى عالمنا**». إذا نظرنا إليها خارجنا رأيناها متمثلة فى **لاحتمية ميكانيكا الكم**، وإذا نظرنا إليها داخلنا كانت هى **حرية الإرادة التى هى جوهر الذات الإنسانية**، فهى عنصر وجودنا الأول والأساسى.

لقد تأكد للعلم أن الحرية مبدأ أَوَّلى، غير مشتق من شيء آخر، بينما **الحتمية الظاهرة فى قوانين الطبيعة مشتقة، فهى تحديد إلهى**، يُلزم العالَم المشاهَد بالسلوك طبقًا لقوانين، حتى يتثنى للإنسان (الخليفة) التعامل مع الوجود.

عقيدة الحتمية [1]

إن «**الحتمية**» اصطلاح عام شامل، يستخدمه أنصاره **فى جميع مناحى الحياة**، ويعنى أن كل أحداث العالم تقع نتيجة لأحداث سابقة عليها، ومن ثم **لا جديد تحت الشمس**. وإذا كان هذا المفهوم صحيحًا، فإن ذلك يعنى إمكانية التنبؤ بأحداث المستقبل، بل وتصبح تلك الأحداث معلومة كأحداث الماضى. ومن أهم انعكاسات هذه العقيدة **اعتبار أن الحرية الإنسانية مجرد توهمات**، ويستتبع ذلك تتابعات خطيرة على الأخلاق والقانون والدين.

ويُستخدم **القول بعقيدة الحتمية** The Doctorine of Determinism فى أربعة مجالات؛ وهى الحتميات الدينية والفيزيائية والتربوية والجينية:

الحتمية الدينية

لعل **مجادلة «الجبر والاختيار»**[2] من أكثر القضايا سخونة فى الفكر الدينى، وتتلخص فى التساؤل الذى كنا نطرحه فى صبانا؛ «هل الإنسان مسير أم مخير؟». وقناعتى أن هذه القضية ما كان ينبغى لها أن تُطرَح، فحرية الاختيار الإنسانى أمر بديهى، بدونه تنهار المنظومة الدينية تمامًا، إذ تُسقِط المسئولية الشخصية عن الأفعال وما يستتبعها من حساب وجزاء بعد البعث من الموت.

الحتمية الفيزيائية

لعل من أهم التوابع الفلسفية للثورة العلمية التى أنهت ظلام العصور الوسطى فى أوروبا كان **القول بالحتمية الفيزيائية**. فقد ثبت أن العالم المادى الكبير عالم منضبط يلتزم فى سلوكه بالقوانين الفيزيائية، حتى يمكن التنبؤ إلى حد بعيد بما سيكون عليه العالم فى المستقبل.

---

(١) المرجع الرئيس لهذا المبحث مقال:
The Great Debate: Determinism and free will in Science and philosophy, 2006.

(٢) سنتناول هذه المجادلة بالتفصيل فى الفصل الأخير من الكتاب.

وبالرغم من أن مساهمة إسحق نيوتن فى هذه القوانين كانت هى الكبرى، من خلال قوانينه فى الحركة والجاذبية، فقد احتفظ نيوتن بدور لإله فى منظومة الكون، تَمَثَّل فى أنه هو الذى وضع القوانين وأنه يلزم بها الموجودات، بل ويُعَدِّل بشكل مباشر من منظومة الكون عند اللزوم، حتى أُطلق على موقف نيوتن اصطلاح «**حتمية نيوتن المؤمنة**».

وعندما أقصى الفلكى الفرنسى «لابلاس» الإله عن منظومة الكون، أصبحت الحتمية الفيزيائية مطلقة، وصارت تُعرف بـ «**حتمية لابلاس المطلقة**».

ثم جاء القرن العشرين بثورتى فيزياء الكم والنظرية النسبية كما ذكرنا منذ قليل. وقد أسقطت النظرية الأولى النظرة الحتمية عن **العوالم تحت الذرية**، واكتشف العلم أن **هذه العوالم تسلك بحرية (لاحتمية) لا تحكمها إلا الاحتمالية**. كذلك أسقطت نسبية أينشتين مفهوم ثبات هيئة **العوالم الكونية الكبيرة، بعد أن جعلت للراصد للظواهر دورًا فى توصيف الظاهرة. بذلك أَفُل مفهوم الحتمية عن العوالم المادية الأَوْلَى (بداهة) بالالتزام بالحتمية.**

الحتمية التربوية

لا شك أن للتربية والتنشئة دورًا كبيرًا فى تشكيل شخصية الإنسان، ويتداخل هذا الدور مع دور الجينات، فإذا كان خُلُق وسلوك الأطفال يتأثر بشكل كبير بأسلوب تربيتهم فلا ينبغى أن ننسى أنهم يرثون جيناتهم من والديهم. وقد عَبَّر عن هذه الحتمية ألبرت باندورا A. Bandura [1]، حين تبنى أن أطفال الوالدين العدوانين سيصبحون عدوانين، من خلال التوجيه والملاحظة والتقليد.

وبالرغم من دور العوامل الجينية والتربوية والبيئية فى المنظومة الأخلاقية والسلوكية، فقد أثبتت الدراسات على **التوائم المتطابقة** التى تربت فى بيئة واحدة وجود اختلافات أخلاقية وسلوكية بينها، مما ينفى **حتمية دور التربية** وإن كان لا يلغى تمامًا دورها.

الحتمية البيولوجية[2]

لعل أكثر جوانب العلم ارتباطًا بمجادلة الحرية والحتمية هو مفهوم «**الحتمية الجينية**»، والتى تعنى أن الجينات التى نرثها عن والدينا تحدد جميع صفاتنا. وإذا كانت الحتمية الجينية صحيحة على مستوى بنية الجسم الإنسانى ووظائفه، فالحتميون يوسعون استخداماتها لتشمل

(١) Albert Bandura : (١٩٢٥ -) أستاذ علم النفس الاجتماعى الأسبق بجامعة ستانفورد.
Bandura (1961):Transmission of agression throught the Imitation of Aggressive models

(٢) سندرس هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل القادم.

أيضًا **منظوماتنا الأخلاقية والسلوكية**، ويعتبرون أننا نرقص على أنغام شفراتنا الوراثية، ومن ثم فنحن **عبيد لجيناتنا**. وسنرى فى الفصل القادم كيف انهار هذا المفهوم[1].

وإذا كان القائلون بالحتمية الجينية يتبنون أن صفاتنا الوراثية (نعومة الشعر، لون العينين، القابلية للأمراض....) تحددها جيناتنا، فعلماء البيولوجيا الجزيئية يفتحون بأبحاثهم الحديثة الباب لحرية الإرادة!! **لقد أصبح فى مقدرة العلم أن يغير من صفات الإنسان بتعديل بنيته الجينية**، ما يعنى أننا أصبحنا قادرين على أن نتحكم فى جيناتنا **ونشارك فى تصميم شفراتنا الوراثية**، ومن ثم يمكن فى المستقبل أن نتحكم فى بنيتنا الجسدية، مما يعنى قدرًا أكبر من حرية الإرادة!!

بذلك يمكننا القول ـ بعد أن فندنا الحتميات الدينية والفيزيائية والتربوية والبيولوجية ـ إن الإنسانية قد أصبحت فى ظل العلم الحديث تحيا فى «**عصر انهيار الحتميات**».

لماذا تمثل حرية الإرادة مشكلة[2]؟!

قناعتان متضادتان

عند تأمل مفهوم حرية الإرادة تقابلنا **قناعتان «تبدوان» متناقضتين بصورة مطلقة، إذ يبدو** كل طرف من التناقض صحيحًا تمامًا ولا مفر منه.

(١) يتردد فى مجال الدراسات الجينية اصطلاحان لهما علاقة بمجادلة الحرية والحتمية. الاصطلاح الأول هو: **الثبات الجينى** Genetic Fixity، ويعنى أن الجينات تحدد نشأة الكائنات، فالفرق البيولوجى بين كائن وآخر هو فرق جينى، ومن ثم فإن معرفة جينوم الكائن تمكننا من معرفة نوعه (إنسان أم شمبانزى) والتنبؤ بسلوكه. وبالرغم من ذلك فإن معرفة جينوم الوالدين لا تمكننا من التنبؤ بصفات الأبناء، فهناك عوامل بيولوجية عديدة تُعجز عن الحصر (يطلق عليها الماديون اصطلاح **الصدفة**) تلعب دورًا كبيرًا فى تشكيل الإنسان. ومن ثم **فالثبات الجينى لا يفرض على نشأة الإنسان أية حتمية**.

والاصطلاح الجينى الثانى هو: **السعة الخِلْقية** Innate Capacity، وتعنى أن الناس كالأوعية التى تنتظر ملئها، فمن سعته كبيرة يستوعب أكثر من غيره، فنجد من الناس مَن هم معتدلى القوام ومَن هم أقل ومَن هم أكبر. ولا شك أن لإمكانيات الطبيعة الدور الأكبر فى ملء السعة الخِلقية، فإذا كانت الموارد قليلة كان الجميع فقراء ومن ثم ضعفاء، وإذا كانت الموارد غزيرة امتلأ كل وعاء تبعًا لسعته.

وتبعًا للعاملين السابقين (الثبات الجينى والسعة الخِلقية) تتحدد «**الاختلافات الإحصائية**». فنجد ـ مثلًا ـ أن معدل الذكاء تحدده عوامل وراثية بنسبة ٨٠٪ وعوامل بيئية مكتسبة بنسبة ٢٠٪. وكانعكاس للعوامل المكتسبة نجد ـ مثلًا ـ أن تلميذ المدرسة الابتدائية المعاصر أقدر على إجراء الحسابات الرياضية من أكثر علماء الرياضيات القدامى ذكاء! فهؤلاء كانوا يتعاملون بالأرقام اليونانية الصعبة (I II V IX) التى تخلو من الصفر. إن هذا المثال يجسد دور العوامل البيئية ويقلل من دور العوامل الجينية.

(٢) المرجع الرئيس: الفصل الثامن من كتاب «العقل Mind» تأليف الفيلسوف البريطانى جون سيرل John R. Searle ترجمة أ. د. ميشيل حنا متياس، سلسلة عالم المعرفة، سبتمبر ٢٠٠٧.

تتبنى القناعة الأولى أن **كل حادث يقع فى العالم له مقدمات سابقة عليه، تسير فى سياق معين، وكافية لأن تحدد أن الحادث سوف يقع على هذا النمط**. فمثلًا، إذا تركت الكتاب الذى فى يدك الآن فإنه سيسقط، إذ تؤثر فيه عدة قوى تحتم سقوطه. وتنطبق هذه القناعة على كل ما يمر بنا من أحداث.

وتتبنى القناعة الثانية، أننا فى الواقع **نمتلك إرادة حرة تعكس حرية إنسانية**. إن حياتنا مليئة بالتجارب التى تثبت أننا نقوم بأنفسنا بصنع القرار، كما تؤكد تجاربنا الواعية أن مقدمات وأسباب قراراتنا وأفعالنا غير كافية لفرض هذه القرارات والأفعال.

إن أسلوب تأليفى لهذا الكتاب الذى بين يديك ـ كمثال ـ يؤكد أن **هناك فجوة بين المقدمات والأسباب وبين اتخاذ القرار ثم القيام بالفعل**، وهى **فجوة مركبة** من ثلاث فجوات متتالية. فوجود الدوافع لتأليف الكتاب لا تجبرنى على اتخاذ قرار التأليف. والفجوة الثانية هى التى بين اتخاذ القرار وبدء القيام بالعمل. والفجوة الأخيرة بين بداية التأليف واستمراريته حتى نهايته، فلا يكفى أن تبدأ التأليف ثم تترك الأمور تجرى تلقائيًّا. إن الأمر ليس كأن تُسقط جسمًا من سطح المنزل! فالأحداث لن تتداعى تلقائيًّا، بل عليك أن تجدد القرار ببذل الجهد بشكل متواصل للاستمرار بالفعل حتى نهايته.

لا شك أن هذه الفجوة المركبة لا توجد فى جميع أفعالنا الإنسانية، ففى بعض الأحيان نجد أنفسنا **فى قبضة اندفاع عاطفى طاغ**، لا نستطيع معه استشعار بدائل متاحة، بل نتصرف التصرف الوحيد المتاح أمامنا والذى تفرضه حالتنا النفسية.

من هاتين القناعتين المتضادتين؛ قناعة أن كل حادثة لها مقدمات وشروط قد تكون كافية لتفسيرها، وقناعة حرية اختيارنا لتمتعنا بإرادة حرة ـ بغض النظر عن بعض من ينكرونها نظريًّا ـ **فهل من حل للتوفيق بين هذا التضاد؟**

سنجيب عن هذا السؤال بعد أن نتأمل ظاهرة البطة والأرنب!!

حتى الإدراك ليس حتميًّا !!

عادة ما يسبق ممارسة **«حرية الإرادة فى اتخاذ القرار» عمليات إدراكية متعددة، يجمع فيها** الشخص العديد من المعطيات التى يبنى عليها قراره.

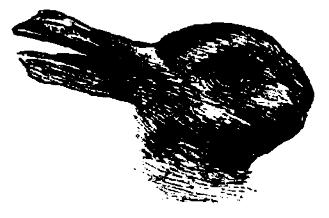
والظاهر للإنسان أن العمليات الإدراكية عمليات حتمية؛ فإذا ألقى شخصان متجاوران نظرة على الوردة التى أمامهما، مع توافر عناصر الإبصار (وجود الوردة أمام أعينهما - إضاءة جيدة - العين فى وضع مناسب - حدة إبصارهما متقاربة...) فإن كليهما سيبصر الوردة على نفس الهيئة. **إن المعطيات الواحدة تؤدى حتمًا إلى تجربة إدراكية بصرية واحدة**. نخرج من ذلك بالظن أن **الإدراك يختلف عن اتخاذ القرار فى أنه عملية حتمية**.

ولكن...

تأمل (شكل - ١)، ماذا ترى؟

أتراه بطة؟ نعم.. أصبت...

أتراه أرنب؟ نعم.. أصبت...



(شكل: ١)

هل تستطيع أن تبدل بين رغبتك فى أن تراه كبطة أو كأرنب؟ وهل يستجيب إدراكك لهذه الرغبة؟... نعم.

إنك تستطيع «بإرادة حرة» أن **تختار الهيئة التى ستدرك عليها الرسم**، بطة أم أرنب! يا الله...

كنا نظن أن الإدراك حتمى، فإذا بنا نكتشف أننا **نستمتع بالقدرة على توجيه الإدراك**.

وإذا كانت هناك «**حرية إرادة فى الإدراك**»، وهو عملية ذات آليات مادية صرفة، **فهل ننكر «حرية الإرادة فى اتخاذ القرار**»، وهو أقل مادية من الإدراك إلى حد بعيد؟!

هل مِن توافق يزيل التناقض؟

يقبل معظم الفلاسفة[١] الرأى القائل بتوافق أطروحة الإرادة الحرة مع أطروحة الحتمية، أى أن كلتا الأطروحتين صواب، ويُدعى هذا الرأى **بالتوافقية** Compatibilism.

كان الفيلسوف الكبير ويليام جيمس William James أول من أَصَّل لمفهوم التوافقية تحت اسم «**الحتمية اللطيفة**» كى يميزها عن «**الحتمية القوية**» التى **لا** تقبل وفاقًا مع حرية الإرادة، بل تعتبرها حرية كاذبة.

نبدأ البحث عن هذا التوافق بتأمل هذا المثال...

(١) من هؤلاء: توماس هوبز، ديفيد هيوم، جون ستيوارت مل. وفى القرن العشرين: أ.ج. آير، تشارلز ستيفنسون.

إذا قررت لسبب ما أن أرفع ذراعى اليمنى، وفعلًا رفعتها، فإن **وجود السبب لا يلغى حرية قرارى**. لكن إذا وجه شخص مسدسًا إلى رأسى وأمرنى أن أرفع ذراعى اليمنى، فإننى لا أفعل ذلك طوعًا بل تحت التهديد والضغط. من ذلك المثال ندرك أن **مفهوم «حر» لا يتعارض مع «وجود السبب»، بل يتعارض مع «الجبر» أو «الفرض» أو «الإجبار»**.

والآن نقف مع الفيلسوف المعاصر مارك **بالاجير Mark Balaguer** [(١)]، الذى حقق إنجازًا طيبًا فى التوفيق بين الحتمية والحرية. يحدد بالاجير رؤيته لموقف الفلسفة من هذه القضية، فيتبنى أن **ليس هناك دافع وجيه لإنكار الإرادة الحرة التى يستشعرها كل منا**. ويبلور بالاجير التساؤلات والمشكلات التى يثيرها مفهوم الإرادة الحرة فى ثلاثة مفاهيم تتبناها **«النظرة التقليدية» لمجادلة الحرية والحتمية**، وكل من هذه المفاهيم يبدو منطقيًّا، لكن ثلاثتها تبدو غير متوافقة:

١) هناك حتمية، فكل حدث يرتبط بحدث مسبق، ويخضع لقوانين السببية.

٢) يتمتع الإنسان بحرية إرادة مطلقة.

٣) لا توافق بين الحتمية وحرية الإرادة.

ثم **يطور بالاجير النظرة لمجادلة الحرية والحتمية** فى ثلاث جوانب تسعى لإحداث التوافق، فيقرر أنه:

- لا يوجد مبرر وجيه للشك فى حرية الإرادة.
- بعد أن كانت النظرة التقليدية هى «صواب الحتمية»، أصبحت النظرة أن الحرية المطلقة مفهوم خطأ.
- لا دليل على عدم التوافق.

ومن خلال هذه النظرة أحدث بالاجير **ثورة فلسفية** تنطلق من أن فهمنا لمجادلة الحرية والحتمية يتطلب تحديد المقصود بالإرادة الحرة. فإذا كنا نتحدث عن إرادة **حرة مطلقة** كان التوافق خادعًا وغير ممكن، أما إذا كانت **حرية الإرادة محددة** بالظروف الإنسانية أمكن التوافق.

إذا كان طرح بالاجير يحقق توافقًا ـ من الناحية الفلسفية ـ بين الحرية والحتمية، فإنه لم يُجب

---

(١) Mark Balaguer: (١٩٦٤ –) أستاذ الفلسفة بجامعة كاليفورنيا.
هذا الطرح من كتابه Free Will as an open scientific problem

عن إحدى قضايا المجادلة المحورية: هل تُعتبر أسباب ودوافع أفعالنا مقدمات كافية لفرض قرار ما بالفعل وليس قرارًا آخر؟

وتتطلب الإجابة عن هذا السؤال تأمل الجانب النفسى لاتخاذ القرار عند الإنسان.

هل الأسباب النفسية حتمية التأثير؟

والسؤال بشكل مُفَصَّل؛ هل خلفياتنا النفسية بما تشتمل عليه من معتقدات ورغبات وآمال ومخاوف وإدراك للواجبات والالتزامات و... **كافية لدفعنا لتبنى قرار محدد؟**

وهل يمكن مقارنة تأثير هذه الأسباب بالإلزام الذى يفرضه إدمان المخدرات أو الكحول مثلًا؟

وهل قرارى بأن أعطى صوتى الانتخابى لأحد المرشحين يعادل تمامًا السلوك الإلزامى الناجم عن الإدمان؟

للأجابة عن هذه التساؤلات فلنتأمل المثال التالى:

فى **تجربة تنويم مغناطيسى،** طُلب من المتطوع أن يذهب – بعد خروجه من حالة التنويم – إلى النافذة ويفتحها عندما يسمع كلمة ألمانيا. وعندما أفاق الشخص وسمع كلمة ألمانيا ادعى سببًا له قبول عقلى لفتح النافذة، فقد قال: الهواء فى الغرفة فاسد جدًّا، هل لديكم مانع إذا فتحت النافذة لتجديد الهواء؟

لقد قام المتطوع بالفعل كأنه حرٌّ تمامًا، لكننا نحن ندرك أن تصرفه كان حتميًّا. لقد كان الفعل حرًّا فى ظاهرة، لكن الشخص كان لديه دافع طاغٍ وغير واع، بينما تتطلب الحرية الكاملة إدراك المرء لدوافعه. لذلك يختلف سلوك هذا الشخص عن سلوك المدمن، الذى يعرف تمامًا أنه فى قبضة الإدمان.

إذا انتقلنا من التجربة إلى المجادلة، نجد أن الحتميين يتبنون أن كل تصرفاتنا تشبه تصرف هذا النائم، لكننا لا ندرى!! إذ إن لدينا دوافع نفسية طاغية غير واعية.

ونحن ليس لدينا مانع من قبول ذلك الافتراض، **بشرط أن يقدموا عليه الدليل.**

المدهش أن الحتميين والملاحدة عندما يناظرون المؤمنين بحرية الإرادة، فإنهم يبذلون أقصى

الجهد لإقناعنا بأن نتخلى عن الإيمان ونتبنى الإلحاد. إنهم بذلك **يخاطبون فينا حرية الإرادة التى يتنكرون لها!!**

وفى إحدى المناظرات مع أحد هؤلاء قلت له: **ألا تدرى أنك الآن تخاطب إرادتى الحرة وتدعوها لأن تتنكر لحرية الإرادة!!** وسألته: هلا قلت لى ما الذى تنكره عَلَيَّ بالتحديد، أتنكر عَلَيَّ القدرة على تبنى أو رفض ما تقول؟! **إذا كان الأمر كذلك فلِمَ تنفق معى هذا الجهد!!**

لم يحر الحتمى جوابًا، وأُسقط فى يده.

نخرج من الفصل بأنه إذا كان مفهوم الحتمية مثيرًا نظريًّا وفلسفيًّا، فإن **الأدلة الفلسفية والواقعية تنكره**، بالإضافة إلى أنه **غير مقبول ومستحيل واقعيًّا**. فانطلاقًا منه **تسقط المسئولية الأخلاقية والشخصية ويقتل الناس بعضُهم بعضًا دون مساءلة**. لذلك، فإن **تبنى حرية الإرادة أمر لا مفر منه، وبدونه تستحيل الحياة.**

والمدهش أن الفكر المادى الذى يتبنى الحتمية، هو بانى الحضارة المادية المعاصرة، التى هى أكثر الحضارات دعوة للحرية، وهى الحضارة التى دخلت بنا عصر انهيار الحتميات!!

القارئ الكريم...

ترجع أهمية هذا الباب إلى ضرورة **تأكيد «حرية الإرادة الإنسانية»**، حيث قد يتبادر إلى الذهن أن الإنسان مُجْبَر فى تبنيه للإلحاد أو الإيمان، وذلك بسبب تأكيدنا لدور العوامل النفسية وأيضًا العوامل البيولوجية فى منظومة الإيمان.

وقد تناولنا فى هذا الفصل **مجادلة الحرية والحتمية من المنظور الفلسفى**، واستشهدنا على تمتع الإنسان بالإرادة الحرة بدليلين، الأول هو **دليل الوعى**، حيث إن وعينا بحريتنا هو الشاهد الأول والرئيس فى هذه المجادلة. والدليل الثانى هو **الدليل الأخلاقى**، فمسئولية الإنسان عن أفعاله (اجتماعيًّا وقضائيًّا) أمر بديهى، بحيث أصبح القائلون بالحتمية يعارضون أبسط المفاهيم الأخلاقية المتفق عليها عالميًّا، بالرغم من أنهم يسلكون فى حياتهم تبعًا لمفهوم الإرادة الحرة!!

ولا تعنى حرية الإرادة **غياب السببية أو العشوائية**، فالإنسان العاقل يختار دائمًا ما يستشعر خيره أو صوابه، كما لا تعنى أن على الإنسان أن يبذل جهدًا واعيًّا فى الاختيار فى كل خطوة فى حياته، ولا تعنى كذلك أن اعتيادنا القيام ببعض الأفعال يُسقط المسئولية الشخصية.

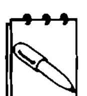
هذا وقد فَنَّدَ العلم ما كان يدعيه الحتميون والجبريون من الحتميات الدينية والفيزيائية والتربوية والبيولوجية. إن الإنسانية فى ظل العلم الحديث قد أصبحت تحيا فى «**عصر انهيار الحتميات**».

وبالرغم من بديهية القول بحرية الإرادة، فإن هذا المفهوم يمثل عند البعض مشكلة فلسفية، إذ تقابلنا عند تأمله قناعتان تبدوان صحيحتين ومتناقضتين بصورة مطلقة. تتبنى القناعة الأولى أن **كل حادث يقع فى العالم له مقدمات سابقة عليه، تسير فى سياق معين، وكافية لأن تحدد أن الحادث سوف يقع على هذا النمط**. وتتبنى القناعة الثانية، أننا فى الواقع **نمتلك إرادة حرة تعكس حرية إنسانية**. ويقبل معظم الفلاسفة المعاصرين الرأى القائل بتوافق أطروحة الإرادة الحرة مع أطروحة الحتمية، أى أن كلتا الأطروحتين صواب، ويُدعى هذا الرأى **بالتوافقية** Compatibilism.

لقد أثبت العلم أن «**الحرية أصيلة فى عالمنا**». إذا نظرنا إليها خارجنا رأيناها متمثلة فى **لاحتمية ميكانيكا الكم**، وإذا نظرنا إليها داخلنا كانت هى **حرية الإرادة التى هى جوهر الذات الإنسانية**، فهى عنصر وجودنا الأول والأساسى.

***

الفصل الثانى عشر



العلم بين الحرية والحتمية

- **ـ علم النفس ومجادلة الحرية والحتمية**
  - ـ علم النفس والحتمية
  - ـ علم النفس والإرادة الحرة
  - ـ المحصلة
- **ـ علوم المخ والأعصاب ومجادلة الحرية والحتمية**
- **ـ نشاط المخ الكهربائى ومجادلة الحرية والحتمية**
  - ـ تجربة ليبيت
    - أخطاء تجربة ليبيت
  - ـ تأملات دينية
- **ـ الأمراض العصبية والنفسية ومجادلة الحرية والحتمية**
  - ـ متلازمة المخ المنقسم
  - ـ اضطرابات الوعى بالذات
  - ـ اضطرابات الشخصية
- **ـ الآليات العصبية للاختيار الإنسانى**
  - ـ مساحة الاختيار الإنسانى
  - ـ مراكز الاختيار الإنسانى
  - ـ مستويات الاختيار الإنسانى
- **ـ أكذوبة الحتمية الجينية**
  - ـ لسنا عبيدًا لجيناتنا
  - ـ البيولوجيا الجديدة
  - ـ تلاشى الحتمية الجينية
  - ـ آليات التحكم فى الجينات
  - ـ مخ الخلية وسر حياتها
  - ـ غشاء الخلية المُعجز الأعجوبة
- **ـ الكلمة النهائية**
- **ـ القارئ الكريم**

«لقد قال العلم كلمته شبه النهائية، وكانت الكلمة فى صف الحرية وضد الحتمية».

تقرير مؤسسة تمبلتون

تناولنا فى الفصل السابق مجادلة الحرية والحتمية من المنظور الفلسفى الذى شُغِلَ بها قُرابة الخمسة والعشرين قرنًا. وعندما أدلى العلم الحديث بدلوه فى المجادلة فلا شك أنه قد أضاء بعض جوانبها التى استعصت على الفلسفة، لكنه وقف عاجزًا فى مواجهة بعض الجوانب الأخرى، وربما زاد بعض الجوانب حيرة وتعقيدًا.

لذلك، سنتناول فى هذا الفصل أحدث ما قدمه العلم فى شقيه المهتمين بهذا المجال؛ **علم النفس** Psychology **وعلوم المخ والأعصاب** Neuroscience. ونختم الفصل بنظرة **علم بيولوجيا الخلية** Cell Biology لمجادلة الحرية والحتمية.

علم النفس

ومجادلة الحرية والحتمية[1]

نبدأ استعراضنا لإسهامات علم النفس فى مجادلة الحرية والحتمية بأن نحدد تعريف هذا العلم لكل من طرفى التناقض، فبدون الاتفاق على التعريفات تتوه المفاهيم، حتى نكاد أن نتقاتل حول ما نحن متفقون عليه فى الواقع!!

تعنى **الحتمية** أن السلوك الإنسانى تحدده عوامل مسبقة، ومن ثم يمكن التنبؤ به. بينما تعنى **الإرادة الحرة** أن الإنسان قادر فى قراراته وتصرفاته على الاختيار بين بدائل (ما لم يكن طفلًا أو مجنونًا)، فالإنسان يمكن أن يختار بين ارتكاب جريمة أو عدم ارتكابها، وهذا لا يعنى أن سلوكنا عشوائى، لكنه يعنى أننا غير مجبرين بالأحداث السابقة، وينبنى على ذلك مسئولية الإنسان عن أفعاله.

(١) مرجع هذا المبحث، بحث نشرة عالم النفس سول ماكلاود Saul Mcleod عام ٢٠١٣، بعنوان Free will and determinism in psychology

علم النفس والحتمية

تتبنى بعض مدارس علم النفس أن مصدر الحتمية **يقع خارج الإنسان**، ويطلقون عليها «**الحتمية البيئية**»، ومن هؤلاء ألبرت باندورا [١] A.Bandura الذى يتبنى أن أطفال الوالدين العدوانيين سيصبحون عدوانيين، وذلك من خلال التوجيه والملاحظة والتقليد (**الحتمية التربوية**).

ويتبنى آخرون أن الحتمية تنبع **من داخل الإنسان**، وأنها تمارَس من خلال الجينات، ويطلقون عليها «**الحتمية البيولوجية**». فعلى سبيل المثال، يؤثر جين IGF2R فى معدل ذكاء الإنسان[٢].

ويعتبر **الحتميون** القول بالقدرة على الاختيار الحر ليس إلا توهمات ترجع إلى عجزنا عن الإحاطة بظروفنا وظروف الآخرين البيئية والتربوية المحيطة. ويتبنى هؤلاء أن المحافظة على القوانين ـ مثلًا ـ تقف وراءها عدة عوامل معززة، تجعلها اختيارًا للشخص لا بديل عنه. فالمكافأة السابقة على احترام القانون تدفع الإنسان (دون شك) لنفس السلوك فى المستقبل.

ويرفض الحتميون أن ينسبوا أى دور **للعوامل الأخلاقية** فى الاختيار، ولا يعتبرونها أحد العوامل المُعزِزَة، فالاختيار بالنسبة لهم ليس إلا استجابة لمؤثر.

ويُعتبر «**السلوكيون Behaviorists**» من أشد الداعمين لمفهوم الحتمية، ومن أشهر هؤلاء سكِنَر [٣] **B.F.skinner**، الذى يحدد العديد من العوامل التى تجعل من خرق القانون أمرًا لا مفر منه، وفى نفس الوقت لا يملك مرتكب الجريمة أدنى تأثير فيها.

ويتبنى أنصارُ «**البيولوجيا الاجتماعية Sociobiology**» مفهومَ الحتمية البيولوجية، ويعتبرون أن التطور يتحكم فى سلوك الكائنات من خلال الجينات. ومن أشهر هؤلاء جون باولبى [٤] J.Bowlby الذى يتبنى أن الطفل لديه حاجة فطرية للارتباط برمز الأم والأب[٥].

ويتبنى البيولوجيون الاجتماعيون أن الصفات الشخصية (كالانطواء)، وما يرتبط بها

(١) Albert Bandura : (١٩٢٥ -   ) أستاذ علم النفس الاجتماعى الأسبق بجامعة ستانفورد.
Bandura (1961): Transmission of agression throught the Imitation of Aggressive models

(٢) Chomey et al, 1998

(٣) B.F. Skinner: (١٩٠٤ - ١٩٩٠) الفيلسوف وأستاذ علم النفس السابق بجامعة هارفارد.

(٤) J.Bowlby: (١٩٠٧ - ١٩٩٠) عالم النفس والطبيب النفسى البريطانى السابق المهتم بعلم نفس الأطفال.

(٥) تناولنا هذا المفهوم لباولبى عند مناقشة نظرية الارتباط فى الفصل الرابع.

من سلوكيات، تتحكم فيها عمليات عصبية وهرمونية، وكذلك وعينا، فهو ليس إلا نشاطًا للجهاز العصبى.

ولاشك أن مفهوم الحتمية تنفيه عدة عوامل، أهمها:

- وعينا وإدراكنا كأفراد أننا مختارون فى قراراتنا.
- المسئولية الشخصية أمام أنفسنا وأمام المجتمع عن أفعالنا.

ويضيف البعض لهذين العاملين عاملًا ثالثًا، وهو أن علماء النفس **لا يستطيعون التنبؤ بسلوك الفرد بشكل كامل**، وهذا العامل مردود عليه بأن المتخصصين لا يستطيعون الإلمام بكل العوامل المؤثرة فى السلوك، وأنه لو تمت الإحاطة بكل هذه العوامل لأمكن التوصل بدقة لقرارات وسلوكيات الأشخاص محل الدراسة. ويستشهد الحتميون على ذلك بما تفعله **أجهزة المخابرات** حيال أصحاب القرار فى الدول التى تعنيهم، فتقوم هذه الأجهزة بتكليف عدد من علماء النفس بدراسة الخلفيات النفسية لهؤلاء الأشخاص حتى يصبحوا قادرين على التنبؤ بقراراتهم فى المواقف التى تعنى دُوَلَهم.

ولعل أهم عائق يقف أمام الحتمية الفكرية والسلوكية هو عجز أنصار هذا الاتجاه **عن أن يقدموا دليلًا مقنعًا على ما يدعون**. ولا شك أن لَدَىَّ الاستعداد لتبنى رأى هذه المدرسة إذا ما قدم أنصارها الدليلَ المقنع على صحة رأيهم.

علم النفس والإرادة الحرة

يتبنى «**المذهب الإنسانى Humanistic Approach**» أن السلوك الإنسانى ليس كله حتميًّا، وأن جزءًا من هذا السلوك توجهه الإرادة الحرة. ويرى أنصار هذا المذهب (ماسلو وروجرز)[1] **أن حرية الإرادة ليست فقط ممكنة لكنها أيضًا ضرورية لنكون بشرًا كاملى الأهلية العملية**. ومن ثم فإن هذه السمة هى أهم ما يميزنا عن باقى الكائنات.

كما يتبنى المذهب الإنسانى **أن الحرية هى الخط الفاصل بين العلوم الطبيعية**[2] **وبين العلوم**

(١) Maslow, 1943, A Theory of Human Motivation
Rogers.C., 1951 Client – Centered theory

(٢) المقصود هنا الفيزياء الكلاسيكية، وليس فيزياء الكم.

الإنسانية والاجتماعية. فعندما يتفاعل عنصران كيميائيان فإنهما يلتزمان بأنماط محددة من التفاعل يستحيل أن يسلكا خارجها، بينما عندما يتعامل شخصان فهناك العديد من أشكال التعامل؛ فقد يتفقان وقد يختلفان وقد يتصارعان وقد يصلان إلى حلول وسطى وقد يُبَدِّلا من نمط التعامل،...، بدائل لا نهاية لها.

ويميل المتخصصون فى **علم النفس المعرفى Cognitive Psychologists** نحو مفهوم حرية الإرادة مع حتمية مخففة. فإذا كان المذهب الإنسانى يتبنى حرية **الاختيار بالنسبة للأهداف**، فعلم النفس المعرفى يتبنى **الاختيار الواعى بالنسبة للوسائل**، وهى المعالجة العقلية للمعلومات التى يقوم الإنسان بالاختيار بناء عليها، ويظهر ذلك عند دراسة أفضل الوسائل لتحقيق الأهداف، كما يظهر فى التعلم من الأخطاء من أجل الوصول إلى الاختيار الأصوب تحت ظروف مقاربة.

وتتبنى **مدرسة التحليل النفسى لفرويد Psychoanalysis** موقفًا وسطًا بين الحتميين والمختارين. فإذا كانت النظرة الأولى لهذه المدرسة توهم بدعم الحتمية، إذ تعتبر أن **عقلنا الباطن** (اللاواعى) يوجه أفكارنا وسلوكنا، فإن الغرض من **العلاج النفسى** فى هذه المدرسة هو إعانة المريض على التغلب على هذه القوى اللاواعية، مما يعنى أننا قادرون على ذلك.

لذلك، يتبنى الكثيرون من **أنصار الفرويدية الحديثة** (أشهرهم إريك فروم Eric Fromm)[1] أن لدينا القدرة على التحكم فى حياتنا وتوجيهها، وإن كان معظمنا يخشون المحاولة. ومن ثم فمن يتبعون الحتمية هم الذين **يتنازلون عن حرياتهم بإرادتهم!** ويسمحون للظروف أن تتحكم فى حياتهم.

المحصلة

إن القائلين بالحتمية ينزعون عن الإنسان حريته وقيمته، كما ينزعون عن المنظومة الأخلاقية قيمها. وعندما يضع هؤلاء للبشر القوانين السلوكية فإنهم يتنكرون للتفرد الإنسانى كجنس وكأفراد، كما يتنكرون لقدرتنا على اختيار مصائرنا.

بذلك فالقضية ليست قضية نظرية، بل لها **انعكاسات تطبيقية**. فالنظرة الحتمية تلغى

(١) Eric fromm, fear of freedom, 1941

Eric Fromm:(١٩٠٠ - ١٩٨٠) عالم النفس الألمانى المهتم بعلوم الاجتماع والفلسفة.

المسئولية الشخصية؛ فيتهرب المجرمون من مسئولياتهم عن جرائمهم بحجة التنشئة، أو يتحججون بصدمة أصابت رءوسَهم فى صغرهم، أو بتوترات نفسية، أو مشكلات عصبية، أو... أو ...

وقد حاول الحتميون من علماء النفس وضع **القوانين التى اعتقدوا أنها تتحكم فى السلوك الإنسانى**، تشبهًا بالعلوم التجريبية (الفيزياء والكيمياء) التى تحكمها القوانين، بعد أن خشوا أن يؤدى إنكار دور حتمية القوانين فى السلوك الإنسانى إلى إخراج علم النفس من دائرة العلوم!!

وكحل وسط يتبنى الكثيرون مفهوم الحتمية اللينة Soft Determinisn الذى يُسَلِّم بوجود الحرية الإنسانية فى الاختيار مع إثبات تأثير العوامل البيولوجية والبيئية والتربوية على اتخاذ القرار. وهذا المفهوم يمثل نوعًا من **النظرة التكاملية** Compatibilism التى ناقشناها فى الفصل السابق.

علوم المخ والأعصاب
ومجادلة الحرية والحتمية

تخدم الدراساتُ العصبية مبحثًا فلسفيًّا مهمًّا صار يُعرَف بالفلسفة العصبية Neurophilosophy. فمنذ أن مكننا التقدم الكبير فى التقنيات العلميَّة[1] من دراسة المخ الحى أثناء ممارسته لوظائفه، انشغلت علوم المخ والأعصاب بثلاث قضايا فلسفية أساسية؛ **مجادلة المخ والعقل** وهل هما شىء واحد أم مختلفان؟ وهل يعمل المخ **كوحدة واحدة (Holism)** أم أن كل وظيفة من وظائفه **تتموضع فى مركز محدد (Localism)**؟ وثالث القضايا هى **الذات الإنسانية** وحقيقتها ومسئوليتها الأخلاقية، ويتفرع من هذه القضية المفهوم الذى نحن بصدد دراسته وهو **مجادلة الحرية والحتمية**.

ولعل **أهم رافدين علمين لدراسة هذه المجادلة عصبيًّا هما**:

١- دراسة نشاط المخ الكهربائى.

٢- تأمل الأمراض العصبية والنفسية.

والآن نقوم بدراسة هذين الرافدين بشىء من التفصيل.

(١) من هذه التقنيات: تسجيل النشاط الكهربائى للمخ، التصوير بالانبعاث البيزوترونى PET، والتصوير بالرنين المغناطيسى الوظيفى FMRI.

نشاط المخ الكهربائى
ومجادلة الحرية والحتمية

لعل من التجارب الأولى المشهورة لدراسة العلاقة بين نشاط المخ الكهربائى ومجادلة الحرية والحتمية تلك التى قام بها فى ثمانينيات القرن العشرين عالم فيسيولوجيا المخ والأعصاب الأمريكى بنجامين ليبيت Benjamin Libet [1]، والتى درس فيها **علاقة التغيرات فى نشاط المخ الكهربائى باتخاذ الشخص قرارًا بالحركة.**

وقد اعتبر الحتميون أن هذه التجربة تقدم **دليلًا تجريبيًّا قويًّا** على صحة موقفهم الحتمى، وملأوا الدنيا ضجيجًا بهذه الدعوى، لذلك سنولى هذه التجربة قدرًا من الاهتمام لنعرف مدى صحة ادعاء الحتميين.

تجربة ليبيت [2] The Libet Experiment

فى هذه التجربة، طلب ليبيت من الأفراد المتطوعين أن **يحركوا أصابعهم السبابة** فى لحظة يختارونها، وأن يسجلوا لحظة وعيهم بتحَرُّك الإصبع باليد الأخرى على **ساعة إيقاف** موجودة أمامهم. وفى نفس الوقت يسجل ليبيت للمتطوعين **نشاط المخ الكهربائى** المصاحب لمراحل التجربة.

إذًا لدينا فى التجربة ثلاثة عناصر:

١- لحظة حركة الإصبع.

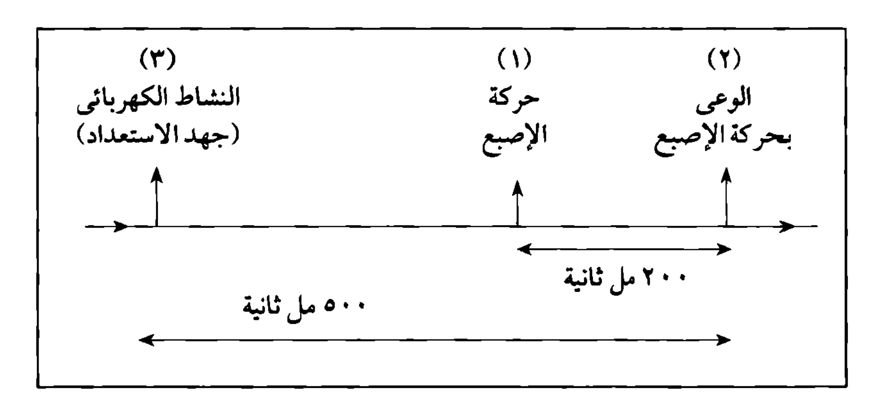
٢- لحظة وعى الفرد بتحرك الإصبع.

٣- توقيت النشاط الكهربائى المصاحب للتجربة، أسماه ليبيت **جهد الاستعداد** Readiness Potential، واعتبره مسئولًا عن حركة الإصبع.

---

(١) Benjamin Libet (١٩١٦ - ٢٠٠٧): العالم المهتم بالوعى الإنسانى بقسم وظائف الأعضاء بجامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة.

(٢) Libet, BenJamin et al (1983) "Time Concious intention to act in Relation to onset of cerebral activity" Brain 106 (3): 623-42



(شكل - ١)

وجد ليبيت (شكل - ١) أن حركة أصابع المتطوعين تسبق الوعى بها بمقدار ٢٠٠ مل ثانية فى المتوسط، كما وجد أن نشاط المخ الكهربائى يسبق الوعى بحركة الإصبع بحوالى ١/ ٢ ثانية. استنتج ليبيت من ذلك أن **القرارات بالحركة يتم اتخاذها فى المخ بشكل غير واع** قبل أن يصبح الفرد واعيًا بالحركة، ويتوهم الفرد (بعد تحرك الإصبع) أن قراره كان واعيًا، نتيجة للربط بين حركة الإصبع وبين وعيه بالقرار.

وجد الحتميون فى تجربة ليبيت ضالتهم، واعتبروا أنها **تقدم الدليل العلمى على حتمية سلوكياتنا**، واستنتجوا منها أن القرارات التى نظن أنها من اختيارنا ليست إلا إفرازًا لنشاطات لاواعية فى المخ، ثم يأتى وعينا بالقرارات فى مرحلة لاحقة.

أخطاء تجربة ليبيت

تم تكرار تجربة ليبيت فى العديد من المراكز البحثية فى العالم، وتم الحصول على نتائج مشابهة، وهو ما **شجع الحتميون على التمسك بمصداقية استنتاجاتهم**. كذلك يوافق القائلون بحرية الإرادة على صحة خطوات التجربة ونتائجها، لكنهم **تنبهوا إلى أخطاء عديدة** وقع فيها الحتميون عند **تفسير النتائج**.

وسنعرض فيما يلى **الأدلة العلمية على خطأ استنتاج الحتميين**:

أ- لعل أهم هذه الأخطاء هو **عدم وجود أى دليل على أن جهد الاستعداد الذى سجله ليبيت يرجع إلى قرار غير واع بالحركة**، وقد تبنى الحتميون هذا الافتراض دون دليل

عليه، بل توجد أدلة تجريبية كثيرة ضده[1]. ومن ثم لا تُعتبر نتائج تجربة ليبيت دليلًا ضد حرية الإرادة.

ب- أثبتت تجارب عديدة[2] أن جهد الاستعداد الذى سجله ليبيت يعكس **استجابة المخ للشوشرة المحيطة** فى وسط التجربة، وأيضًا استجابته لإدراكه أنه **يخضع لتجربة علمية**.

جـ- أثبتت التجارب أن حركة الأصبع فى تجربة ليبيت لا ترتبط بجهد الاستعداد، فقد أثبتت تجارب أخرى أن هذه **الحركة ترتبط بجهد الاستعداد الجانبى Lateralized Readiness Potential**، الذى يحدث فى مرحلة لاحقة بعد الوعى بقرار الحركة[3]، وهذا هو التتابع المنطقى للأحداث.

د- **إن الوعى بالقرار بالحركة أمر غامض لا يمكن تحديد توقيته بدقة**، ومن ثم لا ينبغى الاعتماد على علاقة هذا التوقيت بجهد الاستعداد، خاصة وأن الباحثين فى هذه التجارب لم يتجاوزوا رصد النشاطات الكهربائية لما يحدث فى المخ أثناء اتخاذ القرار،

(١) من أهم هذه التجارب:
فى عام ٢٠٠٩ قام كل من جودى تريفينا Judy Trevena وجيف ميلر Jeff Miller بجامعة Otago بنيوزيلاندا بتجربة لدراسة نتائج تجربة ليبيت. لقد طلبا من المتطوعين أن يختاروا بين أن يطرقوا بأصابعهم على لوحة مفاتيح الكمبيوتر أولا يطرقوا، وذلك بعد أن يسمعوا إشارة صوتية.
لقد تم تسجيل موجات جهد الاستعداد فى أمخاخ هؤلاء، سواء طرقوا على اللوحة أو لم يطرقوا. إن ذلك يعنى أن **هذا النشاط الكهربائى لا يمثل التخطيط والإعداد للقيام بالحركة.**

(٢) دفعت التجربة السابقة (الهامش السابق) مجموعة من العلماء فى الهيئة القومية للصحة والبحث الطبى بفرنسا بقيادة العالم آرون شيرجر A.aron Schurger لطرح سؤال للبحث، وهو: كيف يقرر المخ القيام بالحركات التلقائية Spontaneous Movements؟
للإجابة عن السؤال، راجع الباحثون بعض عمليات اتخاذ القرار. لاحظ هؤلاء أن اتخاذ قرار ما بناء على مدخلات بصرية يسبقه تراكم العديد من المعطيات البصرية فى خلايا الإبصار، ولاحظوا أن القرار ينقدح بعد وصول المدخلات إلى مستوى معين. وتُعرف هذه الظاهرة بتجاوز المستوى Crossing a Threashold.
كذلك تنبه شيرجر إلى أن ليبيت قد طلب من المتطوعين أن يهملوا أية عوامل محيطة، وأن يركزوا على الوعى بالقرار بالحركة، ومن ثم اعتبر ليبيت (خطأً) أن هذا القرار داخلى المصدر. وبتكرار التجربة لاحظ شيرجر أن **هناك نشاطات كهربائية خبية تحدث فى المخ نتيجة لعوامل محيطة (شوشرة) ونتيجة لإدراك المتطوعين أنهم خاضعون للتجربة**، وتتراكم هذه النشاطات الكهربائية حتى تصل إلى مستوى معين. وهذه النشاطات هى ما اعتبرها ليبيت جهد الاستعداد المسئول عن الحركة.

(٣) أثبتت أبحاث فريق بريسكوت ألكسندر Prescott Alexander أن جهد الاستعداد لا تعقبه دائماً حركة، كما لا يسبق دائمًا حدوث الحركات، ومن ثم فهو لا يعكس قرارًا غير واع بالحركة. كما أثبت هذا الفريق النتائج الخاصة بما يعرف بـ «**جهد الاستعداد الجانبى** Lateralized Readiness potential».

ولا ينبغى أن نقفز من ذلك إلى **ادعاء وجود علاقة سببية** بين نشاطات المخ الكهربائية وبين إنتاج الإرادة الحرة.

هـ- لا يوافق **الفيلسوف الأمريكى الملحد دانييل دينيت** على دعم فكرة الحتمية بتجربة ليبيت، ذلك أن انتقال الشخص من استشعار وعيه بالقرار إلى ساعة التوقيت **يستغرق وقتًا يؤثر على تفسير النتائج**. كذلك ينتقد دينيت هذه التجارب بأنها تتناول فقط الأفعال التى تستغرق أجزاءً من الثانية، **ولا تتناول القرارات التى تستغرق أوقاتًا أطول تصل إلى أيام**، كما أنها تتناول القرارات البسيطة للغاية مثل حركة الإصبع **ولم تتناول القرارات شديدة التعقيد**.

و- هناك العديد من **المشكلات الإجرائية التقنية** فى التجارب الخاصة بحرية الإرادة[1]، وهذه المشكلات تهدم مصداقية هذه التجارب، ومنها:

١- تعتمد معظم التجارب على حكم المشارك فى التجربة، وهو أمر ذاتى يختلف من مشارك لآخر تبعًا لدقته.

٢- أجهزة قياس نشاط المخ الكهربائى غير دقيقة.

٣- ليست هناك قياسات موضوعية للوعى والاختيار واتخاذ القرار.

٤- يخضع تأويل النتائج لرؤى ذاتية غير موضوعية. فمثلًا؛ ماذا يعنى حدوث نقص كبير مفاجئ فى إحدى القياسات؟ يعتبر البعض أن ذلك يمثل قرارًا غير واعٍ، بينما لا دليل على ذلك، بل إن العديد من النشاطات العقلية تكون مستمرة بالرغم من نقص هذه القراءة.

لا شك أن هذه الاعتراضات ضد تجربة ليبيت، قد أيدتها العديد من التجارب المعملية، ومن ثم فهى اعتراضات صلبة للغاية ، وبالتالى **تنهار التجربة كدليل على الحتمية** بعد أن صَدَّعَنا الحتميون بها لسنوات عديدة.

---

(١) يشير آدينا روسكيز Adina Roskies إلى أن هناك خمسة مجالات للبحث التجريبى حول هذه القضية، ولن تكون الأبحاث دقيقة ما لم يصمم الباحثون تجارب مختلفة لاختبار كل مجال على حدة:

١- بداية الفعل Action Initiation

٢- القصد Intention

٣- اتخاذ القرار Decision

٤- الكبت والتحكم Inhibition and control

٥- الذات الإنسانية التى تخرج منها وتُنسب إليها القرارات والأفعال The phenomenology of agency

إذا كانت تجربة ليبيت قد فشلت فى ترجيح أى من طرفى مجادلة الحرية والحتمية، فإن هذه التجربة والتجارب التى أيدتها أو عارضتها قد رجحت أمرين:

١) وجود نشاطات عقلية لا واعية[١].

٢) قيام العقل الواعى بالاختيار بين هذه النشاطات اللاواعية، سواء بالقبول أو بالرفض.

لقد أثار هذا التتابع فى عقلى **خاطرين دينيين مهمين**، يرتبط كل منهما بإحدى النقطتين السابقتين.

أولًا: إذا كان النشاط الكهربائى (جهد الاستعداد) فى تجربة ليبيت يعنى قرارًا غير واع بالحركة[٢]، فإن إرجاع هذا القرار إلى نشاط تلقائى للمخ توجهه الفيزياء والجينات والنشأة ليس هو التفسير الوحيد. فهناك الطرح الذى يتبناه المتدينون، وهو أن **العقل/ الروح غير المادى يتخذ القرار الحر على المستوى غير المادى غير الواعى**، ثم ينتقل هذا القرار إلى وعينا عن طريق تنشيط دوائر المخ الكهروكيميائية.

ثانيًا: منذ قرابة الألف عام، استنتج **الإمام أبو حامد الغزالى** (المتوفى عام ٥٠٥هـ) أن **المنظور الإسلامى** يتبنى وجود **نشاطات عقلية لا إرادية موجهة، يقوم العقل الواعى بالاستجابة لها قبولًا أو رفضًا**، وهو الدرس الأهم فى تجربة ليبيت والتجارب المرتبطة بها.

ويضرب الإمام الغزالى على ذلك **مثالًا برجل استشعر أن امرأة تسير خلفه**. إن ذلك يثير فى قلبه/ عقله **أربعة مستويات متتابعة من الأفكار**، تسبق التفاته للنظر إليها.

أول ما يرد على القلب/ العقل هو «**الخاطر**»، وهو «حديث النفس» بأن وراءه امرأة قد تكون جميلة. ويعقب ذلك، «**الميل**»، وهو «ميل الطبع» والرغبة فى النظر إليها. ويرى الإمام الغزالى أن **«الخاطر» و «الميل» جبريان ولا يخضعان للاختيار**، ومن ثم لا يُحاسَب عليهما المرء[٣].

(١) تختلف هذه النشاطات عن اللاوعى (العقل الباطن) الذى وصفه فرويد، فلاوعى فرويد يشير إلى غريزة الجنس والغرائز العدوانية. أما ما نقصده فى مجالنا هذا فيشير إلى النشاطات المرتبطة باتخاذ القرارات، مثل القرار بالحركة.

(٢) وهذا ما أثبت العلماء خطأه، لكننا سنجارى الحتميون فى طرحهم لنثبت قصور استنتاجاتهم النهائية.

(٣) حديث رسول الله ﷺ: «عُفى عن أمتى ما حدثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»، متفق عليه.

ثم يأتى بعد ذلك «**الاعتقاد**» وهو «حكم القلب/ العقل»، فيختار أن ينظر إلى المرأة أو لا ينظر. فإن اختار النظر، جاء المستوى الرابع وهو «**الهم بالفعل**». وواضح أن **الاختيار الإنسانى يمارس دوره فى مرحلتى الاعتقاد والهم**، وتنبنى على ذلك المسئولية الأخلاقية[1].

لذلك، إذا «**اختار**» الرجل الالتفات والنظر «**وهَمَّ بذلك**» كتبت عليه سيئة، أما إذا اختار عدم الالتفات، أو تراجع عنه مختارًا بعد أن هَمَّ بالفعل كتبت له حسنة، أما إذا تراجع عن الهم لعائق منعه كُتبت عليه سيئة؛ فقد اختار المعصية بينما كان امتناعه جبرًا.

سبحان الله، ما أدق هذا التحليل والتفصيل الذى يجسد موقف الاختيار الذى نمارسه بإرادتنا الإنسانية الحرة. إنها **نشاطات عقلية لا إرادية، يقوم العقل الواعى المختار بالاستجابة لها أو رفضها**.

الأمراض العصبية والنفسية ومجادلة الحرية والحتمية

متلازمة المخ المنقسم

يُعتبر **مايكل جازانيجا Michael Gazzaniga**[2] (أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا) من أكثر المهتمين فى الأوساط العلمية بمعضلة «العقل Mind» والعلاقة بينه وبين المخ، حتى لُقِّبَ بأبى علم النفس المعرفى. ومن أكبر إنجازات جازانيجا العلمية قيامه بتحديد الخلل المخى والعقلى الذى يحدث فى حالات «**المخ المنقسم Split Brain**»، التى يتم فيها قطع الوصلات العصبية بين نصفى المخ[3]، فيسلك الإنسان وكأنه يمتلك مخين غير متواصلين.

ولجازانيجا كتاب مشهور (صدر عام ٢٠١١) يتناول فيه مجادلة الحرية والحتمية، والكتاب بعنوان «**مجادلة الإرادة الحرة: مَن المسئول؟ Free Will Debate: who's in Charge?**». ويدور

(١) حديث سيدنا رسول الله ﷺ: «... ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت» رواه البخارى ومسلم.

(٢) Michael Gazzaniga: ولد عام ١٩٣٩.

(٣) يتم قطع الألياف العصبية الموصلة بين نصفى المخ (الجسم الجاسئ Corpus Callosum) لعلاج بعض الحالات المرضية، وأهمها حالات الصرع الشديد، وقد يحدث ذلك نتيجة لجلطة دموية تسد الشريان المغذى لهذه الألياف.

الكتاب حول تساؤل: هل الإرادة الحرة مجرد طق حنك (كما يقول إخواننا الخليجيون) أم إنها حقيقة؟

يجيب جازانيجا عن هذا السؤال في كتابه من خلال بضع نقاط:

١- يتبنى جازانيجا في كتابه ما أكدته علوم المخ والأعصاب الحديثة، من أن **دوائر المخ الكهروكيميائية تعمل في تناسق دون أن تكون هناك غرفة تحكم مركزية**، أي لا يوجد قزم أو شبح (يمثل الذات الإنسانية) جالس داخل دماغنا يوجه الآلة الدماغية ويستقبل مدخلاتها. لم يتمكن العلم حتى الآن من رصد **مايسترو** يتحكم في عمل المخ ويختار بين البدائل مثلما يوجه المايسترو عمل الأوركستيرا الموسيقى. لذلك، ينظر العلم إلى أمخاخنا باعتبارها **كالساعات**، التي ليس فيها مركز مهيمن، بل تعمل أجزاؤها العديدة في تناسق لتخرج لنا التوقيت الدقيق.

٢- يتبنى جازانيجا **رؤية دائرية** جديدة تمامًا؛ وهي أن العقل (لا نعرف كنهه بتاتًا، ولا يمكن أن يكون إفرازًا للمخ) يُنشئ الأفكار والاختيارات والقرارات، وهذه توجه عمل المخ الذي ينقل تلك الأفكار والاختيارات والقرارات إلى وعينا الذي هو أحد نشاطات العقل. **إنها عملية ديناميكية، خد وهات.**

٣- لعل من أهم ما طرحه جازانيجا في كتابه، بعد أبحاث استمرت عدة سنوات، أن **النصف الأيسر للمخ** يتعامل مع ما يصل إليه من مدركات عصبية ويربط بينها وبين ما يحتوى عليه من مفاهيم. وعادة ما **تستغرق هذه العملية وقتًا يؤدى إلى تأخر الوعى بهذه المدركات**، ومن ثم **فالوعى يكون دائمًا متأخرًا قليلًا عن وقوع الحدث**، أي أن الوعى يروى أحداثًا مضت وليس أحداثًا معاصرة[1].

٤- ومن ثم، يرفض جازانيجا مفهوم الإرادة الحرة كما تطرحه الفلسفة التقليدية (كمايسترو يوجه ويختار)، لكنها عملية ديناميكية تبادلية بين عقل لا نعرف كنهه وبين آليات مخية، وليست هذه النظرة إلا **فرعًا من نظرة شاملة للذات الإنسانية لا تستطيع أن تتنكر لحرية الاختيار.**

٥- يلخص جازانيجا موقفه من مجادلة الحرية والحتمية، بأن القضية ليست تمتعنا بإرادة حرة أم لا، فهذا أمر يستشعره كل البشر، بل إن الحتميين المنكرين لحتمية الإرادة يحيون

(١) هذا يفسر تأخر الوعى بالحركة فى تجربة ليبيت.

ويسـلكون فى ظل هذه الحرية! إن القضية هى أن **ليس هناك سبب علمى واحد لإنكار ما نستشـعره**، ليس هناك سـبب واحد يجعلنا نخلى الإنسـان من مسـئوليته عن أفعاله. هـل نعفـى المجرم من مسـئوليته إذا أظهـر الرسـم الكهربائى أو التصاوير الإشـعاعية أو المغناطيسـية انحرافًـا مخيًّا مـا؛ اضطرابات كهربائيـة، أورام، التهابـات، اضطرابات كيميائية؟! هل يمكن للمحامى أن يقول إن مخ موكلى دفعه لذلك؟

هل هذا عذر يقدمه المحامى ويقبله القاضى؟

هذا هو منطق جازانيجا القوى، الذى يتبنى القول بالإرادة الحرة، ويرى أنها إفراز للعقل الذى لا نعرف كنهه، ويقوم المخ المادى فيها بدور تنفيذى.

مع راماشاندران

يصف عالِم المخ والأعصاب الفذ راماشاندران Ramachandran [1] حالة عجيبة لإحدى مريضات متلازمة المخ المنقسم تستحق أن نقف عندها متأملين انعكاساتها على مجادلة الحرية والحتمية:

أحضر أهل المريضة مريضتهم لراما، وأخبروه بأنها فى بعض الأحيان تمد يدها اليسرى إلى عنقها محاوِلةً أن تخنق نفسها، ثم تمد يدها اليمنى لتمنع يدها اليسرى من ارتكاب الجريمة!! وأحيانًا كانت المريضة تضع يدها اليسرى أسفل فخذها الأيسر حتى تمنعها عن هذا الفعل!!

يعرض راما هذه الحالة فى العديد من كتبه وبرامجه ومحاضراته، ويعلق بأن **لهذه المرأة إرادتين**، إحداهما مرتبطة بالنصف الأيمن من المخ الذى يريد الانتحار والأخرى مرتبطة بالنصف الأيسر الذى يريد الحياة. ويستطرد راما قائلًا: ما الحل إذا كان أحد نصفى مخ الإنسان مؤمنًا والنصف الآخر ملحدًا، هل يكون هذا الشخص من أهل الجنة أم من أهل النار؟!

قناعتى أن الأمر ليس كما يصوره راماشاندران. فما كشفه انفصال نصفى المخ ليس إلا **حوارًا داخليًّا يدور فى أدمغتنا جميعًا حول معظم القضايا**؛ أحد نصفى الدماغ يتعامل مع بعض

(١) **راماشاندران V.S.Ramachandran**: وُلد فى الهند ويعيش فى كاليفورنيا. يشغل فى جامعة سان ديجو فى كاليفورنيا مناصب: مدير مركز أبحاث المخ والمعرفة، وأستاذ الدراسات العليا فى علوم المخ والأعصاب، وأستاذ بقسم علم النفس.

توصل راماشاندران من خلال الفحص الطبى للمرضى إلى العديد من المفاهيم الجديدة حول آليات المخ/ العقل، حتى استحق أن يوصف بأنه ماركوبولو علوم المخ والأعصاب، وبول بروكا العصر الحديث. وقد اختارته مجلة التايم الأمريكية عام ٢٠١١ كواحد من أكثر مائة شخص تأثيرًا فى العالم.

جوانب المشكلة ويُرَجِّح قرارًا ما، بناء على تخصصه فى بعض المهام المخية وبناء على ما يختزنه من معلومات، والنصف الآخر الذى يتعامل مع مهام أخرى ويختزن معلومات أخرى قد يرجح قرارًا معاكسًا. فى حالاتنا جميعًا تحدث **مناظرة وترجيح داخل المخ بين القرارين** وتكون النتيجة أن نتبنى القرار الأنسب لنا ونعلنه. أما فى حالة مريضة المخ المنقسم لا تكون تلك المناظرة والترجيح متاحين، فكل نصف يعمل على حدة ثم يُظهِر ما توصل إليه.

يمكن تشبيه الأمر **بجهاز التكييف** المزود بمقياسين، أحدهما لدرجة الحرارة والآخر لدرجة الرطوبة، ويعمل الجهاز تلقائيًّا إذا ارتفعت درجة الحرارة عن ٢٥ْم أو درجة الرطوبة عن ٤٠٪. فإن أصيب الجهاز بعطب أدى إلى انفصال دائرتى الحرارة والرطوبة، يمكن أن يُظهر أحد المقياسين أن الجهاز ينبغى أن يعمل بينما يُظهر المقياس الآخر أنه لا ينبغى أن يعمل! لقد فقدت الدائرتان التواصل الذى كان يؤدى إلى نتيجة واحدة؛ أن يعمل الجهاز أو لا يعمل.

إن المخ المنقسم لا يعنى إرادتين نهائيتين للإنسان، لكنه يكشف **مرحلة مبكرة من مراحل اتخاذ القرار**، وهى وجود أكثر من طرح للمشكلة الواحدة بناء على تخصص كل من نصفى المخ وما يحويه من معلومات، ثم يقوم المخ السَّوى باختيار ما يراه الأنسب من هذه الأطروحات.

ومن ثم فالمخ المنقسم **دليل قوى على الإرادة الحرة** التى تختار بين البدائل وليس دليلًا على الحتمية كما يستنتج البعض.

اضطرابات الوعى بالذات

يهتم **الطبيب النفسانى سين سبنس** [١] Sean A. Spence بدراسة الانحرافات المرضية فى عمليات الاختيار، خاصة الأمراض التى يفقد فيها الشخص الشعور بالذات الإنسانية المتحكمة فى نشاطاته الحركية، ويعرض تلك الانحرافات بالتفصيل فى كتابه مخ المشخصاتى The Actor's Brain (2009)، وأهم هذه الانحرافات:

١) **متلازمة اليد الغريبة Alien Hand Syndrome**، حيث يعتبر المريض أن إحدى يديه وذراعها غريبة عنه، بل قد يعتبرها أفعى ويصر على بترها!

---

(١) Sean A. Spence: طبيب النفس البريطانى (١٩٦٢ – ٢٠١٠) الأستاذ السابق بجامعة شيفلد المهتم بالفلسفة وعزف الموسيقى، مات بسرطان القولون.

٢) **حالات الفصام**، التى قد يحرك فيها الشخص يده ويشعر بأن ذلك كان استجابة لمنظومة كونية ليس له قدرة على التحكم فيها.

٣) **متلازمة الهيستريا الحركية Kinetic Hysteria**، ويقوم هؤلاء المرضى بحركات غير معتادة لكنها تبدو ذات غاية Purposeful (كأن يتخلل شعره بأصابعه)، وإذا تم إبعاد انتباه المريض عن بيئته المحيطة أو تمت تهدءته انفعاليًا Sedation تختفى تلك الأفعال ويسلك الإنسان بشكل طبيعى، مما يعنى أن للظروف الاجتماعية تأثيرات على الجهاز الحركى التنفيذى.

وترجع الحالات الثلاث السابقة إلى اضطراب بنيوى ووظيفى فى بعض مراكز المخ، ينتج عنه فقدان التحكم الإرادى فى النشاطات الحركية بسبب العجز عن نسبة هذه الأعضاء والحركات لأنفسنا، كما نلمس فيها **قدرًا من الحتمية المطلقة**، التى يؤكد وجودها المَرَضى ما نتمتع به نحن الأسوياء من **حرية إرادة واختيار**.

٤) فى الفصل السادس من كتابه، يقترب سبنس بشكل أكبر من مجادلة الحرية والحتمية، فيعرض أمراض المخ التى **يشعر معها المريض بانعدام الاختيار والإرادة Avolition** [١]. ويحدث ذلك مع مرضى الفصام الذين يفقدون الشعور بالمسئولية عن أفعالهم[٢]، وبالتالى يقل تجاوبهم مع التغيرات الاجتماعية والبيئية المحيطة[٣].

اضطرابات الشخصية

لا شك أن بعض **أمراض اضطرابات الشخصية** Personality disorders التى تتميز بالحتمية تكشف وتثبت تميز الإنسان بحرية الإرادة.

فمرضى الفصام Schizophrenia «يدركون» بشكل حتمى موجودات وشخصيات غير حقيقية، ويعتقدون تمامًا فى حقيقها، ولا يملكون التخلص من إلحاح إدراكهم لهذه الموجودات. وكذلك **مرضى الوسواس القهرى OCD**، تسيطر على **«أفكارهم» بشكل حتمى** أفكار محددة

(١) الأرجح أن متلازمات انعدام الإرادة والاختيار ترجع إلى خلل جينى كيميائى يؤثر فى مادة الدوبامين ومركبات حمض الجلوتامين بالمخ.

(٢) Limited Behavioral Repertoire

(٣) الأرجح أن ذلك يرجع إلى اضطراب فى منطقتى Prefrontal and Anterior Cingulate Cortex

بالرغم من إدراكهم خطأ ووهم هذه الأفكار. أما مرضى الاكتئاب **Depression**، فتسيطر على «**مشاعرهم**» **بشكل حتمى** مشاعر مقبضة لا يملكون منها فكاكًا.

ولا شك أن حتمية ما يصاحب هذه الأمراض من **مدرَكات وأفكار ومشاعر** يُظهر بجلاء ما تتميز به الشخصية الإنسانية غير المضطربة من حرية فى التحكم والتعامل مع مدركاتها وأفكارها ومشاعرها.

الآليات العصبية للاختيار الإنسانى

لم يبال الكثيرون فى الأوساط العلمية بمحاولات البعض نزع مفهوم الإرادة الحرة عن الإنسان ووضعه فى إطار الحتمية التى تحكم الجمادات والنباتات والحيوانات. لذلك، نشطت جهود علمية حثيثة من أجل التوصل إلى **الآليات العصبية للاختيار الإنسانى**، ومن هذه الجهود العرض الذى قدمه د. **سين سبنس Sean A Sepence** فى كتابه «**مخ المشخصاتى The Actor's Brain**» الذى وضع فيه عام ٢٠٠٩ خلاصة خبرته قبل وفاته بعام واحد.

مساحة الاختيار الإنسانى

يتبنى سبنس أن الاختيار الإنسانى يتم من بين بدائل أطلق عليها «**مساحة الاختيار الإنسانى Human Response Space**»، وتشمل مجموعة Range الاستجابات السلوكية المتاحة للإنسان فى كل موقف. ويرسم حدود هذه الاستجابات **عددٌ من العوامل (المحددات Constrains)**. التى تضع أمام الإنسان **عددًا من الاختيارات** وليس مجرد نعم أو لا. وهذه المحددات بعضها داخلى وبعضها خارجى، منها ما هو تشريحى بنيوى، وما هو وظيفى، وما هو كيميائى عصبى، وما هو نفسى، وما هو انفعالى، وما هو اجتماعى، وما هو وراثى. وهذه **المحددات ليست ثابتة بل متغيرة**، ومن ثم تسمح باستمرار عملية **إعادة تشكيل بدائل الاختيار**.

مراكز الاختيار الإنسانى

يركز سبنس فى نظره لآليات الاختيار - كما تبينها علوم المخ والأعصاب الحديثة - على **مقدمتى الفصين الأماميين من المخ** Anterior Frontal Lobes، باعتبارهما المسئولتين عن السلوك الإرادى للإنسان، ويرى أن هذا **السلوك محصلة التعاون بين أربع مناطق**:

١) منطقة التخطيط للفعل وتحديد توقيته[١].

٢) منطقة تقدير الفائدة أو العائد من الفعل[٢].

٣) المنطقة المسئولة عن الإعداد لبدائل عن السلوك الذى تم تحديده فى المنطقة الأولى[٣].

٤) منطقة إعداد المنظومة (المخَطَّط Script) التى سيتم اتباعها للقيام بالعمل[٤].

معنى ذلك أن من أجل تحديد «**طبيعة الفعل What**»، فإن هناك فعل تحدده المنطقة (١)، وبدائل تحددها المنطقة (٣)، وتقوم المنطقة (٢) بالاختيار بينها بناء على الفائدة والعائد.

وتخبرنا علوم المخ والأعصاب الحديثة، بأن **الإدراك الواعى الكامل للفعل يحدث بعد عملية البرمجة السابقة!!** ويرجع ذلك **التأخر** إلى أن البرمجة الحركية للفعل (خطوة -٤) تسبق الانتهاء الكامل من عملية الاختيار (الخطوات الثلاث الأولى). كما يرجع التأخر أيضًا إلى أن وعينا بقصدنا للفعل مرتبط بالطور المتأخر من جهد الاستعداد Readiness Potential (نشاط المخ الكهربائى المرتبط بالحركة الإرادية) بينما ترتبط بداية البرمجة الحركية بالطور المبكر من هذا الجهد.

مستويات الاختيار الإنسانى

وتماشيًا مع ما تتبناه علوم المخ والأعصاب (حتى الآن) من عدم وجود مركز محدد يمثل المايسترو المتحكم فى عمل المخ، يطرح سبنس[٥] **تصوره لنشأة الاختيار الإرادى داخل منظومة** المخ، فيبين كيف يبدأ المخ عملًا ما، ويوجهه ويعدله، ثم يُنهيه:

على المستوى التشريحى، يحدد سبنس عدة دوائر عصبية مخية تسهم فى السلوك الاختيارى، وأهمها الدائرة العصبية التى تربط العقد القاعدية الخمس والمهاد والقشرة المخية[٦]. ففى هذه الدائرة تدور المعلومات دورات عديدة يتم فيها صياغتها وتعديلها بناء على الخبرات السابقة المكتسبة وبناء على المشاعر والانفعالات.

(١) المنطقة الظهرية الجانبية للقشرة المخية قبل الأمامية Dorsolateral Prefrontal Cortex

(٢) المنطقة الحجاجية الجبهية للقشرة المخية قبل الأمامية Orbitofrontal prefrontal cortex

(٣) القشرة القطبية الأمامية Frontopolar cortex

(٤) القشرة قبل الحركية Premotor cortex

(٥) فى الفصل الرابع من كتابه The Actor's Brain

(٦) Five Basal Ganglia – Thalamo – Cortical Circuits

وتتم عملية الاختيار (**على المستوى الكيميائى**) من خلال اختلاف مستوى وتوزيع الناقلات الكيميائية العصبية Neuro-Transmitters، كالدوبامين والسيروتونين والنورأدرينالين والأسيتيل كولين.

وعلى المستوى المعرفى، يبين سبنس أن الاختيار المعرفى يتبع منظومة لإنجاز الأعمال[1] تتكون من آليات دنيا وآليات عليا. وتضطلع **الآليات الدنيا** بالأعمال التلقائية الروتينية، ونعتمد فيها على خبراتنا التى سبق تعلمها، ويُنَشِّط هذه الآلية ويبدأها المستحثات (المنشطات) الواردة من البيئة الخارجية. أما **الآليات الأعلى** فهى مسئولة عن الأعمال التى يتم اختيارها بالإرادة الواعية، وأيضًا الأعمال التى لم يكتسب الإنسان الخبرة بها[2].

وعلى المستوى الأخلاقى، يتصدى سبنس للإجابة عن السؤال التقليدى؛ هل ما نفعله للآخرين من إساءات، حتمىٌ أم اختيارى؟

للإجابة عن هذا السؤال يتبنى سبنس أن البشر ليسوا ملائكة، بل نحن كائنات نستطيع أن نسلك بشكل جيد أو سيئ تبعًا لاحتياجاتنا، وبالتالى فالخير والشر مفهومان فطريان فى النفس البشرية، ومن ثم فالسلوك السيئ يُعتبر انحرافًا عن السلوك الطبيعى[3].

ويرى سبنس أن الظروف الاجتماعية والبيئية التى يفسر بها التربويون السلوك العدوانى غير كافية لتفسير هذا السلوك، ويضيف إلى تلك الظروف الاضطرابات البنيوية والوظيفية فى المخ، وأيضًا اضطرابات جينية تؤثر فى بناء وتفكيك الناقلات الكيميائية. ومن ثم **فالسلوك اللاأخلاقى هو محصلة للتفاعل بين هذه الظروف جميعها**، وتقوم بعملية المزج والترجيح هذه الإرادة الحرة.

وفى مواجهة «**متناقضة ليبيت Libet's Paradox**» الأخلاقية (التى نلخصها فى: كيف نقول بالإرادة الحرة إذا كان يتم البدء فى أفعالنا الإرادية لاإراديًّا)، يتبنى سبنس أنه «إذا ثبت» أن أفعالنا يتم صياغتها فى اللاوعى فإننا نصبح مسئولين عنها بمجرد أن تصل إلى وعينا، فسبنس يؤمن بأننا **بدون المسئولية لا نُعَد كائنات أخلاقية**.

ومختصر موقف سبنس أنه **نظرة توافقية**، فمفهوم «**مساحة الاختيار الإنسانى**» يجمع بين حرية الإرادة وحتمية العلوم الطبيعية. ويذكرنا ذلك بالطرح التوافقى لتوماس هوبز حين

(١) تُعرف هذه المنظومة بـ Tim Shillice model of volition's cognitive architectures

(٢) يتم ذلك من خلال A supervisory Attentional System (SAS)

(٣) اصطلاح طبيعى هنا اصطلاح إحصائى، يعتمد على أن معظم الناس سيسلكون هكذا تحت نفس الظروف.

اعتبر أن حرية الإرادة ليست قدرتنا على اختيار بديل آخر، ولكن **أن تسلك بغير إجبار تبعًا لاحتياجاتك ورغباتك.**

أكذوبة الحتمية الجينية

فى الرُبع الأخير من القرن العشرين، ثار صَخَبٌ وضجيج حول كتاب **للبيولوجى البريطانى ريتشارد دوكنز**، حادى الملاحدة وعنوان الكتاب «**الجين الأنانى Selfish Gene**»، والكتاب يتبنى نفس النظرة القديمة؛ نظرة الازدراء التى ينظر بها الماديون والملاحدة للذات الإنسانية وحريتها فى الاختيار!.

فدوكنز فى كتابه يرى أن **الكائن الحقيقى الوحيد فى الوجود هو الجين**، وأن **الجين يستغل الكائنات المختلفة لتكاثره وتحقيق خلوده**، لذلك أطلق عليه اسم «**الجين الأنانى**». ومن ثم، فالكائنات المختلفة (شاملة الإنسان) ليست سوى آلات حية (روبوتات) صممتها الجينات لتخدم تلك الغاية. ويرى دوكنز أيضًا أن الجينات تفرض على الإنسان سلوكياته المختلفة، لذلك فإن **سلوكنا كبشر تسوده التوجهات الأنانية**، كنتيجة تراكمية لسلوك الجينات الأنانى. ومن ثم فالجينات هى **المُخَطِط الإستراتيجى** Primary Policymaker، أما المخ/ العقل فدوره لا يتجاوز دور **القائم بالتنفيذ** The Excutive.

عجبًا، **ما كل هذا الهُراء!؟** لقد أصاب أينشتين حين قال **إن معظم العلماء فلاسفة ضعاف.** إن هذا الطرح لدوكنز يعجز عن الإجابة عن العديد من التساؤلات، منها:

أولًا: كيف يكون كل جين كائنًا أنانيًا يدير وظائف جسم الإنسان وخلاياه لصالحه، وفى الوقت نفسه **يشتمل النشاط الفسيولوجى للكائن الحى على التضحية ببعض خلاياه،** مما يعنى إفناء جيناتها. مثال ذلك قيام **خلايا الدم البيضاء** بمحاربة الميكروبات الغازية للجسم مما يؤدى إلى مقتل العديد منها، أليس فى ذلك إيثار لمصلحة الكائن الحى، كيف تُقبِل الجينات الأنانية لكرات الدم البيضاء على مثل هذه التضحية؟!

ثانيًا: إذا قبلنا اعتبار بعض النشاطات الإنسانية، كالتكاثر، سلوكًا أنانيًا للإنسان وللجينات، فلا أستطيع قبول ادعاء دوكنز بأن باقى السلوكيات الإنسانية هى محصلة لسلوك الجينات الأنانى، خاصة وقد ثبت **أن السلوك الإنسانى أمر شديد التعقيد، ولا يمكن تفسيره بالنشاطات الجينية وحدها.**

ثالثًا: كما تمارس بعض خلايا الجسم سلوكًا يتسم بالإيثار والتضحية، فبعض البشر يمارسون سلوكًا مشابهًا لدوافع أخلاقية. **وهذه التضحية بالنفس لا يفسرها مفهوم الجين الأنانى،** حتى وإن ادعَّى دوكنز أن ذلك سلوك أفرزه التطور الداروينى، وأن ذلك يتم لخدمة الجينات الأنانية!! كيف ذلك يا دوكنز؟!

إذا أردنا أن نعرف وجهة نظر البيولوجيين المتخصصين فيما طرحه ريتشارد دوكنز فى كتابه الجين الأنانى، وأيضًا معرفة وجهة نظر العلم فيما طرحت من اعتراضات، فلنرجع إلى أحد العلماء المتخصصين فى بحوث علم الخلية، إنه د.**بروس ليبتون Bruce H.Lipton** [1] (الأستاذ بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة)، وهو من الرواد الذين وضعوا أسس ما يُعرف بعلم **«البيولوجيا الجديدة للخلية New Cell Biology». وسنعرض رأى هذا الخبير على هيئة حوار بينى وبينه:**

لسنا عبيدًا لجيناتنا

سألت د.بروس ليبتون عن حقيقة دور الجينات، فأجابنى قائلًا: فى كتاب أصل الأنواع (عام ١٨٥٩) افترض دارون أن هناك عوامل وراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء، وأنها هى التى تحدد سمات الإنسان. وبعد قرابة قرن من الزمان، توصل **جيمس واطسون وفرانسيس كريك** إلى بنية وطريقة أداء جزىء الدنا DNA لوظائفه وإلى دوره فى نشاط الخلية. عندها اعتبر **العلماء أننا قد توصلنا إلى سر الحياة،** ونظروا إلى الدنا باعتباره الجزىء المحورى الذى يتحكم فى بيولوجيا الخلية وفى صفاتنا البنائية. ثم تَوَسَعَّت النظرة وساد الاعتقاد بأن الدنا يتحكم فى سلوكياتنا وانفعالاتنا كذلك، أى أنك إذا ورثت جين نقص السعادة، فستظل غير سعيد فى حياتك!!

وفى هذا الطرح **ثلاثة أخطاء فادحة.** الأول، أن الجينات التى تتحكم فى صفاتنا البنائية، **لا تستطيع أن تتحكم فى نفسها! ولا بد لها من مُنظِّم يوجه نشاطها.** والخطأ الثانى يكمن فى اعتبار **أن الجينات تتحكم فى جميع العمليات البيولوجية فى الخلية،** ومن ثم فى حياتنا، وهذا يُعتبر تعصبًا غير منطقى لا يقل عن تعصب المتدينين المتطرفين! والخطأ الثالث هو **اعتبار أن جينات قليلة تتحكم فى سلوكياتنا وانفعالاتنا،** فالثابت الآن أن هذه الوظائف يتحكم فيها العديد من العوامل البيئية والنفسية بالإضافة إلى تواصل هائل بين العديد من المراكز المخية.

(١) Bruce H.Lipton : (١٩٤٤ -   ).

وأضاف د.ليبتون، إن ما ذكرت لك من مفاهيم بيولوجية خاطئة أفرزت نظرة فلسفية لا تقل خطأً، فقد أصبحت الداروينية تنظر إلى الحياة باعتبارها حلبة للصراع، وأن البقاء للأقوى/ الأصلح. بينما تبدو لى الحياة ـ عند تأمل الطبيعة ـ ككائن واحد، يعمل فى توازن دقيق من أجل تحقيق التفاهم والانسجام، ليس بين الكائنات الحية فقط، ولكن بين جميع مكونات الطبيعة كمنظومة متكاملة. إن البيولوجيا التقليدية لا تعطى اهتمامًا كافيًا لهذا التعاون منذ أن شبهها دارون بحلبة المصارعة، وقد آن الأوان لأن نرسم خطًا يفصل بين عالمين؛ العالم الداروينى الذى تتصارع فيه روبوتات حية، وعالم البيولوجيا الجديدة التى تنظر إلى الحياة باعتبارها رحلة يتعاون فيها أناس أقوياء من أجل الحياة فى سعادة وحب. ولقد آن الأوان لأن نعرف أننا لسنا عبيدًا لجيناتنا، لكننا سادة لمصائرنا.

البيولوجيا الجديدة

بدت على وجهى علامات الإعجاب، فاستطرد ليبتون شارحًا؛ وقال: إن ما أطرحه عليك ليس نظرة حالمة لرجل رومانسى، بل لقد تَكَشَّفَت للعلم الحديث منذ العقد الأخير من القرن العشرين معارف قلبت الكثير من مفاهيمنا البيولوجية التقليدية رأسًا على عقب. فلقد ثبت أن الوسط المحيط (البيئة) بظروفه الطبيعية وما فيه من طاقات، وكذلك المتغيرات الداخلية فى جسم الإنسان هى المنظم لنشاط خلايانا، لذلك فإن وعى الخلية بما حولها وبما داخلها هو المتحكم الأول فى حياة الخلية. وبذلك وقف دور الجينات الأساسى عند توجيه بناء الخلايا والأنسجة والأعضاء.

بناء على المفاهيم السابقة، تأسست البيولوجيا الجديدة **New Biology**، التى تقوم على علمين جديدين تمامًا: الأول هو علم التحكم فى الجينات **Epigenetics**، ويقوم بدراسة آليات تأثير البيئة (الداخلية والخارجية) على نشاط الجينات (تنشيط، كبت، تعديل نشاط) دون تغيير بنية الجينوم، وتُعرف هذه التعديلات بالتعبير الجينى **Gene Expression**. والعلم الثانى هو علم تحويل الإشارات **Signal Transduction**، الذى يهتم بدراسة التفاعلات الكيميائية داخل الخلية، والتى تستجيب بها الخلية للمتغيرات البيئية، وتؤثر بشكل مباشر على التعبير الجينى.

وإذا كان لوعى الخلية بما حولها وبما داخلها هذا التأثير الكبير على نشاط الخلية الواحدة، فلا شك أن له تأثيرًا مشابهًا على الخمسين تريليون خلية التى تشكل جسم الإنسان. لذلك

ينبغى النظر إلى جسد الإنسان باعتباره مجتمعًا يضم خمسين تريليون فرد (خلية)، ولكل من هذه الأفراد آلياته التى تسهم فى نشاطاته لتُخرج لنا فى النهاية هذا الإنسان. إن هذه النظرة الجديدة ترفع الإنسان من اعتباره ضحية لجينات فُرضت عليه، إلى أن يكون مشاركًا فى توجيه مصيره.

استقبلت ما طرحه عَلَىَّ د.ليبتون بدهشة شديدة، ولا شك أن الأمر احتاج إلى المزيد من الإيضاح، فسألته: حدثتنى عن الجديد فى **بيولوجيا الخلية**، ثم انتقلت منه إلى **بيولوجيا جسم الإنسان** ككل، فما حقيقة العلاقة بينهما؟

أجابنى ليبتون قائلًا، إنها علاقة شديدة التعقيد، فإن **كل خلية منفردة تمثل كائنًا حيًّا يستطيع الحياة بمفرده**، ولا توجد وظيفة واحدة فى الجسم البشرى لا تقوم بها الخلية المنفردة!. لقد بدأ ظهور الكائنات وحيدة الخلية بعد أن استغرق كوكب الأرض الوليد ٦٠٠ مليون سنة ليبرد، ثم ظلت هذه الكائنات هى السائدة على الأرض طوال ٢,٧٥ بليون سنة، قبل أن تبدأ الكائنات عديدة الخلايا فى الظهور منذ ٧٥٠ مليون سنة. **إن الدافع التطورى لنشأة الكائنات عديدة الخلايا كان «توفير الطاقة»** عن طريق تقسيم العمل[1]، بدلًا من أن تقوم كل خلية بالمهام كلها، وتُعرف هذه العملية **بالتمايز Differentiation**. وإذا كانت الخلية بعد تخصصها تقوم بمهام محددة، فإنها تحتفظ فى شفرتها الوراثية بآليات القيام بباقى مهام الجسم، وقد تأكد ذلك بعد أن نجح العلماء فى استنساخ كائن متكامل (النعجة دوللى) من إحدى خلايا الغشاء المخاطى.

تلاشى الحتمية الجينية

قلت لدكتور ليبتون؛ ذكرت أن عقب اكتشاف واطسون وكريك لبنية الدنا وطريقة أدائه لوظائفه اعتقد العلماء أن الدنا هو سر الحياة، وبعد ذلك أثبتت البيولوجيا الحديثة خطأ هذا المفهوم، فهلا زدتنى إيضاحًا. قال ليبتون: قبل اكتشاف واطسون وكريك بفترة، اعتقد العلماء أن **البروتينات** تحدد صفات الكائن الحى ونشاطاته، ثم أثبت هذا الاكتشاف دورَ الدنا فى بناء البروتينات، فتبدلت النظرة وأصبح الاعتقاد **أن الدنا** هو المايسترو المنظم للحياة، هذا بالإضافة إلى دوره الأساس فى عملية التكاثر.

(١) للاستدلال على فاعلية تقسيم المهام، نذكر أن مصانع فورد للسيارات كانت تستغرق أسبوعين لتجميع السيارة الواحدة، وقد انخفضت هذه المدة إلى تسعين دقيقة بعد أن استخدم هنرى فورد خطوط الإنتاج التى تتخصص فيها كل مرحلة فى خطوة محددة.

ولما كان جسم الإنسان يشتمل على مائة ألف نوع من البروتينات، وعملًا بالقاعدة السائدة حينها بأن «**كل جين يُشَفِّر لبروتين واحد**»، فبحسبة بسيطة، تحتاج الخلية إلى مائة ألف جين لبناء بروتيناتها، بالإضافة إلى قرابة عشرين ألف جين لتنظيم عمل الجينات السابقة، أى أن نواة كل خلية فى جسم الإنسان ينبغى أن تحتوى على مائة وعشرين ألف جين.

ثم جاءت المفاجأة مع إعلان نتائج مشروع الجينوم البشرى عام ٢٠٠٠. فقد ثبت أن عدد جينات خلايا جسم الإنسان **لا يتجاوز خمسة وعشرين ألف جين**، أى ٢٠٪ من العدد الذى سبق تقديره! إن ذلك يعنى ببساطة أن عدد الجينات ليس كافيًا ليفسر حياة الإنسان تبعًا لمفاهيمنا السابقة، وعلينا أن نبحث عن آليات أخرى. وقد عَبَّر عن ذلك عالِم البيولوجيا الكبير ديڤيد بالتيمور David Baltimore ـ الحائز على جائزة نوبل ـ بقوله: «إن تميزنا عن الكائنات الأدنى منا، لا يرجع إلى زيادة عدد الجينات، ومن ثم لم يعد ممكنًا الاعتماد على الآلية الجينية وحدها لتفسير التطور. **إن التميز الإنسانى ما زال سرًّا يحتاج إلى المزيد من البحث**»[1].

وأضاف، لذلك فإن من أهم النتائج الفلسفية لمشروع الجينوم، **تلاشِى نظرة الحتمية الجينية Genetic Determinism**، والتى تعنى أن الجينات تحدد مصائرنا، وقد تأكد خطأ ذلك بعد أن ثبت أن التغيرات البيئية، كالتغذية ودرجة الحرارة وكذلك التغيرات الداخلية كالانفعال، يمكن أن **تُغَير من نشاط الجينات دون تغيير فى بنية الجينوم الأساسية** (علوم التحكم فى الجينات Epigenetics)، بل ويمكن أيضًا تمرير تلك التغيرات (فى النشاط) إلى الأجيال التالية.

آليات التحكم فى الجينات

واستطرد د. ليبتون قائلًا: وتعتمد **آلية التحكم فى الجينات** على ما ثبت من أن الدنا DAN يمثل فقط نصف محتوَى الكروموسومات، أما النصف الآخر فيتكون من بروتينات تنظيمية Regulating Proteins كان الباحثون يلقونها فى صناديق القمامة فى أثناء شغفهم الزائد بدراسة الدنا. وتُشكل هذه البروتينات غلافًا يحيط بالدنا ويمنع قراءة ما به من المعلومات؛ ومن ثم

(١) للتأكيد على هذا المعنى، نعقد مقارنة بين جيناتنا وجينات ثلاثة كائنات. **فالدودة البدائية** المعروفة باسم Caenorha - ditis تتكون من ٩٦٩ خلية، منها ٣٠٢ خلية تُكَوِّن المخ (حوالى ١/ ٣ خلايا الجسم)، وبكل خلية من خلاياها قرابة ٢٤,٠٠٠ جين، أما **الإنسان** الأرقى منها كثيرًا والذى يتكون جسمه من خمسين تريليون خلية، فيتكون مخه من ١٠٠ بليون خلية (١/ ٥٠٠ من خلايا الجسم!) وبكل خلية من خلاياه ٢٥,٠٠٠ جين. أى يزيد على الدودة البدائية بمقدار ١٠٠٠ جين فقط!. أما **ذبابة الفاكهة** (الأكثر تعقيدًا من الدودة) فتحوى كل خلية من خلاياها قرابة ١٠,٠٠٠ جين أقل من الإنسان، بينما تتساوى عدد جينات **الفأر** مع جيناتنا. وتبين هذه المقارنات أن عدد الجينات ليس بالعامل الحاسم فى تفوق الكائنات!

يمنعه من ممارسة مهامه. وهنا يأتى دور المؤثرات البيئية، فهى تغير من شكل الغلاف البروتينى، فينفصل عن الدنا، وهو ما يسمح بقراءته وتنفيذ ما يحمل من معلومات.

وبدلًا من أن كانت **البطولة الأولى للجينات**، وكانت معادلة الحياة هى:

الدنا ← الرنا[1] ← البروتينات.

صارت **البطولة الأولى للعوامل البيئية**، وأصبحت معادلة الحياة هى:

المؤثر البيئى ← البروتين المُنَظِّم ← الدنا ← الرنا ← البروتينات

كذلك ثبت أن الآلية البيولوجية «**الفطرية**» لا تنفرد بتوجيه عملية بناء البروتينات، بل تشاركها آلية أخرى، وهى آلية بيولوجية «**مكتسبة**» محورها العوامل البيئية التى تتحكم فى الجينات. ولهذه الآلية المكتسبة فاعلية كبيرة، حتى إن تأثير العوامل البيئية على أحد الجينات يؤدى إلى اختيار واحد من ألفى نوع من البروتينات التى يمكن أن يقوم هذا الجين ببنائها! هذا بعد أن كان المفهوم السائد «جين واحد لبروتين واحد». أليس هذا دورًا هائلًا للعوامل البيئية؟

كما ثبت للبيولوجيين أن الجينات ليست بالثبات الذى كانوا يتصورنه، ويوضح ذلك الظاهرة المعروفة **بالانتقال الجينى Gene Transfer**، حيث تنتقل بعض الجينات من كائن إلى كائن آخر من نفس الجنس، بل وإلى جنس آخر، **وكأنه ليس هناك فاصل حقيقى بين الأجناس!**. وإذا كانت الجينات تمثل أرشيف المعلومات المتوارَثة وأيضًا المكتسبة، فإن الانتقال الجينى يؤكد **إمكانية تبادل المعلومات بين أرشيفات الكائنات، وكأن الطبيعة تسلك لمصلحة كائن واحد، وهو الحياة على كوكب الأرض**. ويجب ألا نغفل أن الانتقال الجينى ـ عندما يتدخل الإنسان فى توجيهه ـ يمكن أن يؤدى إلى **أضرار كثيرة!** فإذا كانت هندسة الجينات قد استطاعت أن تضفى على الطماطم مقاومة أكبر وحياة أطول، فقد تنتقل هذه الصفات من الطماطم (فى أثناء الهضم) إلى البكتريا غير الضارة التى تعيش فى أمعاء الإنسان، فتزيد من ضراوتها بشكل يهدد بقاء الجنس البشرى!

استدرجتُ على معلومة ذكرها ليبتون فى حديثه، وسألته، **وهل تُسَجَّل الصفات المكتسبة فى جينات الخلية؟**

أجابنى ليبتون قائلًا: إذا كان الإنسان يتعلم من البيئة المحيطة فإن الخلايا أيضًا تتعلم من بيئتها المحيطة. ومن أهم أمثلة ذلك **خلايا المناعة**، التى تُكَوِّن ذاكرة خلوية تُسَجَّل فى جيناتها

(١) الرنا RNA، ثانى الأحماض النووية فى نواة الخلية، وهو أبسط تركيبًا من الدنا DNA، ويقوم بالدور الرئيس فى نقل المعلومات من نواة الخلية إلى خارجها، ثم يقوم بتوجيه عملية بناء البروتينات.

وتجعلها قادرة على التعرف على البكتريا الغازية إذا هاجمت الجسم مرة أخرى، ويتم تمرير هذه المعلومات المكتسبة عن طريق الجينات إلى الأجيال الجديدة من الخلايا. **وهذا ينفى ما يتمسك به المتحمسون للحتمية الجينية من أن الصفات المكتَسَبَة لا تُسَجَّل فى الجينات ومن ثم لا تُوَرَّث،** ويُعَد ذلك بحق ثورة فى معلوماتنا البيولوجية.

مخ الخلية وسر حياتها

من أجل الاستزادة عن دور الجينات فى حياة الخلية؛ سألت ليبتون: إذا كان المخ هو العضو المسئول عن التحكم فى وظائف أعضاء وسلوك الكائن، وإذا كان تلفه يعنى الموت، **فهل تمثل** النواة للخلية نفس الأهمية، أى **هل النواة هى مخ الخلية؟**

أجابنى ليبتون قائلًا؛ من أجل الإجابة عن سؤالك المحورى هذا، قام علماء الخلية بعدد من التجارب **أزالوا فيها نواة الخلية** Enuclcation، ثم تابعوا ملاحظتها لينظروا كيف تسلك. كانت النتائج مذهلة، **لقد عاشت كثير من الخلايا لمدة شهرين بدون نواتها (بدون جيناتها)**. لقد احتفظت الخلية بقدرتها على الحركة، وابتلاع الطعام، والتمثيل الغذائى، والتنفس، والهضم، والإخراج، والتواصل مع الخلايا الأخرى، والتفاعل تجاه المتغيرات البيئية. فقط لم تستطع الخلية الانقسام والتكاثر، بالإضافة إلى عدم القدرة على تجديد ما يَنفد من بروتيناتها، وهذا هو سبب موتها فيما بعد. **إن ذلك يعنى أن مخ الخلية ظل موجودًا ويعمل فى غياب جيناتها**. لذلك نعتبر ـ مع بعض التجاوز ـ **أن النواة ليست مخ الخلية، بل هى غددها التناسلية (المناسل) التى تقابل المبيضين والخصيتين فى الحيوانات!**

أثار ما قاله ليبتون دهشتى، وبَدَّدَ الغيوم التى تجمعت فى عقلى طوال أكثر من عامين، نتيجة لما قرأته وسمعته فى الإعلام، **عندما أعلن عالم البيولوجيا الجزيئية الأمريكى كريج فنتر** فى العشرين من مايو عام ٢٠١٠ **أنه استبدل كروموسوم**[١] **خلية بكتيرية بكروموسوم آخر قام بتجميعه من مكوناته** (الأحماض النووية) فى المعمل، وقد استمرت الخلية فى الحياة وقامت بالانقسام وبتصنيع البروتينات تبعًا لشفرة الكروموسوم المُصَنَّع الجديد. عندها قامت الدنيا ولم تقعد، تعالت صيحات الإعلام: أول خلية صناعية، حياة صناعية، خلقوا الخلية، خلقوا الحياة، أضافوا كائنًا جديدًا إلى قائمة الكائنات الحية، وغيرها[٢]...

---

(١) يحتوى الكروموسوم على مجموعة من جينات الخلية.

(٢) راجع تفاصيل ما قام به كريج فنتر فى كتابى «كيف بدأ الخلق»، الفصل الرابع، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة ٢٠١٥.

سألت ليبتون عن حقيقة ما فعله كريج ڤنتر، فأجابنى؛ الأمر كما ذكرت تمامًا، فقد أحضر ڤنتر خلية بكتيرية من جنس المايكوبلازما ونزع كروموسومها الأوحد، أى أزال الأرشيف الخاص بكيفية تصنيع البروتينات فى الخلية وبآلية التكاثر، **وبقيت الخلية حية**. ثم صَنَّعَ ڤنتر كروموسومًا مطابقًا لكروموسوم بكتريا من نوع آخر من نفس جنس المايكوبلازما، وقام بوضع هذا الأرشيف الجديد (الكروموسوم) فى الخلية الأولى التى بقيت حية، عندها قامت الخلية المُجمَعَّة بالانقسام وبناء البروتينات تبعًا للمعلومات الموجودة فى الأرشيف الجديد.

وأضاف ليبتون؛ إن ذلك يثبت ما سبق أن ذكرتُه من أن الجينات (التى يتكون منها الكروموسوم) ليست هى سر الحياة وليست هى مخ الخلية، إذ بقيت الخلية حية بعد أن نزع ڤنتر نواتها.

سألت ليبتون، وكيف تصف أو تُصَنِّف ما فعله ڤنتر؟ أجابنى، **لقد قام ڤنتر بعملية «استبدال»، إذ** استبدل أرشيفًا للمعلومات الخاصة بمهمة معينة بأرشيف آخر، تمامًا كما يستبدل الجراحون عضوًا تالفًا فى جسم الإنسان بعضو آخر، خاصة الكبد، إذ إن كرموسومات خلايا الكبد تحمل الأرشيف (الشفرة) الخاص ببناء الكثير من بروتينات الجسم. إن ذلك يعنى أن نواة الخلية هى **كبد الخلية** بالإضافة إلى أنها **غددها التناسلية**.

سألت ليبتون؛ إذا لم تكن الجينات (التى تتكون منها كرموسومات النواة) هى سر الحياة، وليست هى مخ الخلية، فما هو مُكَوِّن الخلية الذى يمكن نسبة مهام المخ إليه؟

ابتسم ليبتون وقال؛ قد تندهش إذا عرفت أننى أعتبر أن مخ الخلية وسر الحياة هو «**غشاء الخلية**» الذى يحيط بها ويحفظ مكوناتها!.

غشاء الخلية المُعجِز الأعجوبة

واستطرد ليبتون شارحًا؛ إذا كان **الدنا DNA** يحمل المُخَطَط التفصيلى Blue Print لكيفية تكوين البروتينات اللازمة لبنية ووظيفة الخلية، فإنه ليس مسئولًا بشكل مباشر عن **تعامل الخلية مع الوسط المحيط**، تلك المهمة التى تتوقف عليها حياة الخلية، ومن ثم، ليس الدنا هو المسئول الأول عن حياة الخلية. **إن مهمة التعامل مع الوسط المحيط يقوم بها غشاء الخلية** Cell Membrane، الذى **إذا أُتلف ماتت الخلية**، وإذا تم إعطاب ما به من «مكونات نشطة» **دخلت الخلية فى غيبوبة** تشبه حالة الموت الدماغى فى الإنسان! لذلك **استحق غشاء الخلية أن يُعتبر هو مخ الخلية وسر الحياة**.

سألت ليبتون؛ ما تلك «**المكونات النشطة**» التى إذا أُعطبت دخلت الخلية فى غيبوبة؟!

أجـاب ليبتون: من أجل أن يقوم غشـاء الخلية بمهامـه الذكية، تم تزويده بـ«**مسـتقبلات Receptors**» **تعمل كهوائيات أو قرون استشعار تدرك ما حولها خارج الخلية وأيضًا ما بداخلها**. كما تم تزويد غشـاء الخلية بـ «**مستجيبات Effectors**» تتلقى التعليمات من المستقبلات، **فتفتح بواباتـه أو تغلقها**، لتسـمح أو تمنع مرور المواد المختلفـة إلى داخل وخارج الخلية، وذلك تبعًا لما ترصده المستقبلات من ظروف بيئية داخل الخلية وخارجها.

وهناك مئات الآلاف من المستقبلات والمستجيبات فى غشاء كل خلية، تعمل معًا فى **تناغم وتنسـيق**، وهو ما يُسـمى بـ«**الأسـلوب الجَمعـى Holisitic**» الذى يعتمد عـلى فيزياء وكيمياء الكوانتم. والمدهش، أن **تلك المستقبلات والمستجيبات فى غشاء الخلايا البكتيرية عديمة النواة، تقوم بجميع المهام التى يقوم بها المخ البشرى!، عدا التعقل طبعًا!**

سـألت ليبتون سـؤالًا ربما بدا له سـاذجًا:لقد ذكرت أن مسـتقبلات ومسـتجيبات غشاء الخلية تعمل تبعًا لكيمياء وفيزياء الكوانتم، وأنا أعرف أن رقائق الكمبيوتر Computer Chips تعمل أيضًا تبعًا لقوانين الكوانتم، **فهل يمكن تشبيه أداء غشاء الخلية بأداء رقائق الكمبيوتر؟**

صـاح ليبتون، برافو! لقد أصبت، فكلاهما عبارة عن بللورات سـائلة[1]، تخضع فى عملها لنفس القواعد.! وإذا كان يمكن تعريف غشاء الخلية بأنه «**غشاء من بللورات سائلة، له القدرة على التوصيل المتمايز Semiconductor (يسمح بمرور مواد ولا يسمح بمرور مواد أخرى) وهو مزود بمستقبلات ومسارات ومستجيبات وبوابات**»، فإن هذا ينطبق تمامًا على شرائح الكمبيوتر التى تُوصَف بنفس الوصف: Semiconductor Crytals with gates and channels.

وإذا نظرنا إلى شرائح الكمبيوتر، وجدنا منها أنواعًا عديدة تبعًا لوظيفتها، ومن أهمها تلك **التى تسـتقبل المُدخَلات وتعالجها ثم تمرر التعليـمات إلى تراكيب أخرى لتقوم بالتعامل معها**، وهذه إحدى وظائف جدار الخلية.

ومن جوانب الشـبه الأخرى بين غشـاء الخليـة وشرائح الكمبيوتـر، أن **كليهما تتم برمجته**

(١) البللورات عبارة عن تكوينات تتراص جزيئاتها فى شكل منتظم متكرر، (كالجنود الواقفين فى طابور عسكرى)، ومن البللورات ما هو صلب كالماس وملح الطعام، ومنها ما هو سائل كتلك المستخدَمة فى واجهة الساعات الرقميـة وشاشات الكمبيوتر الشخصى. وغشاء الخلية بللورات من النوع الثانى، الذى تسمح حالته السائلة بأن ينثنى ويَتَلَّوى دون أن تفقد جزيئاته تراصها، تمامًا كالطابور العسكرى إذا سار ودار حول مبنى وظل محتفظًا بتراص جنوده.

من الخارج؛ المبرمِج فى حالة الكمبيوتر، والبيئة ـ وليس الجينات ـ فى حالة غشاء الخلية. لذلك **ينبغى النظر إلى نواة الخلية باعتبارها أسطوانة الذاكرة Memmory Disc التى تحمل وصفة بناء البروتينات، وليس باعتبارها المبرمِج.** والدليل على ذلك ـ كما ذكرنا ـ أن إزالة نواة الخلية تؤدى إلى فقدان القدرة على بناء البروتينات، وليس فقد برامج الخلية.

لذلك، نعتبر أن المسئول عن التعامل مع المتغيرات داخل وخارج الخلية بل والتعامل مع مختلف مشاعر الإنسان هو جدار الخلية، ما جعله **جديرًا بأن يوصف بأنه (وليس النواة) مخ الخلية الحقيقى.**

عند ذلك الحد، وجدت نفسى أهمس قائلًا: **سبحان الله...**

ثم أضاف ليبتون قائلًا؛ وبالرغم من ذلك، لا يزال الكثير من علماء البيولوجيا ينظرون إلى الجينات باعتبارها المسئولة عن برمجة الخلية، ويعتبرون أن هناك حتمية جينية، أى أنه لا يمكننا الفرار مما تم برمجته فى جيناتنا. وهذا **خطأ كبير لن يتم إصلاحه إلا بإعطاء غشاء الخلية ما يستحقه من اهتمام. إن التخلص من مفهوم الحتمية الجينية يضع مصير حياتنا فى أيدينا،** فنحن قادرون على برمجة الخلية من خلال غشاء الخلية (عن طريق ظروفنا البيئية وحالتنا النفسية والروحية)، ومن ثم **فنحن سادة مصائرنا ولسنا ضحايا لجيناتنا.**

الكلمة النهائية

تهتم **مؤسسة جون تمبلتون** John Templeton Foundation (أسسها سير جون تمبلتون عام ١٩٨٧) بتمويل الأبحاث الخاصة بالمفاهيم الإنسانية والوجودية، وتمنح المؤسسة جائزة للأبحاث الخاصة بهذه المجالات تفوق قيمتها قيمة جائزة نوبل.

ومنذ عام ٢٠١٠ (ولمدة ٤ سنوات) مَوَّلَت المؤسسة مشروعًا (تحت إشراف ألفريد مِل Alfred Mele)[1] **يهتم بدراسة مجادلة الحرية والحتمية من وجهة نظر العلوم المختلفة،** وقد نُشرت نتائج هذه الأبحاث عام ٢٠١٤ [2]، وسننهى هذا الفصل بما توصلت إليه أبحاث كبار العلماء المتخصصين فى أهم هذه المجالات:

(١) Alfred Mele: (١٩٥١ -) أستاذ الفلسفة الأمريكى بجامعة فلوريدا.

(٢) نُشِرَت هذه النتائج فى كتاب بعنوان : Surrounding Free will: philosophy, Psychology, Neuroscience

فى مجال **العلوم العصبية Neuroscience**، أثبتت أبحاث هذا الفريق[١] **خطأ تأويلات تجربة ليبيت** حول جهد الاستعداد والتى يتخذها الحتميون دليلًا على صدق توجهاتهم[٢]. وقد قَدَّم الباحثون العديد من الحجج على أن أبحاث ليبيت قد تم المبالغة فى قراءة نتائجها لصالح الفريق المعارض لحرية الإرادة. كما أظهرت أن **اتخاذ القرار هو عملية واعية مستمرة وليست تعليمات تمليها الخلايا العصبية**، بل إن هذه العمليات تستمر فى طرح البدائل بعد البداية الواقعية للفعل.

وقد أثبتت أبحاث علماء **علم النفس**[٣] فى هذه الدراسة أن **القرار الحر بالصفح أو المعاقبة ضد من أساء لآخر يتوقف على علاقة الشخص بالمُسىء**. فكلما كانت العلاقة بعيدة زاد اقتناع الشخص بأن الإرادة الحرة اختارت العقوبة من أجل المحافظة على **أعراف المجتمع**. أما تعاملنا مع المحيطين فيغلب عليه الرغبة فى المحافظة على **العلاقات الاجتماعية** معهم، فبالرغم من أن التصرف الطبيعى هو المعاقبة فإن إرادتنا الحرة توجهنا نحو المحافظة على علاقتنا بهم.

بذلك أثبتت الدراسات النفسية دور **حرية الإرادة فى الموازنة بين البدائل**.

وفى **المجال الفلسفى**، حلل الباحثون[٤] الشكوك التى تُثار ضد حرية الإرادة، وتوصلوا إلى أن **كل ما يطرحه الحتميون هو محل تساؤلات**. كذلك أكدوا على أن الأمر تحده اعتبارات **أخلاقية** ينبغى مراعاتها قبل الانقياد للحتمية.

وتنتهى الدراسة بوقفة مع **علماء الاجتماع**[٥]. وقد أظهرت الأبحاث التى أُجريت على طلبة الجامعات أن **القول بالإرادة الحرة أمر بديهى نلمسه جميعًا**، ويرجع إلى غياب عناصر الإجبار، حتى إن قرارات الإرادة الحرة تعد كسرًا لحتمية تسلسل علاقة الأسباب بالنتائج.

ونختم هذه الدراسة ـ وهذا الفصل ـ بالتعبير عن دهشتنا من **أن الحضارة الغربية المادية التى تتبنى القول بالحتمية تقوم على حرية كل شخص فى فعل ما يريد!!!**

---

(١) أهم هؤلاء الباحثين: Uri Mooz, Prescott Alexander

(٢) ذكرنا أهم الأدلة الداحضة عند دراسة نقض تجربة ليبيت.

(٣) أهم علماء هذا الفريق: Roy Beuemeister, Cory Clark, Jamie Luguri

(٤) أهم هؤلاء: Mylopoulos, Lau

(٥) قام بهذه الدراسات: Andrew Munroe, Bertram Malle

القارئ الكريم

تناولنا فى هذا الفصل مساهمة ثلاث مجموعات من العلوم فى استجلاء جوانب مجادلة الحرية والحتمية، وهى علوم النفس، والمخ والأعصاب، وبيولوجيا الخلية.

فى مجال **علم النفس**، يتبنى عدد من المدارس **القول بالحتمية البيئية** مع إنكار الإرادة الإنسانية الحرة، وأهم هؤلاء هم السلوكيون وأنصار البيولوجيا الاجتماعية. بينما يتبنى المذهب الإنسانى القول **بقدر من الإرادة الحرة**، ويشاركه فى ذلك علم النفس المعرفى ومدرسة التحليل النفسى لفرويد وأيضًا أنصار الفرويدية الحديثة.

وكحل وسط يتبنى الكثيرون **مفهوم الحتمية اللينة** Soft Determinism الذى يُسَلِّم بوجود الحرية الإنسانية فى الاختيار مع تأثير للعوامل البيولوجية والبيئية والتربوية على اتخاذ القرار. وهذا المفهوم يمثل نوعًا من **النظرة التكاملية** Compatibilism.

وفى مجال **علوم المخ والأعصاب**، يحتج الحتميون على صحة موقفهم بنتائج **تجربة ليبيت**، التى درست علاقة النشاط الكهربائى للمخ باتخاذ القرار بالقيام بفعل حركى، فقد تصور ليبيت ومدرسته أن القرار بالحركة يتم اتخاذه فى المخ بشكل غير واع قبل أن يصبح الفرد واعيًا بالحركة.

وقد اهتم القائلون بحرية الإرادة بنتائج تجربة ليبيت، وأتبعوها بتجارب معملية أكثر دقة، أدت إلى **انهيار التجربة** كدليل على الحتمية بعد أن صدعنا الحتميون بها لسنوات عديدة.

وفى مجال **علوم المخ والأعصاب أيضًا**، لاحظ الأطباء المتخصصون قيام المرضى فى مجموعة من الأمراض العصبية والنفسية ببعض السلوكيات والحركات غير الإرادية، ولاحظوا كذلك سيطرة عدد من المُدرَكات والأفكار والمشاعر والوساوس على الإنسان على غير إرادة منه، فيصبح المريض غير قادر على التحكم فى حركاته أو دفع مشاعره ووساوسه. إن **هذا العجز المَرَضِى الذى يؤدى إلى اضطرابات حتمية يثبت وجود الإرادة الحرة فى الإنسان السوى.**

وإذا كانت الآليات العصبية للاختيار الإنسانى ما زالت بعيدة تمامًا عن إدراك العلم، فقد تمكن العلماء من التوصل إلى **بعض التصورات لهذه الآليات** على المستوى التشريحى والكيميائى والمعرفى والأخلاقى.

وفى مجال **بيولوجيا الخلية، لا** يزال الكثير من علماء البيولوجيا ينظرون إلى الجينات باعتبارها المسئولة عن برمجة الخلية، ويعتبرون أن هناك حتمية جينية. وهذا **خطأ كبير لن يتم إصلاحه إلا بإعطاء غشاء الخلية ما يستحقه من اهتمام**. إن التخلص من مفهوم الحتمية الجينية يضع مصير حياتنا فى أيدينا، فنحن قادرون على برمجة الخلية من خلال غشاء الخلية (عن طريق ظروفنا البيئية وحالتنا النفسية والروحية)، ومن ثم **فنحن سادة مصائرنا ولسنا ضحايا لجيناتنا**.

ومنذ عام ٢٠١٠ (ولمدة ٤ سنوات) مَوَّلَت مؤسسة تمبلتون مشروعًا (تحت إشراف ألفريد مِل Alfred Mele) يهتم بدراسة مجادلة الحرية والحتمية من وجهة نظر العلوم المختلفة، وقد نُشرت نتائج هذه الأبحاث عام ٢٠١٤. وقد أثبتت نتائج هذه الدراسة المستفيضة فى مجالات العلوم العصبية والنفسية، والمجال الفلسفى وعلم الاجتماع **ما يتمتع به الإنسان من حرية إرادة واختيار. وبذلك قال العلم كلمته شبه النهائية فى مجادلة الحرية والحتمية**.

* * *

الفصل الثالث عشر

عبـــدٌ مُخَيَّــر



- مَن أنا؟
- الحرية الإنسانية فى الإسلام
- القرآن الكريم ومجادلة الجبر والاختيار
- الجبر
  - لماذا الجبر؟
  - مجالات الجبر
  - الإنسان عبدٌ.. مُخَيَّر
- الاختيار
  - أولًا: الإرادة الإنسانية الحرة
  - ثانيًا: التقوى والهوى
  - ثالثًا: النجدين
  - رابعًا: لَمَّة المَلك ولَمَّة الشيطان
  - خامسًا: المشيئة الإلهية والإرادة الإنسانية
- أخطأوا فقالوا: الاختيار الحر خدعة!!
- مرج البحرين يلتقيان
- القرآن والجبريون
  - إنه الهوى
  - لا إكراه على الإيمان
- القارئ الكريم
  - جوهر الاختيار البشرى فى القرآن الكريم

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾

[سورة الشمس]

مَـــنْ أنـــا(*)؟!

لَمَّا كان الغرض من الديانات هو التواصل بين الله ﷻ وبين سيد مخلوقاته، وهو الإنسان، كان طبيعيًّا أن **يُخبرنا الله ﷻ بحقيقتنا وبالعلة من وجودنا** فى بدايات آخر كتبه السماوية؛ لذلك جاء فى **أوائل سورة البقرة**:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

عَرَفْتُ من الآية أنى خليفة من الله ﷻ فى الأرض...

وعَرَفْتُ أن الملائكة قد تطلعت إلى تلك المنزلة...

وعَرَفْتُ أن الملائكة قد اعتقدت ـ خطأً ـ أن التسبيح والتقديس هما مبرر الاستخلاف...

ثم يبين الحق ﷻ مسوغات الاستخلاف: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

بذلك أخبر الله ﷻ ملائكته **أن مسوغات الخلافة هى العلم والمعرفة...**

ثم يوضح الله ﷻ للإنسان حقيقة وجودية باقية ما دامت السموات والأرض: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

(*) هذا الجزء بعنوان (من أنا؟!) من وحى كتاب: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى، للدكتور مهندس محمد الحسينى إسماعيل، عام ١٩٩٩ ـ مكتبة وهبة.

أَسْجَدَ الله ﷻ الملائكة لآدم لِما يتميز به من علم ومعرفة...

من ثَمَّ، يصبح التسبيح والتقديس تابِعَين للعلم والمعرفة... يا الله...

ولكن...

هل العلم وحده كاف لإنقاذنا؟... تظهر الإجابة عن هذا السؤال فى قول الله ﷻ:

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة].

لا... ليس العلم وحده كافيًّا لإنقاذنا

فآدم تَعَلَّمَ الأسماء كلها ورسب فى أول امتحان للذات الإنسانية...

لماذا؟

لم يذكر لنا القرآن الكريم مقاومة من آدم لإبليس...

كان آدم على الفطرة... كان لا يزال فى ساحة البراءة...

كان آدم عالِمًا... ولم يك كاملًا ...

فالاكتمال يتطلب الإنضاج بنار الاحتكاك بالآخرين...

إن الذين يعتزلون العالم ليسوا بكاملين... لم تنضُج ذواتُهم...

كان **إبليس** جزءًا ضروريًّا من القصة... فهو يخدمنا ...

الشر الذى نهزمه يخدمنا... إنه نضجٌ وإثراءٌ واكتمال...

يُرَقِّينا حتى نصل إلى سدرة منتهانا...

ذاق الإنسانُ الشجرة المحظورة... واستطابها...

وما زال يحوم حولها... تارة يجاهدها... وتارة يستلذها...

لم يكن خروج آدم من الجنة عقوبة نتحمل توابعها...

فنحن لم نذق طعم الجنة... لم نُعانِ استشعار الفرق...

الإسلام لا يعترف بالخطيئة الأصلية...

ما حدث لأبوينا كان تمهيدًا لبداية قصتنا...

التى هى فرصةٌ وتحدٍّ...

ثم يبين الله ﷻ لنا **الحكمة من المعرفة**: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ **قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة].

تفجرت العبادة من ينبوع المعرفة والمعاناة والتجربة...

لم تولد المعرفة من رحم العبادة...

ليست المعرفة فضيلة أو إضافة ... إنها استكمال للإنسانية...

نشأ آدمُ فى الجنة... فى المجرد... بذلك تتساقط نظريات تشكيل الإنسان بالتاريخ، أو الاقتصاد، أو التنشئة، أو العُرف...

صار آدم بنفخة الروح خلقًا آخر... ذا تطلعات غيبية سماوية...

سجود الملائكة تكريم وتشريف... واستثنائية إزاء الكون كله... ارتقى الإنسان حتى تجاوز المَلَك... ليس فى القرآن آية تقول إن الملائكة تؤمن ... فالإيمان خصيصة إنسانية... تحمل معنى **البحث والاستدلال والتجريب والترقى**... انظر قصة تفرس إبراهيم عليه السلام فى السماء... انظر قصة طلبه من الله ﷻ أن يريه كيف يُحيى الموتى...

أكرم تعريف للإنسان أنه **الكائن المتسائل الباحث دائمًا عن الله ﷻ ...**

حتى وإن عَبَدَ حجرًا...

كائن يتردد بين نقيضين... أسفل سافلين... وذُرا الأنبياء والصالحين ...

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا** ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

أنا كائن حُرٌّ مختار...

قال تعالى: «إنا عَرَضْنَا الأمانة...».

ولم يقل: إن حَمَّلْنَا الأمانة.

سُئِلَ عبد الله بن المبارك: لو قيل لك هذه آخر ساعة من عمرك، ما أنت فاعل فيها؟! قال: أطلب فيها العلم...

من هذا المنهل رضعت إدراكى بذاتى...

وعلى هذا فُطِمْت...

أنى عبدٌ... مُخَيَّر

الحرية الإنسانية فى الإسلام [(١)]

ينظر الإسلام إلى «**الحرية الإنسانية**» باعتبارها من معانى الأمانة التى عُرضت على الإنسان، واستحق بها الخلافة من الله ﷻ فى الأرض. والحرية الإنسانية فى الإسلام ليست مفهومًا نظريًّا فلسفيًّا، لكنها منظومة **عقائدية عملية ينبنى عليها اختيار** بين فعل وترك، يتبعه حساب فى الحياة الآخرة، ثم جزاء بنعيم أو عذاب.

وتقوم **الحرية الإنسانية** فى القرآن الكريم على **ثلاثة محاور**:

المحور الأول: **حرية الاختيار**

وهى قدرة الإنسان على الاختيار بين بدائل، ويستتبع هذا الاختيار عواقب يتحملها الإنسان.

المحور الثانى: **الاستطاعة**

وهى القدرة البشرية على تنفيذ الفعل الذى يختاره الفرد، فلا ينبغى أن يقف الاختيار عند المستوى النظرى فقط، فالعجز عن التنفيذ قيد مدمر لجوهر حرية الاختيار.

المحور الثالث: **العلم والمعرفة**

يتجلى هذا المحور فى ربط الأمانة والخلافة بتعليم آدم عليه السلام الأسماء. بل بهذا المحور (العلم والمعرفة) يصبح للاختيار والاستطاعة معنى، وبدونه يصبحان عبثًا لا معنى له.

وسنقوم فى هذا الفصل بدراسة المحور الأول، فى إطار موقف القرآن الكريم من مجادلة الحرية والحتمية، حتى نؤصل كيف أن **حرية الاختيار من أهم سمات الوجود الإنسانى**.

(١) هذا المبحث (حتى آخر الفصل) بتصرف، عن كتاب «القضاء والقدر فى الإسلام – الجزء الأول، الفصل الرابع» للدكتور فاروق الدسوقى. والكتاب فى أربعة أجزاء، حاز عنه د. فاروق الدسوقى جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٤٠٥هـ.
د. فاروق الدسوقى (١٩٣٨–   ) أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية بمصر ثم بجامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية، وله العديد من المؤلفات حول العقيدة الإسلامية.

القرآن الكريم

ومجادلة الجبر والاختيار

لعل مبحث الجبر والاختيار المتعلق بحرية الإرادة الإنسانية من أكثر المباحث إثارة للجدل فى الفكر الإسلامى. وقناعتى أن **القول بالجبر المطلق** يتعارض تمامًا مع العقيدة الإسلامية، فمن لديه أدنى معرفة بالتصور الإسلامى يدرك أن الإسلام ينظر إلى الحياة الدنيا باعتبارها **لجنة امتحان** سيحاسب المرء على أدائه فيها يوم القيامة، وهذا الأداء لا يكون إلا بناء على اختيار حر لا إجبار فيه.

وبالرغم من ذلك، وقبل أن تمضى سنواتٌ قليلة على انتقال رسول الإسلام ﷺ إلى الرفيق الأعلى، شُغل الفكر الإسلامى بالصراع حول مجادلة الجبر والاختيار. وقناعتى بأن هذا الصراع لا يرجع إلى تعارضٍ فى النصوص الإسلامية أو لبس فى فهمها، بل يرجع إلى **عوامل نفسية تحبذ القول بالجبر والتسيير المُطْلَقين لإسقاط المسئولية عن العصاة والمذنبين**. وسنقوم فيما تبقى من الفصل بمناقشة عنصرى هذه المجادلة (الجبر والاختيار) لدحض موقف الجبريين والوصول إلى جوهر الاختيار البشرى فى القرآن الكريم.

الجبـــر

يشتمل القرآن الكريم على كثير من الآيات المُصَرِّحة والموحية بالجبر، وهذا ما دعا البعض إلى القول بالجبر المطلق، واعتبار الإنسان مُسَيرًا فى جميع أحواله وحركاته وخلجاته وسكناته **كالريشة فى مهب الريح**. ولكن الجبر الذى تنطق به الآيات يسرى فقط على الجانب الجبرى من حياة الإنسان، ولا يتنافى أو يتعارض مع كون الإنسان حرًا مختارًا فى حالات وجوانب أخرى.

وتتناول هذه **الآيات الجبرية** علاقة الإنسان بالله ﷻ من حيث هو إلهه وربه وإله ورب كل شىء ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ ﴾ [الروم]. فالآية **تعتبر كل من فى السماوات والأرض خاضعين لله** ﷻ. ذلك لأن الكافر وإن كان عاصيًا لله وفاسقًا عن أمره انطلاقًا من **الجانب الاختيارى** فى حياته، فإنه خاضع وقانت له ومجبر ومُسَير لقدره ومشيئته، انطلاقًا من **الجانب الجبرى**، حيث إنه **يعيش بالقوانين** التى أرادها الله ﷻ له والتى تحكمها طبيعته البيولوجية والنفسية وأيضًا موروثاته ومكتسباته الجبرية.

وبما أن الله ﷻ هو المدبر للكون والمنظم له وللحياة على الأرض، فهو وحده الذى يخلق ما يشاء، ويختار ما يخلق وما يرزق وما يقضى وما يريد من شئون الدنيا والآخرة: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص].

وواضح أن نفى الخيرة عن البشر يتعلق بالخيرة فى الخَلْق، فليس للعبد أن يختار لون عينيه أو طوله أو قوة ذكائه أو ذاكرته أو رزقه أو أجله وغير ذلك من أمور الجانب الجبرى الذى تحدثنا عنه، والذى لا ينفى الاختيار البشرى وإنما يمهد له.

لماذا الجبر؟

إن كل شىء عند الله ﷻ بمقدار وبقدر معلوم، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] وهذا ضرورى ويتماشى مع عقيدة التوحيد الخالصة، ومن أخص خصائص الألوهية فى القرآن، ولابد منه لانتظام الحياة وسيرها ودوامها. فتقدير الله ﷻ وعلمه المُسبق بالأسباب والعلل التى تؤدى إلى الأحداث والأفعال فى الكون ضرورى **لوجود هذا الكون واستمرار هذا الوجود.**

والجبر ضرورى أيضًا لتوجيه الأسباب والعلل التى تؤدى وتُنشئ «**التجارب الابتلائية**» فى حياة الإنسان الخُلُقية والاجتماعية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد]. ومن ثم، فالمصيبة (كتجربة ابتلائية) فعل جبرى يقع على العبد، ولا يحاسب على وقوعها ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس]. وفى ذلك أيضًا يقول ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ...﴿٤٩﴾﴾ [يونس]. فوقوع الضر والخير للإنسان جبر محض يمس الجانب الجبرى من حياته ولا يحاسب عليه. وإنما يُحاسَب المرء على تصرفه حيال المصيبة، ذلك التصرف الاختيارى النابع من ذاته.

لذلك فتقدير المصيبة قبل أن تقع على الإنسان ضرورى لتنظيم الحياة، بجانب كون هذا التقدير والعلم المُسبق **من خصائص الألوهية ولوازم العلم الإلهى.**

مجالات الجبر

تثبت الآيات السابقة أن ليس للإنسان الخِيَرة فى نوعه وجماله ورزقه وأجله و...، فهذه الأمور جميعًا من ظروف وأحوال التجربة الابتلائية التى تُلزم العبد بفعل وسلوك اختيارى.

ففى **الرزق** يقول الحق ﷻ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ... ﴿٦﴾ ﴾ [هود]، ويقول أيضًا: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى]. ويقول: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرعد].

والمُلك كالرزق، فعل جبرى يجريه الله على العبد ليبتليه وليرى ماذا سيفعل حياله، قال تعالى: ﴿ ... وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ ... ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة]. وقال أيضًا: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران].

وأيضًا، **العقل والفهم والحكمة** ليس للإنسان أدنى اختيار فيها، ولكن الله يختار لها من يشاء ويرزقه منها ما يشاء: ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ... ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة].

والولد، كالمال، ليس للإنسان اختيار فيه ولا فى نوعه: ﴿ ... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى].

كذلك ليس للناس الخِيَرة فى **أطوار حياتهم ومراحل هذه الحياة، فهذا من شأن الله** وخلقه. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الروم].

وعلى ذلك فقوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر] يعنى أن كل ما يمنحه الله ﷻ للإنسان من نعم وكل ما يصيبه من نقم إنما هو **بقدر معلوم**، القدر الذى يحقق خلافة الإنسان وابتلائه.

الإنسان عبدٌ... مُخَير

من ثم، فتحديد الرزق والولد والقوة والملك والجاه والعقل والجمال و...، واختلاف ذلك كله من فرد لفرد ومن أُمة لأمة ومجتمع لمجتمع، كمًا وكيفًا، إنما هو **لقيام الابتلاء كسمة أساسية**

فى حياة الإنسان، ابتلاء يتطلب الجمع بين الجانب الجبرى من حياته والجانب الاختيارى جمعًا متناسقًا معقولًا لا تعارض فيه ولا تناقض ولا اختلاف. وهذا ما قصدناه بتعريف الإنسان - الذى جعلناه عنوانًا لهذا الفصل - بأن **الإنسان عبد مخير**.

وإذا كنا قد عَرَّفنا معنى العبودية «= الجبرية» عند الإنسان، فينبغى علينا الآن أن نبين المقصود بكلمة «**مخير**» فى التعريف السابق.

الاختيار

يقوم الاختيار الإنسانى على **خمس ركائز فى النفس البشرية وخارجها:**

الأولى: الإرادة الإنسانية الحرة.

الثانية: تَساوِى نازعى الخير والشر (التقوى والهوى) فى النفس.

الثالثة: وجود الضدين اللازمين للاختيار خارج النفس، أحدهما مطابق لنازع الخير والآخر مطابق لنازع الشر (النجدين).

الرابعة: وجود هاتفين خارج النفس، أحدهما يهيب بها فعل الخير مستحثًا نازع الخير فيها، والآخر يوسوس لها بفعل الشر مستحثًا نازع الشر فيها (لَمَّة المَلَك ولَمَّة الشيطان).

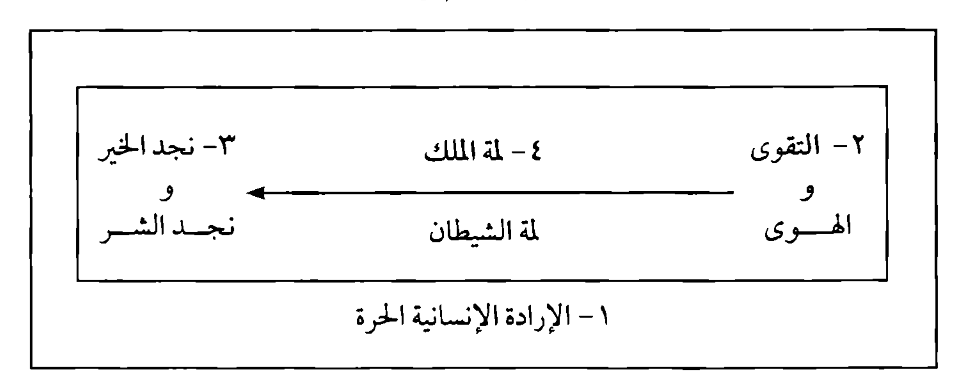
الخامسة: الركيزة الكونية الكبرى التى تُعتبر الأساس الحقيقى للاختيار الإنسانى، وتتمثل فى **العلاقة بين المشيئة الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانية الحادثة المختارة**، وهى علة هذه الركائز السابقة جميعًا.

والآن نتناول بالدراسة هذه الركائز الخمس (شكل - ١).

أولًا: الإرادة الإنسانية الحرة:

تأمل الآيات التالية، والتى نسميها **آيات الإرادة الإنسانية:**

﴿... وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران].



(شكل ـ ١)
ركائز الاختيار الإنسانى

﴿ ...مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ... ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [هود].

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى].

فآيات الإرادة الإنسانية السابقة تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أو التأويل:

١) **وجـود الإرادة الإنسـانية «الذاتيـة» كمصدر لأفعال الإنسـان**، بمعنى أنهـا مصدر أول وأساس أصيل للنيات والرغبات والقصود والاختيارات الإنسانية.

٢) **أن هذه الإرادة مختارة**، وليست مجبرة أو مُسيرة.

٣) **وجود الضدين اللازمين للاختيار والضرورين لصحته عقلاً**. حيث تثبت الدنيا فى مقابل الآخـرة، أو حـرث الدنيا فى مقابل حـرث الآخرة. ومن ثم فكل مـا يُعرَض أمام إرادة الإنسان للاختيار لا يخرج عن أن يكون شيئين أو فعلين أو سلوكين، ودائمًا ضدين.

٤) أن **الاختيـار الإنسـانى ليس اختيـارًا مطلقًـا**، بمعنى أن الإرادة الإنسـانية لا تسـتطيع أن تختـار أى شـىء، وإنما هى تختـار اختيارًا محدودًا بين الضديـن المذكورين فى لحظات التجربة الابتلائية (التخيير).

ثانيًا: التقوى والهوى:

إن ركيزة الاختيار الثانية فى النفس البشرية هى **وجود نازعين نفسين متقابلين متضادين أحدهما للخير والآخر للشر**. أما **نازع الخير** فهو الفطرة الموحِدَة لله والمؤمنة به، وأما **نازع الشر** النفسى عند الإنسان فهو الهوى، الذى يعنى كل ما يجلب للإنسان المتعة واللذة والبقاء؛ من شهوات وغرائز وعواطف وميول ورغبات، تنافى أمر الله ونهيه، بجانب كل ما يدفع عن الإنسان الألم ويحرص على الحياة من دوافع دون النظر لطاعة الله. لذلك يقول الله ﷻ: ﴿... وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ... ﴿٥٠﴾﴾ [القصص]، ويقول: ﴿... فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

وقوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾**﴾ [الشمس] يشمل النازعيْن (الخير والشر ـ التقوى والفجور) كأصلين فى الإنسان متساويين ليس لأحدهما الغلبة على الآخر.

ثالثًا: النجدين:

أما الركيزة الثالثة التى يقوم عليها الاختيار البشرى فهى خارج النفس البشرية، وهذه الركيزة جاءت فى قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد] نَجْد الخير ونَجْد الشر. وأيضًا فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

لقد هدى الله له الطريق، فكان نتيجة لاختياره الذاتى واحدًا من اثنين، إما شاكرا باختياره طريق **الإيمان والآخرة**، وإما كافرا باختياره **الدنيا** سبيل الكافرين.

رابعًا: لمة المَلك ولمة الشيطان:

والركيزة الرابعـة من ركائـز الاختيار البشرى هى وجـود النفس بين **هاتفين**، هاتف يهتف بها لحظة الاختيار ويحرضها ويزين لها اختيار **القبيح**، والآخر يهتف ويهيب بها أن تفعل **الحَسَن**. ولكل منهما ـ **الشيطان والملك** ـ فى النفس البشرية سلاحه الذى يستخدمه لذلك، فللشيطان الهوى، وللمَلك الفطرة المؤمنة.

وليس لأى هاتف منهما إلزام أو إجبار للإرادة على اختيار هذا الجانب دون ذلك. فليس أحدهما مرجحًا لفعل دون فعل، وإنما هما هاتفان أو داعيان فقط، ويثبت ذلك قوله تعالى على لسان الشيطان: ﴿... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ... ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم].

وليس الشيطان أو الملك فقط هما هاتفا الشر والخير، وإنما الإنسان كذلك، فمن الناس من هو من جنود إبليس والشر، ومنهم من هو داع للخير والحق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس].

خامسًا: المشيئة الإلهية والإرادة الإنسانية:

كيف يثبت القرآن الكريم الاختيار الإنسانى الحُر فى ظل المشيئة الإلهية المطلقة، بالرغم من أن من الممنوع عقلًا قيام إرادتين حُرَّتين فى الوجود تعملان بلا تصادم أو تعارض أو تنافى؟

إن المشيئة الإلهية المطلقة تعنى أن الله يعمل ويفعل ما يشاء بلا موانع ولا عوائق، وبلا حد أو معارضة أو مخالفة ـ مهما صغرت ـ تعوق التنفيذ أو تبطئه، أو تغير من كيفه، أو تقلل من كمه أو تُزيد. لذلك إذا ما قامت إرادة حرة حادثة، لها اختيارها الذاتى، ومجال حركتها الحر، تبادر للذهن لأول وهلة أن هذه الإرادة الحادثة تحد من المشيئة الإلهية فتمنع انطلاقها. وقد أدى ذلك ببعض مفكرى الإسلام إلى القول بالجبر المطلق ونفى الإرادة الإنسانية المختارة، بل نفى كل مقومات الحرية عند الإنسان والتى يقررها القرآن الكريم.

ومما لا شك فيه أن القرآن يثبت بوضوح وجلاء للذات الإلهية طلاقة المشيئة، ويُعتبر هذا الإثبات من أهم أسس ودعائم التوحيد الإسلامى. وفى نفس الوقت، فإن القول بنفى الحرية الإنسانية نفيًا تامًا بالنسبة لجميع أنواع السلوك البشرى قول خطأ قطعًا؛ لأنه يصطدم مع أساس آخر من أسس التوحيد، حيث ينفى عن الذات الإلهية العدل المطلق.

وفى المقابل، أدى القول بالمشيئة المطلقة والجبر على الإنسان إلى نسبة الظلم إلى الله سبحانه ـ مما دفع البعض إلى المبالغة فى الحرية الإنسانية وقدرة الإنسان على خلق أفعاله، فلم يكتفوا بنفى وقوع أفعال العباد الاختيارية بمشيئة الله، ولكنهم أنكروا القدر، ونسبوا إلى قدرة الله وعلمه ما لا يليق بهما.

وفصل الخطاب فى هذه المجادلة أن القرآن الكريم يثبت للذات الإلهية طلاقة المشيئة، كما يثبت الحرية الإنسانية مُدَعَّمة بمقوماتها، يثبتهما متوازيتين، إيجابيتين ومتناسقتين بلا تعارض ولا تضارب ولا صراع أو صدام.

أخطأوا فقالوا: الاختيار الحر... خدعة!!

يرى البعض أن فى القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت أن اختيار الإنسان ليس حرًّا، وأن الفعل البشرى الذى يُحاسَب عليه إنما يتم بمشيئة الله وإرادته المطلقة، بمعنى أن **المشيئة الإلهية هى المُرَجِّح لاختيار الإرادة الإنسانية** لهذا الفعل دون ذاك، **وبذلك ينتفى الاختيار الحر**، بل تنتفى الحرية بانتفاء أخطر ركائزها.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة نذكر منها: ﴿... قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة]. وقوله ﴿... وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء].

كذلك تثبت الآيات التالية بوضوح وجلاء لا يقبلان التأويل **أن الله يختار من يشاء من عباده للرحمة ويختار من يشاء منهم للعذاب وكذلك للهدى وللضلال**، فيقول: ﴿...مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام]. ويقول: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ ... ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام] ويقول: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس]. كما يقول ﷻ أيضًا: ﴿... فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم]. وقوله: ﴿... مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف]. ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [الحج] ويقول: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت].

لا شك أن **مرجع الهدى والضلال إلى الله تعالى فى النهاية**، والقول إن الله ﷻ يعود إليه الأمر فى انتهاء مصير البعض للعذاب والبعض للرحمة والمغفرة يُعتبر من **أخص خصائص الألوهية، ولا يمكن نفى ذلك بحال طلبًا لإثبات وتقرير العدل الإلهى. ولا شك أنه يمكن إثبات وتقرير العدل الإلهى مع إثبات طلاقة مشيئته سبحانه**، عند ذلك تكون **مشيئته هى المرجع الأول**؛ لأن الله ﷻ قد شاء أن يجعل نوعًا من الخلق أحرارًا، وجعل الحرية منحة يأخذها من

خلقه من يريدها ويقبلها ويحملها بمحض اختياره، وهو ما بَيَّنَه موقف عرض الأمانة وحقيقة الخلافة.

والمتأمل لآية عرض الأمانة يجد أنها عُرِضت على السماوات والأرض والجبال مثلما عُرِضت على الإنسان: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] أى أن **كل الموجودات قد أُعطيت حرية الاختيار فى البداية**، وعندما رفضتها السماوات الأرض والجبال نُزِعت عنها وبقيت تحت الجبر والتسيير، أما الإنسان فقد قبلها ،ومن ثم بقى مخلوقًا مختارًا.

لقد شاء الله أن يكون الناس أحرارًا، كما شاء أن يختاروا هم هذه الحرية ولا يفرضها عليهم، قسرًا أو جبرًا أو قهرًا. وهذا هو المقصود بأن الله يختار سبحانه بمشيئته المطلقة البعض لهدايته ورحمته، ويختار البعض الآخر للضلال والعذاب.

فإذا وضعنا الآيات التى تثبت تخيير الله سبحانه للإرادة البشرية بين الضدين، بجانب آيات المشيئة الإلهية المطلقة، فهمنا كيف تعمل هذه المشيئة فى حياة البشر، وكيف تختار بعض الناس للهدى والبعض الآخر للضلال.

مرج البحرين يلتقيان

تأمل قولَ الحق ﷻ: ﴿... وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [آل عمران]. وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]، تبين الآيات الكريمة أن الله يهدى من يشاء، وقد شاء ﷻ ـ بنص **آيات الإرادة الإلهية المطلقة** ـ أن يهدى من يختار الآخرة. وهو أيضًا يضل من يشاء، وقد شاء سبحانه أن الذى يُهدى للضلال ـ كما هو واضح صريح بنص **آيات الإرادة الإنسانية المخيرة** ـ هو الذى يريد الدنيا وزينتها وحرثها وثوابها.

كما قال ﷻ أيضًا: مبينًا الذين يهديهم للهدى ويمدهم به ﴿... وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن]، أى أن الله لا يمد بالهَدْى الإلهى إلا من يختار الإيمان. كما لا يمنع الله الهَدْى إلا عن الكافرين من الناس، وفى ذلك يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ

ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة] فبين هنا أن الختم على القلوب لا يجعله الله إلا للذين اختاروا الكفر على الإيمان.

كما قال أيضًا: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]، فأثبت فى هذه الآية أن الصرف عن آيات الله أو الختم على القلب أو الإمداد بالضلال أنها يتنزل على العبد بناء على اختياره فى مواقف الابتلاء حيث تَكَبَّر فى الأرض بغير الحق، وحيث اختار سبيل الغى وترك سبيل الرشد.

وقد يفهم البعض من الآيات السابقة شبهة الجبر، لظنهم أن الضلال والكفر إنما نتجا عن الطبع والختم والصرف الإلهى عن الحق. ولكن الآيات تثبت صراحة أن **الطبع والختم والصرف لا تصيب إلا الذين بدأوا باختيار الكفر والضلال والتكبر فى الأرض** بغير الحق، وذلك يعنى أن أفعال الله فيهم (الطبع والختم والصرف عن الحق) ليست سوى الإمداد الإلهى بما يختار الإنسان لنفسه.

ومن ثم تكون هذه الآيات دليلًا قويًا على الاختيار، بل إنها **الضمان الإلهى الذى لا يخيب**. وذلك أن سنة الله فى إمداد العبد بما يريد من خير أو شر حسب اختياره هو الأساس الأول للحرية الإنسانية الذى ينجيه من **طائلة أية ضرورة أو جبرية**، سواء كانت طبيعية أو بيولوجية أو نفسية أو حتى جبرية إلهية.

ومن ثم فليس بين المجموعتين: **مجموعة آيات المشيئة الإلهية ومجموعة آيات الإرادة الإنسانية** أدنى تعارض أو تنافى. لذلك جمع الله فى **آيات متتالية** عمل إرادة الإنسان المتماشية والمتناسقة والداخلة فى **المجال اللامحدود لإراداته سبحانه**، وذلك حيث يقول ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المدثر]. ويقول أيضًا: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإنسان]، كما يقول: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير]. فهذه المجموعة من الآيات

تثبت للإنسان إرادته ومشيئته الحرة المختارة، وفى نفس الوقت تؤكد أنها ـ ككل شىء فى الوجود ـ **عطاء من مشيئته سبحانه فى أن تكون المشيئة الإنسانية حرة.**

ومن ثم، يجب علينا أن نرجع إلى هذه الآيات جميعا، وليس إلى بعضها، لنعرف الحقيقة كاملة. فالله ﷻ قد سن الناموس الذى يسير عليه الجانب الحر المختار فى المخلوقين المبتلين: الإنس والجن، وبَيَّنَ أنه سبحانه **جعل إمداده لهم بالضلال أو بالهدى بناء على اختيار العبد نفسه.** وهذه السُّنة صادرة بالمشيئة الإلهية المطلقة، **وبذلك يكون الإضلال والهدى مع كونه نابعًا من اختيار العبد بإرادته الذاتية، فهو أيضًا بمشيئة الله وقدره.** فالإرادة الإنسانية حرة تمامًا، ولكنها أيًا ما اختارت فى الموقف الابتلائى فهو بمشيئة الله وقدره، ليس هناك اختيار للإنسان خارج عن قدر الله ومشيئته.

وإذا جاز لنا أن نضرب مثلًا جَليًا يوضح العلاقة بين المشيئة الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانية الحادثة، ولله المثل الأعلى، نقول: **إذا أعطى سيدٌ عبدًا له قدرًا من المال،** وسمح له أن ينفقه فى أحد وجهين، ألا يكون تصرف العبد – مهما كان – داخل فى نطاق إرادة سيده؟

القرآن والجبريون

يظن البعض أن هناك تناقضًا فى القول بوجود إرادتين حرتين، وهذا ليس صحيحًا. فكما أثبتنا، **ليس ثمة تعارض بين إرادتين حرتين إذا كانت إحداهما مطلقة والأخرى محدودة تنحصر حريتها فى الاختيار الذى سمحت به الإرادة المطلقة،** ومن ثم لا يمتنع عقلًا القول بانطواء الإرادة المحدودة تحت المشيئة المطلقة.

إن القول بوجود إرادتين حرتين مطلقتين فى الكون هو الذى يرفضه العقل ولا يقبله المنطق، فليس ثمة مشيئة مطلقة إلا لله وحده فى هذا الكون.

أما القول بوجود **إرادة مطلقة واحدة** هى إرادة الله وحده مع وجود **إرادات أخرى محدودة** ومختارة فى لحظات محدودة ومواقف معينة سلفًا ومحسوبة مسبقًا فهو فى الحقيقة قول لا ينطوى على أى تعارض، ما دام وجود الإرادات المختارة ولحظات اختيارها المحدودة المحسوبة واقعًا كله بمقتضى المشيئة الإلهية المطلقة.

ولما كانت المشيئة الإلهية مطلقة، فإن ذلك يمنع وجود أى مجال خارج مجالها؛ لأن مجالها مطلق، والمطلق لامتناهى، واللامتناهى ليس له حدود، ومن ثم ليس له ما هو خارجه، ومن ثم لا يوجد ما يقع خارجه لأن ليس ثمة خارج عنه.

إنه الهوى

إذا كان كل شىء وكل فعل واقع بأمر الله ﷻ، حتى أفعال العباد الاختيارية، فليس ثمة لبس أو غموض بعد ذلك، إلا أن يكون بفعل **مجادل مُراء** لا يبغى الحق فى هذه المسألة بقدر **بغيته التلبيس والخداع والمخاتلة**. وذلك هو موقف الكافرين والفاسقين الذين يحاولون التعلل بالقدر والمشيئة الإلهية تملصًا وتخلصًا ـ لا يجديهم ـ من ذنوبهم ومعاصيهم وكفرهم وشركهم، فيزعمون إنهم فعلوا هذه الأفعال مسيرين غير مخيرين، فيقررون الجبرية المحضة.

إن هؤلاء يستندون إلى **قولة حق يريدون بها باطلا**، وهى الرجوع بكل شىء، وكل حادث وكل فعل إلى المشيئة الإلهية كعلة أولى ووحيدة ومباشرة لشركهم وكفرهم. وهذا، كما علمنا، وإن كان حقًّا، لا يتعارض ولا يتنافى مع إثبات الإرادة الإنسانية وفاعليتها باعتبارها إرادة مختارة. فإذا كان ـ الله سبحانه هو الذى أضلهم فقد كان ذلك بناء على اختيارهم للضلال وإيثارًا منهم للدنيا على الآخرة. قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام]. فاعتبار علة شركهم بالله هى المشيئة الإلهية فقط، مع تجاهل إرادتهم واختيارهم لهذا الشرك، اتباعًا للظن ومجافاة للحقيقة التامة الكاملة. كما يقول أيضًا عنهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف]. ويقول أيضًا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل].

والملاحَظ فى رد الله ﷻ على قول المشركين الذين يحتجون بالجبر، أنه **يصفهم بالجهل والكذب**. ذلك أن نفى الإرادة الإنسانية المختارة بين الدنيا والآخرة أو بين الإيمان بالله والكفر به يتعارض مع آيات القرآن الكريم المحكمات.

لا إكراه على الإيمان

تأمل قول رب العزة ردًّا على المنكرين للحرية والاختيار ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأنعام]. ومعنى أن لله الحجة البالغة، **أن الناس لن يستطيعوا يوم**

القيامة **الاحتجاج بالجبر**، حيث إن الله قد عرض عليهم الأمانة عرضًا اختياريًا، وقبلوها قبولًا اختياريًّا، ثم أنزلهم إلى الأرض للابتلاء، مزوَّدين بجميع مقومات الحرية، ولذلك قال: «فلو شاء لهداكم أجمعين»، ومعناها: أنه **لو شاء لخلق البشر، كما خلق الملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**، حيث إنهم لم يُعطوا الحرية ولم يوهَبوا الاختيار، لرفضهم الأمانة.

ويقول الله أيضًا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس]. أى **أن الله شاء أن يكون الإنسان حرًّا مختارًا مريدًا**، وهو ما كانت نتيجته بالضرورة أن يكون من الناس مؤمن وكافر، ولو شاء الله لجعل الناس كالملائكة غير مختارين، ولو شاء لجعلهم جميعًا مؤمنين جبرًا وإكراهًا، ولذلك قال (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)، فإذا كان ربهم وخالقهم لم يكرههم على أحد الطريقين، حتى ولو كان على الهدى، **فمن يُكرههم على ذلك؟!**

ومن ثم فالاختلاف بين الناس فى المذاهب والعقائد والأديان ومناهج الحياة، إنما هو **نتيجة لماهيتهم وجبلتهم التي اختصهم بها الله من دون جميع مخلوقاته**. وفى هذا يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود]. فلو شاء الله لخلق الناس بطبيعة وأفعال ذات اتجاه واحد فلا يكون الاختلاف. ولكنه سبحانه **شاء أن يخلقهم بماهية وفطرة من لوازمها الاختلاف**. وهذا هو مفهوم الحرية، فحرية الأفراد تؤدى إلى الاختلاف، ولا تكون فيهم الفِرَق والأحزاب ولا تتعدد الآراء والمذاهب والعقائد إلا فى ظل الحرية ونتيجة حتمية لها. كما تبين هذه الآية الكريمة كذلك أن الله خلق الناس لكى يكونوا أحرارًا مختارين حيث يقول: (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)، ويدعم ذلك ما علمناه من آيات البلاء أن الله خلق الناس ليبتليهم.

القارئ الكريم

جوهر الاختيار البشرى فى القرآن الكريم

يلخص موقف العبد المُخَير قول الحق ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت]، وقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ

أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء]، وقوله لإبليس بعد معصيته: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]. فليس بعد قوله: **«اعملوا ما شئتم»** و **«وما منع الناس أن يؤمنوا»** دليل على الاختيار والمشيئة الإنسانية التى أيًا ما اختارت وأيًا ما عملت فهى بإذنه وبموافقة مشيئته المطلقة.

ولا شك أن مجموع اختيارات إنسان ما، يبين فى حياته اتجاهه وعقيدته ودينه ومنهجه، ويضعه فى موضعه الذى يستحقه فى الآخرة، ؛ فهو واحد من ثلاثة: إما أن يكون اختياره دائمًا ـ أو على الأكثر ـ **موافقًا لشرع الله وأمره**، فهو يريد الآخرة ويسعى لها. وإما أن يكون اختياره دائمًا ـ أو على الأغلب ـ **منافيًا لشرع الله وأمره**، فهو يريد الدنيا. والثالث هو الذى تكون اختياراته **وسطًا بين المعصية والطاعة**، أى أنه قد خلط عملًا سيئًا بآخر حسن، وهذا الأخير أجره إلى ربه، يزن أعماله يوم القيامة ويحدد مصيره بالعدل والرحمة.

وكما حدد القرآن مجال الاختيار وحدوده، فإنه أيضًا بَيَّنَ حقيقته ووضحها جَلِيَّة. حيث يجعل هذا الاختيار عملية **تجارة واستبدال وتفضيل واستحباب شىء على آخر**، وذلك حيث يقول عن **المنافقين واختيارهم للدنيا**: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة]. كما يقول عن بنى إسرائيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة].

أما عن شرط **الرضا والقبول** عن طواعيه لصحة الاختيار فيقول فيه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس]. ويثبت ذلك القبول بقوله أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم] **والاستحباب** يعنى ما هو أكثر من الرضا.

كما يبين لنا حقيقة الاختيار البشرى باعتباره **إيثارًا لشىء على شىء**، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات]. وذلك حبًّا منهم فى الدنيا واستعجالًا لشهواتهم وملذاتهم والحياة وفق هواهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان].

ومن ثم فإن **مفهوم الاختيار فى القرآن** هو شراء شىء بشىء ضده، أو استبدال شىء بشىء، أو استحباب شىء عن شىء، أو إيثار شىء على شىء، وكلها بمعنى واحد تقريبًا وهو **الاستغناء عن حياة فى سبيل الأخرى**، فالمؤمن يضحى بالدنيا فى سبيل الحصول على الآخرة، والكافر يضحى بالآخرة ويتناساها أو يغفلها استغناء عنها لتحصيل الدنيا، وهذا هو عين الاختيار فى القرآن.

ولا يعنى الاختيار بهذا المعنى ترك المؤمن للدنيا وإهمالها والسلبية حيالها، والحرص على الآخرة والإيجابية نحوها فقط. وإلا كان هذا المفهوم الخاطئ وازعًا ودافعًا ومُشَرِّعًا للخروج من الدنيا بالانتحار، أو التخلص من الجسد المادى تخلصًا مؤقتًا بالفناء وبالشطحات الروحية سبيل الصوفية فى ذلك. ولكن ذلك كله متعارض مع حقائق القرآن الكونية والإنسانية، وقد جاء ذلك المعنى صريحًا فى قول الحق ﷻ: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص].

صدق الله العظيم

* * *

حصاد الرحلة

يتبنى الكتاب فكرة مهمة فى المنظومة الإلحادية، وهى أن العوائق الرئيسة أمام الإيمان بالإله ليست عوائق موضوعية **(علمية أو منطقية)** فى معظم الأحيان، لكنها عوائق **ذاتية (نفسية - شخصية - اجتماعية)**! فى المقام الأول، ومهما قدم المعارضون للإيمان من أسباب علمية ومنطقية لإلحادهم، فتلك الأسباب ليست إلا **قناعًا Persona** تختفى وراءه دوافعهم الذاتية الواعية وغير الواعية.

كذلك بالرغم من العوامل الذاتية (النفسية - الشخصية - الاجتماعية) لقبول أو رفض الإيمان والتى توحى بالحتمية، فإن الإنسان يتمتع **«بالإرادة الحرة»** و**«القدرة على الاختيار»** فى أن يصير مؤمنًا أو ملحدًا، لذلك نجد أن بعض الأشخاص تبنوا توجهًا دينيًا يخالف ظروف نشأتهم. وبالتالى فإن الإنسان يملك القدرة على أن يخطو خطوته نحو الإله فى أى وقت.

وفى هذا الحصاد، نلخص الأفكار التى طرحها الكتاب فى النقاط التالية:

أولًا: جولة مع الإلحاد

- إن **«الإلحاد المعاصر صناعة أوروبية»**. وإذا كانت أوروبا قد شهدت أعتى موجة إلحادية فى أعقاب **الثورة العلمية**، فلا يعنى ذلك أن العلم أبٌ روحى للإلحاد، إذ لا يتعارض أيٌّ من

الاكتشافات العلمية العديدة مع الوجود الإلهى، لكن ترجع نشأة الإلحاد المعاصر إلى «**عوامل نفسية**» صاحبت تلك الثورة.

ـ إن **الأب الحقيقى للإلحاد هو الفكر المادى**، الذى أعاد إحياء **الفلسفة الوضعية المنطقية** بعد موتها! تلك الفلسفة التى تطلب لكل افتراض أو مسألة برهانًا تجريبيًّا أو رياضيًّا أو منطقيًّا مباشرًا، فكان طبيعيًّا أن ترفض تلك الفلسفة جميع العلوم الإنسانية والدينية التى لا تقوم على هذه البراهين!، وقد أفرزت هذه النظرة ـ بداهة ـ الفكر الإلحادى.

ـ انطلق **الإلحاد الجديد** فى الغرب فى معارضته للدين من **رفض الكثير من المفاهيم المسيحية** التى تتعارض مع المنطق والعلم الحديث، ثم عمم نظرته على الديانات بصفة عامة. وقد اتخذت المعارضة للدين فى البداية شكل «**الإنكار**»، فأطلق الملاحدة على أنفسهم اصطلاح «اللادينيين Atheists»، ثم تطورت المعارضة إلى «**العداء**»، فاتخذوا موقفًا «ضد الدين Antitheists». وأخيرًا فاجأنا الملاحدة فى الغرب والشرق بتخفيف العداء للديانات بصفة عامة وللمسيحية بصفة خاصة، مع تحويل **عدائهم وكراهيتهم كلها ضد الإسلام**!.

ـ من المُخزى أن يدعى الملاحدة الجدد أنهم يتبنون «**إلحادًا علميًّا**»، فى الوقت الذى ثبت فيه أن «**على رأس أعظم اكتشافات العلم الحديث يأتى اكتشاف أن هناك إلهًا**»! كما جاء فى تعليق مجلة تايم الأمريكية على تحول سير **أنتونى فلو** زعيم ملاحدة القرن العشرين إلى الإيمان بالإله بدافع من البراهين العلمية.

ثانيًا: الماديون والإيمان

ـ أثبتت علوم الأنثروبولوجيا حديثًا أن **النظرة الدينية للبشرية بدأت بالتوحيد**، الذى تَكَشَّفَ لها **إما بالتأمل العقلى أو بوحى إلهى**، ثم انتكس الإنسانُ عن التوحيد وسقط فى الشرك والتعدد والوثنية. وتتفق «**نظريات التوحيد أولًا**» مع مفاهيم الكتب المقدسة عن عقيدة البشرية الأولى، وتستند فى ذلك إلى **المنهج العلمى والتحليل الفلسفى**.

ـ إذا تأملنا تفسير الماديين والملاحدة لظهور الأديان، نجد أنهم قد انطلقوا فى تفسيراتهم من

سؤال: **بما أن ليس هناك إله، فلماذا هناك أديان؟** لقد انطلقوا من موقف دوجماطيقى لا دليل عليه، فقد افترضوا كمُسَلَّمة أن ليس هناك إله، دون أن يُفَنِّدوا أدلة المتدينين على الوجود الإلهى.

ـ تُعتبر «**نظرية الإسقاط**» أشهر الأطروحات المادية التى تتبنى أن الإيمان مشكلة نفسية، وقد أثبت المتخصصون خطأ هذه الفرضية لفرويد، وذلك لعدة أسباب أهمها أنه **لا دليل عليها**، كما لم يقدم عليها فرويد أدلة من **التحليل النفسى!**. كما ثبت خطأ المفاهيم التى فسر بها فرويد نشأة الديانات من خلال عقدة أوديب.

ـ كذلك ثبت **تداعى كل التفسيرات المادية الأخرى** للإيمان بالألوهية والأديان. فقد **أثبت الأنثروبولوجيون أن التوحيد (ومن ثَمَّ الوحى) هو نمط التدين الذى تبنته البشرية منذ أول عهدها.**

كذلك فإن إثبات أن الإنسان «يمكن» أن يفبرك دينًا لا يعنى أنه قد فبرك «بالفعل». إن أقصى ما يستطيع علماء النفس وأطباؤها والفلاسفة والأنثروبولوجيون أن يثبتوه هو أن الإنسان «يمكن» أن يفبرك، أما إثبات أنه قد «قام بذلك» بالفعل فخارج نطاق عملهم، ويكون التعامل مع القضية من خلال دحض الأدلة التى يقدمها المتدينون على الوجود الإلهى.

وأيضًا فإن إثبات أن الإنسان يحتاج لإله وأن مصلحته وجود الإله لا يثبت ولا ينفى وجود هذا الإله. **فوجود «الدافع» للقتل لا يثبت قيام الشخص بالجريمة.**

إن الديانات لا تحقق من رغبات الإنسان (كما يدعى الملاحدة) إلا **«وعدًا» بالخلود**، فى مقابل **التضحية بالرغبات والمتع الحالية «المضمونة»**. كما إن هذا الخلود ليس مضمونًا أن يكون فى النعيم، **فربما يكون فى الجحيم**، وفى الطريق إلى هذا الخلود يمر الإنسان بعذاب القبر. **ومن ثم نتساءل، كيف يخلق الإنسانُ إلهًا ويفبرك دينًا يقف حجر عثرة أمام تحقيق رغباته وطموحاته ومتعه الراهنة المضمونة؟!!**

وإذا كان التطور الداروينى قد جعلنا قتلة وسفاحين وزناه ومدنَّسين وكذوبين و... و... فما مصدر معرفتنا **بأخلاق الحق والصفاء والطهارة والنقاء والعدل والرحمة** حتى نسبغها على الإله الذى خلقناه؟ **وما مصدر شوقنا لهذه الفضائل والكمالات؟**

ليس لهذين السؤالين من إجابة؛ إلا **الإقرار بحقيقة الوجود الإلهى.**

لقد تجاوز الماديون كل معقول ومنطقى حين وضعوا التفسيرات المادية لنشأة الديانات، **إن تجاوزاتهم فيها من التضاد الداخلى ما يكفى لإسقاط كل هذه التفسيرات.**

ثالثًا: العلم والإيمان

- **تقوم منظومة الإيمان فى المنظور الإسلامى على متتالية الألوهية والدين والأخلاق**، وتبدأ بالإيمان بالله ﷻ الذى أنزل الدين، وجعل من أساسياته استكمال المنظومة الأخلاقية للإنسان. ولتأصيل هذه المتتالية فى النفس الإنسانية استخدم الإسلام منهجًا من **ثلاث آليات تعمل بشكل متسلسل: الفطرة - الرسالة - العقل.**

- **أثبت العلم الحديث أن الإيمان بالإله وبالدين منظومة فطرية تشارك فيها آليات بيولوجية.** فقد ثبت أن الإنسان يرث **مجموعة من الجينات** التى تجعله مستعدًّا لتقبل مفاهيم **الألوهية والدين God Gene Hypothesis**. كما تبنى علماء الطب النفسى وجود **مجموعات من الأخلاق الوراثية التى** تمهد جيناتنا للتخلق بها، ومن ثم تحدد تلك الجينات ميول البشر الإنسانية والأخلاقية والروحية. وثبت أيضًا وجود نوع من الذكاء يهتم بالقضايا فوق الحسية وبالقضايا الأساسية للوجود الإنسانى، أُطلق عليه اسم **الذكاء الروحى** (الوجودى). كما أثبت تصوير المخ بالتقنيات الحديثة أن **المشاعر الروحية ليست مجرد أوهام أو تخيلات، بل إن لها مراكزها العصبية** فى المخ.

بذلك أصبح الاستنتاج الذى لا مفر منه، هو أن المخ البشرى وكذلك جيناتنا قد تم إعدادهما للتعامل مع المنظومة الإلهية والدينية.

- إذا كان الدراونة قد عجزوا عن تفسير **نشأة التعاطف** بين البشر، فلا شك أن تفسير نشأة خُلق «**الإيثار Altruism**» يكون أصعب، **فهو يعمل ضد هدف التطور الرئيس، وهو المحافظة على الفرد**. هذا، وقد أثبت «**معدل مارشال لإطلاق النار فى الحروب**» أن **الأصل فى الإنسان هو الالتزام الأخلاقى وليس الصراع الداروينى من أجل البقاء، حتى وهو فى أشد لحظات المواجهة والتحدى.**

- أثبتت الأبحاث أن **تقسيم ما ترصده عقولنا إلى «وجود مادى حقيقى» و«وجود غيبى غير مادى غير حقيقى» تقسيم غير علمى**، فالوجود الغيبى الذى يدركه بعضُنا ترصده أدمغتنا بآليات الإدراك الطبيعية فى المخ، شأنه فى ذلك شأن الوجود المادى تمامًا.

- **إن بنية المخ البشرى مجهزة تمامًا للتعامل مع بنية الدين**، ويظهر ذلك فى عدة مستويات؛ تبدأ بالقدرة على **الفهم العقلى للوحى السماوى**، ثم وجود **الشوق الفطرى إلى مفاهيم الألوهية والدين، والرغبة الفطرية فى تجسيد المفاهيم العقلية، وتحويل المفاهيم النظرية العقلية للعقيدة إلى تجارب شعورية ذاتية، ثم القدرة على إغلاق دوائر الشعور بالذات وبالوجود المادى مع استحضار مشاعر التسامى والتواصل مع العوالم الغيبية.**

رابعًا: الإلحاد مشكلة نفسية

- عندما طرح فرويد «**نظرية الإسقاط لتفسير الإيمان بالإله**»، فقد مهد لطرح «**نظرية الإسقاط لتفسير الإلحاد**». ومن ثم لا مبرر لغضب الملاحدة عندما نتبنى القول بالأصول النفسية والعصبية للإلحاد، ففرويد هو أول من فعلها، لكن فى الاتجاه المعاكس. كذلك يقدم فرويد من خلال **عقدة أوديب**، أرضية مثالية لرفض الإله كأحد مظاهر **تحقيق الرغبات** Wish Fulfillment.

- اهتم علماء النفس حديثًا **بالأسباب النفسية والشخصية والاجتماعية** وراء تبنى الإلحاد، وخرجت هذه الدراسات بقناعة علمية بأن هذه العوامل تقف فى مقدمة أسباب هذه الظاهرة، ومن ثم فإن ما يطرحه الملاحدة كأسباب معرفية موضوعية (علمية ومنطقية) لإلحادهم ما هى (فى معظم الأحيان) **إلا قناع Persona** تختفى وراءه العوامل النفسية والشخصية والاجتماعية.

- ومن أهم العوامل النفسية وراء تبنى الإلحاد «منظور التقصير الأبوى، الذى يتبنى أن الإنسان **يعتبر الإله النموذج المطلق للقوة والسلطة**، كما يرى فى **أبيه** التجسيد البشرى لهذا النموذج. ومن ثم فمن يفقدون الأب (وفاة ـ هجر للأسرة) وهؤلاء الذين لديهم آباء ضعفاء (جبناء) أو أساءوا معاملتهم (بدنيًا ـ نفسيًا ـ جنسيًا) يعانون صعوبات فى تبنى الإيمان بالإله.

- طرح علماء النفس «**نظرية الارتباط**»، التى تتبنى أن **طبيعة الرابطة بين الطفل وأمه (الرمز الأمومى Mother Figure)** تمثل النموذج الذى ستكون عليه العلاقة بين هذا الشخص فى المستقبل

وبين الآخرين، ويمتد هذا النموذج حتى يؤثر فى العلاقة بالإله. وبديهى أن الكثير من الحالات الملحدة **يجتمع فيها التقصير الأبوى مع اختلال رمز الأم.**

ـ يسبب **الإجهاض** لكثير من النساء على المستوى النفسى ما يُعرف **بصدمة ما بعد الإجهاض** Post – Abortive Trauma. ولا يقف تأثير هذه الصدمة عند المرأة بل قد يمتد إلى زوجها وأبنائها ووالديها، حتى يمكن القول إن الإجهاض **قد يدمر العائلة نفسيًّا**، وقد يمتد هذا التأثير **ليدمر العلاقة بالإله.**

ـ إذا كان الطب النفسانى ـ حتى الآن ـ لا يصنف الأفكار والسلوك الإلحادى كأحد أنواع اضطرابات الشخصية، فإن العديد من أطباء النفس يميلون لتصنيف **التوجه الإلحادى الأصولى الشرس** كأحد أنواع **اضطرابات الشخصية**، ويلحقونه بمجموعة من اضطرابات الشخصية تُعرف بـ«**تغيرات دائمة فى الشخصية، لا ترجع إلى أذى جسيم أو مرض بالمخ**». كذلك نظر بعض أطباء النفس إلى الإلحاد الشرس باعتباره **متلازمة مرضية** Syndrome متكاملة الأركان.

ـ لا يعنى وجود خلفية نفسية وراء تبنى الإلحاد أنه ينبغى علاج الملاحدة علاجًا طبيًّا. وربما كان **الاستثناءان الوحيدان** لعلاج أصحاب المفاهيم الدينية نفسانيًّا هما: أن يتبنى الشخص **مفاهيم مُغرقة فى الغرابة**، كهؤلاء الذين يأخذهم أهلوهم إلى أطباء النفس لأنهم يصرون على أنهم آلهه أو أنبياء. والاستثناء الثانى، **أن تؤثر مفاهيم الشخص على حياته العملية والاجتماعية**، كهؤلاء الذين ينعزلون عن الحياة. فهذه السلوكيات تدل على أنواع مختلفة من اضطرابات الشخصية التى تتطلب العلاج، وينبغى أن يتوافر فى الشخصيتين شرط مهم؛ **وهو رغبتهم فى العلاج.**

خامسًا: نظرية التقصير الأبوى

ـ لا شك أن ما قدمه بول ڤيتز من أمثلة للاستدلال على نظريته فى التقصير الأبوى كافٍ تمامًا لإثبات ما ذهب إليه مِن طرحٍ خالٍ من تُرَّهات الرغبة الجنسية اللاشعورية فى الأم، وخال من الطبيعة الصراعية التنافسية فى العلاقة بين الابن والأب. إنه طرح سهل بسيط مفهوم، يتلخص فى **أن الطفل، أو الصبى والفتاة، إذا صُدم فى أبيه وأصيب بخيبة أمل، فإنه يفقد**

احترامه لهذا الأب، وبالتالى يستحيل الإيمان بالمقابل الذى فى السماء. وللاستدلال على صحة نظريته، ساق بول ڤيتز الأدلة من خلال التحليل النفسى لشخصيات من مشاهير الملاحدة الذين تركوا بصماتهم فى بنية الحضارة المادية المعاصرة فصبغوها بطابعها الإلحادى.

ـ يؤكد بول ڤيتز أن دور التقصير الأبوى فى تبنى الإلحاد ليس حتميًّا يُلزم أن يتبنى الابن الإلحاد. فهناك دائمًا مجال لحرية الإرادة والاختيار بين الإيمان والإلحاد، إن ذلك يعنى أن التقصير الأبوى «ييسر» طريق الإلحاد. معنى ذلك أن العوامل المساعدة لا تلغى المسئولية الفردية، سواء فى الإلحاد أو فى الإيمان، أى أن «وجود التفسير ليس عذرًا».

ـ أثبت علم النفس اختلاف نظرة كل من الرجال والنساء للألوهية، ومن ثم اختلاف توجهاتهم إذا تبنوا الإلحاد. لذلك، نجد الرجال يبحثون فى تبنيهم للإلحاد عن (مبدأ ـ رمز) بديل عن الإله يقوم به العالم. أما الفراغ الذى يسببه الإلحاد فى نفس النساء بسبب فقد «العلاقة النفسية» مع الإله فلا بد من ملئه بعلاقة نفسية أخرى، وهذا ما تعبر عنه بشكل مثالى حالة سيمون دى بوڤوار مع سارتر.

سادسًا: الإلحاد والدوافع الشخصية

ـ تعتبر دوافع الإلحاد الشخصية بمثابة منشطات النمو (كالماء والسماد) لما يُلقى فى التربة من بذور. وتتلخص هذه المنشطات فى إمتاع الذات حسيًّا ونفسيًّا، سواء بتحقيق احتياجات الملحد الاجتماعية والمهنية لأن يتأقلم مع المجتمع ومع وسطه المهنى، أو بإشباع احتياجه لأن يحيا تبعًا لنمط معيشى يُمتعه.

ـ من المحزن أن العديد من الرموز الفكرية للبشرية كانوا إباحيين أنانيين مغرورين، وكان اهتمامهم المزعوم بالإنسانية كذبًا ونفاقًا يختفى وراءه قدر كبير من القسوة واللامبالاة بأقرب الناس إليهم، خاصة أفراد عائلاتهم. لذلك ليس من الغريب وجود تعارض صارخ بين **النظريات الأكاديمية التى وضعها هؤلاء وبين انحرافاتهم وسوء ممارساتهم الجنسية.**

ـ لقد صار الجنس غير التقليدى (ما نتعارف عليه بالشذوذ الجنسى) والحداثة Modernism

متضافرين متداخلين دون إمكانية للانفصال للأبد. بل ويسعى كثير من هؤلاء **لتحطيم كل صاحب فضيلة أو جمال أو حُسن أو صدق، حتى لا يعانون الشعور بدونيتهم.**

ـ تُـرَوِّج الكتابات الإلحادية دائمًا أن **الملحدين هم الصفوة الفكرية فى المجتمعات،** وأنهم يحصلون على معدلات عالية فى اختبارات الذكاء. **لذلك أصبحت** كُتب علم النفس والسِير الشخصية ملأى بمواقف الكثيرين من كبار وصغار الملاحدة **الذين يعلنون إلحادهم على الملأ ليحققوا الشهرة وليشعروا بذاتيتهم وتميزهم.**

ـ إذا كان للإلحاد **أسبابه النفسية (التنشئة Nurture) والشخصية،** بالإضافة إلى أسبابه **العضوية Nature** (المنظومة البيولوجية للإيمان ـ التوحد)، فليس معنى ذلك أن الإنسان مُسير فى تبنيه الإيمان أو الإلحاد، بل **إن كل شخص يستطيع بإرادته الحرة واختياره أن يتوجه إلى الإله، أو أن يبتعد عنه، أو أن يقف ضده.**

سابعًا: علم نفس مجتمع الإلحاد

ـ ترينا قراءة التاريخ أن أطفال فترة الاستنارة فى أوروبا (القرن ١٨) لم يكونوا يتعرضون لتأنيب كبير من والديهم المشغولين بالالتزامات الاجتماعية، فنشأوا **دون ضغوط نفسية** كنسية ولا أسرية كبيرة، مما سمح لهم بعدما شبوا بالنظر فى الدين والألوهية من **منطلقات منطقية،** لذلك تبنى الكثيرون منهم الربوبية ورفضوا المسيحية.

ـ أعقب عصرَ الاستنارة **العصرُ الفيكتورى،** ويتركز ميراث **هذا العصر على المستوى النفسانى** فى ظهور نموذج «**الابن الضحية The Son Victim**»، إذ كان عصرًا صارمًا عابثًا قاسيًّا بتوحش، يفتقد الحب، **فأخرج جيلًا مهووسًا يكره الإله.** وكان طبيعيًّا أن يُفرز هذا الجيل رجالًا يعانون نمطًا من الإلحاد يتلخص منهجه فى «**التلاعب بالحقائق العلمية لمهاجمة الإله كرمز للأب**»، عندها صدقت مقولة «**إذا مات الإله، فكل شىء مباح**». فالإله يُحَجِّم الوحشَ داخل نفوسنا، لذلك فإننا بدون الإله نصبح برابرة... **لقد جعل هذا الميراث الإلحادَ الحاضر كئيبًا، وسيصبح المستقبل أكثر كآبة،** فمجتمع ما بعد الإلحاد يتسم بعدد من السمات النفسية التى توصَف **مجتمِعَة بالعقـلانية المادية أو الاستنارة المظلمة.**

ـ يتخفى وراء **العقلانية الغربية نموذج مادى** يساوى بين الإنسان والطبيعة المادية، ويعتبر أن مهمة العقل الإنسانى الوحيدة أن يرصد الطبيعة ويعرف مسارها وقوانينها ليطبقها على الإنسان. وتتباهى هذه العقلانية بمقدرة العقل (المادى) على **التجريب، ولكنه تجريب منفصل عن القيم الإنسانية والأخلاقية، ثم يتلقف نتائج تجريبه دون تساؤل عن المعنى والغاية**. لذلك صدق وصف جارودى لإنجاز الحضارة الإمبريالية الغربية بأنها «**حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**».

ـ لم يدرك كثير من الماديين أن **الجنس مسألة إنسانية مركبة، خاصة وأنها مرتبطة برؤية الإنسان للكون ولهويته الفردية**. وقد أدى عدم إدراكهم لهذه الحقيقة البسيطة العميقة، إلى عدم الارتواء الجنسى، فهم يمارسون الجنس فى إطار مادى نتيجة لتبسيط الإنسان واختزال دوافعه، ويترك ذلك كيانهم الإنسانى بلا إشباع.

ـ إن مجتمع الإباحية الجنسيـة والشذوذ الجنسى والإجهاض غير المبَرَّر والإلحاد يُفرز دون شـك **أُسرًا مفككة وشخصيات مشوهة وحشية**، أدت إلى أن أصبح سوء معاملة الأطفال وباءً فى الغرب، حتى صارت الشوارع ملأى بأشخاص يعانون مشكلات نفسية عديدة بسبب الاعتداء عليهم فى الصغر.

لقد أصبح الغربُ أسيرًا **لدائرة مغلقة**، فيها يؤدى الإلحاد إلى سوء معاملة الأطفال، فيُخرِج أشخاصًا مشوهين يتبنون الإلحاد ويتبنون العنف والإجرام، وهكذا.

ـ نقول دون أدنى تجاوز، إن **الإعلام (خاصة الغربى) قد صار «مُشَكِّلًا» و «مُعَبِّرًا» عن نمط حياة وفكر الإلحاد**. وبذلك صار الإعلام «منبرًا» يبشر من خلاله الملاحدة، وصار «**الكتاب المقدس**» الذى يُشَرِّع لهم (وللمجتمع) ما يفعلون وما يتركون.

ـ لقد **أخرجت** المفاهيم التى يطرحها الإعلام (مفاهيم علمانية ـ إلحادية ـ حب الذات ـ الصراع من أجل البقاء..) **أجيالًا أكثر تقبلًا للعنف واللا مبالاة والتمييز العرقى وكل السلوكيات الشاذة**. كما لم يعد **أبطال الإنسانية** هم المفكرين والعلماء والفلاسفة، ولكنهم رجال يحيون حياة جنسية إباحية، عدوانيون، وقحون، متمحورون حول ذواتهم، مثل جيمس بوند، الذى هو مثال **لسوبرمان** الذى **عبده نيتشه**.

ـ إذا كان كل من العلم والسوبرمان والتقدم والشهرة والقوة يتنافسون ليكونوا القِبلة التى يتوجه إليها الملاحدة بإجلالهم وتقديرهم، فإن لهذه الآلهة إلهًا أكبر (زيوس العظيم) وهو **الفكر المادى**. وقد أدرك الإعلام ذلك فصار كل ما يقدمه هو صلوات فى محراب هذا الفكر.

ثامنًا: النموذج المعرفى للإلحاد

ـ يمكننا اختصار النموذج المعرفى الإلحادى فى كلمتين: «**الفلسفة المادية Naturalism**».

ـ **الكون بالنسبة للملاحدة «كونٌ مغلق»** مكتفٍ بذاته، ليس فيه إلا الطبيعة المادية بعناصرها وقواها وقوانينها. والإنسان ليس إلا جزءًا من هذه الطبيعة، مادة وحسب. ومن ثم يتمحور النموذج المادى حول **الفلسفة المادية** Naturalism التى تتبنى أن لا وجود إلا للعالم المادى، لذلك يرفض أية مفاهيم غيبية، بل يعتبرها مضادة للعقل.

ـ يتسم النموذج المعرفى للملاحدة بعشر **جوانب قصور** تُفقده موضوعيته، وتجعل مِن تبنى الإلحاد نتيجة لا بديل عنها. وهذه الجوانب هى؛ أنه **نموذج ذاتى متحيز** ضد الإله، وهو **نموذج مبنى على التحايل** إذ يتبنى أطروحات تفوق أشد أفلام الخيال العلمى شذوذًا وغرابة، وهو أيضًا **نموذج يُفرِز أيديولوجيات مدمرة** كالماركسية والعدمية واللامنطقية. ويقف **النموذج المعرفى الإلحادى على ساقين كسيحتين هما الفلسفة الوضعية المنطقية و مجادلة الشر والألم**، كما يتبنى عناصر ثلاثة (التعارض ـ المماثلة ـ الاحتمالية) **تجهض أية دراسة موضوعية لقضية الألوهية، ولا تسمح إلا بتبنى الإلحاد!!**

والنموذج المعرفى الإلحادى عاجز أمام أبسط الأسئلة التى يطرحها أبناؤنا عن مصدرنا ومآلنا، كما أنه يتبنى عددًا من المفاهيم المتضادة فيما بينها، ومن ثم **فهو نموذج يُكَذِّب ذاته**، وهو يجعل أنصاره عاجزين عن رؤية الحقيقة حتى لو كانت جَلِيَّة أمامهم، وفى النهاية **فهو نموذج معرفى يطمس الفطرة**.

ـ **تتكامل أمامنا** باستعراض النموذج المعرفى للإلحاد **دوافع الملاحدة لتبنى هذا الفكر، إنها منظومة** العوامل المجتمعية، والعوامل النفسية والشخصية والعقلية. وفى ضوء هذه العوامل

يقوم الملحد بتكوين النموذج المعرفى الإلحادى. ويتطلب ذلك قدرًا من الذكاء فوق المتوسط، ويمارس الشخص فى تكوينه حقه من الاختيار الحر.

وهكذا تتكامل النظرة إلى الإلحاد باعتباره «مشكلة نفسية»، **تختبئ خلف قناع الأسباب العقلية والمعرفية.**

تاسعًا: مواقف الملاحدة المُغلَنة

- أظهرت بعض الدراسات الميدانية أن **خسائر الردة** عن الدين تكون عادة كبيرة؛ تشمل تدهور العلاقة بالأسرة بشكل مؤلم، وفقدان البوصلة فى الحياة، والخوف من الموت، وافتقاد خدمات الكنيسة، وفقد الأصدقاء. ويعتقد المرتدون أنه قد تم **تعويضهم** عن هذه الخسائر بأن أصبحوا **أكثر تحقيقًا لذواتهم، وأكثر شعورًا بشخصياتهم وأكثر ثقة بالنفس**، وأصبحت عقولهم متفتحة وأكثر معرفة، كما أصبحوا أكثر قوة.

- **يرجع بقاء الدين منذ نشأة البشرية وحتى الآن إلى أنه يُشبع احتياجات الإنسان الرئيسة، خاصة النفسية والانفعالية، سواء كان الدين صوابًا أو خطأ، وهو ما لا يحققه العلم ولا الفلسفة.** كذلك فإن الدين هو القادر على الإجابة عن **الأسئلة الوجودية** التى يعجز أمامها العلم والفلسفة، مثل: مَن نحن؟ لماذا نحن هنا؟ ماذا بعد الموت؟ كيف نشعر بالأمان والحب؟ وهكذا....

ومن ثم فإن الدين هو الأقدر على التعامل مع المفاهيم الذاتية والنفسية والانفعالية والمعرفية، ومن ثم فهو يغنى حياتنا، بل يحكمها.

عاشرًا: الإلحاد فى بيوتنا

- إن دور المفاهيم والحجج العلمية فى مسيرة الإلحاد فى العالم الإسلامى عبر التاريخ قليل، خلافًا لما نرصده فى الإلحاد الغربى. وبدلًا من ذلك، تَشيع فى الإلحاد فى بلادنا **عوامل نفسية عديدة**، بعضها تربوى وبعضها يصب فى الرغبة فى التملص مما تفرضه الديانات من **التزام أخلاقى**، لذلك أحسبنى كنت مصيبًا حين أطلقت على الإلحاد المعاصر فى بلادنا اسم **«الإلحاد السفسطائى»**.

ـ نأخذ من تأملنا **للفكر الإلحادى فى بلادنا** عددًا من الدروس التى تفيدنا فى التعامل مع المد الإلحادى الحالى. وأهم هذه الدروس أن **للبنية النفسية للإنسان** دورًا كبيرًا فى التوجهات الإلحادية، **وأن للتنشئة والتربية والتعليم** دورًا كبيرًا أيضًا

ويُعتبر البحث عن الشهرة والتميز بمنطق «**خالف تعرف**» عامل مشترك بين الكثيرين. ويقـوم الإلحاد على المستوى العقلى على **خطأين كبيرين**، علينا أن نبذل جهدًا كبيرًا لمحوهما من عقول ونفوس الملاحدة. وهما: أن الإيمان الدينى فى كل حالاته أعمى، وأن العلم ليس فيه ذرة إيمان.

كذلك ينبغى **على الدعاة الإلمام بالخطوط العريضة** للفلسفات المادية وكيفية دحضها، وأيضًا الإلمام بالمفاهيم العلمية وكيفية استنباط الأدلة على الألوهية منها. وتُعتبر هذه النقلة الفكرية المرجوة من أهم جوانب **تجديد الفكر الدينى** التى ندعو إليها.

وينبغى التعامل مع الشكوك التى تعتمل فى نفوس البعض **بالرفق واللين والحوار**، وليس بالزجر والتأنيب. كما ينبغى **أن تمتد حرية الحوار إلى المجتمع كله**، فالآراء الصحيحة الصريحة الحرة هى القادرة على دحض حجج الإلحاد، وهذا هو المنهج الذى وجهنا إليه الله ﷻ فى القرآن الكريم: ﴿...قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة].

أحد عشر: مجادلة الحرية والحتمية

ـ تتركز أدلة الفلسفة على تمتع الإنسان بالإرادة الحرة فى دليلين، الأول هو **دليل الوعى**، حيث إن وعينا بحريتنا هو الشاهد الأول والرئيس فى هذه المجادلة. والدليل الثانى هو **الدليل الأخلاقى**، فمسئولية الإنسان عن أفعاله (اجتماعيًّا وقضائيًّا) أمر بديهى، بحيث أصبح القائلون بالحتمية يعارضون أبسط المفاهيم الأخلاقية المتفق عليها عالميًّا، بالرغم من أنهم يسلكون فى حياتهم تبعًا لمفهوم الإرادة الحرة!!

ـ لا تعنى حرية الإرادة **غياب السببية أو العشوائية**، فالإنسان العاقل يختار دائمًا ما يستشعر خيره أو صوابه، كما لا تعنى أن على الإنسان أن يبذل جهدًا واعيًّا فى الاختيار فى كل خطوة فى حياته، ولا تعنى كذلك أن اعتيادنا القيام ببعض الأفعال يُسقط المسئولية الشخصية.

- لقد فَنَّدَ العلم ما كان يدعيه الحتميون والجبريون من الحتميات الدينية والفيزيائية والتربوية والبيولوجية. لذلك أصبحت الإنسانية فى ظل العلم الحديث قد تحيا فى **عصر انهيار الحتميات.**

- بالرغم من بداهة القول بحرية الإرادة، فإن هذا المفهوم يمثل عند البعض مشكلة فلسفية، إذ تقابلنا عند تأمله قناعتان تبدوان صحيحتين وأيضًا متناقضتين بصورة مطلقة. تتبنى القناعة الأولى أن **كل حادث يقع فى العالم له مقدمات سابقة عليه، تسير فى سياق معين، وكافية لأن تحدد أن الحادث سوف يقع على هذا النمط.** وتتبنى القناعة الثانية، أننا فى الواقع **نمتلك إرادة حرة تعكس حرية إنسانية.** ويقبل معظم الفلاسفة المعاصرين الرأى القائل بتوافق أطروحة الإرادة الحرة مع أطروحة الحتمية، أى أن كلتا الأطروحتين صواب، ويُدعَى هذا الرأى **بالتوافقية** Compatibilism.

- لقد أثبت العلم أن «**الحرية أصيلة فى عالمنا**»، **إذا نظرنا إليها خارجنا رأيناها متمثلة فى لاحتمية ميكانيكا الكم**، وإذا نظرنا إليها داخلنا كانت هى **حرية الإرادة التى هى جوهر الذات الإنسانية**، فهى عنصر وجودنا الأول والأساسى.

اثنا عشر: العلم بين الحرية والحتمية

- يتبنى الكثيرون **مفهوم الحتمية اللينة** Soft Determinism الذى يُسَلِّم بوجود الحرية الإنسانية فى الاختيار مع تأثيرٍ للعوامل البيولوجية والبيئية والتربوية على اتخاذ القرار. وهذا المفهوم يمثل نوعًا من **النظرة التكاملية.**

- أيدت الأبحاث فى مجال علوم المخ والأعصاب نظرة علم النفس فى تمتع الإنسان بحرية الإرادة.

- فى **مجال بيولوجيا الخلية**، تم التخلص من مفهوم الحتمية الجينية، مما يضع مصير حياتنا فى أيدينا. ذلك بعد أن اكتشف العلم أننا قادرون على برمجة الخلية من خلال غشائها (عن طريق ظروفنا البيئية وحالتنا النفسية والروحية)، ومن ثم **فنحن سادة مصائرنا ولسنا ضحايا لجيناتنا.**

ـ فى عام ٢٠١٠ (ولمدة ٤ سنوات) مَوَّلَت مؤسسة تمبلتون مشروعًا يهتم بدراسة مجادلة الحرية والحتمية من وجهة نظر العلوم المختلفة، وقد نُشِرَت نتائج هذه الأبحاث عام ٢٠١٤. وقد أثبتت نتائج هذه الدراسة المستفيضة فى مجالات العلوم العصبية والنفسية والمجال الفلسفى وعلم الاجتماع **ما يتمتع به الإنسان من حرية إرادة واختيار. وبذلك قال العلم كلمته شبه النهائية فى مجادلة الحرية والحتمية.**

ثالث عشر: عبدٌ مُخَير

ـ يتبنى القرآن الكريم موقف حرية الاختيار الإنسانى، ولا شك أن مجموع اختيارات إنسان ما يبين فى حياته اتجاهه وعقيدته ودينه ومنهجه، ويضعه فى موضعه الذى يستحقه فى الآخرة. فاختيارنا دائمًا واحد من ثلاثة: إما أن يكون دائمًا ـ أو على الأكثر ـ **موافقًا لشرع الله وأمره**، يريد الآخرة ويسعى لها. وإما أن يكون دائمًا ـ أو على الأغلب ـ **منافيًا لشرع الله وأمره**، يريد الدنيا. والثالث عندما تكون اختياراتنا **وسطًا بين المعصية والطاعة**، أى نخلط عملًا سيئًا بآخر حسن، وهذا الأخير أجره إلى ربنا، يزن أعمالنا يوم القيامة ويحدد مصيرنا بالعدل والرحمة.

ـ **إن مفهوم الاختيار فى القرآن** هو شراء شىء بشىء ضده، أو استبدال شىء بشىء، أو استحباب شىء عن شىء، أو إيثار شىء على شىء، وكلها بمعنى واحد تقريبًا وهو **الاستغناء عن حياة فى سبيل الأخرى**، فالمؤمن يضحى بالدنيا فى سبيل الحصول على الآخرة، والكافر يضحى بالآخرة ويتناساها أو يغفلها استغناء عنها لتحصيل الدنيا، وهذا هو حقيقة الاختيار فى القرآن.

ـ لا يعنى اختيار الآخرة والحرص عليها ترك المؤمن للدنيا وإهمالها والسلبية حيالها، وإلا كان هذا المفهوم الخاطئ وازعًا ودافعًا ومُشَرِّعًا للخروج من الدنيا بالانتحار، أو التخلص من الجسد المادى تخلصًا مؤقتًا بالفناء أو بالشطحات الروحية سبيل الصوفية فى ذلك.

القارىء الكريم...

نختم هذه الدراسة التى بين يديك بأن نكرر ما ذكرناه فى بدايتها، من أن **العوائق الرئيسة** أمام الإيمان بالإله ليست **موضوعية (علمية أو منطقية)** فى معظم الأحيان، لكنها **ذاتية (نفسية – شخصية – اجتماعية)** فى المقام الأول، ومهما قدم المعارضون للإيمان من أسباب علمية ومنطقية لإلحادهم، فهى ليست إلا **قناعًا Persona** تختفى وراءه دوافعهم الذاتية الواعية وغير الواعية.

وبالرغم من العوامل الذاتية (النفسية ـ الشخصية ـ الاجتماعية) لقبول أو رفض الإيمان، فإن الإنسان يتمتع «**بالإرادة الحرة**» و«**القدرة على الاختيار**» فى أن يصير مؤمنًا أو ملحدًا، لذلك نجد أن بعض الأشخاص تبنوا توجهًا دينيًّا يخالف ظروف نشأتهم. وبالتالى فإن **الإنسان يملك القدرة على أن يخطو خطوته نحو الإله فى أى وقت.**

* * *

تعريف بالمؤلف

أ.د. عمرو عبد المنعم شريف

* من مواليد بورسعيد عام ١٩٥٠.

* **أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق** ـ كلية الطب ـ جامعة عين شمس. **مع التخصص الدقيق** فى جراحات الكبد والجهاز المرارى، ومناظير البطن، وجراحات الحوادث.

* حاصل على درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٤، ودرجتى الماجستير عام ١٩٧٨ والدكتوراه عام ١٩٨١ فى الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.

* عضو مؤسِّس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المرارى ـ بسويسرا.

* أُختير المدرس المثالى على مستوى جامعة عين شمس عام ١٩٨٤، والطبيب المثالى على مستوى الجمهورية عام ١٩٨٨.

* مفكر ومُحاضر فى موضوعات التفكير العلمى ونشأة الحضارات، والعلاقة بين العلم والفلسفة والعقل وبين الأديان.

* من مؤلفاته:

- كتاب «**أبى آدم: من الطين إلى الإنسان**»، طرح فيه مفهومًا جديدًا حول نشأة الإنسان عن طريق التطور الموجه.
- كتاب «**رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية**»، عرض فيه (من خلال فكر د. المسيرى) إيجابيات وسلبيات الحضارة المادية الحديثة، وأسوأها ظهور الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.
- كتاب «**المخ ذكر أم أنثى؟!**»، وتناول فيه الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وانعكاس ذلك على أسلوب تفكير ومشاعر وسلوك كل من الجنسين. وشاركه فى تأليف الكتاب د. نبيل كامل خبير التنمية البشرية.
- كتاب «**رحلة عقل**»، ويعرض فيه كيف يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، وذلك من خلال عرض الرحلة الإيمانية لأكبر ملحد فى القرن العشرين (أستاذ الفلسفة البريطانى، سير أنتونى فلو)، ثم يستكمل الكتاب الرحلة ليعرض البراهين العقلية الدالة على تواصل السماء بالأرض (الديانات).
- كتاب «**كيف بدأ الخلق**»، يعرض قصة خلق الكون ثم الحياة وتطور الكائنات الحية، وصولًا إلى الإنسان. ويقرأ قصة خلق الإنسان فى القرآن الكريم فى ضوء حقائق العلم.
- كتاب «**ثم صار المخ عقلا**»، ويتناول فيه دور المخ البشرى فى ملكات الإنسان العقلية ومشاعره الروحية، وهى أهم ما يتميز به الإنسان على غيره من الكائنات.
- كتاب « **أنا، تتحدث عن نفسها**»، ويتناول السمات المميِّزة للذات الإنسانية من منظور العلم والفلسفة والدين.
- كتاب «**وهم الإلحاد**»، لخص فيه تاريخ الفكر الإلحادي وأفكاره ومنهج رده. وقد صدر الكتاب كهدية مع مجلة الأزهر - عدد المحرم ١٤٣٥هـ.
- كتاب «**خرافة الإلحاد**»، فَصَّلَ فيه الفكر الإلحادى؛ نشأته وبنيته ومنهجه، وفَصَّل أسلوب دحضه والتصدى له.
- كتاب «**الوجود رسالة توحيد**»، وهو قراءة علمية للوجود (كتاب الله المنظور) نستجلى منه أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، تمامًا كما نستجليها من قراءة القرآن الكريم (كتاب الله المسطور).
- ترجم كتاب «**الطب المصرى القديم**» مع د. عادل وديع فلسطين، وهو أفضل كتاب فى موضوعه.

الإلحاد مشكلة نفسية

يقول حجة الطب النفسى الأستاذ الدكتور

أحمد عكاشة فى وصف هذا الكتاب وتقديمه للقارئ:

«منذ عامين، قَدَّم د. عمرو شريف للقراء كتابه القيم

المتميز «**خرافة الإلحاد**»، الذى فَنَّدَ به **الحجج الموضوعية**

(العقلية والعلمية) التى يبرر بها الملاحدة إلحادهم.

وبهذا الكتاب ـ غير المسبوق فى المكتبة العربية ـ يستكمل المؤلف

عرضه لقضية الإلحاد، من خلال معالجة **الخلفيات الذاتية غير الموضوعية** لهذه المشكلة.

لقد نجح د. عمرو شريف فى أن يجعل كتابه «**موسوعة علمية وفلسفية شاملة**» بمراجع موثقة، عن **الخلفيات النفسية والشخصية والاجتماعية لمشكلة الإلحاد**، وعن أهمية وضع هذه الخلفيات فى الاعتبار عند التصدى **لعلاج المشكلة بالمناقشة العقلانية**. وقد أثبت المؤلف بوضوح **أن الأسباب الموضوعية التى يعلنها الملاحدة لإلحادهم ليست ـ فى معظم الأحيان ـ إلا (القناع Persona) الذى تتخفى وراءه دوافعهم الذاتية.**

إننى أرى فى هذا الكتاب **إضافة علمية قيمة** لمشكلة الكثيرين، سواء مع الإيمان أو الإلحاد. وأنصح بدراسته كلَّ من يريد الاستفادة من **مجادلة التأرجح بين الشك واليقين** وأيضًا بين الإيمان والإلحاد، فعلينا تحمل قدرًا من هذا التأرجح من أجل الوصول للإيمان الصحيح، وأيضًا من أجل تحقيق الصحة النفسية».

د. أحمد عكاشة

ISBN: 9789776519039

9789776519039

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

تصميم الغلاف: شريف عبدالله